

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

فيصروالمسيح
أو
الحضارة الرومانية

ترجمة
محمد بدران

الجزء الثاني من المجلد الثالث



تونس

١٠



بيروت

الكتاب الثالث

الزعامة

٣٠ ق. م - ١٩٢ ب. م

جدول مسلسل للحوادث التاريخية

ق . م	
٣٠ -	أكتافيان تخلع عليه سلطة تربيونية مدى الحياة : كتاب الهجو الثاني لهوراس
٢٩ -	كتاب Geogics لفرجيل . وكتاب Epodes لهوراس .
٢٧ -	أكتافيان يصبح أغسطس (العظيم)
٢٧ -	٦٨ ب . م الأسرة البولية - الكلودية
٢٧ -	١٤ ب . م ، زعامة أغسطس
٢٥ -	بنثيون أجريا ، تيبولس
٢٣ -	الكتب الثلاثة الأولى من أغاني هوراس
٢٠ -	الكتاب الأول من رسائل هوراس
١٩ -	موت فرجيل ، " پروپرتيوس
١٨ -	قانون لوليا الخاص بالزنى
١٣ -	ملهى مرسلس ؛ الكتاب الرابع من أغاني هوراس
١٢ -	٩ حملات دروسس في ألمانيا ؛ تيبيريوس يخضع بانونيا
٩ -	ليثي ، Ara Pacis لأغسطس
٨ -	موت ماسناس وهوراس
٦ -	تيبيريوس في رودس
٢ -	نفي يوليا
٤ ب . م -	أغسطس يتبنى تيبيريوس
٨ -	أوفد ينفي في تومي
٩ -	هزيمة فارس في ألمانيا ؛ Lex Poppaeo & Lex Lulia de maritandis ordinibus
١٤ -	موت أغسطس
١٤ -	٣٧ زعامة تيبيريوس
١٤ -	١٦ چرميكوس وتيبيريوس في ألمانيا
١٧ -	١٨ چرميكوس في الشرق الأدنى
١٨ -	موت أوفد
١٩ -	موت چرميكوس ؛ محاكمة پيزو
٢٠ -	Lex maiestalia ؛ نشأة الخبرين
٢٣ -	٣١ حكم سيجانوس
٢٧ -	ميبيريوس يستقر في كبريا
٢٩ -	موت نيڤيا ، نفي أجربينا

ق . م	
٣٠ -	سلسن صاحب الموسوعة
٣١ -	موت سجانوس
٣٧ -	٤١ زعامة جاموس (كالجولا)
٤١ -	٥٤ زعامة كلوديوس
٤١ -	٤٩ نفى سنكا
٤٣ -	فتح بريطانيا
٤٨ -	موت مسالينا ؛ كلوديوس يتزوج أجريينا الصغرى
٤٩ -	سنكا يعين پريتورا وربيا لنرون
٥٤ -	٦٨ زعامة نرون
٥٥ -	سنكا على de Clementia على نرون . تيرو يسم بريطانيا نيكوس ،
٥٩ -	نرون يأمر بقتل أمه أجريينا
٦٢ -	سقوط سنكا ؛ موت پرسیوس ؛ نرون يقتل أكتافيا ويتزوج پوپيا
٦٤ -	حرق رومة ؛ أول اضطهاد المسيحيين في رومة .
٦٥ -	إعدام سنكا ولوكان
٦٦ -	موت پترونيوس وثرانيا پتيس
٦٨ -	٦٩ زعامة جلبا
٦٩ -	(من يناير إلى إبريل) زعامة أثو
٦٩ -	(من يوليه إلى ديسمبر) زعامة فيتليوس
٦٩ -	٢٩٦ زعامة فسپازيان
٢٧٠ -	الكلوسيوم ؛ كورنثيان يشغل منصب الأستاذ الأول في الدولة
٧١ -	فسپازيان ينفى انفلاسة
٧٢ -	انتحار هلفيديوس پرسكس
٧٩ -	٨١ زعامة تيتس
٧٩ -	ثوران بركان فيزوف ، موت پلنى الأكبر
٨١ -	٨١ عقد تيتس
٨١ -	٩٦ زعامة دومشيان ؛ مارشالى واستاثيوس
٨١ -	٨٤ حروب أجركولا في بريطانيا
٩٣ -	اضطهاد اليهود والمسيحيين والفلاسفة
٩٦ -	٩٨ زعامة نرقا
٩٨ -	٩٨ تاستس يعين قنصلا
٩٨ -	١١٧ زعامة تراچان
١٠١ -	١٠٢ حرب تراچان الأولى ضد الداشرين
١٠٥ -	توارىخ تاستس

ق . م

- ١٠٥ - ١٠٧ حرب تراچان الثانية ضد الداشيين
١١١ - بلنى الأصغر يعين مشرفاً على بيشليا
١١٣ - السوق وعمود تراچان
١١٤ - ١١٧ حملة نراچان على بارثيا
١١٦ - حوليات تاستس ؛ أهاجى چوئثال
١١٧ - ١٣٨ زعامة هدریان
١١٩ - «حيوات القياصرة» لسيوثنىوس
١٢١ - ١٣٤ طواف هدریان بالإمبراطورية
١٣٤ - سلفىوس چليانوس ، مشرع
١٣٨ - ١٦١ زعامة أنطونينس بيوس
١٣٩ - ضريح هدریان
١٦٠ - ١٨٠ زعامة ماركس أوليوس أنطونينس
١٦٠ - ١٦٩ اشتراك لوسيوس فيرى فى الحكم
١٦٠ - كتاب النظم *Institutione* للحيوس
١٦٠ - ١٦٥ الحرب على بارثيا
١٦٦ - ١٨٠ حرب المركاتى
١٧٤ - ماركس يكتتب «التأملات»
١٧٥ - عصيان أفديوس كاسيوس
١٨٠ - وفاة ماركس أورليوس
١٨٠ - ١٩٢ زعامة كدوس
١٨٣ - مؤامرة لوسلا
١٨٥ - إعدام برنيز
١٨٩ - القحط ؛ إعدام كليندر
١٩٠ - پرتناكس ، عريف
١٩١ - أول يناير : اغتيال كدوس

الباب الحادى عشر

مواهب أغسطس السياسية

٣٠ ق . م - ١٤ ب . م

الفصل الاول

فى الطريق إلى الملكية

انتقل أكتافيان من الإسكندرية إلى آسية وواصل فيها توزيع الممالك والولايات. ولم يصل إلى إيطاليا إلا فى صيف عام ٢٩ ق . م . ولم تكذب بقى طبقة من طبقات الأهلين فيها لإلاحيته واحتفلت بمقدمه ؛ وعدته منقذ البلاد ، واشتركت فى موكب النصر الذى دام ثلاثة أيام متوالية . وأغلق هيكل يانوس إشارة إلى أن إله الحرب قد نال كفايته إلى حين ، فقد أنهكت الحرب الأهلية التى دامت عشرين عاما شبه الجزيرة التى كانت تشتفى الحرب وتتعطش للدماء . وفى هذه الفترة أهملت المزارع ونهبت المدن أو ضرب عليها الحصار ، وسرق الكثير من ثروتها أو دمر تدميرآ ، وتحطم دولا ب الإدارة ووسائل الدفاع عن النفس والمال ؛ وجعل اللصوص الشوارع كلها غير مأمونة خلال الليل ، وكان قطاع الطريق يجوبون المسالك يخطفون المسافرين ويبيعونهم بيع الرقيق . وكان من أثر هذا أن كسدت التجارة ، ووقفت حركة الاستثمار ، وارتفعت فوائد الديون ارتفاعآ فاحشآ ، ونقصت قيمة الأملاك . ولم يكن للفاقة والفوضى أثر فى تحسين الأخلاق التى انحلت بسبب الثروة والترف ؛ ذلك أنه قلما توجد ظروف أشد إفسادآ للأخلاق من الفقر الذى يعقب الغنى ، ولذلك امتلأت رومة بالرجال

الذين فقدوا مركزهم الاقتصادي وخسروا ائزائهم الأخلاق : من جنود ذاقوا طعم المغامرات وتعلموا فنون القتيل ؛ ومواطني أبصروا بأعينهم مدخراتهم تلتهمها الضرائب الفادحة وتضخم العملة وهما من مستلزمات الحروب ، وكانوا ينتظرون أن يحدث حادثاً ما ينتشلهم من الوهدة التي تردوا فيها ويبعد إليهم الثراء والنعم ؛ ومن نساء ذهبت الحرية بعقولهن فكثر بينهن الطلاق والإجهاض والزنى ؛ وانتشر العمق لضعف الرجولة وأخذت السفسطة الضحلة تفخر بنزعها المتشائمة الساخرة :

على أن هذا الوصف لا يحمل إلى القارئ صورة كاملة لرومة في ذلك الوقت ، بل يجب أن يضاف إليه وباء فتاك ينخر عظامها وتسرى جراثيمه في دماها . فقد عادت القرصنة إلى البحار ، وكانت تزداد بهجة وسروراً كلما تدهورت الولايات وأشرفت على الدمار . وسغبت المدن والولايات لما توالى عليها من الابتزاز والنهب في أيام صلا ، ولوكلس ، وميبي ، وجابنيوس ، وقيصر ، وبروتس ، وكاسيوس ، وأنطونيوس ، وأكتافيان . وحل الخراب ببلاد اليونان التي كانت ميداناً للقتال ، ونهبت أموال مصر وأرزاق أهلها ، وأطعم الشرق الأدنى مائة جيش ورشا ألف قائد ؛ وكان أهله يبغضون رومة أشد البغض لأنها هي السيد الذي قضى على حريتهم دون أن يعوضهم عنها أمناً أو سلاماً ؛ وكانوا يتطلعون إلى زعيم يقوم بينهم ، فيكشف عما تعانيه إيطاليا من ضعف وخور ، ويجمع شتاتهم ويقودهم في حرب يتحررون بها من ميطرة رومة .

وكان في وسع مجلس الشيوخ القوي في يوم من الأيام أن يواجه هذه الأخطار ، فيعبي الفياتي الضخمة ، ويجدها القادة المهرة ، ويمدهم بمكنكته وكفايته السياسية البعيدة النظر . أما الآن فلم يبق من مجلس الشيوخ إلا اسمه ، فقد انقرضت الأسر التي كان يستمد منها القوة ، وقضى عليها النزاع الطويل أو العقيم ، ولم تنتقل تقاليد الحكم التي كانت تمتاز بها هذه الأسر إلى رجال

الأعمال وإلى الجنود وأهل الولايات الذين خلفوها في المجلس الجديد . ومن أجل هذا فقد أسلم هذا المجلس معظم ما كان له من سلطان إلى رجل في وسعه أن يرسم الخطط ، ويتم حمل التبعات ، ويقود ، وأسلمها إليه وهو شاكر ومغتبط ، وتردد أكتافيان طويلا قبل إلغاء هذه الهيئة القديمة ، وبصوره ديو كاسيوس Dio Cassius ، وهو يبحث المسألة بحثاً مفصلاً مع مانسيناس وأجريا ، فيقول إنهم كانوا يرون أن الحكومات كلها حكومات أجزائية ، ولذلك فإن المشكلة المعروضة أمامهم لم تكن مشكلة الاختيار بين الملكية ، والأريستقراطية ، والديمقراطية ؛ بل كان عليهم أن يقرروا : هل تضطرهم ظروف الزمان والمكان أن يفضلوا الأجزائية في صورة الملكية المعتمدة على الجيش ، أو في صورة الأريستقراطية المتأصلة في الوراثة ، أو في صورة الديمقراطية التي تعتمد على ثروة طبقة رجال الأعمال ؟ وقد وفق أكتافيان بينها كلها في « زعامة امتزجت فيها نظريات شيشرون وسابقات بيبى وسياسات قيصر » .

وقبل الشعب هذا الحل قبول الفلاسفة ؛ ذلك أنه لم يعد حريصاً على الحرية مولعاً بها . بل كان قد مل الفوضى وتاقت نفسه إلى الأمن والنظام ، وكان يرضى أن يحكمه أى إنسان يضمن له الخبز والألعاب . وأدرك إدراكاً يكتنفه الغموض أن صعوبات السمجة التي يتغلغل فيها الفساد ويمزقها العنف ، لا تصلح لحكم الإمبراطورية ، ولا تستطيع إعادة الحياة إلى إيطاليا المريضة ، بل أنها لا تستطيع أن تحكم مدينة رومة نفسها . هذا إلى أن الصعاب التي تكتنف الحرية تتضاعف كلما اتسعت رقعة الأراضي التي تعتقها . فلما لم تعد رومة دولة لا تشمل أكثر من مدينة واحدة دفعها النظام الإمبراطوري دفعاً إلى أن تحذو حذو مصر وفارس ومقدونية ولم يكن في وسعها أن تقاوم هذا الدفع الشديد ، وكان لابد أن تقوم على أنقاض الحرية ، التي استحالت فردية وفوضى ، حكومة جديدة تضع للدولة المترامية الأطراف نظاماً جديداً . وكان عالم البحر الأبيض المتوسط كله عالماً

مختل النظام ، مترامياً تحت قدمى أكتافيان ، ينتظر منه أن يبسط عليه الحكم الصالح .

ونجح أكتافيان فيما أخفق فيه قبصر لأنه كان أكثر من قبصر صبراً ، وأوسع منه حيلة ، ولأنه كان يفهم فن الألفاظ والأشكال ، ويرضى أن يسير سيراً وثيداً حذراً فى المواقف التى اضططر فيها عمه العظيم لضيق وقته أن يخرج على التقاليد المريعة ، ويحدث فى نصف عام من حياته من التغييرات ما يتطلب جيلاً كاملاً . وفوق هذا فقد كان المال موفوياً لدى أكتافيان . ويقول سوتنيوس إنه لما جاء بكنوز مصر إلى رومة « كثرت فيها النقود كثرة انخفض معها سعر الفائدة » من اثنى عشر إلى أربعة فى المائة ، و « ارتفعت قيمة الأملاك الثابتة ارتفاعاً عظيماً » . وما كاد يتضح للناس أن حقوق الملكية قد عادت إليها قدسيتهما وأن أكتافيان قد فرغ من أحكامه على أعدائه ومن مصادرة الأملاك ، حتى خرجت الأموال من مخابثها وعاد الاستثمار سيرته الأولى ، وراجت التجارة ، وأخذت الثروة تتجمع من جديد ، وتسرب بعضها إلى جيوب العمال والأرقاء . ولشد ما اغتبطت جميع الطبقات فى إبطالها بعد أن عرفت أن تلك البلاد ستبقى هى المستمتعة بخبرات الإمبراطورية ، وأن رومة ستظل عاصمتها ، وأن خطر نهضة الشرق وبعثه قد زال إلى حين ، وأن ما كان يحلم به قبصر من قيام اتحاد من أمم حرة متساوية فى الحقوق لم يسفر إلا عن العودة فى هدوء إلى امتيازات الشعب المفضل صاحب السيادة .

وكان أول ما فعله أكتافيان بالأموال الجمة التى انتهبا أن وفى بما عليه لجنوده من الديون . وقد استبقى فى الخدمة منهم مائتى ألف رجل أقسم كل واحد منهم يمين الولاء له شخصياً ، وسرح الثلاثة ألف الباقين بعد أن أقطع كلا منهم مساحة من الأراضى الزراعية ونفحة بهبة مالية سخية . ووزع الهدايا الثمينة على قواده وأنصاره وأصدقائه ، وكثيراً ما كان يسند العجز الذى يحدث فى الخزانة

العامة عن ماله الخاص . وكان إذا رأى ولاية من الولايات حل بها الضنك بسبب الأحوال السياسية أو الطوارئ الطبيعية أعفاها من خراج العام ، وبعث إليها بالمال الكثير لإنقاذها مما تعانيه . وألغى جميع المتأخر من الضرائب على أصحاب الأملاك ، وأحرق علناً السجلات التي تثبت ما عليهم للدولة من الديون ، وأدى من أموال الدولة ثمن ما يوزع من الغلال على المحتاجين ، وأقام الألعاب للشعب على نظام واسع ، وقدم المال لجميع المواطنين . ثم شرع في إنامة المنشآت العامة ليقضى بذلك على التعطل ويحمل رومة ، وأنفق على هذه الأعمال من أمواله الخاصة ، فلا غرابة بعد هذا إذا نظرت إليه الأمة نظرتها إلى إله معبود .

وبينا كانت هذه الأموال الطائلة تنسرب من يديه كان هذا الإمبراطور المتواضع يعيش عيشة بسيطة خالية من مظاهر العظمة ، ويتجنب ترف النبلاء ، ومتع المنصب وأهنته ، يرتدى الأثواب التي تنسجها له النساء في بيته . وينام على الدوام في حجرة صغيرة في الدار التي كانت من قبل قصر هورتنسيوس . ولما احترق هذا القصر بعد أن أقام فيه ثمانية وعشرين عاماً ، أقام له قصرأ جديداً على نظام القصر القديم ، وكان ينام في نفس الحجرة الضيقة التي كان ينام فيها من قبل . وكانت متعته الوحيدة أن يفر من الشئون العامة بركوب زورق تدفعه الرياح دفعاً بطيئاً على طول ساحل كميانيا .

واستطاع على مر الوقت أن يقتنع مجلس الشيوخ والجمعيات الوطنية ، أو أن يتفضل بالسباح لها ، بأن تخلع عليه السلطات التي جعلته في مجموعها ملكاً في كل شيء إلا في الاسم وحده . وقد احتفظ على الدوام بقباب إمبراطور imperator بوصفه القائد الأعلى لجميع القوات المسلحة في الدولة . وإذا كان الجيش قد بقى معظمه خارج حدود العاصمة على الدوام ، وخارج حدود إيطاليا في معظم الأحوال ، فقد كان في وسع المواطنين أن ينسوا ، وهم يمارسون جميع المراسم الشكلية للجمهورية الميتة ، أنهم يعيشون في كنف حكومة ملكية

عسكرية تخفى منها مظاهر القوة طالما كانت الألفاظ كافية للحكم . واختير أكتافيان قنصلا في عامى ٤٣ و ٣٣ وفى كل عام من الأعوام المحصورة بين ٣١ ، ٢٣ . وخلعت عليه فى أعوام ٣٦ ، ٣٠ ، ٢٣ سلطات التربيون فكسب بذلك طول حياته الحصانة التى يتمتع بها التربيون ، وأصبح له حق وضع القوانين وعرضها على مجلس الشيوخ أو الجمعية ، وحق الاعتراض على أعمال كل موظف فى الحكومة ووقفها . ولم يعترض أحد على هذه الدكتاتورية المحبوبة ، ذلك أن رجال الأعمال الذين امتلأت خزائهم أيام السلام والشيوخ الذين امتلأت خياشيمهم برائحة غنائم أكتافيان المصرية ، والجنود المدينين لكرمهم بأرضهم أو مراكرهم ، وكل من عادت عليهم بالنفع قوانين قبصر ، ومناصبه ووصيته - كل هؤلاء كانوا يقولون ما يقوله هومر من أن حكومة الفرد خير أنواع الحكومات كلها ، أو أنها فى القليل خيرها إذا كان هذا الفرد كأكتافيان حر التصرف فى أمواله ، وإذا كان فى مثل جده وكفايته ، وإذا كان مثله يبين الإخلاص لخبر البلاد .

ولما كان رقيباً مع أچربا فى عام ٢٨ أجرى إحصاء عاماً للسكان ، وأعاد النظر فى عضوية مجلس الشيوخ ، فأنقص عدد الأعضاء إلى ستمائة عضو ، ولقب هو نفسه مدى الحياة بلقب « زعيم الشيوخ » *princeps senatus* . هذا اللقب فى بادئ الأمر « الأول فى ثبت أعضاء مجلس الشيوخ » ، ثم ما لبث أن أصبح معناه « الزعيم » بمعنى الحاكم كما أصبح معنى لفظ *imperator* بعد أن خلع هذا اللقب على أكتافيان هو إمبراطور *emperor* بالمعنى الذى يفهم من هذا اللفظ فى هذه الأيام . ويسمى التاريخ بحق حكومته وحكومة خلفائه مدى قرنين من الزمان بحكومة « الزعامة » ولا يسميها الحكومة الملكية بالضبط ، وذلك لأن الأباطرة "emperors" كانوا يعترفون - نظرياً على الأقل - بأنهم لم يكونوا إلا زعماء (*principes*) مجلس الشيوخ . وأراد أكتافيان أن يجعل مظهر سلطته الدستورية أروع من ذى قبل ، فزل فى

عام ٢٧ عن جميع مناصبه ، وأعلن عودة الجمهورية ، وصرح برغبته (وهو في الخامسة والثلاثين من عمره) باعتزال الحياة العامة . وأكبر الظن أن هذه المسرحية قد أعدت من قبل ؛ فقد كان أكتافيان من أولئك الرجال الحذرين الذين يعتقدون أن الأمانة خير أساليب السياسة ، بشرط أن تمارس في حكمة وحسن تدبير . ومهما تكن حقيقة هذا الأمر فقد قابل مجلس الشيوخ نزول أكتافيان عن حقوقه بنزوله هو أيضاً عماله من حقوق ، وتوسل إليه أن يظل هادياً للدولة ومصرفاً لأموالها ، ومنحه لقب أغسطس وهو اللقب الذى أخطأ المؤرخون فحسبوه اسمه . ولم يكن هذا اللفظ يستعمل من قبل إلا في وصف الأشياء والأماكن المقدسة وبعض الأرباب المدعة أو المكثرة (ومعنى أوجير Augere باللاتينية «يزيد») ؛ فلما أن أطلق على أكتافيان خلع عليه هالة من القداسة وحياه بحماية الدين والآلهة .

ويلوح أن سكان رومة قد بدأ لهم زمناً ما أن «عودة» الجمهورية كانت عودة حقيقية ، وأنهم استعادوها فعلاً في نظير صفة خلعوها على أكتافيان . ولم لا ؟ ألا يزال مجلس الشيوخ والجمعيات هي التي تسن القوانين ، وتختار كبار الحكام ؟ إن أحداً لا ينكر ذلك وكل ما يفعله أغسطس وعماله هو أن «يقترحوا» القوانين و«يرشحوا» أرباب المناصب الهامة . وكان أكتافيان بوصف كونه إمبراطوراً وقنصلاً يسيطر على الجيش والخرانة ، وينفذ القوانين ، وكان بفضل امتيازاته التريبونية يشرف على كل ما عدا ذلك من أعمال الحكومة . ولم تكن حقوقه أوسع كثيراً من حقوق بركليز pericles أو بيمبي أو أى رئيس نشيط من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية . ولكن الفرق كله أن سلطاته هو كانت دائمة . وقد استقال في عام ٢٣ من القنصلية ، ولكن مجلس الشيوخ منحه وقتئذ «سلطات القنصل» وإن لم يبق له اسمه ، فجعله بذلك المسيطر على الموظفين جميعهم في الولايات كلها .

ولم يعترض أحد على ذلك في هذه المرة أيضاً ؛ بل حدث عكس هذا .

وذلك أنه لما لاح خطر نقص الحبوب حاصر الشعب مجلس الشيوخ ، وأخذ يطالب بجعل أغسطس دكتاتوراً . وكان سبب ذلك أنهم قد ساءت أحوالهم في عهد الحركة مجلس الشيوخ إلى حد جعلهم يميلون إلى الدكتاتورية التي ستخطب ودهم في زعمهم لتقضى بذلك على سلطان الأغنياء . وأبى أغسطس أن يقبل هذا العرض ولكنه وضع الأنونا Annona أو موارد الطعام تحت سلطانه ، وقضى على خطر القحط في أقرب وقت ؛ وحمد له الشعب عمله هذا حمداً جعل رومة ترتاح أشد الارتياح حين أقدم على تعديل نظم الدولة على النحو الذي رسمه لها في ذهنه .

الفصل الثاني

النظام الجديد

والآن فلندرس حكومة الزعامة ببعض التفصيل لأنها كانت في كثير من نواحيها من أعظم الأعمال السياسية في التاريخ ومن أكثرها دقة .

لقد جمع الزعيم في يده كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ؛ فكان من حقه أن يقترح القوانين على الجمعيات أو على مجلس الشيوخ ويعرض المراسيم ؛ وكان في وسعه أن ينفذها وأن يفرضها بالقوة إذا شاء ، وأن ينشرها ويعاقب الخارجين عليها . ويقول سوتونيوس إن أغسطس كان يجلس مجلس القاضى بانتظام وإن مجلسه كان يدوم في بعض الأحيان حتى يحن الليل « وكان يأمر بوضع محفة فوق المنصة يلجأ إليها إذا أصابته وعكة ... وكان رجلاً حى الضمير ليناً في أحكامه إلى حد كبير » وإذا كان قد أُلقيت عليه تبعة مناصب كثيرة فقد شكل له مجلساً غير رسمى من المستشارين أمثال ماسناس ، ومن المنفذين لقراراته أمثال أجربا ، ومن القواد أمثال تيبيريوس ، كما أنشأ له هيئة من صغار الكتبة وعمال الإدارة البيروقراطية معظمهم من أرقائه ومعانيقه .

وكان كيس ماسناس من أثرياء رجال الأعمال ، وكان قد قضى نصف حياته يساعد أغسطس في الحرب والسلام وفي أعماله السياسية الداخلية والخارجية ، وساعده أخيراً على الرغم منه في مغامراته النسائية . واشتهر قصره العائم على تل الأكولين بجذائقه الغناء وبركة استجابه ذات الماء المسخن . وكان أعداؤه يصفونه بأنه شخص . مخنث أبيقورى لأنه كان يتباهى بلبس الحرير والتحلل بالجواهر ، وأنه يعرف كل ما يعرفه المنبسطان الرومانى . وكان يستمتع بالأدب والفن ويناصرهما بكرم وسخاء ، وقد أعاد إلى فرجيل ضيعته ووهب هوراس ضيعة

أخرى . وكان هو الموحى بكتابي الجورجيين Georgics والأناشيد . ولأنى أن يشغل أى منصب من المناصب العامة ، مع أنه كان فى وسعه أن يحصل منها على أى منصب يريده إلا القليل . وقد ظل سنين طويلا يجهد نفسه فى بحث مبادئ السياسة الخارجية ووقائعها ، وبلغ من شجاعته أن كان يعنف أغسطس إذا ظنه قد وقع فى خطأ موبق . ولما مات (فى عام ٨ ق . م) حزن عليه الزعيم وعد موته خسارة لا تعوض .

ولعل أغسطس (وأصله من الطبقة الوسطى ولم يكن يحتقر التجارة كما يحتقرها الأشراف) كان يعمل بمشورته حين رشح كثيرين من رجال الأعمال للمناصب الإدارية الكبرى وإلى حكم الولايات نفسها . ولما تدمر مجلس الشيوخ من هذه البدعة ، استرضاه بأشياء كثيرة : فمنح بعض لجانته سلطات استثنائية ، وجمع حوله مجلساً من الزعماء المستشارين مؤلفاً من حوالى عشرين رجلاً كلهم تقريباً من الشيوخ ، وأصبح لقرارات هذا المجلس على مدى الأيام ما لقرارات مجلس الشيوخ نفسه من قوة ، وكانت سلطاته واختصاصاته . تزداد كلما ضعفت سلطات مجلس الشيوخ ، ونقصت اختصاصاته . لكن مجلس الشيوخ لم يكن إلا أدواته العليا على الرغم مما كان يفتقد عليه من ضروب العطف والجمالة .

وقد استخدم حقه بوصفه رقيباً فأعاد النظر فى عضويته أربع مرات ، وكثيراً ما استخدم حقه فى طرد بعض أعضائه منه لعجزهم عن القيام بالأعمال الرسمية أو لسوء سلوكهم الشخصى ، وقد رشح هو نفسه معظم أعضائه الجدد ، وكان من دخلوه من الكوسترين والبريتوزين والقناصل بعد انقضاء المدة المحددة لتوليهم مناصبهم ، كانوا كلهم ممن اختارهم هو أو ممن وافق على اختيارهم . وقد حشد فى هذا المجلس أغنى رجال الأعمال فى إيطاليا وانضمت الطبقتان إلى حدهما فى ذلك الائتلاف الذى هيأته لهما سيطرتهما المتحدة التى اقترحها شيشرون فى الأيام الحالية . وبذلك وقفت قوة المال فى وجه كبرياء المولد وامتيازاته ، كما وقفت

الأرستقراطية الوراثية في وجه مساوئ الثروة وأعمالها التي لا تتحمل لها تبعه .

واقترنت اجتماعات مجلس الشيوخ ببناء على اقتراح أغسطس على اليومين الأول والخامس عشر من كل شهر ، ولم يكن اجتماعه يدوم في العادة أكثر من يوم واحد . وإذ كان الذين يرأسون اجتماعه هم « زعماء الشيوخ » فإنه لم يكن يستطيع عرض أى اقتراح عليه بغير موافقته ، والحق أن كل اقتراح يعرض عليه كان يعده من قبل هو أو أعوانه . وأصبحت اختصاصات المجلس القضائية والتنفيذية وقتئذ أهم من اختصاصاته التشريعية ، فكان بمثابة محكمة عليا ، وكان يحكم إيطاليا بوساطة بلخان ، ويوجه أعمال الأشغال العامة المختلفة . وكان يحكم الولايات التي لا تحتاج إلى إشراف عسكري كبير ، ولكن الزعيم هو الذى كان يشرف على العلاقات الخارجية . ولما جرد المجلس هذه الطريقة من سلطاته القديعة أهمل هو نفسه اختصاصاته الضيقة نفسها وصار يتخلى باستمرار عن كثير من التبعات للإمبراطور وموظفيه .

وظلت الجمعيات تعقد جلساتها ، ولكن عدد هذه الجلسات أخذ يقل شيئاً فشيئاً ؛ وظلت تقترح ولكنها لم تكن تقترح إلا على المشروعات أو الترشيحات التي يوافق عليها الزعيم ، وقضى على حق العامة في تولى عليه المناصب أو كاد يقضى عليه في عام ١٨ ق . م حين صدر قانون يقصر تولى هذه المناصب على الرجال الذين تبلغ قيمة أملاكهم أربعائة ألف سترس (٦٠,٠٠٠ ريال أمريكى) أو أكثر (٢) . ورشح أغسطس نفسه للعضوية ثلاث عشرة مرة ، وسعى لنيل أصوات الناخبين كما كان يسعى غيره من المرشحين ؛ ونزل بذلك من عليائه للاشتراك في المسرحية التي كانت تمثل فصولها على مسرح السياسة الرومانية . وقد عمل على منع الرشا في الانتخابات بأن طلب إلى كل مرشح أن يودع قبل عملية الانتخاب مبلغاً من المال ضماناً منه بأنه لن يلجأ إلى الرشوة (٣) . بيد أن أغسطس نفسه وزع في وقت من الأوقات ألف سترس على كل عضو ناخب

في قبيلته حتى يضمن بذلك صحة أصوات القبيلة^(٤). وظل القناصل والتربيونون ينتخبون حتى القرن الخامس بعد الميلاد^(٥). غير أن المنصبين أصبحا بعد أن آلت معظم حقوقهما إلى الزعيم منصبين إداريين لا تنفيذيين، ثم انتهيا إلى أن صارا منصبى شرف لا أكثر.

أما حكم رومة الفعلى فقد وضعه أغسطس في أيدي موظفين إقليميين. يتقاضون مرتبات من الدولة وتساعدهم في عملهم شرطة مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل يرأسها « كبير الشرطة البلدية Praefectus urbi ». فضلا عن هذا فقد وُضع ست كتائب قوام كل منها ألف جندي بالقرب من رومة، وثلاث كتائب في داخلها ليضمن بذلك استتباب النظام من النوع الذى يريده. ليؤيد بها سلطانه، وإن كان قد اعتدى بهمله هذا على جميع السوابق أشد الاعتداء. وأصبحت هذه الكتائب فيما بعد هى الحرس البريتورى، أى حرس البريتورىوم Praetorium أو مقر القائد الأكبر. وهذه الفرق هى التى جعلت كلوديوس إمبراطوراً في عام ٤١ ب. م، وهى التى بدأت عملية إخضاع الحكومة للجيش.

ثم امتدت عناية أغسطس الإدارية من رومة إلى إيطاليا وإلى الولايات الخارجية. فمنح حق المواطنة الرومانية أَوْ حق الانتخاب الضيق المعروف « بالحقوق اللاتينية » لجميع العشائر التى اشتركت في تحمل أعباء الحرب على مصر. ثم أعان المدن الإيطالية بما نفحها به من هبات، وزينها بالمباني الجديدة، وابتكر طريقة تمكن أعضاء مجالسها من إعطاء أصواتهم في انتخاب الجمعيات في رومة بطريق البريد. ثم قسم الولايات فثنين: أولاهما ما تحتاج إلى دفاع جدى والثانية ما كانت في غير حاجة إلى هذا الدفاع. فأما الثانية (وكانت تشمل صقلية، وسيكيا، وغالة النربونية، ومقدونية، وآخية، وآسية الصغرى، وبوئينيا، وبنطس، وقبرص، وكريت، وقورينة، وأفريقية الشمالية، فقد وضع حكمها في يد مجلس الشيوخ. أما الثانية — وهى الولايات الإمبراطورية —

فكان يحكمها سفراؤه ، ووكلاؤه أو رؤساء حرسه . وقد أمكنه هذا النظام
البديع من أن يحتفظ بسيطرته على الجيش ، الذى كان يقيم معظمه فى الولايات
« المعرضة للخطر » . هذا إلى أنه وضع فى يده موارد مصر الغنية وأمكنه
من أن يراقب الحكام المعينين من قبّل مجلس الشيوخ بأعين وكلائه الذين
كان يعيّنهم لحماية الخراج من الولايات جميعها بلا استثناء . وكان كل حاكم
يتقاضى فى أيامه مرتباً محدوداً ، وبذلك قادت رغبته إلى جد ما فى ابتزاز
المال من أهل الولاية التى يحكمها . وكان إلى جانب الوالى هيئة من الموظفين
المدنيين تساعد على دوام الاتصال فى الأعمال الإدارية وتمنع إلى حد ما
رؤساءهم الموقتين من الإقدام على الأعمال غير المشروعة .

أما أقيال الدول التى كانت خاضعة لنفوذ رومة فكانوا يعاملون
معاملة طيبة حكيمة ، وظلوا بسببها موالين لأغسطس كل الولاء ، وقد
أقنع الكثيرين منهم بأن يرسلوا إليه أبناءهم ليعيشوا فى قصره ، وليتلقوا فيه
تربية رومانية ؛ وأصبح هؤلاء الشبان بفضل هذا التدبير الكريم رهائن
لديه حتى يحين وقت تنويحهم ، ثم صاروا بعدئذ على غير علم منهم أداة
لصنع بلادهم بالصيغة الرومانية .

ويبدو أن أغسطس بعد انتصاره فى أكتيوم ، وما بعثه هذا الانتصار
فى نفسه من حماسة وزهو ، وبعد أن رأى من حوله جيشاً ضخماً وأسطولاً
قوياً ، يبدو أنه أخذ بعد هذا يعد العدة لتوسيع رقعة الإمبراطورية ومد
حدودها إلى المحيط الأطلنطى ، والصحراء الكبرى ، ونهر الفرات ، والبحر
الأسود ، ونهرى الدانوب والإلب ، وأنه كان يعتزم الاحتفاظ بالسلم الرومانية
بسياسة العدوان عند هذه الحدود جميعها لا بسياسة الدفاع السلبى . وقد أتم
الإمبراطور بنفسه فتح أسبانيا ، ونظم الإدارة فى بلاد غالة تنظيماً يدل على
مقدرته ومهارته ، وكان من نتائجه أن ساد السلام ربوع تلك البلاد
نحو قرن كامل . واكتفى فى پارثيا باسترجاع الأعلام ، ومن بقى على
قيد الحياة من الأسرى الذين أخذوا من كراسس فى عام ٥٣ ؛ أما فى

أرمينية فقد أعاد إلى عرشها ملكها تجرانيس Tigranes الموالى لرومة . وأرسل بعثات لفتح بلاد العرب ولكنها أخفقت . وأخضع ربياه تيبيريوس ودروسس في العشر السنين المحصورة بين ١٩ ، ٩٠ ق . م بلاد إليريا Illyria وپانونيا Pannonia وريتيا Roetia ؛ ولما غزا الألمان غالة تذرع أغسطس بهذه الحجة فأمر دروسس أن يعبر نهر الرين ؛ ولشد ما اغتبط حين علم أن هذا الشاب قد شق طريقه إلى نهر الإلب . غير أن دروسس أصيبت أحشاؤه على أثر سقطة سقطها على الأرض عانى على أثرها المرض ثلاثين يوما . وكان تيبيريوس شديد الحب لأخيه ، فسار على ظهر جواده أربعمائة ميل من غالة إلى ألمانيا ليضمه إلى صدره في آخر ساعات حياته ؛ ولما تم له ذلك نقل جثته إلى رومة ، وسار وراء الجنازة طول الطريق (٩٠ ق . م) ثم عاد بعدئذ إلى ألمانيا وجل على القبائل الضاربة بين الإلب والرين جملتين (٨ - ٧ ق . م ٤ - ٥ ب . م) خضعت على أثرهما لرومة .

وحلت برومة بعدئذ وفي وقت واحد تقريبا كارثتان بدلت حمى الفتح والتوسع سياسة سلام . ذلك أن پانونيا ودلماشيا اللتين فتحنا حديثا ثارتا على رومة ، وقتل أهلهما جميع من كان فيهما من الرومان ، وأعدتا جيشاً مؤلفاً من مائتي ألف رجل وهددتا لإيطاليا نفسها بالغزو . وأسرع تيبيريوس فعقد الصلح مع القبائل الألمانية ، وسار على رأس قواته القليلة إلى پانونيا ، واستطاع بصره وخططه العسكرية الفنية أن يستولى على محصولات البلاد أو يتلّفها فيحرم العدو من مصادر تموينه ، كما استطاع بحرب العصابات أن يمنع من إنتاج محصولات جديدة ، وعمل في الوقت نفسه على أن يوفر المؤن لجنوده . وأصر على العمل بهذه السياسة ثلاث سنين رغم ما وجه إليه من النقد في بلاده ، حتى نال أخيراً بغيته ، فرأى الثوار الجوع يلقون أسلحتهم ، وبسط هو السلطة الرومانية من جديد على ربوع البلاد . ولكن نحدث في تلك السنة نفسها (٩ ب . م) أن نظم أرمينيوس الثورة في

ألمانيا ، وأوقع فيالق فاروس الوالى الرومانى فى كمين ، وقتل جنودها عن آخرهم إلا من انتحر بإلقاء نفسه على سيفه مثل فاروس نفسه . ولما سمع أغسطس بهذا النبأ « تأثر أشد التأثر » كما يقول سوتونيوس . وظل عدة شهور لا يخلق لحيته ولا يقص شعر رأسه ، وكان فى بعض الأحيان يضرب الباب برأسه ويصيح بأعلى صوته : « أى كونتليوس فاروس أعد إلى فيالقى (٦) ! » وأسرع تيبيريوس إلى ألمانيا : وأعاد فيها تنظيم الجيش ، وصدد هجمات الألمان ، ورد حدود الدولة الرومانية ، بناء على أوامر أغسطس ، إلى نهر الرين .

وكان هذا قراراً خسر فيه أغسطس شطراً كبيراً من كبريائه ، ولكنه دل على حكمته وحصافة عقله . وقد أسلمت ألمانيا بمقتضاه إلى « البربرية » أى إلى ثقافة غير رومانية ولا يونانية ، وتركت حرة تسليح سكانها المتزايدين لمحاربة رومة . على أن الأسباب التى حملت الرومان على السعى لفتح ألمانيا كان من شأنها أن تتطلب منهم إخضاع سكوديا - أى جنوبى روسيا . لكنهم لم يفعلوا لأن الإمبراطورية يجب أن يقف امتدادها فى مكان ما ؛ وكان نهر الرين حداً للدولة خيراً من أى حد آخر غرب جبال أورال . هذا إلى أن أغسطس بعد أن ضم أسبانيا الشمالية والغربية ، وريشيا ، ونوركم ، وبانونيا ، وموزيا ، وجلاتيا ، وليسيا ، وميفيليا شعر بأنه قد استحق بأعماله لقب « الإله المكثّر » . وكانت الإمبراطورية حين وفاته تشمل مساحة قدرها ٣٤٠.٠٠٠ ميل مربع أى أكثر من مساحة الولايات المتحدة فى القارة الأمريكية ، وكانت تعادل مساحة رومة قبل الحروب البونية مائة مرة . ونصح أغسطس خليفته بأن يقنع بهذه الإمبراطورية وهى أعظم إمبراطورية شهدها التاريخ حتى ذلك الوقت ، وأن يوجه همه إلى توحيدها وتقويتها فى الداخل بدل أن يوسعها فى الخارج ، وأظهر دهشته من أن « الإسكندر لم ير أن تنظيم الإمبراطورية التى أنشأها أصعب من كسبها (٧) » وهذا بدأت السلم الرومانية Pax Romana .

الفصل الثالث

عهد الرخاء

لا يمكن أن يقال عن أغسطس إنه « فر من الميدان وسمى هذا الفرار سلماً » ؛ ذلك أنه لم تكد تمضي عشر سنين بعد معركة اكتيوم حتى انتعشت بلاد البحر الأبيض المتوسط انتعاشاً لم يضارعه في سرعته انتعاش قبله . وقد كانت عودة النظام في حد ذاتها باعثاً قوياً على هذا الانتعاش ؛ وكيف يمتنع الرخاء من إجابة هذه الدعوة الإجماعية التي يتقدم بها إليه ما عاد إلى البحار من أمن وسلامة ، وإلى الحكومة من الاستقرار ، مضافاً إلى استمساك أغسطس بالقديم الموروث وتحفظه ، وإلى استهلاك كنوز مصر المدخرة ، واستغلال المناجم الجديدة ، وإنشاء دور سك جديدة ، وإلى ثقة الأهليين بالنقد وسرعة تداوله ، ومعالجة الزحام في إيطاليا بإقطاع الأهليين أرضاً يفلحونها ، وبنقلهم إلى أراضي المستعمرات ؟ ومن القصص الماثورة في هذا الصدد أن جماعة من بحارة الإسكندرية نزلوا في بتيولي ، وكان أغسطس قريباً منها ، فأقبلوا عليه في ملابسهم الزاهية وأهدوا إليه البخور كما يهدي البخور إلى الآلهة ، وقالوا له إنهم استطاعوا بفضلهم أن يسيروا في البحر آمنين ، وأن يتاجروا واثقين ، وأن يعيشوا سالمين^(٨) .

ولم يكن أغسطس ، وهو حفيد رجل مصري ، يخالجه أدنى شك في أن خير سياسة اقتصادية هي السياسة التي تجمع بين الحرية والأمان . ومن أجل ذلك وفر الحماية لجميع طبقات الأمة بسن القوانين ، وبالدقة في تطبيقها ، ووضع في الطرق العامة حراسة قوية ، وأقرض ملاك الأراضي المال من غير فائدة^(٩) ، وهذا ثائرة الفقراء بما وزعه عليهم من قبح الدولة ، وبالقرعة^(١٠) والهدايا في بعض الأحيان . أما فيما عدا هذا فقد ترك للمشروعات الخاصة ، والإنتاج ، والتبادل ، حرية أوسع

مما كان لها من قبل ، على أن الأعمال التي تديرها الدولة كانت مع هذه الحرية كثيرة متنوعة إلى حد لم تبلغه من قبل ، وكان لها شأن أيما شأن في إنعاش الحياة الاقتصادية ؛ فقد شُيِّد في خلال هذه المدة اثنان وثمانون هيكلًا ، وأنشئت سوق عامة جديدة وباسلقا(*) جديدة لتيسير الأعمال المالية وأعمال المحاكم ، وأقيم بناء جديد لمجلس الشيوخ بدل البناء الذي احترق فيه كلوديوس ؛ وشيدت صفوف الأعمدة لتخفيف حرارة الشمس ، وأكمل الملهى الذى بدأه قيصر وسمى باسم مرسلس زوج ابنة أغسطس ؛ واستحث الإمبراطور الأثرياء على أن ينفقوا بعض أموالهم في تجميل إيطاليا بالباسلقات ، والهياكل ، ودور الكتب ، والملاهى ، والطرق . ويقول ديوكاسيوس إنه « أمر الذين يحتفلون بالنصر أن ينفقوا مغانمهم في تشييد مباني عامة تخلد ذكرى أعمالهم »^(٩) . وكان أغسطس يرجو من وراء ذلك أن يجعل عظمة رومة سبباً في ازدياد سلطانه ورمزاً لهذا السلطان .

ومن أقواله في آخر أيامه أنه وجد رومة مدينة من الآجر ثم تركها وهى من الرخام^(٩ب) ؛ وتلك مغالاة تغتفر لقائلها ، فقد كان فيها قبل أيامه كثير من الرخام ، وبقي فيها من بعده كثير من الآجر ، ولكن الحقيقة أنه قلما فعل رجل المدينة ما فعله أغسطس لرومة .

وكان ساعده الأيمن في إعادة بناء رومة ماركس فسبانيوس أجريبا Marcus Vispanius Agrippa . وكان صديقه هذا قد اشترك مع ماسينياس في تنفيذ سياسة أغسطس . ولما كان أجريبا إيديلا عام ٣٣ ق . م ضم الجماهير إلى جانب أكتافيان بأن فتح لهم ١٧٠ حماما ، ووزع عليهم الزيت والملح بلا ثمن ، وأقام لهم ألعاباً عامة دامت خمسة وخمسين يوماً ، وعين حلاقين لجميع المواطنين

(*) الباسلقا Basilica عند الرومان هو كبير مستطيل الشكل ذو صفيين من العمد . ينتهى بطرف نصف دائرى ، كان يستخدم في الأعمال المالية والقضائية . وقد حول كثير من الباسلقات آخر الأمر إلى كنائس (المترجم)

من غير أجور - ولعله أنفق ما تطلبه هذا كله من ماله الخاص . وكانت كفايته خليقة بأن يجعله قيصرًا ثانيًا ؛ ولكنه فضل أن يخدم أغسطس مدى جيل كامل . ومبلغ علمنا أنه لم يرتكب إثمًا يشين حياته العامة أو الخاصة ، فقد تركه المغتايون الرومان ، الذين لم يتركوا أحداً غيره إلا ساقوه بالسنة حداد ، دون أن يمسوه بقالة سوء . وكان هو أول روماني أدرك ما للقوة البحرية من خطر عظيم ، فوضع خطة لإنشاء عمارة بحرية وأنشأها ، وتولى قيادتها ، وهزم بها سكستس بمجي ، وطهر البحر من القراصنة ، وكسب العالم لأغسطس معركة أكتيوم . وعرض عليه ثلاث مرات أن يقام له موكب نصر بعد هذه الانتصارات الرائعة ، وبعد أن هدأ أسبانيا وغالة والمملكة اليسبورية ، ولكنه رفض في كل مرة . وقد وهبه زعيمة ثروة طائلة اعترافاً منه بفضلِهِ ، ولكنه ظل رغم هذه الثروة يعيش عيشة خالية من البذخ والترف . وبذل جهوده كلها في إقامة المنشآت العامة كما بذلها من قبل في حفظ كيان الدولة ، فكان يستأجر بماله الخاص مئات من العمال لإصلاح الطرق ، والمباني ، والمجاري العامة ، وإعادة فتح قناة مارسيس المغطاة . وأنشأ هو قناة من نوعها جديدة ، هي قناة يوليوس ، وأصلح وسائل مد رومة بالماء باحتفال سبعمائة بئر وإنشاء خمسمائة عين فوارة ، ومائة وثلاثين خزاناً .

ولما شكوا الناس من ارتفاع أثمان التبيد أجابهم أغسطس بدهائه المعروف :
« لقد عمل صهرى أجربا على ألا تنظماً رومة أبداً » (١٠) .

وأنشأ أجربا ، وهو أعظم المهندسين الرومان بلا منازع ، مرفأ واسعاً عظيماً ، ومركزاً لبناء السفن بإيصال بحيرتي لكربنس وأفرنس بالبحر . وهو الذي أنشأ أول الحمامات العامة الرائعة الفخمة ، التي امتازت بها رومة فيما بعد على سائر مدن العالم . وشاد من ماله الخاص هيكلًا لفينوس والمريخ أعاد بناء هنريان وهو المعروف لنا بهيكل الآلهة Pantheon في هذه الأيام ، ولا يزال يظهر عليه حتى الآن هذه العبارة M. ARGIPA... PECIT . ونظم أعمال مسح أراضي الإمبراطورية

مرة كل ثلاثين عاماً ، وكتب رسالة في الجغرافية ، ورسم للعالم خريطة ملونة على الرخام . وكان مثل ليوناردو دافنشى عالماً طبيعياً ، ومهندساً ، ومخترعاً للمقذوفات الحربية وفتاناً . وكان موته المبكر وهو في سن الخمسين (١٢ق.م) من الأحزان الكثيرة التي عكرت صفاء سنى أغسطس الأخيرة . وقد زوجه أغسطس بابنته يوليا ، وكان يرجو أن يرث الإمبراطورية من بعده لأنه خير من يستطيع أن يحكمها حكماً صالحاً نزيهاً شريفاً .

وكانت المنشآت العامة الكثيرة النفقة ، مضافة إلى الخدمات الواسعة التي تقوم بها الحكومة سبباً في زيادة المصروفات العامة زيادة لم يكن لها نظير من قبل . ذلك أن المرتبات كانت تؤدي وقتئذ للموظفين في الولايات وفي المدن ، وللحكام وزجال الشرطة ؛ وكان يقوم على حراسة البلاد جيش قوى دائم وأسطول ضخم ، وكانت المباني العامة التي لا عداد لها تشاد أو تصلح ، وكان العامة يرشون بالحجوب والألعاب ليظلوا هادئين . وإذا كانت هذه النفقات كلها إنما تؤدي من الإيرادات العادية ، ولم تحمل الأجيال التالية بدين أهلى ما ، فقد أصبحت الضرائب في أيام أغسطس علماً وصناعة دائمة . ولم يكن أغسطس نفسه بالرجل الصلب الذي لا يلين ؛ فكثيراً ما أعفى الأفراد المأزومين والمدن المأزومة من الضرائب أو أداها من ماله الخاص . وأعاد إلى البلديات خمسة وثلاثين ألف رطل من الذهب قدمت إليه « هدية تنويج » ، حينما اختير قنصلاً للمرة الخامسة ، ورفض هبات أخرى كثيرة (١٢) ، وألقى ضريبة الأراضي التي فرضت على إيطاليا في أثناء الحرب الأهلية ؛ وفرض بدلاً منها على جميع سكان الإمبراطورية ضريبة مقدارها خمسة في المائة على الأموال التي يوصى بها لأى إنسان عدا الأقارب الأدينين والفقراء (١٣) ، كما فرض ضريبة مقدارها واحد في المائة على المزايدات العامة ، وأربعة في المائة من أثمان الأرقاء ، وخمسة في المائة عند تحريرهم ، وقرر عوائد جمركية تتراوح بين اثنين ونصف وخمسة في المائة على جميع البضائع.

الواردة إلى كل الموانئ تقريباً . وكان سكان المدن جميعاً يؤدون ضرائب للبلديات ، ولم تكن الأملاك الرومانية الثابتة معفاة من الضريبة كما كانت الأراضي الإيطالية . وكانت الضرائب تؤدي على الماء المستمد من القنوات العامة . وكان دخل الخزانة كبيراً من تأجير الأراضي العامة ، والمناجم ، ومصائد الأسماك ، واحتكار الدولة للملح ، ومن الغرامات التي تفرضها المحاكم . وكانت الولايات تؤدي ضريبة على الأراضي *tributum soli* ، وضريبة الفرضة *Tributum Capitis* ، ومعناها الحرقى ضريبة على الرؤوس ، ولكنها كانت في واقع الأمر ضريبة على الأملاك الشخصية . وكانت الضرائب تجمع في خزانتي في رومة كلتاهما في معبد ، وهما الخزانة الأهلية (*Aerarium*) التي يشرف عليها مجلس الشيوخ ، والخزانة الإمبراطورية (*fiscus*) التي كان يملكها ويديرها الإمبراطور (*) . وكانت ترد إلى الخزانة الثانية الأموال من أملاك الإمبراطور الخاصة ، ومن الأموال التي يوصى بها الخيرون والأصدقاء . وبلغ ما تجمع من هذه الوصايا في أيام أغسطس ٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠ رطل سسترس .

ويمكن القول بوجه عام إن الضرائب في أيام الزعامة لم تكن فادحة ، وإن ما أنفقت فيه حصيلتها إلى عهد كادوس كان يبرر ما عاناه الناس في أداؤها . وقد عم الرخاء الولايات وأقام الأهليون مذابح لأغسطس الإله شكراً له أو تطلعا إلى ما سوف يأتيهم به من خير . وقد اضطروا في رومة نفسها لأن يعنف الناس على إسرافهم في مديحه . ومن أمثلة هذا الإسراف أن أحد المتحمسين أخذ يجرى في شوارع المدينة ويدعو رجالها ونساءها لأن « يهبوا » حياتهم لأغسطس ؛ أي أن يقطعوا على أنفسهم عهداً بأن يقتلوا أنفسهم حين يموت . وحدث في عام ٢ ب : م . أن اقترح مسالا كرفينس *Messala Corvinus* الذي

(*) كانت الفسسى *fisci* على عهد الجمهورية هي السلال المحتومة التي تحمل فيها أموال الخراج من الولايات إلى رومة .

استولى على معسكر أكتافيان في فلهاى أن يمنح أغسطس لقب « أبى البلاد » .
ولشد ما اغتبط مجلس الشيوخ بمنح الإمبراطور هذا اللقب وكثيراً
غيره من القاب الثناء والتكريم ، فقد سره ألا يتحمل إلا القليل من تبعه
الحكم ، وأن يحتفظ مع ذلك بالثراء ومظاهر الشرف . وكانت طبقة
رجال الأعمال التى زادت ثروتها كثيراً عن ذى قبل تحتفل بذكرى مولده
احتفالاً يدوم يومين كاملين فى كل عام . ويقول سوتونيوس « إن الناس
جميعاً على اختلاف أصنافهم وطبقاتهم كانوا يقدمون له الهدايا فى اليوم
الأول من شهر يناير » - أى فى عيد رأس السنة . ولما أن دمرت النيران
قصره القديم تبرعت إليه كل مدينة فى الإمبراطورية بمقدار من المال
ليستعين به على إعادة بنائه ، ويبدو أن كل قبيلة وكل نقابة فعلت هى
الأخرى مثل ما فعلت المدن . وأبى أن يأخذ من أى فرد أكثر من دينار
واحد ، ومع ذلك فقد حصل على ما يكفى لبناء القصر وزيادة . وقصارى
القول أن جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط قد أحست بالسعادة بعد محنتها
الطويلة ، وكان فى وسع أغسطس أن يعتقد أنه استطاع بصبره وجهده أن
ينجز العمل العظيم الذى أخذ على عاتقه أن ينجزه .

الفصل الرابع

إصلاحات أغسطس

لقد أشقى أغسطس نفسه إذ حاول أن يصلح قلوب الناس ويسعدهم معا ، وكان ذلك تطاولا منه لم تغفره له رومة أبداً ، ذلك أن إصلاح الأخلاق أشق أعمال الحكام وأكثرها دقة وخطورة ، وقل من الحكام من جروا على محاولته ، وقد تركه أكثرهم للمنافقين أو القديسين .

وبدا أغسطس هذا الإصلاح بداية متواضعة لوقف تيار الانقلاب العنصرى فى رومة . ذلك أن سكان رومة لم يكونوا يتناقصون كما قد يتبادر إلى الأذهان ، بل كان هؤلاء السكان يزددون زيادة مطردة بفضل المغربات الكثيرة ، وما كان يوزع عليهم من الأرزاق وما يستورد من الثروة ومن الرقيق . وإذ كان المحررون ينالهم نصيبهم من الأرزاق التى توزعها الدولة ، فقد أعتق كثيرون من المواطنين عبيدهم المرضى أو الطاعنين فى السن لكى تطعمهم الدولة ، وحرر أكثر من هؤلاء لبواعث إنسانية ، كما استطاع كثيرون منهم أن يقتصدوا من المال ما يتاعون به حريتهم . وإذ كان أبناء المحررين يصبحون مواطنين رومانيين من تلقاء أنفسهم ، فقد تضافر تحرير الأرقاء وتكاثر الغرباء مع قلة تناسل عناصر السكان الأصليين على تبادل الطابع العنصرى لسكان رومة . وكان أغسطس يشك كثيراً فى إمكان استقرار أحوال بلد يسكنه هذا الخليط المختلف العناصر من الأهلىن ، ويرتاب فى ولاء هؤلاء السكان إلى الإمبراطورية وهم الذين تجرى فى عروقهم دماء الشعوب المغلوبة على أمرها . لذلك عمل على سن قانون فوفيا كانينيا Lex Fufia Caninia (٢ ب : م) وغيره من القوانين التى تبيح لكل من يملك عبداً أو عبيدين لا أكثر أن يعتقه أو يعتقهما جميعاً ، ولمن يملك — ثلاثة عبيد إلى عشرة أن يعتق نصفهم ،

ومن يملك أحد عشر إلى ثلاثين أن يعتق ثلثهم ، ومن يملك واحداً وثلاثين إلى مائة أن يعتق ربعهم ، ومن يملك مائة عبد وعبد إلى ثلاثمائة أن يعتق خمسهم ، والتي لا تبيع لسيد أن يعتق أكثر من مائة من عبيده .

وقد يتمنى الإنسان أن لو حدد أغسطس اقتناء العبيد لا تحريرهم . ولكن القدماء كانوا يرون الرق عملاً لا غبار عليه . ويرون الاسترقاق قضية مسلماً بها لا تحتل جدلاً ، ولو أنه طلب إليهم أن يحرروا العبيد جملة لنظروا إلى ما ينجم عن هذا العمل من النتائج الاقتصادية والاجتماعية نظرة الرعب والهلع ، كما يخشى أصحاب الأعمال في وقتنا الحاضر ما عساه أن ينجم عن الضمان الاجتماعي للعامل من تراخ في العمل وقلة في الإنتاج . لقد كان تفكير أغسطس قائماً على المصالح العنصرية ومصالح الطبقات ، ولم يكن في مقدوره أن يرسم في ذهنه صورة لرومة القوية لا يتصف أفرادها بالخلق والشجاعة والمقدرة السياسية التي كان يمتاز بها الرومان الأقدمون بوجه عام والأشراف الأقدمون بوجه خاص . وكان ضعف العقيدة الدينية القديمة بين الطبقات العليا سبباً في القضاء على ما كان للزواج والوفاء والأبوة من حرمة وقداسة ، وكانت هجرة الناس من الأرياف إلى المدن قد جعلت الأطفال عبثاً ثقيلاً على آبائهم أو لعباً يتسلون بها على أحسن تقدير ، بعد أن كانوا مصدر ربح لهم . واشتدت رغبة النساء في التجميل واجتذاب الأموال بعد أن كن يزين أن خير زينة لهن هي لإنجاب الأبناء . وقضارى القول أن الرغبة في الحرية الفردية بدت في ذلك الوقت مجافية لحاجات العنصر الروماني الأصيل . ومما زاد الطين بلة أن السعى وراء الهبات والوصايا أضحي وقتئذ أكثر الأعمال ربحاً في إيطاليا (١) . فقد كان الرجال الذين لأبناء لهم إذا بلغوا مرحلة العمر الأخيرة يجدون أحسن الترحيب في بيوت من لهم أبناء ، يستقبلون فيها ويطعمون ، وكان كثير من الرومان يحبون هذه المتعة وهذا النوع من الحياة اللينة ، حتى أصبحت سبباً آخر من أسباب العقم . يضاف إلى هذا أن طول سنى الخدمة العسكرية حال بين كثيرين

من الشباب وبين الزواج في أكثر سنى العمر صلاحية له . وامتنع كثيرون من الرومان الأصليين عن الزواج بتاتا ، وفضلوا الاتصال بالعاشرات أو اتخاذ السرارى والعشيقات حتى على تعدد الزوجات متفرقات . ويلوح أن الكثرة العظمى من المتزوجين عمدت إلى تحديد عدد أفراد أبنائها باللجوء إلى إجهاض الزوجات وقتل الأطفال ومنع الحمل (١٨) .

وأقلقت هذه المظاهر وأمثالها من مستلزمات الحضارة بال أغسطس وأقضت مضجعه ، وبدأ يشعر أن لابد من العودة إلى العقائد والأخلاق القديمة . وعاد إليه بعد أن صفا ذهنه وأنهك جسمه بفعل السنين احترامه لتراث الآباء والأجداد ، فأخذ يشعر أن ليس من المصلحة فى شىء أن ينفصل الحاضر عن الماضى انفصالا تاما ، بل الواجب أن تعمل الأمة — إذا أرادت لنفسها حياة صحيحة سليمة — على استمرار تقاليدها الماضية ، كما يجب على الفرد أن تكون له ذاكرة . ولذلك أخذ يقرأ يجد أكسبته لياها السنون توارىخ رومة القديمة ويعجب بالفضائل التى يعزوها المؤرخون إلى أهلها ، ويحمدهم عليها . ولشد ما كان يعجب بخطبة كورنيلس متلس فى الزواج ، فتلاها فى مجلس الشيوخ وأصدر أمراً إمبراطوريا بإذاعتها بين طبقات الشعب . وكان كثيرون من رجال الجيل القديم يتفقون معه فى آرائه فألفوا من بينهم حزبا متزمتا شديدا الرغبة فى تقويم الأخلاق عن طريق التشريع ؛ وأكبر الظن أن ليفيا Livia أمدتهم بنفوذها . واستخدم أغسطس ماله من حقوق بوصفه رقبيا وتربوينا فأصدر طائفة من القوانين — أو لعله حل الجمعية على إصدارها — تهدف كلها إلى تقويم الأخلاق ، وتشجيع الزواج ، والوفاء بين الأزواج . والأبوة الصالحة ، والحياة البسيطة ، والعودة بها إلى السن القديمة . وحرمت هذه القوانين على المراهقين — والمراهقات — أن يحضروا دوز اللهو العامة إلا فى صحبة الكبار من أقاربهم ، ومنع النساء من مشاهدة الاستعراضات الرياضية ، وقصر أماكنهن فى المجتلدات على

المقاعد العليا ؛ ثم حدد مقدار ما يتفق من المال في البيوت ، وعلى الخدم ، والولائم ، والزواج ، والجواهر ، والملابس .

وكان أهم هذه « القوانين البولوية » (*) كلها « القانون البولياى الخاص بالعفة ومنع الزنى » *Lex Julia de pudicitia et de coercendis adulterus* (١٨ ق . م) وبهذا القانون وضع الزواج لأول مرة في التاريخ الرومانى تحت حماية الدولة بعد أن كان متروكا لسلطة الآباء في أسرهم *Patria Potestas* ، واحتفظ الأب بحقه في قتل ابنته الزانية هي وشريكها ساعة أن يضبطهما ؛ متلبسين بهذه الجريمة ، وأُجيز للزوج أن يقتل عشيق زوجته إذا ضبطه في منزله ، أما زوجته فلم يكن له أن يقتلها إلا إذا ارتكبت الفحشاء في بيته هو . وكان يطلب إلى الزوج الذى يكشف عن خيانة زوجته أن يأتى بها إلى المحكمة في خلال ستين يوما من هذا الكشف ؛ فإذا لم يفعل هذ كان يُطلب إلى والد الزوجة أن يقوم هو بهذا العمل ؛ فإذا لم يفعل الوالد نفسه ذلك جاز لأى مواطن أن يتهمها . وكان عقاب المرأة الزانية أن تنفى من البلاد طوال حياتها ، وأن تجرد من ثلث ثروتها ومن نصف بائنتها ، وأن يحرم عليها الزواج مرة أخرى . وقد قُررت هذه العقوبات نفسها على الزوج الذى يتغاضى عن زوجته الزانية . غير أنه لم يكن من حق الزوجة أن تتهم زوجها بالزنى ، فقد كان له أن يتصل بالعاهرات الرسميات المسجلات دون أن يعاقبه القانون على هذا الاتصال . ولم يكن هذا القانون يطبق إلا على المواطنين الرومان .

وأكبر الظن أن أغسطس سن حوالى ذلك الوقت قانونا آخر يعرف عادة باسم القانون البولياى الخاص بالزواج بين الطبقات *Lex Julia de maritandis ordinibus* وذلك لاحتوائه على فصل خاص بالزواج بين الطبقات أى بين الطبقتين العليين . وكان الهدف الذى يرمى إليه هدفاً مزدوجاً ، فقد كان يرمى إلى تشجيع الزواج وإلى تحديده معاً ، وذلك لأنه كان يعطل امتزاج الدم الرومانى .

(*) وسميت كذلك نسبة إلى القبيلة التى ينتمى إليها أغسطس بعد أن تبناه قيصر .

بالدم الغريب ، ويعيد إلى الزواج فكرته الأولى فكرة الاتحاد لإنجاب الأبناء . وكانت السبيل التي سلكها القانون للوصول إلى هذين الهدفين هي فرض الزواج على جميع الصالحين له من الرجال إذا كانوا أقل من سن الستين ، وعلى الصالحات له من النساء إذا كن أقل من الخمسين . وألغيت الوصايا التي كانت تشترط في الموصى له أن يظل عزباً ؛ وفرضت عقوبات على العزاب : فحرموا من الميراث عدا ميراث الأقارب إلا إذا تزوجوا في خلال مائة يوم بعد وفاة المورث ؛ كما منعوا من مشاهدة الحفلات والأعياد العامة .

ولم تكن الأرامل أو المطلقات يرثن إلا إذا تزوجن مرة أخرى في خلال ستة شهور من موت الزوج في الحالة الأولى ومن الطلاق في الحالة الثانية . وحرمت العانس والزوجة العقيم من الميراث إذا بلغت الخمسين من عمرها ، أو كانت أصغر من ذلك وكانت تملك خمسين ألف سسترس (٧٥٠٠٠ ريال أمريكي) . وحرم على الرجال من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ أن يتزوجوا من المحررات ، أو الممثلات أو العاهرات ، كما حرم على الممثل والمحرر أن يتزوج ابنة من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ . وفرضت على النساء الاتي . يمتلكن أكثر من عشرين ألف سسترس أن يؤدين ضريبة سنوية قدرها ١٪ من أموالهن حتى يتزوجن ، ثم تخفص هذه الضريبة بالتدريج كلما رزقن ابناً ، فإذا رزقن الطفل الثالث رفعت الضريبة عنهن ، وإذا كان لأحد القنصلين أبناء أكثر من زميله تقدم عليه . وكان يفضل في تولي المناصب العامة أكبر المتقدمين إليها أمراً متى كان صالحاً لتولي المنصب . وكان من حق الأم ذات الثلاثة الأبناء أن ترتدى جلباباً خاصاً *ius trium liberorum* وأن تحرر من سيطرة زوجها عليها .

وقد أغضبت هذه القوانين الطبقات جميعها حتى طبقة المتزمتين ، فقد اشتكى هؤلاء من أن « حق الثلاثة الأبناء » قد حرر الأم من سلطان الرجل تحريراً شديداً الخطورة . ومن الرجال من أخذوا يبررون عدم الزواج بقولهم إن « المرأة

الحديثة « قد تطرفت في استقلالها ، و غطرسها ، ونزقها ، وإسرافها . وكانوا يرون أن حرمان العزّاب من مشاهدة المعارض والألعاب العامة عقاب قاس مستحيل التنفيذ ، ولهذا أمر أغسطس بإلغائه في عام ١٢ ق . م ؛ ثم خففت القوانين البوليائية مرة أخرى بمقتضى قانون *پوپيا پوپيا* Popia Poppea ، وذلك بتخفيف شروط الميراث على العزّاب ، وبمضاعفة الفترة التي تستطيع الأرامل والمطلقات في أثناءها أن يرثن قبل أن يتزوجن مرة أخرى ، وبزيادة القدر الذي يستطيع أن يرثه من لا أبناء له . ثم أعفيت أمهات الأبناء الثلاثة من القيود التي وضعها قانون *فوكونيا* lex Voconia على الوصايا للنساء . وخفضت السن المحددة للتقدم للمناصب العامة بنسبة حجم أسرة من يتقدم لهذه المناصب . ولاحظ الناس بعد أن سنت هذه القوانين أن القناصل الذين وضعوا صيغتها وأطلقوا أسماءهم عليها عزّاب لا أبناء لهم . وأضاف النمامون إلى ذلك أن الذي اقترح هذه القوانين على أغسطس — وهو الذي لم يكن له إلا ولد واحد — هو ماسناس الذي لم يكن له ولد ، وأنه في الوقت الذي سنت فيه كان ماسناس يعيش عيشة الترف والخنوثة ، وكان أغسطس يغوى زوجة ماسناس على الفحشاء (١٩) .

وليس في وسعنا أن نحكم على أثر هذه الشرائع التي تعد أهم الشرائع الاجتماعية في التاريخ القديم ، ولكننا نستطيع أن نقول إنها لم تسن بالعناية والدقة الواجبتين ، وإن من أرادوا خرقها كانوا يجدون فيها كثيراً من الثغرات ؛ فمنهم من تزوجوا إطاعة للقانون ثم ما لبثوا أن طلقوا زوجاتهم ؛ ومنهم من تبنوا أطفالاً ليحصلوا بذلك على المناصب أو الوصايا ، ثم « حرروهم » — أي طردوهم من ديارهم بعدئذ (٢٠) . وأعلن تاسيتس بعد قرن من ذلك الوقت أن هذه الشرائع أخفقت في الغرض الذي كانت ترمى إليه : « فالزواج وإنجاب الأبناء لم يزيدا على ما كانا عليه من قبل ، وذلك لأن مغريات عدم النسل مغريات عظيمة القوة » (٢١) .

ولم ينقطع الفساد الخلقي وإن أصبح الناس أكثر تأدياً فيه عما كانوا من

تقبل ، ونقبين من أقوال أوكد أنه كان في طريقه إلى أن يصير فناً من الفنون
الحميلة ، وموضراً بمعنى مهرة الخبراء بتعليمه للمبتدئين . والحق أن أغسطس
نفسه كان يرتاب في قوة هذه الشرائع . وكان يتفق مع هوراس في أن
القوانين عبث لا طائل منه إذا لم تتغير القلوب (٢٢) . ولقد كافح كفاح
الأبطال ليصل إلى قلوب الناس ؛ فكان يعرض من مقصودته في ساحة الألعاب
أبناء جرمنيكوس الكثيرين ، وكان جرمنيكوس مضرب المثل في الأبوة ؛
وكان يهب ألف سترس للآباء ذوي الأسر الكبيرة (٢٣) ؛ وأقام نصباً
تذكاريّاً لأمه ولدت خمسة أبناء (وهي لم تفعل ذلك بالطبع لبواعث وطنية) (٢٤) ؛
ولشد ما اغتبط حين رأى فلاحاً يأتي راجلاً إلى رومة ومن ورائه ثمانية أبناء ؛
وسنة وثلاثون حفيداً ، وتسعة عشر من أبناء أحفاده (٢٥) . ويصوره
ديوكاسيوس يخطب في الناس ويشهر « بانتحار العنصر » الروماني الأصيل (٢٦) .
وكان يلذ له أن يقرأ مقدمة تاريخ ابني الأخلاقية ، ولعله هو الموحى بها .
وقد أصبحت الآداب في عصره وبناؤه آداباً تعليمية عملية الصبغة ، وأقنع
بنفسه أو عن طريق ماسيناس فرجيل وهوراس بأن يستخدم شعرها في الدعاية
إلى الإصلاح الخلقى والدينى ، فحاول فرجيل في كتاب الزراعة Georgics أن
يعيد الرومان بأغانيه إلى المزارع ، كما حاول في الإنيade Aeneid أن يجتذبهم
إلى الآلهة القدامى . أما هوراس فبعد أن ذكر أمثلة كثيرة لمسرات العالم حول
أغانيه إلى الموضوعات الرواقية . وأقام أغسطس في عام ١٧ ب . م « الألعاب
الزمنية iudi saeculares (*) » — التي ظلت قائمة ثلاثة أيام ، وشملت حفلات ،
ومباريات ، واستعراضات ؛ وقد أقامها احتفالاً بعودة عصر زحل الذهبى ،
وكلف هوراس أن يكتب Carmen saeculare لكي يغنيها في الموكب سبعة
وعشرون فتي ومثلهم من الفتيات . وحتى الفن نفسه قد استخدم للإشارة إلى

(*) معنى هذه العبارة الحرفى « الألعاب القرنية » لأنها لم تكن تقام إلا في
فترات متباعدة .

الأخلاق ، فقد مثلث في نقش أراپاسس Ara pacis البارز الجميل حياة رومة وحكومتها ؛ وشيدت المباني العامة الفخمة لتمثيل قوة الإمبراطورية وعظمتها ، وأقيمت عشرات الهياكل لتستثير في قلوب الناس ذلك الإيمان الذي كاد يموت .

واقنع أغسطس في آخر الأمر — وهو الرجل المتشكك الواقعي — بأن إصلاح الأخلاق لابد أن ينتظر نهضة دينية . ذلك أن جييل المتشككين أمثال لكريشيوس وكانلس وقيصر كان قد مضى وانقضى ، وأدرك أبناء هذا الجيل أن خشية الآلهة هي شباب الحكمة ، بل إن أوغد الساخر نفسه أخذ يكتب بعد قليل من ذلك الوقت على طريقة فلتيير فيقول : « إن من أسباب الراحة للإنسان أن تكون هناك آلهة ، وأن نعتقد بوجودها expeditesse deos, et un expedit esse putemuse » (٢٧) . وكانت عقول المتحفظين تعزو أسباب الحرب الأهلية وما جرته على الدولة من كوارث إلى إهمال الدين ، وما استتبع هذا الإهمال من غضب آلهة السماء . وأصبح الناس الذين حل بهم عقاب الآلهة في كل مكان من إيطاليا على استعداد لأن يعودوا إلى مذابح أبنلاد القديمة ، وأن يسبحوا بحمد الآلهة الذين أبقوا عليهم ليستمتعوا بعودة الدين إلى سالف عهده السعيد . ولما خلف أغسطس لپدس Lepidus الفاتر الإيمان بعد أن ظل صابراً زمناً طويلاً يترقب موته — لما خلفه في منصب الكاهن الأكبر « احتشد الناس من كافة أنحاء إيطاليا لينتخبوني لهذا المنصب حتى باغ عددهم حداً لم يبلغ مثله في رومة من قبل » (٢٨) . وتزعم هو حركة إحياء الدين وساز على نهجها ، وكان يرجو أن يكون الناس أكثر قبولاً لإصلاحاته السياسية والأخلاقية إذا ما ربطها رباطاً وثيقاً بالآلهة الرومانية . ومن أجل هذا رفع مقام الجماعات الأربع الكهنوتية ، وزاد ثروتها إلى حد لم يكن له مثيل في الأيام السالفة ، واختار نفسه عضواً في كل منها ، واضطلع بواجب اختيار أعضائها الجدد ، وكان يحرص كل الحرص على حضور اجتماعاتها ويشترك في مواكبها الفخمة الرهيبة

ثم حرم ممارسة العبادات والطقوس المصرية والأسبوعية في رومة ، ولكنه استثنى اليهود من ذلك التحريم ، وأطلق الحرية الدينية لسكان الولايات ، وأغدق الهبات على الهياكل ، وجدد الاحتفالات والمواكب والأعياد الدينية القديمة . ولم تكن الألعاب القرنية احتفالات دنيوية كما يظن لأول وهلة ، فقد كانت تقام في كل يوم من أيامها الثلاثة طقوس وتلى فيه أناشيد ، أهم ما تُشعر به عودة صلات الود الوثيقة بالآلهة . ولما أن تغذت العبادات القديمة بهسذه المعونة الملكية العليا سرت فيها حياة جديدة . ومست من جديد شغاف قلوب الناس وآمالهم السماوية . ومن أجل هذا ظلت ثلاثة قرون صامدة للقوضى الناشئة من العبادات المتعارضة التي تسربت إلى رومة . بعد أيام أغسطس . ولما أن ماتت بعد هذه القرون الثلاثة عادت من فورها إلى الحياة من جديد ، وإن اتخذت لها رموزاً جديدة وتسمت بأسماء جديدة .

وكان أغسطس نفسه من أكبر المنافسين لآلهته ، وكان قيصر قد ضرب له المثل في هذا التنافس : ذلك أن مجلس الشيوخ اعترف بألوهية قيصر بعد عامين من مقتله ، وما لبثت عبادته أن انتشرت في سائر أنحاء الإمبراطورية . وكانت بعض المدن الإيطالية منذ عام ٣٦ ق . م قد أفسحت لأكتافيان مكاناً بين معبوداتها ؛ وما وافى عام ٢٧ ق . م حتى أضيف اسمه إلى أسماء الآلهة في الترانيم الرسمية التي كانت تُنشد في رومة ، وحتى أصبح يوم مولده يوماً مقدساً لا عيداً فحسب ؛ ولما مات أصدر مجلس الشيوخ قراراً أن تعبد رومة من ذلك الوقت وأن تعده من الآلهة الرسمية . وكان ذلك كله يعد عملاً طبيعياً لا غبار عليه عند الأفدين لأنهم لم يدركوا قط أن ثمة ثغرة تفصل على الدوام بين الآلهة والادميين ؛ فما أكثر ما كانت الآلهة تتخذ لنفسها أشكالاً آدمية ، ولقد كان ما لحرقل ، وليقورغ والإسكندر ، وقيصر ، وأغسطس وأمثالهم من عبقرية مبدعة يبدو للشرق المتدين بنوع خاص إعجازاً خليقاً بالتقديس . ألم يعتقد المصريون أن الفراشة ، والبطالة ، بل وأنطونيوس نفسه أرباب يعبدون ؟ ولقد

كان عسيراً عليهم أن يضعوا أغسطس في منزلة تفل عن هؤلاء . ولم يكن الأقدمون وهم يفعلون هذا من الغفلة والبلاهة بالدرجة التي يرميهم بها من يفعلون فعلهم في هذه الأيام ؛ فلقد كانوا على علم تام بأن أغسطس بشر ، فإذا ألّوا روحه أو روح غيره فلم يتم لم يكونوا يستعملون لفظ إله theos, deus إلا بالمعنى الذي نستعمل نحن فيه لفظ قديس في هذه الأيام . والحق أن تقديس الموتى وليد التأليه الروماني ، وأن الصلاة للآدمي المؤله لم تكن تبدو لهم في ذلك الوقت أكثر سخفاً مما تبدو الصلاة للقديس في هذه الأيام .

وارتبطت عبادة عبقرية الإمبراطور في البيوت الإيطالية بعبادة أرباب المنازل وعبقرية أبي الأسرة . ولم يكن في هذه العبادة شيء عسير على شعب ظل عدة قرون يؤله الموتى من آبائهم ، ويبنى لهم المذابح ، ويسمى مقابر أسلافهم هياكل . ولما أن زار أغسطس آسية اليونانية في عام ٢١ ق . م وجد أن عبادته قد انتشرت فيها انتشاراً سريعاً ؛ وكانت النذور تقدم إليه والخطب ترحب به بوصفه « المنقذ » و « ناقل الأنبياء السارة » و « الإله ابن الإله » . وقال بعض الناس أنه هو المسيح الذي طال انتظاره . أقبل يحمل السلام والسعادة لبني الإنسان (٢٩) . وجعلت مجالس الولايات الكبرى عبادته المحور الذي تدور عليه احتفالاتها ، وعينت مجالس الولايات والبلديات طائفة جديدة من الكهنة يدعون بالأغسطيين لخدمة الإله الجديد . وأبدى أغسطس استياءه من هذا كله ، ولكنه قبله آخر الأمر على أنه تمجيد روي للزعامة ، وتقوية للرابطة بين الدين والدولة ، وعبادة مشتركة موحدة بين عقائد مختلفة مفرقة ، وهكذا رضى حفيد المرابي أن يكون إلهاً .

الفصل الخامس

أغسطس نفسه

ترى أى رجل هذا الذى ورث ملك قيصر فى الثامنة عشرة من عمره ، وكان سيد العالم فى الحادية والثلاثين ، والذى حكم رومة نصف قرن من الزمان ، والذى شاد أعظم إمبراطورية فى التاريخ القديم ؟ لقد كان كثيباً جذاباً معاً ، ولم يكن أحد أسمى منه ، ولكن نصف عالم قد عبده رغم هذه السهاحة . وكان ضعيف البنية ، لا يمتاز بالشجاعة النادرة ، ولكنه كان قادراً على أن يهزم جميع أعدائه وينظم شئون الممالك ، وينشئ حكومة أفاءت على الدولة المترامية الأطراف مدى قرنين من الزمان رخاءً منقطع النظير .

وقد استنفد المثاليون كثيراً من الرخام والبرنز فى صنع تماثيل وصور له يظهره بعضها فى صورة الشاب الجاد المذهب الفخور الوجل ، وبعضها فى صورة الكاهن المنقبض الصدر ، وبعضها قد غطت فيه نصف جسمه شارات الملك ، وبعضها فى ثياب القائد العسكرى — فقد اضطر الفيلسوف على كره منه وبمشقة على نفسه أن يضطلع بواجب القواد . لكن هذه الصور لا تكشف عن الأمراض التى كان يشكو منها — وإن أوحى بها فى بعض الأحيان — وهى الأمراض التى جعلت حربه ضد القوضى تتأثر فى كل خطوة بكفاحه فى سبيل صحته . ولم يكن بالرجل الوسيم الخلق ، وكان ذا شعر أصفر بلون الرمل ، ورأس مثلث عجيب الشكل ، وحاجبين مقترنين ، وعينين صافيتين نافذتى النظرات ، ولكن ملامحه مع ذلك كانت هادئة ساكنة — على حد قول سوتنيوس — وقد باغ هدوؤه وسكونه حداً جعل أحد الغاليين ، وكان قد جاء ليعتاله ، يبدل نيته ويرتد عنه . وكان ذا جسد حساس يشوّه القوب من آن إلى آن ؛ وقد أضعف داء المفاصل (٤ - ج ٢ - مجلد ٣)

ساقه اليسرى فكان يعرج قليلا ، وكان يصاب في بعض الأحيان بنوع من التصلب شبيه بتصلب المفاصل تعجز معه يده اليمنى عن الحركة . وأصيب هو وعدد كبير من الرومان في عام ٢٣ ق . م بوباء يشبه التيفوس ، وكان يشكو من وجود حصا في المثانة ، ولا يستطيع النوم إلا بمشقة ، ويعانى في كل ربيع تمداً في الحجاب الحاجز ، ويصاب بالزكام إذا هبت الريح من الجنوب . وكان شديد التأثر بالبرد ، ولذلك كان يلبس في الشتاء صديرية من الصوف يقي بها صدره ، ويلف اللقائف على فخذه وساقه ، ويلبس شعاعاً وأربعة إشارات وعباءة ثقيلة . ولم يكن يجرؤ على تعريض رأسه للشمس ، وكان يتعبه ركوب الخيل ، فكان يحمل أحياناً في محفة إلى ميدان القتال (٣٠) . وظهرت عليه آثار الشيخوخة وهو في سن الخامسة والثلاثين بعد أن عاش في إحدى الفترات الحاسمة في تاريخ الإنسانية فأصبح عصيباً ، معتلاً ، سريع التعب ، ولم يكن أحد يحكم وقتله بأنه سيعيش أربعين سنة أخرى . وجرب عدداً كبيراً من الأطباء على اختلاف أنواعهم وجزاهم كلهم أحسن جزاء ، وكان منهم أنطونيوس موسى الذى عالجته من مرض لم يكن معروفاً على وجه التحقيق (ولعله خراج في الكبد) بالكادادات والحمامات ، وقد بكرم موسى هذا بأن أعفى جميع الأطباء من الضرائب (٣١) . ولكنه كان يعالج نفسه بنفسه في أكثر الأحيان ، فكان يعالج داء المفاصل بالاستحمام بالماء المالح الساخن وبالحمامات الكبريتية ، وكان يقل من الطعام ، ولا يتناول إلا الأطعمة البسيطة الخفيفة كالخبز الخشن ، والحب ، والسملك ، والفاكهة . وقد بلغ من عنايته بمأكله أن كان « في بعض الأحيان يتناول طعامه بمفرده قبل المآدب أو بعدها ، ولا يطعم أو يشرب شيئاً في أثناءها » (٣٢) . وقصارى القول أن روحه هى التى أبت على جسمه وحملته حمل الصليب شأنه في هذا شأن القديسين في العصور الوسطى .

وكان جوهر طباعة حيوية أعصابه ، وقوة عزمته ، ونفاذ بصيرته ، وسعة

صدره ، وحسن تفكيره ، وقد قبل من المناصب عدداً يخطئه الحصر ، واضطلع بتبعات لم يضطلع أحد بأكثر منها إلا قيصر وحده ، وأدى ما تتطلبه هذه المناصب من واجبات بأمانة وذمة ، ولم تمنعه هذه الواجبات من أن يرأس جلسات مجلس الشيوخ بانتظام ، وأن يحضر المؤتمرات والاجتماعات ، وأن يحكم في مئات من القضايا ، وأن يتحمل على مضض حضور المآدب والحفلات ، وأن يدبر الحملات الحربية في البلاد النائية ، وأن يصرف أمور الفياق الحربية والولايات ، وأن يزورها كلها تقريباً ، وأن يشرف على كل صغيرة وكبيرة من الأعمال الإدارية في دولا ب الحكومة .

وفوق هذا كله ألقى مئات الخطب ، وأعدّها هو وحده حرصاً يفخر به على أن يجعلها واضحة ، سهلة ، جميلة الأسلوب ، وكان يقرأها بعد إعدادها ويفضل ذلك على أن يرتجلها حتى لا ينطق بألفاظ يندم عليها بعد النطق بها ، ويحاول سوتونيوس أن يقنعنا بأنه لهذا السبب عينه كان يكتب مقدماً أحاديثه الهامة مع الأفراد ، حتى مع زوجته نفسها ، ويقرأها لهم (٣٣) .

وقد ظل يؤمن بالخرافات كما كان يؤمن بها معظم المتشككين في عصره بعد أن فقد إيمانه بدينه بزمن طويل . من ذلك أنه كان يحمل جلد عجل البحر ليقى به شر الصواعق ، وكان يعتقد بالفأل والطيرة ، ويعمل في بعض الأحيان بما يترأى له في منامه من نذُر ، وكان يأبى أن يبدأ رحلة في الأيام التي يرى أنها أيام مشئومة (٣٤) .

وقد اشتهر في الوقت عينه بأنه واقعي في أحكامه ، عملي في تفكيره ، وكان ينصح للشبان بأن يبادروا بالانخراط في سلك الأعمال التي تتطلب منهم همة ونشاطاً حتى تقوم التجارب وضرورات الحياة ، ما أخذوه عن الكتب من آراء (٣٥) .

وقد احتفظ إلى آخر أيام حياته بعقليته الطبية البرجوازية وبتحفظه وحذره

واعتداله في نفقاته . وكانت الحكمة المحببة إليه هي قوله « بلادر على مهل »
وكان يفوق معظم أمثاله من ذوى السلطان العظيم في تقبل النصيح واحتماله
التأنيب بصدر واسع وتواضع عظيم .

وقد زوّده الفيلسوف أثندورس Athendorus عندما همّ بوداعه وهو
عائد من عنده إلى أثينة بعد أن عاش معه عدة سنين بنصيحة قال له فيها :
« إذا غضبت فلا تقل كلمة أو تفعل شيئاً قبل أن تعدّ لنفسك الحروف الهجائية .
الأربعة والعشرين » .

وشكر أغسطس للفيلسوف تحذيره وتوسل إليه أن يبقى معه عاماً آخر
وقال له : « لا خطر يهدد الخير الذى يعود على الإنسان بفضل
السكوت » (٣٦) .

لقد قلنا من قبل إن مما يثير الدهشة أن يتحول قيصر من رجل سياسى
صخاب إلى قائد ماهر وحاكم سياسى محنك ؛ ولكن أكثر من هذا إثارة
للهشة تحول أكتافيان القاسى القلب المنظوى على نفسه إلى أغسطس المتواضع
الكبير العقل النبيل الطبع . ولقد حدث هذا التحول في خلال نموه . إن
الشاب الذى أجاز لأنطونيوس أن يعلق رأس شيشرون في السوق العامة ،
والذى تنقل من حزب إلى حزب دون أن يجد من ضميره تأنيباً على هذا
التنقل ، والذى أطلق العنان لشهواته الحنسية ، والذى طارد أنطونيوس
وكليوبطرة إلى منيتهما دون أن تؤثر فيه صداقة أو شهامة — إن هذا الشاب
العنيد الذى لا يحب أحداً لم يستم عقله الساطعان والجاه ، بل أصبح
في الأربعين سنة الأخيرة من حياته مضرب المثل في العدل والاعتدال ،
والإخلاص والنبيل والتسامح ، يضحك من سخريّة الشعراء به
وهجوم إياه ، وينصح تيبيريوس أن يقنع بمنع أعمال العدوان أو محاكمة
المعتدين ، ولا يسعى لتكريم أنواهم ، ولا يصر على أن يعيش غيره من الناس
عيشة البساطة التي فرضها هو على نفسه . فكان إذا دعا إلى وليمة ، انسحب منها في
بدايتها لكي يترك لضيوفها الحرية التامة في الاستمتاع بالطعام والمرح . ولم يكن

مزهواً بنفسه ؛ وكان يستوقف الناخبين ليطلب إليهم أن يعطوه أصواتهم في الانتخاب ، ويتوب عن أصحابه من المحامين في القضايا . وكان إذا دخل رومة أو خرج منها يفعل ذلك في السر لأنه يفض مظاهر الأبهة ، وهو لا يظهر في نقش أراپاسيز Ara Pacis ممزاً عن غيره من المواطنين بأية علامة من علامات الامتياز ، وكانت استقبالاته الصباحية مباحة لجميع المواطنين ، وكان يستقبلهم كلهم بالبشاشة والترحيب . ولما تردد أحد الناس في أن يعرض عليه ملتصقاً ، لاهه مازحاً بقوله إنه يعرض عليه وثيقته « كأنه يقدم فلساً لفيل (٣٧) » .

ولما بلغ سنى الشيخوخة ، وأحفظته الحية ، واعتاد عظيم السلطة ، بل اعتاد الألوهية ، تبدلت حاله فخرج عن تسابجه ، واضطهد أعداءه من الكتاب ، وصادر التواريخ التي تسرف في الانتقاد ، وأصم أذنه عن سماع أشعار أوفيد التي يقول فيها إنه تاب وأناب ، ويقال إنه أمر في يوم من الأيام أن تكسر ساقا ثالس Thallus أمين سره لأنه أخذ خمسمائة دينار ليبيوح بما يحتويه أحد الخطابات الرسمية ، وإنه أرغم أحد محرريه على الانتحار حين تبين له أنه زنى برومانية متزوجة . وقصارى القول أن الإنسان إذا نظر إلى أخلاقه في جماتها لم يكن من السهل عليه أن يحبه ؛ وإن من واجبنا أن نتصور ما كان يعانيه من ضعف الجسم وما قاساه في شيخوخته من أحزان قبل أن تتفتح قلوبنا له كما تتفتح لقيصر المقتول أو لأنطونيوس المغلوب .

الفصل السادس

آخر أيام أغسطس

تكاد مآسى أغسطس وهزائمه كلها أن تكون فى داخل بيته . وأول ما نذكره من هذه المآسى أنه لم يرزق من زوجاته الثلاث - كلاديا وأسكرونيا وليشيا - إلا طفلة واحدة ! ذلك أن أسكرونيا قد ثارت لطلاقها منه على غير علم منها بأن ولدت له يوليا Julia . وكان يأمل أن تلد له ليشيا ولدًا ينشئه ويعلمه أساليب الحكم ، ولكن زوجها بأغسطس قد تكشف لسوء حفظه عن زواج عقيم ، وإن كانت قد كافأت زوجها الأول بأن أنجبت له ولدين عظيمين هما تيبيريوس ودروسس . وإذا استثنينا هذا العقم فقد كانت هى وأغسطس سعيدين بهذا الزواج ؛ فقد كانت هى ذات جمال وجلال ، وخلق مكين وذكاء عظيم ؛ وكان أغسطس يعيد على مسامعها أنباء أهم ما يعتزم القيام به من الأعمال ، ولم يكن تقديره لمشورتها ينقص عن تقديره لمشورة أرجح أصدقائه عقلا . وسئلت مرة كيف صار لها عليه هذا النفوذ العظيم ، فأجابت بقولها إن سبب ذلك أنى « عفيفة إلى أقصى حدود العفة . . . لا أتدخل مطلقاً فى شئونه ، وأنى كنت أدعى أنى لم أر خليلات له ولم أسمع شيئاً عنهن أو عما كان بينه وبينهن من وقائع غرامية (٣٨) » . وكانت مضرب المثل فى الفضائل القديمة ، ولعلها كانت تسرف فى الإصرار على الدعاية لهذه الفضائل . وكانت تقضى أوقات فراغها فى أعمال البر ، فتساعد الآباء ذوى الأسر الكبيرة .، وتهب البائثات للعرائس الفقيرات ، وتنفق على كثير من اليتامى من مالها الخاص . وكان قصرها نفسه أشبه بملجأ للأيتام ؛ ذلك أن أغسطس كان يشرف فى هذا القصر وفى قصر أخته أكتافيا على تربية أحفاده ؛ وأبناء إخوته وأخواته ، وبناتهن ، وحتى على أبناء أنطونيوس الستة

الذين بقوا أحياء . وكان يرسل الذكور في سن مبكرة إلى الحروب ، ويعنى بتعليم البنات الغزل والحياكة ، « ويحرم عليهن أن يفعلن أويقلن شيئاً خفية ، إن كان مما يصح أن يسجل في يومية المنزل » (٣٩) .

وأحب أغسطس دروسس ابن ليقيا ، وتبناه ورباه ، وكان يسره أن يورثه ثروته ومملكه ، وكان موت هذا الفتى في شبابه من أولى مآسي الأمبراطور . أما تيبيريوس فقد كان يحترمه ولكنه لا يحبه ، ذلك بأن تيبيريوس خليفة أغسطس كان صلفاً مفرطاً في ثقته بنفسه ، ينزع إلى الكآبة والحفاء . ولا شك في أن جمال ابنته يوليا وخفة روحها قد متعاه بالكثير من أوقات السعادة في أيام طفولتها . ولما بلغت الرابعة عشرة من عمرها أقنع أكتافيا بأن تسمح بطلاق ابنها مارسلس من زوجته ، وأغرى الشاب بأن يتزوج يوليا ؛ ولكن مارسلس توفي بعد سنتين من هذا الزواج ؛ وبعد أن حزن عليه يوليا حزنا قصيرا أجل إشرعت تستمتع بحرية طالما تآقت نفسها إليها . غير أن الإمبراطور الشديد الولع بعقد عقود الزواج لم يلبث أن حمل أجريا على كره منه على أن يطلق زوجته ويقترن بالأرملة المرحمة (٢١ ق . م) زاجياً أن يثمر هذا الزواج جنيداً له يرثه بعد وفاته . وكانت يوليا وقتئذ في الثامنة عشرة من عمرها ، أما أجريا فكان في الثانية والأربعين ، ولكنه كان رجلاً صالحاً عظيماً وكان له من الثروة ما يحبب الناس فيه . وقد جعلت يوليا بيته في المدينة ندوة للمرح والفكاهة . وأضحجت هي روح الشباب المرح في العاصمة « على نقيض ليقيا التي كانت تزعم طائفة المتزمين . وانطلقت الألسن تتهم يوليا بخيانة زوجها الجديد وتعز وإليها جواباً غير معقول عن سؤال غير معقول كذلك . فقد قيل إنها سئلت لم كان أبناؤها الخمسة الذين ولدتهم لأجريا مشابهين له فأجابت : « إنى لا أقبل راكباً قط إلا إذا كانت السفينة قد امتلأت Munquam nisi navē plena tollo vectorem » (٤٠) . ولما مات أجريا عقد أغسطس آماله على ولدى يوليا الأكبرين جيوس ولوسيوس ونحمرهما

بحبه ، وعنى بترقيتهما ، وأمر بترقيتهما إلى منصبين كبيرين لانتجيز قوانين البلاد
ترقيتهما إليهما في مثل سنهما . وأصحت يوليا أرملة مرة أخرى ، وكانت أبرع
جمالاً وأكثر ثراء من ذى قبل ، فاندفعت مستهترة في كثير من مغامرات العشق
أطلقت فيها ألسته أهل رومة وجعلتها موضع تندرهم ولهوهم ، وخففت عنهم
ما كانوا يجدونه من الضيق بسبب « القوانين اليوليوسية » . وأراد أغسطس أن
يقطع ألسته السوء عن الولوغ في عرضه ولعله أراد أيضاً أن يزيل ما بين زوجته
وابنته من شقاق فزوجها مرة ثالثة ، فأرغم تيبيريوس ابن ليفيا على أن يطلق
زوجته الحامل فبسانيا أجريپينا Vipsania Agrippina ، ابنة أجريپا ، وأن يتزوج
يوليا التي لم تكن أقل منه كرهاً لهذا الزواج (٩ ق . م) . وبذل هذا الشاب —
وكان من الطراز الرومانى القديم — غاية جهده لكي يكون زوجاً صالحاً ، ولكن
يوليا لم تلبث أن امتنعت عن بذل أى جهد للتوفيق بين حياتها الأبيقورية
وحياته الرواقية ، وعادت إلى مغامرات الحب الخفية . وصبر تيبيريوس
على هذه الفضائح وكظم غيظه إلى حين ؛ وكان قانون يوليا الخاص
بالزانيات Lex Julia de adulteriis يطلب إلى زوج الزانية أن يشكوها إلى
المحاكم ؛ ولكن تيبيريوس عصى هذا القانون لكي يرد الأذى عن واضعه ،
ولعله أراد بذلك أيضاً أن يرد الأذى عن نفسه ، لأنه هو وليفيا كانا
يأملان أن يتبناه أغسطس ، وأن يوليه زعامة الإمبراطورية من بعده . ولما
تبين أن الإمبراطور-يوثر عليه أبناء يوليا من أجريپا اعتزل مناصبه الرسمية ،
وآوى إلى رودس ، وعاش فيها سبع سنين معيشة الرجل العادى البسيط
قضاها في الوحدة والفلسفة والتنجيم . وخلا الجوليوليا ، وكان لها من الحرية
ما لم تستمتع به قط من قبل فأخذت تنقل من عشيق إلى عشيق حتى كان
قصف عشاقها ومرحهم يملآن السوق العامة صخباً وضجيجاً طوال
الليل (١١) .

وقاسى أغسطس وقتئذ (٢ ق . م) ، وهو شيخ عظم في السنين من عمره ،

كل ما يقاسيه أب وحاكم يشهد بعينه انهيار أسرته وشرفه وشرائعه .
وكانت هذه القوانين تحتم على أبي الزانية أن يتهمها بالزنى علناً إذا لم يتم
زواجها بهذا الاتهام . وقد عرضت عليه أدلة قاطعة على سوء سلوكها ،
ولما أعلن أصدقاء تيبيريوس أنهم سيتولون هم اتهام يوليا أمام المحاكم
إذا لم يتهمها أغسطس ، قرر أن يسبقهم إلى العمل ؛ فأصدر قراراً بنفى
ابنته إلى جزيرة بندتيريا Pandateria ، وهي صخرة جرداء بالقرب من
شاطئ كيبانيا ، في الوقت الذي بلغ فيه مرحها وفسادها ذروتها ،
وأرغم أحد عشاقها وهو ابن من أبناء أنطونيوس أن ينتحر ، ونفى عدد
آخر من العشاق خارج البلاد : وقتلت فوبي Phoebe إحدى معوقات
يوليا نفسها شتقاً مفضلة ذلك على الشهادة عليها . ولما سمع الوالد المنكوب
بهذا النبأ قال : « وددت لو أني كنت والد فوبي ولا أكون والد يوليا »

وكان ولداها جيوس ولوسيوس قد سبقاها إلى الدار الآخرة بزمان
طويل ؛ فأما لوسيوس فقد توفي مرسيليا في العام الثاني قبل الميلاد على
أثر مرض من الأمراض ، وأما جيوس فقد مات من جرح أصيب به في
أرمينية (٤ ب . م) . وألني أغسطس نفسه في شيخوخته من غير أنيس
ولا وريث ، في الوقت الذي كانت فيه ألمانيا ، وهانونيا ، وغالة تهدد
بالانتقاض عليه ، فأضطر على الرغم منه إلى استدعاء تيبيريوس (٢ ب . م) ،
وتبناه ، وأشركه معه في الحكم ، وأرسله لإخماد نار الثورة ؛ ولما غاد
في العام التاسع بعد الميلاد بعد حروب طاحنة مظفرة دامت خمس سنين
أقرب رومة ، وكانت تعتمد عليه لنزيمته ، بأن تيبيريوس قد شرع يحكم
البلاد بحق وإن كان أغسطس لا يزال زعيمها .

وبعد فإن آخر مآسي الحياة أن تدوم مأساتها على الرغم من صاحبها -
أي أن يعيش الإنسان بعد أن يخسر كل شيء ، وأن يحرم حتى من الموت . ولم
يكن أغسطس ، إذا نظرنا إلى عدد السنين وحده ، قد بلغ أرذل العمر حين
أخرجت يوليا من البلاد ، فقد كان غيره من الرجال وهم في سن الستين أقوياء

أشداء ؛ أما هو فقد حيي أكثر من حياة ، ومات أكثر من ميتة ، مذ جاء إلى رومة غلاماً في الثامنة عشرة من عمره ليثار لمقتل قيصر وينفذ وصيته . وكم من حرب خاض غمارها من ذلك الحين ، وكم من هزيمة أوشكت أن تحيق به ، وما أكثر ما غانى من آلام وأمراض وتعرض للمؤامرات وأخطار ، وما أكثر ما شاهد من مرارة الحمية ، وانهيار أغراضه النبيلة وتبدها ؛ وقد حدث له كل ذلك في فترة لا تزيد على أربعين عاماً ، ملئت كلها بالآلام والمنغصات ، ورأى فيها آماله تضيق أملاً بعد أمل ، وأعوائه يختطفون منه واحداً بعد واحد ، حتى اختطف منه آخر الأمر تيبريوس العتيد الشجاع نفسه ! ولعله كان يرى وقتئذ أنه كان خيراً له وأحكم أن يموت ميتة أنطونيوس في أوج العظمة وبين ذراعي حبيته . وما من شك في أنه كان يتحسر إذا ما عاد بذاكرته إلى تلك الأيام الجميلة ، حين كان قلبه يفيض بالسيادة إذا رأى يوليا وأجرباً من حوله ، أو شاهد أحفاده يمرحون ويلعبون في أرض قصره . وما هو ذا يرى يوليا أخرى ابنة ابنته قد شبت عن الطوق وأخذت تسير سيرة أمها ، كأنها أخذت على نفسها أن توضح للناس جميع ما ورد في أشعار صديقها أوفيد من أفانين العشق . ولما جاءت أغسطس الأدلة القاطعة على أنها زانية نقاها في عام ٨ ب . م إلى جزيرة في البحر الأدرياتي ، ونفى أوفيد في الوقت نفسه إلى تومي Tomi على شاطئ البحر الأسود ؛ وروى أن الإمبراطور اليائس الضعيف قال وقتئذ : « يا ليتني لم أتزوج قط ، أو ياليتني مت دون أن يكون لي ولدا » وقد فكر في بعض الأحيان أن يميت نفسه جوعاً ولاخ له أن الصرح العظيم الذي شاده قد انهار من أساسه ، ذلك أن السلطات التي اضطاع بها لكي يحفظ الأمن والسلام في ربوع البلاد قد أضعفت مجلس الشيوخ والجمعيات التي استمد منها هذه السلطات ، حتى فقدت كل مقومات الحياة . فقد مل الشيوخ التصديق على ما يطلب إليهم التصديق عليه كما ملوا إطراء أغسطس وتملقه ، فلم يعودوا يحضرون الجلسات . وأما الجمعيات فلم تكن يجتمع فيها إلا حفنة من المواطنين ، وأصبح الموظفون الأكفاء ينفرون من المناصب التي

كانت من قبل تستثير مطامع الرجال المبدعين المبتكرين بما تخلعه عليهم من الجاه والسلطان ، وأضحى هؤلاء يزونها من دواعي الغرور الكاذب الكبير الأكلاف . وحتى السلم التي بسط أغسطس لواءها على البلاد ، والأمن الذي وطد دعائمه في رومة ، قد أضعفا قوى الشعب وأوهنا عزيمته ، فلم يكن أحد يرغب في الانضمام إلى الجيش ، أو يعترف بأن الحرب شر محتوم ، وأن لا بد من خوض غمارها من آن إلى آن ؛ وحل الترف محل البساطة في العيش ، والعلاقات الجنسية الطليقة محل الأبوة والأمومة ، وأخذ الشعب العظيم يسير مسرعاً بإرادته المضمحلة المنهكة في طريق الفناء .

وكان الإمبراطور الشيخ يشهد هذه المآسي ويشعر بها ويدركها حتى الإدراك . ولم يكن في وسع أحد من الناس أن يقول له وقتئذ إن الزعامة العجيبة الحاذقة التي أنشأها ستهب الإمبراطورية الرومانية أطول فترة من الرخاء عرفها البشر في تاريخهم كله ، وإن السلم الرومانية التي بدأت في صورة السلم الأغسطسية ستعد في عصور التاريخ المقبلة أجل الأعمال في تاريخ الحكم والسياسة رغم ما فيها من العيوب الكثيرة وعلى الرغم من أنه قد جالس على العرش في إنائها بضعة ملوك بلهاء . لقد كان أغسطس وقتئذ يعتقد ، كما يعتقد ليوناردو دافنشي ، أنه أخفق فيما كان يبتغيه .

ووافته المنية وهو هادئ ساكن في نولا Nola ، وكان قد بلغ السادسة والسبعين من عمره (١٤ ب . م) ، وقال لأصدقائه الذين التفوا حوله وهو على فراش الموت تلك الكلمات التي طالما اختتمت بها الملهاة الرومانية : « والآن وقد أتقنت تمثيل دوري ، فصفقوا بأيديكم وأخرجوني من المنسرح بتصفيتكم » ، ثم عانق زوجته وقال لها : « تذكرى عشرتنا الطويلة يا ليشيا . الوداع ! » .

ثم فاضت روحه بعد هذا الوداع البسيط^(٢) . وبعد بضعة أيام من وفاته حملت جثته في شوارع رومة على أكتاف الشيوخ إلى ميدان المريخ حيث أحرقت بينا كان أطفال كبار الأسر في البلاد يرتاون ندبة الأموات .

الباب الثاني عشر

العصر الذهبي

٣٠ ق. م - ١٨ م

الفصل الأول

الحافظ الأغسطس

إذا كان الأمن والسلام أكثر ملاءمة لإنتاج الآداب والفنون من الحروب والقتال ، فإن الحرب والهزات الاجتماعية العنيفة تزيل الثرى من حول نبات الفكر ، وتغذى البذور التي تنضج في أوقات السلم . والحياة المادية لا تخلق الأفكار العظيمة ولا عطاء الرجال ، ولكن الأزمات القاسية والكفاح من أجل البقاء تقتلع موات الأشياء من جذورها وتعجل نماء الآراء والأساليب الجديدة . والسلم التي تعقب النصر في الحرب فيها من الخوايز والدوافع ما في دور النقاهاة السريع من حيوية وقوة ، والناس في هذه الفترة يبتهجون لمجرد أنهم أحياء وكثيراً ما يرفعون عقيرتهم بالغناء .

حمد الشعب لأغسطس أنه عالج سرطان الفوضى الذي كان يتقوض دعائم حياتهم المدنية وإن كان قد استعان على ذلك بجراحة كبرى . وقد دهشوا حين ألغوا أنفسهم وقد أثروا لاثراء سريعاً بعد ما حل بهم من الخراب ، وتاهوا كبرياء حين وجدوا أنهم ، رغم ما كانوا يرضحون تحته منذ قليل من ضعف واضطراب ، لا يزالون سادة العالم المعروف لهم . وأنحدوا يعودون بتظهرهم إلى نار يخهم ، من بدايته إلى الوقت الذي يعيشون فيه ، من عهد منشي دومة الأول إلى عهد معبد

حياتها ومجدها ، وقالوا إنه تاريخ عجيب حقاً ، وإنه أشبه ما يكون بملحمة
شعرية . ولم يثر دهشتهم أن يوضع فرجيل وهوراس حدهم ومجدهم
وزهوهم شعرا ، وأن يصوغه لبى نثراً .

وخير من ذلك كله أن الأقاليم التي فتحوها إلا القليل منها لم يكن
يسكنها أقوامٌ لهج غير متحضرين ، فقد كان جزء كبير منها يشمل البلاد
التي تثقفت بالثقافة اليونانية — فكانت ذات لغة رقيقة ، وأدب سام ،
وعلم عظيم ، وفلسفة ناضجة ، وفن نبيل . وأخذت هذه الثروة الروحية
وقتش تدفق على رومة ، وتثير في أهلها الرغبة في تقليدها ومنافستها ،
وتبعث في لغتها وآدابها الحياة والنماء ، فسرت إلى المفردات اللاتينية ،
عشرة آلاف كلمة يونانية ، ودخلت الأسواق الرومانية عشرة آلاف
تمثال ونقش وهيكل وشارع وبيت .

وأخذت الأموال تنقل إلى غير الطبقات العليا ، وإلى الشعراء
والفنانين ، من أيدي الذين استولوا على كنوز مصر ، ومن ملاك الأراضي
الإيطالية الغائبين عنها ، ومن الذين يستغلون موارد الإمبراطورية وتجارتها .
وشرع الكتاب يهدون مؤلفاتهم إلى الأغنياء يرجون بذلك أن ينالوا إعطية
تغنيهم على مواصلة أعمالهم الأدبية ، فأهدى هوراس أغانيه إلى سالست ،
وإليوس لاميا Aelius Lamia ومانليوس تركواتس Manilius Turquatus
وموناتئوس Munatius ، وجمع مسالا كورفينوس Messala Corvinus
حوله طائفة من المؤلفين كان نجمهم اللمع تيبلس Tibullus ، واستعاد
ماسناس ثروته وقيمة شعره بما قدمه من العطايا لفرجيل وهوراس
وإروبرتيوس Propertius ؛ وظل أغسطس حتى سنيه الأخيرة التي
استولى عليه فيها الاضطرب والغيب يجزل العطاء للأدباء ، فكان يسره
أن تتحول إلى الآداب والفنون تلك القوى التي كانت سبباً في اضطراب
السياسة ، فكان يجزل العطاء للمؤلفين ليؤلفوا الكتب ، إذا ما تركوه يحكم
الدولة كما يشاء . وقد ذاعت أنباء سخائه على الشعراء فاجتمعت حوله
طائفة كبيرة منهم تسير في ركابه أينما سار .

وأصرَّ شاعر يوناني على أن يتعقبه كلما خرج من قصره كل يوم ، يعرض عليه أبياناً من الشعر ، فما كان منه في يوم من الأيام إلا أن وقف وهو خارج من القصر وكتب وهو بعض أبيات من عنده ، وأمر أحد أتباعه أن يضعها في يد الشاعر اليوناني ، فعرض الشاعر عليه بضعة دنائير وقال إنه يأسف لأنه لا يستطيع أن يقدم له أكثر منها ، فأجازه قيصر على فكاهته لا على شعره بمائة ألف سسترس^(١) .

ونُشر من الكتب في ذلك الوقت ما لم ينشر مثله في أى عهد من العهود الماضية . أما الشعر فأصبح عمل كل إنسان فيلسوفاً كان أو أبلاً^(٢) . وإذا كان المقصود بالشعر كله وبمعظم الكتب أن يقرأ على الناس بصوت عال ، فقد كانت تعقد الاجتماعات من الأصدقاء الذين يدعون لهذا الغرض ، أو من الجماهير ليقرأ عليهم المؤلفون ثمار قرائحهم . وكان يحدث في أوقات التسامح ، وهي نادرة ، أن يقرأ المؤلفون هذه الثمار بعضهم على بعض . وكان جوفنال Juvenal يقول إن من الأسباب التي تضطره لسكنى الريف هو أن يفر من الشعراء الذين تزدهم بهم رومة^(٣) . وكان الكتاب يجتمعون في محال بيع الكتب التي يزدهم بها حتى الأرجليت Argiletum ليحصى عدد من أنجبهم البلاد من عباقرة الأدب ، بينما كان المفلسون من محبي الكتب يقرؤون خلسة تنفياً من الكتب التي يعجزون عن شرائها . وكانت الإعلانات تلصق على الجدران معلنة أسماء الكتب الجديدة وأثمانها . فكان المجلد الصغير يباع بأربعة سسترات أو خمسة ، والمجلد المتوسط يباع بعشرة (نحو ريال أمريكي ونصف ريال) ، أما الكتب الأنيقة كحكم مارتال Martial والتي كانت تزين في الغالب بصور مؤلفيها فكان الواحد منها يباع بخمسة دنائير أو نحوها (٣ ريالات^(٤)) . وكانت الكتب تصدر إلى جميع أنحاء الإمبراطورية أو تنشر في رومة ، وليون ، وأثينة والإسكندرية في وقت واحد^(٥) . وقد اغتبط مارتال

من أن كتابه يشترى ويباع في بريطانيا . وكان لمعظم الناس في ذلك الوقت حتى الشعراء أنفسهم مكتبات خاصة . ويصف أوفيد مكتبته وصفاً ينم عن تعلقه بها . ويستدل من أقوال مارتينال على أن المولعين باقتناء الكتب قد وجدوا حتى في ذلك العهد السحيق ، فكانوا يجمعون النسخ الأنيقة الفخمة والمخطوطات النادرة ؛ وقد أنشأ أغسطس دارين من دور الكتب العامة ، وحلوا حذوه تيبيريوس ، وقسپازيان ، ودومتيان Domitian ؛ وتراچان ، وهديان ، فلم يحل القرن الرابع قبل الميلاد حتى كان في رومة وحدها ثمان وعشرون من هذه الدور . وكان الأجانب من الطلاب والكتاب يقبلون عليها وعلى المخطوطات العامة للدرس والبحث ؛ فأقبل ديونيشيوس من هليكرنسس Halicarnassus ، وديودوز من صقلية وأخذت رومة تنافس الإسكندرية في الحياة العلمية ، وأضحت العاصمة الأدبية للعالم الغربي . وكان هذا الازدهار سبباً في تحول الأدب والمجتمع كله عما كان عليه من قبل ، فعلت مكانة الآداب والفنون ، وأخذ النحاة يحاضرون عن الأحياء من المؤلفين ، وكان الناس ينشدون مقطوعات من أقوالهم في الطرقات ، والكتاب يختلطون بكبار الحكام وبنساء الطبقات العالية في الندوات الخاصة إلى حد لم يشهد التاريخ له نظيراً من بعد إلا في عصر ازدهار الآداب في فرنسا . وأضحى الأشراف أنفسهم رجال أدب ، كما أضحى الأدب نفسه أرستقراطياً ، وحل محل فجورينوس ، وپوتس ، ولكريشيوس العارم جمال رقيق أو تعقيد بغيص في التعبير والتفكير . وامتنع الكتاب عن الاختلاط بالجهال ، فامتنعوا بذلك عن وصف أساليبهم في الحياة وعن التحدث بلغتهم ، فبدأ الأدب ينفصل عن الحياة انفصلاً أفقد الآداب اللاتينية ما كان لها من حيوية . وأضحت الآداب تصاغ على الأنماط اليونانية ؛ كما كانت موضوعاتها تؤخذ من التقاليد اليونانية أو من بلاط أغسطس . وكان الشعراء إذا بقي لديهم وقت بعد وصف الرعاة على نحو ما كان يفعل ثيوكرينس ، أو الحب كما كان يفعل أناكريون Anacreon ،

(٥ - ج ٢ ، مجلد ٢)

يقضونه في التغنى بجمال الزرع وبفضائل الآباء ، ومجد رومة وعظمة الآلهة .
وسار الأدب في ركاب الحكم ، وأضحى مواعظ تدعو الأمة إلى الاستمسك
بالأفكار الأغسطية .

وكانت في البلاد قوتان تقاومان تسخير الأدب لخدمة الدولة على النحو
السالف الذكر . أولاهما « جموع هوراس البغيضة الدنسة » التي كانت
تحب الأدب القديم والمسرحيات القديمة وما فيهما من هجولاذع وتجريح
وتفضلهما على جمال الأدب الجديد المعطر المنمق . أما القوة الثانية فكانت
دنيا الأراذل والعاهرات ، دنيا المرح والرذيلة ، التي كانت تنتمى إليها كلوديا
ويوليا . وقد ثارت هذه الفئة الغنية ثورة جاححة على القوانين اليوليوسية ،
وكانت تعارض كل إصلاح خلقي ، وكان لها شعراؤها ، ومجامعها
ومعاييرها الأخلاقية والاجتماعية . وأخذت القوتان المتعارضتان تتطاحنان
في الأدب كما تتطاحنان في الحياة ، فتلتقيان تارة كما التقنا في تيبلس ،
وهروبيرتوس ، وتقاومان تقي فرجيل وعفته ببذاءة أوفد وجراته ،
وتقضيان على يوليا وابنتها(*) وعلى شاعر بالنى من البلاد ، وتظلان في
هذا التطاحن حتى تنهك كلتاهما الأخرى العصر الفضي . ولكن ضمائر
الأحداث العظيمة ، وما هيأته الثروة والسلم للناس من فراغ أطلق
قرايحهم ، وعظمة العالم الذي كان يدين لرومة بالطاعة ، كل هذا قد
غلب على ما في طبيعية الدولة من جمود ، وأنتج عصراً ذهبياً ظل الناس
في مستقبل الأيام يرون أنه أخرج أكمل الأدب طرا في صورته ولفظه .

(*) يقصد يوليا ابنة أغسطس وابنتها يوليا . (المترجم)

الفصل الثاني

فرجيل

ولد فرجيل أحب الرومان إلى القلوب في عام ٧٠ ق . م في ضيعة قرب Mantua حيث يتعرج نهر منسيو Mincio ويتجه على مهل نحو البو . ولم تنجب العاصمة من بعده إلا عدداً جديداً قليل من العظماء ، فقد كانوا في القرن الذي تلا مولد هذا الشاعر والذي ولد المسيح في منتصفه يقيمون من إيطاليا ، ثم جاءوا فيما بعد ذلك من الولايات . ولعل الدم الكافي كان يجري في عروق فرجيل لأن الغالين سكنوا متوا قبل مولده بـ ١٠٠ سنة . وكان هو من الوجهة القانونية غالياً المولد لأن أهل غالة الجنوية لم يمنحوا حق المواطنة الرومانية على يد قيصر إلا بعد مولده بـ ١٠٠ سنة . ولعل هذا هو الذي جعل هذا الشاعر الذي كان أفصح من تغني بعظمة رومة ومصيرها لا يذكر فيما بعد شيئاً عما يتصف به الجنس الروماني من قوة في الجسم وقدرة على مغالبة الضعاب ، بل يتغنى بما في خلق الكلت من تصوف ورقة ورشاقة ، وهي صفات قل أن يجدها الإنسان في العنصر الروماني الأصيل .

وكان والده كاتب محكمة ، فاذخر من مرتبه ما يكفي لشراء ضيعة وتربية النحل فيها ، وقضى الشاعر طفولته في هذه البيئة الهادئة الطنانة ، ولذلك ظلت أشجار الشمال الظليلة ومياهه الغزيرة عالقة بخياله بعد أن شب وترعرع ، ولم يكن يحس بالسعادة الخفة إلا بين تلك الحقول والمجاري المائية . ولما بلغ الثانية عشرة من عمره أرسل إلى المدرسة في كرمونا Cremona ، ثم أرسل في الرابعة عشرة إلى ميلان ، وفي السادسة عشرة إلى رومة ، وهنا درس البلاغة وما يتصل بها من الموضوعات على الرجل الذي درسها عليه أكتافيان

فيما بعد : والراجح أنه حضر بعدئذ محاضرات سيرو Siro الأبيقورى في نابلى ، وبذل غاية جهده ليتقبل فلسفة اللذة ، ولكن نشأته الريفية حالت بينه وبين هذا الهدف ، ويلوح أنه عاد إلى موطنه في الشمال بعد أن أتم دراسته ، وذلك لأننا نجده في العام الرابع بعد الميلاد يسبح في الماء لينجو بحياته من جندى اغتصب ضيعة أبيه ؛ فقد صادرها أكتافيان وأنطونيوس لأن هذه البلاد انتصرت إلى أعدائهما . وحاول أسنيوس پليو Asinius Pollio العالم وحاكم غالة الإيطالية أن يرد الضيعة إلى مالكيها ولكنه عجز ، فعرضه عن ذلك بأن تولى رعاية الشاب فرجيل وشجعه على الاستمرار في كتابة « المختارات Eclogues » وهي القصائد التي كان ينشئها في ذلك الوقت . ولم يكد يجل عام ٣٧ حتى كان اسم فرجيل على كل لسان في رومة . ذلك أن المختارات نشرت قبيل ذلك الوقت وتقبلها أهل رومة بقبول حسن ، وكانت إحدى الممثلات قد أنشدت أبياتها على المسرح ، وصدق لها النظارة تصفيقاً ملؤه الحماسة والإعجاب^(٦) . وموضوع القصائد هو وصف الرعى والرعاة على نمط قصائد ثيوقريطس Theocritus ، ونجد فيها أحياناً ألفاظها نفسها ؛ وهى جميلة الأسلوب والتوقيع وأنغامها أجمل الأنغام السداسية الأوزان التي استمعت لها رومة في تاريخها كله ، وهى مليئة بالحنان التأملى ، والحب التخيل . ذلك أن الشاب وإن قضى شطراً كبيراً من حياته في العاصمة قد انفصل عنها زمناً يكفي لأن يجعله يمجّد حياة الريف ويعدها المثل الأعلى للحياة الحقة . وكان من أثر شعره أن أصبح كل إنسان يسره أن يتخيل نفسه راعياً يسير مع قطعانه على سفوح الأبنين صاعداً أو نازلاً ، ويحطم قلبه بالحب وصد الحبيب .

وكان أكثر واقعية من هذه الأشباح الثيوقريطية(*) ما كان في شعر فرجيل

(*) أى الشبهة بالأشباح التي يصفها في شعره ثيوقريطس شاعر الرعاة اليونانى الذى عاش في القرن الثالث قبل الميلاد . (المترجم)

من وصف للمناظر الريفية . وقد مجد فرجيل هذه المناظر أيضاً كما مجد
مناظر الرعى واتخذها هى الأخرى مثلاً أعلى للحياة ؛ ولكنه هنا لم يكن
مقلداً ، فقلعه استمع من قبل إلى أغاني الخطاب الشهوانية ، وشهد بعينه
النحل القلق يجوم حول الأزهار^(٨) ، وعرف يأس الزارع الخلى البال
الذى خسر أرضه كما خسر آلاف الناس أراضيهم فى تلك الأيام^(٩) . على
أن أهم من هذا كله أنه كان شديد الإحساس بما كان يرتجيه ذلك العصر
من القضاء على التخرب والحرب . وكانت الكتب السبيلية Sibylline قد
تنبأت بأن عصر زحل الذهبى سيعود مرة أخرى بعد العصر الحديدي ؛
والأ أن ولد فى عام ٤٠ ق . م ولدت لأسينيوس پليو نصير فرجيل أعلن الشاعر
فى الكتاب الرابع من المختارات أن مولده سيكون بداية المدينة الفاضلة فقال :
والآن يعود العصر الأخير الذى (يبشر به) نشيد كومية (سبيل) ،
وهاى ذى الأحقاب العظيمة المتعاقبة تولد من جديد وتعود العذراء^(*) ،
ويعود حكم زحل (Saturn) وينزل من السماء العليا جيل جديد ؛ أى
لوسينا الطاهرة العفيفة (زبة المواليد) ! ابتسمى للغلام الذى ولد منذ قليل ،
والذى سيزول فى عهده لأول مرة جيل الحديد ، وينشأ فى العالم جيل
الذهب . إن إلهك أبابو قد أصبح الآن ملكاً على الأرض .

وتحققت هذه النبوءات بعد عشر سنين من ذلك الوقت ، فتخلص
الناس من عدد الحرب الحديدية ، وسيطر على البلاد جيل جديد مسلح
بالذهب ومفتون به ؛ ولم تشهد رومة فى السنين القليلة الباقية من حياة
فرجيل اضطرابات جديدة ، وعمها الرخاء والسعادة ، وحيا الناس أغسطس
ولقبوه بالمتقصد وإن لم يلقبوه أبولون . ورحب بلاط الإمبراطور —
وإن لم يكن فيه من مظاهر العظمة والآهة إلا نصف ما فى بلاط الملوك —

(*) هى أستريا Astraea أو العدالة ، وهى آخر من غادر الأرض من الآدميين كما ورد
فى أسطورة عصر زحل . (المترجم)

بما فى شعر فرجيل من تفاؤل ؛ واستقدمه إليه ماسيناس ، وأحبه ، ورأى فيه أداة شعبية ينفذ بها إصلاحات أكتافيان . وكان حكمه هذا دليلاً على بعد نظره ؛ ذلك أن فرجيل - وكان فى الثالثة والثلاثين من عمره - كان يبدو وقتئذ رجلاً ريفياً سمحاً ، شديد الحياء إلى حد يجعله يتلعثم إذا تكلم ، يتجنب الظهور فى أى مكان عام يمكن أن يعرفه الناس فيه ويشيروا إليه ، لا يطبق مجتمعات رومة الراقية الحديثة المهددة المتطاولة . وفوق هذا فقد كان فرجيل معتل الجسم كأغسطس بل أكثر منه اعتلالاً ، يشكو شكوى مستمرة من الصداغ وأمراض الحلق ، واضطرابات المعدة والبصاق الدموى الكثير . ولم يتزوج فرجيل قط ، ويلوح أنه لم يكن أكثر إحساساً بالحب العارم الطليق من بطة إنياس . ويبدو أنه أتى عليه حين من الدهر كان يواسى نفسه فيه بالعطف على غلام من الرقيق ؛ أما فيما عدا هذا فقد كان معروفاً فى نابلى باسم « العذراء » (١٠) .

وكان ماسيناس كريماً فى معاملة الشاعر الشاب ، فأقنع أكتافيان بأن يرد له ضيعته ، واقترح على الشاعر أن يكتب عدة قصائد يمجّد فيها الحياة الزراعية . وكانت إيطاليا فى ذلك الوقت (٣٧ ق . م) تجزى أشد الجزاء على تحويل كثير من أرضها الزراعية إلى مراعى وبساتين ، وكروم ؛ وكان سكستس يمحى بمنع عنها الطعام الذى يرد من صقلية وأفريقية ؛ ونقص القمح ينلها بانفجار بركان الثورة من جديد . وكانت حياة المدن توهن ما فى شباب إيطاليا من رجولة ، ولاح أن صحة الأمة من جميع نواحيها تتطلب العودة إلى حياة الزرع . فلما اقترح ماسيناس على فرجيل أن يكتب القصائد التى تمجّد الزرع أجاب الشاعر الطلب من فوره ، فقد كان علماً بحياة الريف ، وكان أجدر الناس بتصوير ما فيها من جاذبية وجمال معتمداً على ما اختزنه فى ذاكرته من حب لها عظيم ، وإن كان ضعيف صحته فى ذلك الوقت يحول بينه وبين احتمال ما فيها من صعاب . وخبلاً

للشاعر نفسه . ناهي ، وبعد أن ظل يعمل سبع سنين خرج على العالم بأعظم ما أنشأه من القصائد وهي القصيدة المعروفة باسم *Georgics* وترجمتها الحرفية « العمل في الأرض » . وسر منها ماسيناس وجاء معه بفرجيل إلى الجنوب ليقابل أكتافيان ، وكان وقتئذ (٢٩ ق . م) عائداً من انتصاره على كليوبطرة . واستراح القائد المصنف . بلدة أتلا *Atella* الصغيرة ، وأخذ يستمتع أربعة أيام كاملة لألفي بيت ، وهو مأخوذ بجملها مفتن بسحرها . هذا إلى أن القصائد تتفق مع سياسته اتفاقاً يفوق كل ما كان يتوقعه ماسيناس . فقد كان يعتزم الآن أن يسرح الجزء الأكبر من جيوشه الجارية التي ساد بها العالم : وأن يعمل على أن يستقر جنوده المضربون في الأرض فيستطيع بذلك أن يهدي بالهم ، وأن يطعم المدن الإيطالية ، ويحفظ كيان الدولة ، كل ذلك بفلح الأرض في الريف . وأصبح فرجيل من ذلك الوقت حراً في أن يفكر في الشعر دون غيره .

في هذه القصائد نرى فناً عظيماً يعالج أشرف الفنون بأجمعها — فن زراعة الأرض . وفيها يأخذ فرجيل عن هزيود *Hesiod* وأراتس *Aratus* ، وكاتو ، وقارو ولكنه يحول نثرهم الخشن أو أبياتهم العرجاء إلى شعر رقيق مصقول ؛ وهو يطرق جميع فروع الفلاحة ويوفيهما حقها — فيتحدث عن أنواع التربة ووسائل علاجها ، وفصول الزرع والحصاد ، ويبحث في غرس أشجار الزيتون والكروم ، وتربية الماشية والخيل والضأن ، والعناية بالنحل . ويستهو به كل عمل من أعمال الزراعة ويثير اهتمامه ويستحوذ على فكره حتى ليجتاح إلى أن يحذر نفسه من الانهماك في الموضوع الذي يتحدث عنه . ونسيان ما بعده ، فيقول :

« ولكن الوقت يمر مرأً سريعاً ، وما مر منه لا يمكن أن يعود أبداً ، على حين أننا نحن يسحرنا حب (موضوعنا) فنطيل الوقوف عند كل دقيقة من دقائقه » . ولا ينسى فرجيل أن يقول كلمة عن أمراض الحيوانات وطريقة علاجها ، ويصف حيوانات المزرعة المعروفة وصفاً يدل على فهمه

لطبايعها وعطفه عليها ، وهو لا يفرغ أبداً من الإعجاب ببساطة غرائزها وقوة انفعالاتها ، وكمال أشكائها . وهو يمجّد الحياة الريفية ويجعلها هي المثل الأعلى للحياة ، ولكنه لا ينسى ما فيها من المشاق ومن تقلبات الحظوظ ، ومن الجهود المضنية ، والكفاح الدائم للحشرات ، وتناوب الجذب والعواصف ، وما تسببه هذه وتلك لأهل الريف من عذاب أليم . ولكن العمل في رأيه يفرّج كل شيء^(١٢) ، كما أن للجهود التي تبذل في أعمال الزراعة غرضاً ونتيجة تكسبها كرامة ، وليس لأى روماني أن يشعر بالخجل من قيادة المحراث . ومن أقوال فرجيل إن الأخلاق الكريمة تنشأ في المزارع ، وإن جميع الفضائل التي قامت على أساسها عظمة رومة قد غرست وغذيت في الريف ، وإن الإنسان قلما يجد عملاً من أعمال إلقاء البذور ووقايتها ، والغرس والعزق والحصاد إلا له ما يقابله في تنمية الروح وتقويتها ، وإن الروح إذا كانت في الحقول ، حيث معجزات النماء وتقلبات الجواء تنبئ عن وجود القوى الخفية ، لتحسن بوجود الحياة المبدعة الخلقة ، وتتأثر بالإلهام الإلهي ، وتدرك ضآلتها أمام عظمة هذه الحياة ، وتمتلئ بإجلالها وتعظيماً ، أسرع من إحساسها وتأثيرها وإدراكها لذلك كله وامتلأها به في المدينة . وهنا ينشد أشهر أبياته كلها ، ويبدوها بتزديد صدى معاني لكريشوس ، ولكنه ينشدها بنعمة فرجيلية خالصة فيقول :

« ألا ما أسعد الرجل الذي استطاع أن يتعلم علل الأشياء ، ويطأ بقدمه جميع المخاوف والأقدار القاسية العنيدة وصخب الجحيم الشره . ولكن الرجل الذي يعرف الأبواب الريفية فإن ، وسلفانوس الهرم ، والأخوات الحوريات لا يقل عنه سعادة^(١٣) » . وهو يرى أن الزارع على حق حين يستضيئ بالآلهة بالصحايا ، ويستجلب عطفها ورضائها ، لأن هذه الأعمال الدالة على التقى والصلاح تبعث بأعيادها وحفلاتها الضياء في أعمال الفلاحة الشاقة ، وتخلع على النخوص وعلى الحياة معنى ، وشاعرية وخيالا ذا روعة .

وكان دريدن يرى أن هذه القصائد « خير أشعار أحسن الشعراء (١٤) » .
وهي تشترك مع De Rerum Natura في تلك الميزة النادرة الوجود وهي
أنها تلقينية جميلة معاً . ولم تأخذها رومة يجد على أنها كتاب في الزراعة ،
ولسنا نعرف أن أحداً ممن قرؤوها قد استبدل المزرعة بالسوق العامة ؛ ولعل
فرجيل إنما كتب هذه النفعات الريفية كما يظن سنكا ليطرب بها أهل
المدن . ومهما يكن من شيء فقد أحس أغسطس أن فرجيل أدى الأمانة
التي عرضها عليه مناساس على خير وجه وأكمله ، فاستدعى الشاعر إلى
قصره واقترح عليه أن يقوم بواجب أشق من الأول موضوعه أوسع
وأعم من الزرع وحياة الريف .

الفصل الثالث

الإنياذة

لقد كانت الفكرة الأولى أن يتغنى فرجيل بمعارك أكتافيان (١٥) ، ولكن ما يفترضه القدماء من انحدار قيصر ربيب أكتافيان من الزهرة (فينوس) وإنياس هو الذى جعل الشاعر - أو لعله جعل الإمبراطور - يفكر فى إنشاء ملحمة فى تأسيس رومة . ثم تفتح الموضوع أمام الشاعر ، فشمّل الأحداث التى وقعت بعد تأسيس رومة ، والتنبؤ بإنشاء إمبراطورية أغسطس ، وبالسلم التى كانت أثراً من أعماله . وشمّل مشروع الملحمة أيضاً وصف أخلاق الرومان فى أثناء هذه الأعمال المجيدة ، والسعى نبث حب الفضائل القديمة فى قلوب الرومان ، وتصوير بطلها فى صورة الإنسان الذى يعظم الآلهة ، ويهتدى بهديها ، ويدعو إلى الإصلاحات والمبادئ الأخلاقية التى دعا إليها أغسطس فيما بعد .

فلما رسم فرجيل خطوط الملحمة الرئيسية آوى إلى عدة أماكن نائية منزلة فى إيطاليا ، وقضى العشر السنين التالية (٢٩ - ١٩) فى تأليف الإنياذة . وكان يكتب فيها على مهل مخلصاً فى عمله لإخلاص فلوبر Flaubert ، فيملى بضعة أسطر فى صدر النهار ثم يعيد كتابتها فى الإصيل .

وكان أغسطس فى هذه الأثناء ينتظر إتمام الملحمة بفارغ الصبر ، وكثيراً ما كان يسأل عما تم منها ، ويلجّ على فرجيل بأن يبعث إليه كل ما يفرغ من كتابته . وظل الشاعر يستمعه أطول وقت مستطاع ، ولكنه أخيراً قرأ له الكتب الثانية والرابعة والسادسة منها . ولما سمعت أكتافيا أرملة أنطونيوس الفقرة التى تصف ابنها مرسلس الذى مات من عهد قريب ، أغمى عليها (١٦) .

ولم تمّ الملحمة ولم تراجع المراجعة الأخيرة ، لأن فرجيل سافر إلى بلاد

اليونان في عام ١٩ ق . م والتقى بأغسطس في أثينة ، وأصيب بضربة شمس في مجاراً ، فقفل راجعاً إلى بلده ومات بعد أن وصل برنيزيوم بزمان قليل ، وطلب وهو على فراش الموت إلى أصدقائه أن يتلفوا مخطوط الملحمة قائلا إنه كان يحتاج إلى ثلاث سنين على أقل تقدير لصقلها وإعدادها للنشر ، ولكن أغسطس أمرهم ألا ينفذوا هذه الوصية .

أما قصة الإنياذة فيعرفها كل تلميذ . وخلاصتها أنه بينما كانت مدينة طروادة تحترق يظهر شبح هكتور القتيل إلى « إنياذ الصالح » قائد أحلافه الدروانيين ، ويأمره أن يستعيد من اليونان ما كان في طروادة من « أشياء مقدسة وآلهة منزلية » . وأهمها كلها البلاديوم Palladium أو صورة پلاس أثيني Pallas Athene ؛ وكانوا يعتقدون أن بقاء الطرواديين موقوف على الاحتفاظ بها . وفي ذلك يقول هكتور Hector بظلمهم المعروف : « ابحثوا عن هذه » الرموز المقدسة « لأنكم بعد أن تطوفوا بالبحار ستقيمون لكم آخر الأمر مدينة عامرة » (١٧) . ويفر إنياس مع أبيه الشيخ أنكيسيز Anchises وابنه اسكنيوس ، فيركبون سفينة تقف بهم في أماكن مختلفة ، ولكن أصوات الآلهة تناديهم على الدوام أن يواصلوا السير . وتدفعهم الريح إلى مكان قريب من قرطاجنة حيث يجدون أميرة فينيقية تدعى ديدو Dido تشيد مدينة جديدة . (وبينا كان فرجيل يكتب هذا كان أغسطس ينفذ مشروع قيصر وهو إعادة بناء قرطاجنة) . ويقع إنياس في حب الأميرة ، وتنب عاصفة مواتية فتتيح لها الفرصة لأن يلجأ معاً إلى كهف واحد ، ويتم بينهما ما تعده ديدو زواجاً ، ويقبل إنياس تفسيرها هذا إلى حين ، ويشترك هو وزجاله وهم راضون في بناء المدينة ، ولكن الآلهة القاسية ، التي لا تراها قط في الأساطير القديمة تعني كثيراً بالزواج ، تنذره بالسفر وتقول له إن هذه ليست هي البلدة التي يجب عليه أن يتخذها عاصمة له . ويصلح إنياس بما يؤمر ، ويترك الملكة الحزينة وهو يودعها بهذه الألفاظ الشبيهة بالغناء :

« لن أنكر قط أيتها الملكة أنك تستحقين منى ما تعجز الألفاظ عن التعبير عنه ... إني لم أمسك قط مشعل الزوج ولم أقسم بيمين الزواج ... ولكن أبلو قد أمرنى الآن بركوب البحر ... فامتنعنى إذن عن أن تهلكى نفسك وتهلكينى بهذه الشكايات : إني لا أسعى إلى إيطاليا بمحض إرادتى » (١٨).

« روأسعى إلى إيطاليا بمحض إرادتى » ، هذا هو سر القصة ومحورها الذى تدور عليه ، ونحن الذين نحكم على فرجيل وبطله بعد ثمانية قرون من كتابة الأدب العاطفى وقراءته ، نعلق على الحب الروائى ، وعلى العلاقات بين غير الأزواج ، أكثر مما كان يعلقه عليها اليونان والرومان . فقد كان الزواج عند الأقدمين رابطة بين الأسر أكثر مما كان رابطة بين الأجسام والأرواح ، وكانت مطالب الدين أو الوطن أسمى منزلة من حقوق الأفراد ونزواتهم . ويعطف فرجيل على ديدو ويسمو إلى ذروة البلاغة فى فقرة من أجل فقرات ملحمته حين يحدث عنها وهى تلقى بنفسها فوق كومة من الخطب المعد لحرق الموتى وتحرق نفسها حية ؛ ثم يسير فى ركاب إنياس إلى إيطاليا .

وينزل القرطاجنيون إلى البر عند كومي ثم يثيرون إلى لاتيوم حيث يستقبلهم ملكها لاتانس ويرحب بهم وكانت ابنته لافينيا Lavinia مخطوبة لترنس Turnus وهو شاب وسيم وزعيم الروتوليين المجاورين لهذه المدينة ، ويوقع إنياس الجفوة بينها هى وأبيها وبين خطيبها ؛ ويعلن ترنس الحرب عليه وعلى لاتيوم ، وتنشب معارك حامية الوطيس . وتعزم سيبيلى الكومائية Cumaeen Sibyl أن تقوى إنياس وتشجعه ، فتأخذه إلى تارتاروس بطريق بحيرة إيرنس Aernus . وكما أن فرجيل قد كتب ملحمة عن تجوال إنياس على نمط أوديسية هومروس وأخرى قصيرة عن حروبه شبيهة بالإلياذة ، فإنه الآن يستوحى رحلة أوديسيوس فى الجحيم ، ويصبح هو نفسه مثلاً يحتذىه دانتي ويهتدى بهديه فى ملهاته المقدسة . وفى هذا يقول فرجيل : « ما أسهل النزول إلى الجحيم Facilis descensus

Averni ، ولكن بطله يجد الطريق إليها وعراً شديداً العذاب ، كما يجد العالم السفلى معقداً شديداً الاختلاط . وفي هذا العالم يلتقي بديدو ، فتشيع بوجهها عما بينه من وجده ، ويشهد ضروب العذاب التي يعاقب بها من ارتكبوا الذنوب على وجه الأرض ، والسجن الذي يعذب فيه أنصاف الآلهة (*) المتوردون كما يعذب الشيطان . ثم تأخذه سيبيلا إلى أليك السعداء حيث ينعم الصالحون في الأودية الخضراء بالنعيم السرمدي . وهنا يشرح له والده أنكيسيز ، الذي توفي في الطريق ، أسرار الجنة ، والمطهر والجحيم ويصور له في أوضح صورة وأشملها مجد رومة وأبطالها في مستقبل الأيام . وتكشف له الزهرة في رؤيا أخرى عن موقعة أكتيوم وانتصارات أغسطس وبعد أن تنتعش روح إنياس بهذه المناظر يعود إلى عالم الأحياء ، ويقتل ترنس ، وينشر الموت من حوله ببطشه وشدة بأسه . ويتزوج بلثينا الخيالية ثم يموت والدها فيرث عرش لانيوم ، ولا يلبث أن يخرج صريحا في إحدى المعارك ، وينقل إلى جنان الفردوس ، ويشيد ابنه أسكانيوس Ascanius ألبانجا لتكون عاصمة جديدة للقبائل اللاتينية ، ومنها يخرج من نسله رمبولوس وريموس ليشيدا مدينة رومة .

ويبدو أن من سوء الأدب أن ينتقد الإنسان نفسه كريمة رفيعة كنفس فرجيل لما تغمر به بلدها وإمبراطورها من ثناء وتعظيم ، أو أن ينقب الإنسان عن عيوب في ملاحم لعله لم يرغب قط في كتابتها ، ولم يعش ليتها . ولا حاجة إلى القول بأنه كتبها على نمط الملاحم اليونانية ، وتلك هي السنة التي جرى عليها الأدب الروماني كله إذا استثنينا منه الهجاء والمقالة . غير أننا نستطيع لأنفسنا هذا القدر من النقد ، وهو أن مناظر المعارك الحربية ليست إلا أصداء ضعيفة لما في مناوشات الإلياذة من قعقة وضجيج ، وأن أورورا Aurora

(*) أي من كان في طابعهم شيء من الألوهية وخاصة أولئك الأبطال الذين تصفهم الأساطير بأنهم تناسلوا من زواج الآلهة بالآدميين . (المترجم)

تظهر في الإنيادة بقدر ما تظهر ربة الفجر ذات الأصابع الوردية في الإلياذة هومر . ويستعير الشاعر من نثيفيوس وإنيوس ، ولكريشيوس حوادث وعبارات ، وسطوراً كاملة في بعض الأحيان ، كما أن أبولونيوس الرودسي Apollonius of Rhodes هو الذي يمدد بالمثل الذي يحتلّه في حب ديدو المفجع ، وهذا النموذج هو أرجوتونكا Argonautica . وكانت هذه الاستعارات الأدبية جائزة لا غبار عليها في عصر فرجيل ، كما كانت جائزة في عصر شيكسبير ، ذلك أنه كان ينظر إلى آداب البحر الأبيض المتوسط كلها على أنها تراث عقول البحر الأبيض المتوسط كلها ، والمعين الذي تستمد منه هذه العقول . ولا جدال في أن ما تقوم عليه الملحمة من أساطير تعب القارئ وتبعث في نفسه الملل ، وذلك لأننا نضع لأنفسنا الآن أساطير أخرى جديدة ، ولكن الذي لا شك فيه أيضاً أن هذه الإشارات واللمحات الإلهية التي تتخلل القصيدة كانت مألوفة محبوبة حتى لقراء الشعر الروماني المتشككين . ولنا نجد في ملحمة فرجيل العليل ذات الشعر الهادئ السلس ما نجده في قصة هومر من حوادث دافقة ، كما أننا لا نجد فيها الحقائق التي يسرى فيها دم الحياة والتي تحرك جبابرة الإلياذة ، أو أمل إثكا Ithaca السذج . يضاف إلى هذا أن قصة فرجيل كثيراً ما تمشى الهوينا ، وأن أشخاصه كلهم تقريباً مرضى إلا الذين يهجرهم إنياس أو يقضى عليهم . وديدو الإنيادة امرأة حية لطيفة ، خادعة ، شديدة الانفعال ، وترنس محارب ساذج شريف يغدر به لائنس ، وتحكم عليه الآلهة السخيفة بموت هو غير جدير به . وبعد أن يقرأ الإنسان عشر مقطوعات كلها نواح وندب ، تشمئز نفسه من « تقي » إنياس الذي يتركه مساوب الإرداة . يُغتفر له عذره ، ولا يواتيه النجاح إلا بتدخل القوى السماوية ، وفوق هذا كله فإننا لا نستمتع بالخطب الطويلة التي يقتل بها الشاعر الصالحين من الرجال ، والتي تكون بلاغتها سبباً آخر من أسباب مللنا ، يضاف

إلى هذا ما نجده فيها من تمحيص هو محك الإنسانية الناقية لمعرفة الحقيقة .

وإذا شئنا أن نفهم الإنياذة على حقيقتها ونقدرها التقدير الذى هى جديرة به كان علينا أن نتذكر فى كل قسم من أقسامها أن فرجيل لم يكن يكتب رواية خيالية ، بل كان يكتب لرومة كتاباً مقدساً ، وليس ذلك لأنه يقدم لها شريعة دينية واضحة ، فإن الآلهة الذين يسرون الحوادث فى تمثيلته من وراء الستار لا يقلون خبثاً عن آلهة هومر ، وإن لم يكونوا قريبين من البشر الفكهين قرب هؤلاء ، بل إنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن كل ما فى القصة من شر وشقاء ليس منشؤه من فيها من رجال ونساء بل منشؤه الآلهة أنفسهم . وأكبر الظن أن فرجيل لم يكن يرى فى أوائل الأرباب إلا أنهم أدوات لشعره ، ورموز للظروف الظالمة المستبعدة ، والحدائث المفاجئة التى تخل بسير العالم المنتظم ، الرتيب وهو على العموم يتذبذب بين جوف رب الأرباب وبين القدر الاشخصى ، فهذا يسيطر على الكائنات نارة وذلك يسيطر عليها نارة أخرى . وآله القرية والحقل أحب إليه من آلهة أولمبس ، فهو لا يترك فرصة تتاح له إلا لمجد الأوبى . ووصف طقوسها ومراسمها ، وتغنى لو استطاع الناس أن يعرجوا إلى ما كانوا عليه من حب الآباء ، والوطن ، والآلهة ، وهو الحب الذى كانت تغذيه العقيدة الريفية البدائية : « أسنى على تقوى الأقدمين وإيمانهم ! » غير أنه لا يؤمن بالفكرة القديمة عن الجحيم حيث يحشر الموتى جميعاً الصالح منهم والطالح بل تخالجه أفكار أرفية(*) فيثاغورية عن تجسد الأرواح بعد الموت ، وعن الحياة فى الدار الآخرة ، وهو يوضح إلى أقصى حد يستطيعه فكرة الثواب فى الجنة والمطر ، والعقاب فى الجحيم .

لكن الدين الحقيقى فى الإنياذة هو دين الوطنية ، وإلهها الأعم هورومة

(*) نسبة إلى أرفيوس وهو الشاعر الذى يقال عنه إنه كان يحرك الجهاد بصوت مزماره .

(المترجم)

لمصير رومة هو المحرك لحبكة القصة ، وكل ما فى القصة من محن وشدائد إنما يرجع إلى « الواجب المضمنى واجب بعث الشعب الرومانى *tantae molis erat Romanam Condere gentem* » . والشاعر فعور بالإمبراطورية فخراً يمنعهُ أن يحسد اليونان على تفوقهم فى الثقافة ويقول فى ذلك : فاتهمول الشعوب الأخرى الرخام والبرنز إلى شخوص حية ولترسم مسارات النجوم .

« أما أنت يا ابن رومة ، فواجبك أن تحكم العالم ، وستكون فنونك أن تعلم الناس طرائق السلم ، وأن تشفق على الدليل ، وتذل الفخور (٢٠) » . وفرجيل لا بأسف على موت الجمهورية ، وهو يدرك أن حرب الطبقات هى التى قضت عليها ولم يقض عليها قيصر ؛ وهو فى كل جزء من أجزاء قصيدته يبشر بأن حكم أغسطس سيعيدها سيرتها الأولى ، ويرحب به ويصفه بأن حكم زحل قد عاد إلى الأرض ، ويعده بأنه سيجزى على عمله بأن يحشر فى زمرة الأرباب . وقصارى القول أن أحداً من الناس لم يوف بما أتى على كاهله من واجب أدبى بأكمل مما وفى به فرجيل .

يبقى بعد ذلك أن نسأل لم نحتفظ بحبنا الشديد لهذه الدعاوة للتقى وصالح الأخلاق ، وحب الوطن ، والنصرة الإمبراطورية ؟ إن من أسباب هذا الحب ما نجده فى كل صفحة من رقة روح الشاعر وظرفه ، وأنا نشعر بأن عطفه قد امتد من إيطاليا ببلاده الجميلة إلى جميع بنى الإنسان ، بل إلى جميع الكائنات الحية ؛ فهو يدرك آلام الطبقات العليا والدنيا ، ويعرف أهوال الحرب وما يصحبها من فحش ورذيلة ، ولا ينسى أن أنبل الناس أقصرهم أجالا ، وأن ما فى الحياة من أحزان وآلام ، وما فى « الأشياء من دموع *lacrimae rerum* » تذهب بهجة الأيام تارة وتزيدها تارة أخرى . وهو حين يكتب عن « العندليب الذى يبكى فى ظلال شجرة الحور فقد صغاره التى أبصرها الحراث فانتزعها من قبل أن يكسوها الريش ، فيقضى الليل كله ينتحب ، ثم يجثم على فنن ويعيد أغنيته الحزينة »

ويملاً الغابة بها وبعويله » (٢١). نقول إنه حين يفصل هذا لا يقلد لكريشوس فحسب . وإن الذى يجذبنا نحو فرجيل مراراً وتكراراً هو ما فى حديثه من جمال لا يتقطع أبداً . ولم يكن عبثاً منه أن ينكب على كل سطر من سطور « فيلعه بلسانه ليسويه ويصقله ، كما تلعق الدبة ديسمها » (٢٢) . ولئن يستطيع أحد غير القارئ الذى حاول الكتابة أن يتصور ما عاناه الشاعر من التعب حتى أكسب قصته ما فيها من نعومة وسلاسة ، وزينها بكثير من الفقرات ذات الأنغام القوية الرنانة التى تطالعا فى كل صفحتين من الكتاب ، وتغرى القلم باقتباسها واللسان بالنطق بها . ولعل القصيدة مفرطة فى جمالها المتناسق المتماثل ، لأن جمال اللفظ نفسه يمل إذا أفرطت فصاحته فى الطول . وفى فرجيل سحر نسائى ولكننا لا نطالع فيه قط ما نجده فى شعر لكريشوس من رجولة وقوة التفكير ، كما لا نجد فيه تلك الأمواج الصاخبة التى نراها ذلك « البحر المتلاطم العجاج » المسمى هومر . ونحن نبدأ نفهم ما يعزى إلى فرجيل من حزن واكتئاب ، حين نتصوره يدعو إلى عقائد لم يكن فى وسعه قط أن يستعيدا فى نفسه ، ويقضى عشر سنين فى كتابة ملحمة تتطلب كل حادثة من حوادثها ، ويتطلب كل سطر من سطورها ، ما يحتاج إليه الفن المصطنع من جهود ، ثم يموت والأفكار تساوره بأنه عجز عن تحقيق غرضه ، وأن خياله لم يره وميض من الإبداع والابتكار ، وأنه لم يبعث فى أشخاصه نسمة الحياة . ولكن أحداً لا يجادل فى أن الشاعر قد انتصر نصراً مؤزراً على أدواته إن لم يكن قد نال هذا النصر نفسه على موضوعه . وقلما بلغت الصناعة ذلك الحد الأعلى من الإعجاز الذى بلغته فى شعر فرجيل .

وبعد عامين من وفاته أخرج منفذ وصيته قصيدته إلى العالم ، وقام بعضهم يعيها ويسفها : فنشر أحد النقاد ثبناً طويلاً بعيوبها ، ونشر غيره ثبناً آخر بما فيها من سرقات ، وأصدر ثالث ثمانية مجلدات محتوية على ما بين شعر فرجيل والشعر القديم من (٢٣). ولكن رومة سرعان ما نسيت هذه الشبهة

الأدبية ، فوضع هوراس فرجيل فى مستوى هومر ، ونشأت مدارس أدبية بدأت بها قرون تسعة عشر ، ظل الناس فيها يحفظون الإنياذة عن ظهر قلب ، وظل الناس جميعهم خاصتهم وعامتهم يهتفون باسمه ، والصناع ، والتجار ، يقتبسون من شعره ، وشواهد القبور والحدوان تنقش عليها عباراته ؛ ومتنبئو الهياكل يجيبون السائلين بعبارات غامضة يمتطعونها من أبيات ملحمة ؛ وبدأت من ذلك الوقت تلك العادة التى لم تنقطع إلى عصر النهضة ، عادة فتح ملحمة فرجيل فتحاً عشوائياً للبحث عن نصيحة أو نبوءة فى أول فقرة تقع عليها عين الفاتح . وانتشر صيته حتى كان يعد فى العصور الوسطى من السحرة والقديسين . كيف لا وهو الذى تنبأ فى النشيد الرابع بمجىء المنتقم ، ووصف رومة فى الإنياذة بالمدينة المقدسة التى ستخرج منها قوة الدين وتنتشل العالم مما يتخبط فيه ؟ ألم يصور فى الكتاب السادس الرهيب يوم الحشر وعذاب المذنبين ، وتطهيرهم فى نار المطهر ، ونعيم الصالحين فى الجنة ؟ لقد كان فرجيل أيضاً كما كان أفلاطون ذا روح مسيحية طبيعية رغم آلهته الوثنية ، وكان دانتي يعجب بعدوبة شعره ، ولم يكن يسترشد به فى وصف الجحيم والمطهر فحسب ، بل كان يسترشد به أيضاً فى تدفق فنه القصصى وجمال حديثه ؛ وكان ملتن يفكر فيه وهو يكتب الفردوس المفقود وخطب الشياطين والآدميين الطنانة والرنانة ؛ وكان فلتير - وهو الذى كنا نتوقع أن يكون أفسى مما كان فى الحكم على فرجيل - يصف الإنياذة بأنها أجمل ما خلفه لنا الأقدمون من تراث أدبى (٧٤) .

الفصل الرابع

هوراس

إن من أجمل الصور التي يشاهدها الإنسان في عالم الأدب - والتي تبدو فيها الغيرة بين الناس شديدة لانتفوقها إلا غيرة العشاق - هي صورة فرجيل وهو يقدم هوراس إلى ما سينا. فقد التقى الشاعران في عام ٤٠ ق. م. حين كان فرجيل في الثلاثين من عمره وهوراس في الخامسة والعشرين ، وفتح له فرجيل أبواب ماسينا. بعد عام من ذلك الوقت وبقي الثلاثة بعدئذ أصدقاء أوفياء حتى فارقوا هذا العالم .

واحتفلت إيطاليا في عام ١٩٣٥ بمرور أثنى عام على مولد كونتس هوراشيوس فلاكس Quintus Horatius Flaccus ، وكان مولده في بلدة فنوزيا Venusia الصغيرة من أعمال أبوليا Apulia ، وكان والده رقيقاً معتوقاً ارتفعت منزلته حتى أصبح جابياً - أو صياداً كما يقول بعض الناس (٢٣) . ومعنى كلمة فلاكس ذو الأذن المدلاة ، وأكبر الظن أن هوراشيوس هو اسم السيد الذي كان الوالد في خدمته . وأثرى العبد المعتوق بطريقة ما ، وأرسل ابنه إلى رومة ليدرس البلاغة ثم أرسله إلى أثينة ليدرس فيها الفلسفة . وفي هذه المدينة انضم الشاب إلى جيش بروتس وتولى قيادة أحد الفيالق ، وقال وقتئذ قائلة المأثورة « إن من ألد الأشياء وأشرفها أن يموت الإنسان في سبيل بلاده dulce et decorum » (٢٤) pro patria mori . ولكن هوراس - وكان يقلد أركلوكس Archilochus في أغلب الأحيان - ألقى بذرعه في إبان المعركة وولى الأدبار . ولما وضعت الحرب أوزارها أثنى نفسه وقد جرد من جميع أملاكه ومن كل ما ورثه

عن أبيه ، « ودفعنى المسغبة إلى قرض الشعر » (٢٧) ، ولكن الحقيقة أنه كان يكسب قوته من منصب كاتب كوستر .

وكان قصيراً بديناً ، مزهواً حياً ، لا يحب السوق ولكنه لا يجد من الثياب أو المال ما يعينه على الاختلاط بالأوساط التى نالت من التعليم ما ناله هو . وكان يخشى عواقب الزواج فاكثفى على حد قوله بالسرارى والعشيقات ، وهو قول قد يكون حقاً ، وقد لا يكون إلا نوعاً من الترخص الشعرى اخترعه للدلالة على نضوجه . وقد كتب عن العاهرات كتابة جمعت بين حذر العلماء وتعقيد الشعراء ، وأظن أنه جدير بأعظم الثناء لأنه لم يُغو النساء المتزوجات (٢٨) . وإذا كان أفقر من أن يقضى على نفسه بالانهماك فى الشهوات الجنسية فقد عمد إلى قراءة الكتب وكتابة الأغاني باللغتين اليونانية واللاتينية ، وبأصعب أوزان الشعر اليونانى وأكثرها اختلاطاً . وأطلع فرجيل على إحدى هذه القصائد وامتلحها ماسيناس . وسر الأبيقورى الرحيم من حياء هوراس وتلجلجه فى الحديث ، ووجد فى سفسطته الفكرية ما يدعوه إلى حبه . وفى عام ٣٧ اصطحب ماسيناس فرجيل وهوراس وغيرهما من الصحاب فى سفرة قصيرة محترقين لإيطاليا فى قارب قنوى تارة ، وعربة ومحمل تارة أخرى ، ثم سيراً على الأقدام فى بعض الأوقات . وبعد قليل من ذلك الوقت قدم ماسيناس الشاعر لأكتافيان ، واقترح عليه أن يعينه أمين سره . فاعتذر الشاعر قائلاً إنه لا يجد من نفسه ميلاً إلى العمل . وفى عام ٣٤ أهدى إليه ماسيناس بيتاً وضيعة تدر عليه بعض المال فى الوادى السابىنى بيستيكا Ustica على بعد خمسة وأربعين ميلاً من رومة . وبذلك أصبح فى استطاعة هوراس أن يعيش فى المدينة أو فى الريف كما يشاء ، وأن يكتب كما يأمل المؤلفون

أن يكتبوا - في الوقت الذي تحلو لهم فيه الكتابة ، وبالعناية والجهد الذين يحلو لهم أن يبذلوهما في كتابتهم (*) .

وأقام بعض الوقت في رومة يتمتع نفسه بحياة من يتسلى بمشاهدة العالم المسرع المندفع . وكان يختلط بجميع طبقات الناس ، ويدرس جميع الأصناف التي تتكون منها رومة ، ويفكر في حماقات العاصمة ورذائلها وهو مسرور سرور الطبيب إذا كشف علة المريض . وقد وصف بعض تلك الأصناف في كتابين من كتب هجوه (٣٤ ، ٣٥ ق . م) ، هذا فيهما أولاً حذو اوسليوس Lucilius ، ثم خفف فيما بعد من حدته وأصبح أكثر مما كان تساعياً . وكان يطلق على هذه القصائد اسم المواعظ Sermones - وإن لم تكن مواعظ في أية صورة من الصور ، بل كانت أحاديث خالية من التكلف والصناعة ، وكانت أحياناً محاورات ودية خاصة في أشعار سداسية الوزن تكاد لغتها أن تكون هي اللغة العامية .

وقد اعترف هو نفسه بأنها نثر في كل شيء عدا الوزن ، « لأنك لا تستطيع أن تطلق اسم الشاعر على رجل يكتب كما أكتب أنا أحياناً أقرب ما تكون إلى الكلام المنشور » . ونحن نلتقي في هذه الأشعار اللاذعة بالأحياء من رجال رومة ونسائها ، ونستمع ، إليهم يتحدثون كما يتحدث الرومان : فلستنا نجد فيها رعاة غرجيل وزرّاعه وأبطاله ، ولا فُسّاق أو قُذّر الخرافيين وبطلاته ، بل نشاهد العبد الوقح البذيء ، والشاعر المزهو بنفسه ، والمحاضر ذا الألفاظ الطنانة ، والفيلسوف الشره ، والثرائز الممل ، والسامى الحريص على المال ، ورجل الأعمال ، والحاكم ، ورجل الشارع العادي ، فنشعر أننا نشهد آخر الأمر رومة الحققة . فهذا هو ذا هوراس يضع في قصائده لمن يشاء

(*) وقد كشف المنقبون من ضيعة هوراس في عام ١٩٣٢ ، فإذا هي تشتمل بيتاً ريفياً خسيحاً ، يبلغ طوله ٣٦٣ قدماً وعرضه ١٤٢ ، به أربع وعشرون حجرة وثلاث برك للاستحمام ، بعودة أبواب مزينة بالفسيفساء ، وحديقة واسعة يحيط بها رواق مسقوف في خارجه سور . ومن وراء هذا البيت ضيعة خسيحة يعمل فيها عشرة صييد وخمس أسر من المستأجرين (١٢٨) .

أن ينقب عن آثار الأقدمين القواعد التي يجب أن يسير عليها من يريد النجاح في هذه الحلة التي تصطرع فيها الغيلان من الناس ، ويضعها ، في صورة مرحة ولكنها مهلكة قاتلة^(٣٩) . وهو يسخر من النهمين الذين يملثون بطونهم بشهى الطعام ، ولكنهم لا يستطيعون المشى على أرجلهم لأنهم مصابون بالرثية^(٤٠) ، ويذكر من « يمتدح الأيام الماضية » بأنه إذا جاءه إله ليعبده إلى تلك الأيام أبى وتمنع^(٤١) ، ويقول إن أحسن ما في الماضي هو علم الإنسان أنه لن يضطر إلى أن يحيا مرة أخرى . وهو يعجب كما يعجب لكريشوس من ذوى الأرواح القلقة الذين إذا كانوا في المدن تاقوا إلى سكنى الريف ، فإذا سكنوا الريف تاقوا إلى المدن ، والذين لا يستطيعون أن يستمتعوا بما عندهم ، لأن من الناس من عنده أكثر منهم ؛ والذين لا يقنعون بزوجاتهم ويمون بخيالهم المفرط في العظمة وفي الحقارة معا يجال غيرهن من النساء اللاتي أصبحن في نظر غيرهم من الرجال ولا جمال لهن . ويختتم نصائحه بقوله إن جنون المال هو مرض رومة القتال ، وبسأل من يقضى أيامه في جمع الذهب : « لم تسخر من تنقلس لأن الماء يبتعد عن شفتيه الظامتين على الدوام ؟ ليس عليك إلا أن تبدل الأسماء فتطبق القصة عليك أنت^(٤٢) » ثم يهجو نفسه أيضاً ، فهو يصور عبده يقول له في وجهه إنه ، وهو الداعى إلى حسن الخلق ، رجل أحمق حاد الطبع لا يعرف قط ما يدور في عقله أو ما يهدف إليه ، وإنه عبد شهواته بكل إنسان آخر . وما من شك في أنه يوصى نفسه ، كما يوصى غيره ، بسلوك الطريقة الوسطى الذهبية إذ يقول : « إن للأشياء حداً ومقياساً^(٤٣) » . لا يقصر الرجل الذكى عنه ولا يتجاوزه . وهو في بداية كتاب الهجاء الثانى يشكو إلى صديق له أن المجموعة الأولى قد انتقدت أشد النقد ، فقبل لأنها مفرطة في الحشونة وفي الضعف ، ثم يستنصح الصديق فيقول له : « استرح » فيعرض عليه الشاعر بقوله : « ماذا ؟ ألا أكتب الشعر قط ؟ » فيجبه « نعم » فيقول : « ولكنى لن أستطيع النوم^(٤٤) » .

وكان خيرا له أن يعمل بهذه النصيحة إلى حين . وكان كتابه الثاني المسمى ردود الغناء Epodes (٢٩ ق . م) أقل كتبه شأنا . فأشعاره خشنة مؤذية للسمع خالية من الشهامة ، بعيدة عن الذوق ، بذينة في الأمور الجنسية ، كل ما يستطيع الإنسان أن يقوله في وصفها لأنها تجربة في الأوزان الشعرية ذات المقاطع المتعاقبة منبورة وغير منبورة ، وهى المقاطع التى سار عليها أركلوكس Archilodhus . ولعل اشتمزازه من « دخان رومة ومالها وضجيجها » (٣٦) قد زاد حتى أمر نفسه ، ولعله لم يطلق صبرا على ضغط السوق الجهال ذوى التفكير الخبيث . وهو يصور نفسه متدفقا ومدفوعا بين أراذل العاصمة ، وينادى قائلا : « أيها البيت الريفى ! متى أراك ؟ متى أستطيع وأنا بين كتب الأقدمين تارة ، وأستمع بالانوم والفراغ تارة أخرى ، أن أتجرع النسيان الحلو لمتاعب الحياة ؟ متى يقدم لى صحاف الفول إخوان فيثاغورس نفسه ، ومعها الخضر المخلوطة باللحم السمين ؟ آه ، أيها الليالى والولائم القدسية ! » (٣٧) ثم قصرت فترات إقامته فى رومة ، وصار يقضى كثيرا من وقته فى بيته السمينى الريفى حتى شككا أصدقاؤه وشككا ماسيناس نفسه بأنه « اقتطعها من حياته » . ولكن الحقيقة أنه بعد أن عانى حر المدينة وعثرها وجد فى الهواء النقي والعمل الرتيب الهادئ ، والعمال السذج فى ضيعته بهجة تطهره من أدران المدن . هذا إلى أنه كان وقتئذ ضعيف الجسم ، وأنه كان يعيش على الأكثر ، كما يعيش أغسطس ، على الخضر وحدها . وفى ذلك يقول : إن فيما أمتلكه من مجرى الماء النقي وأفدنة قليلة من الأشجار ، ووثوق من أنى سأجنى محصولا من الحب ، إن فى هذا لسعادة دونها سعادة سيد أفريقية الحصبة ونعيمها البراق » (٣٨) . وإن حب الريف ليجد فى غيره من شعراء عهد أغسطس من يعبر عنه تعبيراً حماسيا نادر الوجود فى أدب اليونان .

ما أسعد من يعيش بعيدا عن قلق الأعمال ومتاعبها .

كما كانت تعيش أقدم شعوب العالم .

يفلح بشرائه الأرض التي ورثها عن أبيه .
وليس عليه دين . . .
ما أحلى النوم تحت شجرة السنديان القديمة .
والنهر يجري بين جسريه العالين .
وطيور الأيلك تغرد .
والماء يتدفق من العيون .
يدعو الإنسان للنوم الهنيء ! (١٠)

* * *

وجدير بنا أن نضيف إلى هذا أن الذى ينطق بهذه الأبيات مراب من أهل المدن ، ينطقه بها هوراس فى سخرية يمتاز بها عن كثيرين من الشعراء ، وأن هذا المرابي بعد أن ينطق بها لا يلبث أن ينساها ويفقد نفسه بين أكوام نقوده .

وأكبر الظن أن هذه المراضض الهادئة هى التى كان يكدح فيها كدح السعداء المحبين «(*)» فى تأليف هذه الأغاني التى يعلم أن ذبوع اسمه أوخول ذكره موقوف عليها . لقد مل الأشعار السداسية الوزن ولم يعد بطريه انسجام أوزانها المقيسة المحددة ، أو التى تققطع من آخر البيت لضرورة الشعر كأنها 'جُزّت' بمقصلة . وكان قد استمتع فى شبابه بالأوزان الدقيقة المرححة التى رآها فى شعر سافو Sappho والكيوس Alcæus ، وأركلوكس Archilochus ، وأنكريون Anacreon ، فأراد الآن أن ينقل هذه الأوزان « السافية » والألكية ، والتفاعيل المركبة من مقطعين ومن أحد عشر مقطعا ، إلى صورة الشعر الغنائى الرومانى ، وأن يعبر عن آرائه فى الحب والخمر ، والدين ، والدولة ، والحياة والموت فى مقطوعات جديدة منعشة للنفس جامعة رصينة التركيب ، قابلة للتلحين ،

(*) هذه هى العبارة العجيبة الموفقة التى وصف بها پترونيوس هوراس (١٤) .

معقدة تعقيداً يتطلب حلها الجهد الكثير . ولم يكن يكتب هذه الأشعار لذوى العقول الساذجة التي تريد أن تمر بها مرّاً سريعاً دون أن تبذل في إدراكها أى مجهود ؛ والحق أنه قد حذر أمثال هؤلاء في مستهل المجموعة الثالثة من الإقدام على قراءتها فقال :

« إني أبغض السوق النجسين وأجنهم . صه ! أنا ، كاهن ربات الشعر ، أغنى للعدارى والشباب أغاني لم يسمعها أحد من قبل » :

ولو أن العدارى قد عنين بشق طريقهن وسط أقوال هوراس ورغباته المقلوبة لارتعن وسررن مما في أغانيه من أبيقورية مهذبة مصقولة . فالشاعر يصور مسرات الصداقة ، والطعام والشراب ، والمغازلة ، وإن المرء ليصعب عليه أن يستدل من هذه الترانيم على أن كاتبها رجل زاهد لا يأكل إلا قليلاً ولا يشرب إلا أقل . ثم يسأل الشاعر نفسه (قبل أن يسألها قارئ هذه الصفحات) : « لم نشغل أنفسنا بالسياسة الرومانية والحروب في الأقاليم النائية ؟ ولم نبغى هذه العناية كلها بتدبير أمور المستقبل الذي يسخر من تدبيرنا(*) . إن الشباب والجمال يحساننا مساً ويمران بنا مرّاً سريعاً فلنستمتع بهما الآن » ، مضطجعين إلى شجرة الصنوبر ، وغداً ثرنا الشمطاء متوجة بالأزهار ومعطرة بالناردين السورى^(٢) . وبيننا نحن نتحدث هذا الحديث يمر الوقت الحسود وينقضى ، فلنغنم الفرص « ولنختطف الأيام Carpe diem^(٣) » . ويتلو الشاعر أعماء طائفة من النساء الخليعات اللاتي يقول إنه أحبن : لالاج ، جلسيرا ، تيرا ، إيانشا ، رستارا كنديا ، ليسى ، بيرها ، ليديا ، تندارس ، كلو ، فليس ، مرتال . ولا حاجة بنا إلى أن نصدق كل ما يدعيه من ذنوب يقول إنه ارتكبها ، فقد كانت هذه الأقوال وقتئذ دعاوى أدبية يكاد يفرضها شعواء تلك الأيام على أنفسهم فرضاً ؛ وشاهد ذلك أننا نجد أولئك السيدات أنفسهن في خدمة

(*) « وتقدرون فتفسحك الأقدار » . (المترجم)

أقلام غير قلمه قبل ذلك الوقت . ولم يكن أغسطس الذى تاب وقتله وأتاب لينخدع بهذه الضلالات الشعرية ، فقد كان يسره أن يجد بينها تعظيماً لحكمه وثناء عليه ، وعلى انتصاراته ، وأعوانه ، وإصلاحاته الأخلاقية ، وعلى السلم التى بسط لواءها فى أيامه . وقد ألف هوراس أغنيته المشهورة فى الشراب Nunc ets bibendum^(٤٤) حين جاءته الأنباء بأن كليوبطرة قضت نجحها ، وأن أغسطس استولى على مصر ، فقد كان لهذا النبأ وقع عظيم حتى فى نفس هذا الشاعر السوفسطاى الذى سر من انتصار الإمبراطورية واتساع رقعتها إلى حد لم تبلغه قط من قبل . وهو يحذر قراءه من الاعتقاد بأن القوانين الجديدة يمكن أن تحل محل الأخلاق القديمة ، وبأسف لانتشار الترف والزنى ، والخلاعة ، والعقائد المنحطة الفاسدة ، ويقول مشيراً إلى الحرب الأخيرة : « وأسفاً على ما أصابنا من جروح وما ارتكبنا من جرائم ، وعلى من مضوا من إخوتنا صرعى فى الميدان ! وهل ثمة شئ قد اشمأزت منه نفوسنا نحن أبناء هذا الجيل ؟ وأى ظلم لم نرتكبه ؟ »^(٤٥) ويقول إن رومة لن تنجو إلا بالرجوع إلى الأساليب البسيطة وإلى الثبات الذى كان شعار الأيام الحالية . وهكذا نرى الشاعر المتشكك الذى كان من الصعب عليه أن يؤمن بأى شئ يخفى رأسه الأشيب أمام النصب القديمة ، ويقر أن الناس يهلكون إذا لم تكن لهم أساطير يؤمنون بها ، ويسخر قلمه لخدمة الآلهة المرضى الضعاف .

وبعد فليس فى أدب العالم كله ما يشبه هذه القصائد تمام الشبه - فهى رقيقة وقوية ، وفيها تأتى ورجولة ، وحذق وتعقيد ، تخفى ما فيها من فن بالفن البالغ درجة الكمال ، وتخفى ما استلزمته من جهد بما يبدو عليها من يسر وسلاسة . فهى موسيقى من طراز غير طراز فرجيل ، ذلك أن موسيقاها أقل من موسيقى فرجيل عذوبة فى النغم وأكثر منها تعقلاً ، وهى لم تكتب للشبان والعذارى بل كتبت للفنانين والفلاسفة . وليس فى القصائد كلها شئ من الانفعال أو التحمس ، أو « اللفظ المنمق » ، بل الألفاظ كلها سهلة حتى فى الحمل المقابوة

التي يجب أن يكون أولها آخرها . ولكن في الأغاني الكبرى كبرياء وجلالا
في التفكير ، حتى ليخيل إليك وأنت تستمع إليها أن إمبراطوراً هو الذي
يتحدث وأنه لا يتحدث بالفاظ من حروف بل من برنز :

لقد أقيمت نصباً أبقي على الزمان من البرنز ،

وأعلى من قمة الأهرام الملكية ؛

لا تستطيع العواطف الهوج أن تحطمه .

ولا ربح الشمال الضعيفة ؛ ولا كسر السنين .

التي لا عداد لها . ولا مر الزمان السريع .

إني لن أموت الميتة الكبرى .

وأغفلت الجواهر التي هجاها هوراس أغانيه ، وشهرها النقاد ووصفوها
بأنها مملّة متكلفة ، وندد المزمّتون بما فيها من أغاني الحب ؛ أما أغسطس
فوصف القصائد بأنها قصائد خالدة ، وطلب إلى الشاعر أن يتبعها بمجموعة
رابعة تصف أعمال دروسس وتيبيريوس في ألمانيا ؛ واختار هوراس
لكتابته الأناشيد « القرنية » يصف فيها المباريات القرنية . وأجابه الشاعر
إلى ما طلب ولكنه لم يجد من نفسه الإلهام الذي يمكنه من تنفيذ هذه
الرغبة ؛ ذلك بأن الأغاني قد استنفدت كل جهوه ، ولهذا رجع في كتابه
الأخير إلى الشعر السداسي الأوتاد الذي كتب به كتبه في الهجاء ، والذي
هو ألبق الأوزان بالحديث ، فكتب به رسائله ، وهي أشبه بحديث ينطق
به صاحبه من مقعد مريح . وكان هوراس يريد على الدوام أن يكون
فيلسوفاً ، وقد غلبت عليه هذه النزعة في تلك الرسائل ، فاسترسل في
الحكم حتى في أثناء برثرته . وإذا كان الفيلسوف شاعراً ميتاً وفقها محتضراً ،
فقد كان هوراس وهو شيخ في الرابعة والخمسين من عمره قد نضجت
سنه للبحث في طبيعة الله ، والإنسان ، والأخلاق ، والأدب والفن .

وكتبت أشهر رسالة من هذه الرسائل كلها — وهى المعروفة لدى القناد باسم « فن الشعر » إلى أدبزونس Ad Pisones — وهم أفراد غير معروفين معرفة أكيدة من عشيرة پيزو Piso . ولم تكن هذه رسالة بالمعنى الحقيقى للرسائل ، بل كانت نصيحة قصيرة من صديق إلى صديق يبين له فيها طريقة الكتابة ، يقول له فيها : عليك أن تختار موضوعا يتفق مع مواهبك ، واحذر أن ينطبق عليك المثل القائل تمخض الجبل فولد فأرة (*) (٤٧) ؛ والكاتب المثالى هو الذى يعلم ويسل في وقت واحد ، « ومن يمزج النافع بالسار يكسب جميع الأصوات (٤٨) » . وتجنب الألفاظ الجديدة ، والعتيقة المهمة ، والمسرقة في الطول . وأوجز بالقدر الذى يجيزه وضوح معانيك ، وامض مسرعا إلى لباب الموضوع . وإذا كتبت الشعر فلا تظن أن العاطفة هى كل شيء ، نعم إنك إذا شئت أن يحس قارئك بعاطفة ما فلا بد لك أنت أن تحس بها (٤٩) ، ولكن الفن غير الشعور ، لأنه الصورة التى يعبر بها عنه (وهنا أيضا يتحدث الأسلوب الاتباعى الأسلوب الإبداعى (**)) ، ولكى تصل إلى حسن الصيغة ، عليك أن نواصل دراسة آداب اليونان ليلا ونهاراً ؛ ولكن ما تمخوه من كتابتك قدر ما تثبته أو قريبا منه .

« واعرض ما تكتبه على ناقد قدير وحاذر من أصدقاتك ، فإذا اجتازت

(*) ليس في ترجمة هذا المثل شيء من التصرف بل هي ترجمة حرفية للعبارة الإنجليزية

Labouring like a mountain and producing a mouse

ولعل العبارة الإنجليزية هي الأخرى ترجمة حرفية للمثل اللاتينى (المترجم) .

(**) كاد الناس ينسون هوراس في العصور الوسطى ، ولكنه استعاد منزلته في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وهما عصر العقل والإتباع في الزمن الحديث ، حين عمد كل سياتى وكل كاتب وخاصة في إنجلترا إلى نشر عبارات الشاعر وترديدها في صورة ثابتة لا تغيير فيها ولا تبديل .

ولقد أعاد بوالو Boileau في كتابه الفن الشعرى L'art poétique كتاب هوراس Ad Piones إلى الوجود ، وكان هو المشكل والمشيط للمسرحيات الفرنسية حتى زمن هوجو . وحاو Pope في « مقاله في النقد » Essay on Criticism أن يضمف من قوة الأدب في إنجلترا بالطريقة عينها ولكن يرن قفى على كل ما كان لبوب من أثر في هذه الناحية .

كتابتك هذه المراحل كلها ، فأخفها ثمانى سنين ، فإذا لم تجد بعدئذ إنك قد أفدت من نسيانها فانشرها ، ولكن اذكر على الدوام أنها لن يعيدها إلا الزمن وحده . وإذا كتبت مسرحيات فلتجعل الأعمال لا الأقوال . هي التي تقص القصة ، وتصور الأشخاص . ولا تمثل الرعب على المسرح ، والزم وحدة الأعمال والزمان والمكان ، واجعل القصة قصة واحدة : تقع حوادثها في زمن قصير وفي مكان واحد . وادرس الحياة والفلسفة ، لأن الأسلوب مهما بلغ لا قيمة له من غير الملاحظة والفهم . كن جريئاً في المعرفة » . وعمل هوراس نفسه بكل هذه القواعد إلا قاعدة واحدة - فهو لم يتعلم البكاء ، ذلك أنه لم يكن قوى الشعور ، أو أن شعوره ، قد اختنق فصمت ، ولذلك لم يسم قط إلى ذلك الفن الأعلى الذى يجسم الإخلاص فى العطف أو « العواطف التى يذكرها أصحابها فى هدوء » . يضاف إلى هذا أنه كان مسرفاً فى تمجيد المدن . ولقد كان قوله : « Nil admirari تعجب بشئ قط »^(٥١) نصيحة غير قوية ، لأن الشاعر الحق يجب أن يعجب بكل شئ حتى ولو كان كشروق الشمس أو منظر الشجر يحياه كل يوم . وكان هوراس يلاحظ الحياة وبريقها ، ولكنه لم يكن يتعمق فى هذه المراقبة ، وقد درس الفلسفة واحتفظ على الدوام « باعتدال عقله » ولذلك لم يسم شئ من أغانيه فوق المرتبة الوسطى^(٥٢) . وكان يعظم الفضيلة تعظيم الرواقين ، ويحترم اللذة احترام الأبيقوريين فيسأل نفسه « أى الناس هو الحر إذن ؟ » ثم يجيب كما يجيب زينون : « هو الرجل الحكيم ، سيد نفسه ، الذى لا يرهب الفقر ولا الموت ولا الأغلال ، والذى يتحدى شوائه ويزدرى بالمطامع والذى هو كل فى نفسه »^(٥٣) . ومن أنبل قصائده قصيدة تضرب على نغمة رواقية وتقول :

« إذا كان الرجل عادلاً حازماً فقد تنصدع الدنيا كلها من حوله وتتساقط فوق رأسه ، وتجده تحت حطامها غير هباب ولا وجل »^(٥٤) . ولكن هوراس رغم هذا كله يلقب نفسه بأمانة جذابة : خنزيراً من حظيرة أبيقور^(٥٥) .

وهو كأييقور يقدر الصداقة فوق الحب ، وكفرجيل يمتدح إصلاحات
أغسطس ، ويعيش حياته كلها عزبا . وقد بذل كل ما في وسعه دعبا
إلى الدين ولكنه كان لا دين له ، وكان يشعر أن الموت يقضى على
كل شيء (٥٦) .

وقد أظلمت أفكاره أيامه الأخيرة — وأوقى حظه من الأسقام ، فكان
معموداً مصاباً بالنقرس وبغيره من الأمراض . ومن أقواله في رثاء حاله :
« إن السنين وهى تمر تسلبنا كل مسراتنا واحدة بعد واحدة (٥٧) » . ويقول
لصديق آخر : « واحسرتاه يابستىوس إن السنين تمر بنا سراعاً ، ولن
تستطيع تقوانا أن تمنع عنا غصون أجسامنا ، أو تقدم أعمارنا ، أو الموت
الذى لا يقهر (٥٨) » . وقد ذكر فى قصيدته الهجائية الأولى كيف كان يأمل
إذا حانت منيته أن يفارق الحياة الدنيا راضياً « كالضيف الذى نزل من
الوليمة كفايته (٥٩) » . وها هو ذا الآن يقول لنفسه : « لقد لعبت ما شئت
أن تلعب ، وأكلت ما شئت أن تأكل ، وشربت ما شئت أن تشرب .
وقد آن أن ترحل (٦٠) » . وقد انقضت خمس عشرة سنة مذ قال لما سيناس
إنه لن يطول أجله كثيراً بعد رجل المال (٦١) . وقد مات ماسيناس فى
عام ١٨ ق . م وتبعه هوراس بعد بضعة أشهر ، وأوصى بأملأكه إلى
الإمبراطور ودفن بجوار قبر ماسيناس .

الفصل الخامس

ليفى

لم يظفر الشر فى عهد أغسطس بمثل ما ظفر به الشر من مؤلفات عظيمة قيمة ، فقد اضمحلت الخطابة بانتقال التشريع والقرارات ، فى الواقع إن لم يكن فى الشكل ، من مجلس الشيوخ والجمعيات إلى حجرات الزعيم السرية . وظل العلم يجرى فى مجراه الهادئ تحمية من العواصف والأحداث أغراضه ومنصالحه الخيالية ، ولم ينتج العصر كله أية أدبية خالدة إلا فى التاريخ . وكان صاحب هذه الآفة الخالدة تيتس ليفيوس Titus Livius :

ولد تيتس فى پتافيرم Patavium (پدوا Padua) فى عام ٥٩ ق . م . ثم وفد إلى العاصمة ، وأكب على دراسة البلاغة والفلسفة ، وخص السنين الأربعين الأخيرة من حياته بكتابة تاريخ لرومة (٢٣ ق . م - ١٧ م) . وذلك كل ما نعرفه عن هذا المؤرخ « فورخ رومة لاتاريخ له » (٦٣) . وكان موطنه الأصلى ، كموطن فرجيل ، هو إقليم اليو ، وقد احتفظ على الدوام بمفضائل الأقدمين وبساطتهم وتقواهم ، ثم نشأ فيه احترام قوى للمدينة الخالدة - لعل سببه ما كان يصله عنها من أنباء وهو بعيد عنها . وقد وضع خطة كتابه على أساس واسع عظيم ، وقلز له أن يتمه وإن لم يصلنا من « كتبه » البالغة مائة واثنين وأربعين كتاباً إلا خمسة وثلاثون . وإذا كانت هذه الكتب الباقية تحتونها ستة مجلدات فإن فى وسعنا أن نقدر ضخامة هذا المؤلف . ويلوح أن الكتاب قد ظهر أجزاء متتابعة لكل منها عنوان خاص ، ويجمعها كلها عنوان واحد هو « من أسس المدينة Ab urbe condita » . وكان فى وسع أغسطس أن يتفاضى عن ميوله الجمهورية وأبطاله الجمهوريين لأن روح الكتاب الدينية والأخلاقية والوطنية كانت تمتص كل الانشقاق مع خطط

الإمبراطور السياسية . ومن أجل ذلك اتخذ ليفي صديقاً له ، وشجعه ليكمل منه فرجيلا ناثراً يبدأ عمله من حيث تركه الشاعر . وقد فكر ليفي في يوم من الأيام وهو في وسط مرحلته الطويلة التي بدأت في عام ٧٥٣ ق . م أن ينقطع عن العمل بحجة أنه نال ما يبتغيه من الشهرة الخالدة ؛ ثم واصل العمل لأنه على حد قوله وجد نفسه قلقاً حائراً حين امتنع عن الكتابة .

وكان المؤرخون الرومان يرون أن الشعر ولد هجين من أبوين هما البلاغة والفلسفة . وإذا كان لنا أن نصدقهم فلأنهم كانوا يؤرخون ليوضحوا المبادئ الأخلاقية بالقصص البليغة ، أى أن يجلوا المغزى الخلقى بقصة . وقد نُشئ ليفي ليكون ممثلاً ، ولكنه حين وجد الخطابة خطرة مغرصة للنقد ، اتجه نحو التاريخ ، كما يقول تين Taine « لكني يظل كما كان خطيباً » (٦٥) . وبدأ كتابه بمقدمة جافة ندد فيها بما كان شائعاً في عصره من فساد وترف وخنوة ؛ وقال إنه دفن نفسه في الماضي لكي ينسى مساوىء الحاضر ، « الذى لا نطبق ما ابتلانا من أمراض كما لا نطبق لها علاجاً » ، ثم يقول إنه سيتخذ التاريخ سبيلاً لتصوير الفضائل التي رفعت من شأن رومة . وكانت سبباً في عظمتها ، وهى اتحاد الأسرة وقداستها ، وتقوى الأبناء ، والعلاقة المقدسة بين الناس والآلهة فى كل خطوة من الخطوات ، وقداسية ما يقطعه الناس من عهود وضبط النفس والوقار إلى أقصى حد . ويقول إنه سيجعل رومة الرواقية هذه أمة نبيلة كريمة الأخلاق . إلى حد يرى الناس معه أن فتح بلاد البحر الأبيض المتوسط كان من الأعمال التي تحتمها الأخلاق الكريمة ، أو أنها أمر إلهى وشريعة مقدسة نزلت على ما فى الشرق من فوضى وما فى الغرب من همجية ، وسيجعل ما نالته رومة من ظفر نتيجة لما نحلى به أهلها من كريم الخلق ، كما عزاه بوليبيوس إلى نظام حكومتها الصالح الرشيد .

وأكبر ما فى الكتاب من عيوب إنما يرجع إلى هذه النزعة الأخلاقية

ففى الكتاب كثير من الشواهد الدالة على أن مؤلفه رجل يخضع لحكم العقل ، وكان احترامه للدين احتراماً مسرفاً إلى حد يكاد يحمله على الإيمان بكل خرافة ، ويملاً صحف كتابه بالقال والطيرة والتنبؤ بالغيب حتى لنشعر ونحن نقروها أن الذين يدبرون الحوادث ويقومون بالأعمال هم الآلهة كما نشهد ذلك فى أشعار ثرجيل . ولسنا ننكر أنه يعبر عن شكه فيما يروى من أساطير تاريخ رومة الأول ، ويتسم حين يذكر من الروايات أقلها احتمالاً ، ولكنه حين يواصل الكتابة لا يفرق بين الأساطير والتاريخ الحقيقى ، ويسير وراء أسلافه بلا تمييز كبير بين الباطل من أقوالهم والصحيح ، ويقبل الأقاصيص والروايات الخيالية التى اخترعها المؤرخون الأولون ليمجدوا بها أسلافهم (٦٧) .

وقلما يعنى بالرجوع إلى المصادر الأصلية أو الآثار ، ولا يشغل نفسه قط بزيارة الأماكن التى وقعت فيها أهم الحوادث . وتراه أحياناً يعتمد على شرح صحائف كاملة من بوليبيوس (٦٨) . ويلجأ إلى طريقة القساوسة القديمة طريقة الحوليات ، فيقص الحوادث التى وقعت فى عهد كل قنصل من القناصل ، ولهذا فإنك إذا ضربت صفحاً عما فيه من بحوث أخلاقية لن تجد فيه أثراً للتعليل الصحيح وربط النتائج بأسبابها ، بل كل ما تجده فيه سلسلة متتابعة من الأحداث الرائعة . وهو لا يفرق بين الآباء الأجلاف الأولين الذين عاشوا فى عهد الجمهورية المبكر وبين أشراف عصره ، أو بين السوقة الأشداء الذين أنشئوا الديمقراطية الرومانية والغوغاء الأذنياء الذين قوضوا أركانها ، وهو يتحيز للأشراف على الدوام .

ولقد كان السر الحقيقى فى عظمة ليقى هو العزة الوطنية التى تجعل رومة فى نظره محقة على الدوام . وهذا السر هو الذى حباه بالسعادة الدائمة فى أثناء كدحه الطويل ، ولهذا السبب فإننا قلما نجد كاتباً نفذ خطة واسعة كخطته يمثل ما نفذها هو فى أمانة أشعرت قراءه الأقدمين ولا تزال تشعرنا ونحن بعظمة رومة وبما قدر لها فى عالم الغيب من مصير . ولقد كان هذا الشعور

بعظمة رومة هو مصدر ما في أسلوب ليفي من نشاط ، وما في أشخاصه من قدرة ، وما في وصفه من بهجة وقوة ، وما في نثره من انسجام رائع جليل وإن الخطب التي اخترعها من عنده وبثها في تاريخه لتعد آيات في الخطابة أصبحت من بعده نماذج تحتذى في المدارس ، وإن القارئ ليسحر ليه ما يتخلل الكتاب كله من أخلاق كريمة ؛ فليفى لا يعمد قط إلى الصخب والضجيج ، ولا يقسو في أحكامه على الناس ، وعطفه على الدوام أوسع من علمه وأعمق من فكره . وهذا العطف يفارقه حين يروى قصة هنيبال ، ولكننا لا يسعنا إلا أن نغفر ذلك له ، وهو إلى هذا يكفر عن هذا الذنب بتتابع حوادث القصة وروعيتها التي تصل إلى ذروتها حين يصف الحرب الهونية الثانية .

ولم يكن قراؤه يهتمون بما في كتابه من أخطاء ، ومن نقص في الدقة ، ومن تحيز ، وكانوا يحبون أسلوبه وقصصه ، ويبتهجون بالصورة الواضحة التي صور بها ماضيهم . وكانوا يعدون كتابه « من أسس المروية » ملحة مثورة ومن أنبل ما خلفه عصر أغسطس ، والنزعة التي سادت ذلك العصر . ولقد ظل كتاب ليفي يلون أفكار الناس عن تاريخ رومة وأخلاق أهلها ثمانية عشر قرناً كاملة تبدأ من أيامه . وحتى الذين كانوا يقرءون كتابه من أهل البلاد الخاضعة لسلطان الرومان قد تأثروا بهذا السجل الضخم للفتوح التي لم يكن لها نظير من قبل ، وبالأعمال الضخمة الجبارة التي قام بها رجالها . ويقص بلني الأصغر قصة رجل أسباني تأثر بكتاب ليفي تأثراً حمله على أن يسافر من قادس Cadiz إلى رومة لعله يلقاه فيها . فلما حقق رغبته وصلى لربه ، نسي كل ما عدا ذلك من الحقوق ، وعاد راضياً إلى موطنه عند المحيط الأطلنطي (٦٨) .

الفصل السادس

ثورة العاشقين

وظل الشعر في هذه الأثناء ينتشر وتعلو مكانته ، ولكن على غير ما كان يشتهى أغسطس . ذلك أن الفنانين العظماء ، أمثال فرجيل وهوراس ، هم وحدهم الذين يستطيعون قرص الشعر الجيد في الموضوعات التي تطلبها الحكومة ؛ فأما من كانوا أعلى من هذين الشاعرين قدرأ فلأنهم لا ينصاعون إلى هذه المطالب ، وأما من كانوا أقل منهما شأنأ فلأنهم لا يستطيعون إجابتها . وقد خضع مصدران من مصادر الشعر الكبرى - الدين ، والطبيعة ، والحب - إلى سلطان الإمبراطورية ، أما المصدر الثالث فقد ظل خارجا على سلطانها غير خاضع لأى قانون حتى في أغاني هوراس . ثم فر الشعر فرارأ بطيئأ على يدى تيبلس Tibullus وپروپرتيوس Propertius ، وثار ثورة سارت في طريق يحفه المرح المتزايد إلى خاتمة مفاجئة .

وتفصيل ذلك أن ألبوس تيبلس (٥٤ - ١٩) خسر الأرض التي ورثها عن آبائه كما خسر فرجيل أرضه حين وصلت نيران الحرب الأهلية بلدة پدوم Pedum - قرب تيبور Tibur مسقط رأسه - وأنقله مسالا من الفقر وأخذ مع حاشيته إلى بلاد الشرق ، ولكن تيبلس مرض في الطريق وعاد إلى رومة ، مغتبطا بنجاته من الحرب ومن السياسة ، فقد أمكنه ذلك من أن يصرف جهوده كلها في التغنى بعشق الفتيات والفتيان ، ونظم المراتى المصقولة على نمط يوناني الإسكندرية . وكتب الابتهال المألوف إلى دليا Dilia (وهو اسم لا نعرف عنه أكثر من هذا ولعله لم يقصد به فتاة بعينها بل كان يسمى به الكثيرات من عشيقاته) التي تجلس أياما بأبها كالحارصة العنيدة (٩٩) ، يذكُرها كما ذُكرت كثيرات من الغانيات قبلها أن الشباب

لا يحيى إلا مرة ثم ينقضى مسرعاً خفية ، ولم يلق باله أن دلياً متزوجة ،
فقد أنام زوجها بأن قدم له نبيلداً مركزاً ، ولكنه استشاط غضباً حين فعل
به عاشقها الجديد ما فعله هو بزوجها (٧٠) : ولعل هذه الموضوعات العتيقة
لم تكن خليقة بإقلاق بال أغسطس ، أما الذى جعل تيبلس ، وپروپرتيوس
وأوقد مبغضين إلى حكومة تلقى أشد الصعاب فى وجود مجندين للجيش
فهو النزعة المؤثرة القوية المضادة للجندية ، والى كانت تتصف بها هذه
العصبة المتحللة فى حبها من جميع القيود . ذلك أن تيبلس يسخر من المحاربين
الذين يسمعون إلى الموت فى الوقت الذى يستطيعون فيه أن يغرروا بالنساء ،
ويتحسر على عهد زحل ويتصوره عهداً :

لم يكن فيه جيوش ، ولا حقد ، ولا حرب . . . فلم تكن حرب حين
كان الناس يشربون من أقذاح خشبية . . . ألا فأعطني الحب وحده ودع
غيرى يذهب إلى الحرب . . . فالبطل هو الذى يدركه الكبر فى كوخه
المتواضع بعد أن ولد له بنون ، فتراه يرعى الماشية وابنه يرعى الضأن ،
وزوجته الصالحة تسخن الماء لجسمه المتعب . فلاعش حتى تصبح كل
شعرة من شعر رأسى ناصعة البياض ، وأحدثت عن الأيام الخوالى كما
يتحدث الشيوخ (٧١) .

أما سكستس پروپرتيوس (٤٩ - ١٥) فكانت أغانيه أقل بساطة وأقل
حناناً ، يزينها العلم أكثر مما يزين أشعار تيبلس ، وتماثلها فيما تحتويه من أناشيد
الدعارة الهادئة . وقد ولد سكستس فى أمبريا Umbria وتلقى العلم فى رومة ،
وسرعان ما مال إلى قرض الشعر ، وضمه مامسيناس إلى ندوته على الإسكولين
Esquiline وإن لم يكن فى القراء - إلا قلة ضئيلة منهم - من يستطيع أن
يستخرج أفكاره من أغوار حذلقته . وهو يصف فى زهو وسرور الولائم التى
كانت تقام على شاطئ نهر التير ، حيث كان يجلسى نهر لزبس Lesbos فى
كووس من صنع الفنانين العظيم « وهو جالس ككاهن على عرش بين النساء »

المرحاحات » ، يرقب السفن تجرى في النهر من تحته (٧٢) : وكان پروبرتوس يتغنى بمدح الحرب من حين إلى حين ليطرب بذلك وليّ نعمته وزعيمه ؛ أما حبيبته سنثيا Cynthia فكانت لها عنده نغمة أخرى ، فهو يقول لها : « لِمَ أنجب أبناء ليضحى بهم في الانتصارات البارثية Parthian ؟ لا ، لن يكون ولد من أبنائنا جندياً » (٧٣) ، وهو يؤكد لها أن كل ما في العالم من أعجاذ عسكرية لا يعادل ليلة واحدة مع سنثيا (٧٤) .

وإذا أحصينا كل هؤلاء الأبيقوريين خفاف القلوب والأحلام ، الذين كانوا يقضون حياتهم بين الحب والصد كان فيليوس أفديوس نازو Pudlius Ovidius Naso أنموذجهم السعيد وحامل لوائهم جميعاً . وكان مولده عام ٤٣ ق . م في سلمو Sulmo (سلوما) ، وهي بلدة في واد جميل من وديان الأبنين على بُعد تسعين ميلاً أو نحوها شرق رومة . وكان يتخيلها من منفاه في سنيه الأخيرة بلدة جميلة ذات كروم وغياض من شجر الزيتون ، وحقول من القمح ، ومياه جارية . وأرسله أبوه — وكان رجلاً ثرياً من رجال الطبقة الوسطى — ليدرس القانون في رومة ، ولكنه صُدم حين سمع أن ابنه يريد أن يكون شاعراً . فأخذ يذكر للصبي ما لقيه هومر من مصير محزن ؛ فقد مات هذا الشاعر — كما يقول أحسن الناس علماً بأخباره — فقيراً أعمى . وأثر هذا التحذير في أوغد فواصل دراسة القانون وارتقى حتى صار قاضياً في المحاكم البريتورية ، وأبى أن يتقدم ليكون كوسترا ، فحزن لذلك أبوه أشد الحزن (لأن هذا المنصب كان يؤهله لأن يكون عضواً في مجلس الشيوخ) ؛ وفضل أن يعتمد على دراسة الأدب وإلى الحب ، محتجاً بأنه لا يسعه إلا أن يكون شاعراً « ولثغت بالأوزان فجاءت الأوزان » (٧٥) .

وسافر أوغد على مهل إلى أثينة وإلى الشرق الأدنى وصقلية ، ولما عاد انضم إلى زمرة أكبر الناس مجنوناً وخلاعة في العاصمة ، وكان ذا نصيب موفو ،

من الجمال ، والذكاء ، والعلم ، والمال ، فاستطاع بذلك أن يفتح جميع الأبواب المغلقة . وتزوج مرتين في شبابه ، وطلق زوجته ، ثم قضى بعض الوقت يرعى في المراعى العامة (*) ويقول : « فليجد غيرى مسراتهم في الماضي ، أما أنا فما أسعدنى إذ ولدت في العصر الذى توأمت أخلاقه أخلاق (٧٦) . وكان يسخر من الإنياذة ، ولم يفد منها إلا نتيجة واحدة ، هى أنه لما كان ابن الزهرة هو الذى أنشأ رومة فقد وجب أن تصبح مدينة الحب لتدل على تقى أهلها وصلاحهم إن لم يكن ذلك لسبب اخر (٧٧) . وخابت لبه غاهر جميلة يسميها كورنا Corinna إخفاء لاسمها عن القراء ، أو لعل ذلك اسم يطلقه على كثيرات غيرها من النساء الاتى وقع فى جهن . وسرعان ما وجدت أشعاره المكشوفة فيها من ينشرها له ، فنشرت بعنوان الغزليات Amores فى عام ١٤ م ، ولم تلبث إلا قليلا حتى جرت على لسان كل شاب فى رومة حديثاً وغناء . ويقول هو فى ذلك : « إن الناس فى كل مكان يريدون أن يعرفوا من تكون كورنا هذه التى أنغنى بحبها » (٧٨) . وقد أضلهم هو فى مجموعة أخرى من الغزليات فى وصف الحب الخليط فقال :

« ليس الذى يثير عاطفتى الجمال الثابت ؛ بل إن ثمة مائة سبب تحفظ لى حبي ، فإذا رأيت فتاة جميلة ذات عيني ناعستين مطرقتين إلى حجرها اشتعلت نار الحب فى قلبي ، وأسرتنى بسداجتها . وإذا أبصرت فتاة خليعة ، اخترقت سهام لحاظها قلبي ، لأنها ليست قروية ساذجة ، ولأنها تقوى أملى فى أن أضمها إلى صدرى على فراشى الوثير . وإذا تمنعت وتظاهرت بالعناد والصلابة حكمت بأنها ستخضع لى لا محالة ، ولكنها ممعنة فى خداعها . وإذا كنت عالمة ضليعة بما فى الكتب استهويتنى بشمائلك النادرة ... وتخطر

إحدا من الهويينا فأحدا لحسن خطاها ، وتخطو الأخرى بقوة ، ولكنها ترق إذا طاف بها طائف الجلب . . وإذا غنت فتاة بصوت شجي . . . خطفت منها القبلات في أثناء الغناء ، وإذا ضربت الأخرى بأناملها الخفيفة على الأوتار الشاكية - فهذا الذي لا يقع في حب هاتين اليمين الماهرتين ؟ وهذه تأسرنى بحركاتها ، إذا ما حركت يديها في اتران وانسجام ، وتفنتت في ثني خصرها الرقيق فتذكي النار في قلبي الذي تلتهب فيه نيران الحب لأقل الأسباب ضع هبوليتس Hippolytus في مكاني يصبح بريابس Priapus ! . . . إلى لثنتني الطويلة القصيرة على السواء ، فكلاهما تضم النار في قلبي . . . وإلى لأتقدم إليهما ضارعا متوسلا أن يستجيبا لحي (٧٩) .

واعتذر أوفد عن عدم التغنى بمجد الحرب ، وقال إن كيوبد Cupid جاءه واختلس قدما من شعره وتركه أعرج (٨٠) . وكتب مسرحية لم يعثر عليها بعد وهي مسرحية صبريا Medea قوبلت بقبول حسن ، ولكنه كان على العموم يفضل الشعر الغزلي أو كما يسميه هو « ظلال الزهرة الكسول » ، ولا يرغب في أكثر من أن يسمى « المئشد المعروف بأساليبه النافهة » (٨١) . وأغانيه هي بعينها هي أغاني جماعة الترويدور سبقتها بألف عام كاملة ، وموجهة مثلها للسيدات المتزوجات . وهي تجعل المغازلة أهم أعمال الحياة . ويعلم أوفد كورنا كيف تتحدث إليه بالإشارات وهي مضطجعة على فراش زوجها (٨٢) ، ويؤكد لها أنه سيظل وفيا لها أبدا الدهر ، وأنه لن يزني بغيرها أبداً : « فليست زير نساء يتنقل من هذه إلى تلك ويحب مائة امرأة في وقت واحد » . ثم يحظى بها آخر الأمر ويكتب قصيدة ابتهاجا بنصره ، ويثني فيها عليها لطول صدها عنه ، وينصحها بأن تعود إلى هذا الصد من حين إلى حين ، حتى يدوم حبها أبدا الدهر . ثم يخاصمها ويضربها ، ويندم على فعلته ، ويحزن ويحنن بحبها أكثر من ذي قبل ، ويفعل ما يفعله رمبو فيتوسل إلى الليل أن يطول وإلى الفجر ألا يطلع ، ويرجو أن تنبت

ريح موانية فتحطم قطب عربة الفجر . وتخدعه كورنا كما خدعها ، ويستشيط هو غضباً حين يعرف أنها لا تجد فيما يقدمه لها في شعره من خشوع جزاء كافياً لحبها له ؛ وتقبله طالبة إليه أن يصفح عنها ولكنه لا يسامحها لما كسبته من حذق جديد في بث لواعج الهوى ، ويقول إن معلماً جديداً قد علمها هذا الحذق^(٨٣) . وبعد بضع صفحات من الكتاب نجده يحب فتاتين في وقت واحد كلتاها جميلة حسنة الذوق في اختيار ملابسها ، ومهذبة ، مثقفة^(٨٤) . ثم لا يلبث أن يساوره الخوف من أن يقضى عليه توزيع قلبه بين حبيبتيه ، ولكنه يقول إنه يسعده أن يخر صريعاً في ميدان الحب^(٨٥) .

ولاقت هذه القصائد قبولاً لا بأس به من المجتمع الروماني بعد أربع سنين من صدور قوانين الإصلاح اليوليوسية ، وظلت بعض الأسر العظيمة أمثال أسرة الفابين والكرفيئين ، واليمبونيين تستضيف أوغد في بيوتها ، وازدهى الشاعر بما ناله من نصر فأصدر كتاباً في التفرير بالنساء سماء فن الغرام *ars amatoria* (٢٢) يقول فيه . « لقد عيشتني الزهرة معلماً للحب الرقيق » . وهو يحذر قراءه تحذيراً ينطوى على العفة والطهارة فيقول إن أمثاله يجب ألا تطبق إلا على الجوارى والسراى ؛ ولكن ما مفيض به الكتاب من تصوير للصدقات الوثيقة ، ومواعيد اللقاء السرية ، والرسائل الغرامية ، ومن هزل وفكاهة ، وخيانة أزواج ، وخادعات محلات ماهرات ، كل هذا يوحى بأن الكتاب إنما يصور أحوال الطبقتين العليا والوسطى في رومة . وأراد أن لا تكون دروسه سريعة الأثر فوق ما يجب أن تكون فأضاف إلى رسالته الأولى رسالة ثانية في علاج الحب *Remedia Amoris* يقول فيها إن خير علاج من داء الحب هو العمل الشاق ، ثم يليه في القوة الصمد ، ويأتي بعدهما الغياب ، ومن المفيد أيضاً أن تفاجئ حبيبك في الصباح قبل أن تتم زينتها^(٩٠) . ثم أراد آخر الأمر أن يوفق بين آرائه الأولى والثانية فأخرج رسالة ثالثة عنوانها : *Demedicamina fociei feminineae* وهي رسالة شعرية في

أصباغ التجميل وأدهانه ، أخذ ما فيها عن اليونان . ولاقت هذه الرسائل الصغيرة رواجاً عظيماً ، انتشرت بسببه سمعة أوفيد السيئة في كل مكان ، ويقول في ذلك : « ما دامت شهرتى قد طبقت العالم كله فلانى لا يعيننى قط ما يقوله عنى شخص أو شخصان » (٩١) ولم يكن وهو يقول هذا يعرف أن أحد هذين الشخصين الحقيرين هو أغسطس نفسه ، وأن قصائده قد أغضبت الزعيم ، وأنه يراها إهانة لحقت بالقوانين اليوليوسية ، وأنه لن ينسى هذه الإهانة حين تخطر الفضائح الإمبراطورية على بال الشاعر الغافل .

وفي السنة الثالثة بعد الميلاد تزوج أوفيد للمرة الثالثة ، وكانت زوجته الجديدة من أكبر الأسر الممتازة في رومة ، واستقر الشاعر ، وكان وقتئذ في السادسة والأربعين من عمره ، في حياته المنزلية الهادئة ، ويلوج أنه هو وزوجته قد تبادلوا الوفاء والإخلاص والهناء في فاييا Fabia ، وفعلت به السن ما لم يفعل به القانون ، فأحدث نيران عواطفه وجعلت شعره جديراً بالاحترام . فروى في كتابه Heroides قصصاً عن حب شهيرات النساء أمثال بيلبي Penelope وفيلبرا Phaedra وديدو ، وأريدى Ariadne ، وسافو ، وهلين Helen ، وهيرو Hero ، ولعله أسرف في طول هذه القصص حتى أمل ، لأن التكرار قد يجعل كل شيء حتى الحب نفسه مستثماً . على أن مما يثير الدهشة حقاً في هذه القصص جملة على لسان فدرا تعبر فيها عن فلسفة أوفيد : « لقد حكم جوف بأن الفضيلة هي كل ما يهبنا اللذة » (٩٢) . ونشر الشاعر حوالي ٧ م أعظم مؤلفاته كلها وهو كتاب « التحول Metamorphoses » . ويتألف من خمسة عشر سفراً ، تقص في شعر سداسى الأوتاد تحول الجهاد والحيوان والناس والآلهة . وإذا كان كل شيء في الأساطير اليونانية والرومانية ، إلا القليل النادر ، قد بدل صورته ، فقد استطاع أوفيد بفكرته هذه أن يغترف من بحر الأساطير القديمة كلها من خلق العالم إلى تأليه قيصر ، وكانت كتاباته هي القصص التي ظلت ذات شأن عظيم في برامج الكليات جميعها حتى الجيل السابق على جيلنا

هذا ، بل إن ثورة هذه الأيام لم تسمح بعد ذكرها من العقول : كقصص
عربة فيثون Phaethon's Chariot ، وبيرواموس وثرزبي Pyramus & Thisbe
وإيرسيوس وأندرمدا Perseus & Andromeda ، وسرقة بيرسبرين The
Rape of Proserpine ، وأرثوزا Arethusa ، وميدبا Medea ،
وديدالوس وإيكاروس Daedalus & Icarus ، وبوسيز وفليمون
Baucis & Philemon ، وأورفيوس ويورديس Orpheus & Eurydice ،
وأطلنطا Atlanta ، وفينومس وأدنيس Venus & Adonis وكثير غيرها .
هذا هو المعين الذى استمدت منه مئات الآلاف من موضوعات القصائد ،
والرسوم والتماثيل . وإذا كان لا بد للإنسان أن يواصل دراسة الأساطير
القديمة ، فإن أيسر السبل إلى دراستها أن يقرأ قصص هذا الحشد العظيم من
الآدميين والآلهة ، وهى قصص تروى بكثير من التشكك الفكه النزعة
الغزلية ، وللفن فيها أثر دائم عظيم يعجز عنه العايت غير القدير ، ولا يصل
إليه إلا من أوتى المقدرة والصبر الطويل . فلا عجب والحالة هذه أن
يعلن الشاعر الواثق من نفسه فى ختامها أنه من الخالدين : « per saecula
omnia vivam ساعيش إلى آخر الدهر » .

وما كاد يفرغ من كتابة هذه العبارة الأخيرة حتى ترمى إليه أن
أغسطس قد أمر بنفيه إلى بلدة تومى Tomi الباردة الممجية الواقعة على
ساحل البحر الأسود وهى المعروفة الآن بقسنطينة ، والتي لا تزال غير
محببة إلى غير أهاها . وتلك كارثة لم يكن الشاعر مستعداً لتحملها فى مثل
سنه ، وكان قد أتم فى هذا الوقت إحدى وخمسين عاماً ، وفرغ تواء ،
قيل انتهائه من كتاب « التحول » ، من قصيدة من الشعر الجيد يثنى
فيها على الإمبراطور ويعترف فيها بأن سياسته قد نشرت لواء السلام
والأمن والرفاهية التى يستمتع بها الجيل الذى يعيش فيه أوكد . وكان
فوق هذا قد أتم نصف قصيدة تدعى فاستى Fasti وهى قصيدة تكاد تكون
من القصائد الثقية تتحدث عما فى السنة الرومانية من أعياد دينية . وكان يوشك

أن يجعل هذه القصيدة ملحمة يستمد موضوعها من التقويم الرومانى ، لأنه استخدم فى رواية قصص الدين القويم وفى تكريم هياكله وآلهته ما استخدمه فى الأساطير اليونانية والغزل الرومانى من أسلوب سهل واضح وعبارات وجمل رقيقة . وكان يرجو أن يهدى القصيدة إلى أغسطس ليشترك بها فى إعادة الدين القويم إلى سابق عهده ، ولتكون بمثابة اعتذار منه عن سخريته بهذا الدين ، وإنكار لما فرط منه فى حقه .

ولم يمين الإمبراطور فى قراره أسباب نفيه ، وليس فى مقدور أحد أن يعرف فى هذه الأيام حقيقة هذه الأسباب . على أن ثمة إشارة بعيدة من الإمبراطور لأسباب هذا النفى ، فقد نفى فى الوقت نفسه حفيدته يوليا وأمر بإخراج كتب أوغد من دور الكتب العامة . ويلوح أن الشاعر كان له بعض الشأن فى مسلك يوليا الشائن ، سواء كان حظه فيه حظ الشواهد ، أو المشارك ، أو الفاعل الأصل . أما هو نفسه فيقول إنه عوقب بسبب « خطأ » وقع فيه وبسبب قصائده ، ويذكر ما يوحى بأنه شهد على الرغم منه منظراً غير لائق (٩٣) . وأجيز له أن يبقى فى أثناء الشهور الباقية من عام ٨ م. ينظم فيها شئوته . وكان القرار مجرد إبعاد ، أخف من النفى ، يسمح له أن يحتفظ بأملأكه ، ولكنه أقسى منه إذ يلزمه بالإقامة فى مدينة واحدة . فلم يكن منه إلا أن أحرق كتاب التحول ، وإن يكن بعض القراء قد نقلوا صوراً منه واحتفظوا بها لأنفسهم . وابتعد عنه معظم أصدقائه (٩٤) وعرض بعضهم أنفسهم لأشد الأخطار ببقائهم معه إلى ساعة رحيله ، وشجعته زوجته وأعانتته على تحمل محنته بما أظهرت له من الحب والإخلاص ، وإن لم تسافر معه إطاعة لأمره . وإذا استثنينا هذه المظاهر القليلة فإن رومة بأسرها لم تظهر شيئاً من الاهتمام بشاعر أفرأحها ومسراتها حين أبجر من أستيا لبدأ سفره الطويل وابتعاده عن كل شئ ، يحبه . وكان البحر هائجاً طوال أيام الرحلة تقريباً ،

وخيل إلى الشاعر مرة أن الأمواج ستبتلع سفينته ، ولما أبصر توى حزنه
لأنه بقى على قيد الحياة واستسلم للحزن واليأس .

وكان في أثناء الرحلة قد شرع ينظم القصائد المعروفة لنا باسم **الأهزانه** *Tristia* . فلما جاء المدينة واصل نظمها وبعث بها إلى زوجته وابنته ووريثته وأصدقائه . وأكبر الظن أن الروماني المرفه الحس قد بالغ في وصف أهوال موطنه الحديد حين قال عنه إنه : مكان قفر خال من الأشجار لا ينبت فيه شيء وإن كان ضباب البحر الأسود حجب عنه الشمس ، وإن البرد يشتد فيه حتى يبقى ثلج الشتاء في بعض السنين طوال فصل الصيف ، ويتجمد ماء البحر الأسود في فصل الشتاء المظلم الكثيب كما يتجمد ماء نهر الدانوب حتى ليسهل أن يمر عليه البرابرة الضاربون حول المدينة ويغيروا على أهلها وهم خليط من الجيتا *Getae* حملة الخناجر واليونان المهجنين . ولما فكر في سماء رومة الصافية وحقول سلمو *Sulmo* الناضرة تحطم قلبه أسى وحسرة ، وسرى في شعره - وكان لا يزال جميلا في شكله ولفظه - شعور عميق قوى لم يسر فيه قبل .

وتتصف « **الأهزانه** » هي الرسائل الشعرية التي كتبها لأصدقائه « **من البحر الأسود Ex Ponto** » بكل ما تتصف به أعماله العظيمة من سحر وجمال ، فقد بقى له في منفاه كل ما كان له من ألفاظ سهلة يبعث بها السرور في القلوب حتى وهو في المدرسة ، ووصف للمناظر تكتسب وضوحها من نفاذ بصره وبن خياله ، وقطرة على تصوير الأشخاص وبث الحياة فيهم بما أوتي من دقة ومهارة سيكولوجية ، وعبارات موجزة مليئة بالتجربة والتفكير ، ورقة في الحوار ، وبسرو سهولة في الأوزان ، كل هذه الخصائص قد بقيت له في منفاه وخالطها جيداً ووقار ورقة ، كان اقتتار قصائده الأولى إليها مما جعلها غير جذيرة بالرجال . وكان ينقصه في جميع مراحل حياته ،ة الخلق ؛ كما أنه قد أفسد

شعره في وقت من الأوقات بما ملأه به من وصف الشهوات الجنسية التافهة ،
فقد أغرق الآن أشعاره بفيض من الدموع والتضرع للزعم والتدلل له .

وكان يحسد القصائد التي تستطيع الوصول إلى رومة ، ومن أقواله في
هذا المعنى : ارحلى أيتها الكتب وحي باسمي الأماكن التي أحبها « و « أرض
بلادى العزيزة على » (٩٥) ويتمنى لو أن صديقاً شجاعاً حل هذه الرسائل
إلى الإمبراطور فأشفق عليه . وهو يفضح في كل رسالة عن أمله في أن يعفو
الإمبراطور عنه ، أو يأمر بنقله إلى مكان أقل قسوة من منفاه . وهو لا ينفك
يذكر في زوجته ويردد اسمها في أثناء الليل ، ويتمنى أن يقبل شعرها
الأبيض قبل أن تحين منيته (٩٦) . ولكنه لم يصله عفو ، حتى إذا قضى في المنفى
تسع سنين وبلغ من العمر ستين عاماً ، رحب بالموت ، وجيء بعظامه إلى
إيطاليا استجابة لرجائه ، ودفنت بجوار عاصمة البلاد .

وحققت الأيام ما تنبأ به لنفسه من شهرة خالدة ، وكان له في العصور
الوسطى مالفريجيل من أثر عميق ، وأضحى كتاباه « التحولات » و « الهيرويدات »
مصدر كثير من روايات الحب في تلك العصور ، واستمد منه بوكاشيو ،
وتسو ، وتشوسر ، واسبنسر كثيراً من موضوعاتهم ، ووجد مصورو
النهضة في أشعاره الشهوانية كنزاً من الموضوعات لا ينضب له معين ،
وملاك القول أنه كان أعظم شاعر وجداني إبداعي في العصر العقلي الاتباعي .

وانقضى بموته عهد من العهود الزاهرة في تاريخ الأدب . ولا جدال
في أن عصر أغسطس لم يكن من أزهى عصور الأدب كما كان عصر بيركليز
في اليونان أو عصر إلزبت في إنجلترا .

وقد كان حتى في أحسن ما أخرجته من النثر بلاغة طنانة ، وفي خير
ما أخرجته من الشعر كمال في الشكل قلما ينتقل كلاهما من القلب إلى القلب .

ولسنا نجد في هذا العصر من يضارع إسكاس أو بوربديز أو سقراط أو حتى
لكريشوس أو شيشرون . لقد كان احتضان الإمبراطور للأدباء هو الذي
يلهم أدب رومة ويغذيه ويقمعه ويضيق عليه . وإن العصر الاستقراطي -
كمصر أغسطس أو لويس الرابع عشر أو القرن الثامن عشر في إنجلترا -
إن هذا العصر ليعلى من شأن الاعتدال والتوسط ، وحسن الذوق ، ويوجه
الأدب وجهة « اتباعية » في الأسلوب يعلو فيها العقل والشكل على الوجدان
والحياة . وذلك أدب أكثر صقلا وأقل حيوية ، وأنضج وأقل
تأثيراً من أدب العصور أو العقول المبدعة العاطفية . ولكننا إذا
غضضنا الطرف عن هذا ونظرنا إلى أدب ذلك العصر في نطاق الأدب
العقلي الاتباعي وجدناه جديراً باسمه ؛ فنحن لا نرى من قبله حكماً رزياً
قد عبر عنه بمثل هذا الفن البالغ أوج الكمال ، وحتى المرح الجنوبي الذي
وصفه أوفد قد خفف من حدته القالب الاتباعي الذي صب فيه . وقد
بلغت اللغة اللاتينية في شعره وشعر فرجيل وهوراس أعلى ما وصلت إليه
بوصفها أداة لقرض الشعر ، ولم تبلغ بعدهم ما بلغت في أيامهم من ثراء
في اللفظ ، وفخامة في النغم ، ودقة في التعبير مع إيجاز ومرونة وعذوبة
ألفاظ .

الباب الثالث عشر الجانب الآخر من الملكية

١٤ - ٩٦ م (*)

الفصل الأول

تيبيريوس

إذا نزل العلماء من عليائهم إلى ميدان العواطف زاد العالم ولعاً بها ، أما إذا كانت العواطف هي المسيطرة على السياسة تصدعت أركان الإمبراطوريات وزلزلت دعائمها . وكان اختيار أغسطس لتيبيريوس اختياراً حكيماً ، ولكنه جاء بعد فوات الفرصة . ولما كان تيبيريوس يعمل على إنقاذ الإمبراطورية بصبره وحسن قيادته أوشك الإمبراطور أن يحبه ، فقد جاء في ختام إحدى الرسائل التي وجهت إليه : « وداعاً يا أحب الناس إلى ... » . ويا أشجع الرجال ، ويا أعظم القواد إخلاصاً وأحياء ضميراً (١) . ولكن عاطفة الحوار وقرب الدار أعمت أغسطس كما أعمت من بعده أورليوس ، فنأى بجانبه عن تيبيريوس وقرب إليه أحفاده الصغار ، واضطره إلى التخلي عن زواج سعيد موافق ليكون ديوث يوليا ، وغضب منه حين لم يرض عن سلوكها ، وتركه يبلغ سن الشيخوخة وهو يدرس الفلسفة في رودس . ولما تولى تيبيريوس رئاسة الدولة في آخر الأمر كان قد بلغ الخامسة والخمسين من عمره ، وكره المجتمع ، ولم يعد يرى في السلطان سعادة .

(*) ستكون كل التواريخ الواردة في هذا الباب وما يليه بعد الميلاد إلا إذا ثبتنا بأنها قبله .

وإذا شئنا أن نفهمه على حقيقته وجب علينا أن نذكر أنه من آل كلوديوس وأنه كان أول الفرع الكلودي من الأسرة اليوليوسية الكلودية التي كان آخرها نيزون . وقد ورث عن أبويه أنبل دم في إيطاليا ، وأضيق أهلها أفقاً ، وأقواهم إرادة . وكان طويل القامة شديد البأس ، حلو الملامح ، ولكن حبّ الشباب ضاعف من حيائه ، وسماجة طباعه ، وإحجامه وحبّه للعزلة (٢) . ويمثله رأسه الجميل المحفوظ في متحف بسطن في صورة قس شاب عريض الوجه ، واسع العينين غائرهما ، ذى وجه يدل على الحزن وعميق التفكير ، وقد بلغ من جده ووقاره في شبابه أن أطلق عليه بعض المحبان اسم « الرجل العجوز » . وقد أخذ من التربية كل ما يستطيع أن يأخذه عن الرومان واليونان والبيئة والتبعة ، وأتقن اللغتين اليونانية والرومانية وآدابهما ، وكتب الأغاني الشعرية ، ودرس التنجيم و« غفل عن الآلهة » (٣) . وكان يحب أخاه الأصغر دروسس رغم أنه كان أحب منه إلى الشعب ؛ وكان زوجاً مخلصاً وفياً لفيسانيا Vipsania مكرماً لأصدقائه إكراماً لم يكونوا يترددون معه في أن يهدوا إليه الهدايا وينتظروا منه أن يهدى إليهم أربعة أمثالها . وكان أقسى قواد زمانه وأقدرهم ، فنال بذلك إعجاب جنوده وتعلقهم به ، لأنه كان يعنى بكل شئونهم مهما صغرت ، ولأنه كان يكسب المعارك بفنه أكثر مما يكسبها بدماء جنده .

ولكن فضائله هي التي قضت عليه ، فقد كان يصدق ، القصص التي تروى عن أعمال أسلافه ، وكان يتوق إلى رؤية صرامة الرومان الأقدمين تعود إلى المدنية الجديدة ، وارتاح إلى إصلاحات أغسطس الأخلاقية ، ولم يخف قط عزمه على تنفيذها طوعاً أو كرهاً . ولم يكن يحب ذلك الخليط من الأجناس الذي كان يغلب في بوتقة رومة ، فقدم إليهم الخبز ولكنه لم يقدم إليهم الألعاب ، وأغضبهم بامتناعه عن حضور ما كان يقدمه إليهم منها أثرياء المدينة . وكان قوى الاعتقاد بأن رومة لا ينجيها مما تردت فيه من الانحطاط إلا طبقة

من الأشراف الصلاب ذوى الخلق القويم والذوق الجميل . ولكن الأشراف والعامّة على السواء لم يطبقوا صلابة عوده ، وصرامة وجهه ، وصمته الطويل ، وحديثه البطيء ، وما يبدو عليه من علم بتفوقه ، وفوق هذا كله اقتصاده الشديد فى أموال الدولة . فهو والحالة هذه رواقى ولدب خطأ فى عصر أبيقورى . وقد حالت أمانته الصارمة بينه وبين تعلم فن سنكا ، فن الدعوة إلى عقيدة بلغة مزينة جميلة ، واتباع عقيدة أخرى والمثابرة عليها بتجمل وكياسة .

وظهر تيبيريوس أمام مجلس الشيوخ بعد أربعة أسابيع من وفاة أغسطس ، وطلب إليه أن يقرر إعادة الجمهورية ، وقال للأعضاء إنه لا يصلح لحكم تلك الدولة المترامية الأطراف ، « وإن خير طريقة لإدارة أعمال المصالح المختلفة التى تشرف على الشؤون العامة فى مدينة احتوت هذا العدد الجم من الرجال النابهين ذوى الأخلاق العالية . . . أن يتولاها جماعة مؤلفون من خير المواطنين وأعظمهم كفاية » (٤) . ولم يجزئ أعضاء المجلس على أن يصدقوا ما يقوله لهم ، فحيوه كما حياهم بطأطة رؤوسهم ، وما زالوا به حتى قبل أن يتولى السلطة التى قال عنها « إنها استرقاق مهبط مذلل » على أمل أن يسمح له المجلس فى يوم من الأيام أن يعتزلها ليحيا حياته الخاصة متمتعاً بالحرية (٥) . وهكذا مثلت الرواية من كلا الجانبين أحسن تمثيل . وما من شك فى أن تيبيريوس كان يريد أن يتولى الرعاية وإلا لوجد سبيلا إلى الفرار منها ، وأن مجلس الشيوخ كان يخشاه ويغضبه ، ولكنه كان يرهب عودة جمهورية تقوم ، كما كانت تقوم الجمهورية القديمة ، على جمعيات تعد من الوجهة النظرية مصدر السلطات جميعها ، وكان يرغب فى نظام أقل ديمقراطية من هذا النظام السالف الذكر لا أكثر منه . ولشد ما ابتهج حين أقنعه تيبيريوس (١٤ م) أن يأخذ من الجمعية المثوية حق اختيار الموظفين العموميين . وشكا المواطنون من هذا الانقلاب بعض الوقت وكان سبب شكواهم أنهم خسروا الأموال التى كانت تتبعها أصواتهم ، وأضحى كل ما بقى بعدئذ من السلطة لعمامة الناس هو سلطة

اختيار الإمبراطور بقتل سلفه . ذلك أن الديمقراطية بعد تيسير يوس قد انتقلت من الجمعيات إلى الجيش ، وكانت أداة الانتخاب هي حد السيف .

ويلوح أنه كان يبغض الملكية بغضاً حقاً خالياً من الرياء ، وأنه كان يعدّ نفسه رأس مجلس الشيوخ الإدارى وذراعه المنفذة ، ولذلك رفض من الألقاب كل ما تشتم منه رائحة الملكية وقنع بلقب « زعيم الشيوخ » *Princeps senatus* وقضى على كل محاولة ترمى إلى تأليهه ، أو عبادة روحه ، وأظهر كرهه للملق . ولما أراد مجلس الشيوخ أن يسمى أحد الأشهر باسمه ، كما سمي من قبل شهرين باسم قيصر وأغسطس ، رد هذه التحية رداً ينطوى على الفكاهة فقال : « وماذا تفعلون إذا وجد لديكم ثلاثة عشر قيصرًا ؟ » (*) . ورفض اقتراحاً يطلب إليه أن يعيد النظر فيمن يختارون لعضوية مجلس الشيوخ ، وقال إنه لا شيء مطلقاً يفوق احترامه لهذه الجمعية القديمة « جمعية الملوك » . وكان يحضر اجتماعات المجلس ، ويحيل إليه « حتى أصغر الأمور ليحكم فيها » ، ويجلس فيه ويتكلم كأنه عضو عادى لا أكثر ، وكثيراً ما كان يقترح مع الأقلية ، ولم يحتج يوماً من الأيام إذا وافق المجلس على قرارات تتعارض مع رغبته التى أبدأها جهرة (٧) . و « كان منطوياً على نفسه ، صبوراً » . على حد قول سوتونيوس « إذا ما وجهت إليه وإلى أسرته الشتائم والافتراءات والمطاعن » . وكان يقول فى ذلك « إن البلد الحر يجب أن تطلق فيه حرية القول والفكر » (٨) . ويعترف تاسيتس وهو من المعادين له أن ترشيحاته « كانت تصدر عن حكمة ، وأن من كان يرشحهم من الفناصل والبريتورين كانوا يتصفون بصفات الشرف والكمال القديمة الخليقة بمناصبهم . وكان من يلونهم من الموظفين يمارسون سلطات مناصبهم بعيدين عن

(*) ولقد كان على مجلس الشيوخ أن يعمل بقوله هذا فيقسم السنة إلى ثلاثة عشر شهراً كل منها ثمانية وعشرون يوماً يعقبها يوم عطلة (أو يومان فى السنة الكبيسة) .

تدخل الإمبراطور . وكانت القوانين إذا استثنينا ما يختص منها باغتصاب الملك تجرى في مجراها الطبيعي . . . وكانت أعمال الإيرادات العامة يصرفها رجال امتازوا بالاستقامة والنزاهة . . . ولم تفرض على أهل الولايات أعباء جديدة ، وكانت الضرائب القديمة تجبى في غير عنف أو قسوة . . . وساد النظام بين عبيده . . . وكانت دور العدالة مفتحة الأبواب لتفصل في كل نزاع يقع بين الإمبراطور وأفراد الشعب ، وكان القانون وحده هو القيص في هذا النزاع » (٩) .

ودام هذا الحكم الصالح ، حكم تيبيريوس ، تسع سنين ، استمتعت فيها رومة وإيطاليا والولايات بحكومة صالحة لم تر خيراً منها في تاريخها كله . وحسبنا أن نذكر شاهداً على هذا أن تيبيريوس الذي وجد حين اعتلائه العرش في خزانة الدولة مائة مليون سسترس ترك فيها حين وفاته ٢٧٠٠٠٠٠٠٠٠٠ دون أن يفرض ضرائب جديدة ، وعلى الرغم من هبائه الكثيرة للأسر والمدن التي نحت بها الكوارث ، وبالرغم من عنايته بإصلاح جميع المنشآت العامة وعدم اشتباكه في حروب تجر له المغام ، ورفضه كل ما أراد أن يوصى به إليه أشخاص لهم أبناء أو أقارب أدنون . ولم يدخر جهداً في العناية بجميع شئون البلاد الداخلية والخارجية . وكان يكتب للولاة الذين يريدون أن يجبوا من الضرائب أكثر مما كان مفروضاً على ولايتهم يقول لهم : « لقد كان من واجب الراعى الصالح أن يقص صوف غنمه لا أن يجزها » (١٠) . ولم يكن يعزو إلى نفسه مجد الظفر في ميدان القتال وإن كان من القادة المحنكين ، وقد بسط لواء السلام على الإمبراطورية واحتفظ به بعد السنة الثالثة من حكمه .

وكانت سياسة السلام هذه هي التي حالت بينه وبين ما كان يبغيه من تقدم في عهده . ذلك أن چرمنكوس ابن أخيه ، وهو الشاب الوسيم الذي تبناه بعد موت دروسس ، كسب بعض المعارك في ألمانيا ورغب في أن يواصل الزحف عليها ليفتحها . وكان من رأى تيبيريوس عدم التورط في هذا الفتح ،

فأغضب بذلك الشعب ذا النزعة الاستعمارية . وإذا كان جرمنكوس حفيد
ماركس أنطونيوس فإن الذين كانوا لا يزالون يحملون بإعادة الجمهورية
قد اتخذوه رمزاً لقضيتهم ، فلما أن نقله تيبيريوس إلى بلاد الشرق عد
نصف أهل رومة هذا القائد الشاب شهيدا لحسد الزعيم ، ولما أن فاجأ
جرمنكوس المرض ومات ظنت رومة كلها أن الإمبراطور قد أمر بأن
يدس له السم في الطعام (١٩) ، واتهم بهذه الجريمة أكنيوس پيزو أحد
الموظفين المعينين من قبيل تيبيريوس في آسية الصغرى . وحاكمه مجلس
الشيوخ ، وأبقن الرجل أن مجلس الشيوخ سيدينه فانتحر لكي يحتفظ
بأملاكه لأسرته . ولم تكشف المحاكمة عن شواهد تدل على ارتكاب
تيبيريوس لهذه الخيانة أو تثبت براءته منها ، وكل ما نعرفه أنه طلب إلى
مجلس الشيوخ أن يمكن پيزو من أن يحاكم محاكمة عادلة ، وأن أنطونيا أم
جرمنكوس ظلت إلى آخر أيام حياتها أخلص أصدقاء تيبيريوس (١١) .

واضطر تيبيريوس أمام تدخل الجمهور الناظر للمحتاج هذه القضية
المشهورة ، والقصص البذيئة التي كانت تذاع عن الإمبراطور ، ودسائس
أجرينا أرملة جرمنكوس وإثارتها الناس عليه اضطر تيبيريوس أمام
هذا كله أن يلجأ إلى قانون الخيانة العظمى الذي أصدره قيصر والذي ينص
على الجرائم التي ترتكب ضد الدولة . وإذا لم يكن لرومة مدع عمومي
أو نائب عمومي ، ولم يكن لها (قبل أغسطس) شرطة ، فقد كان من حق
كل مواطن ومن واجبه أن يوجه التهمة أمام المحاكم لكل شخص يعرف أنه
خرق القانون ، فإذا أدين المتهم كوفي المخبر أو المبلغ بربح أملاك المحكوم
عليه وصادرت الدولة بقية أملاكه . واستعان أغسطس بهذا الإجراء
الخطير لإرغام الناس على إطاعة قوانينه الخاصة بالزواج . والآن وقد
انتشرت المؤامرات ضد تيبيريوس فقد كثر المخبرون الذين رأوا أن يستفيدوا
بالتبليغ عنها ، وكان أنصار الزعيم من الشيوخ على أتم استعداد للسير في محاكمة
المتآمرين بمنتهى الصرامة ، وحاول الإمبراطور أن يمنعهم ، ونفذ القانون

تنفيذاً صارماً في حالة الذين اتهموا بتسوية ذكرى أغسطس أو تدنيس تماثيله ، أما « الأشخاص الذين كانوا يوجهون التهم له فقد حرم أن يوقع عليهم عقاب ما » كما يقول تاستس . وأكد مجلس الشيوخ أن والدته ليثيا تريد منهم هذه المعاملة الرحيمة لمن يعتدون على سمعتها الطيبة (١٢) .

وأضحت ليثيا نفسها في ذلك الوقت إحدى المشكلات الكبرى في الدولة . ذلك أن عجز تييريوس عن الزواج قد تركه وليس له من يحميه من امرأة ذات عقلية جبارة اعتادت أن يكون لها سلطان عليه . وكانت تشعر أن تدبيرها هو الذي هيا له السبيل لاحتلاء العرش ، وأفهمته أنه إنما يتولاه بوصفه ممثلاً لها لا أكثر (١٣) . وكانت رسائله الرسمية في سنى حكمه الأولى تحمل توقعيه وتوقعها معاً ، وإن كان وقتئذ قد قارب الستين من عمره ، « ولكنها لم تقنع بأن تكون مساوية له في شئون الحكم » كما يقول ديو « بل أرادت أن تفرض سيادتها عليه . . . وشرعت تصرف الأمور جميعها كأنها هي وحدها الحاكمة » (١٤) . وصبر تييريوس على هذه الحال صبر الكرام ولكن ليثيا عاشت بعد أغسطس خمسة عشر عاماً ، فشاد تييريوس لنفسه قصرأ خاصاً ، وترك أمه لا ينازعها منازع في امتلاكها القصر الذي شيده أغسطس . وراحت السنة السوء تهمة بقسوته عليها ، وبأنه أمارت زوجته المنفية من الجوع . وكانت أجريينا في أثناء ذلك تدفع ابنها نيرون ليخلف تييريوس على العرش أو ليغتصبه منه إن أمكن (١٥) . وتحمل هذا أيضاً على مضض ، وكل ما فعله أن أنها على فعلتها بعبارة مقتبسة من اللغة اليونانية : « هل تظنين يا ابنتي العزيزة أنك تظلمين إذا لم تكوني إمبراطورة ؟ » (*) وكان أصعب شيء على نفسه أن يعرف أن وحيدة دروسس الذي رزقه من زوجته الأولى كان فتى رقيقاً ، دينياً ، نقاسياً ، فاسد الأخلاق ، شهوانياً ، فاجراً .

(*) أجريينا ابنة يوليا من أجربا ، وربيبة تييريوس بعد زواجه من يوليا ، وزوج متبناه چرميكوس ، وكان ابنها نيرون عم الإمبراطور نيرون المعروف ، وكانت ابنتها أجريينا الصغرى أم هذا الإمبراطور .

وكان هذا الكبت الذى فرضه تيبريوس على نفسه ، وصبره على هذه المحن ، سبباً فى إثارة أعصابه وضيق صدره ، فأخذ يزداد انطواء على نفسه ، وبدت على وجهه الكآبة ، وفى حديثه الصرامة ، مما نفر منه الناس جميعاً ، وأبعدهم عنه ، اللهم إلا أصدقاءه الذين يرجون له الخير ، وكان ثمة رجل واحد بدا أنه أكثر الناس وفاء له ، ذلك هو لوسيوس إيليوس سيجانوس Lucius Aelius Sejanus .

وأثرت فى تيبريوس خيبته وحزنه ، وأضحى رجلاً حزيناً فريداً فى السابعة والستين من عمره ، فغادر العاصمة الهائلة المحمومة وآوى إلى كاهرى حيث عاش عيشة العزلة بعيداً عن سائر الناس . ولكن السنة السوء لم تنقطع عن الاستطالة فيه ، ولم يعقها عائق عن أن تتبعه فى عزله ، فقال بعضهم إنه يريد أن يخفى عن أعين الناس جسمه الهزيل ووجهه الخنازيرى (*) ، ويطلق العنان لشهواته ورذائله غير الطبيعية^(١٦) . ولا شك فى أن تيبريوس كان كثير الشرب ، ولكنه لم يكن سكيراً ، أما قصة رذائله فأكثر الظن أنها افتراء عليه^(١٧) ، ويقول تاسيتس إن معظم من كانوا حوله من الأصدقاء فى كاهرى كانوا من اليونان الذين لا يمتازون بشيء إلا بالأدب^(١٨) . وظل وهو فى عزله يصرف شئون الإمبراطورية تصرفاً حازماً حكماً ، إلا أنه كان يبلغ آراءه ورغباته إلى الموظفين وإلى مجلس الشيوخ على لسان سيجانوس Sejanus . وإذا كان المجلس يخشاه خشية متزايدة ، أو يخشى سيجانوس أو الحرس العسكرى فقد كان يقبل رغبات الإمبراطور ، ويرى أنها أوامر واجبة الطاعة . وبذلك استحوطت الزعامة إلى ملكية تحت سلطان الرجل الذى عرض أن يعيد الجمهورية ، ومن غير أن يحدث أى تغيير فى دستور البلاد ، ومن غير أن يبدو من تيبريوس نفسه أى دليل واضح على عدم الإخلاص .

وانتهز سيجانوس الفرصة التى أتاحت له فنفى عدداً كبيراً من أعدائه بعد اتهامه بإياهم بتهم ينطبق عليها « قانون الخيانة أو » « قانون الجلالة » حسب اسمه

(*) المصاب يداء الخنازير وهو داء من أعراضه التفتاخ الفد فى أجزاء مختلفة من الجسم وخاصة فى العنق . (المترجم)

اللاتيني . ولم يتدخل الإمبراطور المتعب في هذا الأمر . وإذا كان لنا أن نصدق ما يقوله سوتنيوس فإن تيبيريوس نفسه قد ارتكب كثيراً من أعمال القسوة (١٩) ، ويقول تاسيتس - وهو ممن لا يعتمد على أقوالهم - إنه طلب تنفيذ عقوبة الإعدام في بيبوس سابينوس Poppaeus Sabinus بحجة أن عيونه قد سمعوه وهو يأمر بالحكومة (٢٠) . وماتت ليقياً بعد سنة من ذلك الوقت (٢٧) . حزينه وحيدة في بيت زوجها السابق ؛ ولم يحضر تيبيريوس جنازتها ، ولم يكن قد رآها بعد أن غادر رومة إلا مرة واحدة . وتحرر سجانوس بموتها مما عساه أن تفرضه عليه « أم بلادها » من قيود ، فأقنع تيبيريوس بأن أجريينا وابنها نبرون كانت لهما يد في مؤامرة سابينوس ، فنفيت الأم إلى بندتيريا Pandateria ونفى الابن إلى جزيرة بنتيا Pontia حيث قتل نفسه بعد ذلك بزمان وجيز .

وإذا كان سجانوس قد كسب كل شيء إلا عرش البلاد فقد أخذ يعمل جاهداً للوصول إليه . وكان قد أغضبه خطاب كتبه تيبيريوس إلى مجلس الشيوخ يرشح فيه جيوس ابن أجريينا ليكون زعيماً من بعده ، فدبر مؤامرة لاغتيال الإمبراطور عام (٣١) . ونجا الإمبراطور بفضل أنطونيا أم جرمينكوس إذ خاطرت بحياتها لتبعث إليه تحذره من الخطر الذي يهدده ؛ ولم يكن الزعيم الشيخ قد فقد عزيمته بعد فعين في السر رئيساً جديداً للحرس ، وأمر بالقبض على سجانوس ، واتهمه بالخيانة أمام مجلس الشيوخ . ولم يكن هذا المحاس في يوم من الأيام أكثر استجابة لرغبات الأباطرة منه في هذه المرة ، فقد أدان سجانوس من فوره ، ونفذ فيه حكم الإعدام خفياً في الليلة نفسها . وأعقبت ذلك فترة من حكم الإرهاب تولى قيادتها أحياناً شيوخ أضر سجانوس بمصالحهم ، أو آذى أقاربهم أو أصدقاءهم ، وأحياناً أخرى تولاهما تيبيريوس نفسه . ودفعه الخوف والغضب ، اللذان استوليا عليه بعد أن زال عن عينيهِ ما كان يغشاها من خداع ، إلى صورة جنونية من الانتقام . وفي هذه الفترة قتل كل إنسان ذى خطر عاون سجانوس

أو كانت له يد في تنفيذ أغراضه ، ولم تنج من القتل ابنته الصغرى نفسها ؛ وإذ كان القانون يحرم قتل العذارى فقد فضت بكارتها قبل خنقها ؛ وانتحرت مطلقة أبكاتا Apicata ، ولكنها أرسلت قبل انتحارها خطاباً إلى تيبيريوس تبلغه فيه أن ليڤلا Livilla ابنة أنطونيا قد اشتركت مع سجانوس في تسميم زوجها دروس ابن الإمبراطور ، فما كان من تيبيريوس إلا أن أمر بمحاكمة ليڤلا ، ولكنها امتنعت عن الطعام حتى ماتت . وبعد سنتين من ذلك الوقت (٣٣) انتحرت أجريينا في منفاها كما امتنع عن الطعام ابن آخر من أبنائها ، كان قد حكم عليه بالسجن ، وظل ممتنعاً عنه حتى مات .

وعاشر تيبيريوس ستة أعوام بعد سقوط سجانوس ، وأكبر الظن أنه أصيب وقتل بخبال في عقله ، وبغير هذا الافتراض لا نستطيع أن نفسر ما يعزى إليه من أعمال القسوة التي لا يصدقها عقل . فنحن نسمع أنه كان في ذلك الوقت يؤيد تهم الخيانة العظمى التي توجه إلى الناس بدل أن يعارض فيها ، كما كان يفعل من قبل ، حتى بلغ مجموع من أدينوا بتلك التهمة في حكمه ثلاثة وستين شخصاً ، وتوسل إلى مجلس الشيوخ أن يعمل على حماية « شيخ وحيد طاعن في السن » . وفي عام ٣٧ غادر كاپرى بعد تسع سنين من السجن الاختياري ، وطاف ببعض مدن كپانيا . وبينما كان يستريح في بيت لوكلس الخاوي في ميسنوم انتابته نوبة ، إغماء وخيل إلى من حوله أنه قضى نحبه . والتفت بطانته من فورها حول جايوس الذي سيصبح في ظنها إمبراطوراً بعد قليل ، ولكنهم روعوا حين رأوا تيبيريوس يفيق من نوبته . ثم أنجاهم من هذه الورطة صديق لهم جميعاً بأن كتم أنفاسه بوسادة (٣٧) (٢١) .

ويصفه Mommsen بقوله إنه كان « أقدر حاكم شهدته الإمبراطورية » (٢٢) . وقد حلت به في حياته كل الكوارث التي يمكن أن تحل بإنسان إلا القليل النادر منها ، وحتى بعد وفاته لم ينبج من قلم تاسيتس .

فصل ثانى

جايوس

راح حفل الشعب بموت الإمبراطور الشيخ بهتافه : « تيبيريوس إلى نهر التير » ورحب بإقرار مجلس الشيوخ تنصيب جايوس قيصر جرمنكوس خليفة له . وكانت أجريينا قد ولدت جايوس وهى ترافق جرمنكوس فى حروبه عند الحدود الشمالية ، فنشأ بين الجند ، ولبس لباسهم ، ولقبوه تدليلاً له بلقب كالجيولا Caligula أو الخدء الصغير أخذاً من الخدء النصفى Caliga الذى كان يحتذيه الجيش . فلما جلس على العرش أعلن أنه سيسير على المبادئ التى كان يسير عليها أغسطس فى سياسته ، وأنه سيتدعون مع مجلس الشيوخ فى جميع الأمور . ووزع على المواطنين التسعين مليون سسترس التى أوصى لهم بها تيبيريوس وليقيا وأضاف إليها ثلثمائة سسترس لكل واحد من المائتى ألف الذين يأخذون جبواً من الدولة . وأعاد إلى الجمعية حق اختيار كبار الحكام ، ووعد بتخفيض الضرائب وإقامة الألعاب الكبرى ، وأرجع ضحايا تيبيريوس المنفيين ، وجاء برماد أمه إلى رومة مصحوباً بمظاهر التقوى والتكريم . ولاح أنه سيكون على النقيض من سلفه فى كل شيء ، فقد كان متلاًفاً للمال ، مرحاً ، رحيماً ، ولم يمس على اعتلائه العرش ثلاثة أشهر حتى قرب الناس للآلهة مائة وستين ألفاً من الضحايا شكراً لها على أن وهبتها زعيماً فاتناً محسناً (٢٣) .

وكان الشعب قد نسى حسبه ونسبه فقد كانت جدته لأبيه أبنة أنطونيوس وكانت جدته لأمه ابنة أغسطس ، وقد تجددت فى دمه الحرب التى ثار عجاجها من قبل بين أنطونيوس وأكتافيان وانتصر فيها أنطونيوس . وكان كالجيولا يفخر بمهارته فى المبارزة ، والمخالدة ، وركوب العربات ، ولكنه

« كانت تنتابه نوبات الصرع » ، ويكاد في بعض الأحيان « يعجز عن المشي أو التفكير » (٢٤) . وكان يخفى أسفل سريره إذا سمع هزيم الرعد ، ويفر مذعوراً إذا شاهد اللهب فوق بركان إتنا ؛ وكان مصاباً بالأرق يطوف به ليلاً في جنبات قصره الواسع يصبح طالباً لطلوع الفجر . وكان طويل القامة ، ضخيم الجسم ، كثيف الشعر ، إذا استنينا رأسه الأصلع . وكان له صدغان منخفضان ، وعينان غائرتان ، تنفر الناس منه ، ويسر هو من ذلك النفور . وكان « يمثل بوجهه أمام المرأة كل المناظر الخفية » (٢٥) . وكان قد أحسن تعليمه في صباه ، فكان خطيباً مفوهاً ، حاد الذكاء ، فكها لا يراعى في فكاهته احتشاماً ولا قانوناً . وقد افتتن بحب التمثيل فأعان كثيرين من الممثلين ، وكان هو نفسه يمثل ويرقص سراً . وكان إذا رغب أن يشهده النظارة دعا زعماء مجلس الشيوخ متظاهراً بأنه يدعوهم إلى اجتماع خطير ، ثم يعرض أمامهم رقصه (٢٦) . ولو أنه أتاحت له حياة هادئة يعمل فيها عملاً يتحمل تبعته لجاز أن يهدئ ذلك من أعصابه ، ولكن سم السلطة ذهب بعقله ، ذلك أن صحة العقل ، كالحكم ، تحتاج إلى ضوابط وموازين ، وما من أحد من بني الإنسان يستطيع أن يكون قادراً على كل شيء وأن يكون في نفس الوقت سليم العقل . ولما أسدت إليه جדותه أنطونيا بعض النصيح أنها بقوله : « اذكرى أن في مقدوري أن أفعل أي شيء بأي إنسان » . وذكر لضيوفه في إحدى الولائم أن في وسعه أن يقتلهم كلهم وهم متكئون في مقاعدهم ؛ وكان وهو يحتضن زوجته أو عشيقته يقول لها ضاحكاً : « سيطيح هذا الرأس الجميل بكلمة تخرج من فمي » (٢٧) .

وسرعان ما أخذ الزعيم الشاب يصدر الأوامر إلى مجلس الشيوخ ويطلب

إليه الخضوع لهذه الأوامر ، بعد أن كان يظهر له أعظم الاحترام ، فصار يسمح

تلشيوخ أن يقبلوا قدميه تعظيماً له وتبجيلاً ، ثم يتقبل الشكر منهم على تشریفه إياهم بهذا التقييل (٢٨) . وكان شديد الإعجاب بمصر وأساليبها ، وأدخل كثيراً من هذه الأساليب إلى رومة ، وكان يتوق إلى أن يعبد على أنه إله كما كان يعبد الفراعنة ملوك مصر الأقدمون ، وجعل دين إيزيس أحد الأديان الرسمية في الدولة ، ولم ينس أن جده الأكبر كان يعتزم ضم إقليم البحر الأبيض المتوسط تحت سلطان دولة ملكية شرقية ، فأخذ هو أيضاً يفكر في نقل عاصمة ملكه إلى الإسكندرية ، ولم يحل بينه وبين تنفيذ قصده إلا ارتيابه في ذكاء أهلها . ويصفه سوتونيوس بأنه كان يقضى وقته « فيما تعودده من فصاحة أخواته كلهن » (٢٩) ، فقد بدا له أن هذه عادة من أحسن العادات المصرية القديمة . ولما مرض أوصى بأن تكون أخته دروزلا Drusilla وريثة عرشه من بعده ، فلما تزوجت أرغمها على أن تطلق زوجها وأخذ « يعاملها كأنها زوجته الشرعية » (٣٠) . وكان يرسل إلى غيرها من النساء اللاتي كان يحبهن رسائل باسم أزواجهن يبلغهن فيها نبأ طلاقهن ، ثم يدعوهن إلى معانقته ، فلم توجد امرأة ذات مكانة إلا دعاها إليه . على أن هذه الصلات كلها مضافاً إليها صلوات أخرى بينه وبين كلا البنسين لم تمنعه أن يتزوج أربع مرات . وحضر مرة زفاف ليشيا أريستلا Livia Orestilla وكيوس بيزو Caius Piso ، فإذ كان منه إلا أن أخذ العروس إلى بيته ، وتزوجها ثم طلقها بعد بضعة أيام . وسمع أن لوليا پولينا Lollia Paulina بارعة الجمال ، فاستدعاها إليه ، وطلقها من زوجها ، وأمرها ألا تكون لها من ذلك اليوم علاقة ما بأى رجل . وكانت زوجته الرابعة سيزونيا Caesonia حاملاً من زوجها حين تزوج بها ، ولم تكن صغيرة السن أو جميلة ولكنه أحبها وأخلص لها الحب .

وكانت شئون الحكم في هذا العبث الإمبراطورى من الأمور التي لا يعبأ بها وفي وسعه أن يتركها لغيره من أصحاب العقول الصغيرة . وقد راجع كاجيولا السجل المحتوى على أسماء رجال الأعمال مراجعة تدل على

مقدرة فائقة ، ورفى خير هؤلاء الرجال أعضاء في مجلس الشيوخ . ولكن
إسرافه لم يلبث أن أفرغ خزانة الدولة من الأموال التي ملأها بها تيبيريوس ،
فببدها تبديداً منقطع النظير ؛ من ذلك أنه لم يكن يستحم بالماء بل بالعمود ،
وقد أنفق على إحدى الولا ثم عشرة ملايين سسترس (٣١) ، وبني قوارب عظيمة للنزهة
ذات عمد وشاد أبهاء للمآدب ، وحمامات ، وحدائق ، وأشجار فاخرة ،
مطعمة في موئخرها بالجوهر . وأمر مهندسيه أن يقيموا على خليج Baiae
جسراً مستنداً إلى عدد من القوارب بلغ من كثرته أن عز الطعام
في رومة لعدم وجود السفن لنقل الحبوب . ولما تم بناء الجسر أقيم احتفال
عظيم ، وأضيء مكان الاحتفال بالأضواء الغامرة على الطريقة الحديثة ،
وأخذ الناس يقصفون ويطربون ويشربون ، حتى انقلبت بهم القوارب
وغرق منهم كثيرون . وكان من عادته أن ينثر من قصر يوليا النقود الذهبية
والفضية على الشعب من تحته ، ثم يراقبهم في مرح وسرور وهم يتنازعون
نزاعاً قاتلاً على اختطاف هذه النقود . وبلغ من حبه للعصبة الخضراء في
سباق الخيل أن منح سائق إحدى العربات مليوني سسترس ، وأن بني اصطبلا
من الرخام ومزوداً من العاج لجواد السباق انستاتس Incitatus ، ودعاه
إلى وليمة واقترح أن يعينه قنصلاً .

وأراد أن يجمع المال اللازم لعبته وشهوته التي لم تنقطع طوال حياته فأرجع
العادة القديمة ، عادة تقديم الهدايا إلى الإمبراطور ؛ وكان يتسلم هذه الهدايا
بيده ، وهو جالس في شرفة قصره ، من كل من يقدمها إليه ؛ ويشجع المواطنين
على أن يذكروه في وصاياهم ويجعلوه وارثاً لهم ، وفرض الضرائب على كل
شيء : على كل طعام يباع ، وعلى كل الإجراءات القضائية ، وفرض ١٢٥ ٪
على أجور المحالين . ويؤكد سوثونيوس أنه فرض « على مكاسب العاهرات »
ضريبة « تعادل مقدار ما تناله الواحدة منهن نظير عناقها مرة ، وقرر
القانون أن تظل من كانت يوماً ما عاهراً خاضعة لهذه الضريبة وإن تزوجت (٣٢) .

وكان الأغنياء في أيامه يتهمون بالخيانة ويحكم عليهم بالإعدام لتصادر أموالهم لصالح الخزنة العامة . وكان هونفسه يبيع المجالدين والأرقاء بالزاد العلني ، ويرغم أشراف البلاد على حضور هذا المزاد والاشتراك فيه ؛ وكان الواحد منهم إذا غفا فسر إغفائه بأنه عطاء ، حتى إذا استيقظ وجد نفسه قد كسب ثلاثة عشر مجالداً وخسر تسعة ملايين سترس (٣٣) ، وكان يرغم الشيوخ والفرسان على أن يجالدا هم أيضاً في المجتلدات . ودبرت بعد ثلاث سنين مؤامرة للقضاء على هذا العبث المذل ، ولكن كالجيو لا كشف سر المؤامرة ، وانتقم لنفسه بأن فرض على البلاد عهداً من الإرهاب زاده وحشية حبه الجئونى للأذى ، فكان يأمر الجلادين بأن يقتلوا الضحايا بإثخانهم بالجراح الصغيرة الكثيرة حتى يشعروا بأنهم يموتون « (٣٤) . وإذا كان لنا أن نصدق ديوكاسيوس فإنه أرغم أنطونيا جدته الثقية على أن تقتل نفسها (٣٥) . ويقول سوتونيوس إنه لما قلّ ما يلزمه من اللحم لإطعام الوحوش التي كان يستخدمها في الألعاب أمر أن يقدم « جميع الصلح » المساجين طعاماً لهذه الوحوش لأن في ذلك الخير كل الخير للناس ، وإنه أمر أن يكوى جميع رجال الطبقات العليا بالحديد الحى وأن يحكم عليهم بالعمل في المناجم ، وأن يلقوا للحيوانات الضارية ، أو يحبسوا في أقفاص حديدية ثم تنشر أجسامهم نصفين بالمنابر (٣٦) . تلك قصص ليس في وسعنا أن ننفيها أو نؤيدها ونحن نوردها هنا على أنها من الروايات التي كان الناس يتناقلونها . وكل ما نستطيع أن نقوله نحن بشأنها أن سوتونيوس كان مؤرخاً ثرثاراً مولعاً باغتيال الناس ، وأن الشيخ تاستس كان يكره الأباطرة ، وأن ديوكاسيوس كتب تاريخه بعد مائتي عام من حكم كالجيو لا (٣٧) . وأصدق من هذه القصص في رأينا ما يروى من أن كالجيو لا أشعل نار الحرب بين الزعامة والفلسفة بنفيه كريناس سكندس Carrinas Secundus وإصدار حكم الإعدام على اثنين آخرين من المعلمين ، وأدرج اسم الشاب سنكا بين أسماء المحكومين بإعدامهم ، ثم أنجاه من الموت مرضه واعتقاد الإمبراطور أنه

سيفضى نخبه دون حاجة إلى تجريح جسمه . ونجا كلوديوس عم كالجيو لا لأنه كان أو تظاهر بكونه أبله حقيراً غلبت عليه شهوة قراءة الكتب .

وآخر ما لجأ إليه كالجيو لا من العبث أن أعلن أنه إله معبود لا يقل شأناً عن جوبتر نفسه ، وحطمت رؤوس التماثيل الشهيرة المقامة بالخوف وغيره من الأرباب ، ووضعت في مكانها رؤوس للإمبراطور . وكان يسره أن يجلس في هيكل كاسترو بلكس Castor and Pollux ويتلقى عبادة الناس . وكان يحلوه في بعض الأحيان أن يتحدث إلى تماثيل من تماثيل جوبتر ، وكان هذا الحديث في الغالب تأنيباً للإله ، وقد استطاع بحيلة من الحيل أن يجيب عن قصف الرعد ووميض البرق كلما قصف الأول وأومض الثاني (٣٨) . وأقام هيكلًا لعبادته ، وعين له جماعة من الكهنة ، وأمدّه بطائفة مختارة من الضحايا ، وعين جواده المحبوب كاهناً من بين كهنته . وادعى أن إلهة القمر قد نزلت إليه وعانقته ، وسأل فيتيليوس Vitellius ألم يرها بعينه ؟ فكان جواب تابعه الحكيم « لا ، إن أمثالك من الآلهة هم وحدهم الذين يرى بعضهم بعضاً (٣٩) . ولكن الناس لم تحذعهم هذه السخافات ؛ من ذلك أن إسكافاً غالياً رأى كالجيو لا متخفياً في صورة جوبتر ، وسئل عن رأيه في الإمبراطور فقال : « مخادع كبير » وعلم بذلك كالجيو لا ولكنه لم يعاقب الرجل على هذه الشجاعة السارة (٤٠) .

وما كاد هذا الإله يبلغ التاسعة والعشرين من عمره حتى أضحى شيخاً منهوك القوى من طول الإفراط ، ولعله أصيب ببعض الأمراض السرية ، وحتى كان له رأس صغير نصف أصلع فوق جسم مسترخ بدين ، ووجه كالح ، وعينان غائرتان ، ونظرات خبيثة تم عن الغدر والخيانة . ووافته المنية على غفلة ، وكانت منيته على يد الحرس البريتورى الذى طالما ابتاع معونته بالهدايا . وذلك أن ضابطاً من ضباط الحرس يدعى كاسيوس كثيراً

Cassius Chaerea أهانه كالجيو لا مراراً كثيرة بالألفاظ البذيئة التي كان يبلغها إليه كل يوم لتكون بمثابة سر الليل وجواز المرور ؛ فقتله سراً في أحد عمارات الملهى (٤١) . ولما ذاع الخبر في المدينة تردد أهلها في تصديقه ، وظنوا أنه حيلة من حيل الإمبراطور الخبيث يريد بها أن يعرف أى الناس ينتهج بموته . وأراد مغتالوه ألا يتركوا الناس في شكهم فقتلوا زوجته الأخيرة ؛ وحطموا رأس ابنته بدقه في أحد الجدران . ويقول ديونان كالجيو لا عرف في ذلك اليوم أنه ليس إلهاً (٤١) .

الفصل الثالث

كلوديوس

ترك كالجيو لا الإمبراطورية والأخطار تهددها من كل ناحية :
فالحزنة خاوية ، ومجلس الشيوخ قد اضمحل وضعف شأنه ، والشعب
غاضب ثائر ، ومورتانيا Moretania ثائرة ، وبلاد اليهود قد امتشقت
الحسام لأنه أصر على أن يوضع تمثاله ليعبد في هيكل أورشليم ، ولم يكن
أحد يعرف أين يوجد الحاكم القدير الخلق بأن يواجه هذه المشاكل . ولكن
حدث أن عثر الحرس الپريتورى على كلوديوس الظاهر البلاءة مخبئاً في
أحد الأركان ، فنادوا به إمبراطوراً . وخشى مجلس الشيوخ صولة الجند ،
ولعل هذا الاختيار قد انجاء من موقف لم يكن يحمده ، وسره أن يتعامل مع
إنسان متحذلق عديم الأذى بدل أن يتعامل مع رجل مجنون مستهتر لا يعبا
بشيء . ولهذا أيد الحرس في اختياره وارتقى تيپيريوس كلوديوس قيصر
أغسطس جرمنكوس عرش الإمبراطورية في تردد وخشية .

وكلوديوس هذا ابن انطونيا ودروسس وأخو جرمنكوس وليقلا ،
وحفيد أكتافيا وأنطونيوس ، وليقيا وتيپيريوس كلوديوس نيرون .
وكان مولده في لجدنوم Lugdunum (ليون الحالية) في السنة العاشرة قبل
الميلاد ، وكان وقت أن اختير إمبراطوراً في الخمسين من عمره ، طويل
القامة ممتلئ الجسم ، ذا شعر أبيض ووجه بشوش ، ولكن شلل الأطفال
وغشيره من الأمراض قد أضعفت بنيته . وكانت ساقاه رفيعتان
لا تكادان تقويان على حمله ، فكان يحجل في مشيته ، وكان رأسه
يتأرجح فوق كتفيه . وكان مغرماً بالخمر الجيد والطعام الشهى ،
وكان يشكو داء الرثية ، ويتمتم قليلا إذا تحدث ، وإذا ضحك رفع صوته

إلى حد لا يليق بالأباطرة . ويقول عنه شائثوه القساة إنه كان إذا غضب خرج الزبد من فمه وسال الخاط من أنفه » (٤٣) . وقد قام على تربيته النساء والأرقاء المحررون ، فنشأ هيباً حساساً ، وهما صفتان قلما تصلحان للحكام ، ولم تكده تسنح له الفرص للتدرب على ممارسة شئون الحكم . وكان أقرباؤه يرونه إنساناً مريضاً ضعيف العقل ؛ وكانت أمه التي ورثت عن أكتافيا رقتها وظرفها تسميه « الهولة التي لم يكتمل خلقها » ، وكانت إذا أرادت أن تعبر إنساناً بشدة البلاهة وصفته بأنه : « أشد بلاهة من ابني كلوديوس » . وإذا كان محترماً من جميع الناس فقد عاش خاملاً مغموراً آمناً لذلك على نفسه ، يقضى وقته بين الميسر والكتب والشراب ، وتفقه في اللغة وفي العاديات ، وكان ضليعاً في الفنون « القديمة » ، والدين ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ، والقانون . وقد كتب تاريخاً لإتروريا ، وقرطاجنة ، ورومة ، ورسالة في الرد ، وأخرى في حروف الهجاء ، وملهاة يونانية ، وترجمة لحياته . وكان العلماء والفلاسفة يرأسونه ويهدون إليه مؤلفاتهم ، وينقل عنه بلني الأكبر ويعده من الثقافة الذين يعتمد عليهم . وقد علم الناس وهو إمبراطور كيف يعالجون عض الأفاعي ، وهذا مخاوف الشعب الخرافية بأن تنبأ بكسوف الشمس في يوم ميلاده وفسر لهم سبب هذا الكسوف . وكان يحسن الكلام باللغة اليونانية ، وكتب عدداً من مؤلفاته بهذه اللغة ؛ وكان حسن النية ، ولعله كان صادقاً حين قال في مجلس الشيوخ إنه كان يتظاهر بالغباء لينجو من الموت .

وكان أول أعماله وهو إمبراطور أن منح كل جندي من جنود الحرس الذين رفعوه على العرش خمسة عشر ألف سسترس . وكان كالجيو لا قد وهبهم من قبل هبات من هذا النوع ولكنه لم يهبها لتكون ثمناً صريحاً لعرش الإمبراطورية . واعترف كلوديوس وقتئذ بسلطان الجيش وسيادته في الوقت الذي ألغى فيه مرة أخرى حق الجمعية في اختيار كبار الحكام . وكان أكثر حكمة وكرماً من سلفه ، فوضع حداً للاتهام بالخيانة ، وأطلق (٩ - ج ٢ - مجلد ٣)

سراح من سجنوا من قبل بمقتضى هذا الاهتمام ، وأعاد جميع المنفيين إلى أوطانهم ، ورد الأموال المصادرة إلى أصحابها ، وألغى الضرائب التى فرضها جايوس . لكنه أمر بإعدام قتلة كالجيو لا ، وحجته فى هذا أن الخطر كل الخطر فى التغاضى عن قتلة الأباطرة . وحرّم عادة السجود للإمبراطور ، وأعلن فى صراحة أنه لا يريد أن يتخذ إلهاً يغبد . وحذا حذو أغسطس فى إصلاح المعابد ودفعه شغفه بالآثار القديمة إلى السعى لبعث الدين القديم . وانكب يجد وإخلاص على العناية بالشئون العامة ، وبلغ من عنايته بها أن كان « يطوف بمن يبيعون السلع ويوئجرون المباني » ليقوم كل ما يعتقد أن فيه ضرراً بمصالح الشعب » (١١) . ولكنه وإن جارى أغسطس فى اعتداله خرج عن تحفظ أغسطس وحذره إلى سياسة قيصر الجريئة المتشعبة ، فسمى إلى إصلاح أداة الحكم والقانون ، وأنشأ المباني والخدمات العامة ، وأعلى من شأن الولايات ، ومنح الحقوق الانتخابية لغالة وفتح بريطانيا وصبغها بالصبغة الرومانية . وقد أدهش الناس جميعاً حين أظهر أنه ذو خلق وإرادة ، وليس ذا علم وذكاء فحسب . ولم يكن أقل ثقة من قيصر وأغسطس بأن كبار الحكام فى الأقاليم قليلو العدد ناقصو المراتب ، وأن مجلس الشيوخ يمنعه كبرياؤه ونزقه من الاضطلاع بمهام الإدارة البلدية والإمبراطورية المغقدة المتنوعة ؛ من أجل هذا كان يعظم المجلس فترك له سلطات كثيرة ، ومظاهر شرف وكرامة أكثر من هذه السلطات ؛ أما شئون الحكم الحقيقية فكان يضطلع بها بنفسه يعاونه مجلس يعين هو أعضائه ، وهيئة من الموظفين العموميين نظمها تدريجاً واختار أفرادها ، كما اختارهم قيصر وأغسطس وتييريوس ، من أرقاء بيت الإمبراطور المحررين ، واستخدم فى الأعمال الكتابية والواجبات الصغرى أرقاء « عموميين » . وكان على رأس هذه الإدارة البيروقراطية أربعة وزراء : وزير دولة (« للمواصلات » ab epistulis) ، ووزير مالية (« للحسابات » a rationibus) ، ووزير آخر (« للملتزمات a libellis ») ، ونائب عمومى (« للقضايا القانونية . a cognitionibus ») . وتولى الثلاثة

المناصب الأولى ثلاثة من أقدر الأرقاء المحررين — نارسس Narcissus ،
وبلاس Pallas ، وكالستس Callistus . وكان ارتقاؤهم إلى هذه المناصب
ذات الثراء والجاه إيداناً بارتفاع شأن طبقة المحررين إلى أعلى الدرجات ،
وهو ارتفاع كان يسير في مجراه منذ قرون عدة ، وبلغ في عهد كلوديوس
هذه الدرجة الرفيعة . ولما احتج الأشراف على وضع السلطة في أيدي
هؤلاء العصاميين الحديثي النعمة كان جواب كلوديوس أن أعاد منصب
الرقيب : وأن اجتير هو ليشغل هذا المنصب ، وأن أعاد النظر في سجل
الأشخاص الذين يختار منهم أعضاء المجلس ، فحاش منه أسماء كبار المعارضين
لسياسته ، وأضاف إليه أعضاء جدداً من الفرسان ومن أهل الولايات .

ولما تهيأت له هذه الأداة الإدارية وضع لنفسه منهاجاً واسعاً من
المنشآت العامة والإصلاحات ، فأصلح نظام المرافعات أمام المحاكم وفرض
عقوبات على تأخير القضايا ، وجلس على منصة القضاء ساعات طوالاً كل
أسبوع ، وحرّم تعذيب أى واحد من المواطنين . وأراد أن يقي مدينة
رومة غائلة الفيضانات الخربة التي أصبحت تهددها وقتئذ أكثر من ذي
قبل لأن سفوح الأبنين أخذت تجرد من الأشجار ، فأمر بحفر مجرى
إضافي في الجزء الأدنى من نهر التير . ولكي يعجل باستيراد الحبوب إلى
إيطاليا أمر بإنشاء مرفأً جديداً بالقرب من أستي Ostia ، وأقام فيه مخازن ،
وأحواضاً ، ورصيفين عظيمين لتقليل حدة أمواج البحر ، وحفر قناة
توصل الميناء بنهر التير في نقطة بعيدة عن مصبه الذي يسده الغرين .
وآتم بناء قناة « كلوديوس » التي بدأها كالجولا لنقل الماء العذب إلى رومة ،
وشاد قناة أخرى ، وكانت كلتاها من الأعمال الضخمة المشهورة بجمال
منظرها وبعقودها الشائخة . ولما رأى أن أراضي المرسيين Marsians تحول
في بعض فصول السنة إلى مناقع حين تفيض بحيرة فوستس ، خصص جانباً
من أموال الدولة تؤدي منه أجور ٣٠,٠٠٠ عامل مدة أحد عشر عاماً

ليحفروا تنقأ طوله ثلاثة أميال يصل البحيرة بنهر سريرز Ciris مخترقاً بعض الجبال . وقبل أن تنطلق مياه البحيرة في هذا النفق أجرى فوق مياه البحيرة معركة بحرية صورية بين أسطولين عليهما تسعة عشر ألفاً من المحرمين الذين أدانتهم المحاكم ، وشهدا خلأق اجتمعوا من كافة أنحاء إيطاليا فوق التلال المشرفة على البحيرة . وحيث هذه الجموع الإمبراطور بالعبارة التاريخية المأثورة : « مرحباً بقيصر ! نحن الذين نوشك أن نموت نحييك Ave Caesar ! morituri salutamus te ^(٤٥) .

وازدهرت أحوال الولايات في عهده كما ازدهرت في عهد أغسطس ، وعاقب الموظفين على سوء استخدام سلطة وظائفهم إلا في حالة واحدة هي حالة فلكس المدعى العمومي في بلاد اليهود ، وذلك لأن بلاس Pallas شقيق الشخص الذي تم على القديس پولس أخفى جرائمه عن الإمبراطور ، وكان يهتم بكل صغيرة وكبيرة من أعمال الولايات . وتمتاز مراسيمه التي عثر عليها في كافة أنحاء الإمبراطورية بالإسهاب والتكرار ، ولكنها تكشف عن عقلية وعن إرادة منصرفتين إلى تحقيق الصالح العام . وقد بذل جهده لإصلاح وسائل المواصلات والنقل ، وحماية المسافرين من اعتداء اللصوص وقطاع الطريق ، وفي خفض ما تتكلفه الهيئات من نفقات الوظائف العامة المنشأة لخدمتها . وكان يرغب كما يرغب قيصر في رفع شأن الولايات حتى تعادل إيطاليا نفسها وحتى تكون كلها وحدات متساوية في مجموعة الأمم الرومانية ، فنفذ ما كان يعتزمه قيصر من منح حقوق المواطنة الرومانية لبلاد غالة الجنوبية ، ولو استطاع أن ينفذ رغباته لمنح هذا الحق لجميع الرجال الأحرار في الإمبراطورية ^(٤٦) : ولقد كشفت في مدينة ليوم عام ١٥٢٤ لوحة برزية احتفظت لنا بجزء من الخطبة الطويلة الكثيرة الاستطراد التي ألقى بها مجلس الشيوخ بأن يقبل في عضويته وفي المناصب الإمبراطورية أولئك الغالين الذين منحوا حق المواطنة الرومانية ، ولم يسمح في الوقت نفسه بأن يضعف الجيش أو يعتدى على حدود الدولة ، فظل الجيش عاملاً

قائماً بمهمته ومستعداً على الدوام للقيام بها ، ونشأ في أيامه قواد عظام من أمثال كريبولا Carbula ، وقسپازيان Vespasian ، وپولینس Paulinus ؛ وتكونوا بفضل اختياره وتشجيعه . وقرر كذلك أن يتم مشروعات قيصر فغزا بريطانيا في عام ٤٣ وفتحها ، وعاد منها إلى رومة بعد أن غاب عنها ستة أشهر ، ولما أقيم له احتفال بالنصر بعد عودته خالف جميع السوابق بأن عفا عن كركتكوس Caractacus ملكها الأسير . وسخر أهل رومة من عمل إمبراطورهم العجيب ولكنهم أحبوه ، ولما أن راجت مرة من المرات في أثناء غيابه عن العاصمة ، شائعة كاذبة بأن الإمبراطور قد قتل ، عمت المدينة موجة من الحزن لم يسع مجلس الشيوخ معها إلا أن يؤكد للناس تأكيداً رسمياً بأن الإمبراطور لم يصب بسوء ، وأنه سيعود قريباً إلى رومة .

لكنه سقط من هذا العلو الشاق لأنه أقام نظاماً للحكم أكثر تعقيداً مما يستطيع الإشراف عليه بنفسه ، ولأن عبيده المحررين وأفراد أسرته أساءوا استغلال لطفه وعطفه . لقد أصلحت البروقراطية التي أنشأها أحوال الإدارة ، ولكنها فتحت فيها آلاف الثغرات للرشا والفساد ؛ وكان غاربسس وبلاس من أعظم رجال السلطة التنفيذية الذين يرون أن مرتباتهم أقل من كفايتهم ، فكانا يستعيزان عن هذا الفرق ببيع المناصب واغتصاب الرشا بالتهديد ، وتوجيه التهم الكاذبة إلى من يريدون مصادرة ضياعهم من الأثرياء . وكانت نتيجة ذلك أن أصبحا أغنى الناس جميعاً في التاريخ القديم كله فكان نارسس يمتلك ٤٠٠.٠٠٠.٠٠٠ سترس (٨٦.٠٠٠.٠٠٠ ريال أمريكي) وكان بلاس يشكو البؤس لأنه لم يكن له إلا ٣٠٠.٠٠٠.٠٠٠ فقط (٤٧) . ولما شكّا كلوديوس من وجود عجز في خزانة الإمبراطورية ، قال الثرثارون الرومان إن في وسعه أن ينال كفايته من المال وفوق كفايته منه إذا أشرك معه في الحكم عبيده المحررين (٤٨) . وروعت هذه السلطات العظيمة والأموال المكدسة الأسر الشريفة القديمة التي أضحت وقتئذ فقيرة

بالقياس إلى هؤلاء العصاميين ، وكانت تتلظى غيظا حين تضطر إلى رجاء العبيد السابقين أن يسمحوا لها بأن تتحدث إلى الإمبراطور .

أما كلوديوس فقد كان منهمكا في العمل ، يكتب إلى الموظفين والعلماء ، ويعد المراسيم والخطب ، ويؤدي حاجات زوجته . ذلك رجل كان خليقاً به أن يعيش عيشة الرهبان ، وأن يحصن نفسه من الحب ، لأن زوجاته كن سبباً في القضاء عليه ، كما كانت سياسته في منزله أقل نجاحاً من سياسته الخارجية . وقد تزوج كما تزوج كالجولا أربع مرات ، فأما زوجته الأولى فماتت في يوم زفافها ، وأما الثانية والثالثة فقد طلقهما ، ولما كان في الثامنة والأربعين من عمره تزوج فليريا مسالينا وهي فتاة في السادسة عشرة ، لم تكن بارعة الجمال . فقد كان رأسها مستوياً ، ووجهها متورداً ، وصدرها قبيح الشكل^(٤٩) . ولكن المرأة ليست في حاجة إلى الجمال لكي تكون زانية ، ولما أن اعتلى كلوديوس عرش الإمبراطورية تخلقت بأخلاق نساء الملوك ، وادعت لنفسها حقوقهن ، فكانت ترافقه في مواكب نصره ، وعملت على أن تحتفل بعيد ميلادها في سائر أنحاء الإمبراطورية . ثم أحبت الراقص منستر Mnesrer ، ولما صدد عنها طلبت إلى زوجها أن يأمره بأن يكون أكثر إطاعة لرجائها ، وأجابه كلوديوس إلى ما طلبت ، وخضع الراقص إليها استجابة لدواعي الوطنية . وابتهجت مسالينا بنجاحها في خطتها التي لم تكلفها إلا أقل العناء ، واتبعتها مع غيره من الرجال ، فأما الذين لم تنجح معهم هذه الخطة وظلوا على صدودهم فقد اتهمهم الموظفون الخاضعون لسلطانها بجرائم اخترعوها من عندهم اختراعا ، فصودرت أملاكهم وحرموا من حريتهم ومن حياتهم نفسها في بعض الأحيان^(٥٠) .

ولعل الإمبراطور كان يسمح بهذا العبث وتلك الأعمال الشاذة ليضمن لنفسه هو الآخر حرية الاستمتاع بما يريد من الملاذ ، « فقد كان مفرطاً في شهواته

النسائية» كما يقول سوتونيوس ، ثم يضيف عليه بعدئذ هذه الميزة العجيبة التي يفضل بها غيره من الناس فيقول : « وكان مبرءاً من الرذائل غير الطبيعية »^(٥١) ويقول ديو : إن مسالينا « كانت تقدم إليه بعض الفتيات ذوات الجمال البذاب ليضاجعهن »^(٥٢) . وإذ كانت الإمبراطورة في حاجة إلى المال تستعين به على عيشها واستئثارها فقد كانت تتبع المناصب ، والتوصيات ، وعقود الأعمال العامة . ونقل المؤرخون عن جوفثال أنها كانت تدخل المواخير متخفية ، وتستقبل كل من يدخلها ، وتأخذ منهم كل ما يقدمون لها من الأجور وهي منشرة الصدر راضية . وأكبر الظن أن هذه القصة منقولة عن المذكرات الضائعة التي كتبها أجريينا الصغرى التي خلفت مسالينا وكانت من ألد أعدائها . ويروى تاسيتس أنه « بينما كان كلوديوس يقضى وقته كله في تصريف شئون منصب الرقيب الذي كان يتولاه »^(٥٣) - والذي يشمل فيما يشمله من الواجبات رفع مستوى أخلاق الرومان - كانت مسالينا « تطلق العنان لحبها » ، وبلغ من استئثارها آخر الأمر أن تزوجت رسمياً من شاب وسم يدعى كايوس سليوس Caius Silius حين كان زوجها غائباً في أسقيا ، وأن تزوجت به « في احتفال مهيب صحبته كل المراسيم المعتادة »^(٥٤) . وأبلغ نارسس النبأ إلى الإمبراطور عن طريق سراريه^(٥٥) ، وحذره من مؤامرة تدبر لاغتياله وإجلاس سيليوس مكانه على العرش . فعجل كلوديوس بالعودة إلى رومة ، واستدعى الحرس البريتورى ، وأمر بذبح سليوس وغيره من عشاق مسالينا ثم آوى إلى حجراته محطماً الأعصاب منهوك القوى . أما الإمبراطورة فقد أخفت نفسها في حداثق لوكلس التي كانت قد صادرتها لتتخذها مسرحاً للهوها وملذاتها . وبعث إليها كلوديوس برسالة يدعوها فيها إلى الحضور للدفاع عن نفسها . وخشى نارسس أن يصفح عنها الإمبراطور ويصب جام غضبه عليه هو فأرسل إليها بعض الجنود وأمرهم بقتلها ، فوجدوها وحدها مع أمها ، وقتلها بعضهم بضربة واحدة وترك بجثتها بين ذراعى

أمها^(٥٨). وقال كلوديوس لخرسه الپريتورى إنهم فى حل من دمه إذا تزوج مرة أخرى ولم يرد ذكر مسالينا على لسانه من تلك الساعة^(*).

ولكن لم تمض سنة على زوعده هذا حتى كان يتردد بين الزواج من لوليا پولينا Lollia Paulina أو من أجريينا الصغرى . فأما اوليا زوجة كالجيولا السابقة فكانت ذات ثروة طائلة ، ويقال إنها كانت فى بعض الأحيان تتحلى بجواهر تبلغ قيمتها أربعين مليون سسترس^(٥٩) ، ولعل كلوديوس كان يعجب بمالها أكثر من إعجابه بلذوقها ؛ وأما أجريينا فكانت ابنة أجريينا الكبرى من جرمنكوس . وكانت هى الأخرى يجرى فى عروقتها دم أكتافيان وأنطونيوس اللذين ماتا عدوين . وقد ورثت عن أمها جمالها ، وكفايتها ، وقوة عزيمتها وحبها للانتقام حبا لا يجد منه شيء من وخز الضمير . وكانت قد تزلت مرتين ، ورزقت من زوجها الأول أكنيوس دوميتيوس أهينوباربس Cnoeus Domitius Ahenobarbus ابنها نيرون ، وكان كل همها طول حياتها أن يرتقى ابنها هذا عرش الإمبراطورية . وأما زوجها الثانى كيوس كرسپس Caius Crispus الذى تقول الشائعات إنها قتلتة بالسم فقد ورثت عنه الثروة الطائلة التى استخدمتها للوصول إلى أغراضها . وكان هدفها أن تزوج كلوديوس ، وأن تتخلص بوسيلة ما من ابنه برتنكس ، وأن تجعل نيرون بعد أن يتبناه كلوديوس وارث العرش من بعده . ولم يعقها عن تنفيذ قصدها أنها ابنة أخت كلوديوس ، بل أناحت لها هذه الصلة فرصاً ثمينة للاتصال بالحاكم الشيخ اتصالاً أثار فيه عواطف ليست من قبيل عواطف الخال نحو ابنة أخته . ولم يكن منه إلا أن وقف فجأة أمام مجلس الشيوخ وطلب إليه أن يأمره بالزواج

(*) وقد حاول فريرو^(٥٦) Ferrero ، وبيورى^(٥٧) Bury أن يفسرا زواج مسالينا من رجلين تفسيراً يبرره ، ولكن تاستس يؤكد القصة « التى يؤكدتها الكتاب المعاصرون كما يؤكدها رجال موقرون كبار كانوا يعيشون فى ذلك الوقت ، وكانوا هل علم بأحواله كلها »^(٥٨)

مرة أخرى لخبر الدولة ، ووافق المجلس على طلبه ، وسخر منه رجال الحرس البريتورى ، ووصلت أجربينا إلى العرش (٤٥) . وكانت وثمة فى الثانية والثلاثين من عمرها ، أما كلوديوس فكان فى السابعة والخمسين ، وكانت قواه آخذة فى الانحلال ، أما هى فكانت فى عنفوان قوتها ، وتغلبت عليه بكل ما وهبت من سحر وفطنة ، فأقنعتة بأن يتبنى نيرون وأن يزوج الشاب البالغ من العمر ستة عشر عاما بابنته أكتافيا وهى فتاة فى الثالثة عشرة من عمرها (٥٣) . ولما تم لها هذا أخذت تزيد من سلطانها السياسى عاما بعد عام ، حتى استطاعت فى آخر الأمر أن تجلس معه على سرير الملك ، ثم استدعت الفيلسوف سنكا من حيث كان منفياً بأمر كلوديوس ، وعينه مدرساً خاصاً لابنها (٤٩) ، وأفلحت فى تعيين صديقها بروس Burrus رئيساً للحرس البريتورى . فلما استحوزت على السلطان بهذه الطريقة حكمت البلاد حكماً قوياً خليفاً بالرجال ، وساد النظام والاقتصاد فى بيت الإمبراطور ؛ ولو أنها لم تطلق العنان لجشعها وحرصها على المال وحبا للانتقام لكان حكمها خيراً لرومة ورحمة بها ، لكنها أطلقت العنان لهذا الجشع فأمرت بقتل لوليا بولينا لأن كلوديوس نطق عفواً فى لحظة من اللحظات بكلمة أشار فيها إلى رشاقة لوليا وهى إشارة لاتعفو عنها قط زوجة . ثم أمرت بدس السم لماركس سلانوس Marcus Silanus لخوفها أن يعينه كلوديوس وارثاً له من بعده ، واثمرت مع پلاس ونارسس ، وبذلك قضى ملك المال ، الذى لم يكن وفاؤه يقل عن ثلوث يده ، بقية حياته فى السجن . وكان الإمبراطور قد أضعفه اعتلال صحته ، وجهوده الفنية ، ومغامراته النسائية ، فترك پلاس وأجربينا يروعان البلاد بحكم إرهابى آخر . فكان الناس ينهبون وينفون أو يقتلون لأن الخزانة خلت من المال الذى أنفق فى الأعمال العامة والألعاب وأضحت فى حاجة إلى أن تملأ بالأموال المصادرة . وكانت نتيجة هذا أن خمسة وثلاثين من الشيوخ وثلثمائة من الفرسان حكم عليهم بالإعدام فى

الثلاثة عشر عاما التي حكمها كلوديوس . وقد يكون لبعض هذه الأحكام ما يبررها لأن من نفذت فيهم دبروا المؤامرات أوارتكبوا الجرائم ، وإن كنا لانستطيع أن نقرر هذا واثقين . ولقد ادعى نيرون فيما بعد أنه فحص عن جميع أوراق كلوديوس ، وأنه تبين من ذلك الفحص أن الامبرطور نفسه أمر بأن يحاكم كل واحد ممن سيقوا أمام القضاء (٦٠) .

وتنبه كلوديوس إلى ما كانت تفعله أجريينا بعد زواجه بها ، فاعتزم أن يضع حدا لسلطانها ، وأن يفسد عليها ما دبرته لنيرون ، فيعين برتنكس وارثا للملك من بعده ، ولكن أجريينا كانت أقوى منه عزما وأقل منه إصغاء لصوت الضمير ، فلما علمت نية الإمبراطور جازفت بكل شيء ، فأطعمت كلوديوس فطيرا ساما قضى عليه بعد آلام مبرحة دامت اثنتي عشرة ساعة دون أن يستطيع النطق بكلمة واحد (٥٤) . ولما ألهه مجلس الشيوخ ، وكان نيرون قد اعتلى العرش ، قال إنه لا يشك في أن الفطير هو طعام الآلهة ، لأن كلوديوس أصبح بعد أن أكله إلهاً يعبد (٦١) .

الفصل الرابع

نيرون

ينتمى نيرون من جهة أبيه إلى أسرة الدوميتيين الأهينوياريين Domitii Ahenobarbi ، وقد لقبوا بهذا اللقب لأن رجال هذه الأسرة كانت لهم على شبيهة في لونها بلون البرنز . وقد اشتهروا في رومة مدى خمسمائة عام بقدرتهم وجراتهم ، وغطرستهم ، وشجاعتهم ، وقسوة قلوبهم . وكان جد نيرون لأبيه مولعاً بالألعاب وبالمسرح ، وكان يسوق عربة في السباق ، وينفق الكثير من الأموال على الوحوش والمجتلدات ، وقد اضطر أغسطس إلى تأنيبه لقسوته الوحشية في معاملة موظفيه وأرقائه . وقد تزوج بأنطونيا ابنة أنطونيوس وأكتافيا . وزاد ابنه أكنيوس دوميتيوس من شهرة الأسرة بانهماكه في الفسق ، ومضاجعة المحارم ، والوحشية والحيانة . وقد تزوج في عام ٢٨ م بأجربينا الثانية ولم تكن وقتئذ تزيد على الثالثة عشرة من عمرها ، وإذا كان على علم بآباء زوجته وآبائه فقد اعتقد : « أن لا خير مطلقاً يمكن أن يؤدي إليه قراننا » (٦٢) . وقد أطلقا على ابنهما الوحيد اسم لوسيو Lucius وأضافا إليه لقب نيرون ، ومعناه في اللغة السبينية : القوى الشجاع .

وكان أهم من علموه هما كرمون Chaeremon الروافي الذي علمه اللغة اليونانية ، وسنكا الذي علمه الأدب والأخلاق ولكنه لم يعلمه الفلسفة ؛ ذلك أن أجربينا منعتة من تعلم الفلسفة لزعمها أنها تجعل نيرون غير صالح لتولي عرش الإمبراطورية (٦٣) . وما من شك في أن نتيجة هذا التحريم تشهد بفضل الفلسفة . وقد شكنا سنكا ، كما يشكو كثير من الأساتذة ، من أن الأم كانت تفسد عليه عمله بتدخلها فيه ، فقد كان الغلام يهرول إليها كلما أنبه مدرسه ، ولم يكن يشك في أنها ستحنو عليه وتدله . وقد حاول

سنكا أن ينشئه على حب التواضع ، ودمائة الخلق ، والبساطة ، والتشف ، والصبر على الشدائد ، وإذا كان قد حرم عليه أن يفصل له القول في عقائد الفلاسفة وجدلهم ، فلا أقل من أن يهذى إليه الرسائل البليغة التي كان يؤلفها ، ويأمل أن يقرأها تلميذه في يوم من الأيام . وكان الأمير الشاب طالباً مجداً ، وكان في وسعه أن يكتب شعراً لا بأس به ، وأن يخطب في مجلس الشيوخ بالركة والأدب اللذين كان يخطب بهما أستاذه نفسه . ولما مات كلوديوس لم تجد أجريينا صعوبة ما في تثبيتته على العرش ، وخاصة بعد أن ضمن له بروس تأييد الحرس بكامل قوته .

وكافأ نيرون الجند مكافأة مجزية ووهب كل مواطن أربعمائة سسترس ، وألقى في تأبين سلفه خطبة أثني عليه فيها ثناء جماً ، كتبها له سنكا^(٦٤) . وهو الذي نشر بعد قليل بغير توقيع هجاء مقذعاً في الإمبراطور المتوفى قال فيه إنه طرد من أولمپس . وقدم نيرون مظاهر الخضوع المعتادة إلى مجلس الشيوخ ، واعتذر في أدب وتواضع عن صغر سنه ، وأعلن أنه لن يحتفظ بشيء من السلطات التي كان الزعيم يتمتع بها حتى ذلك الوقت عدا قيادة الجيوش - وهو اختيار عملي يشعر بذكاء تلميذ الفيلسوف . والراجح أنه كان مخلصاً في وعده - لأن نيرون وفي به بأمانة مدى خمسة أعوام^(٦٥) - وهي الخمسة الأعوام النيرونية Quinquennium Neronis التي كان تراچان يراها خير السنين في تاريخ الحكومة الإمبراطورية^(٦٦) . ولما اقترح مجلس الشيوخ أن تقام تماثيل من الذهب والفضة تكريماً له ، رفض الإمبراطور الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره هذا العرض . ولما اتهم رجالان بأنهما يفضلان عليه برتنكس أمر أن يلغى هذا الاتهام ، وتعهد أمام مجلس الشيوخ أن يتمسك طوال حكمه بفضيلة الرحمة التي كان سنكا وقتئذ يمجدها في إحدى رسائله المسماة De Clementia (الرحمة) ولما طلب إليه مرة أن يوقع وثيقة بإدانة أخصد المحرمين قال في حسرة

« ليتنى لم أتعلم قط الكتابة ! » وقد خفض الضرائب الباهظة أو ألغاهما إلغاء تاماً ، وخصص معاشات سنوية للمتازين من الشيوخ الذين أحنى عليهم الدهر . وإذا كان يعرف أن عقله لم ينضج بعد ، فقد سمح لأجرينا أن تدبر له شئونه ، فكانت تستقبل السفراء ، وأمرت أن تنقش صورتها على نقود الإمبراطورية إلى جانب صورته . وارتاع سنكا وبروس لتدخل الأم في شئون الحكم فانفقوا على أن يضربا على وتر كبرياء نيرون لينالا لأنفسهما حق القيام بمهام الحكم . واستشاطت الأم غضباً فأعلنت أن برتنكس الوارث الشرعى للعرش ، وأنذرت ولدها بأنها ستسقطه بنفس الوسائل القوية التى استخدمتها فى رفعه . ورد نيرون على هذا التهديد بأن أمر بدس السم لبرتنكس فما كان من أجرينا إلا أن آوت إلى قصرها الصغير وكتبت فيه مذكراتها ، وهى آخر سهم فى كنانتها ، وطعنت فيها على جميع أعدائها وأعداء أمها ، واغترف منها تاستس وسوتنيوس ذلك التيار الجارف من المثالب والأعمال الوحشية التى صورابها النواحي السوداء من صور تيبيريوس وكلوديوس ونيرون .

وعم الرخاء الإمبراطورية ، وصلحت أحوالها الداخلية والخارجية ، بفضل إرشاد الفيلسوف الأول وقوة النظام الإدارى الذى كانت تساس به شئونها . فوضعت على الحدود حراسة قوية ، وطهرت البحر الأسود من القراصنة ، وأعاد كريولا أرمينية إلى حظيرة الإمبراطورية بأن بسط عليها الحماية الرومانية ، ووقعت برثيا معاهدة صلح دامت خمسين عاماً ، وقلّت الرشوة فى دور القضاء وفى الولايات ، وأصلحت أحوال الموظفين فى دواوين الحكومة ، وصرفت الشئون المالية بالاقتصاد والحكمة ، واقترح نيرون - ولعل ذلك كان بإيعاز من سنكا - ذلك الاقتراح البعيد الأثر القاضى بإلغاء جميع الضرائب غير المقررة ، وخاصة الرسوم الجمركية التى كانت تجبى عند الحدود وفى الثغور ، حتى تكون التجارة حرة فى جميع أنحاء الإمبراطورية . غير أن مجلس الشيوخ لم يوافق على

هذا الاقتراح ، متأثراً في ذلك بنفوذ نقابة الحياة . وتدل هذه الهزيمة على أن الزعامة كانت لا تزال تلزم حدود سلطتها الدستورية .

وأراد سنكا وبروس أن يمنعا نيرون من التدخل في شئون الدولة فركاه ينهمك في ملذاته الجنسية كما يهوى . وفي ذلك يقول تاستس : « لم يكن ينتظر من الأباطرة أن يحبوا حياة التقشف وكبح الشهوات في الوقت الذي كانت فيه الرذيلة تستهوى جميع طبقات الناس » ولم تكن العقائد الدينية تشجع نيرون على أن يراعى جانب الفضيلة ؛ ذلك أن القدر الضئيل الذي ناله من الفلسفة قد حرر عقله من قيود الدين دون أن ينضج حكمته . « فقد كان يزدرى جميع أنواع العبادات » كما يقول سوتنيوس . « ويسلح على صورة الإلهة - سيبيل - التي كان يحلها أعظم الإجلال » (٦٨) . وكان نهماً مفرطاً في الطعام ، غريب الأطوار والشهوات ، ينفق على الولائم بغير حساب ، حتى كانت أزهار الولاية وحدها تكلفه أربعة ملايين سسترس (٦٩) . وكان يقول في هذا إن البخلاء وحدهم هم الذين يحسبون ما ينفقون . وكان يعجب بكيوس بترونيوس Caius Petronius ويحسده لأن هذا الشريف المثرى علمه طرقة جديدة للجمع بين الفضيلة والذوق السليم . ويقول تاستس في فقرة مأثورة يصف فيها المثل الأعلى للأبيقورية إن بترونيوس « كان يقضى أيامه في النوم ولياليه في العمل ، والمرح واللهو . وكان الخمول شهوته وطريقه إلى الشهرة ، وكان ينجز بحب اللذات والراحة المترفة ما ينجزه غيره بالقوة والجد . ولم يكن كغيره من الناس الذين يجهرون بأنهم يعرفون كيف تكون المتعة . الاجتماعية ، ثم يبددون في ذلك أموالهم ، بل كان يحيا حياة كثرة النفقة ولكنها خالية من التبذير ، فكان أبقوريا ولكنه غير مسرف ، يطلق العنان لشهواته ولكنه يستمتع بها في تجمل وحكمة . وهو شهوانى متعلم رقيق الحاشية ، حديثه مرح ممتع لطيف ، يجلب لب من يستمع له بشيء من عدم الاكتراث اللطيف الباعث على السرور . وكان أكثر ما يبعث السرور في حديثه أنه ينساب

انسياً طبيعياً غير متكلف من مزاجه الصريح . ولقد أظهر وهو وال على
بيثنيا ، كما أظهر وهو قنصل ، أن قوة العقل ودماثة الخلق قد تجتمعان
معاً في شخص واحد ، وذلك رغم ما كان يتصف به من دقة : وأخذه
الأمور في يسر وإهمال . . . وكان يعود من أعماله الرسمية إلى مألوف حياة
اللذة والمتعة ، مولعاً بالريذة أو بالملاذ التي تقترب من حدود الرذيلة ،
وكان نيرون وعصبته مولعين بحسن النوق والرشاقة فكانوا لذلك يتخذونه
الحكم في كل ما يتصل بهما ، ولم يكن شيء بديعاً ، كما لم يكن شيء
ساراً أو نادراً إلا إذا أراد هو أن يكون (٧٠) .

ولم يبلغ نيرون من الرقة مبلغاً يصل به إلى هذه الأبيقورية الفنية ،
بل كان يتخفى ويزور المواخير ، ويطوف بالشوارع ، ويتردد على الحانات
بالليل في صحبة أمثاله من رفاق السوء يسطون على الخوانيت ويسيثون إلى
النساء ، ويفسقون بالغلان ، ويجردون من يقابلون مما معهم ، ويضربونهم
ويقتلونهم (٧١) وحدث أن شيخاً لجأ إلى القوة في رد اعتداء الإمبراطور
عليه فأرغم بعد قليل على أن يقتل نفسه . وحاول سنكا أن يوجه شبق
الإمبراطور نحو معتوقة تدعى كلوديا أكتي Claudia Acte ، فلما تبين له
أن أكتي وفية له وفاء تعجز بسببه عن الاحتفاظ بحبه استبدل بها امرأة
بارعة في كل فنون العشق تدعى پوبيا سابينا Poppea Sabina وكانت پوبيا
تنتمي إلى أسرة عريقة ذات ثروة طائلة ، يقول عنها تاسيتس إنها « كان لها
نصيب موفور من كل شيء إلا الشرف » . وكانت من النساء اللواتي يقضين
النهار كله في تزيين أنفسهن ، ولا يحين قط إلا حين يرغبن في الحياة . وحدث
أن افتخر زوجها بجمالها أمام نيرون ، فما كان من الإمبراطور إلا أن عينه والياً
على لوزتانيا Lusitania (البرتغال) وضرب حصاراً على پوبيا ، ولكنها أبت
أن تكون عشيقة له ، وقبلت أن تزوجه إذا طلق أكتافيا .

وكانت أكتافيا قد صبرت على مساوئ نيرون صبر الكرام ، وحافظت

على تواضعها وعفتها وسط تيار الدعارة الجارف التي اضطرت أن تحيا في
عمرته من يوم مولدها ، ومما يذكر بالفضل لأجربينا أنها ضحكت بحياتها
في الدفاع عن أكتافيا ضد بوييا ، فلم ترك وسيلة تثني بها الإمبراطور
عن طلاق أكتافيا إلا بلأت إليها ، وبلغ من أمرها أن عرضت محاسنها
على ولدها ، وقاومتها بوييا مقاومة شديدة وتغلبت عليها ، وبلأت في
كفاحها إلى نزق الشباب ، فعبرت نيرون بأنه يخشى والدته ، وأقنعته
بأن أجربينا كانت تأتمر به لتسقطه ، وما زالت به حتى رضى في ساعة
من ساعات جنون الشهوة أن يقتل المرأة التي حملته في بطنها وأعطته نصف
العالم . وقد فكر أولا في أن يقتلها مسمومة ، ولكنها كانت قد حصنت
نفسها من السم بما تعودته من الأدوية المضادة له . ثم حاول أن يقتلها
غرقاً ولكنها أنجت نفسها بالسباحة من السفينة التي تحطمت بتدبير الإمبراطور ،
وطاردها رجاله إلى دارها ، فلما قبضوا عليها خلعت ثيابها وقالت لهم :
« ادفعوا سيوفكم في رحى » واحتاج قتلها إلى عدة طعنات ، ولما رأى
الإمبراطور جثتها العارية كان كل ما قاله : « لم أكن أعرف أن لى أما
بمثل هذا الجمال » (٧٢) . ويقال إن سنكا لم تكن له يد في هذه المؤامرة ،
ولكن أسوأ ما خط في تاريخ الفلسفة وأدعاه للأسى هو تلك السطور التي
تشرح كيف كتب الفيلسوف الرسالة التي وجهها نيرون إلى مجلس الشيوخ
يقول فيها إن أجربينا كانت تأتمر بالزعيم ، فلما افتضح أمرها انتحرت (٧٣) .
وقبل مجلس الشيوخ هذا التفسير في سرور ظاهر ، وأقبل أعضاؤه مجتمعين
ليهنئوا نيرون لما أن عاد إلى رومة ، وحمدوا للآلهة أن كلاته بعنايتها
وأنجته من كل سوء .

وإن المرء ليصعب عليه أن يصدق أن هذا الإنسان الذي قتل أمه شاب في
الثانية والعشرين من عمره ، مغرم بالشعر والموسيقى والفنون الجميلة ، والتثيل
والألعاب الرياضية ؛ وأنه كان يعجب باليونان لمبارياتهم التي تنمى فيهم القوة
الجسمية والمهارة الفنية ، وأنه عمل على إدخال هذه المباريات في رومة فأقام في

عام ٥٩ ألعاب الشباب *ludi iuvenales* ، وأنشأ في السنة التالية الألعاب النبرونية *Neronia* على نمط الاحتفال الذي كان يقام كل أربع سنين في أولمبيا ، ويشمل سباقاً للخيسل ، ومباريات في الألعاب الرياضية ، وفي «الموسيقى» - ويدخل فيها الخطابة والشعر ، وبني لذلك مدرجاً كبيراً وملعباً رياضياً وحماماً عاماً فخماً ، وأنه يمارس الحركات الرياضية بمهارة فائقة ، كما كان مولعاً بسوق العربات ، وأنه اعتزم أخيراً أن يشترك هو نفسه في المباريات . لكنها هي الحقيقة ، وقد بدا لعقله المولع بكل ما هو يوناني أن هذا العمل لاغبار عليه ، بل كان يعتقد أنه يتفق مع أحسن التقاليد اليونانية . أما سكنا فكان يرى أن هذا سخف أيما سخف ، وحاول أن يقصر هذا العرض الإمبراطوري على من يضمهم ميدان خاص ، ولكن نيرون تغلب عليه ودعا الجماهير لتشهد ألعابه ، فأقبلت عليه وحيته تحية حماسية حارة .

ولكن أهم ما كان يرغب فيه هذا المخلوق الغريب بحق هو أن يكون فناناً عظيماً . ذلك أنه ، وقد استحوذ على كل سلطة ، كان يتوق إلى الاستحواذ على كل ضروب الكمال والتهذيب . ومما يذكر له مقروناً بالثناء أنه جد في دراسة فنون النقش ، والتصوير ، والنحت ، والموسيقى ، والشعر (٧٤) . ولحاً في تحسين صوته إلى وسيلة غريبة فكان « يستلق على ظهره ، ويضع لوحاً من الرصاص على صدره ، ويفرغ أمعائه بمحقن أو بالقيء ، ويمتنع عن أكل الفاكهة وعن كل طعام يضر بالصوت » (٧٥) . وكان في بعض الأيام يقصر طعامه على الثوم وزيت الزيتون يتخذهما وسيلة للغرض نفسه . ودعا ذات ليلة أكابر الشيوخ إلى قصره وعرض عليهم أرغناً مائياً جديداً ، وأخذ يشرح لهم نظريته وتركيبه (٧٦) . وقد بلغ من إعجابه بالنغمات التي كان يضر بها ترپنوس *Terpnos* على العود وافتتانه بها أن كان يقضى معه بعض الليالي بأكملها يتعلم العزف على هذه الآلة . وكان يجمع الفنانين والشعراء حوله ، ويعقد المباريات بينه وبينهم في قصره ، ويفاضل بين

(١٠ - ج ٢ - مجلد ٣)

صوره وصورهم ، ويستمع إلى أشعارهم ويقرأ عليهم شعره . وكان ينخدع
بثنائهم ، ولما أن أنبأه أحد المنجمين بأنه سيفقد عرشه ، أجابه ضاحكاً
بأنه في هذه الحال سيبكسب قوته من فنه . وكان يحلم أنه في يوم من
الأيام سيعزف على مآلٍ من الناس على الأرغن المائي والنأي ، وينفخ في
المزامير ، ثم يظهر على المسرح راقصاً وممثلاً لأدوار في مسرحية ترنس
Turnus لقرجيل . وفي عام ٥٩ أقام حفلة موسيقية شبه عمومية عزف
فيها على العود citharoedus في حديقة الواقعة على نهر التيبر . وظل خمس
سنين لا ينفد ما تتوق له نفسه من إظهار مهارته في جمع حاشد ، ثم نفذ
هذا العزم في نابلي آخر الأمر . وسيطرت الروح اليونانية على هذا الحفل ،
وعفا الناس عن تقصيره ، وأدركوا ما يرمى إليه . وازدهمت قاعة الاحتفال
بالمستمعين ازدحاماً حال بينه وبين إجادة العرض ، وقد بلغ من شدة الازدحام
أن تهدمت القاعة عقب خروج النظارة منها . وشجع هذا النجاح الإمبراطور
الشاب فظهر في ملهى ممبي العظيم في رومة (٦٥) يغني ويضرب على العود .
وأنشد في هذه المرة عدة قصائد لعلها كانت من قوله هو نفسه (*) . وقد
بقيت أبيات من هذه ، وهي تدل على مقدرة في القريض لا بأس بها .
وكتب من أغانيه الكثيرة ملحمة طويلة عن طروادة (جعل بطلها باريس
Paris) ، ثم شرع يكتب ملحمة أطول منها عن رومة . ولم يكفه هذا
التنوع في مواهبه فظهر على المسرح ممثلاً دور أوديب Oedipus ، وهرقل ،
والكميون ، بل إنه مثل أيضاً دور أرسيتز قاتل أمه . واغتنبت النظارة
إذ شاهدوا إمبراطوراً يغني بتسليتهم ويركع على المسرح أمامهم ويطلب
إليهم أن يصفقوا له حسب مألوف عاداتهم . وتلقف الشعب الأغاني
التي كان ينشدها نيرون وأخذ يرددوها في الحانات والطرقات ، وانتشر

(*) يقول سوتونيوس إنه شاهد المخطوطات الملكية مكتوبة ومصصححة بخط نيرون

نفسه (٧٧)

تحمسه للموسيقى والغناء بين جميع الطبقات ، وازدادت بذلك محبة الناس له ، وكان أخلق بها أن تنقص .

وارتاع مجلس الشيوخ من هذه المظاهر أكثر مما ارتاع من كل ما كان يدور من اللفظ عما يحدث في القصر من فجور ومن علاقات جنسية شاذة ، وأجاب نيرون عن مخاوف الشيوخ بقوله إن العادة التي كان يجري عليها اليونان وهي قصر المباريات الرياضية والفنية على طبقة المواطنين كانت أفضل مما اعتاده الرومان وهو تركها للأرقاء ؛ وأن من الواجب ألا تتخذ المباريات صورة قتل الجرمين قتلاً بطيئاً ؛ وأعلن الشاب الجرم أنه لن يسمح ما دام حياً بأن يستمر القتال في المجتلد حتى يموت المجتلدون (٧٨) . وأراد أن يعيد التقاليد اليونانية إلى سابق عهدها ، وأن يمجّد أعماله هو في المباريات العامة ، فأقنع بعض الشيوخ أن يشتركوا فيها - أو لعله أرغهم على هذا الاشتراك - ممثلين ، وموسيقين ، ورياضيين ، ومصارعين وسائقى عربات . وأظهر بعض الأشراف أمثال ثراسي بيتس Thrases Paetus نفورهم من هذه الأساليب ، فكانوا يعتمدون الغياب من مجلس الشيوخ كلما جاء نيرون ليخطب فيه ، وندد به بعضهم مثل هلفيديوس برسكس Helvidius Priscus تنديداً عنيفاً في المنتديات الأرستقراطية التي أصبحت الملجأ الوحيد لحرية الرأي ؛ وأخذ الفلاسفة الرواقيون في رومة يتحدثون بجهرة عن هذا الأبيقورى الخبيث الجالس على العرش . ودبرت المؤامرات لخلعه ، ولكن عيونه كشفتوا أمرها ، فكان جوابه كجواب أسلافه ، وهو التورط في عهد من الإرهاب الشديد ، فأعيد قانون الخيانة (٦٢) ، ووجهت التهم إلى كل من كان موتهم مرغوباً فيه من الناحية الثقافية أو المالية بسبب مقاومتهم أو ثرائهم . ذلك أن نيزون كان قد أفقر خزانة الدولة كما أفقرها كالجيو لا من قبله بإسرافه وهبائه وألعابه ، وجهر بعزمه على مصادرة جميع ضياع المواطنين الذين لا يوصون للإمبراطور بعد وفاتهم إلا بمبالغ قليلة ، ثم جرد كثيراً من الهياكل من نذورها ، وصهر ما كان

فيها من تماثيل ذهنية وفضية ؛ ولما أن اجتج سنكا على هذه الأعمال وانتقد سلوكه وشعره - وكان غضب الإمبراطور على نقد شعره أشد من غضبه على نقد سلوكه - أقاله نيرون من منصبه في البلاط (٦٢) ، وقضى الفيلسوف الشيخ الثلاث السنين الباقية من حياته في عزلة عن العالم في بيته ، وكان يورس قد مات قبل إقالة سنكا ببضعة شهور .

وأحاط نيرون بعدئذ نفسه بطائفة جديدة من القراء ، معظمهم من قراء السوء ذوى الغلظة والفظاظة ، فأصبح تجلينس ، رئيس شرطة المدينة ، مستشاره الأول ، ويسر للزعيم كل سبيل للملذات . وفي عام ٦٢ طلق نيرون أكتافيا بحجة أنها عقيم ، ولم يمض على طلاقها اثنا عشر يوماً حتى تزوج بوبيا ، واحتج الشعب على هذا العمل احتجاجاً صامتاً بتحطيم التماثيل التي أقامها نيرون لبوبيا وتوزيع تماثيل أكتافيا بالزهور . وغضبت بوبيا من ذلك العمل وأقنعت حبيبها أن أكتافيا تعزم الزواج مرة أخرى ، وأن مؤامرة تدبر لخلعه وإحلال زوج أكتافيا الجديد محله . وإذا كان لنا أن نصدق ما يقوله تاستس فإن نيرون دعا أنسيئس Anicetus قاتل أجريينا وطلب إليه أن يعترف بأنه ارتكب الفحشاء مع أكتافيا ، وينهها بأنها شريكة في مؤامرة لاغتيال الزعيم . ومثل أنسيئس الدور الذي أمر بتمثيله ، ونفى إلى سردينية حيث قضى بقية حياته ينعم بالثروة والراحة ؛ أما أكتافيا فقد نفيت إلى بندتيريا Pandateria ، ولكنها لم يكده يمضى على مجيئها إليها إلا بضعة أيام حتى أقبل عليها وكلاء الإمبراطور يريدون اغتيالها . ولم تكن وقتئذ قد تجاوزت الثانية والعشرين من عمرها ، ولم تكن تعتقد أن الحياة يليق أن تحتّم هذه الخاتمة العاجلة ، وبخاصة إذا كانت حياة فتاة مثلها لم ترتكب قط ذنباً . ودافعت عن نفسها أمام قائلها وقالت لهم إنها لم تعد إلا أخت نيرون ، وإنها عاجزة عن الإساءة إليه ، ولكنهم قطعوا رأسها وجاءوا به إلى بوبيا يطلبون إليها مكافأتهم على عملهم هذا . ولما أبلغ الشيوخ أن أكتافيا قد توفيت شكروا

للآلهة مرة أخرى أن قد حفظوا الإمبراطور وأنجوه من السوء (٧٩) .
وكان نيرون وقتئذٍ إلهاً من أولئك الآلهة . ذلك أن أحد القناصل
المنتخبين اقترح بعد موت أجريينا أن يقام هيكل « لنيرون المألّه » . ولما أن
ولدت له بوبيا في عام ٦٣ ابنة توفيت بعد مولدها بقليل أعلن المجلس
ربوبية هذه الطفلة ، ولما أن أقبل تيريداتس Tiridates ليتلقى من نيرون
تاج أرمينية خر راکعاً أمام الإمبراطور وعبدته بوصفه الإله متراس
Mithras ، ولما أن شاد نيرون بيته الذهبي أقام أمامه تمثالا ضخماً ارتفاعه
مائة وعشرون قدماً ، في أعلاه رأس شبيه برأسه ، تحيط به هالة من أشعة
شمسية دلالة على أنه هو فيبس أيلو Phoebus Apollo . هذا ما كان
يتصوره أما حقيقته فإنه وهو في الخامسة والعشرين من عمره كان إنساناً
فاسداً ، منتفخ البطن ، رفيع الأطراف ، ضعيفها ، ضخم الوجه ، مجمد
الجلد ، أصفر الشعر ملتويه ، عسلي العينين كلتيهما .

وكان ، وهو كما يزعم إله وفنان ، يضايقه ما في القصور التي ورثها
من عيوب ، ولذلك صمم على بناء قصر جديد لنفسه . ولكن تل الپلاتين
كان مزدحماً بالقصور وكان في أسفله المضممار الأكبر من ناحية ، والسوق
الكبرى من ناحية أخرى ، والأكواخ القادرة الحقيمة من بقية النواحي ،
وكان يحزنه أن يرى رومة قد نشأت على غير نظام موضوع ، بدل أن
تخطط تخطيطاً علمياً كالإسكندرية وأنطاكية ، ولذلك كان يحلم بأن يعيد
بناءها من جديد ، وأن يكون هو منشئها الثاني ، وأن يسميها نيروبوليس
(مدينة نيرون) .

وحدث في اليوم الثامن عشر من شهر يوليو عام ٦٤ أن شبت النار في
المضممار الأكبر ، وانتشرت انتشاراً سريعاً ، وظلت مشتعلة تسعة أيام حتى
التهمت ثلثي المدينة . وكان نيرون غائباً في أنتيوم Antium حين شبت النار ،
فلما وصله النبأ أسرع بالعودة إلى رومة فبلغها في الوقت الذي استطاع فيه
أن يرى القصور القائمة على تل الپلاتين تلتهمها النيران . وكان البناء المعروف

بالدومس ترنستوريا (بيت المرور) الذى أقامه منذ زمن قريب ليربط به قصره بحديقة ماسيناس ، كان هذا البناء من أوائل ما تهدم من الأبنية ، ونجت أبنية السوق والكتبول من الحريق كما نجت أيضا الأحياء الواقعة فى شرق نهر التيبر . أما سائر أجزاء المدينة ، فقد دمر فيها ما لا يحصى من البيوت والهياكل والمخطوطات النفيسة والتحف الفنية . وهلك آلاف من السكان بين أنقاض المباني المتهدمة فى الشوارع المزدهمة ، وهام مئات الآلاف على وجوههم فى الطرقات أثناء الليل لا يجدون لهم مأوى يبيتون فيه وقد ذهب الرعب بعقولهم ، وهم يستمعون إلى الشائعات القائلة بأن نيرون هو الذى أمر بإشعال النار فى المدينة ، وبأنه ينشر المواد الحارقة فيها ليجدد ما خبا منها ، وبأنه يرقبها من برج ماسيناس وهو ينشد على نغمة القيثارة ما كتبه من الشعر عن نهب طروادة(*) . وقد قام بجهود كبيرة فى قيادة المحاولات التى بذلت لحصر النيران أو التغلب عليها ، وإغاثة المنكوبين ، وأمر بأن تفتح جميع أبواب المباني العامة والحدائق الإمبراطورية ليلجأ إليها المعدمون ، وأقام مدينة من الخيام فى ميدان المريخ ، وأمر بالاستيلاء على الطعام من الإقليم المجاور للمدينة* ، ووضع الخطط الكفيلة بإطعام الأهلين(٨٠) ، وصبر على ما وجهه إليه الشعب الهائج الحائق من تنهم وطعون . ويقول تاسيتس (وهو الرجل الذى يجب ألا ننسى قط تحيزه لأعضاء مجلس الشيوخ) إنه أخذ يتلفت حوله ليجد من يستطيع أن يلقي عليه التهمة حتى وجده فى :

« طائفة من الناس يحقد عليهم الشعب لأعمالهم الخبيثة ، ويسمون غالباً بالكرستيانى Chrestiani (المسيحيين) . والاسم مشتق من كرسئس Chrestus وهو اسم رجل عذبه بنتيوس پيلات Pontius Pilate المشرف

(*) يجمع تاسيتس (ص ٣٨ من الفصل الخامس عشر) وسوتونيوس (فى « نيرون » ص ٣٨) وديوكاسيوس (فصل ٦٧ ص ١٦) على اتهام نيرون بأنه هو الذى أشعل النار وأعاد إشعالها لكى يستطيع بناء رومة من جديد ، وليس لدينا ما نستبدل إليه فى إثبات التهمة عليه أو نفيها عنه .

على الشؤون المالية في بلاد اليهود على عهد تيبيريوس . وكان ما حل به من العذاب ضربة شديدة وجهت إلى الشيعة التي أوجدها هذا الرجل ، وبفضل هذه الضربة وقف نمو هذه الخرافات الخطيرة إلى حين ، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى نشاطها وانتشرت انتشاراً سريعاً قويا في بلاد اليهود . . . وفي مدينة رومة نفسها ، وهي مستودع الأقدار العام الذي ينساب إليه كل ما هو دنيء ممقوت انسياب السيل المنحدر من أقطار العالم . ولجأ نيرون إلى أساليبه المعهودة في الحيل ، فعثر على جماعة من الفجار والسفلة الأراذل ، وأغراهم بمختلف الوسائل على أن يعترفوا بأنهم هم مرتكبو الجريمة الذميمة ؛ وبناء على اعتراف أولئك السفلة أدين عدد من المسيحيين ، ولم يصدر الحكم عليهم بناء على أدلة واضحة تثبت أنهم هم الذين أشعلوا النار في المدينة : بل أدينوا لأنهم يكرهون الجنس البشري كله . واستخدمت في إعدامهم أفانين من القسوة المتناهية ، ولم يكتف نيرون بتعذيبهم بل أضاف إلى هذا التعذيب السخرية منهم والازدراء بهم ، فألبس بعضهم جلود الوحوش وتركوا تلتهمهم الكلاب ، وسمر غيرهم في الصليبان ، ودفن الكثيرون منهم أحياء ، ودهنت أجسام البعض الآخر بالمواد الملتئمة وأشعلت فيها النيران ، لتكون مشاعل في الليل . . . وفي آخر الأمر أفعمت هذه الوحشية قلوب الناس جميعاً رافة ورحمة ، وركت هذه القلوب أسى على المسيحيين^(٨١) .

ولما أزيلت الأنقاض أخذ نيرون يعيد بناء المدينة كما صورتها له أحلامه والغبطة بادية في أسارير وجهه . وطلب إلى كل مدينة في الإمبراطورية أن تقدم معونتها لهذا الغرض ، أو أرغمت على تقديم هذه المعونة ، واستطاع الذين دمرت بيوتهم أن يبنيوا لهم بيوتاً جديدة بعد أن أمدهم بالمال المتجمع من هذه المعونة . وشقت الشوارع الجديدة مستقيمة متسعة ، وشيدت واجهات المنازل الجديدة وطبقاتها الأولى من الحجارة ، وجعلت بينها وبين غيرها من المباني المجاورة لها فواصل تمنع انتشار النار من بناء إلى

آخر . وشقت تحت الأرض مجار تنساب فيها مياه العيون السفلى إلى خزان يحتفظ فيه بالماء ليستعان به على إطفاء النار في المستقبل . وشاد نيرون من أموال الخزانة الإمبراطورية عقوداً ذات عمد على جانبي الشوارع الرئيسية في المدينة ، لتكون مداخل مسقوفة ظليلة لآلاف من البيوت . وأسف المولعون بالقديم ، كما أسف الشيوخ المسنون ، على ما كان في المدينة القديمة من مناظر جميلة خلج عليها الدهر هالة من الرواء والتقديس ، ولكنهم لم يلبثوا أن أجمعوا على أن رومة جديدة قد خرجت من بين اللهب أصبح وأمن وأجل من رومة القديمة .

ولو أن نيرون أعاد تنظيم حياته كما أعاد تنظيم عاصمته لغفر له الناس جرائمه ، ولكن بوبيا ماتت في عام ٦٥ في الأيام الأخيرة من حملها ، ويقال إنها ماتت من ركلة في بطنها . وراجت بين الناس شائعة فحواها أن هذه الركلة كانت عقاباً لها على عودتها متأخرة من السباق (٨٢) وحزن نيرون حزناً شديداً على موتها ، لأنه كان ينتظر على أحر من الجمر وجود وارث له من صلبه ، وأمر أن تحنط بجثتها بالأفاويه النادرة وتدفن بموكب مهيب وأبنا بنفسه . ثم عثر على شاب يدعى أسبورس Sporus عظيم الشبه ببوبيا ، فأمر بخصيه ، وتزوجه في احتفال رسمي و « استعمله في كل شيء كما تستعمل النساء » ، وقال في ذلك أحد المتفككين إنه يتمنى لو أن والد نيرون قد عثر على مثل هذه الزوجة (٨٣) . وشرع في السنة نفسها يشيد بيته الذهبي ، وكان إسرافه في زينته ، كما كانت تكاليفه الباهظة ومساحته اللواسعة — فقد أقيم على رقعة من الأرض كانت تشغلها من قبل آلاف من بيوت الفقراء — كان هذا كله سبباً في إثارة سخط الأشراف عليه وارتياب العامة فيه من جديد .

وأقبل جواسيس نيرون فجاء يبلغونه نبأ مؤامرة واسعة النطاق تهدف إلى إجلاس كلبير نيوس بيزو Calpurnius Piso على العرش (٦٥) ؛ وقبض صنائعه على عدد من الشخصيات غير الكبيرة متهمين بتدبير المؤامرة ، وانزعوا منهم

بالتهديد قارة وبالتعذيب تارة أخرى اعترافات تدين ، بين من تدين من الشخصيات المعروفة ، الشاعر لوكان Lucan والفيلسوف سنكا Seneca ، وتكشف الخطة التي كان يرى إليها الإمبراطور وأعوانه شيئاً فشيئاً . وبلغ انتقام نيرون درجة من الوحشية لم يسع رومة معها إلا أن تصدق ما شاع وقتئذ من أنه أقسم ليبيند طبقة الشيوخ عن آخرها . ولما تلقى سنكا الأمر بأن يقتل نفسه شرع يجادل ساعة من الزمن ثم أطاع ، وقطع لوكان بعض أوردته ومات وهو ينشد أبياتاً من شعره . وأغرى تجلينس Tigellinus بالمال عبداً من عبيد پترونيوس Petronius فتقدم بالشهادة على سيده ، لأن تجلينس كان يحسد هذا الرجل الأبيقورى على منزلته عند نيرون فأغراه بقتله . ومات پترونيوس ميتة بطيئة بأن قطع أوردته ثم سداها ، وأخذ يتحدث مع أصدقائه حديثاً لطيفاً كما ألوف عادته ، ويقرأ لهم أبياتاً من شعره : ثم تنزه وأغفى بعض الوقت وفتح أوردته مرة أخرى وفارق الحياة في هدوء واطمئنان^(٨٤) . وأدين ثراسپاپيتس زعيم الداعين إلى الفلسفة الرواقية في مجلس الشيوخ ، ولم تكن التهمة التي وجهت إليه أنه اشترك في المؤامرة ، بل كانت تهمة عامة يمكن أن توجه إلى أى إنسان وهى ضعف حماسه للإمبراطور ، وعدم استمتاعه بغناؤه وتأليفه كتاباً في حياة كاتو أثنى عليه فيه . واكتفى بنفى هلفيديوس برسكس Helvidius Priscus زوج ابنته ، ولكن رجلين آخرين أعدما لأنهما كتبا يمتدحان برسكس وصهره . ونفى موسونيوس روفس Musonius Rufus أحد الفلاسفة الرواقيين وكاسيوس لنجينس Cassius Longinus أحد علماء القانون ، وحكم على أخوين لسنكا وهما أنيوس ميلا Annaeus Mela والد لوكان وأنيوس نوفاتس Annaeus Novatus — وهو جليو Gallio الذى أطلق سراح القديس بوليس فى أثينة — هذان حكم عليهما بأن ينتحرا .

وبعد أن طهر نيرون مؤخرته على هذا النحو سافر فى عام ٦٦ ليقبى فى الألعاب الأولمبية ويطوف ببلاد اليونان فى رحلة موسيقية ، لأن « اليونان »

على حد قوله « هم الشعب الوحيد الذى له آذان موسيقية »^(٨٥) . واشترك فى أولمبيا فى سباق العربات وساق فيها بنفسه مركبة ذات عجلتين تجرها أربعة جياذ فى صف واحد أفقى . مستعرض Quadriga وسقط من العربة فى حلبة السباق وكاد يقضى عليه ، ولما أعيد إلى العربة واصل السباق وقتاً ما ، لكنه انقطع عنه قبل نهاية الشوط . وكان المحكمون يفرقون بين الإمبراطور والرجل الرياضى ، فقدّموا له تاج النصر . وتملكته نشوة الفرح حين رأى الجماهير تصفق له طرباً فأعلن من فوره أن بلاد اليونان كلها لا أثينة وأسبارطة وحدهما ستكون من تلك الساعة حرة طليقة — أى أنها لن تعطى الجزية لرومة . وكان جواب المدن الإيونانية على هذا الكرم أن أقامت الألعاب الأولمبية والبيثية Pyth an والنيمائية Nemean والبرزخية Ishmian (*) فى عام واحد . ورد هو على ذلك بأن اشترك فيها جميعها مغنياً ، وعازفاً ، وممثلاً ، ومتبارياً فى الألعاب الرياضية . وقد حرص أشد الحرص على إطاعة قوانين المباريات ، وكان شديد المجاملة لمنافسيه ، ومنحهم حق المواطنة الرومانية تعزية لهم على تفوقه عليهم جميعاً . وتلقى فى أثناء رحلته أنباء بأن الثورة شبت نارها فى بلاد اليهود ، وأن لهيبها اندلع فى الغرب كله . وكان كل ما فعله أن تنهد وتحسّر ثم واصل رحلته . ومن أقوال سوتنيوس فى التعليق على هذه الرحلة أنه كان إذا غنى فى ملهى « لا يسمح لأحد بالخروج منه ، ولو كان ذلك لعنر شديد بحتم عليه الخروج ؛ وكان من نتائج ذلك أن ولدت بعض النساء وهن فى الملهى ، وأن تظاهر بعض الرجال بالموت حتى يحملوا إلى الخارج »^(٨٦) . ولما جاء إلى مضيق كورنثة أمر أن يبدأ العمل فى شق قناة فى هذا المضيق كما كان قيصر ينتوى أن يشقها ؛ وبدأت العمل فعلاً ، ولكنه وقف فى أثناء الاضطراب الذى حدث فى العام الثانى . وارتاع نيرون لثوالى أنباء الفن والمؤامرات فعاد إلى

(*) سميت كذلك لأنها كانت تقام فى الساحة المقدسة الممتدة على الشاطئ الشمال الشرقى لبرزخ كورنثة .

رومة (٦٧) ودخلها في موكب رسمي ، وعرض في هذا الموكب غنائم نصره ، وهى الجوائز التى ظفر بها في بلاد اليونان والبالغ عددها ١٨٠٨ جائزة . وكانت المائى جادة مسرعة في أعقاب هذه المهازل . من ذلك أن يوليوس فندكس Julius Vindex حاكم ليون الغالى أعلن استقلال بلاد الغالين في شهر مارس من عام ٢٦٨ ، ولما عرض نيرون جائزة قدرها ٢٥٠٠٠٠ سسترس لمن يأتيه برأسه أجاب فندكس عن هذا بقوله : « أن من يأتيني برأس نيرون سيأخذ في مقابل ذلك رأسى » (٨٧) . وأخذ نيرون يعد العدة للملاقاة هذا العدو الشديد البأس في الميدان ، وكان أول ما عنى به أن اختار العربات لينقل عليها آلاته الموسيقية وأدوات المسرح (٨٨) . وبينما هو يعد العدة إذ جاءته الأنباء في شهر إبريل بأن جلدا Galda قائد الجيش الرومانى في اسبانيا انضم إلى فندكس في ثورته ، وأنه يزحف على رومة . وسمع مجلس الشيوخ أن الحرس الپريتورى يتأهب للخروج على الإمبراطور طمعاً فيما يناله رجاله من أجور عالية ، فنادى بجلدا إمبراطورا . فما كان من نيرون إلا أن وضع بعض السم في صندوق صغير ، وبعد أن تسلح بهذا السلاح الفتاك فر من بيته الذهبى إلى الحدائق السرقيلية الواقعة في طريق أستيا . وطلب قبل فراره إلى من كان في القصر من الضباط أن يرافقه ، فرفضوا جميعا طلبه ، وأنشد له أحدهم بيتاً من شعر فرجيل يقول فيه : « وهل من الصعب على الإنسان إذن أن يموت ؟ » . ولم يكن في مقدوره أن يصدق أن قد فارقه فجاءة ذلك السلطان القاهر الذى كان سبباً في القضاء عليه ، فأخذ يرسل النداء تلو النداء إلى الكثيرين من أصدقائه يطلب إليهم النجدة ، ولكن أحداً منهم لم يرد على رسالة من رسائله ، فذهب إلى نهر التيبر يريد أن يغرق نفسه فيه . حتى إذا بلغه خارت . قواه ، وعرض عليه فاوون أحد معاتيقه أن يخفيه في بيته القائم على طريق سلاريا ، ورحب نيرون بهذا الاقتراح ، واجتاز في ظلام الليل على ظهر جواد أربعة أميال من وسط المدينة إلى بيت فاوون . وقضى تلك الليلة

فى مخزن الطعام ، وعلية جلباب قنر ، يتلوى من الجوع ، ولم يطف بجفنه النوم ، ترتعد فرائصه فرقاً من كل صوت يقع على أذنيه : وجاء رسول فاؤون يبلغه أن مجلس الشيوخ قد نادى بأن نيرون عدو الشعب وأمر بالقبض عليه ، وقرر أن يعاقب « حسب السنة القديمة » . وسأل نيرون عن ماهية تلك السنة فقيل له : « إن الرجل المذنب مجرد من ثيابه ، ويصلب جسمه فى عمود بمسمار ذى شعب يدق فى عنقه ، ثم يضرب حتى يقضى نحبه . وارتاع من هول هذا العقاب ، فحاول أن يطعن نفسه طعنة تقضى عليه ، ولكنه أخطأ إذ جرب سنان الخنجر أولاً ووجده حاداً لا يطيقه فنادى قائلاً : « أى فنان يموت موتى ! » :

وسمع فى مطلع الفجر وقع حوافر الخيل ، فأدرك أن جنود مجلس الشيوخ قد أدركوه ، فأشدد يميناً من الشعر يقول : « استمعوا ، ها هى ذى أصوات الساعين إلى تقع على أذنى » - ثم طعن نفسه بخنجر فى حلقه ، ولكن يده اضطربت ووهنت فأعانه إيثروديتس أحد معاتيقه على أن يدفع سن الخنجر إلى نهايته . وكان قد طلب إلى من حوله قبل موته أن يحولوا دون تشويه جسمه ، واجابهم رجال جلبا إلى ما طلبوا . وقامت مربياته العجائز وأكتى عشيقته السابقة بدفن جثته فى قباب قصر دوميتيوس (٦٨) وابتهج كثيرون من العامة بموته ، وأخذوا يطوفون بأحياء رومة وعلى رؤوسهم قلانس الحرية . ولكن الذين حزنوا كانوا أكثر منهم لأن سخاءه على الفقراء لم يكن يقل عن قسوته الشديدة على العظماء ، وأصغوا إلى ما أشيع وقتئذ من أنه لم يمت بحق ، بل إنه يقاقل أعداءه فى طريق رومة ، ولما أن رضوا آخر الأمر بأن يصدقوا نبأ موته ، ظلوا شهوراً كثيرة يحجون إلى قبره وينثرون الأزهار أمامه (٨٩) .

الفصل الخامس

الاباطرة الثلاثة

وصل سرفيوس سلفيوس جلبا Servius Sulpius Galba رومة في يونية من عام ٦٨ ، وكان من أصل شريف ، فقد كان أبوه على حد قوله ينحدر من نسل جويتر ، كما كانت أمه تنتمى إلى باسفائي Basiphae زوجة مينوس Minos . وكان في السنة التي ارتقى فيها العرش أصلع الرأس متقلص اليدين والقدمين من داء المفاصل ، فكان لا يستطيع أن يلبس حذاء أو يمسك كتاباً (٩٠) . وكان يتصف بالذائل المألوفة في تلك الأيام ، سوية كانت أو غير سوية ، ولكن هذه الذائل لم تكن هي التي قصرت حكمه ، بل إن الذي أحرق الجيش والشعب عليه هو اقتصاده الشديد في الأموال العامة ، وحرصه الشديد على تنفيذ العدالة (٩١) ؛ ولما أن قرر أن يرد كل من نالوا عطية من نيرون تسعة أعشار ما استولوا عليه إلى خزانة الدولة ، خلق لنفسه آلافاً من الأعداء الجدد وتصرمت أيامه سراعاً .

وذلك أن شيخاً مفلساً يدعى ماركس أتو Marcus Etho أعلن أنه لا يستطيع أداء ديونه إلا إذا أصبح إمبراطوراً (٩٢) . وانضم إليه الحرس ، وزحفوا على السوق والتقوا بجلبا راكباً في هودج ، ومد جلبا عنقه إلى سيوفهم دون أن يبدي أية مقاومة ، فقطعوا رأسه وذراعيه ، وشفته ، وحمل واحد منهم رأسه إلى أتو ، ولكنه لم يستطع أن يقبض بقوة على شعره القليل المبلل بالدماء فأدخل إصبعه في فمه . وأسرع مجلس الشيوخ فوافق على تولية أتو في الوقت الذي كان الجيش الروماني في ألمانيا ينادى بقائده أولس فيتيليوس Aulus Vitellius والجيش الروماني في مصر ينادى بقائده تيتس فلافيوس فسبازيانس Vespasianus Titus Flavius . وزحف فيتيليوس على إيطاليا بفيالقه القوية ، وقضى إمبراطوراً .

على ما أبدته الحاميات الشمالية ، وما أبداه الحرس الپريثورى ، من مقاومة ضعيفة ، وانهحر أتو بعد أن حكم خمسة وتسعين يوما ، وارتقى فيتليوس عرش الإمبراطورية .

وليس مما يشرف النظام العسكرى الرومانى أن يتولى القيادة فى أسبانيا شيخ ضعيف مثل جلبا ، وفى ألمانيا أبيقورى متهاون مثل فيتليوس . لقد كان فيتليوس نهما أهم ما يعرفه عن الزعامة أنها وليمة يشبع فيها نهمة ، ويجعل كل وجبة من وجباته وليمة كبرى ، أما شئون الحكم فكان يكفها ما بين الوجبات من فراغ ؛ وإذ كانت هذه الفترات قد أخذت تقصر شيئا فشيئا ، فقد ترك شئون الدولة فى يد معتوقه آسياكس . Asiaticus فلم تمض على هذا المعتوق أربعة أشهر حتى أصبح أغنى رجل فى رومة . ولما علم فيتليوس أن أنطونيوس قائد فُسپازيان يزحف بجيشه على إيطاليا ليخلعه ، عهد بالدفاع عنه إلى جماعة من أتباعه واستمر هو فى ولائهم . وكانت النتيجة أن جيوش أنطونيوس هزمت أنصار فيتليوس عند كرمونا Cremona فى شهر أكتوبر عام ٦٩ ؛ وفى هذه المعركة جرت الدماء كما لم تجر فى أية معركة أخرى فى التاريخ القديم كله ، وزحفت الجيوش الظافرة على رومة فقاومتها فلول فيالق فيتليوس مقاومة بأسلة بينا كان هو محتبئا فى قصره . ويقول تاسيتس « إن الجماهير احتشدت لتشاهد المعركة ، كأن منظر القتل وإراقة الدماء لم يكن إلا منظرأ يعرض عليهم لتسليتهم » . وبينما كانت المعركة حامية الوطيس كان بعضهم ينهون المتاجر والمنازل وكانت العاهرات يمارسن مهنتهن^(٩٣) . وانتصرت جيوش أنطونيوس فى المعركة ، وأعملوا السيوف فى رقاب المهزومين بلا رحمة ، وأطلقوا لأنفسهم العنان فى السلب والنهب ، وساعدهم الغوغاء - وهم الذين لا يقلون عن التاريخ تمجيدا للمنتصرين - على إخراج أعدائهم من مخابثهم ، وسحبوا فيتليوس من مخبئه وطافوا به نصف عام فى أنحاء المدينة ، وحول رقبة طوق معقود ، وألقيت عليه الأقدار ، وعذب تعذيبا بطيئا ، ثم أشفقوا عليه فقتلوه (ديسمبر من عام ٦٩) وسحبت جثته بخطاف فى شوارع المدينة وألقيت فى نهر التيبر^(٩٤) .

الفصل السادس

فسيپازيان

لشد ما يغتبط الإنسان بعد ما قرأه عن الأباطرة السابقين أن يرى رجلاً متصفاً بالحكمة والكفاية والشرف ! لقد كان فسيپازيان ، وهذه الأحداث قامة ، يخوض غمار الحرب في بلاد اليهود ، ولذلك لم يتعجل في القدوم إلى رومة ليشغل المنصب العالي المخوف بأشد الأخطار الذي رفعة إليه جنوده وبادر مجلس الشيوخ إلى الاعتراف به . فلما وصل إليها في أكتوبر عام ٧٠ أخذ يعمل بجد على إعادة النظام إلى المجتمع الذي اضطرب في كل ناحية من نواحيه ، وسرى جده هذا إلى نفوس أعوانه . ولما أدرك أن لا بد له أن يعاني نفس المشاق التي عاناها أغسطس ، سار على سيرة ذلك الزعيم وسلك مسلكه في أخلاقه وسياسته ، فسالم مجلس الشيوخ ، وأعاد الحكم الدستوري إلى البلاد ، وأطلق سراح من حكم عليهم من قبل بمقتضى قانون الخيانة في عهد تيرون وجلبا وأتو وفيتليوس ، واستدعى من كان منهم منفياً خارج البلاد . ثم أعاد تنظيم الجيش وزاد عدد الحرس البريتوري ووسع سلطة رجاله ، وعين قواداً كفاة لقمع الثورات التي شبت ناراها في الولايات ، واستطاع بعد قليل أن يغلق هيكل يانوس Janus رمزاً لعودة السلام وعهداً منه بالمحافظة عليه .

وكان قد بلغ الستين من العمر ، ولكنه كان محتفظاً ببنيته القوية التي لم يوهنها الإفراط . وكان مفتول العضلات ، قوى الأخلاق ، ذا رأس عريض أصلع ضخم وملامح غليظة ولكنها مهيبة ، وعينين صغيرتين حادتين تحترقان المظاهر الخداعة إلى الحقائق المستورة . ولم يكن يتصف بشيء من شذوذ العباقرة ، ولا يزيد على كونه رجلاً قوى الإرادة شديد

الذكاء العمل . وكان مولده في قرية سبينة قريبة من ريتي Reate وأسرته من عامة الشعب . وكان جلوسه على العرش ثورة رباعية : فهاهو ذا قائد يتربع على عرش الإمبراطورية ، وهاهو ذا جيش من جيوش الولايات قد غلب الحرس البريتوري وتوج من يريده إمبراطوراً ، وهاهي ذى أسر الفلافيين Flavians قد خلفت أسرة اليوليو - كلوديين ، وعادات الطبقات الوسطى البسيطة وفضائلها قد حلت في بلاط الإمبراطور محل الإئتلاف الأبيقوري الذي كان يتصف به أنباء أغسطس وليثيا الذين نشأوا في الحواضر . ولم ينس فسبازيان قط أصله المتواضع ، ولم يحاول أن يخفيه عن الناس ، ولما حاول علماء الأنساب أن يصلوا بنسب أسرته إلى حد أصحاب هرقل طمعاً منهم في عطائه أرغمهم بسخريته على الصمت . وكان يعود بين الفينة والفينة إلى البيت الذي ولد فيه ليستمتع بما فيه من أساليب وأطعمة ريفية ، ولم يسمح بأن يغير فيه شيء قط . وكان يزدري الترف والبطالة ، ويأكل طعام الفلاحين ، ويصوم يوماً من كل شهر ، وأعلن حرباً عواناً على التبذير والإتلاف . وجاءه في يوم ما رجل روماني رشحه لمنصب من المناصب تفوح منه رائحة العطر ، فقال له : « لقد كنت أؤثر أن تفوح منك رائحة الثوم » ، ورجع عن ترشيحه لذلك المنصب . ولم يحجب بابه عن الناس ، وكان يعيش كما يعيش عامتهم ويتحدث إليهم حديث الرجل الذي لا يرفع عنهم ، ويضحك من الفكاهة التي كانت توجه إلى شخصه ، ويسمح لكل إنسان أن يوجه إلى خلقه وساوكة ما شاء من النقد بكامل حرية . وكشف مرة عن مؤامرة تدبر له فعفا عن المتآمرين ، وقال إنهم بلهاء لا يدركون عبء المتاعب التي ينوء بها كاهل الحاكم . ولم يعرف عنه أنه فقد حلمه إلا مرة واحدة . وذلك أن هلفديوس برسكس Helvidius Priscus بعد أن عاد إلى مجلس الشيوخ من منفاه الذي أخرجه إليه نيرون ، أخذ يطالب بعودة الجمهورية ويطعن على فسبازيان طعناً مرأى في السر والعلن ، فطلب إليه فسبازيان أن يمتنع عن حضور جلسات المجلس إذا

كان يريد أن يواصل هذا السباب ، فلما رفض هلفديوس أن يجيبه إلى ما طلب تفاه إلى خارج البلاد ولوث حكمه الصالح بأن أمر بإعدامه . وقد ندم على عمله هذا فيما بعد واستمسك في سائر عهده ، على حد قول سوتونيوس « بأعظم الصبر وهو يستمع إلى عبارات أصدقائه الصريحة . . . وإلى قجة الفلاسفة » (٩٥) . وكان هؤلاء فلاسفة كليبيين ساخرين أكثر منهم رواقين ؛ كانوا فوضويين متفلسين يشعرون أن كل حكم أباً كانت صفته عبء مفروض على الناس فرضاً ، وكانوا يهاجمون كل إمبراطور يجلس على العرش .

وأراد أن يطعم مجلس الشيوخ بدم قوى جديد ، بعد أن أوهنته الحرب الأهلية والقيود المفروضة على اختلاط الأسر ، فعمل على أن يعين رقيباً ، ثم جاء إلى رومة بألف أسرة من الأسر الممتازة في إيطاليا والولايات القرية ، وسجل أسماءها في سجلات طبقتي الأشراف والفرسان ، وملاً ما كان في مجلس الشيوخ من فراغ من بين هذه الأسر الجديدة : وحذا هؤلاء الأشراف الجدد حذوه بعد أن ضرب لهم أحسن الأمثلة ، فأصلحوا بسلوكمهم الأخلاق الرومانية والمجتمع الروماني : ذلك أن أفراد هاتين الطبقتين لم يكونوا ممن أفسدتهم الثروات الطائلة ، ولم يكونوا ممن طال عليهم العهد ببعدهم عن العمل الشاق وزراعة الأرض ، فلم يستنكفوا أن يقوموا بالواجبات والأعمال الرتيبة في الحياة وتصريف شئون الحكم . وكانت تنصف بما يتصف به الإمبراطور من نظام حسن وآداب رقيقة . وقد خرج من هذه الطبقة الجديدة أولئك الحكام الذين صلحت بهم حكومة رومة بعد دوميتيان Domitian مدى جيل كامل ، وأدرك فسبازيان ما جرمه من المساوئ استخدام العبيد المحررين منفذين لأوامر الإمبراطور ، فاستبدل بمعظمهم رجالاً ممن جاء بهم من الأقاليم ومن طبقة رجال الأعمال التي أخذ عددها يزداد في رومة . واستطاع بمعونة هؤلاء وأولئك أن يرد إلى رومة كرامتها وهو عمل يكاد يكون معجزة من المعجزات .

وقدر أنه في حاجة إلى ٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ سسترس لكي ينتشل البلاد من وهدة الإفلاس ويعيد الثقة إلى خزانة الدولة (٩٦) (*) فعمل على جمع هذا المال بأن فرض الضريبة على كل شيء تقريباً ، وزاد خراج الولايات ، وأعاد فرض الخراج على بلاد اليونان ، ورد إلى الدولة الأراضي العامة وأجرها للأفراد ، وباع القصور والضياع الإمبراطورية ، وفرض الاقتصاد الدقيق في نفقات الدولة إلى حد جعل الناس ينددون به ويقولون عنه إنه فلاح بخيل ، وقرر ضريبة على المبالول العامة التي كانت تزدان بها رومة القديمة كما تزدان بها رومة الحديثة . واحتج ابنه تيتس على هذه الضريبة الأخيرة المنافية للكرامة ، ولكن الإمبراطور الشيخ أمسك بيده بعض النقود المحصلة منها وقربها من فم الشاب وقال له : « انظر يا بني ، هل تشم لها رائحة كريهة ؟ » (٩٧) . ويتهمه سوتونيوس بأنه ضاعف أموال الخزانة العامة ببيع المناصب ، وترقية أشد الموظفين شراة في جباية الضرائب من الولايات ، حتى يتخموا جيوبهم بالمال حين يعزلهم فجأة ، ثم يفحص عن أعمالهم ويصادر ما جمعه لأنفسهم . على أن هذا المالى الماهر الواسع الحيلة لم يستخدم لنفسه شيئاً مما جمعه ، بل استنفد هذا المال كله في إنعاش الحالة الاقتصادية ، وفي تجميل رومة بالمنشآت العامة وفي تقدمها الثقافي .

وبقى بعدئذ على هذا الجندى الخشن أن ينشئ أول نظام للتعليم تقوم به الدولة في التاريخ القديم ، فكان أول ما عمله في هذا الميدان أن أمر بأن تؤدى لطائفة من ذوى الكفاية من مدرسى الآداب وعلوم البلاغة اللاتينية واليونانية أجورهم من خزانة الدولة ، وأن يوظف لهم معاش بعد عشرين عاماً من الخدمة . ولعل هذا الشيخ المتشكك قد أحس بأن للمدرسين نصيباً في تكييف الرأى العام ، وبأنهم سيمتدحون الحكومة التي تؤدى إليهم أجر أعمالهم .

(*) هذا الرقم مأخوذ عن سوتونيوس ، ويرى كثيرون من المؤرخين أنه رقم مبالغ فيه ولا يقبله العقل ، ولكن يظل على الظن أنه قدر بالنقد المنخفض القيمة في ذلك الوقت .

ولعل سبباً كهذا هو الذى حدا به إلى إعادة بناء كثير من الهياكل القديمة فى الحواضر وفى بلاد الريف نفسها . فقد أعاد بناء هيكل جوبتر ، ويونو ومنيرقا ، وكان جنود فيتليوس قد أحرقوا هذه الهياكل وهدموها فوق رؤوس جنوده . وشاد معبداً لبأكس Pax إلهة السلام ، وبدأ أشهر المباني الرومانية كلها وهو مبنى الكولسيوم . وغضبت الطبقات العليا حين رأت الضرائب تفرض على ثروتها لإقامة المنشآت للدولة وأداء الأجور للعمال الفقراء ، كما أن العمال أنفسهم لم يحمدوا له كثيراً عمله هذا . ومن أعماله الأخرى أنه حشد الشعب لإزالة ما خلفته الحرب الأخيرة من أنقاض ، وحمل هو نفسه أول ما حمل منها ، ولما أن عرض عليه أحد المخترعين تصميم آلة رافعة تقلل الحاجة إلى العمل الجثمانى إلى حد كبير أبى أن يستخدمها وقال : « إني أريد أن أطعم شعبي »^(٩٨) وكان هذا الخطر الموقت الذى فرضه فسبازيان على الاختراع اعترافاً منه بمشكلة التعطل الفنية ، وقراراً بالحيلولة ذون حدوث ثورة صناعية .

وعم الرخاء الأقاليم إلى حد لم يكن له نظير من قبل ، فكانت ثروتها فى ذلك الوقت - إذا قدرت بالنقد على الأقل - ضعفى ما كانت عليه فى عهد أغسطس ، ولذلك تحملت أعباء ما زاد من الخراج من غير أن يصيبها ضرر ما . وعين فسبازيان أجر كولا Agricola الرجل القدير حاكماً على بريطانيا ، وعهد إلى تيتس أن يحمد ثورة اليهود ، فاستولى على أورشليم ثم عاد إلى رومة بكل مظاهر الشرف التى تتوج الإسراف فى التقتيل ، وسار القائد المظفر فى موكب نصره ومن ورائه صف طويل من الأسرى وقدر كبير من الغنائم محترقا شوارع رومة ، وأقيم له قوس نصر شهير لتخليد ذكرى هذا النصر الباهر . وازدهى فسبازيان بانتصار والده ولكنه ساءه وأقلق ياله أن رأى نيتس يلقى معه بأمية يهودية جميلة تدعى برنيس Benice لتكون خليلية له ، ويرغب أن يتزوجها ، وفى هذه المرة أيضاً حمل الأسر معه أسره .

ولم يكن الإمبراطور يرى سببا يدعو لأن يتزوج الإنسان خليلته ، وقد ظل هو نفسه بعد وفاة زوجته يعيش مع جارية معتوقة ولم يعن قط بأن يعقد عليها ، ولما ماتت كثنيس هذه وزع قلبه بين عدة محظيات (٩٩) . وكان قوى الاعتقاد بأنه يجب أن يستقر على رأى فى وراثة العرش قبل وفاته ، لأن هذه هى السبيل الوحيدة لمنع الفوضى . ووافق مجلس الشيوخ على هذا الرأى ، ولكنه طلب إليه أن يختار « خير الأخيار » ويتبناه - ولعل المجلس كان يريد منه أن يختار أحد أعضائه . ورد فسپازيان بأنه يرى تيتس خير الأخيار . وأراد ولده أن ييسر الأمر لأبيه فأبعد عنه برنيس ، واستعاض عنها بالشيوخية الجنسية (١٠٠) . ثم أجلس الإمبراطور ولده معه على العرش وعهد إليه قسطا متزايدا من الحكم .

وزار فسپازيان ريتى مرة أخرى ، وشرب وهو فى الإقليم السبيني كثيرا من ماء بحيرة كوتليا Cutelia المسهل فأصيب بإسهال شديد . وظل وهو طريح الفراش يستقبل الرسل ويؤدى واجبات منصبه . وقد احتفظ إلى آخر لحظة بفكاهته السمجة رغم علمه بأنه قاب قوسين أو أدنى من الموت فقال : « وأسفاه أظن أنى صائر إلى أن أكون إلهيا Vae i deus Puto fio » . وقال : « إن الإمبراطور يجب أن يموت واقفا » . وبهذا ختم حياة كاملة بلغت التاسعة والستين عاما ، واختتم حكما صالحا دام عشر سنين .

الفصل السابع

تيتس

كان أكبر ولديه المسمى باسمه تيتس فلافيوس فسپازيانس Titus Vespasianus Flavius أسعد الأباطرة كلهم حظاً . ذلك أنه مات في السنة الثانية من حكمه وفي الثانية والأربعين من عمره وهو لا يزال « محبوب بني الإنسان » . ولم يطل به الوقت حتى تفسده السلطة (*) أو تتكشف له خيبة الرجاء . لقد امتاز وهو في ريعان الشباب ببأسه وقسوته في الحرب ، ولوث سمعته بالانغماس في الملهذات ، فلما أن تولى الحكم لم تسكره السلطة ، وصلحت أخلاقه ، وجعل حكومته مضرب المثل في الحكمة والنزاهة . وكان أكبر عيوبه كرمه الخائمي ، فكان لا يرى أن اليوم الذي لم يسعد فيه إنساناً ما بهبة يقدمها يوماً أضاعه من حياته . وقد أسرف في الإنفاق على المعارض والألعاب ، وترك خزانة الدولة الغاصة بالمال وهي تكاد أن تكون خاوية كما وجدها أبوه . ومن أعماله أنه أتم تشييد الكليسيوم ، وبني حماماً عاماً جديداً في رومة ، ولم يحكم على أحد بالإعدام في أثناء حكمه القصير ، بل فعل عكس هذا ، فقد كان الواشون والمخبرون يضربون بالسياط وينفون من البلاد ، وأقسم أنه يفضل أن يقتل هو على أن يكون سبياً في قتل إنسان ، ولما عرف أن اثنين من الأشراف يأتمران به ليخلعاه ، لم يعمل أكثر من أن يرسل إليهم يحذرهم ، ثم أرسل رسولا يطعنن والدته أحد المتآمرين ، ويبلغها أن ابنها لم يصب بسوء .

(*) يشير الكاتب : بقوله « تفسده السلطة » إلى قول لورد آكتن Acton المشهور

كل سلطة مفسدة ، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة All Power corrupts and absolute power corrupts absolutely (المترجم)

وكان ما أصابه من سوء الحظ ناشئاً من نكبات لاسلطان له عليها ،
ذلك أن حريقاً شب في رومة ودام ثلاثة أيام ، دمر فيها كثيراً من الأبنية
الهامة ، وكان مما دمر فيها مرة أخرى هياكل جوبتر ، ويونو ، ومنيرفا ،
وفي السنة نفسها ثار بركان فيزوف ، وخرب بيجي ، وأهلك آلافاً من
الإيطاليين ، وفي السنة التالية تفشى في رومة طاعون لم تشهد وباء أشد منه
فتكا في تاريخها كله . وبذلك تيتس كل ما في وسعه ليخفف وقع هذه
الكوارث الشديدة ، ولم تظهر في ذلك العمل عناية الإمبراطور برعاياه
فحسب ، بل ظهر كذلك عطف الوالد الحنون على أولاده « (١٠٢) . ومات
تيتس بالحمى في سنة ٨١ في نفس البيت الريفي الذي توفي فيه أبوه من زمن
قصير . وحزنت عليه رومة كلها إلا أخاه الذي خلفه على العرش .

الفصل الثامن

دومتیان

إن المؤرخ الذى يريد أن يرسم صورة صادقة لدومتیان ليجد في ذلك صعوبة لا تعادها صعوبة رسم صورة لنرون نفسه . ذلك أن أهم المصادر التى نستمد منها معلوماتنا عن حكمه مصدران هما تاسيتس وپلنى Pliny الأصغر ، وكلاهما ممن علا نجمهم في عهده ، ولكنهما كانا من حزب الشيوخ الذين كانت بينهم وبينه حرب عوان يريد فيها كلا الطرفين أن يضرب الآخر الضربة القاضية . ولدينا في مقابل هذين المؤرخين المعادين له شاعران هما استاتيوس Statius ، ومارتيال Martial اللذين كانا ينالان رفده أو يسعيان لنيله ، واللذين شادا بذكره ورفعاه إلى عنان السماء . ولعلمهم هم الأربعة كانوا على حق فيما قالوه عنه ، لأن دومتیان آخر القلاطين بدأ حياته كالملائكة وختمها كالشياطين ، وكان شأنه في هذا شأن كثيرين من اليوليوسيين - الكلوديين . وقد سائرت روح دومتیان جسمه في هذا التطور : فقد كان في شبابه متواضعاً ، رشيقاً ، لطيفاً ، وسيماً ، طويلاً ، ثم صار فيما بعد « بطيناً » رفيع الساقين ، أصلع الرأس » - وإن كان قد ألف كتاباً « في العناية بالشعر » (١٠٣) . وكان في كهولته يقرض الشعر أما في شيخوخته فلم يكن يثق بنثره ، وكان يعهد إلى غيره كتابة خطبه وتصريحاته . ولو لم يكن تيتس أخاه لأمكن أن يكون أسعد مما كان ؛ ولكن أنبل الناس وحدهم هم الذين يغتبطون بنجاح أصدقائهم . أما دومتیان فقد استحالت غيرته من أخية في أول الأمر نكداً صرامتاً ثم مكائد تدبير سرّاً لإسقاطه . واضطر تاسيتس أن يرجو أباه أن يصفح عن أخيه الأصغر . ولما مات فسپازيان ، أدعى دومتیان أن أباه قد أوصى بأن يكون شريكاً في

الحكم ولكن الوصية. عبث بها الأيدي ؛ ورد تيتس على هذا الادعاء بأن عرض عليه أن يكون شريكه وخليفته ، فرفض دومتيان هذا العرض وظل سادراً في مؤامراته ؛ ويقول ديوكاسيوس إنه لما مرض تيتس عجل دومتيان منيته بأن أحاط جسمه بالثلج^(١٠٤) . وليس في وسعنا أن نتأكد من صحة هذه الأخبار أو غيرها من القصص التي وصلت إلينا عن شهوته الجنسية الطليقة — كقولهم إن دومتيان كان يسبح في الماء مع العاهرات ، وإنه ضم ابنة تيتس إلى سراريه ، وإنه « كان فاجراً فاسقاً بالنساء والغلمان على السواء »^(١٠٥) . ذلك أن التواريخ اللاتينية كلها لا تختلف في شيء عن سياسة هذه الأيام ، فقد كانت ضربات توجه للوصول إلى أعراض رجال العصر الذي كتبت فيه .

فأما من حيث سياسة دومتيان نفسها فإنه كان في العشر السنين الأولى من حكمه متزمتاً في أخلاقه قديراً في سياسته إلى حد دهش معه جميع عارفيه ؛ فقد اتخذ سياسة تيبريوس وأخلاقه مثلاً يحتذيه ، كما اتخذ فسبازيان أغسطس مثلاً آخر له . من ذلك أنه جعل نفسه رقيباً مدى الحياة ، ثم حرم نشر المطاعن البذيئة (وإن كان قد غض النظر عن فكاهات مارتياك الشعرية) . ونفذ القوانين اليوليوسية الخاصة بالزنى ، وحرم تمثيل المسرحيات الصامتة لمخافاتها الأخلاق ، وأمر بضرب عنق عذراء فستية حكم عليها بالزنى أو بمضاجعة أحد أقربائها المحرمين عليها ، وقضى على عادة الخصاء وهي العادة التي انتشرت مع ارتفاع أثمان الأرقاء الخصبين ، ولم يكن يطبق رؤية الدم المسفوك ولو كان دم الثيران التي يضحى بها في الموائم الدينية . وكان رجلاً شريفاً ، واسع الفكر ، لم يؤخذ عليه بخذل أو شره في حب المال ، أبي أن يقبل الوصايا ممن لهم أبناء ، وألغى جميع الضرائب المتأخرة من أكثر من خمس سنين ، وأعرض عن التجسس والمتجسسين . وكان في أحكامه صارماً نزيهاً ، وكان له أمناء سر من معانيقه ولكنه ألزمهم جميعاً أن يكونوا أمناء صالحين .

وكان عهده من أعظم عهود العماره الرومانية ، فلما رأى أن النار التي شبت في عامي ٧٩ ، ٨٢ قد دمرت كثيراً من المباني وأنزلت بالبلاد كثيراً من البلايا ، وضع برنامجاً واسعاً للمنشآت العامة ليوفر بذلك العمل للأهلين ويساعد على توزيع الثروة^(١٠٦) ، وكان هو أيضاً ممن يأملون في إحياء الإيمان القديم بتجميل الهياكل والأضرحة والإكثار منها . ومن أعماله أنه أعاد بناء هياكل جوبتر ويونو ومنيرفا ، وأنفق ما يعادل ٢٢٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكي في صنع أبوابها المصفحة بالذهب وأسقفها المطلية به ، وأعجبت رومة بنتائج هذه الجهود وأسفت على ما أنفق فيها من أموال طائلة . ولما أن شاد دومتيان لنفسه ولموظفيه الإداريين قصره الرحب المعروف باسم دومس فلاثيا Domus Flavia شكوا الأهليون بحق من كثرة ما أنفق في بنائه من الأموال ، ولكنهم لم يرفعوا أصواتهم بالاحتجاج على الألعاب الكثيرة الأكلاف التي حاول أن يخفف بها من كراهية الشعب . وقد دشن هيكلًا باسم أبيه وأخيه ، وأعاد بناء الحمامات ، وهيكل الآلهة الذي أنشأه أجربا ، والزواق ذى العمد الذي أقامته أكتافيا ، وهيكل ليزيس وسرايس ، وأضاف أجنحة جديدة للكليسيوم ، وأتم حمامات تيتس ، وبدأ الحمامات التي أكملها تراجان .

ولم تشغله هذه المنشآت عن بذل الجهود الجبارة في تشجيع الفنون والآداب حتى بلغ النحت الفلافي الملون في أيام زعامته ذروة مجده ، وحتى النقود التي سكّت في أيامه رائعة الجمال . ومن الوسائل التي استعان بها على تشجيع الشعر أن أقام في عام ٨٦ الألعاب الكبتولية ، وكانت تشمل مباريات في الأدب والموسيقى . وأقام معهداً وهدواً للموسيقى في ميدان المريخ ، وقدم معونة متوسطة لاستاتيوس Statius ذى المواهب الوسطى ، وأخرى لمارتيال ذى المواهب الوضيعة ، وأعاد بناء دور الكتب العامة التي دمرتها النيران ، وجدد ما كانت تحتويه من الكتب بأن أرسل للكتبة لنسخ المخطوطات المخفوظة في الإسكندرية - وذلك برهان آخر

على أن مكتبتها العظيمة لم يحرق إلا جزء صغير من كنوزها في النار التي أوقدها فيها قيصر .

وإلى هذا كله كان يصرف شئون الإمبراطورية أحسن تصريف ، وكان يتصف بما يتصف به تيبيريوس من عزيمة قوية صارمة في الشئون الإدارية ، وقد ضرب على أيدي المختلسين والمرتشين ، وكان شديد الرقابة على تعيين الموظفين ومصائرهم . وكما فعل تيبيريوس بعجرمنكوس إذ حد من جشعه ، كذلك استرجع دومتيان أجركولا من بريطانيا بعد أن قاد هذا القائد المغامر جيوشه ودفع حدود الأملاك الرومانية حتى وصلت اسكتلندة ، ويلوح أن أجركولا كان يعتزم مواصلة الزحف ولكن دومتيان أبى عليه ذلك . وقد عزا بعضهم استرجاع أجركولا لحسد دومتيان له وغيرته من مجده ، وجوزى الإمبراطور على هذا أشد الجزاء حين كتب تاريخ حكمه صهر أجركولا نفسه . وخانه الحظ في الحرب أيضاً حين عبر الباشيون نهر الدانوب في عام ٨٦ ، وغزوا ولاية موثيزيا Moesia الرومانية ، وهزموا قواد دومتيان ، فما كان من الزعيم إلا أن تولى القيادة بنفسه ، ووضع خطة الحرب فأحكم وضعها ، وأوشك أن يدخل داشي ولكن أنطونينس ستورنيس Antoninus Saturninus الوالى الرومانى على ألمانيا العليا أقنع فيلقين من الفيالق العسكرية في مينز Mainz بأن تتلدى به إمبراطوراً . وأخذ أعوان دومتيان الفتنة ، ولكنها أفسدت عليه خطته إذ مكنت أعداءه من جمع شملهم والاستعداد لقتاله . فلما أن عبر الدانوب لملاقاة الداشيين هزمه هؤلاء على ما يظهر ، فعقد الصلح مع دسبالس Dacibalus ملك الداشيين ، وأرسل إليه هدية كان يرسل مثلها في كل عام يسترضيه بها ، وعاد إلى رومة ليحتفل بنصر مزدوج على الشاتين Chatti والداشيين ، واكتفى فيما بعد بإنشاء طريق محصن بين نهري الرين والدنوب وآخر بين الثنية الشمالية لهذا النهر والبحر الأسود .

وكانت فتنة ستورنيس نقطة الانقلاب في حكم دومتيان ، أو الحد الفاصل

بين نفسه الطيبة ونفسه الخبيثة . لقد كان على الدوام شديداً لا يلين ، أما الآن فقد انحدر إلى القسوة والوحشية ؛ ولقد كان قادراً على أن يحكم حكماً صالحاً ، ولكن مقدرته هذه كانت موقوفة على أن يكون حاكماً أوتوقراطياً لا معقب لحكمه ؛ ففي عهده لم يلبث مجلس الشيوخ أن فقد سلطته ، وكانت اختصاصاته الواسعة بوصفه رقيماً سيئاً في إذلال هذا المجلس وبث روح الانتقام في نفوس أعضائه . هذا إلى أن غرور دومتيان لم يقف عند حد ، والغرور كما هو معروف من الصفات التي ترعرع حتى في نفوس الوضيعين من الناس : ومن مظاهر غروره أنه ملأ الكبتولا بتأثيله ، ونادى بتأليه أبيه وأخيه وزوجته وأخته كما نادى بتأليه نفسه ، وأنشأ طائفة جديدة من الكهنة سمو الفلافياles ليشرفوا على عبادة أولئك الأرباب ، وطلب إلى الموظفين ألا يذكروه في وثائقهم إلا بلقب « سيدنا وإلهنا Dominus et Deus Noster » . وكان يجلس على عرشه ويشجع زائريه على أن يحتضنوا ركبتيه ، وأدخل في قصره المزخرف آداب القصور الشرقية ، لأن الزعامة أصبحت بقوة الجبش والتحلال مجلسر الشيوخ ملكية غير دستورية . واشتعلت نيران الفن على هذا التطور الجديد بين صفوف الأشراف وبين الفلاسفة والأديان التي أخذت تتسرب إلى رومة من بلاد الشرق . وأبى اليهود والمسيحيون أن يعبدوا دومتيان ويتخذوه إلهاً من دون الله ، وندد الكلييون بكل أنواع الحكومات ، وأقسم الرواقيون ليقاوم كل مستبد جبار ويكر من قتلة المستبدين وإن قبلوا أن يحكم البلاد ملوك . وفي عام ٨٩ طرد دومتيان الفلاسفة من رومة ، ثم أخرجهم من إيطاليا كلها في عام ٩٥ ، وكان قرار طردهم من رومة يشمل معهم المنجمين ، لأن تنبؤهم بموت الإمبراطور أوقع الرعب في قلب رجل خال قلبه من الإيمان ومستعد لقبول الخرافات والأوهام . وفي عام ٩٣ أعدم دومتيان بعض المسيحيين لأنهم أبوا أن يقربوا القرابين بين يدي تمثاله ؛

وتقول الروايات المتواترة إن فلافيوس كليمز Flavius Clemens ابن أخيه كان من هؤلاء القتل (١٠٧) .

وزاد خوف الإمبراطور من المؤامرات حتى بلغ في السنين الأخيرة من حكمه حد الجنون ، فكان يظن بالحجارة البراقة جدران الأروقة التي يمشى تحت سقفها ، حتى يرى صورة من كان وراءه معكوسة فيها . وكان يندب سوء حظ الحكام لأن أحداً لا يصدقهم إذا قالوا إن الناس يأترون بهم إلا إذا نجحت المؤامرة ، وكان كتيبيريوس يستمع للواشين حين تقدمت به السنون ، فلما أن تضاعف عدد الوشاة ، لم يكن أحد من المواطنين ذوى المكانة يأمن على نفسه وهو في عقر داره من الجواسيس . وزادت التهم والأحكام زيادة سريعة بعد فتنة سترنيس ، فتنى الأشراف أو قتلوا تقتيلاً ، وعذب كل من اشتبه فيه عذاباً شديداً ، وكان من بين ضروب العذاب « إدخال النار في أعضائهم التناسلية » (١٠٨) . واتخذ مجلس الشيوخ المروع - وكان من أعضائه تاستس الذي يقص هذه الأخبار والحقد يملأ قلبه - أداة لهذه المحاكمات والأحكام ، وكان كلما أعدم إنسان يحمد للآلهة أن أنجت الزعيم .

وكان من الأخطاء التي وقع فيها دومتيان أن قذف الرعب في قلوب آل بيته أنفسهم . من ذلك أنه أمر في عام ٩٦ بإعدام إيفرديتس Epaphraïdus أمين سره لأنه أعان نيرون على الانتحار قبل ذلك الوقت بسبع وعشرين سنة . وأحس معانيق بيته وقتله بأنهم مهددون بالخطر ، فاعزموا أن يتفخوا الشر بقتل دومتيان ، وانضمت إليهم دوميتيا Domitia في هذه المؤامرة . وحدث في الليلة السابقة لليلة مقتله أن قفز من فراشه مذعوراً . ولما حلت الساعة المتفق عليها وجه خادم دوميتيا الضربة الأولى ، واشترك أربعة عشر غيره في الهجوم عليه ، وقاوم دومتيان هذا الهجوم مقاومة الجنون ، ثم خر صريعاً ، وكان ذلك في السنة الخامسة والأربعين من عمره والخامسة عشرة من حكمه (٩٦) . ولما علم الشيوخ بالنبا

مزقوا ما كان له في قاعة المجلس من صور وحطموا ما وضع له فيها من تماثيل وأمروا أن يحطم كل ما في الإمبراطورية بأجمعها من تماثيل له ومن نقوش يذكر فيها اسمه .

وبعد فقد ظلم التاريخ هذا العهد « عهد الطغاة » ، وكان سبب هذا الظلم أنه تحدث عنه أكثر ما تحدث بلسان أعظم المؤرخين نباهة وأبعدهم عن الإنصاف . ولسنا ننكر أن ثثرة سوتونيوس كثيراً ما تؤيد اتهامات تاسيتس أو تحذو حذوها ، ولكن دراسة الأدب والنقوش قد حكمت عليهما بأنهما يظنان خطأ أن كتابة تاريخ الإمبراطورية ، وتاريخ القرن الذي كانا يعيشان فيه ، لا تخرج عن تسجيل ردائل الأباطرة العشرة وخطاياهم . إن أسوأ هؤلاء الحكام لم يكن مجرداً من كل خير - فقد كان ثيبيريوس حاكماً مخلصاً في عمله ، وكان كالجيو لا مرحاً جذاباً ، وكان كلوديوس يكدرح لتعلم الحكمة ، وكان نيرون مرهف الحس بالجمال ، وكان دومتيان قديراً في حكمه صارماً فيه . وقام من خلف مظاهر الفجور والتقتيل نظام إداري حفظ للولايات قسطاً كبيراً من النظام خلال هذه الفترة الطويلة كلها . يضاف إلى هذا أن الأباطرة أنفسهم كانوا أكبر ضحايا سلطانهم ، فقد كان مرض من نوع ما يجري في دمائهم ، أشعلت ناره حرارة شمواتهم . الطليقة ، وظل يلزم اليوليوسيين - الكلوديين حتى قضى عليهم كما قضى على أبناء أتريوس Atreus . وكان عيب من نوع ما في نظام الحكم هو الذي حط من شأن الفلاقيين في مدى جيل واحد ، فهو يهم من حزمهم في شئون الحكم وصبرهم على متاعبه إلى القسوة الوحشية المروعة . ولقد اختتمت حياة سبعة من هؤلاء الرجال العشرة أسوأ خاتمة ، وكانوا كلهم تقريباً غير سعداء في حياتهم ، فقد عاشوا في جو من المؤامرات والدسائس والخيانة ، يحاولون أن يحكموا عالماً من بيت تسوده الفوضى . وإذا كانوا قد أطلقوا العنان لشهواتهم فما ذلك إلا لأنهم كانوا يعرفون أن سلطانهم العظيم سريع الزوال وأنهم كانوا يعيشون يروعهم في كل يوم

علمهم بأنهم مقضى عليهم بالموت الباكر المفاجئ ؛ وإذا كانوا قد انخطوا إلى الدرك الأسفل فما ذلك إلا لأنهم كانوا فوق متناول القانون ، وإذا كانوا قد أصبحوا أقل من الرجال فما ذلك إلا لأن السلطة جعلت منهم آلهة يعبدون :

ولكننا مع ذلك لا يحق لنا أن نغفر لهذه الحقبة أولزرامة ما اقترفته من الجرائم الخسيسة الدنيئة ؛ نعم إنها نشرت السلام في ربوع الإمبراطورية ، ولكنها بسطت حكم الإرهاب على رومة ، وأفسدت الأخلاق بما ضربته من أمثلة القسوة المروعة والفجور الطليق ، وقطعت أوصال إيطاليا بإشعال نار الحرب الأهلية التي كانت أشد هولاً ووحشية من حروب قيصر وبمبي ، وملاأت الجزائر بالمنفيين ، وأفنت خير الرجال وأشدهم بأساً . وأقواهم قلباً . ونشرت الغدر والخيانة بين الأقارب والأصدقاء بإجزال العطاء للجواسيس الشرهين . وقد استبدلت في رومة حكم القانون بطغيان الأفراد وشادت صروحاً ضخمة يجمع الخراج من الولايات ، ولكنها أضعفت النفوس بإرهاب ذوى المواهب والابتكار حتى يذلوا أو يصمتوا . وشر من هذا كله أنها جعلت الجيش صاحب السلطة العليا في البلاد . فلم يكن منشأ سلطة الزعيم على مجلس الشيوخ هو عبقريته الفذة ، أو ما جرى به العرف ، أو مكانة الزعيم وهيبته ، بل كان عماد هذه السلطة أسنة الحرس . ولما رأت جيوش الولايات كيف كان الأباطرة يرفعون على العرش ، وكيف كانت العطايا توزع في العاصمة والغنائم تؤخذ منها ، استولت على سلطة الحرس الريثوري ، وتولت هي صنع الملوك . ولقد استطاع الحكام العظماء ، الذين كانوا يختارون بالتبني لا بالوراثة ، استطاعوا بالحقمة أو بالبطش أو بالمال أن يكبحوا جماح الفياق الرومانية ويؤمنوا الحدود والثغور ، فلما أن عادت البلاهة إلى الجلوس إلى العرش بعمل فيلسوف عاشق ، شق الجند عصا الطاعة وفسد نظامهم ، ومزقت القوضى غشاء النظام الرقيق ، وتآزرت الحرب الأهلية والبرابرة المتربصون فتحطم صرح الحكم النبيل المزروع الذي شادته عبقرية أغسطس .

الباب الرابع عشر

العصر الفضى

١٤ - ٩٦ م

الفصل الأول

المولعون بالفنون

أطلقت الرواية المتواترة على الآداب اللاتينية فيما بين ١٤ ، ١١٧ م اسم العصر الفضى للدلالة على أن هذه الآداب قد نزلت عن المستوى الثقافى الرفيع الذى بلغته فى عصر أغسطس ، والرواية هى صوت الزمان ، والزمان هو الوسط الذى يختار فيه بين الطيب والخبيث ، والعقل الحذر يحل حكمهما لأن الشباب وحده هو الذى يعرف ما لا تعرفه عشرون قرناً من الزمان : على أننا نرجو أن يؤذن لنا بأن نرجئ حكمنا على هذا العصر ، وأن نستمع بلا تحيز إلى ما يقوله عنه لوكان ، وبثرونيوس ، وسنكا ، وبلنى الأكبر ، وسلسس Celsus ، واستاتيوس Statius ومارتيال ، وكونتليان ، وأن نستمع فى أبواب أخرى من هذا الكتاب إلى أقوال تاسيتس ، وجوفنال ، وبلنى الأصغر ، وإبيكتتس Epictetus ، وأن نستمع بأقوالهم استمتاع من لم يسمعوا قط بأنهم عاشوا فى عصر من عصور الاضمحلال . ذلك أننا نجد فى كل عصر شيئاً يضمحل وشيئاً ينمو ؛ فالملقطوعات الشعرية الفكاهة ، والهجاء ، والروايات القصصية ، والتاريخ ، والفلسفة ، بلغت كلها فى العصر الفضى ذروة مجدها ، كما أن فن النحت الواقعى ، والعمارة الضخمة قد بلغا فيه ما لم يبلغاه فى عصر آخر من عصور الفن الرومانى .

وفي هذا العصر دخل حديث رجل الشارع مرة أخرى في الأدب ، وأهملت بعض قواعد النحو والصرف ، وحذفت الحروف الساكنة من أواخر الكلمات ، ولم يعبأ بها الرومان أكثر مما كان يعبأ بها الغاليون . ويحدث في منتصف القرن الأول أو حواله أن رقق الحرفان اللاتينيان V (وكان ينطق كما ينطق حرف W (و) في اللغة الإنجليزية) ، B (إذا كان بين حرفين متحركين) (*) حتى أصبحا مماثلين في النطق لحرف V الإنجليزي . وهكذا أصبحت كلمة babere ومعناها التملك ينطق بها bavere ، وكان هذا تمهيداً للكلمة الإيطالية avere ، وللفرنسية Avoir ؛ وأخذت كلمة vinum ومعناها النبيذ أو الخمر تقترب في النطق من كلمة vino الإيطالية ، وكلمة vin الفرنسية وذلك بإهمال الحرف الساكن الأخير المتغير . وقصارى القول أن اللغة اللاتينية شرعت تمهد السبيل للغات القومية الإيطالية والأسبانية والفرنسية .

وجدير بنا أن نعترف في هذا المقام بأن الخطابة ازدهرت وقتئذ على حساب البلاغة ، وأن النحو ارتقى على حساب الشعر ؛ وأن المقتدرين الكفاة وجهوا كل جهودهم إلى دراسة شكل اللغة وتطورها ودقائقها ، وإلى نشر النصوص التي أصبحت في ذلك العهد نصوصاً « فصحى » ، وإلى صياغة قواعد الكتابة الأدبية الراقية والخطب القضائية ، وأوزان الشعر ، ونقاسيم الحمل في النثر . وحاول كلوديوس أن يدخل بعض الإصلاح على الحروف الهجائية ، وجعل نيرون الشعر طراز العصر المحبوب ، وألف سنكا الأكبر كتباً في البلاغة ، وحجته في هذا أن الفصاحة تزيد كل قوة إلى ضعفها ؛ ولم يكن أحد يرقى في رومة بغير الفصاحة إلا قواد الجند وخدمهم ، وحتى هؤلاء القواد كان يجب أن يكونوا خطباء . واستحوذ جنون البلاغة على جميع أشكال الأدب : فأصبح الشعر خطائياً والنثر

(*) لقد فضلنا أن نستعمل هذا اللفظ (الحرف المتحرك) لترجمة كلمة vowel الإنجليزية وإن كان بعضهم يفضل تسميته « بالحركة » ، وذلك للدلالة على كيانه المستقل . (المترجم)

شعرياً ، وحتى يلنى نفسه كتب صفحة بليغة فى المجلدات الستة من كتابه فى التاريخ الطبيعى . وأخذ الناس يشغلون أنفسهم باتزان عباراتهم ، وتناعم جملهم ، وأضحت التواريخ خطباً حماسية ، وأخذ الفلاسفة يجهدون أنفسهم فى البحث عن النكات ، وشرع كل إنسان يكتب أمثالا مركزة موجزة ، وصار الأدباء كلهم يكتبون الشعر ويقرءونه لأصدقائهم حول مناصد فى ردهات أو دور تمثيل يستأجرونها لهذا الغرض ، بل إنهم كانوا يقرءونه فى الحمامات نفسها ، حتى شكوا من ذلك مارتىال مر الشكوى . وعقدت مباريات عامة للشعراء ، ينال الفائزون فيها جوائز وتحفل بهم المجالس البلدية ، ويضع الأباطرة على رؤوسهم أكاليل النصر . وكان الأشراف والزعماء يرحبون بأن تهدى إليهم المؤلفات أو يثنى عليهم فيها وكانوا يجيزون أصحابها بالولائم أو الأموال . وكانت شهوة الشعر مما أكسب هذه الفترة وتلك المدنية اللتين دنستهما الإباحية الجنسية وعهود الإرهاب المتكررة نقول كانت هذه الشهوة مما أكسب هذه الفترة ذلك الجمال الذى يخلعه المؤلفون الهواة على العصر الذى يعيشون فيه .

واجتمع الشعر والإرهاب فى حياة لوكان ، وكان سنكا الكبير جده ، وسنكا الفيلسوف عمه . وقد ولد قرطبة عام ٣٩ وسمى باركس أنيوس لوكانس Marcus Annaeus Lucanus ، وجرىء به فى طفولته إلى رومة ونشأ فى بيئة أرستقراطية يصطرع فيها الشعر والفلسفة مع دسائس الحب ومع السياسة فى سبيل الغلبة والمكانة السامية فى الحياة . ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره اشترك فى المباريات التى عقدت أثناء الألعاب النبرونية ، وتقدم إليها بقصيدة « فى مدح نيرون » نال عليها جائزة . وأدخله سنكا فى بلاط الإمبراطور ، وسرعان ما أخذ الشاعر والإمبراطور يتطارحان الملاحم . وارتكب لوكان غلطة شنيعة إذ كسب الجائزة الأولى فى مباراة شعرية مع الزعيم ، فما كان نيرون إلا أن أمره ألا ينشر بعدها شعراً ، وانسحب لوكان ليثأر لنفسه سراً بتأليف ملحمة قوية ولكنها خطائية

سمّاها مراسلنا رأى فيها الحرب الأهلية بعين الأرستقراطية البهيمية . ولم
يبخس لوكان في هذه الملحمة قيصر حقه ، وقد وصفه فيها بتلك العبارة
البليغة « *nil actum credens cum quid supersset agendum* »^(١) ، ولكن البطل الحقيقي
في هذه الملحمة هو كاتو الأصغر الذى يضعه لوكان في مصاف الآلهة في
سطر مشهور من سطور كتابه « *victrix causa deis placuit sed victa Catoni* »^(٢) .
إن القضية الراجحة سرت الآلهة ، ولكن القضية الخاسرة سرت كاتو .
وقد أحب لوكان أيضاً القضية الخاسرة ، ومات في سبيلها . فقد اشترك
في مؤامرة ليحل بنزو محل نيرون ، وقبض عليه ، فخارت قواه (ولم يكن
قد تجاوز السادسة والعشرين من عمره) ، وباح بأشياء شركائه في المؤامرة ،
حتى اسم أمه نفسها — على حد قول المؤرخين . ولما أيد نيرون حكم الإعدام
الذى صدر عليه ، استعاد شجاعته ، ودعا أصدقاءه إلى وليمة ، وأكل
معههم حتى شبع ، ثم فتح بعض أوردته ، وأنشد ما قاله من الشعر في
هجو الظلم والطغيان بينما كان دم الحياة ينزف من جسمه .

الفصل الثاني

پترونيوس

لسنا واثقين من أن پترونيوس الذى لا يزال كتابه المسمى الساتريكون satyricon يجد له كثيراً من القراء هو نفسه كيوس پترونيوس Caius Petronius الذى قتل بأمر نيرون بعد عام من مقتل لوكان . وليس فى الكتاب كله كلمة واحدة يمكن أن يستدل منها على هويته ؛ ولا يذكر تاسيتس فى وصفه القوى البليغ لهذا « الحاكم الظريف » كلمة واحدة عن هذه الآفة الأدبية التى بلغت الغاية فى سوء السمعة ، وتعزى نحو أربعين مقطوعة فكهة إلى كاتب يدعى پترونيوس ومنها بيت يكاد يمثل فلسفة لكريوشوس كلها وهو : « إن الخوف هو الذى أوجد الآلهة فى العالم أول الأمر » (٣) ولكن هذه التفت أيضاً لا تذكر شيئاً يفصح عن حقيقة مؤلفها . وكتاب الساتريكون مجموعة من الهجاء يغلب على الظن أنها كانت فى ستة عشر كتاباً لم يبق منها إلا الكتابان الأخيران ، وحتى هذين الكتابين ناقصان . واسمها مشتق من ساتورى saturae اللاتينية ومعناها « خليط » - وهى تارة نثر وتارة شعر ، وتختلط فيها المغامرات بالفلسفة ، وجراحة المعدة بالصيد . وهى مدينة فى صورتها هذه لكتب منببس Menippus الهجائية ؛ ومنببس هذا فيلسوف سورى كلبي Cynic كان يقيم فى جدارا Gadara . وفيها كتب مؤلفة عام ٦٠ ق . م ، ومنها « القصص الميليزية » Milesian أو الروايات الغرامية التى انتشرت فى العالم ذى الحضارة اليونانية . وإذا كان كل ما لدينا من أمثلة لهذا النوع من الكتابات إنما يرجع إلى ما بعد عصر پترونيوس فإن كتاب الساتريكون يمتاز عن أمثاله من الكتب بأنه أقدم رواية قصصية معروفة .

ولا يكاد الإنسان يصدق أن رجلاً مترفاً أرسقراطياً نبيلًا ، اشتهر
بذوقه الراقى ، ينزل إلى الدرك الذى نزل إليه كتاب الساتريكون . إن
كل ما فيه من الشخصيات العاملة من العامة ، والأرقاء السابقين ، وكل
ما فيه من المناظر مأخوذة من أسفل أنواع الحياة ؛ وبه ينتهى فجاءة العهد
الأغسطى الذى كانت تؤخذ فيه موضوعات الأدب من حياة الطبقات العليا.
فإنكليبوس Encolpius الذى تروى القصة على لسانه زان ، غثث . كاذب
لص ، يرى من الطبيعى أن يكون كل ذى عقل على شاكلته . وهو يقول
عن نفسه وعن صديقه : « لقد اتفقنا فيما بيننا على أن نختلس كل ما تصل
إليه أيدينا كلما أتاحت لنا فرصة الاختلاس ، نملأ به خزينتنا المشتركة » (٤) .
وتبدأ القصة فى بيت للدعارة ، يلتقى فيه إنكليبوس بأسيلتوس Ascylos
بعد أن لجأ هذا إلى ذلك المكان فراراً من محاضرة . فى الفلسفة ،
ومغامراتهما بين مدن إيطاليا الجنوبية وكهوفها هى الرباط الذى يربط أجزاء
القصة المبعثرة ، كما أن تنازعهما على جيتون Giton الغلام الرقيق الوسيم
هو الذى يفرق بينهما فى قصة الإلصوص الغرامية . ويصل الرجلان آخر
الأمر إلى بيت التاجر تريملكيو Trimalchio ، ثم يدور الجزء الباقى لدينا من
الكتاب حول وصف السنا تريملكيونس Cina Trimalchionis وهو أعجب
غذاء فى الأدب كله .

وتريملكيو هذا عبد سابق جمع ثروة طائلة واشترى ضياعاً واسعة ،
يحيا حياة المترفين الخديثى النعمة ، بين جدران قصر وقى جو مليء بالاضطراب .
وقد بلغت ضياعه من الاتساع حداً لا بد معه من كتابة صحيفة يومية يعرف
بها مكاسبه ، وهو يطلب إلى ضيوفه أن يشربوا ويقول :

« إذا لم يعجبكم الخمر استبدلت به غيره ، وليست مضطراً إلى شرائه وذلك
ما أحمده للآلهة : إن كل ما يُسبّل لعبابكم فى هذا المكان قد جاءنى من إحدى
مزارعى التى لم أرها بعد ؛ ولكنهم يقولون لى لأنها فى طريق ترسيينا Terracina

وتارنتم ، وإنى أفكر فى أن أضرم صقلية لأملاكى الصغيرة الأخرى ، حتى إذا ما أردت أن أسافر إلى أفريقية استطعت أن أسير مجاوراً لشواطئ أملاكى . . . : وإذا ما حدثتكم عن الفضة فلأنى أحدثكم عنها حديث الخبير فعندى منها أقداح فى حجم دنان الخمر . . . وعندى ألف جفنة تركها مميوس Mummius لسيدى . . . وأنا أشتري الأشياء بأجنس الأثمان وأبيعها بأغلاها وقد يكون لغيرى من الناس آراء غير هذه الآراء^(٥) ، وهو رغم هذا رجل ظريف ، يسب عبيده ولكنه يعفو عنهم من فوره ، وهم من الكثرة بحيث لا يعرف صورته منهم إلا عشرهم ، وهو لا ينسى أنه فى الأصل عبد مثلهم ولذلك يقول عنهم قولاً كريماً : « إن العبيد رجال قد رضعوا اللبن الذى رضعناه . . . وسوف يشرب عبيدى إذا طال بهم العمر الماء الذى يشربه الأحرار » . وهو يبرهن على حسن نواياه بأن يأمر بإحضار وصيته وقراءتها على ضيوفه فيجدون فيها أموالاً مخصصة لقبريته التى يختمها بقوله مفتخراً لأنه « اغتنى من لا شيء » ، وإنه ترك وراءه ثلاثين مليون سسترس ، وإنه لم يستمع قط إلى فيلسوف^(٦) .

واختص وُصف العشاء بأربعين صفحة ، وإن عدداً قليلاً من الجمل لشكى لوصف نكهته :

وكانت لدينا صينية مستديرة نقشت على أطرافها أبراج النجوم ، وقد وضع الخادم على كل برج خير ما يلائمه من الطعام ؛ فوضع جلابان الضأن على برج الحمل ولحم البقر على برج الثور . . . ورخم خنزيرة لم تلد على برج السنبلة . . . ووضع على برج الميزان كفتين فى إحداها فطيرة وفى الأخرى كعكة . . . وأقبلت أربعة راقصات مسرعات ليرفعن الغطاء عن الطعام . وكان من تحته طيور محشوة ، وبطون خنازير ، بتوسطها أرنب ، وفى الجوانب أربعة تماثيل للمارسياس Marsyas يخرج من مثنائاتها حساء متبل يقع على سملك يسبح فى الصحاف . . . : ثم جاءت صينية أخرى عليها خنزيرة ، علقت فى أنيابها سلال مثقلة بالبلح . ومن حولها صغارها مصنوعة

من الفطائر ... ولما دفع الخادم السكين في جانب الخنزيرة طار منها طير
السماني وحط كل واحد على ضيف من الأضياف (٧) .

ثم تدخل الحجرة أربعة خنازير بيضاء ويختار الضيوف ما يريدون أن
يطهى لهم منها ؛ ويشوى لهم ما يختارونه وهم يطعمون ؛ ويؤتى لهم به ،
فإذا قطع خرجت من بطنه أمعاؤه الخشوة والفطائر . وإذا قدمت الحلوى
لم يجد أنكلييوس لديه شربة لتناولها ، ولكن تريميلكيو يحث ضيوفه على
الأكل ويؤكد لهم أن الحلوى قد صنعت كلها من لحم خنزير . ويدلى
خطاف من السقف ، يحمل لكل ضيف إبريقاً من المرمر مملوءاً بالعطر ويملاؤه
العبيد أقداحاً فارغة بالخمر المعتق . وتذهب الخمر بعقل تريميلكيو فيغازل غلاماً ،
وتحتج عليه زوجته البدينة ، ويقذفها بكأس في رأسها ويقول : « إن هذه
العاهر السورية الرقاصة ضعيفة الذاكرة ، فلقد انتشلتها من سوق النخاسة
وجعلتها امرأة ، وهما هي ذى تنفخ أوداجها كالضفدعة ... وهذه سنة
الخلق إذا ولدت في عليّة تحت سطح منزل ، فإن تستطيع أن تنام في
قصر » (٨) ثم يأمر قهرمانه أن يبعد تماثيلها عن قبره « وإلا فلنميتها ستؤثني
حتى بعد أن أموت » .

هذا كتاب في الهجاء القوى المقذع ، واقعى في تفاصيله وحدها ،
ولا يصدق إلا على قسم صغير من الحياة الرومانية . وإذا كان كاتبه هو
بثرونيوس الذى عاش في عهد نيرون ، وجب علينا أن نعهده هجاء مقذعاً
للأغنياء المحدثين من الأرقاء المحررين ، كتبه رجل من الأشراف ، لم يكسب
قط بعمله ما كان له من المال . والكتاب كله خلو من الرحمة ليس فيه شيء
من العطف على الناس ، ولا يهدف إلى مثل أعلى ، ويرى كاتبه أن الفساد
وسوء الخلق أمر طبيعي لا غبار عليهما ، وتعرض فيه حياة السوق من الناس
عرض من يستمتع بها ويعجب بها ولا يعلق بكلمة ما عليها . وفي هذا
الكتاب تنساب الأقذار انسياحاً سريعاً إلى الأدب الروماني ، وتحمل
إليه أحكام أصحابها ، وأذواقهم ، وألفاظهم الوقحة ، وحيويتهم

المرحة . وترى القصة أحياناً تصل إلى أعلى درجات السخف والبذاءة
والسباب التي تتوج ملحمة جرجنتوا وپنتجروول ، وتعد تمهيداً لقصة
« الأوتاه الزهية » لأپوليوس Apuleius وتضارعها جيل بلاس Oils Blas
التي كتبت بعدها بسبعة عشر قرناً ، وتواصل قصتا ترسترام شاندى
Tristram Shandy وتم جونز Tom Jones ما فى قصصهما من التواء ،
وجملة القول أن هذا الكتاب هو أعجب كتاب فى الأدب الرومانى كله .

الفصل الثالث

الفلاسفة

في هذا العصر الشديد التعقّد والانحلال ، الذي فرضت فيه على الحرية أضيق القيود وتحررت فيه الحياة من كل قيد ، في هذا العصر ازدهرت الفلسفة إلى جانب الفسق والفجور ، ولم تترفع قط عن التعاون والاتفاق . لقد ترك ما طراً على الدين القومي من انحلال ثغرة في الأخلاق حاولت الفلسفة أن تسدها ، فكان الآباء يرسلون أبناءهم ، وكثيراً ما كانوا يذهبون هم أنفسهم ، ليستمعوا إلى محاضرات رجال يعرضون عليهم قانوناً عقلياً للأخلاق الصالحة ، أو ستارا رتيميا للشهوات المكشوفة ، وكان بعض من أوتوا سعة من المال يستأجرون الفلاسفة ليعيشوا معهم ، وليعلموهم ، ليكونوا لهم مستشارين روحيين ، وأصحاباً عالمين . هكذا كان أتيوس لأغسطس ، لا يكاد يبرم أمراً حتى يستشير فيه ، ومن أجله (إذا كان لنا أن نصدق الحكماء فيما يقولون) لم يقس على مدينة الإسكندرية ، ولما مات دروسس استدعت ليثيا « فيلسوف أبيها » — وهذا نص عبارة سنكا — « ليعينها على تحمل أحزانها » . وكان لنيرون ، وتراجان وأورليوس بطبيعة الحال فلاسفة يقيمون معهم في بلاطهم ، كما للملوك أمناء في هذه الأيام . وكان الناس في الساعات الأخيرة من حياتهم يستدعون الفلاسفة ، ليمهدوا لهم طريق الموت ، كما جرت العادة بعدئذ أن يستدعى الناس القساوسة (١٠) .

ولم يكن الشعب ليغفر لهؤلاء الفلاسفة أنهم يتقاضون على أعمالهم هذه مرتبات أو أجوراً ، بل كان يرى أن الفلسفة في حد ذاتها تغني عن الطعام والشراب ؛ وكان الفلاسفة الذين لا يقدرّون مهنتهم حق قدرها عرضة لسخرية الشعب ، وانتقاد كونتيليان Quintilian ، وهجولوشيان Lucian وعداء

الاباطرة. والحق أن الكثيرين منهم كانوا جديرين بهذا كله، لأنهم كانوا يلبسون لباس الفلاسفة الخشن ، ويطلقون لحاهم طويلة^{١٢}، ليستروا بثوب العلم نهمهم ، وأطعمهم ، ويخلعهم . وغرورهم . وفي ذلك يقول أحد الأشخاص الموسيان إن :

« دراسة قصيرة للحياة قد أفنعتني بما في جميع الأغراض الدنيوية من سحق وحقارة . . . وخير ما أستطيع أن أفكر فيه وأنا في هذه الحالة النفسية هو أن أعرف حقيقة الحياة كلها من الفلاسفة . . . من أجل هذا اخترت أحسنهم — إذا كان وقار المنظر ، واصفرار الوجه ، وطول الحية هي المقياس الذي يعتمد عليه في هذه الحال . . . ثم وضعت نفسي بين أيديهم . وطلبت إليهم أن يعلموني نظام الكون في نظير مبلغ كبير من المال أوديه إليهم فوراً ، ومبلغ آخر أوديه إليهم حين أصل إلى الغاية في الحكمة . ولكن الذي حدث لسوء الحظ أنهم لم يبددوا ما كنت فيه من جهل ، بل زادوا على ارتباكهم فوق ارتباكهم بما جرعوهم من بدايات وغايات ، وذرات وفراغ ، ومواد وأشكال . وكان أصعب ما لقيته أنهم جميعاً كانوا يريدون أن أصدقهم ، رغم ما بينهم من خلاف ، ورغم ما كان في أقوالهم كلها من تناقض ؛ فكان كل واحد منهم يجذبني نحوه . . . وكثيراً ما كان يعجز عن أن يخبرك بما بين مجارا وأثينة من أميال ، ولكنه لا يتردد مطلقاً في أن يخبرك بما بين الشمس والقمر من أقدام^(١١) .

وكان معظم الفلاسفة الرومان من أتباع المذهب الرواقى ، أما الأبيقوريون فلم تترك لهم الخمر والنساء والطعام وقتاً للنظريات الفلسفية . وكان في أماكن قليلة من رومة متسولون يدعون إلى الفلسفة الكلية لا يعنون بالتفكير ، ويدعون الناس إلى البساطة والتقشف ، ويدعون لما يطلبه الشعب إلى الفلاسفة أن يكونوا فقراء ، ومن أجل هذا كانوا أقل طوائف الفلاسفة احتراماً . ولكن سنكا اتخذ واحداً من هؤلاء صديقاً وفيّاً له ؛ وقال في هذا متسائلاً : « ولم لا أجل دمتريوس وأعظمه ؟ لقد وجدته

كاملاً لا ينقصه شيء . وقد دهش الحكيم صاحب الملايين حين رفض الفيلسوف الكلبي ، الذي لم يكذب يحد عنده ثوباً يستر به عورته ، عطية من كالجولا مقدارها مائتا ألف سسترس (١٢) .

ولإذ كان الرواقى الرومانى رجل قتال لا ، جل تأمل وتفكير ، فقد كان يتجنب ما وراء الطبيعة ، ويرى ذلك من المطالب الميئوس منها ، وكان يجد فى الرواقية فلسفة أخلاقية تقوم على الآداب الإنسانية ، وتضم شمل الأسرة ، وتثبت النظام الاجتماعى من غير حاجة إلى رقابة علوية وسيطرة إلهية . وكان جوهر قانونه الأخلاقى هو سيطرة المرء على نفسه ، فكان يدعو إلى إخضاع الشهوات للعقل ، وكان يعود إرادته ألا تطلب شيئاً يجعل راحته النفسية تعتمد على الطيبات الخارجية . وكان فى الناحية السياسية يعترف بأخوة البشر الخاضعين لأبوة الله . وكان فى الوقت نفسه يحب بلده وتراه على الدوام مستعداً لأن يضحي بحياته لكى يرد عنها وعن نفسه المذلة والعار . وكانت الحياة على الدوام رهن تصرفه ، له أن يغادرها حين تصبح نقمة عليه لا نعمة له ، وكان الرواقى يسعى لأن يكون ضمير الإنسان أقوى من كل قانون ، وكانت الملكية فى رأيه شراً لا بد منه للحكم الأقطار الشاسعة المتباينة ، ولكن قتل الطاغية المستبد كان أمراً طيباً مرغوباً فيه كل الرغبة .

وقد استفادت الرواقية الرومانية أول الأمر من الزعامة ، ذلك أن القيود التى فرضت على الحرية السياسية دفعت الناس من السوق العامة إلى الدرس ، وبعثت فى أرق هؤلاء الناس وأظرفهم نزعة إلى الفلسفة التى تجعل الشخص المسيطر على نفسه ذا سلطان أقوى من سلطان الملك الناصر المنفعل . ولم تقيد الحكومة حرية الفكر أو القول ما دامت الأفكار والأقوال لا تتجه علناً إلى مهاجمة الإمبراطور وأسرته ، أو إلى الطعن على الآلهة الرسمية . فلما أن شرع الأساتذة وأولياؤهم من الشيوخ ينددون بالظلم والاستبداد شبت بتن الفلسفة والحكم المطلق حرب عوان ، دامت حتى جمع بينهما الأباطرة المتبنون فوق العرش

ولما أمر نيرون ثراسى Thrasea بأن يقتل نفسه (٦٥) نفي في الوقت نفسه موسونيوس روفس Musonius Rufus صديق ثراسى ، وأخلص فلاسفة رومة الرواقيين في القرن الأول عقيدة ، وأشدهم عملاً بفلسفته . وكان روفس قد عرف الفلسفة بأنها هى البحث عن السلوك الطيب ، وشرع في هذا البحث بجد ومثابرة . وقد شهر بالتسرى رغم شرعيته ، وكان يطلب إلى الرجال أن يحافظوا في أخلاقهم الجنسية على المستوى الذى يطالبون به النساء . وكان الرجل التولستوى النزعة يقول إن العلاقات الجنسية لا تباح إلا في حالة الزواج وللمحافظة على النسل . وكان يعتقد بوجوب تكافؤ الفرص التعليمية للرجال والنساء على السواء ويرحب بوجود النساء في محاضراته ، ولكنه يأمرهن أن يبحثن في الزينة والفلسفة عن الوسائل التى يكمن بها أنوثتهن (١٣) . وكان الأرقاء أيضاً يشهدون محاضراته . وقد شرف أحد هؤلاء وهو Epictetus أستاذه بأن تفوق عليه . ولما أن شبت نار الحرب الأهلية في رومة بعد موت نيرون خرج موسونيوس للجيش المهاجم ، وأخذ يخطب فيه ويشرح له فوائد السلم وفضائل الحرب . وسخر منه جنود أنطونيوس وعادوا إلى تحكيم السيف . ولما أن طرد فسبازيان الفلاسفة من رومة استثنى منهم روفس ، ولكنه احتفظ بسراريه .

الفصل الرابع

سنكا

وجدت الفلسفة الرواقية في حياة لوسيو أنيوس سنكا Lneius Annaeus Seneca أكثر مظاهرها مدعاة إلى الريبة ، كما وجدت في كنيائاته أصدق تعبير عنها . وكان مولده في قرطبة (Corduba) حوالى العام الرابع قبل الميلاد ، وسرعان ما جرى به إلى رومة وتلقى فيها كل ما كان يستطيع أن يتلقاه من تربية وتعليم . وقد تشرب الفلسفة من أبيه ، والرواقية من أتالس Attalus والفيثاغورية من سوتيون Sotion ، والفلسفة العملية من زوج عمته حاكم مصر من قبل الرومان . وحاول مدى عام أن يعيش على الأطعمة النباتية ، ثم عدل عن هذا ، ولكنه ظل طوال حياته مقلا من الطعام والشراب ، فكان من ذوى الملايين في بيئته لا في عاداته . وقد عانى كثيراً من مرض الربو وضعف الرئتين ، حتى فكر في بعض الأحيان في الانتحار . ومارس مهنة المحاماة ، واختير كوسترا في عام ٣٣ م ، وبعد عامين من ذلك الوقت تزوج بميبا پولينا Pompeia Paulina وعاش معها عيشة مستمرة عجيبة حتى مماته .

ولما ورث ثروة أبيه ، ترك مهنة المحاماة ، واشتغل بالكتابة . ولما أرغم كالجيو لا كرمتيوس كوردس Cremutius Cordus على أن يقتل نفسه (٤٠) كتب سنكا إلى ابنته مقالة تعزية Consolatis ، وكانت هذه المقالات من الموضوعات التي يكتبها الخطباء والفلاسفة في تلك الأيام . وأراد كالجيو لا أن يقتله عقاباً له على وقاحته ، ولكن أصدقاءه أنجوه من القتل بقولهم إنه لن يلبث أن يموت من السل إذا ما ترك وشأنه . وبعد قليل من ذلك الوقت اتهمه كلوديوس بوجود علاقات غير شريفة بينه وبين يوليا ابنة جرمنكوس ،

وحكم عليه مجلس الشيوخ بالإعدام ، ولكن كلوديوس استبدل بهذا الحكم
النفي في جزيرة كورسكا .

وفي هذه الجزيرة الصخرية الوعرة قضى الفيلسوف في عزله ثمانى
سنتين (٤١ - ٤٩) بين أقوام لم يرتفعوا قط عن بدائيتهم التى وصفهم
بها أوفد في تومى Tomi ، وصبر فى أول الأمر على هذه الكارثة صبر الزواقين
الحقيقيين ، وكتب إلى أمه مقالا يواسيها فيه « Consolatio ad Helviam » ،
فلما أن توالى عليه أعوام الشقاء ، ضعفت نفسيته واستولى عليه اليأس ،
فكتب إلى أمين سر كلوديوس مقالة Consolatio ad Polybium يرجوه
فيها متذلا أن يعفو عنه ، ولما لم يفده هذا الرجاء حاول أن يخفف من
آلامه بكتابة المأسى .

وأكبر الظن أن هذه المسرحيات العجيبة التى يكاد كل شخص فيها
أن يكون خطيباً ، إنما كتبت لتقرأ وتدرس لا لتمثل على المسرح ، ذلك
أننا لم نسمع قط أن واحدة منها مثلت ، وغاية ما فى الأمر أن بعض الحادثات
ذات الروعة أو بعض الخطب الطنانة الرنانة ، لحنت ومثلت تمثيلا هزليا ،
ونرى الفيلسوف الرقيق فى هذه المسرحيات يجرى الدماء على المسرح كأنه
يريد ألا يكون هذا المسرح أقل بشاعة وسفكا للدماء من الاحتفالات
والألعاب . على أنه رغم ما بذله فيها من جهود جبارة ، لم ينجح فى مسرحياته
لانصرافه فيها إلى التفكير أكثر من انصرافه إلى الإخراج المسرحى ، فهو
يفضل الأفكار على الرجال ، ولا يدع فرصة تمر دون أن يشغلها بالتأملات
والعواطف والفكاهة . ولسنا ننكر أن مسرحياته أحياناً جميلة ، ولكن
الإنسان لا يلام إذا لم يعلق شئ منها بذاكرته بعد سماعها . على أننا يجب
أن نضيف إلى هذا أن كثيرين ممن يعتد بحكمهم لا يتفقون معنا فى رأى ،
ومن هؤلاء اسكلجر Scaliger سيد النقاد جميعاً فى عصر النهضة والذى
يفضل سنكا عن يورديز .

ولما أن عادت الآداب القديمة إلى الحياة ، كان سنكا هو الذى اتخذ

نموذجاً لأولى المسرحيات التي كتبت باللغات الحديثة ، وعنه أخذت الصيغ
الفصيحة ، ووحدة الزمان والمكان التي امتازت بها مسرحيات كورنى
Corneille وراسين Racine ، والتي ظلت مهيمنة على المسرح الفرنسى
حتى القرن التاسع عشر . ولقد كانت ترجمة هاى وود Heywood
(١٥٥٩) لمسرحيات سنكا فى إنجلترا ، التي كانت أقل البلاد تأثراً بنفوذها ،
المثال الذى نسجت على منواله مأساة جوربودك Gorboduc أولى المآسئ
الإنجليزية ، وكان لهذه المآسئ أثرها فى مسرحيات شيكسبير .

وحدث فى عام ٤٨ أن حلت أجريينا الصغرى محل مسالينا فى السطورة
على كلوديوس وعلى رومة ، وكانت تتوق إلى أن تجعل من ابنتها نيرون ،
وكان وقتئذ فى الحادية عشرة من عمره ، اسكندراً ثانياً ، فأخذت تتلفت
حولها تبحث له عن أرسطاطاليس ، حتى وجدته فى جزيرة كورسكا ،
فأمرت باستدعاء سنكا وأعادته إلى مكانه فى مجلس الشيوخ ، وظل خمس
سنين يعلم تلميذه الشاب ، وخمس سنين أخرى يرشد الإمبراطور ويمسك
بزمam الدولة . وكان طوال هذه العشر السنين يديج الرسائل لإصلاح شأن
نيرون ، كما كتب عدة رسائل مختلفة يعرض فيها الفلسفة الرواقية عرضاً
ظريفاً . ومن هذه الرسائل رسائله : فى الغضب ، وفى قصر الحياة ، وفى
هدوء الروح ، وفى الرحمة ، وفى الحياة السعيدة ، وفى ثبات المسرح ، وفى
الفوائد ، وفى معنى التدبير . وهذه الرسائل التى تعنى أكثر ما تعنى بالشكل
والمظهر لا تبرز أحسن مواهب سنكا ، فهى كسرحياته ملأى بالنكات ،
ولكن هذه النكات التى يجدها القارى مثيرة فى غير ارتباط فى صحف
الكتاب كلها تفقد بهجتها آخر الأمر وتبعث الملل فى نفس القارى . على
أن قراء سنكا مع ذلك كانوا يقرءون هذه المقالات من حين إلى حين ،
ولم يكونوا يشتمزون من النكات المرحية التى أغضبت كونيان الصارم (١٤)

المتزمت (١٤) ، ولا من المحسنات اللفظية التي لم يرض عنها ذوق فرنطو Fronto العتيق . لقد كان يسر أولئك القراء أن وزيرهم الأول ينطق بأقواله الظريفة ، وأنه يحاول كما يحاول تلميذه بكل ما أوتي من جهد أن يكسب ثناءهم عليه . وقد ظل سنكا كثيراً من السنين حامل لواء الكتاب ، والساسة ، وزراع الكروم في إيطاليا .

وضاعف ما ورثه عن أبيه من ثروة باستثمارها استثماراً استعان عليه فيما يظهر بمنصبه الرسمي وعلمه الواسع ؛ وإذا كان لنا أن نصدق ديو فإنه كان يقرض المال لأهل الولايات بربافاحش أثار الفزع والفتنة في بريطانيا حين فاجأ مدينيه فيها بطلب أمواله البالغ قدرها ٤٠٠٠٠٠٠ ر٠ ٤٠٠٠٠٠٠ سسترس (١٥) . ويقال إن ثروته بلغت ٣٠٠٠٠٠٠ ر٠ ٣٠٠٠٠٠٠ سسترس أي (٣٠٠٠٠٠٠ ر٠ ٣٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) (١٦) . وقد اتهمه جاسوس من أصدقاء مسالينا يدعى بيليوس سوليوس Publius Sullius علناً بأنه « منافق ، زان ، خليع ، يذم حاشية الإمبراطور ولا يفارق قصره : ويذم الترف ، ويتباهى بأن له خمسمائة خوان من الأرز والعاج ، ويندد بالثروة ويستنزف دماء الولايات بالربا الفاحش » (١٧) . وقع سنكا كما قنع قيصر بمقارعة الحجة بالحجة ، وكان في وسعه أن يأمر بإعدام خصمه . ولقد أعاد ذكر هذه التهم في مقاله « عن الحياة السعيدة » ورد عليها بأن الحكيم لا يتحتم عليه أن يكون فقيراً ، فإذا جاءه المال من طريق شريف كان في وسعه أن يقبله ؛ ولكن يجب أن يكون في مقدوره أن يتخلى عنه متى شاء دون أن يتدم عليه » (١٨) ، وكان في هذه الأثناء يعيش عيشة الزهد والتقشف بين أثائه الجميل ، ينام على خشبة صلبة خشنة ، ولا يشرب إلا الماء القراح ، ولا يتناول إلا القليل من الطعام ، حتى ضمّر جسمه من قلة التغذية قبل وفاته (١٩) . وكتب في ذلك يقول : « إن كثرة الطعام تذهب بالذكاء ، والإفراط فيه يخنق الروح » (٢٠) . أما ما اتهم به من الشلوذ الجنسي فلعله كان

يصدق عليه أيام شبابه ، ولكنه اشتهر بعطفه الدائم على زوجته . والحق أنه لم يقرر في حياته أيهما أحب إليه الفلسفة أو السلطة ، الحكمة أو السعادة ؛ ولم يقتنع في يوم من الأيام بتعارض الفلسفة مع السلطة ، أو الحكمة مع السعادة ؛ وكان يعترف بأنه حكيم جد ناقص ، ومن أقواله في هذا : « إنى لا أمتدح الحياة التى أحيائها بل الحياة التى يجب أن أحيائها ، وهى الحياة التى أحبو إليها حبواً ، وهى بعيدة عنى كل البعد » (٢١) ، وأينا لا يصدق عليه هذا الوصف ؟ وإذا لم يكن مخلصاً فى قوله إن « الرحمة لا تزين أحداً من الناس بقدر ما تزين الملك أو الزعيم » (٢٢) ، فلا أقل من أنه قد وصف هذه العاطفة وصفاً لا يقل جمالا عن وصف بورشيا Portia لها (*) . وقد ندد بمعارك المجتادات التى كانت تنتهى بقتل المصارعين (٢٤) ، وكان من أثر ذلك أن حرمها نيرون ، وخفف من حدة النقد فى أيامه بما يسميه تاسيتس : « كياسته فى تلقين الحكمة » (٢٥) ، ولم يكن فى حياته يتطلب الكمال ، كما لم يكن يمارسه عملياً .

ولقد سبق القول بأنه حكم الإمبراطورية حكما صالحا . وأنه أساء إلى سمعته بالتغاضى عن شر ما ارتكبه نيرون من الجرائم ، و « السماح بارتكاب الكثير من الشر حتى يكون فى مقدوره أن يفعل القليل من الخير » (٢٧) . وكان يحس بما فى منصبه الرسمى من ذلة ومهانة ، ويتوق إلى التحرر من عبوديته ، ووصف قصر الإمبراطور بأنه « سجن يشقى فيه العبيد » . وكان يتمنى أن لو قضى حياته كلها فى دراسة الحكمة ، وتجنب دياجير السلطان . وكان يسره . أن يتخلى من حين إلى حين عن مشاغله السياسية ، وأن يستمع وهو فى سن الستين إلى محاضرات مِتروناكس Metronax فى الفلسفة كما يستمع إليها الصبي الحريص على الإفادة منها . وطلبه فى عام ٢٢ - وكان وقتئذ فى السادسة والستين من عمره - أن يؤذن له باعتزال منصبه فى القصر ، وكان وقتئذ أقل شأناً من منصبه الأول ،

(*) يشير المؤلف إلى وصف بورشيا البليغ للرحمة فى رواية تاجر البندقية لشيكسبير .

(المترجم) .

ولكن نيرون لم يجبه إلى طلبه . ولما طلب نيرون إلى جميع من في الإمبراطورية أن يكتتبوا في إعادة بناء رومة بعد الحريق العظيم الذى دمرها في عام ٦٤ ، تبرع هو بالجزء الأكبر من ثروته لهذا الغرض . واستطاع فيما بعد أن ينسحب شيئاً فشيئاً من بلاط الإمبراطور ، وأن يقضى جزءاً متزايداً من وقته في بيوته في كمبانيا ، لعله يستطيع بعزلته الشبيهة بعزلة النساك أن يفر من الإمبراطور ومن جواسيسه . وظل وقتاً ما لا يطعم إلا التفاح البرى ولا يشرب إلا الماء الجارى خشية أن يدس له السم في الطعام .

وفي هذا الجو المليء بالرعب والفرع دون بين عامى ٦٣ ، ٦٥ دراساته في التاريخ الطبيعى *Questiones Naturales* كما كتب ألطف كتاباته كلها . وهى رسائله الأخلاقية *Epistulae Morales* . وهذه الرسائل أجاديث عارضة شخصية موجهة إلى صديقه لوسليوس وإلى صقلية المثرى ، الشاعر ، الفيلسوف والأبيقورى الصريح . وقل أن يجد الإنسان في الأدب الرومانى كتباً تبعث على السرور خيراً من هذه المحاولات الطريقة لتكليف الرواقية حسب حاجات الرجل الواسع الثراء . وتعد هذه الرسائل بداية المقالة الحالية من التكلف والصعقة التى أمست فيما بعد الوسيلة التى لجأ إليها أفلوطرخس ، ولوسشيان ، ومتانى ، وقلنير ، وروسو ، وبيكن ، وأدسن واستيل للتعبير عن آرائهم . وإن القارئ ليشعر وهو يقرأ هذه الرسائل بأنه على اتصال برومانى مستنير ، رحيم ، متسامح ، سما إلى اللدوة وتعمق إلى أبعد حد في الأدب ، والسياسة ، والفلسفة ، ويحس كأن زينون يتحدث فيها برقة أبيقور وتسامحه وبسحر أفلاطون . ويعتذر سنكا للوسليوس عن أسلوبه المهلهل الذى لا يبدو فيه كبير أثر للعناية (وهو مع ذلك أسلوب لاتينى رائع الحسن) ، ويقول في اعتذاره هذا : « وأحب أن تكون رسائلى إليك هى عن حديثي ، إذا ما جلسنا أو سرنّا معاً » (٣٠) . ويضيف إلى ذلك قوله : « لست أكتب هذا لجمهور الناس ، بل أكتبه إليك ، فحسبى وحسبك

أن يستمع كل منا للآخر Satis magnum alteri theatrum sumus» (٣١)، وإن كان السياسي الشيخ يربو بلا ريب أن يسترى الناس هذا الحديث . وهو يصف ربوة وصفاً رائعاً وإن كان لا يرثى فيه لنفسه ، ويسمى هذا المرض تسمية مرحة ظريفة فيقول إنه « التدويب على الموت » بأخذ « أنفاس أخيرة » متقطعة تدوم كل منها ساعة . وكان وقتئذ في السابعة والستين من العمر ولكنه لم يبلغها إلا بجسمه ، أما « عقلى فقوى يقظ ، يجادلنى فى موضوع الشيخوخة ، ويظهر بأنها فترة ازدهاره » (٣٢) . وهو يتهيج إذ وافته الفرصة آخر الأمر لقراءة الكتب القيمة التى اضطرت إلى إغفلها زمناً طويلاً . ويلوح أنه فى ذلك الوقت قد عاد إلى قراءة كتب أبيقور ، لأنه ينقل عنها فقرات كثيرة وينقلها بحماسة تزداد بأمثاله من الرواقين ، ويستولى عليه الرعب حين يشهد تطرف كالجولاء ، ونرون . وآلاف غيرهما من الرومان فى نزعتهم الفردية وفى الجرى وراء شهواتهم ؛ يريد أن يجد وسيلة يقاوم بها المغريات التى تحيط بمن يتحرر عقله قبل أن ينضج خلقه ، ويبدو أنه أخذ على نفسه أن يرد على الأبيقوريين ويفهمهم بأقوال نطق بها زعيمهم الذى دنسوا اسمه بأعمالهم ، والذى لا يجروئون على فهم تعاليمه .

وأول درس يلقيه على الناس فى الفلسفة هو أننا لا نستطيع أن نكون عقلاء حكماء فى كل شىء ، وأنا لسنا فى حقيقة أمرنا إلا قطعاً متناثرة فى الفضاء اللانهائى ، ولحظات قصيرة فى الأبدية ، وإن محاولة هذه الذرات المتشعبة أن تصف الكون ، أو الكائن الأعلى ، لعمل ترجيح منه الكواكب سخرية ومرحاً . ومن أجل هذا فإن سنكا لم يكن فى حاجة إلى الدين أو إلى علم ما وراء الطبيعة ؛ وفى وسع الإنسان أن يثبت من كتاباته أنه كان من الموحدين ، أو المشركين ، أو الكافرين ، أو الماديين ، أو الأفلاطونيين ، أو القائلين بوجوده الموجود ، أو ثنائته . وهو يرى فى بعض الأحيان أن الله قوة مدبرة شخصية ،

نهيمن على كل شيء ، « تحب الصالحين من الناس » (٣٣) ، وتستجيب إلى دعواتهم ، وتعينهم بلطفها الإلهي (٣٤) . ثم تراه في فقرات أخرى يقول إن الله هو العلة الأولى في سلسلة متصلة الحلقات من العلل والمعلولات ، وإن القوة النهائية هي القدر وهو علة لا ترد ولا تنقض ، تصرف شئون البشر والآلهة على السواء . . . تقود الطائعين وتجر الغاضبين » (٣٥) . وهذا التردد نفسه يطمس فكرته عن النفس البشرية ، فهي عنده نسمة مادية رقيقة تبعث الحياة في الجسد ولكنها أيضاً « إله يسكن » في الهيكل البشري « كما يسكن الضيف » عند مضيفه (٣٦) . وهو يتحدث حديث المرتجي عن حياة بعد الموت ، تكمل فيها المعرفة والفضيلة (٣٧) ؛ ويسمى الفساد الخلق كما سماه من قبل « حلماً جميلاً » (٣٨) . وحقيقة الأمر أن سنكا لم يفكر في هذه المسائل تفكيراً يصل به إلى نتيجة متسقة (أو عامة) ، بل هو يتحدث عنها حديث السياسي المذبذب الذي يوافق الناس جميعاً . ذلك أنه عمل بدروس أبيه الخطابية فنجح فيما كان يبغيه نجاحاً فوق ما يجب ، واستطاع أن يعبر عن جميع الآراء المتناقضة بعبارات بليغة لا يستطيع القارئ أن يقاوم أثرها في نفسه .

وهذا التردد عينه يفسد فلسفته ويحملها معاً ، فهو مسرف في روايته إلى حد يجعل فلسفته غير عملية ، وهو لين إلى حد لا يستطيع معه أن يكون رواقياً حقيقياً ، وهو يرى من حوله فساداً خلقياً ينهك الجسم ويؤذي بالنفس ، ولا يرضى هذا أو ذاك ؛ ويرى أن الشره والترف قد قضيا على الطمأنينة والصحة ، وأن كل ما أفاده الإنسان من القوة أن صار وحشاً أقدر على الأذى من سائر الوحوش فهل من سبيل إلى نجاة الإنسان من هذا الاضطراب الشائن المذلل ؟

لقد قرأت اليوم قوله أبيقور : « إذا شئت أن تستمتع بالحرية الحققة ، وجب عليك أن تكون عبداً للفلسفة » ، ذلك أن الرجل الذي يخضع لها يتحرر لساعته . . إن الجسم إذا شئ من مرضه مرة كثيراً ما يفتابه المرض مرة أخرى . .

أما العقل ، فإذا شفى ، فلن يعود إليه الممرض أبداً ، وسأحدثكم عما أعنيه بالصحة : إن الصحة في رأي أن يكون عقل الإنسان راضياً واثقاً ، يدرك أن الأشياء التي يسعى إليها الناس جميعاً ، وكل الفوائد التي يعملون لها أو ينالونها ، لا أثر لها في الحياة السعيدة ... وسأدلكم على قاعدة تقيسون بها أنفسكم وتحولكم من حال إلى حال ! إنكم تصلون إلى ما تبغونه لأنفسكم في ذلك اليوم الذي تدركون فيه أن الناجحين هم أكثر الناس شقاء^(٤٠) .

« والفلسفة هي علم الحكمة ، والحكمة هي فن العيش ، والسعادة هي الغرض الذي نبتغيه ، ولكن الطريق إليها هو الفضيلة لا اللذة . والحكم القديمة التي يهزأ بها الناس صحيحة صادقة تثبت التجارب صدقها في كل يوم . وسوف ننال آخر الأمر بالشرف ، والعدالة ، والحلم ، والرفاه ، قدرأ من السعادة أكثر مما ننال بالجرى وراء اللذة . وما من شك في أن اللذة طيبة مستحبة ، ولكنها لا تكون كذلك إلا إذا اتفقت مع الفضيلة ؛ وليس في المقدور الرجل العاقل أن يتخذها هدفاً له ، ومثل الذين يجعلونها غرضهم في الحياة كمثل الكلب الذي يختطف كل قطعة من اللحم تلقى إليه ، ويبتلعها كلها ، وهو بعدئذ لا يستمتع بها ، بل يقف فاغراً فاه يتلهف على قطعة أخرى^(٤١) .

ولكن كيف يحصل الإنسان على الحكمة ؟ إن السبيل إلى ذلك أن تمارسها كل يوم بقدر مهما يكن ضئيلاً ، وأن تمتحن سلوكك في آخر كل يوم ، وأن تكون قاسياً على أغلاطك ليناً على أغلاط غيرك ، وأن تصاحب من هم أعظم منك حكمة وفضيلة ، وأن تتخذ لنفسك رجلاً لا تراه عينك مشهوداً له بالحكمة ليكون لك ناصحاً وقاضياً تحتكم إليه في شئونك ، ويساعدك على الوصول إليه أن تقرأ كتب الفلاسفة ، ولست أقصد بهذه الكتب قصص الفلسفة الموجزة ، بل أقصد بها مؤلفات الفلاسفة أنفسهم ، « ولا ترجُ قط أنك ستستطيع في يوم من الأيام أن تحصل على زبد حكمة النابهين من الرجال بقراءة خلاصات موجزة لهذه

« الحكمة » (٤٣) ، « إنك ستغادر كل واحد منهم أسعد مما كنت وأشد رغبة في حكمته ، ولن يتركك واحد منهم تفارقه صفر اليدين ... ألا ما أعظم تلك السعادة ، وما أنبل تلك الشيخوخة اللتين تنتظران ذلك الرجل الذى يحتفى بهما ويتخذهم سادة له وأنصاراً ! » (٤٤) . اقرأ الكتب الطيبة مراراً ، فذلك خير لك من قراءة الكتب الكثيرة ؛ وسافر سفرأ بطيئاً ، ولا تسرف في الأسفار ، لأن « الروح لا تنضج وحدتها إلا إذا كبحت جماع تشوفها وتجوأها » (٤٥) . وأولى سمات العقل المنظم أن يكون صاحبه قادراً على أن يبقى في مكان واحد ، وأن يطيل المكث مع أصدقائه (٤٦) . وإياك والجموع الكبيرة فإن « الناس وهم يجتمعون أخبث منهم وهم فرادى ، فإذا اضطرت أن تكون في حشد كبير ، فأنت أشد ما تكون في حاجة إلى الانطواء على نفسك » (٤٧) .

وآخر درس يتعلمه الرواقى هو احتقار الحياة وإيثار الموت . ذلك أن الحياة ليست على الدوام ممتعة إلى الحد الذى يجعلها جديرة بأن يطول أجلها ؛ ومن الخير للإنسان بعد جمى الحياة ونوباتها أن ينام ليستريح . « وهل ثمة شىء أخط من أن يضطرب الإنسان ويغضب وهو على عتبة السلام ؟ » (٤٨) . وإذا وجد الإنسان الحياة محزنة ، واستطاع أن يغادرها دون أن يضر ذلك ضرراً بليغاً بغيره من الناس ، فعليه أن يشعر بأن من حقه أن يختار الوقت الذى يغادرها فيه والطريقة التى يغادرها بها . ويحبذ سنكا للوسيليوس الانتحار كأنه سيكون هو وريثه فيقول :-

« من الأسباب التى لا يستطيع الإنسان معها أن يتدمر من الحياة أنها لا تستبقيه فيها رغم إرادته ... كم من مرة قطع لك وريد ليقل بذلك وزنك ! وإذا ما طعنت نفسك في قلبك فإنك لن تكون في حاجة إلى جرح واسع حتى تموت ؛ وإن مشروطاً يشق لك الطريق إلى الحرية ، وفى وسعك أن تشتري راحتك بوحزة إبرة ... » (٤٩) . وحيثما أدركت بصرك وجدت الوسيلة التى تقضى بها

على متاعبك . فهل ترى هذه الربوة الشديدة الانحدار ؟ إنها تهبط بك إلى الحرية ؟ أو هل ترى هذا النهر أو ذاك الحوض أو ذلك البحر ؟ — إن الحرية في أعماقها (٥٠) ... ولكنني نحدث فأطلت الحديث ، وكيف يستطيع الإنسان أن يختم حياته إذا لم يكن في وسعه أن يختم رسالة يكتبها ؟ (٥١) ... أما أنا يا عزيزي لوسليوس فقد بلغت أرذل العمر ، وقد عشت كفايتي ، وها أنا ذا في انتظار الموت . وداعاً أيها الصديق » (٥٢)

واستجابت الأقدار لدعائه ، فقد أرسل إليه نيرون تربيونا يستجوبه فيما اتهم به من أنه يتآمر على جعل پيزو إمبراطوراً ، فأجاب الرسول بأنه لم يعد يهتم بالسياسة ، وأنه لا يشاء غير السلام ، وأن تتاح له الفرصة للعناية « ببنيته المتهمة الضعيفة » . ويقول التربيون : « إنه لم تظهر عليه أعراض الخوف أو أمارات الحزن ... وإن أقواله ونظراته كانت تم عن عقل هادئ قويم ثابت » . وقال نيرون للتربيون : « عد إليه وقل له أن يموت » ويقول تاستس إن « سنكا تلقى النبأ بهدوء واطمئنان » ، ثم عائق زوجته ، وطلب إليها أن تتخذ من حياته الشريفة النبيلة ومن دروس الفلسفة سبيلاً للسلوى والاطمئنان . ولكن پولينا أبت أن تعيش بعد مماته ، فلما أن فتحت أوردته ، أمرت هي الأخرى بفتح أوردتها ، ثم استدعى أحد أمناء سره وأملى عليه رسالة وداع للشعب الروماني . وطلب بعدئذ قدحاً من شراب السكران ، فجاء له به ، كأنه اعزم أن يموت ميتة سقراط . ولما أن وضعه الطبيب في حمام فاتر ليخفف به ألمه ، رش الماء على أقرب الخدم له وهو يقول : « هذا ماء ساكب لـجوف المنقلد » ثم فارق الحياة بعد آلام مريرة (٦٥) ، وأمر نيرون الطبيب بأن يربط معصمى پولينا على الرغم منها . ويمنع خزوج الدم من أوردتها ففعل ، وبذلك عاشت بعد زوجها بضع سنين ، ولكن امتقاع لونها الدائم كان يدل على عزمها القوى الثابت .

ورفع الموت من قدر سنكا وأسى جيلاً من الأجيال مواقفه وتذبذبه . وكان

ككل الرواقين يستخف بالسلطة ولا يقدر قوة الوجدان والعواطف حق قدرها ، ويغالى في قيمة العقل ويفرط في الاعتماد عليه ، ويثق فوق ما يجب بالطبيعة وهى منبت جميع أزاهير الشر والخير على السواء . ولكنه جعل الرواقية فلسفة بشرية وأنزلها من عليائها حتى أضحت فلسفة حياة فى تناول بنى الإنسان ومهد بها للمسيحية . ولقد كان تشاؤمه ، وتنديده بفساد الأخلاق فى أيامه ، ودعوته الناس أن يقابلوا الغضب بالحلم^(٥٤) ، وانشغاله بأمر الموت^(٥٥) ، كان كل هذا مما حمل توتليان Tertullian على أن يقول عنه إنه « منأ »^(٥٦) ، كما حمل أوغسطين على أن يقول فيه « ماذا يستطيع المسيحى الضمير أن يقول أكثر مما قاله هذا الوثنى ؟ »^(٥٧) . نعم إن سنكا لم يكن مسيحياً . ولكنه فى القليل طالب بالقضاء على القتل والسلب ، ودعا إلى الحياة البسيطة المهذبة ، وقلل ما كان هناك من فروق بين الرجل الحر والمحرز والرقيق حتى أضحت هذه الفروق لا تزيد على « الألقاب التى خلقتها المطامع أو الأخطاء »^(٥٨) . وكان الذى استفاد أكبر فائدة من تعاليم سنكا عبداً فى بلاط نيرون وهو إپكتنس . كذلك صاغت كتاباته نرفا Nerva وتراجان إلى حد ما ، وكانت أعماله مثالا يحتذى فى السياسة الإنسانية القائمة على الإخلاص وإرضاء الضمير . وقد ظل إلى آخر العهود القديمة كما ظل طوال العصور الوسطى محبباً للجاهل ، ولما حل عهد النهضة وضعه بترارك فى الموتبة الثانية بعد فرجيل ، وصاغ نثره على مثال نثر سنكا . وترجم صهر متانى كتاباته إلى اللغة الفرنسية ، وكان متانى نفسه يقتبس من أقواله كما يقتبس سنكا من أبيقور . وكان إمرسن يقرأ مؤلفاته مراراً وتكراراً^(٥٩) . حتى أضخى سنكا الأمريكين . نعم إن الإنسان قلما يجد فى أقوال سنكا أفكاراً جديدة مبتكرة ، ولكن هذا يغتفر له ، لأن كل الحقائق الفلسفية قديمة ، ولا شئ فيها مبتكر إلا الخطأ ، ولقد كان رغم أخطائه كلها أعظم الفلاسفة الرومان ، كما أنه كان فى كتبه على الأقل أرجحهم عقلاً وأرقهم قلباً ، وكان بعد شيشرون أحب المنافقين إلى القلوب فى التاريخ كله .

الفصل الخامس

علوم الرومان

لقد أطلنا الكلام فيه أكثر مما يجب ؛ ولكننا مع ذلك لم نفرغ منه بعد ، فقد كان عالماً طبيعياً أيضاً . ذلك أنه أخذ يسلي نفسه في السنين الخصيبة الواقعة بين اعتزاله شئون الحكم وموته بالتفكير في المسائل الطبيعية كالبحث عن تفسير للمطر ، والبرد ، والثلج ، والرياح ، والمذنبات ، وأقواس قزح والزلازل ، والأنهار ، والينابيع . وقد أشار في مسرحية ميديا Medea إلى وجود قارة أخرى على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي^(٦٠) . وبنفس هذه اللقائنة الطبيعية كتب وهو يتأمل ملايين النجوم في السماء : « كم من كرات تتحرك في أعماق الفضاء لم تصل بعد إلى عيون بني الإنسان »^(٦١) . ثم يضيف إلى هذا وكأنه قد كشف عن بصره الغطاء : « كم من أشياء سيتعلمها أبناؤنا ولا نستطيع الآن أن نتصورها في خيالنا ! — وكـم من أشياء ستظل مجهولة مئات السنين بعد أن تنسى أسماؤنا ! . . . ويدهش أبناؤنا من جهلنا »^(٦٢) ، ولقد صدق في قوله هذا ، فنحن يدهشنا جهله . ذلك أن سنكا رغم بلاغته لا يضيف شيئاً إلى ما قاله أرسطاطاليس وأراتس Aratus ، وهو يستعير الشيء الكثير من بوسيدونيوس Poseidonius . ويؤمن بأن في مقدور الإنسان أن يتنبأ بالغيب بالرغم من معارضة شيشرون لهذه العقيدة ، ويتورط في بيان العلال النهائية للمعلولات مخالفاً بذلك عقيدة لكريشوس ، وكثيراً ما يقطع أقواله العلمية بما يصفه فيها من وصايا أخلاقية ، فهو ينتقل بحذق عظيم من الكلام على بلع البحر إلى الكلام في الترف ، ومن المذنبات إلى أسباب الانحطاط . وكان آباء الكنيسة يحبون هذا الخلط بين الأجرام السماوية والأخلاق ، ولذلك جعلوا كتاب

المسائل الطبيعية أشهر كتاب علمي في العصور الوسطى .

وكان في رومة عدد قليل من الرجال ذوى النزعة العلمية والولع بالعلوم ، ومن هؤلاء فارو ، وأجرىا ، وبمپنيوس ميللا *Pomponius Mela* ، وسلسس *Celsus* ، ولكن علمهم لم يكن يتعدى نطاق تقويم البلدان ، وفلاحة البساتين ، والطب . أما فيما عدا هذا فلم يكن العلم الطبيعي قد انفصل بعد عن السحر ، والخرافات ، والدين ، والفلسفة ، وكان قوامه ما تجمع من المشاهدات والروايات ؛ وقلما كان يشمل بكوناً جديدة عن حقائق الأشياء ، وكانت التجارب فيه جد نادرة . وبقي الفلك حيث تركه البابليون واليونان ، فكان الوقت يقاس بالساعات المائية ، وبالمزاول ، وبالمسلة الكبرى التي اختلسها أغسطس من مصر وأقامها في ميدان المريخ ؛ وكان ظلها يقع على طوار نقشت عليه علامات من نحاس ، تدل على ساعات النهار وعلى فصول السنة (٦٣) . وكان النهار والليل يحددان بشروق الشمس وغروبها ، وينقسم كل منهما إلى اثنتى عشرة ساعة ، وبذلك كانت تطول ساعة النهار ، وتقصر ساعة الليل في فصل الصيف عنها في فصل الشتاء وكان التنجيم من المعتقدات الشائعة التي يكاد يؤمن بها كل إنسان . وفي هذا يقول بلني إن الناس كلهم في أيامه (٧٠ م) - السذج منهم والمتعلمون - يعتقدون أن مصير الإنسان يقرره النجم الذي يولد هو ساعة مطلعته (٦٤) . وكانوا يؤيدون هذه العقائد بحجج طليئة كقولهم إن نمو النبات ، مرده إلى الشمس (*) ، ولعل فصول الزواج عند الحيوانات مردها إليها كذلك . وإن خصائص الناس الجسمية والخلقية تتأثر بعوامل المناخ التي تتأثر هي أيضاً بالشمس ، وإن أخلاق الأفراد ومصائرهم لا تختلف عن هذه الظواهر العامة في أنها نتيجة لأحوال جوية لا نعرفها حق المعرفة . ولم يرفض أحد التنجيم إلا المتشككون أتباع الأقدمية المتأخرة الذين أنكروا ما يدعيه

(*) إن الكثيرين من الزراع في هذه الأيام ينظمون زرعهم حسب أوجه القمر

رجالها من علم ، والمسيحيون الذين سخرؤا منه وعدوه ضرباً من الوثنية . أما الجغرافية فكانت دراستها أكثر واقعية وكان الغرض منها أن يستعان بها على الملاحة . وقد نشر بومبونيوس ميلا *Pomponius Mela* (٤٣ م) خرائط قسم فيها سطح الأرض إلى منطقة حارة في الوسط ، ومنطقتين معتدلتين شمالية وجنوبية . وكان الجغرافيون الرومان يعرفون أوروبا وشمالي آسية الغربية ، وشماليها الشرقي ، أما سائر أجزاء العالم فكانت لديهم عنها أفكار غامضة ، وأقاصيص خرافية غريبة . وقد وصلت السفن الأسبانية والأفريقية الصغيرة إلى جزائر مديرة *Madeira* وقناريا أو الخالدات (Canary) (٦٥) غير أنه لم يبق في ذلك الوقت رجل مثل كولمبس ليحقق حلم سنكا .

وكان أوسع المنتجات العلمية الإيطالية . وأكثرها دلالة على الجهد ، وأبعدها عن العلم الصحيح ، كتاب التاريخ الطبيعي *Historia Naturalis* (٦٧) الذي وضعه كيوس بلينيوس سكندس *Caius Plinius Secundus* . وقد قضى كيوس حياته كلها تقريباً جندياً ، وعامياً ، ورحالة ، وحاكماً ، وقائداً للأسطول الروماني في غربي البحر المتوسط ، ولكنه رغم هذه المشاغل كلها ألف رسائل في الخطابة ، والنحو ، والحرب ، وكتب تاريخاً لرومة ، وتاريخاً . آخر لحروب رومة في ألمانيا ، وسبعة وثلاثين « كتاباً » في التاريخ الطبيعي هي كل ما بقي من هذا الفيض العظيم من المؤلفات . أما كيف استطاع أن يفعل هذا كله في خمس وثلاثين سنة فيفسره خطاب كتبه ابن أخيه يقول فيه :

لقد كان سريع الفهم ، متحمساً حماسة لا تكاد يصدقها العقل ، وله قدرة على ترك النوم منقطعة النظر . كان يستيقظ من نومه في منتصف الليل أو في الساعة الواحدة صباحاً . ولم يحدث قط أن ظل نائماً إلى ما بعد الساعة الثانية ، ثم يبدأ عمله الأدبي . . . وقبل أن يطلع النهار يمثل بين يدي فسبازيان ، وكان هو أيضاً يختار ذلك الوقت لتصريف شئون الدولة . فإذا انتهى من الأعمال التي عهد بها إليه الإمبراطور عاد إلى منزله وواصل الدرس . وكان يتناول في الظهيرة . . . وجبة خفيفة لا تستغرق إلا القليل من

الوقت ، فإذا كان الفصل صيفاً ... فإنه كثيراً ما يستريح قليلاً في الشمس ؛ ولكنه كان في أثناء ذلك يستمع إلى كتاب يقرأ له ، ويقتبس منه بعض عبارات ، ويكتب عنه بعض مذكرات ... وتلك كانت عادته في كل ما يقرأ . وكان بعد هذا يستحم عادة بالماء البارد ، ويتناول بعض المرطبات الخفيفة ، ويستريح قليلاً ، ثم يواصل الدرس حتى موعد العشاء ، كأنه يبدأ يوماً جديداً . وفي أثناء العشاء يقرأ له كتاب آخر يكتب عنه مذكرات ... تلك كانت خطته في الحياة وسط ضجيج المدينة وصخبها . أما في الريف فكان يقضي وقته كله في الدرس اللهم إلا حين كان يستحم فعلاً . وحتى في الوقت الذي كان يدلك فيه جسمه ويحفف كان يستمع فيه إلى كتاب يقرأ له أو يعلل هو شيئاً من عنده . وكان يرافقه في أسفاره على الدوام كاتب ملم بطريقة الاختزال يجلس معه في عربته أو في هودجه ... وقد لامني في يوم من الأيام على المشي وقال لي : « لم يكن لك أن تضع هذه الساعات » لأنه كان يرى أن كل وقت لا يصرف في الدرس وقت ضائع (٦٦) :

وكتابه هذا في جملته وتفصيله دائرة معارف كتبها رجل واحد ، وجمع فيها خلاصة علم زمانه وأخطائه . وفي ذلك يقول : « إن الغرض الذي أرمي إليه هو أن أعرض وصفاً عاماً لكل ما نعرف أنه موجود على سطح الأرض » (٦٧) . فهو يبحث في عشرين ألف موضوع ويعتذر عما تركه من الموضوعات الأخرى ، ويشير في هذا الكتاب إلى ألفي مجلد كتبها ٤٧٣ مؤلفاً ، ويعترف بدينه إلى من رجع إليهم من الكتاب ويذكر أسماءهم جميعاً بصراحة لا نظير لها في الأدب القديم ، ويشير عرضاً إلى أنه وجد أن كثيراً من المؤلفين نقلوا أقوال من سبقوهم بنصها دون أن يعترفوا بهذا النقل . أما أسلوب الكتاب فثقيل ممل وإن كان منسقاً في بعض المواضع ؛ ولكننا ليس من حقنا أن نتظن أن تكون دوائر المعارف جذابة الأسلوب ساحرته .

ويبدأ بلنى بالكفر بالآلهة ، ويظن أنها لا تعدو أن تكون ظواهر طبيعية ، أو كواكب سيارة ، أو خدمات جسدت وألهمت : والإله الأوحده فى رأيه هو الطبيعة ، أى مجموع القوى التى فى الكون ، ويلوح أن هذا الإله لا يعنى عناية خاصة بالشئون الدنيوية (٦٨) . ويرفض بلنى فى تواضع أن يقيس الكون ، وليس ما يورده من معلومات فلكية إلا خليطاً من السخافات والمستحيلات (كقوله « إن الشمس فى أيام الحرب التى شبت بين أكثافيان وأنطونيوس ظلت قائمة ما يقرب من عام كامل » (٦٩)) ، ولكنه يشير إلى الشفق القطبى ويقدر الزمن الذى يستغرقه كل من المريخ ، والمشتري ، وزحل فى دورته بسنتين واثنتى عشرة سنة وثلاثين سنة على التعاقب ، ويورد بعض البراهين على كرية الأرض (٧١) . ويحدثنا عن جزائر خرجت من قاع البحر الأبيض المتوسط فى أيامه ، ويظن أن ضقلية وإيطاليا ، وبوشيا وعربية ، وقبرص وسوريا قد انفصلت كل واحدة من الثانية بفعل مياه البحر على مدى الأحقاب الطوال (٧٢) . ويتحدث عن أعمال التعدين الشاقة المذلة ويذكر فى ألم وحسرة أن « كثيراً من الأيدي تبلى لكى يزين مفصل صغير » (٧٣) ، ويتمنى أن لو كان الناس لم يعثروا على الحديد ، لأنه جعل الحرب أشد هولاً مما كانت عليه قبل أن يعثروا عليه ، « كأننا أردنا أن نعجل بموت الناس ، فجعلنا للحديد أجنحة وعلمناه الطيران » (٧٤) - وهو يشير بقوله هذا إلى القذائف الحديدية التى تجهز بريش من الجلد يساعدنا على الاحتفاظ بخط سيرها . ويذكر كما يذكر ثيوفراستس Theophrastus تحت اسم انتراسيت Anthracitis « حجراً يحترق » (٧٥) ، ولكنه لا يذكر عن الفحم شيئاً غير هذا . ويشير إلى نوع من « الكتان لا يحترق » يطلق عليه اليونان اسم أزبستون Asbestinon « ويستخدم فى تحنيط جثث الملوك » ، ويصف كثيراً من الحيوانات ويورد قوائم بأسماء حيوانات أخرى ، ويمتدح ذكاءها ، ويذكر الطريقة التى يستطيع بها التحكم فى نسلها ، فنجعلها ذكوراً

طبقاً لإرادتنا : « فإذا أردت أن تكون صبغارها إنثاءً فلتول الأم وجهها نحو الشمال في أثناء الوثب » (٧٦) . وله اثنا عشر كتاباً عجباً في الطب ، أى في القيمة العلاجية لمختلف المعادن والنباتات ، فالكتب المرقومة من ٢٠ إلى ٢٥ كلها في النباتات الرومانية ، التي انتقلت من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة ، وأضحت بداية المعلومات النباتية في الطب الحديث . وعنده علاج لكل شيء من السكر والبخر إلى « آلام العنق » (٧٨) . ويصف بعض منبهات الغريزة الجنسية (٧٩) . ويحذر النساء من العطس بعد الجماع خشية أن يجهضن لساعتين ، قبل أن يقمن من مقامهن (٨٠) . ويصف الجماع علاجاً للتعب ، وبحة الصوت ، وآلام الحقيوين ، وضعف البصر ، والاكتئاب ، « واختلال القوى العقلية » (٨١) .

وقصارى القول أن في هذا الكتاب دواء لكل داء ، وأنه من هذه الناحية يضارع ما قاله الأسقف بركلى في فوائد ماء القطران ، ولكننا نجد وسط هذا الهراء كثيراً من المعلومات النافعة وخاصة ما كان منها متصلاً بالصناعات القديمة والأخلاق والعقاقير ، وفيه إشارات طريفة لعقيدة التأصل في الوراثة Atavism (*) وإلى الزيت المعدنى ، وإلى تغير الشخص بعد مولده من ذكر إلى أنثى أو العكس .

ويحدثنا مسيانوس Muscianus أنه رأى في أرجوس Argos يوماً من الأيام شخصاً كان يسمى وقتئذ أرسكون Arescon ، ولكنه كان يسمى قبل أرسكوزا Arescusa ، وأن هذا الشخص تزوج من قبل برجل ، ولكنه لم يلبث أن نبت له لحية ، وبعض خصائص الذكور الأخرى ، وأنه اتخذ لنفسه بعدئذ زوجة (٨٢) . ونجد في مواضع متفرقة من الكتاب بعض إشارات قيمة . من ذلك أن هلمى Hilmy (١٨٠٠) حين قرأ في كتاب بلنى فقرة (٨٣) عن استخدام عصير اللين (Anagalis) قبل عملية الكثركتا (إظلام العين) (٨٤) حمله ذلك على أن يبحث عن مفعول

(*) ويقصد بها الوراثة التي تتخطى بعض طبقات وتظهر فيها بعدها أو العودة إلى الجد الأكبر وتسمى أحياناً « الرجعة » . (المترجم)

نباتى السكران *Jusquiamus* ، و « ست الحسن » *Belladonna* فى إنسان العين . وفى الكتاب أيضاً فصول قيمة عن التصوير والنحت تعد أقدم وأهم ما وصل إلينا من وصف الفن القديم .

ولم يقنع بلنى بدراسة التاريخ الطبيعى ، بل أراد بعد ذلك أن يكون فيلسوفاً ، ولذلك تراه ينثر فى جميع صحف كتابه معلومات عن الآدميين . ويرى أن حياة الحيوان أفضل من حياة الإنسان لأنها « لا تفكر قط فى المجد أو المال أو المطامع أو الموت »^(٨٥) ، ولأن فى وسعها أن تتعلم دون حاجة إلى معلم ، وأنها لا تضطر إلى ارتداء الملابس ، ولا تشن الحرب على أبناء جنسها . وهو يقول إن اختراع النقود كان ضربة قاضية على سعادة بنى الإنسان ، فهى التى أوجدت الربا ، وبه استطاع بعض الناس أن يعيشوا من كد غيرهم ، دون أن يقوموا بعمل ما^(٨٧) . وكانت نتيجة ذلك أن وجدت الضياع الراسعة التى يمتلكها الكبراء الغائبون عنها ، وأن حلت المراعى محل الزراعة ، فجر ذلك على الأهلىن الخراب والدمار . ويقول بلنى إن الحياة تجلب للإنسان من الحزن والألم أكثر مما تجلبه من السعادة ، وإن الموت هو النعمة الكبرى^(٨٨) ، وأن ليس شىء قط وراء الموت .

وكتاب التاريخ الطبيعى أثر خالد لجهل الرومان ، ففيه يجمع بلنى الخرافات والتنبؤات ، ورقى الحب ، والعلاج بالسحر ، ويجد فى جمعها كجده فى غيرها من المعلومات . ويلوح أنه يؤمن بمعظمها ، فهو يظن مثلاً أن فى مقدور الإنسان - وخاصة إذا كان صائماً - أن يقتل الأفعى إذا بصق فى فمها^(٨٩) . ومن المعروف جيداً أن إناث الخيل تحمل فى لوزتانيا *Lusitania* بفعل ربح الشمال^(٩٠) . وهى مسألة غفل عنها شلى *Shelley* فى أغنيته ويندد بلنى بالسحر ولكنه يقول لنا إنه « إذا أقبلت المرأة الخائض حمض عصير العنب وفسدت البذور التى تلمسها فلا تنبت ، وسقطت الثمار من الشجرة

التي تجلس تحتها ، وإذا نظرت إلى الصليب تثلم حده ، وإلى العاج ذهب لمعانه وصقله ؛ وإذا سقطت على ثول من النحل مات من فوره» (٩٢) . وهو لا يؤمن بالتنجيم ولكنه يملأ صفحات من كتابه بالحوادث « المنيرة » المستمدة من مظاهر الشمس والقمر (٩٣) . كقوله : « حدث في عهد قنصلية م. أسيليوس M. Acilius وفي عهود أخرى كثيرة أن أمطرت السماء لبناً ودماً » (٩٤) ، وإذا ما ذكرنا أن هذا الكتاب هو وكتاب المسائل لسنكا أهم ما خلفه الرومان للعصور الوسطى من علم التاريخ الطبيعي ، ثم فاضلنا بينهما وبين ما يمثلهما من كتب أرسطو وثيوفراستس وبين عقلية هذين الرجلين وقد عاشا قبل عهد بلني وسنكا بأربعمائة عام ، إذا ما فعلنا ذلك بدأنا نشعر بالمأساة المروعة مأساة موت الثقافة موتاً بطيئاً . لقد فتح الرومان العالم اليوناني ، ولكنهم خسروا قبل فتحه أثمن تراث هذا العالم .

الفصل السادس

الطب عند الرومان

أما في الطب فكانوا خيراً منهم في التاريخ الطبيعى . فلقد أخذوا علم الطب أيضاً عن اليونان ، ولكنهم أحسنوا صياغته ، وتنظيمه ، وطبقوه على الصحة العامة والخاصة . لقد كانت رومة تحيط بها من جميع جهاتها تقريباً منافع واسعة ، وكانت معرضة للفيضانات الوبائية ، فكانت لذلك فى أشد الحاجة إلى العناية بالصحة العامة ، فنحن نسمع أن الملاريا كانت منتشرة فى رومة فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأن بعوضة الأنوفيل كانت فى ذلك الوقت مستقرة فى منافع بنتين Pontine (٩٥) . وانتشر داء النقرس بانتشار الثرف ، وفى ذلك يحدثنا بلنى الأصغر أن صديقه كورليوس روفس Corellius Rufus ظل يعانى آلامه من السنة الثالثة والثلاثين إلى السابعة والستين قبل أن ينتحر بعد أن استمتع بلذة البقاء حياً يوماً واحداً بعد موت « ذلك اللص دومتيان » (٩٦) : وتدل بعض الفقرات فى كتابات المهاجرين الرومان على ظهور الزهري فى القرن الأول بعد الميلاد (٩٧) . واجتاحت الأوبئة الفتاكة إيطاليا الوسطى فى عام ٢٣ ق . م وفى أعوام ٦٥ ، ٧٩ ، ١٦٦ ميلادية .

وكان الناس من أقدم الأزمنة يحاولون التغلب على المرض والطاعون بالسحر والصلوات ، وحتى فى الوقت الذى نتحدث عنه طلبوا إلى قسبازيان المتشكك اللين الجانب أن يداوى عمهم ببصاقه ، وعرجهم بمس قدمه (٩٨) . وكانوا يحملون مرضاهم وقرايبتهم إلى هيكلى إيسكليبوس Aesculapius ومنيرفا ، وكان الكثيرون منهم يتركون فيهما الهدايا شكراً على نعمة الشفاء . فلما أن حصل القرن الأول قبل الميلاد أخذت عنايتهم بالطب الديوى تزداد شيئاً فشيئاً . ولم تكن الدولة فى ذلك الوقت

قد وضعت نظاماً لممارسة مهنة الطب ، فكان الخذاثون ، والحلاقون ،
والنجارون يمارسونها مع مهنتهم الأصلية إذا شاءوا ، ويستعينون بالسحر ،
ويخلطون عقاقيرهم بأنفسهم ويبيعونها للناس^(٩١) . ولم تخل تلك الأيام من
التقريع والشكاوى المألوفة . وقد كرر بلني تنديده بأطباء اليونان الذين
« يغرون زوجاتنا ، ويجمعون الثروات الطائلة بتسميمنا ويتعلمون بتعدينا
ويتدربون بقتلنا »^(٩٢) . واشترك بترونيوس ، ومارتيال ، وجوفثال في
هذا الهجوم العنيف ، وبعد قرن من ذلك الوقت نرى لوسيان يندد بعجز
من يمارسون مهنة الطب ، والذين يتخفون هذا العجز بحال أجهزتهم
وأدواتهم^(٩٣) .

وفتحت في عهد فسبازيان مستشفيات Auditoria لتعليم الطب يتولى التعلم
فيها أساتذة تعترف بهم الدولة وتؤدى إليهم راتبهم ، وكانت اللغة اليونانية
لغة التعليم في هذه المعاهد كما أن اللغة اللاتينية هي اللغة التي تكتب بها تذاكر
الدواء هذه الأيام ، وللسبب عينه — وهو أن اللغة اليونانية كانت وقتئذ
اللغة التي يفهمها أصحاب اللغات المختلفة . وكان يطلق على خريجي هذه
المعاهد اسم أطباء الجمهورية ، وكانوا هم وحدهم الذين يستطيعون ممارسة
صناعة الطب بصفة قانونية في رومة بعد عهد فسبازيان^(٩٤) . ونص في
قانون أكويليا Les Aquilia على أن تشرف الدولة على الأطباء ، كما نص
فيه على وجوب تحملهم تبعة إهمالهم . وكان قانون كرنليا Les Cornelia
يفرض أشد العقوبات على من يتسببون في موت المرضى بسبب إهمالهم
أو خطئهم الناشئ من جهلهم بأعمالهم^(٩٥) . ومع هذا فإن الدجالين
ظلوا يمارسون دجلهم ، ولكن عدد الأطباء المتعلمين ظل يزداد شيئاً فشيئاً .
وكانت كثرة الرومان ممن أخرجتهم القابلات إلى هذا العالم ، ولكن هاته
النسوة كن مدربات على عملهن أحسن تدريب^(٩٦) . وقد وصل الطب
العسكري في عام ١٠٠ م إلى أرقى ما وصل إليه في الزمن القديم : فكان
في كل فيلق أربعة وعشرون جراحاً ، كما كان له هيئة للإسعاف الأولى

ونقلات ميدان منظمة أحسن تنظيم ، وكان بالقرب من كل معسكر هام مستشفى عسكري^(١٠٦) . وافتتح الأطباء مستشفيات خاصة ، Valetudinaria ، كانت هي التي تطورت منها المستشفيات العامة في العصور الوسطى . وكانت الدولة تعين الأطباء لمعالجة الفقراء مجاناً وتؤدى لهم أجورهم^(١٠٧) ، أما الأغنياء فكان لهم أطباؤهم الخصوصيون وكان «رؤساء المداوين Archiarti» يعنون بالإمبراطور وأسرته ، وخدمه وأعوانه ، وتؤدى لهم على ذلك أجر طيبة . وكانت بعض الأسر تتعاقد أحياناً مع بعض الأطباء على أن يعنوا بصحتها ويداؤوها من أمراضها مدة معينة ، وكان كونتس استرنيوس يكسب بهذه الطريقة ٦٠٠.٠٠٠ سنترس في العام^(١٠٨) . وأدى الجراح الكون Alcon الغرامة التي فرضها عليه كلوديوس ومقدارها ١٠.٠٠٠.٠٠٠ سنترس من أجوره في بضع سنين^(١٠٩) .

وبلغت مهنة الطب في ذلك الوقت درجة عظيمة من التخصص ، فكان في البلاد إخصائيون في المجارى البولية ، وفي أمراض النساء ، وكان فيها أطباء مولدون وأطباء رمديون ، وإخصائيون في أمراض العين والأذن ، وأطباء بيطريون . وجراحو أسنان . وكان في وسع الرومان أن تكون لهم أسنان صناعية من ذهب ، وأسنان مرتبطة بأسلاك ، وكبارى وأسنان ذات قشرة^(١١٠) ذهبية . وكان لديهم عدد كبير من الطيبات ، وقد كتبت الكثيرات منهن كتباً في الإجهاض كانت واسعة الانتشار بين سيدات الطبقات الراقية وبين العاهرات . وكان الجراحون يتخصصون في فروع الجراحة المختلفة وكلما كان يوجد جراح غير متخصص في فرع خاص . وكان عصير البروح(*) (المندراغورا) والأنروين يستعملان في التخدير^(١١١) ، وقد وجدت في خرائب بمبي أكثر من مائتي أداة جراحية مختلفة . وكان تشريح جثث الآدميين عملاً غير مشروع ولكنهم كانوا يستعيضون عن ذلك بالفحص عن أجسام المجالدين المحروحين أو المحتضرين .

(*) جنس من النباتات الباذنجانية في العالم القديم . (المترجم)

وكان العلاج بمياه العيون واسع الانتشار وكانت العيون الحارة الكبرى معاهد للعلاج والاستشفاء . وقد جمع شارميس Charmis المرسيلي ثروة طائلة بإدارة حمامات باردة . وكان المصابون بالسل يرسلون إلى مصر أو شمالي إفريقيا . وكان الكبريت يستخدم لعلاج الأمراض الجلدية ولتبخير الحجرات بعد انتشار الأمراض المعدية (١١٢) . وكانت العقاقير آخر ما يلجأ إليه الناس من وسائل العلاج ، ولكنهم كانوا يلجأون إليها في كثير من الحالات ، وكان الأطباء يصنعونها بأنفسهم بطرق يحتفظون بسريتها ولا يطلعون الجماهير عليها ، ويبيعونها بأعلى الأثمان التي يطبقها المرضى (١١٣) . وكانت العقاقير الكريهة ذات منزلة كبيرة ، فكانت فضلات العظاية تستخدم مسهلات ، وكانت أحشاء الآدميين توصف أحياناً ؛ وقد وصف أنطونيوس موسى براز الكلاب لعلاج مرض الذبحة ، واستخدم جالينوس براز الغلمان لعلاج أورام الحلق (١١٤) . وفي مقابل هذه الأدوية الكريهة عرض أحد الدجالين المرحين أن يداوى بالخمير كل داء تقريباً (١١٥) .

وليس بين الكتاب المعروفين في علم الطب في ذلك العهد كاتب من أصل روماني إلا واحداً فقط ، وحتى هذا الكاتب لم يكن طبيباً . لقد كان أورليوس كرنيليوس سلسس Aurelius Cornelius Celsus من أبناء الأشراف ، جمع حوالى عام ٥٠ م في دائرة معارف كل ما درسه عن الزراعة ، والحرب ، والخطابة ، والقانون ، والفلسفة ، والطب . وقد ضاع كل ما كتبه إلا القسم الخاص بالطب ، ويعد كتابه في هذا العلم أعظم مؤلف فيه وصل إلينا من القرون الستة المحصورة بين أبقرات وجالينوس ، ويمتاز فوق هذا بأنه كتب بلغة لاتينية فصحي نقية لقب سلسس من أجلها بـ *سيسرونو الطب* . ولقد ظلت الأسماء اللاتينية التي ترجم بها المصطلحات الطبية اليونانية تسيطر على علم الطب من ذلك الوقت إلى أيامنا هذه . ويدل الكتاب السادس من كتبه على علم بالأمراض السرية يعد في ذلك العهد القديم علماً واسعاً غزيراً . ويصف الكتاب السابع في جلاء ووضوح بعض

الجراحات ، ويحتوى أقدم وصف معروف للأربطة ، ويصف عملية قطع اللوز ، واستخراج حصاة المثانة بشق الجنب ، وجراحة الترقيع ، وعمليات إظلام عدسة العين (الكثاركتا) . وهذا الكتاب فى مجموعه هو خير ما ألف فى الآداب العلمية الرومانية ، وإنه ليوحى إلينا بأنه لو لم يبق الدهر على كتاب بلنى لكان تقديرنا للعلوم عند الرومان أعلى منه فى الوقت الحاضر ومما يؤسف له أن العلماء قد أجمعوا على أن كتاب سلسس ليس فى أكثر أجزائه إلا جمعاً أو شرحاً للنصوص اليونانية القديمة (١١٦) . وقد فقد هذا الكتاب فى العصور الوسطى ، ثم عثر عليه مرة أخرى فى القرن الخامس عشر ، وأعيد طبعه قبل أن يطبع كتاب أبقرات أو جالينوس ، وكان له شأن فيما شأن فى إحياء علم الطب فى العصر الحديث .

الفصل السابع

كونتليان

لما أنشأ قسهازيان كرسيا رسميا للبلاغة في رومة عين في هذا المنصب رجلا من أصل أسباني ، وكان كثير من المؤلفين في العصر الفضي من أبناء تلك البلاد . وقد ولد ماركس فايوس كونتليانس Marcus Fabius Quintilianus في كلاجوريس Calagurris (عام ٥٣ ؟ م) ثم رحل إلى رومة ليدرس فن الخطابة وافتتح مدرسة لتدريس البلاغة كان من بين طلابها تاستس وبلني الأصغر . ويصفه جوفنال بأنه كان في أيام شبابه وسيما ، نبیلا ، حكیما ، حسن التربية ، ذا صوت رخيم ، ولقاء جميل ، ومهابة كمهابة أعضاء مجلس الشيوخ . وآثر العزلة في شيخوخته ليكتب كتاباً يرشد فيه ولده إلى الطريقة المثلى لمعالجة فن الخطابة ، واسم هذا الكتاب Institutio Oratoria^(٩٦) » ظننت أن هذا الكتاب سوف يكون أثمن ما يرثه ولدي ، وقد أظهر من الكفاية النادرة العجيبة ما أوجب على أبيه أن يحرص الحرص كله على تثقيفه . . . وقد واصلت الليل بالنهار سعياً وراء هذه الغاية ، وعجلت بإتمامها خشية أن ينصرم أجلى فيحول الموت بيني وبين إتمام هذا الواجب . ثم حلت بي الكارثة فجأة فأضحى نجاحي في عملي لا يهم إنساناً آخر أقل مما يهمني أنا نفسي . . . ذلك أني فقدت من كان معقد آمالي ومن كنت أرجو أن يكون سلوة لي في شيخوختي^(١١٧) . »

وكانت زوجته قد توفيت في سن التاسعة عشرة ، وخلفت ولدين ، توفي أحدهما في سن الخامسة » وكأنني قد فقدت بفقده إحدى عيني » ، والآن يختطف الموت ولده الثاني ويترك المعلم الشيخ » يعاني ألم فراق أقرب الناس إليه وأعزهم عليه . »

وهو يعرف البلاغة بأنها العلم الذى يؤدى إلى حسن الكلام ، ويقول إن تدريب الخطيب يجب أن يبدأ قبل مولده ، إذ يحسن أن يولد لأبوين متعلمين ، حتى يتنفس الكلام الصحيح والأخلاق الطيبة من الهواء الذى يستنشقه ، ذلك أنه من المستحيل أن يصبح الإنسان متعلماً ومهذباً معاً فى جيل واحد . ويجب على من يريد أن يكون خطيباً أن يدرس الموسيقى ، حتى يستطيع تمييز الأصوات المتناسقة المتناغمة ؛ كما يجب عليه أن يتعلم الرقص ليكتسب الرشاقة والاتزان ، والتمثيل لكى يبعث الحياة فى خطبه بما يبثه فيها من حركات اليدين والجسم ؛ والألعاب الرياضية ليستطيع الاحتفاظ بصحته وقوته ؛ والأدب ليصلح به أسلوبه ويدرب به ذاكرته ، ويمده بكنز من الآراء العظيمة ؛ والعلوم لكى يدرك بها أسرار الطبيعة ؛ والفلسفة لكى يصوغ نفسه حسبما يمليه عليه العقل ونصائح الحكماء . وذلك لأن كل إعداد سيذهب أدراج الرياح إذا خلا من استقامة الخلق وسمو الروح وهما اللذان لاغنى عنهما لوجود الإخلاص فى الحديث ، وهو قوة لا يمكن قط أن تقاوم . وعلى الطالب بعد ذلك أن يكتب أكثر ما يستطيع وأن يبذل فى كتابته أقصى ما فى وسعه من العناية . ويقول كوفتليان : إن هذا تدريب شاق « ويقينى أن أحداً من قرائى لن يفكر قط فى احتساب قيمته المالية (١١٨) » .

وللخطابة فى رأيه خمسة أوجه : التفكير ، والتنظيم ، والأسلوب ، والذاكرة ، والإلقاء . فإذا ما اختار الخطيب موضوعه ، وحدد غرضه بوضوح ، وجب عليه بعدئذ أن يجمع مادته بالمشاهدة والبحث ، ومن الكتب ؛ فإذا تم له ذلك وجب عليه أن ينظمه تنظيماً منطقياً ونفسانياً حتى يكون كل جزء منه فى موضعه الصحيح مؤدياً إلى ما يعبده أداء طبيعياً كأنه جزء من برهان نظرية هندسية (١١٩) . وكل خطبة حسنة التنظيم تتألف من مقدمة (exordium) ، وقضية ، وبرهان ، ودحض ، وختام ؛ ويجب ألا تكتب الخطبة كلها إلا إذا

أريد حفظها بأجمعها عن ظهر قلب ، أما حفظ بعض الأجزاء المكتوبة دون البعض الآخر فإنه يفسد الأسلوب الارتجالي ويعوقه ، وإذا كتبت الخطبة فلتكتب بعناية « فإذا أسرعت في الكتابة ، فإنك لن تحسنها أبداً ، وإذا أحسنت الكتابة فلنك لن تلبث أن تكتب بسرعة » ؛ تجنب « ترف الإملاء الذي أخذ ينتشر بين الكتاب في هذه الأيام » (١٢٠) ، والذي يدل على التهاون والكسل ، « والوضوح ألزم الأشياء للخطب ، ثم يليه الإيجاز والجمال والقوة . وعليك أن تصحح أخطاءك المرة بعد المرة ولا تبال بما يصيبك في هذا من عنت .

« وليس المحو بأقل أهمية من الكتابة ، امح كل ما لا ضرورة له ، واسم بكل ما هو عادي ورتب ما تراه مضطرباً ، واجعل العبارات متزنة إذا ما وجدتها خشنة غير رقيقة ، وخففها إذا وجدتها دسمة أكثر مما يجب .. ، وخير طريقة للإصلاح أن يغفل الإنسان ما كتبه بعض الوقت ، حتى إذا عاد إليه بعدئذ بدا عليه مظهر الجدة ، كأنه من عمل إنسان آخر ؛ وبهذه الطريقة لا يكلف الإنسان بكتابته كلفه بطفله الحديث الولادة (١٢١) .

ويجب أن يضرب الإلقاء والكتابة على أوتار العواطف والقلوب ، ولكن عليك ألا تسرف في الحركات والإشارات ، لأننا « لا نكون بلغاء إلا بالوجدان وقوة الخيال » . أما إذا « صرخت ، وخسرت ، ورفعت يدك ، ولهت ، وهززت رأسك ، وصفقت بيديك ، وضربت فخذك وصدرك وجهتك ، فإنك ستهوى من فورك إلى قلوب أخط من يستمعون إليك (١٢٢) » .

ويضيف كونتليان في كتابه الثاني عشر إلى هذه النصائح القيمة خير نقد أدبي بقى لدينا من أيام الأقدمين ، فهو يدل بدلوه ، وهو أشد ما يكون حماسة ، في ذلك الصراع القديم والحديث بين القدامى والمحدثين ، ويجد الحقيقة تتأرجح في الوسط بين هؤلاء وهؤلاء ؛ وهو لا يرغب كما يرغب فرنطو Franto في أن يعود إلى البساطة والحيثونة اللتين ينادى بهما كاتو وإنيوس ؛

ولكنه أقل من ذلك رغبة في أن يحرفه أسلوب سنكا « الفخم المتكلف » ، ويرى أن يكون المثل الذى يجب على طالب البلاغة أن يحتذيه هو أسلوب شيشرون في خطبه القوية المهذبة ، ويقول : إن شيشرون هو الكاتب الرومانى الوحيد الذى فاق اليونان في مجال الخطابة (١٢٣) . أما أسلوب كوتليان نفسه فهو في كثير من المواضع أسلوب المدرس ، تخنقه التعاريف ، والتصانيف ، وتحديد الفروق ، ولا يرقى إلى مستوى عال من البلاغة إلا حين يطعن على سنكا : ولكنه مع ذلك أسلوب قوى يخفف من جلاله حيناً بعد حين قليل من الفكاهة ومن العطف على الإنسانية ، ويحس الإنسان على الدوام أن وراء معنى الألفاظ الجميل طيبة الرجل الهادئة ، وإن قراءته لحافز قوى إلى الخلق الطيب الكريم . ولعل الرومان الذين أسعدهم الحظ بالاستماع له قد أخذوا عنه بعض ذلك التجديد الخلقى الذى سما بعصر بلنى الأصغر وتأسس أكثر مما سما به الأدب الرفيع .

الفصل الثامن

استاتيوس ومارتيال

لقد استبقينا إلى آخر هذا الباب شاعرين عاشا في وقت واحد ، وسعيا للحظوة لدى إمبراطور واحد وأنصار بعينهم ، ومع ذلك فكلاهما لا يذكر اسم الآخر : وكان أحدهما أعف شاعر في تاريخ روما الإمبراطورية كما كان الآخر أفحش شاعر فيه . فأما أولهما فهو بيليوس پاپنيوس استاتيوس Publius Papinius Statius وهو ابن شاعر ونحوى من مدينة نابلى . وقد هيات له بيئته وتربيته كل شىء يطمع فيه عدا المال والعبقرية : فكان يعانى قرص الشعر ، ويفاجئ الذنوات بما يرتجله منه ، وكتب منه ملحمة تدعى الطيبية Thebaid في حرب السبع المدن ضد طيبة . ولسنا نستطيع قراءتها في هذه الأيام لأن أبياتها تزدهم بأسماء الآلهة الموتى ، ولأن الإنسان لا يطيق ما لأشعارها السلسلة من قدرة على التخدير ؛ ولكن معاصريه كانوا يغرمون بها ، وكانت المجموع تهرع لتستمع إليه وهو ينشد في أحد ملاهى مدينة نابلى ؛ وكانوا يفهمون ما تحتويه من أساطير ويعجبون برقة إحساساته ، ويجدون أشعاره تجرى سهلة على ألسنتهم ، وقد منحه المحكمون في مباريات الشعر في أولبان الجائزة الأولى ، وكان الأثرياء يخطبون وده ويعينونه على التخلص من فقره (١٢٤) ، ودعاه دومتيان Domitian نفسه في قبة فلافيا Flavia وجاهاه استاتيوس على فعله هذا بأن شبه القصر بالجنة والإمبراطور بالإله .

ووجه استاتيوس أطف قصائده وأبعثها للسرور إلى دومتيان وغيره من نصرائه . وكانت هذه القصيدة وهى قصيدة سلفا Silva تشتمل على طائفة من المدح ومن أناشيد الرعاة في شعر خفيف ظريف في الدرجة الوسطى من الجودة . على أنه لم يكسب الجائزة الأولى في مباريات الكهتولين بل نالها

شاعر آخر . وأخذ نجمه في الأفول في رومة المنقلبة ، فما كان منه إلا أن أقنع زوجته بمغادرة المدينة والعودة معه إلى البلد الذي قضى فيه أحداثه . وفي نابل شرع يكتب ملحمة أخرى هي الأخيلىة Achelleid ولكن المنية فاجأته في عام ٩٦ فتوفى ولما يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره . ولم يكن استاتيوس شاعراً عظيماً ولكنه كان يضرب على نغمة من الرأفة والحنان محبة إلى النفوس في وسط أدب كثير ما تغلب عليه السخرية والحقد المرير ، وفي مجتمع بلغ من الفساد والفحش درجة لم يكن لها من قبل مثيل ، ولو أنه بلغ من الدناءة ما بلغه مارتيا لكان خليقاً بأن ينال ما ناله من الشهرة .

وولد ماركس فليريوس مارتيا لاس في بلبليس من أعمال أسبانيا في السنة الأربعين بعد الميلاد ، ولما بلغ الرابعة والعشرين من عمره جاء إلى رومة وعقد أواصر الصداقة مع لوكاس وسنكا ، وأشار عليه كونتايان أن يتخذ المحاماة وسيلته للثراء ، ولكنه فضل عليها الشعر مع الإملاق . وأطاحت مؤامرة بيزا فجاءه بأصدقائه فاضطر إلى توجيه قصائده للموسرين الذين يستطيعون أن يطعموه إذا قال لهم نكتة شعرية . وكان يسكن في علية في الطابق الثالث ، وأكثر الظن أنه كان يعيش فيها وحيداً ؛ نقول هذا لأنه وإن كان يوجه قصيدتين من قصائده لامرأة يقول عنها إنها زوجته فإن ما في القصيدتين من فحش لا يترك مجالاً للشك في أن هذه المرأة إما أن تكون اختراعاً من عنده وإما أن تكون قوادة (١٣٦) .

وهو يخبرنا بأن قصائده كانت تقرأ في جميع أنحاء أوروبا لا يستثنى منها القوط أنفسهم . وهو يغتبط إذ يعلم أنه اشتهر فيها شهرة جواد السباق ، ولكنه كان يؤلمه أن يرى الناشر الذي يبيع كتبه يجمع الثروة الطائلة ، وأنه هو لا يجني منها شيئاً . وأشار مرة في إحدى قصائده إلى أنه في أشد الحاجة إلى جبة رومانية ، فلما أرسلها إليه پارثينوس الثرى معشوق الإمبراطور رد عليه بمقطوعتين مدح في إحداها جودة الجبة وندد في الثانية بحمارتها ورخص ثمنها . على أنه عثر بعد

قليل على نصراء أكرم من پارثنیوس وأكثر منه سخاء أهلى إليه أحدهم ضیعة صغيرة فى نومنتم Nomentum ، واستطاع بطريقة ما أن یجمع مالا یكفى لشراء منزل بسیط على تل الكورینال Quirinal . وصار من ذلك الوقت یضع نفسه تحت رعاية عظیم بعد عظیم ، یقوم بخدمتهم فى الصباح ، ویلقى منهم الهدایا فى بعض الأحيان ؛ لكنه ما لبث أن أحس بحطة منزلته هذه ، وأخذ یتحسر لأنه لم یوث من الشجاعة ما یجعله یقنع بفقره فیحرر نفسه من ذل التبعية (١٢٧) . غیر أنه لم یكن فى وسعه أن یعیش فقیراً لأنه كان مضطراً إلى الاختلاط بمن یتطیعون أن یکافئوه على شعره فأخذ یبعث لدومتیان بالقصيدة تلو القصيدة یمدحه فیها یمجده ، ویقول إنه لو دعاه جوبتر ودومتیان إلى الطعام فى یوم واحد لرفض دعوة الإله وأجاب دعوة دومتیان ؛ ولكن الإمبراطور كان یفضل علیه استانیوس فدبت الغيرة من الشاعر الشاب فى قلب مارتیال ، وقال فى إحدى قصائده : إن نكتة حية أغلى قيمة من ملحمة میتة (١٢٨) .

وكانت القصائد الموجزة ذات النكت مما یقال فى كل موضوع سواء كان إهداء ، أو تحية ، أو قبریة ، ولكن مارتیال هذبها فجعلها أقصر وأعظم حدة مما كانت ، وأضاف إليها الكثير من الهجاء اللاذع . ولما لنظامه إذا قرأنا قصائده ذات النكت البالغ عددها ١٥١٦ قصيدة فى جلسات قليلة ، فلقد صدرت هذه القصائد فى اثنى عشر کتاباً فى أوقات مختلفة ، ولم یكن ینتظر من القارئ أن یلتهمها كما یلتهم طعام الولیمة ، بل كان ینتظر منه أن یتناول المشهیات قبل الطعام . ویبدو الكثير منها غثاً تافهاً فى هذه الأيام ، ذلك أن ما فیها كان خاصاً بهذین الزمان والمكان ، فكان لذلك قصیر الأجل غیر جدير بالبقاء . ولم یكن مارتیال نفسه یقدرها كثيراً ، ولم یكن یجادل فى أن الغث منها یزید على الثین ، ولكنه كان مرغماً على أن یملأها مجلداً فى إثر مجلد (١٢٩) . وهو رجل قادر على قرض الشعر ، عارف یجمع أوزانه ویجمع ما یتطلبه من حیل وأساليب ، ولكنه یتعجب

منون الخطابة ويفخر بهذا كما يفخر به برونوبوس الشريف الذي كان مقامه في النثر يضارع مقام مارتيا في الشعر . ولم يكن يعنى أقل عناية بالأساطير التي كانت تغص بها آداب تلك الأيام ، بل كان أكبر همه رجال ذلك العهد ونساؤه وحياتهم الخاصة ، وهو يصف هذه الحياة وصفاً يئم عن ضغن ومسرة . ويقول في إحدى قصائده « إن صفحاى تطالعك بالرجال » (١٣٠) ، ولقد كان في وسعه أن « يتناول » أحد الأشراف الفظاظ ، أو الأثرياء البخلاء ، أو المحامين المزهوين ، أو الخطباء المشهورين . لكن أكثر من يحب التحدث عنهم هم الحلاقون والأساكفة ، والبائعون الجوالون ، ومدربو الخيول ، واللاعبون على الحبال ، والدلالون ، وناقعو السم ، والمفسدون والعاهرات ، وليست المناظر التي يضعها مأخوذة من بلاد اليونان القديمة بل يستمدّها من الحمامات ، ودور التمثيل ، والشوارع ، والملاعب ومنازل رومة ، ومساكن فقرائها ، وقصارى القول أنه شاعر السفلة والرعاع .

وهو يعنى بالمال أكثر مما يعنى بالحب ، وإذا فكر في الحب فإن أكثر ما يفكر فيه هو حب الرجال للرجال ، أو النساء للنساء . على أن شعره لا يخلو من العاطفة ، وهو يحدثنا في إحدى قصائده حديثاً ملوّه الخنو والأسى على ابن صديق له عاجلته المنية ؛ ولكن كتبه كلها لا يوجد فيها بيت واحد يئم عن المروءة والشهامة ، أو عن الغضب الشريف . وهو يرتل قصائده ترتيلاً تفوح منه أخبث الروائح ويقول عنها « إننى أفضل هذه الروائح الكريهة على قصائلك كلها يا بسا Bassa » (١٣١) . ويصف إحدى خليلاته بقوله :

« إن ضفائرك يا جلا Galla قد صنعت في مكان بعيد وإنك لتخلعين أسنانك في الليل كما تخلعين أثوابك الحريرية ، وأنت ترقدين مختزنة في مائة برميل ، ولكن وجهك لا ينام معك ؛ وتغميزين بحاجب جىء به إليك

فى الصباح وقد تجردت من كل احترام لجيفتك البالية التى تستطيعين أن تعدىها لقدمها جيفة جدة من جداتك .

وهو يتحدث فى حقد غير خلىق بالرجال عن النساء اللاتى أبين أن يخضعن له ، ويلقى عليهن نكاته القذرة كما يلقي الكناس الأقدار . ويوجه أغانيه الغزلية للغلمان ، وتملكه النشوة من عبر « قبلاتك أيها الغلام » (١٣٣) .

وقد قلد أحد شعراء الإنجليز إحدى قصائده التى قال فيها :

لا أحبك يا سيديوس ، ولست أعرف لذلك سبباً ؛

وكل ما أستطيع أن أقوله أنى أبغضك أشد بغض .

والحق أن الذين لا يحبهم مارتياك كثيرون ويصفهم بعد أن يطلق عليهم أسماء مستعارة لا تخفى حقيقتهم وبألفاظ لا يجد الإنسان لها مثيلاً إلا على جدران مراحيض الموانئ (١٣٥) . ولست تجده إلا هاجياً لأعدائه كما لا تجد استانيوس إلا مادحاً أصدقاءه . وقد أراد بعض ضحاياه أن ينتقموا لأنفسهم منه فنشروا بلمضائه قصائد أشد قذارة من قصائده الحقيقية ، أو هاجوا باسمه بعض من كان مارتياك يحرص على إرضائهم . وفى وسع الإنسان أن يؤلف من هذه النكات الشعرية التى أوفت على الغاية من الناحية الفنية معجماً كاملاً يحوى أفنر ما فى اللغة من ألفاظ .

غير أن فى مقدور الإنسان أن يعفو بعض الشيء عن بذاءة مارتياك ، فهو يشترك فيها مع خلق عصره ، ولا يشك فى أن فتيات الأسر الراقية يسرن أن يقرأنها فى عرائش قصورهن . « واستحت لكريشا وعلت وجهها حمرة الخجل وألقت بكتابى ، وكان بروتس حاضراً فابتعد عنها يا بروتس ؛ إنها ستقروء » (١٣٦) ذلك أن ما كان يطلقه هذا العصر للشعر من حرية مفرطة يسمح بكل ضروب البذاءة على شريطة أن تكون الأوزان والألفاظ صحيحة . بل إن مارتياك ليفخر بفجوره أحياناً فيقول فى أحد كتبه « لا تخلو صحيفة من صحفى من الفجور » (١٣٧) . لكنه فى أكثر الأحيان

يستحي قليلا من فجوره ، ويطلب إلينا أن نعتقد أن حياته أطهر من شعره ،
ومل آخر الأمر اتباع الطعام والشراب بالمديح والهجاء ، وتاقت
نفسه الى حياة أهدأ من حياته السابقة وأطهر منها ، وحن إلى موطنه في
أسبانيا . وكان وقتئذ قد بلغ السابعة والخمسين من عمره ، وسرى الشيب
في شعر رأسه ، وأطال لحيته ، واستمرت بشرته ، حتى ليستطيع أى إنسان —
على حد قوله — بمجرد النظر إليه أن يدرك أنه ولد بالقرب من نهر
التاجة Tagus . وأرسل طاقة شعرية إلى بلنى الأصغر فأرسل له هذا بدلا
منها مبلغاً من المال يكفى نفقات سفره إلى بلبليرس . ورحبت به تلك البلدة
الصغيرة ، وعفت عن سوء أخلاقه بسبب ما نال من الشهرة . ووجد
نصرأ ومعينين لم يبلغوا من الثراء مبلغ من كانوا يناصرونه في رومة
ولكنهم كانوا أندى منهم يداً . وأهدت إليه سيدة رحيمة بيتاً ريفياً متواضعاً
ذا حديقة قصى فيه ما كان باقياً له من سنين قليلة . وفي عام ١٠١ كتب
بلنى يقول : « لقد سمعت توأ بموت مارتياى ، وقد أحزننى النبأ وأقضى
مضجعى ، فلقد كان مارتياى ذا فكاهة قوية لاذعة ، يمزج في شعره الملح
بالشهد ، وأظهر ما يمتاز به هو الصراحة » (١٣٨) . وإذا كان بلنى قد أحب
هذا الرجل فلا بد أن كانت فيه فضيلة خافية على سائر الناس .

الباب الخامس عشر

رومة العاملة

١٤ - ٩٦ م

الفصل الأول

الزراع

في العصر الفضي ظهر المرجع الروماني الهام في الزراعة وهو كتاب يونيوس كلوملا Junius Columella المسمى De Re Rustica ومؤلفه من أصل أسباني فهو من هذه الناحية شبيه بكونتليان ومارتيال وآل سنكا . وكان يستغل عدة ضياع في إيطاليا ثم اتخذ مسكنه بعدئذ في رومة . ذلك أنه وجد أن أحسن الأراضي قد شيدت عليها البيوت ذات الحدائق وسويت لتكون مسارح للأثرياء ، وأن التي تليها في الجودة قد غرست فيها بساتين الزيتون والكروم ، ولم يبق للزراعة إلا أردأ الأراضي . ومن أقواله في هذا : « لقد وكلنا حرث أراضينا لأحط العبيد ، وهم يقومون بعملهم قيام الهمج » . وكان يرى أن أحرار إيطاليا يتدهورون في المدن على حين أنه كان في مقدورهم أن يقزوا أجسامهم وأخلاقهم بالعمل في الأرض ، « فنحن نعمل في الملاعب ودور التمثيل ولا نعمل بين المزارع والكروم » . وكان كلوملا يحب الأرض ويحس بأن فلحها أعود على الناس من ثقافة المدن ، ويقول في ذلك إن « الزراعة من أخوات الحكمة » . وكان يغري الناس بالعودة إلى الحقول بتجميل موضوعاته بالألفاظ اللاتينية المصطنعة . وإذا تحدث عن الحدائق والأزهار بلغت حماسته الشعرية غايتها .

وتلك هي الفترة التي نطق فيها بلنى العالم الطبيعي بقبرية لم يكن موعدها قد حان : « إن الضياع الكبيرة قد خربت إيطاليا » ، وذلك حكم أصدره غيره من الكتاب وهم سنكا ، ولوكان ، وپترونوس ، ومارتيال ، وجوفنال . فقد وصف سنكا مسارح الأنعام التي كانت أوسع رقعة من الممالك يزرعها عبيد مصفلون في الأغلال . ويقول كالوملا إن بعض الضياع قد بلغت من السعة حداً يستحيل معه على مالكيها أن يطوفوا حولها راكبين^(١) . ويحدثنا بلنى عن ضيعة يعمل فيها ٤١١٧ من العبيد ، و ٧٢٠٠ ثور ، و ١٠٠٠ ر٢٥٧ من الحيوانات الأخرى^(٢) . نعم إن ما عمله ابنا جراكس ، وقبصر ، وأغسطس من توزيع الأراضي على الرومان قد زاد عدد صغار الملاك ، ولكن معظم هؤلاء تركوا أملاكهم في أثناء الحروب التي قامت بعدئذ وابتاعها الأغنياء ، ولما أن قلت الإدارة الإمبراطورية من أعمال السلب والنهب في الأقاليم ابتاع الأشراف بأموالهم ضياعاً كبيرة . وكان سبب انتشار المراعى والضياع الواسعة أن تربية الماشية وزراعة أشجار الزيتون والكروم كانت أكثر ربحاً من زراعة الحبوب والخضر ، وأن أصحابها قد تبنوا أن المراعى إذا أريد أن تستغل على خير وجه وجب أن تكون متسعة المساحة موحدة الإدارة . فلما أشرف القرن الأول بعد الميلاد على الانتهاء كانت هذه المزايا قد أخذت في الزوال بسبب ما حدث من الزيادة في تكاليف العبيد ، ومن النقص في إنتاجهم ، ومن ضعف قدرتهم على الابتكار^(٣) . وقد بدأ في هذه الأثناء الانتقال الطويل الأجل من استخدام العبيد إلى استخدام أقنان الأرض . وكان سبب ذلك أن السلام قلل من استرقاق أسرى الحروب ، فعمد بعض ملاك الضياع الواسعة إلى تقسيمها أقساماً صغيرة لا يستخدمون في فليحها العبيد بل يؤجرونها إلى زراع أحرار يؤدون لهم في نظير ذلك مالا وعملا . وكان معظم « الأراضي العامة » التي تملكها الحكومة تستغل وقتئذ بهذه الطريقة ، كما كانت تستغل بها أيضاً الأراضي الواسعة التي يمتلكها بلنى الأصغر الذي يصف

مستأجره بأنهم فلاحون أصحاء ، أقوياء ، طيبو القلوب ، ثرثارون ، وهو وصف ينطبق كل الانطباق على الفلاحين الإيطاليين في هذه الأيام ، فقد بقوا على حافهم رغم ما حل بالبلاد من أحداث وما طرأ عليها من تغيير . وكانت أساليب الزراعة وأدواتها لا تختلف اختلافاً جوهرياً عما كانت عليه منذ قرون ؛ فقد احتفظ المحراث ، والمحرفة ، والمعزقة ، والفأس ، والمذراة ، والمنجل بصورتها التي كانت عليها في تلك الأيام ، ولم تكد تتغير في شيء . وكانت الحبوب تطحن في طواحين تديرها المياه أو الحيوانات . وكانت المضخات اللولبية والسواقي ترفع الماء من العيون أو الأنهار إلى قنوات الري . وكانوا يحتفظون بخصب التربة باتباع الدورة الزراعية ، واستخدام المحصبات والنباتات التي تقيد الأرض كالصفصصة والبرسيم والشيلم والفلو^(٤) . وكانوا يتفنون في انتخاب البذور ، وكان في وسعهم بعنايتهم وحذقهم أن يجنوا ثلاثة محاصيل أو أربعة في بعض الأحيان من حقول كمپانيا ووادي الهو الخصب الغنية^(٥) . وكان في مقدورهم أن يحصلوا من زرة واحدة من الصفصصة على أربعة محاصيل أو ستة في كل عام لمدة عشرة أعوام^(٦) . وكانوا يزرعون كل الخضر الأوربية المعروفة عدا أندرها ، وكانوا يزرعون بعضها في البيوت الزجاجية ليتجروا فيها أثناء الشتاء . وكانت أشجار الفاكهة والنقل على اختلاف أنواعها كثيرة ، لأن القواد والتجار الإيطاليين ، والتجار الأجانب ، والأرقاء حملوا معهم إلى إيطاليا الكثير من أصنافها ، فجاءوا بأشجار الخوخ من بلاد الفرس ، والمشمش من أرمينية ، والكرز من كراسس في إقليم بنّس (ومنها اشتق اسم هذه الفاكهة) ، والكرم من سوريا ، والبرقوق من دمشق ، والخوخ والبندق من آسية الصغرى ، والجوز من بلاد اليونان ، والزيتون والتين من أفريقية . . . واستطاع المهرة من زراع الأشجار أن يطعموا شجر القطلب (الأريوطس) بأغصان شجر الجوز ، وشجر الدلب بأغصان الخوخ ، وشجر اللردار بأغصان الكرز . ويذكر بلني تسعة وعشرين نوعاً

من شجر التبين كانت تزرع في إيطاليا^(٧) ، ويقول كالوملا : « لقد عرفت إيطاليا بفضل عناية زراعتها كيف تنتج فاكهة العالم كله تقريباً »^(٨) . ثم نقلت هذه الفنون إلى غربي أوروبا وشمالها . وجملة القول أن ألوان الطعام الكثيرة التي نأكلها قد تجمعت من رقعة واسعة من الأرض ، وأن لها من وراثتها تاريخ طويل . وقد يكون هذا الطعام جزءاً من التراث الذي ورثناه من بلاد الشرق أو بلاد اليونان والرومان الأقدمين .

وكانت بساتين الزيتون كثيرة العدد ، أما الكروم فلم يكن يخلو منها مكان ، وكانت تدرج لها سفوح الجبال فتبدو ذات روعة وجمال . وكانت إيطاليا تخرج خمسين نوعاً من أنواع النبيذ المشهورة ، وكانت رومة وحدها تحتسى منها خمسة وعشرين مليون جالون في كل عام ، أى بمعدل نصف جالون لكل شخص من ساكنيها رجالهم ونسائهم وأطفالهم وعبيدهم كل أسبوع . وكان معظم النبيذ من إنتاج المنظمات الرأسمالية - أى بطريقة الإنتاج الكبير الذي تموله رومة^(٩) . وكان الكثير مما تنتجه يصدر إلى خارج البلاد لكي تذوق البلاد التي تشرب الجعة كألمانيا وغالة لذة النبيذ . وشرعت أسبانيا وأفريقية وغالة تزرع كرومها ، وأخذ زراع الكروم الإيطاليون يفقدون من البلاد التي يصدرن إليها نبيذهم أسبوعاً بعد أسبوع ، ويغمرون سوقهم المحلية بأكثر مما تطيقه من النبيذ في إحدى أزمات الإنتاج الوفير التي عانتها رومة في الزمن القديم . وحاول دومتيان أن يخفف من أثر هذه الحال السيئة ، وأن يعيد زراعة الحبوب إلى حالها الأولى ، فحرم غرس كروم جديدة في إيطاليا وأمر بأن تدمر نصف الكروم المزروعة في الولايات^(١٠) . وبأثارت هذه الأوامر عاصفة من الاحتجاج الشديد ، وعجزت الحكومة عن تنفيذها فكانت النتيجة أن نبيذ غالة وزيتون أسبانيا وأفريقية وبلاد الشرق أخذوا يطردون الغلات الإيطالية من أسواق البحر الأبيض المتوسط وبدأ من ذلك الوقت اضمحلال إيطاليا الاقتصادية .

وخصص جزء كبير من أراضي شبه جزيرة إيطاليا للمراعى ، فكانت الأرض غير الموفورة الخصب ، وكان العبيد ذوو الأجور الرخيصة يستخدمان لتربية الماشية والضأن والخنازير ، وكانوا يعنون بتربيتها على الطريقة العلمية . وكانت الخيل تربي في الغالب للأغراض الحربية ، وللصيد وألعاب الفروسية ، وقلما كانت تستخدم لجر المركبات ، وكانت الثيران تجر المحاريث والعربات ، والبغال تحمل الأثقال على ظهورها ، وكانت البقر والغنم والماعز تمد الأهليين بثلاثة أنواع من اللبن يصنع منه الإيطاليون وقتئذ كما يصنعون منه في هذه الأيام أصناف الجبن اللذيذة . وكانت الخنازير تربي في الغابات الغنية بالجوز وثمار البلوط . ويقول استرابون إن إيطاليا كانت تعيش في الغالب على لحم الخنازير التي تربي في غابات البلوط الكثيرة في شمالي إيطاليا . وكان الدجاج يمد المزارع بالسماد المخصب والأسر الإيطالية بالطعام اللذيذ ، كما كان النحل يمد الأهليين بالشهد الذي كان منذ القدم يستعمل بدل السكر . وإذا أضفنا إلى ما سبق بعض مساحات من الكتان والتيل ، وقليلاً من صيد الحيوان ، وكثيراً من صيد السمك ، تكونت لدينا الصورة التي كان عليها الريف الإيطالي منذ ألف وتسعمائة عام والتي لا يزال محتفظاً بها إلى اليوم .

الفصل الثاني

الصناعة

م يكن في الحياة الرومانية - ولعله لا يصح أن يكون فيها إذا صبحت الأحوال الاقتصادية - فرق جغرافي بين الزراعة والصناعة مثل ما بينهما من فرق في هذه الأيام . ذلك أن الموطن الريفي القديم - سواء أكان كوخاً أم بيتاً صغيراً ذا حديقته أم بيتاً كبيراً في ضيعة - كان مصنعاً يدوياً بالمعنى الحرفي لهذا اللفظ يعمل فيه الرجال بأيديهم في صناعات هامة متعددة لا غنى لهم عنها ، بينما تملأ النساء البيت وما يحاوره بما لا يحصى من منتجات الفنون والصناعات . فهناك تستحيل الغابات ملاجئاً ويتخذ منها الوقود والأثاث ، وتذبح الماشية وينتفع بحلودها ولحومها ، وتطحن الحبوب وتخبز ، وتعصر الزيوت والخمور ، ويعد الطعام ويحفظ ، وينظف الصوف والتيل وينسجان ، ويجزق الطين في بعض الأحيان وتضع منه الآنية والآجر والقرميد ، وتطرق المعادن وتصنع منها الأدوات . والحياة في الريف مليئة بالعمل الملهذ المثقف المختلف الأنواع الذي لا يستمتع به إلا القليلون منا في عصرنا الحاضر عصر الحركة الواسعة والتخصص الضيق . ولم يكن تعدد الصناعات في المنزل الواحد دليلاً على أن الحال الاقتصادية في الريف فقيرة وبداية ، فقد كانت أكثر البيوت ثراء أكثرها اعتماداً على نفسها واكتفاء بمنتجاتها ، وكان أهلها يفخرون بأنهم ينتجون معظم ما هم في حاجة إليه . وكانت الأسرة في تلك الأيام منظمة من وحدات اقتصادية متعاونة متحدة الجهود في الأعمال الزراعية والصناعية التي تقوم بها في منزلها . ولما أن تعهد صانع ما بالقيام بعمل لعدة أسبوعه وأقام لنفسه جانواً وموضع يسهل على هذه الأسر جميعها أن تصل إليه ، لا يعمل هذا أحد الاقتصاد القرية

يُكَمَّل ما ينقص من اقتصاد الأسرة ، ولكنه لم يحل محله . مثال ذلك ان الطحان أخذ يحمل الحبوب من عدة حقول ويطحنها لأصحابها ؛ ثم أخذ بعدئذ يصنع لها الخبز ، وقام آخر الأمر بتوزيعه . وقد عثر في أنقاض عُمِّي على أربعين مخبزاً ، وكان لصناع الفطائر في رومة نقابة خاصة بهم . كذلك كان هناك متعاقدون يشترون محصول الزيتون على شجره ويجمعونه فيما بعد^(١١) . على أن معظم الضياع ظلت تجمع زيتونها وتصنع خبزها بنفسها . وكانت ملابس الزراع والفلاسفة تغزل في البيوت ، أما الأثرياء فكانت ثيابهم تغزل في البيوت كملابس الفقراء ولكنها كانت تمشط ، وتنظف ، وتبيض ، وتفصل في أماكن معدة لهذه الأغراض . وكانت بعض المنسوجات الصوفية الرفيعة تنسج في مصانع خاصة ، وكان الكتان الذي تصنع منها أشربة السفن أو شباك الصيد ينسج في المصانع قماشاً رقيقاً تتخذ منه ملابس للسيدات ومناديل للرجال^(١٢) . وكان النسيج في بعض الأحيان يرسل بعدئذ إلى صباغ لا يقتصر عمله على تلوينه بل كان يطبع عليه رسوماً جميلة كالتي نراها مطبوعة على الملابس المصورة على جدران عُمِّي ، وتطورت دباغة الجلود فأصبحت لها مصانع خاصة بها ، وإن بقيت صناعة الأحذية يقوم بها الأفراد فيصنعون منها ما يطلب إليهم صنعه . وكان فيهم إخصائيون لا يصنعون إلا (شباشب) النساء .

وكانت الصناعات التي تستخرج موادها الغفل من باطن الأرض يقوم بها كلها تقريباً العبيد والمجرمون ، وكانت مناجم الذهب والفضة في داشيا وغالة وأسبانيا ؛ ومناجم الرصاص والقصدير في أسبانيا وبريطانيا ، ومناجم النحاس في قبرص والبرتغال ، ومناجم الكبريت في صقلية ، والملح في إيطاليا ، والحديد في ألبا ، والرخام في لونا Luna وهيمتس Hymettus وباروس Paros ، والحجر السماقي في مصر ، كانت هذه كلها وغيرها من موارد الثروة التي تستخرج من باطن الأرض تمتلكها الدولة وتستغلها بنفسها أو تؤجرها لغيرها ، وكانت مصدراً

هاما من مصادر الإيراد القومى ؛ وحسبنا دليلا على أهميتها أن فسهازيان كان يحصل من مناجم الذهب فى أسبانيا وحدها على ما قيمته ٤٤٠.٠٠٠.٠٠٠ دولار فى كل عام^(١٣) . وكان البحث عن الثروة المعدنية من أهم أسباب الفتوح الاستعمارية ، ومن أقوال تاستس فى هذا المعنى أن ثروة بريطانيا المعدنية كانت « جزاء النصر » الذى ظفر به كلوديوس فى حروبه^(١٤) . وكان الخشب والفحم النباتى أهم أنواع الوقود ، وكان البترول معروفاً فى كمجنى Commagene وبابل وبارثيا^(١٥) ، وكان المدافعون عن ساموساتا Samosata يلقونه متقدماً فى مشاعل على جنود لوكلس ، ولكننا لم نغثر على شاهد يدل على أنه كان يستخدم وقوداً على نطاق تجارى^(*) . وقد عثر على الفحم الحجرى فى اليلوينز وفى شمالى إيطاليا ، ولكن أكثر من كانوا يستخدمونه هم الحدادون^(١٦) . وكانت صناعة كبريتة الحديد لتحويله إلى فولاذ قد انتشرت من مصر إلى كافة أنحاء الإمبراطورية . وكان معظم صناعات الحديد ، والنحاس والذهب ، والفضة ، يقومون بأعمالهم فى مصاهر خاصة يعملون فيها بمساعدة صبي أو صبيين . وفى كابوا ومنتورنى Menturnae وبتولى Puteoli وأكويلا Aquileia وكومو Como وغيرها من البلاد انضمت عدة أفران ومصاهر وتكونت منها مصانع كبيرة . ويلوح أن مصانع كابوا كانت مشروعات رأسمالية ذات إنتاج ضخم ، تعتمد على أموال تأتيا من خارجها .

وكانت صناعة البناء حسنة التنظيم عظيمه التخصص ، فكان « حاملو الأشجار » Dendrophoroi يقطعون الأشجار ويوردونها ، و« صناعات الخشب » fabri lignarii يصنعون الأثاث ، و« صانعو الأسمنت » Caementarii .

(*) كان من بين الأسلحة الحربية فى القرن الرابع سهم نارى ملؤه بالنفط الملتبب يطلق من قوس أو منجنيق ، ويقول عنه أميانس مرسلينيس Ammianus Marcellinus « إنه يحرق كل ما يقع عليه ، وإذا ألقى عليه ماء زاد ناره حرارة ، وما من سبيل إلى إطفائه إلا إذا رش عليه التراب » .

يخطونه ، و « المشيدون » Structres يضعون الأساس ، و « القباون » arcuarü يثبتون العقود ، و « مقيموا الجدران » parieutari يرفعون الحوائط ، و « الطلاسون » يطلونها بالجص ، والمبيضون albarü يطلونها بالجير ، وصانعو الأدوات الصحية Artifices plumbarü يصنعون أدواتها وهي في الغالب أنابيب من الرصاص (plumbum) ، وكان المبلطون marmorü يفرشون الأرض بالرخام ، وفي وسعنا أن نتصور ما تؤدي إليه هذه الأعمال كلها من نزاع . وكان الآجر والقرميد يأتيان من معامل الفخار ، وكان معظمها قد بلغ مرحلة المصانع الكبيرة ، وكان تراچان ، وهديان ، وماركس أورليوس يمتلكون عدداً منها ويخون منها أرباحاً طائلة (١٧) . وكانت قرائن أرتيوم Arretium ، وموتينا Mutina ، وبيتولي وسرنتم ، وبولنتيا Poilentiae تصنع أدوات الموائد العادية اللازمة لإيطاليا . ولجميع الولايات الأوربية والأفريقية . ولم تكن هذه المنتجات الكثيرة ذات صبغة فنية راقية ، بل كان أهم ما يعنى به أصحابها هو كثرة الإنتاج ، ولذلك كانت الأدوات الخزفية التي امتلأت بها أسواق إيطاليا أقل جودة من منتجات أرتيوم السالفة الذكر . وكانت هناك أدوات متقنة ذائعة الصيت تصنع من الزجاج ، وسنذكر شيئاً عنها فيما بعد .

وليس من حقنا أن نعزو إلى إيطاليا القديمة وجود رأسمالية صناعية مستندين إلى ما نجده فيها من مصانع للزجاج ، والآجر ، والقرميد ، والفخار ، والأدوات المعدنية . ذلك أن رومة نفسها لم يكن فيها إلا مصنعان كبيران أحدهما مصنع للورق والثاني مؤسسة للصبغة (١٨) ، وأكبر الظن أن المعادن والوقود لم يكن من اليسور الحصول عليها بكميات وفيرة ، وأن مكاسب السياسة كانت تبدو لأهل رومة أعظم شرفاً من أرباح الصناعة . أما في مصانع إيطاليا الوسطى فإن الصناع على بكرة أبيهم تقريباً وبعض المشرفين على المصانع كانوا من العبيد ، وفي مصانع شمالي إيطاليا كان عدد غير قليل من الصناع أحراراً ، وكان عدد العبيد

لا يزال كبيراً إلى الحد الذى يحول دون استخدام الآلات . ولم يكن من المنتظر أن يعتمد المهملون المتراخون الذين لا مصلحة لهم فى الإنتاج إلى الاختراع والابتكار ، بل لأنهم كانوا يرفضون بعض الوسائل التى توفر المجهود العضلى خشية أن تنتشر البطالة بين الصناع ، كما أن قدرة الشعب على الشراء كانت أضعف من أن تمول الإنتاج الكبير بالآلات ، أو تشجع عليه (١٩) . ولسنا ننكر أنه كانت هناك بعض الآلات البسيطة بطبيعة الحال فى إيطاليا ومصر والعالم اليونانى : كالمضاغط والمضخات اللولبية ، والآلات الرافعة للمياه ، ومطاحن الحبوب التى تجرها الحيوانات ، وعجلات الغزل ، والأنوال ، والروافع ، وعجلة الفخراى الدوارة . . . ولكن الحياة الإيطالية فى الوقت الذى نتحدث عنه (٩٦ م) لم يكن فيها من الحركة الصناعية إلا بقدر ما كان فى حياة الناس إلى ما قبل القرن التاسع عشر . ولم يكن مستطاعاً أن تزيد هذه الحياة على هذا القدر ما دامت قائمة على الرقيق وعلى تركيز الثروة أشد التركيز . يضاف إلى هذا أن القانون الرومانى لم يكن يشجع المذشآت الكبيرة لأنه كان يتطلب من كل شريك فى أى مشروع صناعى أن يكون شريكاً مسئولاً من الوجهة القانونية ، وكان يحرم قيام الشركات ذات « المسئولية المحددة » ، ولا يسمح بقيام الهيئات المساهمة إلا لأداء الأعمال الحكومية . ولما كانت هذه القيود وأمثالها تحد من نشاط المصارف ، فإنها قلما كانت تقدم رؤوس الأموال اللازمة لمشروعات الإنتاج الكبير ، ولم يكن فى وسع التطور الصناعى فى رومة أو إيطاليا أن يبلغ فى وقت من الأوقات ما بلغه فى الإسكندرية أو فى بلاد الشرق ذات الحضارة اليونانية .

الفصل الثالث

الجمالون

كانت المركبات ذات العجلات محرمة في رومة أثناء النهار من عهد قيصر إلى كومودس ؛ وكان الناس وقتئذ يمشون أو يحملهم العبيد في كراسي أو هودج ، أما المسافات الطويلة فكانوا يقطعونها على ظهور الخيل أو في مركبات تجرها البلياد ، وكان متوسط ما تقطعه المركبات العامة نحو ستين ميلاً في اليوم . وقد اجتاز قيصر مرة ثمانمائة ميل في ثمانية أيام ، واجتاز الرسل الذين حملوا إلى جلبا في أسبانيا نبأ وفاة نرون ٣٣٢ ميلاً في ست وثلاثين ساعة ؛ وقطع تيبيريوس في ثلاثة أيام واصل فيها السير راكباً ليلاً ونهاراً ستمائة ميل ليكون إلى جوار أخيه ساعة وفاته . وكان البريد العام الذي ينقل في العربات أو على ظهور الخيل في ساعات النهار والليل جميعها يسير بسرعة يبلغ متوسطها مائة ميل في اليوم . وكان أغسطس قد أنشأ على غرار نظام البريد الفارسي ، لأنه وجد ألا غنى له عنه في تصريف شئون الإمبراطورية . وكان يطلق عليه لفظ البريد العام لأن مهمته هي خدمة المصاحبة العامة بنقل الرسائل الرسمية . أما الأفراد فلم يكونوا يستطيعون الانتفاع به إلا ظروف قليلة وبتصريح خاص تصدره الحكومة ويسمى دبلوماً أي « مطوياً مرتين » يبيح لحامله بعض الامتيازات ، ويمكنه من الاتصال في الطريق ببعض أصحاب المقامات الدبلوماسية الكبيرة . وكان ثمة وسيلة أخرى للاتصال أسرع من هذه الوسيلة ، وهي طريقة إرسال الرسائل بمصابيح مرفوعة على أعمدة ترسل إشارات بالضوء من نقطة إلى نقطة ؛ وبهذا البرق البدائي عرفت رومة المضطربة القلقة نبأ وصول السفن التي تحمل الحبوب إلى ميني . أما الرسائل غير الرسمية فكان ينقلها رسول خاص ، أو ينقلها التجار أو الأصدقاء المسافرون . ولدينا من الشواهد ما يوحى

بوجود شركات خاصة فى عهد الإمبراطورية تتكفل بنقل بريد الأفراد . وكانت الرسائل الخاصة فى ذلك الوقت أقل من مثيلاتها فى هذه الأيام وأحسن منها . على أن نقل الأخبار فى غربى أوروبا وجنوبها لم يكن فى عهد قيصر أقل سرعة منه فى أى وقت من الأوقات قبل مد السكك الحديدية . وشاهد ذلك أن الخطاب الذى أرسله قيصر من بريطانيا إلى شيشرون فى عام ٥٤ ق . م وصل إلى رومة فى تسعة وعشرين يوماً ، وأن سير ربرت پيل لما سافر مسرعاً من رومة إلى لندن فى عام ١٨٣٤ احتاج إلى ثلاثين يوماً (٢٠) .

وكانت الطرق القنصلية من أهم العوامل فى تيسير سبل الاتصال والنقل : وكانت هذه الطرق هى الوسائل التى ينفذها القانون الرومانى ، والأعصاب التى تصبح بها رغبات رومة لإرادة الدولة بأجمعها . وقد أحدثت هذه الطرق فى العالم القديم انقلاباً تجارياً من نوع الانقلاب الذى أحدثه إنشاء الطرق الحديدية فى القرن التاسع عشر . وحسبنا شاهداً على عظمة هذه الطرق أن طرق أوروبا فى العصور الوسطى وفى العصور الحديثة ظلت إلى أيام استخدام البخار فى النقل أقل شأنًا من طرق الإمبراطورية الرومانية فى عهد الأنطونيين . لقد كان فى إيطاليا وحدها فى ذلك الوقت ٣٧٢ طريقاً رئيسياً ، ١٢٠٠٠ ميل من الطرق الكبرى المرصوفة ، وفى الإمبراطورية بأجمعها ٥١٠٠٠ ميل من الطرق العامة المرصوفة ، فضلاً عن شبكة أخرى من الطرق الثانوية . وكانت الطرق الكبرى تسير فوق جبال الألب إلى ليون ، وبردو ، وپارىس وريمس ، وبولونى ، وكانت طرق أخرى تجرى إلى فينا ، ومينز ، وأجزبرج ، وكولونى ، وأوترخت ، وليدن ، وكان ثمة طريق يبدأ من أكويليا محاذياً ساحل البحر الأدريادى ، ويصل هذه المدينة ، عن طريق إجناسيا بسلانيك Thessalonica . وأقيمت جسور فخمة لتحل محل القوارب التى كانت تنقل الركاب والبضائع فى عرض المجارى التى كانت تعطل سبل الاتصال فى الزمن القديم . وكانت توضع عند كل ميل فى الطرق

المتصلة بشواهد حجرية تبين المسافة بين كل شاهد والبلدة التي تليه . ولا تزال أربعة آلاف من هذه الشواهد باقية إلى يومنا هذا ؛ ووضعت على مسافات معينة مقاعد يستريح عليها المسافرون المتعبون . وأنشئت بعد كل عشرة أميال محاط يستطيع من شاء أن يستأجر منها خيلا ، وأقيم بعد كل ثلاثين ميلا نزل Mansio كان أيضاً مستودعاً للسلع وندوة وماخورا^(٢١) . وكانت نقط الاستراحة الرئيسية هي المدائن التي أنشئت فيها عادة فنادق جميلة تملكها وتديرها أحياناً الحكومات البلدية^(٢٢) . وكان معظم أصحاب النزل يسرقون أموال النزلاء كلما تبسرت لهم أسباب السرقة ، كما كان غيرهم من اللصوص يجعلون الطرق غير آمنة في أثناء الليل على الرغم من وجود حاميات من الجند في كل محطة . وكان في استطاعة المسافرين أن يبتاعوا كتباً للإرشاد تبين الطرق والمحاط ، وأطوال ما بينها من المسافات^(٢٣) . وكان الأثرياء الذين يستنكفون أن ينزلوا في النزل يحضرون معهم ما يلزمهم من الحاجيات ، ويصطحبون العبيد وينامون في عرباتهم بحراسة رجالهم ، أو في بيوت أصدقائهم ، أو موظفي الحكومة المحليين وأكبر الظن أن الأسفار في عهد نيرون كانت أكثر منها قبل أن تولد نحن رغم ما كان يعترضها من الصعاب . وفي ذلك يقول سنكا : « إن كثيرين من الناس كانوا يركبون البحار مسافات طويلة لمشاهدوا منظرأ بعيداً »^(٢٤) .

ويحدثنا أفلو طرخس عن الحبابين الذين يقضون خير أيام حياتهم في النزل وفي القوارب^(٢٥) . وكان الرومان المتعلمون يهرعون جماعات إلى بلاد اليونان ومصر وآسية اليونانية ، وينقشون أسماءهم على الآثار التاريخية ، ويرتادون الجحواء ومنابع المياه المفيدة للعلاج والصحة ، أو يأتون لمشاهدة المجموعات الفنية في الميكني ، أو يسافرون للدرس على مشهورى الفلاسفة والخطباء والأطباء ، وما من شك في أنهم كانوا يسترشدون ببوسنياس كما نسترشد نحن ببديكر^(٢٦) . وكانت هذه الرحلات الطويلة تتضمن عادة رحلة بحرية على ظهر سفينة

أو أكثر من السفن التجارية التي تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط ، متبعة عشرات العشرات من طرق الملاحة التجارية . وقد وصف جوفنال هذه الطرق بقوله : « انظر إلى الموانئ والبحار تجدها غاصة بالسفن وعلى ظهرها من الخلائق أكثر من على الأرض » (٢٧) . وكانت الشغور التي تنافس رومة في عظمتها ، وهي بتيولي ، وبورتس ، وأستي ، تحوى كثيراً من دور الصناعة تبني المراكب (*) وفيها القيارون يجلفونها والعمال يضعون فيها صابورات من الرمال ، والخالون يفرغون الحبوب في أكياس ، والوزانون يزنونها ، والملاحون يسرون القوارب الصغيرة بين السفائن الكبرى والبر ، والغواصون يغوصون في البحر لينتشلوا ما يسقط فيه من البضائع . وكانت خمس وعشرين سفينة من سفن الحبوب وحدها تجر إلى نهر التيبر في كل يوم من أيام العمل ، فإذا أضفنا إليها ناقلات حجارة البناء والمعادن ، والزيت ، والخمور ، وعشرات المئات من المواد الأخرى تكونت لدينا صورة من النهر الغاص بالمتاجر وما يصحب شحنها وتفرغها من ضجيج الآلات ، ورجال الأهوسة ، والخالين ، والخالزين ، والتجار ، والمهارة ، والكتبة .

وكانت السفن تسير بالأشعة يساعدها صف أو صفوف من المجاديف ، وكانت في ذلك الوقت أكبر حجماً في العادة من ذى قبل ؛ فأثنىوس Athenaeus يصف سفينة من ناقلات الحبوب بأنها كانت ٤٢٠ قدماً في الطول و ٥٧ في العرض (٢٩) ، ولكن هذا الحجم كان حجماً شاذاً كل الشذوذ . وكان لبعض السفن ثلاثة أسطح ، وكانت حمولة الكثير منها ٢٥٠ طناً ، وحمولة بعضها ألف طن من البضائع . ويحدثنا يوسفوس عن سفينة تحمل ستائة رجل ما بين راكب وبحار (٣٠) ، وقد حملت سفينة أخرى مسلة مضرية في حجم المسلة المقامة في سنترال پارك Centrel bark بتيويورك ، ومعها ٣٠٠ ملاح ، و ١٣٠٠ راكب ،

(*) في القاموس الجلفاط بالكسر ساد دروز السفن الجدد وقد جلفطها . (المترجم)

و ٩٣٠٠٠ بشل (*) من القمح ، ومقادير من الكتان ، والفلفل ، والوزق ،
والزجاج (٣١) . على أن السفر بالسفن بعيداً عن السواحل كان لا يزال
معرضاً للأخطار ، كما وجده القديس بولس في أسفاره . ولم يكن يجرؤ
على عبور البحر الأبيض المتوسط فيما بين نوفمبر ومارس إلا عدد قليل من
السفن ، وكانت الرياح الموسمية تجعل السفر في وسط الصيف مستحيلاً
جهة الشرق . وكانت الأسفار بالليل كثيرة في تلك الأيام ، وكان في كل
ميناء دى شأن منارة صالحة ، وكادت القرصنة أن تختفى من البحر الأبيض
المتوسط ، وقد جد أغسطس في القضاء عليها ومنع الطعام عن الولايات
التي تثور عليه بوضع أسطولين حربيين كبيرين في رافنا من ثغور البحر
الأدرياتي ، وميسنم Misenum على خليج نابلي ، فضلاً عن أساطيل أصغر
منها في عشر نقط أخرى متفرقة في أنحاء الإمبراطورية . وفي وسعنا أن
نقدر قول قيصر عن « فخامة السلم الرومانية العظيمة » إذا ذكرنا أننا لم نسمع
شيئاً قط عن هذه الأساطيل مدى قرنين كاملين .

ولم تكن مواعيد السفر محددة مضبوطة لأن سير السفن كان يتأثر
بعوامل الجو وبالأغراض التجارية . أما الأجور فكانت منخفضة ، فقد
كان أجر السفر من أثينة إلى الإسكندرية مثلاً درهمن (أى ١٢٠ ريال
أمريكي) ، ولكن المسافرين كانوا يبتاعون طعامهم ، والراجع أن
معظمهم كانوا ينامون على سطح المركب . وكانت سرعة السفن معتدلة
اعتدال أجورها ، وكانت تختلف باختلاف الرياح ، ويبلغ متوسطها ستة
أميال بحرية في الساعة .

وقد لا يستطيع المسافر في بعض الأحيان أن يجتاز البحر الأدرياتي
إلا في يوم كامل ، وكان يلزمه أحياناً ثلاثة أسابيع للسفر من بترى Patrae
إلى برنديزيوم كما فعل شيشرون . وكان في وسع الطراد السريع أن يقطع

(*) يعادل البشل نحو ثمانية جالونات . (المترجم)

٢٣٠ ميلا بحريا في أربع وعشرين ساعة^(٣٢) . وإذا ما صلحت الريح استطاع الإنسان أن يسافر من صقلية إلى الإسكندرية أو من قادس إلى أستييا في ستة أيام ، ومن يوتكا Utica إلى رومة في أربعة^(٣٣) .

وكانت أطول الرحلات وأكثرها تعرضاً للخطر الرحلة البحرية التي تستغرق ستة أشهر من عدن في بلاد العرب إلى بلاد الهند ، وذلك لأن الرياح الموسمية كانت تضطر السفن إلى ملازمة السواحل الغاصة بالقراصنة في الطريق كله ؛ وقد استطاع ملاح يوناني من أهل الإسكندرية في وقت ما قبل سنة ٥٠ م ، أن يبين بالرسم أوقات هبوب الرياح الموسمية ، ويعرف أن في مقدوره في بعض الفصول أن يعبر المحيط الهندي في طريق مستقيم وهو آمن . وكان هذا الكشف يعادل في أهميته بالنسبة لهذا البحر أهمية عبور كولبس المحيط الأطلنطي ؛ ذلك أن السفن قد استطاعت بعد هذا العمل أن تسير من الثغور المصرية الواقعة على البحر الأحمر إلى بلاد الهند في أربعين يوماً . وحدث حوالى ٨٠ م أن كتب بحار آخر من أهل الإسكندرية غير معروف اسمه كتاباً عن « الطواف بالبحر الإريترى » . وكان بمثابة دليل للتجار الذين يتجرون بين ثغور ساحل أفريقية الشرقى والهند . وكان غيره من الملاحين في ذلك الوقت قد ساروا في المحيط الأطلنطي إلى بلاد غالة ، وبريطانيا ، وألمانيا ، بل إنهم وصلوا إلى اسكنديناوة وروسيا^(٣٤) . ولسنا نعرف في تاريخ الإنسانية قبل ذلك العهد أن البحر قد حمل من السفن ومن البضائع ومن الخلق ما حمله في تلك الأيام .

الفصل الرابع

المهندسون

كانت السفن والطرق التي تحمل عليها البضائع ، والقناطر التي تربط الطرق بعضها ببعض ، والموانئ والأحواض التي تستقبل السفن ، والقنوات المبنية التي يجري فيها الماء التي إلى رومة ، والمصارف التي تنصرف فيها مياه المستنقعات الريفية وأقذار المدن ، كانت هذه كلها من عمل المهندسين الرومان واليونان والسوريين يساعدهم آلاف من العمال الأحرار وجنود الفياق والعييد . وكانوا يرفعون الأحمال أو الحجارة الثقيلة ، أو يجرونها بوساطة البكرات أو القوائم الخشبية العمودية تديرها الروافع التي يدفعها فيها الحيوانات أو الآدميون (٣٥) . وقد أقاموا على شاطئ النهر الغدار جدراناً ذات درجات ثلاث حتى لا ينكشف الطين في قاع النهر إذا انخفض ماؤه (*)

وقد أنشئوا ميناء مزدوجاً عند أستيا لكلوديوس ونيرون وترچان ، وافتتحوا موانئ أصغر منها في مرسيليا وبتيولي ، وميسينم ، وقرطاجنة ، وبرنديزيوم ، ورافنا ، وجددوا أعظم موانئ الإمبراطورية كلها في الإسكندرية . وقد جففوا البحيرة القوسية ، واستصلحوا أرضها للزراعة وذلك بأن شقوا لها نفقاً يخترق جبلاً من الصخر الصلب ، وأنشئوا تحت الأرض في رومة مصارف من الأسمنت المتحجر والآجر والقرميد قاومت البلى مئات السنين ، وجففوا مناطق كمبانيا حتى أصبحت صالحة للسكنى ، وبدل ما عثر عليه فيها من آثار على أن قصوراً فخمة كثيرة أقيمت فيها (**) ، وقاموا بتنفيذ

(*) أنشأت الحكومة الإيطالية في عام ١٨٧٠ جسوراً بمحاذاة شاطئ النهر تجعل مجراه متساوي العرض ، وقد أدى ذلك إلى نتائج غير مستحبة في فصل الخفاف .
(**) والظاهر أن الفلبيين قد جففوا مناطق بنيتين قبل عام ٦٠٠ ق . م ، غير أن الرومان الذين فتحوا بلادهم قد أمهلوا المصارف فعاد الإقليم مناطق وانتشرت فيه الملاريا . ووضع قيصر مشروفاً لتجفيفه وواصل أغسطس ونيرون العمل في هذا التجفيف ولكن المشروع لم يتم إلا في عام ١٩٢١ .

المشروعات العامة المدهشة التي خفف بها قيصر وغيره من الأباطرة التعطل في البلاد وجعلوا بها رومة .

وكانت الطرق القنصلية من أقل أعمالهم مشقة ، ولكنها لم تكن تنقص عن طرق هذه الأيام . وكانت سعتها تختلف من ست عشرة إلى أربع وعشرين قدماً ولكن بعض هذا العرض كان يشغله بالقرب من رومة ممرات جانبية مرصوفة بالأواح حجرية مستطيلة الشكل . وكانت تسير مستقيمة إلى أهدافها مضحية بالنفقات العاجلة في سبيل الاقتصاد الدائم ؛ وأقيمت على المجارى التي لا حصر لها قناطر كثيرة النفقات ، فإذا وصلت إلى المستنقعات اخترقها فوق قباب مقامة على جدران من الآجر والحجارة ، وكانت تصعد فوق الجبال الوعرة وتنحدر على سفوحها دون أن تستخدم النفق ، وسارت بمحاذاة الجبال أو الجسور العالية تحميها الجدران القوية . وامتثلت المواد التي ترصف بها باختلاف الأماكن التي تمر بها . وكانت الطبقة السفلى تصنع في العادة من الرمل ويتراوح سمكها بين أربع بوصات وست ، أو من الملاط بسمك بوصة واحدة . ثم تقام فوق هذه الطبقة أربع طبقات من البناء : الأولى وسمكها قدم وتبنى من الحجارة يمسكها الأسمنت أو الطين ، تليها طبقة ثانية سمكها عشر بوصات من الأسمنت القوى ، ثم طبقة ثالثة سمكها ما بين اثنتي عشرة وثمان عشرة بوصة وتتألف من عدة طبقات من الأسمنت المقوى أيضاً ، وفوقها الطبقة الرابعة وتتخذ من قطع من حجر الصوان أو اللحم البركانية الكثيرة الأضلاع والتي يختلف قطر كل منها بين قدم واحدة وثلاث أقدام ، وسمكها بين ثمان بوصات واثنتي عشرة بوصة . وكانوا يسوون الوجه الأعلى لهذه القطع ، وكانت مواضع اتصالها بعضها ببعض لا تكاد تبينها العين . وكانت الطبقة العليا تصنع في بعض الأحيان من الأسمنت المقوى ، وفي الطرق القليلة الأهمية كانت تصنع من الحصباء ؛ وفي بريطانيا كانت من جحر الصوان المخاوط بالأسمنت فوق طبقة من الحصباء . وكان سمك الطبقات السفلى كبيراً إلى حد جعل المهندسين

لا يعنون كثيراً بتصريف الماء الجوفى : ويمكننا أن نقول عن هذه الطرق بوجه عام إنها أطول الطرق أعماراً فى التاريخ كله ، ولا يزال بعضها يستخدم إلى اليوم ، ولكن منحنياتها الشديدة التى صنعت لسير البغال والعربات الصغيرة جعلتها غير صالحة لوسائل النقل الحديث .

وكانت القناطر التى تحمل هذه الطرق نماذج طيبة لتضافر العلم والفن ، ولقد ورث الرومان عن مصر البطلموسية أصول الهندسة المائية ، واستخدموها على نطاق بلغ من السعة حداً لم يسبقهم إليه أحد من قبل ، وبقيت الأساليب التى نقلت عنهم لم يطرأ عليها تغيير إلى هذه الأيام . وقد وضعوا الأساس وأشادوا الأرصفة تحت الماء كما كانت تشاد هذه وتلك فى أقدم العهود . وكانوا يدفعون فى أنواع المجارى اسطوانات مزدوجة مملوءة بمواد البناء ، وقد أحكموا إغلاق كل منهما ونزحوا الماء مما بينهما ، وغطوا الجزء المعرى بالحجارة أو الحجر ، وأقاموا الرصيف المطلوب لإقامته على هذا الأساس . وقد أقيمت على نهر التبر قبالة رومة تسعة جسور بعضها قديم مقدس كجسر سبليسيوس الذى لم يكن يجوز استخدام المعادن فيه ، وبعضها كجسر فريسيوس متقن البناء إنقائاً أبقاه صالحاً للاستعمال إلى هذه الأيام . وعن هذه الجسور نقلت العقود الرومانية لتستخدم فى بناء مئات المئات من القناطر فوق المجارى فى العالم الذى يسكنه البيض .

وكان بلنى يظن أن قنوات المياه المبنية أعظم أعمال الرومان ، وفى ذلك يقول : « إذا فكر الإنسان فى مقدار ما يصل إلى المدينة من ماء للأغراض العامة والخاصة التى يخطها الحصر ، وإذا شاهد القنوات المشيدة العالية التى لا بد أن تحتفظ بالعلو والتدرج المطلوبين ، والجبال التى لا بد أن اختراقها ، والمنخفضات التى لا بد من ملئها - لم يسعه إلا أن يحكم أن الأرض كلها ليس فيها ما هو أعجب وأعظم من هذه الأعمال » (٣٨) وكانت أربع عشرة قناة من هذا النوع يبلغ مجموع أطوالها ١٣٠٠ ميل

وتحترق النفق وتسير فوق عقود فخمة ، كانت هذه القنوات تحمل إلى رومة من عيون بعيدة ما لا يقل عن ٣٠٠.٠٠٠.٠٠٠ جالون من الماء في كل يوم ، ينال منها كل فرد في رومة ما يناله أى إنسان في مدننا الحديثة (٣٩) . على أن هذه المباني الضخمة لم تكن تخلو من عيوب . فقد كانت أنابيب الرصاص تحرق وتتطلب الإصلاح المرة بعد المرة ، وأصبحت هذه القنوات كلها غير صالحة للاستعمال قبل نهاية عهد الإمبراطورية الغربية (*) . ولكننا إذا ذكرنا أنها كانت تحمل إلى المباني ، « والمسكن ، والقصور ، والفساق ، والحداثق ، والبساتين ، والحمامات العامة التي يستحم فيها آلاف الناس مجتمعين ، وأن ما بقى بعد ذلك من الماء كان يكفي لإنشاء بحيرات صناعية للمعارك الحربية ، إذا ذكرنا هذا كله بدأنا نترك أن رومة كانت أحسن الحواضر القديمة إدارة ، وأنها كانت من خير المدن المزودة بما تحتاج إليه من الضروريات والكماليات ، رغم ما كان فيها من فساد ، وما كان ينتابها من رعب في كثير من الأحيان .

وكان يشرف على مصلحة المياه في ختام القرن الأول الميلادى سكستس يوليوس فرنتينس الذي جعلته كتيبه أشهر مهندسى الرومان الأقدمين . وكال قبل أن يتولى هذا المنصب قد عمل بريتورا ، ووالياً على بريطانيا ، وتولى القنصلية مراراً عدة . وكان كالحكام الإنجليز في هذه الأيام يجد متسعاً من الوقت لتأليف الكتب وحكم الولايات ، فقد نشر كتاباً في العلوم الحربية لا يزال ختامه باقياً إلى هذه الأيام (**) ، وترك لنا وصفاً بقلمه لعملية المياه في رومة (De aquis urbis Romanae) . وهو يصف ما وجدته في تلك المصلحة حين تولى أموراً من ضروب الفساد والرشوة ، وكيف كانت القصور والمواخير تحرق الأنابيب الكبرى

(*) « ولا تزال إحدى أهمى قناة « فرجنو » Virgo تمتد بالماء قوارة تريش Trevi ، وقد أسلمت ثلاث قنوات أخرى وهي تمتد رومة بالماء في هذه الأيام .

(**) « ويبدأ الكتاب الثالث بهذه الملاحظة الهامة : « إن اختراع آلات الحرب قد وصل من زمن بعيد إلى أبعد غاياته ، ولا أمل في أن يتقدم هذا الفن عما هو عليه الآن » .

وتسرف في الماء إسرافاً جعل رومة في بعض الأيام تطلب الماء فلا تجده (٤١) .
ثم يصف ما أدخله بحزمه وهيبته من ضروب الإصلاح ، ويفصل القول
في زهو وإعجاب في مبدل كل قناة وطولها والغرض منها ، ويختم هذا القول
كما يختم بلتي قوله بهذه العبارة : « منذ الذي يجروء على أن يوازن هذه
القنوات العظيمة بالأهرام السخيفة أو بأعمال اليونان الذائعة الصيت العديمة
النفع » (٤٢) . ونحن نحس هنا بما يؤمن به هذا الروماني من مبدل النفعية ،
وبعدم تذوقه للجمال المجرد من النفعية . ولسنا نلومه على هذا ، ونقر بأن
من الواجب أن تحصل المدينة على الماء النقي قبل أن يكون فيها هياكل
جميلة ، ونحن نستشف من خلال هذه الكتب الخالية من التجميل الفني أنه
كان لا يزال في رومة في أيام الطغاة رومان من الطراز القديم ، رجال
ذو كفاية وصلاح ، وإداريون يعملون بوحى ضمائرهم ، وقد أفلحوا في
نشر الرخاء في أنحاء الإمبراطورية ، تحت حكم الأباطرة السفهاء الفاسدين ،
وكانوا هم الذين مهدوا السبيل لعصر الملكية الذهبي .

الفصل الخامس

التجارة

اتسعت تجارة البحر البيض المتوسط اتساعاً لم يسبق له مثيل من قبل بسبب إصلاح إدارة الحكم ووسائل النقل . ففي أحد طرفي عملية التبادل كان البائعون الجائلون يطوفون بالريف ويبيعون أهلهم كل شيء من عيدان الثقاب إلى الحرير المستورد الغالي الثمن . وشبيه هؤلاء من يبيعون البضائع « بالمراد » ، وكان من عملهم أيضاً المناداة على البضائع المفقودة والعيبد الآبقين . وكانت هناك أسواق يومية وأخرى دورية ، وكنت ترى أصحاب الحوانيت يسامون المشترين ويخسرون الموازين ، ويرقبون في حذر مفتشى الحكومة (الإبديل) الذين كانت مهمتهم مراقبة المكايل والموازين . وكان أرقى من هؤلاء في السلم التجارى الحوانيت التى تصنع بنفسها سلعتها ؛ وكانت هذه الحوانيت عماد الصناعة والتجارة جميعاً . وكان فى الثغور البحرية أو بالقرب منها بائعو الجملة (magnarū) يبيعون لتجار التجزئة أو للمستهلكين البضائع المستوردة حديثاً من خارج البلاد ؛ وكان صاحب السفينة أو رئيس بحارتها فى بعض الأحيان يبيع ما فيها من البضائع قبل أن يفرغها .

وظلت إيطاليا مائتة عام وميزان التجارة فى غير صالحها ، فقد كانت تشتري أكثر مما تبيع ، وكانت راضية بذلك مغتبطة . كانت تصدر بعض الفخار الأريتيني Arretine وبعض الخمر والزيت ، والأدوات المعدنية والزجاج ، والروائح العطرية من كميانيا ، أما ما عدا هذه من المنتجات فقد كانت تحتفظ به لنفسها وكان لتجار الجملة فى هذه الأثناء وكلاء يشترون البضائع لإيطاليا من كافة أنحاء الإمبراطورية ، وكان للتجار الأجانب سماسة يعرضون

بضائعهم في إيطاليا ؛ وبهذه العملية المزدوجة جاءت طيبات نصف العالم إلى إيطاليا لتتلذذ بها أفواه عظماء الرومان ، وتكنسى بها أجسادهم ، وتردان بها بيوتهم ؛ وفي ذلك يقول إيلبيوس أرسطيديس Aelius Aristides : « من شاء أن يرى جميع طيبات العالم فعليه أن يطوف العالم كله أو يقيم في رومة » (٥٠) . وكانت صقلية ترسل لها الحبوب ، والماشية ، والجلود ، والخمور ، والصوف ، والأدوات الخشبية الفنية الجميلة ، والتمائيل ، والحلى ، وكانت ترد من شمالى إفريقيا الحبوب والزيت ؛ ومن قورينة الأنجدان Silpium (*) ؛ ومن أفريقية الوسطى الوحوش اللازمة للملاعب والمختللات ؛ ومن بلاد الحبشة وشرق أفريقية العاج والقردة ، وأصداف السلاحف ، والرخام النادر الطبيعي ، والتوابل ، والعبود الزنوج ؛ ومن غربى أفريقية الزيتون ، والحيوانات البرية ، والأنرج ، والخشب ، واللؤلؤ ، والأصباغ ، والنحاس ؛ ومن أسبانيا السمك ، والماشية ، والصوف ، والذهب ، والفضة ، والرصاص ، والقصدير ، والنحاس ، والحديد ، والزنجفر ، والقمح ، والتيل ، والفلين ، والحل ، ولحم الخنزير وخير أنواع الزيتون وزيته ؛ ومن بلاد غالة الملبس ، والخمور ، والقمح والخشب ، والخضر ، والماشية ، والدجاج ، والفخار ، والجن ؛ ومن بريطانيا القصدير ، والرصاص ، والفضة ، والجلود ، والقمح ، والماشية والعبود ، والمحار ، والكلاب واللؤلؤ ، والمصنوعات الخشبية ؛ وكانت أسراب الإوز تسير من بلجيكا إلى إيطاليا لتملأ أكبادها بطون الأشراف من أبنائها . وكانت ألمانيا تورد الكهرمان ، والعبود ، والفراء ؛ وبلاد نهر الدانوب تورد القمح ، والماشية ، والحديد ، والفضة ، والذهب ؛ وبلاد اليونان والجزائر اليونانية تصدر الحرير الرخيص ، والتيل ، والخمر ، والزيت ، وعسل النحل ، والخشب ، والرخام ، والزمرد ، والعقاقير ،

(٥) نبات من الفصيلة الخيمية ، وهو يحوى على سائل رائحة يشبه منقذ القدماء . ينفعه لكثير من الأمراض الباطنية ، ورسم على نقود قورينة موطنه الأصل . (المترجم)

والمصنوعات الفنية ، والروائح العطارية ، والماس ، والذهب ، وكانت بلاد البحر الأسود تصدر الجيوب ، والسملك ، والفراء ، والجلود ، والعبيد ، وآسية الصغرى تصدر المنسوجات التيلية والصوفية ، والجلد المرقق للكتابة ، والخمر ، وتين أزمير وغيرها من البلاد ، والعسل ، والجبن ، والحار ، والسجاجيد ، والزيت ، والتفاح ، والكمثرى ، والبرقوق ، والتين ، والبلح والرمان ، والبندق ، والناردين ، والبلسم (*) ، والصمغ القرمزي (**) ، والأرجواني ، وأرز لبنان ، وكانت تدمر تورد المنسوجات والعطور والعقاقير ، وبلاد العرب تورد البخور ، والصمغ ، والصبر ، والمر ، والأفيون ، والزنجبيل ، والقرفة ، والأحجار الكريمة ، ومصر تورد الجيوب ، والورق ، والتيل ، والزجاج ، والحلى ، والحجر الأعبل ، وأحجار البازلت ، والمرمر ، والبرفير ، وكانت آلات الأدوات المصنوعة المختلفة الأنواع ترد إلى رومة وغرب أوروبا من الإسكندرية ، وصيدا ، وصور ، وأنطاكية ، وطرسوس ، ورودس ، وميليتس ، وإفسوس وغيرها من كبريات مدائن الشرق ، وكانت بلاد الشرق نفسها تستورد المواد الغفل والنقود من الغرب .

وكانت هناك فضلا عن هذا كله تجارة واردات ضخمة من خارج الإمبراطورية . فكانت ترد إلى إيطاليا من پارثيا وبلاد الفرس الجواهر ، والعطور النادرة ، والجلود الرقيقة ، والطنافس ، والحيوانات البرية ، والخضيان ، وكان يرد من الصين بطريق پارثيا أو الهند أو القوقاز الحرير منسوجاً أو غير منسوج ، وكان الرومان يظنونونه محصولاً نباتياً يستخرج من الشجر ويقومونه بوزنه ذهباً (٤٤) . وكان معظم هذا الحرير يرد إلى جزيرة كوس Cos حيث ينسج ملابس للنساء رومة وغيرها من المدن ، واضطرت ولاية مسينيا Messenia — وهى الولاية الفقيرة نسبياً — أن تحرم على نساها ارتداء الملابس الحريرية

(*) صمغ راتينى عطرى . (المترجم)

(**) صمغ يتخذ من الحار أو الأصناف . (المترجم)

الشفافة في الاجتماعات الدينية ؛ وهذه الملابس هي التي غزت بها كليوبطرة قلبي قيصر وأنطونيوس^(٤٥) . وكانت الصين تستورد من الإمبراطورية الرومانية في نظير صادراتها إليها الطنافس والحلى ، والكهرمان ، والمعادن ، والأصباغ ، والعقاقير ، والزجاج . ويحدثنا المؤرخون الصينيون عن بعثة تجيء بطريق البحر إلى الإمبراطور هوان دى عام ١٦٦ ، من قبل الإمبراطور « آن - طون » - أى ماركس أورليوس أنطونيوس . وأكبر الظن أن هذه البعثة لم تكن لإجماعة من التجار انتحلوا صفة السفراء . وقد عثر في ولاية شانسى الصينية على ست عشرة قطعة من النقود الرومانية مضروبة فيما بين حكم تيبيريوس وحكم أورليوس ، وكانت الهند تورد إلى إيطاليا الفلفل ، وسنبلة الطيب ، وغيرها من التوابل (التي سافر كولمبس لبحث عنها) ، والأعشاب ، والعاج ، والأبنوس ، وخشب الصندل والثيلة ، واللاقي ، والعقيق المشطب (سردونتس) ، وحجر الظفر (الخرز اليماني) والجمست ، والياقوت الأحمر ، والماس ، والمصنوعات الحديدية ، وأدوات التجنيل ، والمنسوجات ، والفخورة ، والفيلة ، وفي مقدورنا أن ندرك مقدار هذه التجارة وحب الرومان لأسباب الترف إذا عرفنا أن إيطاليا كانت تستورد من الهند أكثر مما تستورد من أى بلد آخر عدا أسبانيا^(٤٦) . ويذكر استرابون أن مائة وعشرين سفينة كانت تبحر كل عام من ثغر واحد من الثغور المصرية إلى الهند وسيلان^(٤٧) . وكانت الهند نفسها تستورد في مقابل صادراتها مقداراً غير كبير من الخمور ، والمعادن ، والصبغة الأرجوانية ، وتأخذ ثمن ما بقي من بضائعها أكثر من مائة مليون سسترس تقوداً أو مبيعات . وكان مثل هذا القدر من المال يرسل إلى بلاد العرب والصين ، ولعل مثله أيضاً كان يرسل إلى أسبانيا .

وظلت هذه التجارة الواسعة مصدر رخاء عظيم مائتي عام ، ولكن أساسها غير السليم جر الخراب على الاقتصاد الروماني في آخر الأمر . ذلك أن إيطاليا لم تحاول قط أن تعادل صادراتها و وارداتها ، وأنها استولت على مناجم نحسين

ولاية أو نحوها ، وفرضت على أهلها الضرائب لتستمد منها المال الذى تدفعه لموازنة صادراتها ب وارداتها . فلما أن استنفدت العروق المعدنية الغنية ولم تنقص شهوة الرومان للترف والكماليات ، حاولت رومة أن تؤجل انهيار نظام الاستيراد بفتح بلاد جديدة اشتهرت بمعادنها مثل داشيا Dacia ، وبخفض قيمة نقدها الذى كان من قبل أبعد النقود عن الفساد والانحطاط ، فصارت تصنع أكثر ما تستطيع صنعه من النقود من أقل ما لديها من السبائك : ولما أن اقتربت نفقات الإدارة والحروب من مكاسب الإمبراطورية ، كان على رومة أن تؤدى ثمن ما تستورده من البضائع بضائع أخرى ، ولكنها عجزت عن هذا . وكان اعتماد إيطاليا على ما تستورده من الطعام أهم أسباب ضعفها . ذلك أنها ساءة أن عجزت عن إرغام غيرها من البلاد على أن ترسل إليها الطعام والجنود ، آذن مجدها بالزوال وفى هذا الوقت عينه أخلت الولايات تسترد رخاءها وأولويتها الاقتصادية : فكاد التجار الإيطاليون فى القرن الأول الميلادى يختفون من الثغور الشرقية ، واستقر التجار السوريون واليونان فى ديلوس وبتيولى ، وتضاعف عددهم فى أسبانيا وغالة ، وأخذ الشرق بين مد التاريخ وجزره المتباعدى الأجل يستعد لأن يسيطر مرة أخرى على الغرب .

الفصل السادس

رجال المال

تري كيف كان الإنتاج والتجارة يمولان ؟ لقد كانا يمولان قبل كل شيء .
بنقد محترم موثوق به في العالم إلى حد كبير . نعم إن النقود الرومانية جميعها
قد انحطت قيمتها شيئاً فشيئاً من أيام الحرب البونية الأولى ، لأن الخزائن
وجدت أنه سهل عليها أن تؤدي ما استدانتها الحكومة من المال بسبب
الحروب بساحتها بالتضخم الذي ينشأ بطبيعته من ازدياد النقود ونقص السلع .
من ذلك أن الآس وكان في الأصل رطلاً من النحاس المنخفض وزنه إلى
أوقيتين في عام ٢٤١ ، وإلى أوقية واحدة في عام ٢٠٢ ، وإلى نصف
أوقية في عام ٨٧ ق . م ، وإلى ربع أوقية في عام ٦٠ م ، وفي المائة العام
الآخرة من عهد الجمهورية كان قواد الجند يسكون نقودهم ، وكانت
هذه النقود في العادة هي الأورى وهو نقد ذهبي كانت قيمته في الغالب
مائة سسترس . ومن هذه النقود الحرية جاءت نقود الأباطرة ، وقد جرى
هؤلاء على سنة قيصر فطبعوا صورتهم على ما يسكونه من النقود رمزاً
لضمان الحكومة إياها . وسك السسترس وقتل من النحاس بدل الفضة ،
وجعلت قيمته أربعة آسات (*) ، وأنقص نيرون ما كان يحتويه الدينار من
الفضة إلى ٩٠ ٪ مما كان يحتويه منها قبل ، ثم أنقصه تراجان إلى ٨٥ ٪ ،
وأورليوس إلى ٧٥ ٪ ، وكودس إلى ٧٠ ٪ وسپتيموس سبترس Septimius

(*) ستقوم العملة الرومانية حين نشير إلى العهد الذي أعقب حكم نيرون بثلاثي قيمتها
المعتادة في زمن الإمبراطورية ، فيقوم الآس بـ ٢٠٠ من الريال الأمريكى ، والسسترس
بـ ٢٠ منه ، والدينار بـ ٢٠٠ ، والثالث بـ ٢٠٠٠ حسب قيمة الريال الأمريكى في عام
١٩٤٣ . وإذا كنا سنقتل في هذا التقويم ما طرأ على العملة الرومانية من اختلافات قليلة ،
فجدير بالقارئ أن يذكر أن هذا التقويم كله تقريبى .

Severus إلى ٥٠ ٪ . وأنقص نيرون قيمة الأوربوس من $\frac{1}{2}$ من الرطل من الذهب إلى $\frac{1}{4}$ ، وأنقصها كركلا إلى $\frac{1}{8}$. وصحب هذا التخفيض ارتفاع عام في أثمان السلع ، ولكن يلوح أن الدخل ارتفع بنسبة هذا التخفيض وظل يرتفع حتى زمن أورليوس . ولعل هذا التضخم غير الطليق الخاضع لإشراف الحكومة ، لم يكن إلا وسيلة سهلة لتخفيف العبء عن المدنيين على حساب الدائنين ، لأن هؤلاء لو تركوا وشأنهم لاستطاعوا بفضل ما يمتازون به من كفاية ، وما يتاح لهم من فرص ، أن يركزوا الثروة في أيدي قليلة إلى حد يقف معه دولاب الاقتصاد وينذر بالثورة السياسية . ومن واجبنا أن نعد للنظام المالي الروماني من أكثر النظم المالية نجاحاً وثباتاً في التاريخ رغم ما طرأ عليه من تغيرات . ذلك أن معياراً واحداً للنقد ظل قائماً موثقاً به مدى قرنين من الزمان ، وبفضل هذا الثبات راجت التجارة واستثمار المال رواجاً لم يكن له نظير في أي عصر من العصور السابقة . ومن أجل هذا انتشر الصيرافة في كل مكان ، يبدلون النقود بعضها ببعض ، ويراجعون الحسابات والودائع ذات الفوائد ، ويصدرون التحاويل المالية للمسافرين وتوكل إليهم إدارة أملاك الأفراد وبيعها ، وشراؤها ، واستثمار الأموال ، وأداء الديون ، وإقراض المال للأفراد والشركات . وكان مصدر هذا النظام المصرفي بلاد اليونان وبلاد الشرق اليوناني ، وكان أكثره في أيدي اليونان والسوريين حتى في إيطاليا نفسها وفي غربي أوروبا ، وكان اللفظان اللذان يطلقان على السورى ، والمصرفى فى حالة مترادفين (٩) . وانخفض سعر الفائدة إلى أربعة فى المائة لكثرة الغنائم التى جاءها أغسطس من مصر ، ولكنه عاد فارتفع إلى ٦ ٪ بعد موته ، وبلغ حده القانونى الأقصى وهو ١٢ ٪ قبيل عصر قسطنطين .

ويدل « الذعر » المشهور الذى حدث فى عام ٣٣ م على ما وصلت إليه حال المصارف والتجارة فى أيام الإمبراطورية ، كما يدل على اعتماد كلا النظامين على الآخر . ذلك أن أغسطس سلك العملة بلا حساب ، وبسط يده فى الإنفاق

هو مصرف أولاد پتيوس Pettius . ووصلت في الوقت عينه تقريباً أنباء تقول إن مصارف مالية كبرى في ليون ، وقرطاجنة ، وكورنثة ، وبيزنطية قد أفلست هي الأخرى ، وأغلقت مصارف رومة واحداً بعد واحد ، ولم يكن من المستطاع اقتراض المال إلا بفوائد أعلى كثيراً من السعر المصرح به قانوناً ، واضطر تيبريوس في آخر الأمر أن يعالج الأزمة بوقف قانون الاستثمار في أرض إيطاليا ، وتوزيع ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ سسترس على المصارف لتقرضها من غير فائدة لآجال تبلغ ثلاث سنين ، بضمان الأملاك العقارية ، فاضطر المرابون من الأفراد إلى تخفيض سعر الفائدة ، وخرجت الأموال من مخابثها ، وعادت الثقة شيئاً فشيئاً إلى السوق المالية والتجارية (٥٠) .

الفصل السابع

الطبقات

كان كل إنسان في رومة إلا أقلية لا يعتد بها يعبد المال عبادة جنونية ، وكان الناس جميعاً عدا أصحاب المصارف يلعنون المال ويذمونهم : من ذلك أن أوغد يقول في أحد كتبه على لسان إله من الآلهة : « ما أقل ما تعرف عن العصر الذى تعيش فيه إذا توهمت أن الشهد أحلى من المال فى يدك » (٥١) . وبعد مائة عام من ذلك الوقت يشيد جوثنال فى سخرية : « بجلال الثروة المقدس أعظم التقديس » ، وظل القانون الرومانى إلى آخر عهد الإمبراطورية يحرم على الشيوخ استثمار أموالهم فى التجارة أو الصناعة ، ومع أنهم كانوا يجتالون على هذا التحريم بأن يجوزوا لمعتوقهم أن يستثمروا لهم المال ، فإنهم كانوا يحتقرون وكلاءهم ، ويرون أن الحكم بحق المولد هو وحده الذى يليق بهم أن يستبدلوا به الحكم بحق المال أو الأساطير أو السيف . وقد ظلت الانقسامات الطائفية باقية فى البلاد بعد ما قام فيها من الثورات ، وبعد أن نقص عدد الأشراف نقصاناً كبيراً ، واتخذوا لهم ألقاباً جديدة : فأصبح أفراد طبقتى الشيوخ ، والفرسان ، والحكام ، والموظفين ، يلقبون « رجال الشرف » honestiores أو رجال المناصب ، ولقب كل من عداهم « بالأدنياء » humiliores أو الضعفاء ، tenuiores . وكان وقار الشيخ وزهوه يمتزج بهما اعتزاز بالشرف والكرامة ، وكان يعمل فى عدد من المناصب بعضها فى إثر بعض من غير أجر بل تفرض عليه نفقات طائلة ، وكان يضطلع بالواجبات التى تفرضها عليه مناصبه الهامة بدرجة لا بأس بها من الكفاية والاستقامة ، وينفق من ماله على الألعاب العامة ، ويساعد الموالى والمحربين من العبيد ، ويقسم بعض ثروته مع الأهلين بضروب الصدقات التى يخرجها فى أثناء حياته أو بعد

مئاته . وإذ كان مركزه يتطلب منه كثيراً من الواجبات ، كان يطلب إليه إذا أراد أن ينضم إلى طبقة الشيوخ أو يبقى فيها أن يكون لديه مليون سسترس ٥

وقد بلغت ثروة أحد الشيوخ وهو نيوس لنتولس *Gnaeus Lentulus* ٤٠٠.٠٠٠.٠٠٠ سسترس ، ولكننا إذا استثنينا هذا الشيخ وحده كان أعظم الناس ثراء في رومة هم رجال الأعمال الذين لم يكونوا يستنكفون أن يشتغلوا بالشئون المالية أو التجارية . وبينما كان الأباطرة ينقصون من سلطان مجلس الشيوخ كانوا يختصون رجال الأعمال بالمناصب الكبرى ، ويحمون الصناعة والتجارة والأعمال المالية ، واتخذوا معونة الفرسان سنداً للزعامة ضد دسائس الأشراف . وكانت عضوية هذه الطبقة الثانية ، طبقة الفرسان ، تتطلب من صاحبها أن يكون مالكا لأربعمئة ألف سسترس ، وأن يرشح الزعيم نفسه أعضاء هذه الطبقة ؛ ومن أجل هذا كان كثيرون من ذوى الثراء من طبقة العامة .

وكانت هذه الطبقة وقتئذ تتألف من رجال الأعمال الذين لم يرشحوا إلى العضوية في طبقة أخرى ، ومن العمال الأحرار المولد ، والفلاحين الملاك ، والمدرسين ، والأطباء ، والفنانين والعبيد المحررين . ولم يكن الإحصاء يحدد طبقة الصعاليك حسب أعمال أفرادها بل كان يحددها حسب مولدهم ؛ وقد وصفتهم إحدى الرسائل القديمة بأنهم « السوقة الذين لا يقدمون للدولة إلا الأطفال » (٥٢) وكان الكثيرون منهم يعملون في الحوانيت ، وفي المصانع ، وفي تجارة المدن بأجر يبلغ متوسطه ديناراً (بشئ من الريال الأمريكي) في اليوم . وزاد هذا الأجر في القرون التالية ، ولكن زيادته لم تكن أسرع من زيادة الأثمان (٥٣) . وجدير بنا ألا ننسى أن استغلال الأقوياء للضعفاء أمر طبيعي كالطعام والشراب ، ولا يختلف عنهما إلا في السرعة ؛ وأنه لا يخلو منه عصر من العصور ولا مجتمع من المجتمعات أيا كان نوعه وأيا كان نظام الحكم الذى يخضع له ؛ ولكن هذا

الاستغلال لم يكن في بلد من البلاد أكمل مما كان في رومة القديمة ، كما لم تكن الطبقات في بلد آخر أقل تعاطفاً من الطبقات فيها . لقد كان ساكنوها جميعاً في وقت من الأوقات فقراء لا يشعرون بفقرتهم ؛ ولكن الفقر والثراء ما لبثا أن وجدا معا في صعيد واحد ، ف شعر الفقراء وقتئذ بفقرتهم . على أن نظام الإعانات الحكومية والصدقات التي كان السادة يحسنون بها على مواليتهم ، والوصايا القيمة التي كان يوصي بها الأثرياء أمثال بلبس الذي أوصى لكل ساكن في رومة بخمسة وعشرين ديناراً ، كل هذا قد حال بين الأهلين وبين الفقر المدقع . وكاد نظام الطبقات في رومة أن يصبح شيئاً بنظيره في الهند الحاضرة فيقسم الأمة أقساماً منفصلة متنافرة ، ولكن من كان ذا قدرة من الأهلين كان في وسعه أن يتحرر من الرق ، وأن يجمع المال ، ويرقى إلى المناصب العالية في خدمة الزعيم . وكان ابن العبد المحرر يتمتع بجميع حقوق الأحرار ، وكان في وسع حفيده أن يصبح عضواً في مجلس الشيوخ ، بل إن حفيد أحد المحررين قد أصبح إمبراطوراً بعد قليل من هذا الوقت الذي نتحدث عنه .

وتولى العبيد المحررون في القرن الأول الميلادي كثيراً من المناصب العامة ؛ وكثيراً ما كان يعهد إليهم الإشراف على أموال الإمبراطورية في الولايات ، وعلى عمليات المياه في رومة ، وعلى مناجم الإمبراطور ، ومقالع أحجاره وضياعه ، وعلى تموين معسكرات الجيش . وكان المحررون أو العبيد ، وكلهم تقريباً من اليونان أو السوريين ، يديرون شئون القصور الإمبراطورية ، ويتولون أخطر المناصب في مجالس الدولة . وتحولت الصناعات والتجارة الصغرى شيئاً فشيئاً إلى أيدي المحررين ، وأصبح الكثيرون منهم على مر الأيام من أصحاب رؤوس الأموال وملاك الأراضي ؛ وقبلما كان ماضيهم يتيح لهم الفرص لرفع مستواهم الخلق أو يسمو بأغراضهم وأسباب اهتمامهم ، فلما أن تحرروا أصبح المال شغلهم الشاغل فلم يكونوا يتورعون عن سلوك أى سبيل توصلهم إليه ، أو يراعون في إنفاقه وازعاً

من ضمير أو ذوق سليم . وقد ندد بهم پترونيوس Petronius أشنع تنديد في تريمليكيو ، وسخر سنكا ، وإن يكن أقل من پترونيوس حدة ، بالأثرياء المحدثين الذين يبتاعون مجاميع مزينة من الكتب ولكنهم لا يقرأونها أبداً^(٥٤) . وأكبر الظن أن بعض هذا الهجاء كان رد فعل مبعثه غيرة طبقة من الناس رأت أن ما كانت تختص به من استغلال الناس والاستمتاع بضروب الترف والملاذ قد أخذ يعتدى عليه هؤلاء المحدثون ، ولم يكن في وسعها أن تصفح عن أولئك الذين قاموا يشاركونها في أموالها وسلطانها .

وما من شك في أن ما لقيه المحروون من نجاح قد بعث بعض السلوى والأمل في نفوس تلك الطبقة التي كانت تقوم بمعظم الأعمال اليدوية في إيطاليا . وقد قلر بلوك Peloch عدد العبيد في رومة حوالى سنة ٣٠ ق . م بما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ أى نحو نصف عدد سكانها جميعاً ، وقدر عددهم في إيطاليا بنحو ١,٥٠٠,٠٠٠ . وإذا جاز لنا أن نصدق ثرثرة أنيوس فإن بعض الرومان كان يمتلك الواحد منهم ٢٠,٠٠٠ عبد^(٥٥) . ومن أكبر الشواهد على كثرتهم أن مجلس الشيوخ قد رفض اقتراحاً عرض عليه يرى إلى إلزام العبيد بأن يلبسوا زياً خاصاً ، وكان سبب الرفض نخوف المجلس أن يدركوا بذلك كثرة عددهم^(٥٦) . وقلر جالينوس نسبة العبيد إلى الأحرار في برجموم Pergamum حوالى سنة ١٧٠ م بواحد إلى ثلاثة أى ٢٥٪ ، وأكبر الظن أن نسبتهم في المدن الأخرى لم تكن تختلف كثيراً عن هذه النسبة^(٥٦) . وكان ثمن العبد يختلف من ٣٣٠ سترس يبتاع بها من يعمل في الضياع ، إلى السبعائة ألف (١٠٥,٠٠٠ ريال أمريكى) التي ابتاع بها ماركس أسكورس Marcus Scaurus دفينيس Daphnis النحوى^(٥٧) . وكان متوسط ثمن العبد في الوقت الذى نتحدث عنه ٤٠٠٠ سترس (٤٠٠ ريال) ، وكان ثمانون في المائة من المال في الصناعة وفي تجارة الأشتات من العبيد ، كما كانت معظم الأعمال اليدوية والكتابية في المصالح

الحكومية بوظيفتها « عبيد عموميون » *servi publici* . أما عبيد المنازل فكانوا أنواعاً لا حصر لها ، كما كانت مراكرهم وأعمالهم كثيرة متنوعة : كانوا يقومون بخدمة ساداتهم ، وكانوا صناعاً يدويين ، ومعلمين خصوصيين ، وطهاة ، وحلاقين ، وموسيقيين ، ونساخين وأمناء مكاتب ، وفنانين ، وأطباء ، وفلاسفة وخصيائاً . وغلماناً حسناً أقل ما يقومون به من الأعمال أن يكونوا سقاة ، ومقعدين يسلون ساداتهم بأجسامهم المشوهة . وكانت في رومة سوق خاصة يستطيع الإنسان أن يبتاع فيها عبداً أعرج ، وأقطع الذراع ، أو ذا عين ثلاث ، أو طويلاً مفرطاً في الطول ؛ أو قرماً أو خنثى^(٥٨) . وكان عبيد المنازل يضربون أحياناً وأحياناً يقتلون ؛ وقد قتل والد نيرون عبيده المحررين لأنهم أبوا أن يشربوا من الخمر القدر الذي يرغب فيه^(٥٩) . ويصف سنكا في فقرة له غاضبة « العذراء الخشبية وغيرها من آلات التعذيب ؛ والحب وغيره من السجون ؛ والنيران التي كانت توقد في الحفر حول أجسام المساجين ؛ والخطاطيف التي كانت تنجر بها جثثهم ؛ والأغلال الكثيرة الأنواع ، وضروب العقاب المختلفة ؛ وأقتلاع الأعضاء وكى الجباه »^(٦٠) . ويلوح أن هذه كلها كان يلقاها عبيد المزارع . ويصف چوفثال سيدة كان عبيدها يضربون واحداً بعد واحد أثناء تصفيف شعرها^(٦١) ، ويصور أوفد سيدة أخرى تدفع دبائيس الشعر في ذراعى خادمة لها^(٦٢) ؛ ولكن هذه القصص يبدو عليها أنها من اختراع الأدباء ، ومن واجبتنا ألا نعددها من الحقائق التاريخية المقطوع بصحتها ،

ونحن معرضون لخطأ المبالغة في قسوة الماضي لنفس السبب الذي يحملنا على المبالغة في جرائم الحاضر وفساد أخلاقه - ذلك بأن ندرة القسوة تجعلها طريقة مستملحة ؛ والحق أن متاعب عبيد البيوت أيام الإمبراطورية قد أخذت تقل شيئاً فشيئاً على أثر قبولهم أعضاء في الأسر التي كانوا يخدمونها ، وبالإخلاص المتبادل بينهم وبين ساداتهم ، وبالعادة الطريقة عادة أن يقوم

السيد بخدمة عبيده في بعض الأعياد ، وبما كان يضمه العبد من عمل دائم في خدمة سيده قل أن يكون له نظير في هذه الأيام . ولم يكن العبيد يحرمون من مسرات الحياة العائلية ؛ وتدل شواهد قبورهم على أنهم لم يكونوا يقولون رحمة وشفقة عن الأحرار . انظر مثلاً إلى ما كتب على قبر واحد من أبنائهم : « لقد أقام والدنا يوكوبيون Eucopion هذا الأثر لابنهما الذي عاش ستة أشهر وثلاثة أيام ؛ كان فيها أظرف الأطفال وأكثرهم إدخالاً للسرور على قلوب من حولهم ؛ ولقد كان أكبر أسباب سعادتنا وإن لم يكن قادراً على الكلام » (٦٢) . وثمة شواهد أخرى تدل على ما كان بين السادة والعبيد من حب وعطف . من ذلك أن أحد الأسياد يجهر بأن خادمه الميت كان عزيزاً عليه كولده ، وأن أحد الشبان النبلاء يبدي حزنه الشديد على موت مربيته ، وأن مربية أخرى تظهر حزنها لموت طفل ترعاه ، وأن سيدة متعلمة أقامت نصباً تذكارياً جميلاً لأمين مكتبتها (٦٣) . وقد كتب « ستاتيوس Stalios » قصيدة إلى فلافيوس أورسس Flavius Ursus يعزیه في موت عبد عزيز عليه » (٦٤) . ولم يكن من غير المعتاد أن يخاطر عبد بحياته لحماية سيده ؛ ومنهم كثيرون صاحبوا سادتهم في منقاهم طائعين مختارين ، ومنهم من ضحوا بحياتهم من أجل سادتهم . ومن النساء من حررن عبيدهن وتزوجنهم ، ومن الرجال من كانوا يعاملونهم معاملة الأصدقاء ، وكان سنكا يأكل معهم (٦٥) . وقد كان للأخلاق الرقيقة ، والحس المرهف ، وعدم وجود فارق في اللون بين السيد والعبد ، ولبيادى الفلسفة الرواقية ، وللعقائد الدينية التي جاءت من بلاد الشرق والتي لم تكن تعرف الفروق بين الطبقات ، كان لهذه كلها نصيب في تقليل الرق وتحسين حال الأرقاء ؛ ولكن العوامل الأساسية في هذه القلة وذلك التحسين كانت هي المزايا الاقتصادية التي تعود على السيد ، وارتفاع ثمن العبيد . وكان كثيرون من العبيد ينالون احترام سادتهم لثقافتهم الراقية ، فقد كان منهم مختزلون لخطبهم ، ومساعدون لهم في بحوثهم ، وأمناء لهم في شئونهم المالية ،

ومدبرون لأعمالهم ، وكان منهم فنانون ، وأطباء ، ونحاة ، وفلاسفة . وكان في مقدور العبد في كثير من الأحوال أن يتجر لحسابه الخاص ، وأن يعطى جزءاً من مكاسبه للملكه ، وأن يحتفظ بما بقي منها لتكون « ماله القليل Peculium » ، أى ملكاً خالصاً له . وكان في وسع العبد بهذه المكاسب ، أو بأمانته وإخلاصه في خدمة سيده ، أو بالقيام له بخدمة غير عادية ، أو بجمال خلقه ، أن ينال حريته عادة في ست سنين^(٦٦) .

وقد تحسنت أحوال العمال وأحوال العبيد أنفسهم بعض التحسن بفضل منظمات العمال Collegia ونحن نسمع قبيل هذا الوقت الذى نتحدث عنه بوجود عدد كبير من هذه المنظمات ويخصصها إلى حد يدعو إلى الفخر ، فكانت هناك هيئات خاصة بالمداخين ، والنافخين في الأبواق ، والقرون ، والنأى والمزمار ، وغيرها من الآلات ، وكانت هذه المنظمات تنشأ عادة على مثال الهيئات البلدية ، فكان يقوم عليها عدد من الرؤساء ذوى الرتب المتدرجة ، وكان لها إله واحد أو آلهة متعددون تقيم له أولم معبداً وعيداً سنوياً . وكانت تعمل ما تعمله المدن فتطلب إلى ذوى المال أو ذواته رعايتها ، والأخذ بنصرها ، ومساعدة أعضائها في رحلاتهم ، وإقامة قاعات اجتماعهم ومعايهم . وكانوا يجدون هذه المساعدة على الدوام . ونحن نخطئ إذا ظننا أن هذه المنظمات كانت شبيهة باتحادات العمال في هذه الأيام . وخير ما نصورها به هو أن نقول إنها كانت أشبه بالهيئات الأخوية ، ذات العدد الذى لا يحصى من المناصب ، وألقاب الشرف ، وضروب اللهو ، والرحلات ، والمعاونات المتبادلة البسيطة . وكثيراً ما كان الأغنياء يساعدون على قيام هذه المنظمات ولا ينسونها في وصاياهم . وكان رجال المنظمة كلهم « إخوة » كما كان نساؤهم « أخوات » . وكان في مقدور العبد في بعضها أن يجلس أمام مائدة الطعام ، أو في مجلس إدارتها ، مع الرجل الحر . وكان لكل « عضو ذى مقام » يضمن لنفسه جنازة طيبة .

وقد وجد الزعماء الشعبيون على اختلاف طبقاتهم في آخر قرن من حياة الجمهورية أن في وسعهم أن يقتنعوا هذه المنظمات بأن يقتنع أفرادها على بكرة أبيهم للمرشح الذي يقدم لها المال . وبهذه الطريقة أصبحت أدوات سياسية في أيدي الأشراف ، وأصحاب المال ، والمتطرفين من السياسيين ، وكان لتنافسها في الفساد أكبر الأثر في القضاء على الديمقراطية الرومانية . وقد حرم قيصر وجودها ولكنها بقيت رغم هذا التحريم ، وحلها أغسطس كلها إلا عدداً قليلاً من المنظمات النافعة ، وعاد تراجان فحرم وجودها ، ثم سمح أورليوس بوجودها ، وما من شك في أنها ظلت قائمة طوال هذه العهود كلها داخل نطاق اقانون أو خارجه عنه ، ثم أمست في آخر الأمر مسالك دخلت منها المسيحية إلى البلاد وتغلغت في حياة رومة .

الفصل الثامن

النظام الاقتصادي والدولة

ترى إلى أى حد حاولت الحكومة في عهد الإمبراطورية أن تسيطر على الحياة الاقتصادية ؟ لقد حاولت أن تعيد ملكية الأرض إلى الفلاحين ، ولكنها عجزت عن ذلك إلى حد كبير . ولقد كان الأباطرة في هذه الناحية أكثر استنارة من مجلس الشيوخ لأن هذا المجلس كان خاضعاً لسيطرة أصحاب الضياع الكبيرة . وأراد دومتيان أن يشجع زراعة الحبوب في إيطاليا ولكنه لم يفلح فيما كان يرى إليه ، ولهذا كانت إيطاليا على الدوام تخشى الهلاك جوعاً . وأرغم فسپازيان مجلس الشيوخ على أن يرضى به إمبراطوراً بسيطرته على مصر وكانت وقتئذ مصدر القمح الذي تحتاجه إيطاليا ، وأراد سبتيوس أن يخذل خيلوه باستيلائه على شمال أفريقيا . وكان على الدولة أن تضمن استيراد الحبوب إلى إيطاليا وتوزيعها . وقد اضطرها هذا إلى أن تشرف بنفسها على الاستيراد والتوزيع . وكانت تمنح بعض الامتيازات للتجار الذين يستوردون الحبوب إلى إيطاليا وقد ضمن لهم كلوديوس أن يعوضهم مما عساهم أن يتعرضوا له من الخسارة ، وأعطى نيرون سفنهم من ضريبة الأملاك ، وكان تأخر سفن أسطول الحبوب عن الوصول في موعدها أو تحطمها هو السبب الوحيد الذي يدفع الشعب الروماني إلى شق عصا الطاعة .

وكانت السياسة الاقتصادية الرومانية تسير على مبدأ التخلي *Laissez faire* مع استثناء امتلاك الدولة للمناجم ومقالع الأحجار ، ومصايد السمك ، ورواسب الملح ، ومساحات واسعة من الأراضي المزروعة (٦٨) . وكانت القبائل الرومانية تصنع الآجر والقرميد اللازمين لبنايتها ، وكثيراً ما كانت

يستعملان في المنشآت العامة وخاصة في المستعمرات ، والراجح أن صناعة الأسلحة وعدد الحرب كانت وفقاً على دور الصناعة التي تمتلكها الدولة ، وليس ببعيد أنه قد وجدت في القرن الأول مصانع تمتلكها الحكومة كالتى نسمع عنها في القرن الثالث (٧٩) . وكانت الأعمال العامة تعطى في العادة للمقاولين تراقبهم الحكومة مراقبة بلغت من الدقة حداً اضطرتهم إلى القيام بها عادة على الوجه الأكمل ، وبأقل ما يستطاع من الارشاء والفساد (٧٠) . ثم أصبحت هذه الأعمال حوالى سنة ٨٠ م يقوم بعدد متزايد منها المحررون من عبيد الإمبراطور ، ويعمل فيها عبيد الحكومة ، ويلوح أن الغرض الوحيد من إقامة هذه المشروعات في جميع الأوقات هو تخفيف حدة التعطل (٧١) .

وكانت تفرض على التجارة ضريبة يسيرة مقدارها ١٪ من ثمن المبيعات ، ورسوم جمركية قليلة ، وعوائد في بعض الأحيان على مرور البضائع فوق الجسور واجتيازها المدن . وكان الإيدلبون Aediles يراقبون تجارة الأشنات وفق نظام بلغ الغاية في الجودة ، ولكننا إذا جاز لنا أن نصدق ما ورد على لسان شخص حائز في يثرونيوس فإنهم لم يكونوا خيراً من أمثالهم من الموظفين في غير ذلك الوقت ؛ « فقد كانوا يقبلون الرشوة من الخبلازين وأمثالهم من السفلة ... وأفواه الرأسماليين مفتوحة على الدوام » (٧٢) وكانت الشئون المالية تتأثر بتدخل الحكومة في قيمة العملة ، وبمنافسة مالية الدولة للمصارف ، ويلوح أن بيت المال كان يضطلع بأكثر الأعمال المصرفية في الإمبراطورية بجمعها . فكان يقرض المال بالربا للزراع بضمان محصولاتهم وللسكان المدن بضمان أثاث بيوتهم (٧٣) . وكانت الحروب عوناً للتجارة لأنها كانت تفتح لها موارد وأسواقاً جديدة وسيطرة على الطرق التجارية . من ذلك أن حملة جالس Gallus على بلاد العرب فتحت الطريق إلى بلاد الهند وتغلبت على منافسة العرب والبارثيين . وكان ينفى

يشكو أن الحروب تشن كي تجدد السيدات الرومانيات ويجد الغنادرة(*) من الشبان مجالا واسعا للحصول على القصور^(٧٤).

ويجب ألا نبالغ في تقدير ثروة رومة القديمة ، ذلك أن مجموع إيرادات الدولة في أيام قسبازيان لم تزيد على ١٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠ سسترس (١٥٠.٠٠٠.٠٠٠ ريال أمريكي) . . . وهي أقل من خمس ميزانية مدينة نيويورك اليوم . ولم تكن الوسائل التي تمكن الناس من جمع ثروات طائلة بطريق الإنتاج الكبير معروفة في ذلك الوقت أو أنها لم تكن يعني بها ، ولم تكن قد نشأت وقتئذ صناعة العالم الحديث وتجارته اللتان يمكن أن تفرض عليهما الضرائب العالية . ولم تكن الحكومة الرومانية تنفق على الأسطول الحربي إلا القليل من المال ، ولم تكن تنفق شيئا على خدمة الدين العام ، فقد كانت تعيش على مواردها لا على ديونها . وإذا كانت معظم الصناعات منزلية فإن منتجاتها كانت تنتقل إلى المستهلك دون أن يعترضها من الوسطاء والضرائب ما يعترضها في هذه الأيام ، فقد كان الناس ينتجون للبيئة التي يعيشون فيها أكثر مما ينتجون للسوق العامة ، وكانوا يعملون لأنفسهم أكثر مما يعمل اليوم ، ولغيرهم ممن لا يرونهم أقل مما نعمل نحن . وكانوا يستخدمون أجسامهم أكثر منا ، ويعملون زمنا أطول منا ، وكانوا في عملهم أقل منا حدة وانكبابا على العمل ، ولم يكونوا يشعرون بأنهم محرومون من آلاف الكاليات التي لا تراعى لهم أحلامهم ، ولم يكن في مقدورهم أن يشرعوا في اقتناء الثروة التي تضارع ثروتنا نحن حتى في السنين العجاف ، ولكنهم كانوا يستمتعون بقدر من الرخاء لم تعرف أمم البحر الأبيض المتوسط نظيرا له من قبل . ونستطيع أن نقول بوجه عام إنها لم تر ما يماثله بعد . وملاك القول أن العالم القديم وصل في تلك الأيام إلى أعلى درجات عظمته المادية .

(*) الغلام الغندر كجندب وقتقد سمين غليظ نام وهو الذي يطلق عليه عامة الناس لفظ « غندور » . (المترجم)

الباب السادس عشر

رومة وفنونها

٣٠ ق م - ٩٦ م

الفصل الأول

ما تدين به لليونان

لم يكن الرومان بطبيعتهم شعباً فنياً ، فقد كانوا قبل أغسطس محاربين وكانوا بعده حكاماً ، يرون أن استقرار النظام واستتباب الأمن على أيدي الحكام خير أعظم وواجب أنبل من خلق الجمال أو الاستمتاع به . وكانوا يتعاونون أعمال الأساتذة الموتى بأعلى الأثمان ، ولكنهم كانوا يحتقرون الفنانين الأحياء ويحشرونهم في زمرة الخدم . ومن أقوال سنكا وهو الرجل الرحيم الشفيق : « إنا وإن كنا نعبد التماثيل لنحتقر الذين يصنعونها » ، وكان يبدو لهم أن أشرف سبل الحياة سبيل القانون والسياسة ؛ أما الفنون اليدوية فكان أشرفها لديهم الزراعة (إذا صح أن تعد الزراعة فناً من الفنون) . وكان معظم رجال الفن في رومة ، إذا استثنينا المهندسين المعماريين ، من اليونان الأرقاء أو المحررين أو المستأجرين ، وكانوا كلهم يعملون بأيديهم ويعدون من طبقة الصنّاع ، ولم يكن المؤلفون اللاتين قط يذكر أسمائهم أو حوادث حياتهم ؛ ومن أجل هذا يكاد رجال الفن الروماني كلهم أن يكونوا مجهولي الأسماء ، فليس ثمة شخصيات حية تصبغ تاريخه صبغة إنسانية أو تضيئها كما يضيء ميرون Myron ، وفدياس ،

وبركستيلز Praxiteles ، وبرونوجنيس Protogenes قصة الفنون الجميلة في بلاد اليونان . ففيه يضطر المؤرخ إلى الحديث عن الأشياء لا عن الأشخاص وأن يحصى النقود ، والآنية ، والتماثيل ، والنقوش ، والصور ، والمباني ، ويتبدل في ذلك جهد الياثس لعله يستطيع بما يبذله من الكد في جمعها أن يصور للقارئ صورة عظيمة رومة المليئة بأسباب العظمة . ذلك أن منتجات الفن تستهوى العين أو الأذن ، أو اليد ، أكثر مما تستهوى العقل ، ويندهب ، جماله أو يكاد إذا خففته فأحله أفكاراً وأفكاراً . وليس عالم التفكير إلا واحداً من عوالم كثيرة لكل فكرة عالمها الخاص ، ومن أجل هذا كان لكل فن وسيلته الخاصة التي ينفذ بها إلى النفوس ، والتي لا يمكن أن تستحيل ألفاظاً وكلاماً ، وحتى الفنان نفسه إذا كتب عن الفن فإنه يعجز عن تصويره .

وثمة سحابة قائمة مشثومة تغشى سماء الفن الروماني خاصة : تلك هي أننا نصل إليه عن طريق الفن اليوناني الذي يبدو في أول الأمر أنه المثل الذي احتذاه ، والمرشد الذي اهتدى بهديه . وكما أن مشاعرنا تضطرب لما نشاهده في فن الهند من صور وأشكال غريبة ، فكذلك تحمد جنوة عواطفنا لما في الفن الروماني من تكرار ممل للصور والأشكال المألوفة ، ولقد تحدثنا من قبل عن الأعمدة والتيجان الدورية والأيونية والكورنتية ، كما تحدثنا عن النقوش الملساء التي اتخذت مثلاً أعلى يحتذى ، وقد كانت التماثيل النصفية للشعراء والحكام والآلهة ، والمظلمات المدهشة التي تكشف عنها آثار رمي منقولة كما يقول لنا المختصون عن أصول يونانية . ولم يكن هناك فن روماني الأصل سوى الطراز « المركب » ، وهو الذي نفر منه لتعارضه مع فكرتنا عن الوحدة والبساطة والتقييد التي ألفناها في الفن القديم . وما من شك في أن فن رومة في عصر أغسطس كان فناً يونانياً بقضيه وقضيضه ، فقد انتقلت أشكال الجمال وطرائقه فومثله العليا من بلاد اليونان إلى الفن الروماني عن طريق صقلية وإيطاليا اليونانية ، وعن طريق كبرانيا وإتروريا

وأخيراً من بلاد اليونان نفسها والإسكندرية والشرق المصطبغ بالصبغة اليونانية ؛ ولما أن أصبحت رومة سيدة بلاد البحر الأبيض المتوسط أقبل الفنانون اليونان إلى مركز الثروة والرعاية الجديده وأخرجوا صوراً لا حصر لها من روائع الفن اليوناني للهياكل والقصور والميادين الرومانية ، وكان كل فاتح يحمل معه إلى بلاده نماذج من هذه الروائع ، وكل موظف كبير ينقب في المدائن عما كان باقياً فيها من كنوز الصناعة اليونانية ، حتى أصبحت إيطاليا على مر الأيام متحفاً للرسوم والتماثيل المشتراة أو المسروقة التي صارت النسق الذي يحتضنه الفن الروماني مدى قرن كامل . وقصارى القول أن رومة قد ابتلعها العالم المتأغرق من الناحية الفنية .

على أن هذا كله ليس إلا نصف الحقيقة . أما النصف الآخر فهو أن تاريخ الفن الروماني ، كما سنرى فيما بعد ، كان من ناحية نزاعاً بين العقود والعوارض المركبة على الأعمدة ، ومن الناحية الأخرى نزاعاً بين الفن الواقعي الإيطالي الأصل الذي يحاول أن يسترد ما فقدته كما أن غزا شبه الجزيرة الفن اليوناني الذي كان يصور الآلهة لا الناس ، وبين الطراز الأفلاطوني والفكرة الأفلاطونية المجردة لا الفرد الأرضي الدنيوي الذي كان يسعى إلى تمثيل الكمال النبيل في الشكل بدل الحقيقة في الإدراك والقول . لقد أصابت الفن الروماني القوى الأصيل الذي أعان على نحت الصور على القبور التذكارية سنة من النوم بين فتح بلاد اليونان وافتتان نيرون بفنونها ؛ ولكنه في آخر الأمر حطم القالب اليوناني الصبغة وأحدث في الفن القديم انقلاباً كاملاً بما أدخله فيه من النحت الواقعي ، والتصوير التأثيري وهندسة العقود والقباء . وأضحت رومة بفضل هذه الخصائص ، وبفضل جمالها المستعار ، العاصمة الفنية للعالم الغربي ، وظلت كذلك ثمانية عشر قرناً من الزمان .

الفصل الثاني

روما الكادحة

كان الرحالة القديم ، الذى يطوف برومة فى عهد الأسرة الفلافية ، إذا سار صعداً فى نهر التيبر من أستيّا متجهاً إلى الشمال ، يشاهد من بادئ الأمر سرعة التيار المحمل بالغرين الذى يأتى به من التلال والوديان ويلقيه فى البحر . وهذه الحقيقة البسيطة هى منشأ مأساة التحات البطيئة ، والصعاب التى تعترض التجارة الصاعدة فى النهر والمنحدرة فيه ، وانطمار فم التيبر من حين إلى حين ، والفيضانات التى كانت فى كل ربيع تقريباً تطفئ على أرض رومة المستوية ، وتقصر المساكن على الطبقات العليا التى يصل إليها ساكنوها بالقوارب ، وتلف الحبوب المخزونة فى الأهرام على أرصفة الميناء ، فإذا انحسرت المياه جرفت معها المنازل ودمرتها وأهلكت الحرث والنسل (٢) .

إذا اقترب الزائر من المدينة استرعى نظره الحى التجارى الذى كان يمتد مدى ألف قدم محاذياً الضفة النهر الشرقية ، وكان يعج بضجيج العمال والحوانيت والأسواق والسلع الرائحة والغادية . وكان يقوم من ورائه التل الأفتى Aventine الذى « استقر عليه » العامة الغضاب حين غادروا رومة مضربين فى عامى ٤٩٤ و ٤٤٩ ق . م . وعلى الضفة النهر اليسرى فى هذه البقعة كانت الحدائق التى أوصى بها قيصر للشعب ، ومن ورائها الجانكيولم Janiculum . وكان بالقرب من الضفة الشرقية عند جسر إيماليوس الجميل سوق الماشية ومعبداه (القائمآن إلى هذا الوقت) المقامان للحظ وإلهة الفجر . وإلى شمال هذه السوق على الضفة اليمنى يظهر تل بلتين وتل كهتلين الملبثان بالقصور والهياكل . وقامت على الضفة اليسرى حدائق أجربا ومن

ورائها تل القاتكان ، وإلى شمال وسط المدينة بالقرب من الشاطئ البحر الشرقى كانت تمتد الخمائل الواسعة والمباني الفخمة الجميلة التى يزدان بها ميدان المريخ حيث أقيم ملهى بلبس ، وملهى يمي ، وحلبة فلامينوس ، وحمامات أجريا ، وملعب دومتيان . وهنا كانت الفياق تتدرب على الحركات العسكرية ، ويتبارى المتبارون فى الألعاب الرياضية ، وتستبق المركبات ، ويلعب اللاعبون الكرة^(٣) ، وتعد الجمعية جلساتها برياضة الأباطرة لتبحث القرارات التى يتمخض عنها شبح الديمقراطية .

فإذا نزل الزائر إلى المدينة عند طرفها الشمالى أبصر بقايا السور الذى يعزى إلى سرفيوس تليوس ، وأكبر الظن أن رومة قد أعادت بناءه بعد أن أغار الغاليون عليها فى عام ٣٩٠ ق . م ، ولكن الرومان تركوا هذا السور يتهلّم اعتماداً على قوة الجيوش الرومانية وعلى مناعة العاصمة ، ولم يشيد سور آخر إلا فى عهد أورليان (سنة ٢٧٠ م) ، فكان ذلك دليلاً على ذهاب هذه المتعة . وكانت قد فتحت فى الجدار أبواب ذات أقواس مفردة أو ثلاثية لتنفذ منها الطرق الكبرى التى سميت بأسمائها . وإذا طاف الزائر بحدود المدينة من شرقها إلى جنوبها شاهد حداثى سالت الغناء ، ومعسكر الحرس البريتورى المتعب ، وعقود مجارى الماء التى أقامها مارسيوس وأبيوس وكلوديبوس ، وأبصر عن يمينه التلال الپنسيانية والكويرينالية ، والفيمينالية ، والاسكويلينية ، والكثيلية يتلو بعضها بعضاً . فإذا ما ابتعد عن الأسوار واتجه نحو الشمال الغربى عن طريق أبيوس اجتاز باب كابيننا وممر بالسفح الجنوبى من تل پلاتين إلى الشارع الحديد Nova Via ، ثم اتجه بعدئذ شمالاً مجتازاً متاهة من العقود والمباني حتى يصل إلى السوق القديمة رأس رومة المفكر وقلبها النابض .

وكانت هذه السوق فى بادئ الأمر سوقاً حقة للبيع والشراء ، طولها ستمائة قدم ، وعرضها مئتان ؛ أما فى الوقت الذى نتحدث عنه (٩٦ م) فكان البائعون قد غادروها إلى الشوارع القريبة منها أو إلى غيرها من الأسواق ، ولكن الناس

كانوا في الباسلقات(*) المجاورة يبيعون الأسهم في اتحادات الخمارين ،
ويعاقدون مع الحكومة ، ويدافعون عن أنفسهم في المحاكم ، أويستشيرون
المحامين ليرشدوهم إلى آهون السبل للفرار من القانون .

وكانت قد أقيمت حول السوق، كما أقيمت حول وول استريت Wall Street
في نيويورك الحديثة ، هياكل متواضعة للآلة ، وصروح كبيرة للأعمال
المالية ، وازدانت بعدد كبير من التماثيل . وكان المارة يجدون من ظلال
العمد المقامة في العمائر العظيمة ما لا يجدونه من ظلال الأشجار القديمة .
وظلت من عام ١٤٥ ق . م إلى أيام قيصر مكان انعقاد الجمعيات ، فكان
في كل طرف من طرفها منصة للخطباء تسمى المنطح لأن واحداً منها قد
زين من قبل يمانطح السفن التي استولى عليها الرومان في أنتيوم عام ٣٣٨
ق . م . وكان عند طرفها الغربي « الحجر الذهبي » وهو عمود من البرنز
المذهب أقامه أغسطس علامة على التقاء عدة طرق قنصلية وعلى بدايتها ،
وقد نقشت عليه أسماء المدن الكبرى التي توصل إليها هذه الطرق ، وبعد
كل منها عن رومة . وكان يسير بجذاء جانبه إلى الشمال الغربي الطريق المقدس
Sacra Via الموصل إلى هيكل المشتري وهيكل زحل على تل الكيتول .
وإلى شمال هذه السوق يجد الزائر سوقاً أخرى أكبر منها وهي سوق لوليوم
Lulium التي أنشأها قيصر ليخفف بها الضغط الواقع على السوق القديمة ، وكان
بالقرب منها أسواق ثانوية أنشئت لأجل أغسطس وفسبازيان ، ثم عمّدت
تراجان بعد قليل من الوقت إلى توسيع أكبر هذه الأسواق وتزيينها .

ولم يكن يسع السائح حتى في هذا التجوال السريع إلا أن يحس بما بين أهل
المدينة من فوارق جمّة ، وبأن كثيراً من الأجناس المختلفة قد حشرت فيها حشراً

(١) الباسلقات بناء روماني يتكون من بهو واسع مستطيل الشكل ذي صفيين من العمد
وسقف مقبب كان يستخدم في الأغراض القضائية والتجارية ، وقد استحال معظم الباسلقات
فيما بعد كنائس مسيحية . (المترجم)

وأن شوارعها قد شقت فيها على غير نظام موضوع ، ولذلك كانت عاجزة عن الوفاء بأغراض السكان عجزاً يضايقهم ويسبب لهم أشد المتاعب والآلام . لقد كان عدد قليل من هذه الشوارع يختلف عرضه بين ست عشرة وتسع عشرة قدماً ، أما كثرتها فكانت أزقة ملتوية من الطراز الشرقي . ويشكو چوئفال من أن عربات النقل التي تعج بها الشوارع المرصوفة أثناء الليل تجعل النوم مستحيلاً ، وأن الجاهل التي تزدحم بها طرقات المدينة تجعل السير فيها بالنهار أشبه الأشياء بالحرب والكفاح ؛ « فهما أسرعنا سد علينا الطريق جيش لحب من أمامنا ، وكتل بشرية كثيفة تدفعنا دفعاً من خلفنا ، فمنهم من يضربني بمرفقه ، ومنهم من يدفعني بعمود هودج ، هذا يسقط على أم رأسي كتلة خشبية ، وذلك قارورة خمر ؛ ورجلاي يغطيهما الوحل ، وتطوئي أرجل ضخمة مقبلة من جميع الجهات . وهذا جندي يطأ أصابع قدمي بمسامير حذائه » (٤) . وكانت الشوارع الرئيسية في المدينة مرصوفة بكتل من الحصى البركانية نحاسية الأضلاع مثبتة في الأرض بقوة أمكنتها من البقاء في مكانها إلى اليوم . ولم تكن الشوارع تضاء ، ولذلك كان كل من يجرؤ على الخروج من منزله ليلاً يحمل بيده مصباحاً أو يسير خلف عبد يحمل مشعلاً ، ولم يكن في كلتا الحالين بمأمن من اللصوص ، وما كان أكثر عددهم في طرقات المدينة المظلمة . وكانت الأبواب تغلق بالأقفال والمفاتيح ، والنوافذ تشد بالمزاج ليلاً ، وما كان منها في الطابق الأرضي تحميه قضبان من الحديد كالتي تشاهد في أمثالها من نوافذ هذه الأيام . ويضيف چوئفال إلى هذه الأخطار ما كان يلحق على المارة من السوائل والجوامد من نوافذ الطبقات العليا ، ويختم حديثه بقوله إن الأبله وحده هو الذي كان يخرج من بيته للعشاء دون أن يكتب وصيته (٥) .

ولم يكن بالمدينة مركبات عامة تنقل العمال من مساكنهم إلى مقر أعمالهم ، ومن أجل ذلك كان معظم السوقة يقيمون في مساكن عامة من الآجر بالقرب من

وسط المدينة أو في حجرات خلف حوائطهم أو في أعلاها . وكان كل مسكن عام يشغل في العادة مربعاً كاملاً من الأرض ، ولذلك كان يطلق عليه لفظ *Insula* أو جزيرة . وكان الكثير من هذه المباني يعلو ستة طباق أو سبعة ، وكانت ضعيفة البناء ضعفاً جعل الكثير منها ينهار على من فيه ويقضى على حياة مئات منهم . وقد حدد أغسطس ارتفاع واجهات المباني بسبعين قدماً رومانية ، ولكن يبدو أن هذا القانون كان يسمح بارتفاع الأجزاء الخلفية منها إلى أكثر من هذا القدر لأن مارتياك يحدثنا عن « بائس مسكين يسكن حجرة عليا يرتقى إليها بماتى درج » (٦) . وكان في الطبقات السفلى لكثير من المساكن حوائط ، وكان لبعضها شرفات في الطبقة الثانية وكان قليل منها يصلها من أعلاها بالمساكن المقابلة لها في الشارع ممرات ذات عقود تحتوى حجرات إضافية يتخذها بعض العامة منازل لهم غير مأمونة . وكانت هذه الجزائر تكاد تغص بها الطريق الجديدة النوافيا *Novavia* ، والكليفس *Clives Victoriae* (تل النصر) ، في أعلى تل الپلاتين ، وحى الصابورا وهو حى صاحب مليء بالمواخير بين الشمال *Viminal* والإسكوبيلين *Esquiline* حيث كان يسكن صيادو الأسواق وقصابو مسيلوم *Macellum* وبائعو السمك من رجال سوق السماكين ، وبائعو الماشية أهل سوق البقر ، وبائعو الخضر ، أهل سوق الخضر ، وجميع عمال رومة وكتبها وأهل الحرف فيها . وكانت أحياء رومة الفقيرة تمتد إلى أطراف السوق العامة الكبرى .

وكانت الحوائط تقوم على جانبي هذه السوق ، وكانت تتردد فيها أصداء ضجيج العمال ولجاجة المساومين . وكان بائعو الفاكهة ، والبست ، والعمود ، والطحانون ، والصباغون ، وتجار الزهور والآلات الحادة والأفقال ، والصيادلة ، وغيرهم ممن يقضون حاجات الناس وشهواتهم وأسباب غرورهم وكبريائهم ، كان هؤلاء جميعاً يزحمون الشوارع بمظلاتهم وأكواخهم الممتدة فيها : وكان

الحلاقون يمارسون مهنتهم في الهواء الطلق حيث يستطيع الناس جميعاً أن يستمعوا لثرثرتهم . وبلغت حانات الخمر من الكثرة درجة خيل معها إلى مارتياك أن رومة حجرة استقبال واحدة ضخمة (٧) . وكان أهل كل حرفة ينزعون إلى التجمع في حي أو شارع واحد وكثيراً ما كان يطلق اسم هذه الحرفة على الحي أو الشارع الذي تستقر فيه . فكان صنّاع الأحذية ذات السيور (الصنادل) يتجمعون في الفيكس سندلريوس Vicus Sandalarius ، وصنّاع السروج في الفيكس لوراريوس Vicus Lolarius ، وصنّاع الزجاج في الفيكس قتراريوس Vicus Vittrarius ، والصباغ في الفيكس مرجرتريوس Vicus Margaritarius

وفي هذه الحوانيت وأمثالها كان الفنانون الطليان يقومون بأعمالهم لا يستثنى منهم أحد إلا أعظمهم شأنًا ممن كانوا يؤجرون على أعمالهم أسخى الأجور ، ويحيون حياة الترف والتجوال أمثال أرسسلوس Arcesilaus الذي منحه لوكلس مليون سسترس لكي يصنع تمثالا للإلهة بلستاس Pelicitas ، وزنودورس Zenodorus الذي أعطى ٤٠٠,٠٠٠ ليقم تمثالا ضخماً لعطارد (٨) . وكان المهندسون المعماريون والمثالون يقدرون كما يقدر الأطباء والمدرسون ، والكيماويون لأنهم جميعاً يمارسون فنون الأحرار Artes liberales ، مع أن الذين يقومون بمعظم الأعمال الفنية في رومة كانوا إما عبيداً أو محررين ، وكان بعض من يملكون العبيد يعلمونهم النحت والتصوير وغيرها من الفنون التي تتطلب الحذاق ، وكانوا يبيعون ما يخرجونه لهم في إيطاليا وفي خارجها . وكان العمال في هذه الحوانيت منقسمين أقساماً متباينة كل التباين ومنفصلة بعضها عن بعض . فمنهم الإخصائيون في صنع آنية النذور ، ومنهم من يصنعون مظلمات الزينة ، ومنهم من يقطعون الأعين الزجاجية للتماثيل ، ومن الرسامين من كان يصنع النقوش على الطراز العربي أو الأزهار أو المناظر الطبيعية ، أو الحيوانات ، أو الرجال ، وكان يحدث أن يعمل عدد من هؤلاء بالتناوب في الصورة الواحدة . وقد برع جماعة من الفنانين

فى تزيف التحف الفنية ، فكانوا يقلدون ما صنع منها فى عصر من العصور القديمة التى يرغب الناس فى اقتناء مخلفاتها^(٩) . وكان أهل القرن الأول قبل الميلاد ينجذبون بسهولة فى هذه المخلفات ، لأنهم كغيرهم من الأغنياء المحدثين يميلون إلى تقويم الأشياء حسب أثمانها وندرتها ، بدل أن يقوموها حسب جمالها ومنافعها . ولما أضحي الثراء من غير المميزات فى عهد الإمبراطورية صلحت أذواق الناس وجاء حب الجمال والجودة الحقة إلى آلاف عدة من الأسر بالآنية الرقيقة والتحف الجميلة التى لم يعرف أمثالها فى مصر وأرض الجزيرة واليونان إلا عدد قليل من الناس . وكان شأن الفن فى الزمن القديم كشأن المنتجات الصناعية فى هذه الأيام . نعم إن الناس لم يكونوا ينعمون بالمنتجات الكثيرة النافعة التى تخرجها آلاتنا فى هذه الأيام ، ولكنهم كان فى وسعهم ، إذا شاءوا أن يحيطوا أنفسهم شيئاً فشيئاً بالتحف التى عنى الفنان أشد العناية بصنعها وصقلها ، والتى كانت تهب من يفتنيها كل ما تهبه الروائع الفنية الجميلة من أسباب السعادة الحفية الهادئة .

الفصل الثالث

بيوت العظماء

لو أن زائراً في ذلك الوقت أراد أن يدرس مساكن الطبقة الوسطى من سكان رومة لوجدها بعيدة عن وسط المدينة على جانبي الطرق الرئيسية المتفرعة منه إلى أطرافها . وكانت جدرانها الخارجية المقامة من الآجر والجبس لا تزال تبنى كما كانت تبنى قبل على النمط البسيط المتين الذي تحتمه ضرورات الأمن وحرارة الجو ؛ ولم يكن أهل الطبقة الوسطى من الرومان أسخياء بما عندهم من الفن يضيعونه لكي يتمتع به من يمرون ببيوتهم . وقلما كانت البيوت تعلو أكثر من طابقين ، وكانت السرايب التي تتخذ لخزن المؤن نادرة ، والسقوف تتألف عليها قطع القرميد ، والنوافذ ذات مصاريع أو ألواح من الزجاج في بعض الأحيان . وكان لدخول الدار في العادة باب ذو مصراعين يدور كل منهما على عقين من المعدن . وكانت أرض الدار تصنع من مزيج متناسك من الكلس والحصا والرمل أو من القرميد ؛ وكثيراً ما كانت تصنع من مربعات الفسيفساء ، ولم تكن تفرش عليها طنافس . وكانت الحجرات الرئيسية في البيت تتجمع حول الردهة الوسطى . وهذا النظام هو الأصل الذي نشأت منه هندسة الأديرة والساحات المربعة المحاطة بالأبنية في مقر الجامعات العلمية . وكانت إحدى الحجرات في بيوت الأغنياء من أهل هذه الطبقة تستخدم للاستحمام ، وذلك في أحواض شبيهة كل الشبه بما نستخدمه منها الآن . أما الأدوات الصحية فقد بغلت عند الرومان درجة من الرقي لا نظير لها قبل القرن العشرين . فقد كانت أنابيب من الرصاص تحمل الماء من القنوات المائية المبنية ومن الأحواض الرئيسية إلى معظم المباني والمساكن ، وكانت الصنابير والمحابس تصنع من البرنز ويشكل بعضها أشكالاً

جميلة : وكانت الأنايب والميازيب المتخذة من الرصاص تحمل الماء من أسطح المباني ؛ ولما كانت الحجرات تدفأ تدفئة صناعية ، فإذا أرادوا تدفئتها اتخذوا لذلك مواقد متنقلة يحرقون فيها فحم الخشب . وكان عدد قليل من البيوت ، وكثير من منازل الضواحي ذات الحدائق ، وقصور الأغنياء والحمامات العامة ، كانت هذه كلها تستمتع بمراكز رئيسية للتدفئة ذات أفران يحرق فيها الخشب أو فحمه ، وتمدد عدداً كبيراً من الحجرات بالهواء الساخن يسير في أنايب من القرميد أو في ممرات في أرض المنزل وجدرانها (*) .

ثم أضيفت إلى بيوت الأغنياء في أوائل عهد الإمبراطورية متعة جديدة مأخوذة عن اليونان . ذلك أن الأغنياء لحرصهم على أن يهشوا لأنفسهم مكاناً منعزلاً لا يجدونه في الردهة الوسطى كانوا يبنون خلفها بهواً من غير سقف يغرسون فيه الأزهار والشجيرات ، ويزينونه بالتماثيل ، ويحيطونه بالأروقة ذات العمد ، وينشئون في وسطه فسقية أو بركة للاستحمام . وكانوا يشيدون حول هذا البهو طائفة جديدة من الحجرات : واحدة للطعام ، و « بيتاً » للنساء ، ومتحفاً لمجموعاتهم الفنية ، ومكتبة لكتبهم ، وهيكل لآلهة بيوتهم . وقد يكون لهم أيضاً حجرات إضافية للنوم ، وقباب صغيرة بارزة في الحجرات تتخذ أيضاً مخادع في الليل وترفع منها الأسرة بالنهار . وأما البيوت التي لا يبلغ أصحابها من الثراء مبلغ أصحاب البيوت السابقة فكانوا يستبدلون بذلك البهو الكبير حديقة ، وإذا لم يجدوا فيها متسعاً لها وضعوا أصص الأزهار في النوافذ ، أو غرسوا الأزهار والشجيرات على أسطح الدور . ويقول سنكا إن بعض الأسطح الكبيرة كان فوقها عرائش كروم وأشجار فاكهة ، وأشجار للظل مغروسة

(*) ويصف فيتروفيوس Vitruvius هذه الوسيلة من وسائل التدفئة كما كانت في عام ١٠٠ ق . م . ولم يكد يحل العام العاشر بعد الميلاد حتى انتشرت انتشاراً واسعاً وخامسة في الشمال حتى وصلت إلى بريطانيا نفسها وما هي ذى الآن قد أخذت تعود عوداً بطيئاً .

في صناديق ملأى بالطين^(١٢) . وكان لعدد غير قليل منها مشامس يعرض فيها أصحابها أجسامهم لأشعة الشمس .

ومن الرومان عدد كبير سثموا حياة الضجيج والسرعة في رومة ففروا منها إلى هدوء الريف وسكونه . وقد نشأ عند الأغنياء والفقراء على السواء ميل شديد إلى الطبيعة يفوق كل ما عرفناه عن هذا الميل عند اليونان . وكان چوثنال يرى أن الأحق وحده هو الذى يسكن في العاصمة ، وفي وسعه أن يبتاع بالأجر الذى يؤديه في عالية مظلمة في رومة ، بيتاً جميلاً في بلدة إيطالية هادئة ، وتحيط به « حديقة أنيقة خليقة بأن يقيم فيها مأدبة لمائة من أتباع فيثاغورس »^(١٣) . وكان أغنياء رومة يتركونها في بداية الصيف ليقيموا في بيوت خلوية على سفوح الأبنين أو على سواحل البحر أو البحيرات . وقد ترك لنا بلاني الأصغر وصفاً ممتعاً لمينته الريفى في لورنتم على ساحل لانيوم . ويقول عنه إنه من السعة بالقدر الذى يستريح له ، وإن نفقاته لا ترهقه ؛ ولكنه بعد أن يستمر في وصفه يخجل إلينا أن في هذا الوصف شيئاً من التواضع ، فهو يحدثنا فيه عن مدخل من فوقه نوافذ زجاجية وتعلوه طنف . . . وبه حجرة جميلة للطعام تعانقها آخر أمواج البحر عنقاً خفيفاً ، وتضيؤها نوافذ واسعة تطل على البحر من ثلاث جهات فتحسبه ثلاثة أبحر مختلفة ، وبه ردهة كبرى « يمتد بصر من فيها إلى الغابات والجبال » ، وحجرتا استقبال ومكتبة على شكل نصف دائرة تستقبل نوافذها الشمس طول النهار ، وحجرة للنوم وعدة حجرات للخدم . وكان للبيت جناح منفصل عنه يحتوى « حجرة استقبال ظريفة » ، وحجرة أخرى للطعام وأربع حجرات صغيرة ، وحماماً ، وتوابعه وتشمل « حجرة جميلة لخلع الملابس » ، وحماماً بارداً ، وحماماً فاتراً به ثلاث برك مختلفة حرارتها ، وحماماً ساخناً ، تسخنها كلها أنابيب من الهواء الحار . وكان في خارج البيت بركة للسباحة ، وساحة للعب الكرة ، ومخزن ، وحديقة متنوعة الغروس ، وحجرة خاصة للمطالعة ، وردهة للمآدب ، وبرج للأرصاد يحتوى على شقتين وحجرة للطعام

ويختم بلى هذا الوصف بقوله : « والآن حدثوني : أأست على حق إذا آثرت هذا الملجأ اللطيف بوقتي وجبوتى بعطفي ؟ » (١٤) .

وإذا كان فى مقدور عضو فى مجلس الشيوخ أن يكون له هذا المسكن الريفى على شاطئ البحر ، ومسكن آخر على بحيرة كومو ، فإن فى وسعنا أن نتصور ما كان عليه قصر تيبيريوس فى ضيعته عند كبرى أو قصر دومتيان عند ألبانجا ، دع عنك قصر هديران الذى أنشأه فى تيبور Tipur بعد قليل من هذا الوقت الذى نتحدث عنه .

وإذا أراد الزائر أن يجد مثيلاً لهذا الإسراف فما عليه إلا أن يتخذ سبيله إلى قصور الأثرياء والأباطرة على تل الپلاتين . ولم يكن الرومان يحرصون فى هندسة منازلهم على محاكاة هندسة بلاد اليونان القديمة حيث كانت البيوت المتواضعة . حيث لم يكن يوجد من الأبنية الفخمة إلا القصور ، بل شادوا قصورهم على نمط قصور الملوك الذين كانوا يحكمون البلاد المصطبغة بالصبغة اليونانية ، والذين تأثروا أشد التأثير بالعادات والأنماط الشرقية . فقد جاءت أنماط البطالة إلى رومة مع ذهب كليوبطرة ، ورافقت هندسة البناء الملكية أساليب الملوك السياسية . وقد اتسع قصر أغسطس الذى سمي باسم التل المقام فوقه بما أضيف إليه من الملحقات حين تضاعفت الشؤون الإدارية الخاصة بالقصر الإمبراطورى . وشاد معظم خلفائه قصوراً إضافية لهم ولموظفيهم ، فشاد تيبيريوس قصره المسمى دومس تيبيريانا Domus Tiberiana وكلجيولا قصره المعروف باسم دومس جيانا Domus Giana وشاد نيرون دومس أوريا Domus aurea أى القصر الذهبى .

وأضحى هذا القصر الذهبى أعجوبة الأعاجيب فى رومة ، فقد أقيمت مبانيه وحدها على مساحة قدرها تسعمائة ألف قدم مربعة ، ولم تكن هذه إلا جزءاً صغيراً من القصر الذى انتشر من تل الپلاتين إلى التلال المجاورة له . وكان يحيط به بستان عظيم يشمل حدائق ونماثل وبركا للسماك : ومسارح

لحيوان الصيد ، وأبراجاً للطير وكروماً ، ومجارى مائية ، وعيوناً فوارة ،
ومساقط مائية ، وبحيرات وسفائن إمبراطورية ، وبيوتاً للهو ، ومصاريف ،
ومشائل لتربية الأزهار ، وأروقة ذات عمد يبلغ طولها ثلاثة آلاف
قدم . وقد حفر أحد الفكهين على جدار من جدران هذا القصر هذه العبارة
العظيمة الدلالة : « لقد أصبحت رومة كلها مسكن رجل واحد ،
وآن أن تهاجروا أيها المواطنون إلى قياى - إلا إذا كانت قياى نفسها
سيحتويها بيت نيرون »^(١٥) . أما داخل القصر فكان يتلأأ فيه الرخام
والبرنز والذهب فضلاً عن المعادن المذهبة التي تغطي تيجان العمد الكورنثية ،
ومعها آلاف التماثيل والنقوش البارزة ، والرسوم الملونة ، وروائع الفن
التي جىء بها من أنحاء العالم القديم أو نهبت منها نهباً ، ومنها اللاوكون
Laocoon . وكانت بعض الجدران مرصعة باللؤلؤ وغيره من الجواهر
الغالية ، وكان سقف حجرة المآدب مغطى بأزهار من العاج ، يسقط منها
بإشارة من الإمبراطور رشاش من العطر على الضيوف . وكان لحجرة
الطعام سقف كرى من العاج ، منقوش بحيث يمثل السماء والنجوم ،
تحركه حركة بطيئة دائمة آلات مخفية عن الأبصار . وكانت بالقصر
طائفة من الحشرات بها حمامات حارة وأخرى باردة أو فاترة المياه ،
وحمامات ذات مياه بحرية وأخرى كبريتية . ولما كاد المهندسان الرومانيان
سلر Celer وسفيرس Severus يفرغان من تشييد هذا الصرح العظيم ودخله
نيرون قال : « لقد سكنت آخر الأمر » . وبعد جيل من ذلك الوقت
أهمل هذا القصر العظيم الذى يحاكي قصور فرساي في العصر الحديث
لكثرة ما يتطلبه الاحتفاظ به من النفقات ، وما يتعرض له من الأخطار ،
وما يحيط من الفقر ، وشاد فسبازيان على أنقاضه الكلوسيوم كما شاد
عليها تيتس وتراجان حماماتهما الضخام :

وشارك دومتيان نيرون في جنون البناء ، فقد شاد له ربريوس Rabirius
قصره المعروف ببيت فلافيا Domus Flavia . ولم يبلغ هذا البيت

من الضخامة مبلغ متحف نبرون ، ولكنه لم يكن ينقص عنه في الروعة والزينة ، وكان في جناح واحد منه باسقا واسعة الأرجاء ، ولعلها هي البهو الذي كان الإمبراطور ينظر فيه القضايا التي تستأنف إليه في مرحلتها الأخيرة ، وكان هذا الجناح نفسه يضم رواقاً سعته ثلاثون ألف قدم مربعة ، تجاوره حجرة للمآدب أرضها من الرخام البرقيري الأحمر والحجر الملوى الأخضر الذي لم يقو الزمان حتى الآن على إبادته فيما أباد من الستائر الرخامية الرقيقة والنوافذ ذات العمد الجميلة التي كان المدعوون بعد فراغهم من الطعام يشاهدون من خلالها الماء يسقط في الأحواض الرخامية من الفوارات القائمة في خارجها .

وجدير بنا أن ننبه القارئ إلى أن دومتيان لم يكن يستخدم هذا القصر إلا في الحفلات وفي الأعمال الإدارية ، أما مسكنه فكان في قصر أغسطس الذي يقل عن هذا القصر ضخامة وفخامة . وما من شك في أن هذه الصروح الملكية كانت جزءاً من المظاهر الخارجية للإمبراطورية الرومانية ، قصد بها أن تلقى الروح في قلوب الأهلين والزائرين والسفراء ، أما الأباطرة أنفسهم — مع جواز استثناء كلجيولا ونبرون — فكانوا يضيقون ذرعاً بالمراسم التي تجرى في قاعات الحفلات ، فيفرون منها إلى الدعة والألفة في مساكن أسرهم ، حيث يستمتعون « بلذة كونهم رجالاً » على حد قول أنطونينس پيوس Antoninus Pius .

الفصل الرابع

الفنون والنقوش

وكانت مئآت الفنون تستخدم في هذه القصور وفي بيوت الأغنياء لتجعل كل شيء فيها عظيم النفقة إن فاتها أن تجعله جميلاً . فقد كانت أرضها في الغالب من الرخام المتعدد الألوان ، أو الفسفساء الذي غنى فيه صانعوه بجمع المكعبات الصغيرة الكثيرة الألوان Cesserae ، وبذلوا في ذلك الكثير من الجهد والوقت ، فأخرجوا منها رسوماً مذهشة في واقعيتها وثباتها . وكان أثاث هذه القصور أقل عدداً من أثاث بيوتنا وأقل منه مجلبة للراحة ، ولكنه يفوقه في فخامة نقشه ودقة صنعه فكانت المناضد ، والكراسي ، والمقاعد ، والمضاجع ، والأسرة ، والمصابيح ، والأواني ، كلها تصنع من المواد المتينة ، كما كانت كثيرة الزينة . وكانت خير أنواع الخشب ، والعاج ، والرخام ، والبرنز ، والفضة ، والذهب تخرط وتصقل يمتهى الدقة والعناية ، وتنقش عليها صور لأنواع النبات والحيوان ، أو ترصع بالعاج ، والفيروز ، والصدف ، والبرنز المنقوش ، أو الحجارة الكريمة . وكانت المناضد تصنع أحياناً من خشب السرو أو الليمون الغالي ، وكان بعضها يصنع من الذهب أو الفضة ، والكثير منها يصنع من الرخام أو البرنز . أما المقاعد فكانت على أشكال لا حصر لها ، منها مقاعد تطوى إلى عروش للأباطرة ولكنها كانت أقل تشويهاً للعمود الفقري من مقاعد هذه الأيام . وكانت الأسرة تتخذ من الخشب أو المعدن ، وكانت ذات أرجل رفيعة ولكنها ثابتة متينة تذى في كثير من الأحيان برووس الحيوانات أو أقدامها ، وكانت عليها شبكة برنزية تحمل حشية النقش أو الصوف بدل الشبكات اللولبية التي تستخدم في هذه الأيام . وكانت نضد رشيقة ذات ثلاث أرجل تستخدم في

الأغراض التي تستخدم فيها فضلنا ، وكانوا يضعون في أماكن مختلفة من الحجرات خزانات ذات عيون لتوضع فيها الكتب الملفوفة . وكانت مواقد من البرنز تدفئ الحجرات ، ومصابيح من البرنز تضيئها . وكانت المرايا تصنع أيضاً من البرنز ، وتصل صقلاً جيداً ، وتنقش عليها أو تحفر فيها أزهار أو صور خرافية . وكان بعضها محدباً أو مقعراً أفقياً أو رأسياً لكي يغير من الصور المعكوسة عليها فيجعلها رقيقة أو ضخمة تثير الضحك .

وكانت مصانع كمانيا تستخدم منتجات المناجم الأسبانية الفنية فتصنع الكثير من الآنية الفضية لتباع في الأسواق ، وبذلك انتشرت صحاف الطعام الفضية في بيوت الطبقتين الوسطى والعليا . وقد عثر أحد الحفارين في عام ١٨٩٥ في حوض لبيت ريفي في بسكوريل Boscoreale على مجموعة عجيبة من الآنية الفضية لعل مالكيها قد وضعها فيه قبل أن ينجو بحياته من نيران بركان ويزوف حين ثار في عام ٧٩ م . ووجدت على أحد الأقداح نقوش لا يكاد يمسه أذى لأوراق نباتية بسيطة ، ووجد على قدحين صورة هيكلين عظيمين بارزين ، وعلى إناء آخر صورة أغسطس بين الزهرة والمريخ وهما الإله والإلهة اللذان يتنازعان فيما بينهما السيطرة على الجنس البشري ، ومنها قدح يدل على شدة الخبث والدهاء وعليه نقش يمثل زينون الفيلسوف الرواقى يشير في سخرية إلى أبيقور وهو يلتهم قطعة كبيرة من الفطائر ، وإلى جانبه خنزير رافع ساقه الأمامية يسأله في أدب جم أن يعطيه قطعة منها ،

ويدل ما وجد من النقود والجواهر في عصر الإمبراطورية الأول على ما وصل إليه فن الحفر من رقى . ويدل ما وجد منها من عصر أغسطس على نفس الذوق الجميل الذي تدل عليه الرسوم التي يشاهدها الإنسان على مذبح السلام كما يحتوى أحياناً على نفس هذه الرسوم . وكانت الأحجار الكريمة المستوردة من أفريقية وبلاد العرب والهند تقطع وتركب في الخواتم ،

ودبابيس الصدور ، والعقود ، والأساور ، والأقداح ، بل وفي الجدران أحيانا . وكان ليس خاتم في إصبع واحدة على الأقل من الضرورات الاجتماعية التي لا غنى عنها ، وكان من المتظرفين عدد قليل يلبسون خواتم في جميع أصابعهم عدا واحدة منها . وكان الروماني يطبع إمضاءه بخاتمه ، ولهذا كان يحرص على أن يكون هذا الخاتم فريداً في رسمه . وكان من بين الفنانين الذين يتلون أعلى الأجور عدد من قاطعي الجواهر أمثال آل دسكوريدس الذين صنعوا خاتم أغسطس . وقد وصل العصر الذهبي في قطع حجر القيمو إلى مستوى من الرقي لم يفقه فيه عصر آخر ، ولا يزال أبجل ما وجد في العالم من جواهر جوهرة أغسطس *gemma Augusta* المحفوظة في فيينا . وكان جمع الجواهر والحلى ذات النقوش البارزة هواية أثرياء الرومان — ومنهم بيمبي وقيصر وأغسطس . وقد ظل ما في خزائن الأباطرة من جواهر يتكاثر على مر الزمن بما ورثوه منها عن أسلافهم حتى باعه ماركس أورليوس لينفق من ثمنه على حربه ضد الماركوماني . وقد أخذت إنجلترا منصب حافظ الخاتم الأكبر أو الخاص عن منصب حارس الأختام والجواهر الإمبراطورية في أيام الرومان .

وفي هذه الأثناء كان خزافو كهوا ، وبيثولي ، وكومية ، وأرتيوم يملأون بيوت الإيطاليين بجميع أنواع الآنية الخزفية . وكان في أرتيوم خوابي للخلط تتسع لعشرة آلاف جالون . وقد ظل ما تصنعه من صحاف الطعام المطلية بقشرة زجاجية حمراء مدى قرن كامل أكثر الصحف انتشاراً في إيطاليا . ووجدت بعض هذه الصحف في إيطاليا بأجمعها فلم يكذب يخلو منها مكان واحد فيها . وكانت الأختام الحديدية البارزة الحفر تستخدم في طبع كل مزرعية ومصباح وقطعة من القرميد باسم صانعها ، وكان يطبع عليها أحيانا أسماء القنصلين الحاكمين دلالة على تاريخ صنعها .

هذا هو الحد الذي بلغه علم القدماء بفن الطباعة ، وقد تركوه دون أن يرتقوا

به إلى ما فوق هذا القدر، لأن النساخين الأرقاء كانوا يتفاضون أجوراً قليلة (١٨). وانتقل صناع كيرمية، ولترنوم، وأكوبليا، من صنع الخزف إلى صنع الزجاج الفني الجميل (*). ومن أشهر أمثلة هذه الآنية الزجاجية مزهرية بورتلاند (**). وأجمل منها « المزهرية الزجاجية الزرقاء » التي عثر عليها في بمبي والتي نقش عليها عيد نحري لباخوس نقشاً جميلاً ينبض بالحياة (١٩). ويقول بلني واسترابون (٢٠): إن فن صنع الزجاج قد نقل في عهد تيبيريوس من صيدا والإسكندرية إلى رومة، وسرعان ما أخرج فناؤه قنينات صغيرة، وقداحاً وطاسات، وأواني أخرى متعددة الألوان دقيقة الصنع، جميلة المنظر أصبحت في وقت ما مطلب الأثرياء وجامعي الروائع الفنية. وقد عرض في عهد نيرون ستة آلاف سسترس ثمناً لعدحين صغيرين من الزجاج المنفوخ المعروف في هذه الأيام باسم « ميل فيوري milliefiori » أو « الزهرات الألف »، صنعا بصهر عصي زجاجية مختلفة اللون. وكان أغلى من هذين ثمناً مزهريات « مورين » Murrhine التي جيء بها من آسية وأفريقية. وكانت تصنع بوضع خيوط رفيعة من الزجاج الأبيض والأرجواني بعضهما بجوار بعض للحصول على الرسم المطلوب،

(*) وقد وجد السوريون والمصريون قبل ميلاد المسيح بنحو مائتي عام أن صهر الرمل مع مادة قلوية في درجة حرارة عالية ينتج سائلاً نصف شفاف ذا لون ضارب إلى الخضرة (منشؤه ما في الرمل من أكسيد الحديد)؛ وأن إضافة أكسيد المنجنيز والرصاص إلى هذا المزيج يجعله عديم اللون كامل الشفاف، وأن ظلالاً مختلفة من هذا اللون يمكن الحصول عليها بإضافة مواد كيميائية مختلفة إليه - فاللون الأزرق مثلاً ينتج بإضافة الكوبلت. وكانت العجينة الرخوة تشكل باليد أو تنفخ في قوالب، وتترك حتى تجف ثم تقطع وتشكل على عجلة. (***) وأكبر الظن أن هذه المزهرية المكونة من عدة طبقات من الزجاج بعضها فوق بعض يونانية الأصل. وقد عثر عليها بالقرب من رومة في عام ١٧٧٠، وجاء بها دوق بورتلاند، ثم أعيدت للمتحف البريطاني في عام ١٨١٠. وفي عام ١٨٤٥ حطمها رجل مجنون إلى ٢٥٠٠ قطعة، ولكنها أعيدت إلى ما كانت عليه بنجاح بلغ من شأنه أنه لما عرضها دوق بورتلاند وقتئذ للبيع في عام ١٩٢٩ عرض عليه ١٥٢٠٠٠ دولار ثمناً لها، ولكنه رفض هذا العرض لأنه رآه أقل من قيمتها.

سم إشعال النار فيها ، أو ترصيع جسم أبيض شفاف بقطع من الزجاج الملون . وقد جاء بمجي برواتع من هذا النوع إلى رومة بعد انتصاره على مثر داتس . واحتفظ أغسطس لنفسه بكأس كليوبطرة المصنوعة من زجاج مرهين ، وإن كان قد صهر صحافها الذهبية ؛ وقد دفع نيرون مليون سسترس ثمناً لقلح من هذا النوع ، وكسر بطرونيوس قلحاً آخر وهو يحتضر حتى لا يقع في يد نيرون ؛ ويمكن القول بوجه عام إن الرومان لم يفقههم أحد في صنع الزجاج ؛ وقلّ أن يوجد في العالم مجموعات فنية أثمن من مجموعة الآنية الزجاجية الرومانية المحفوظة في المتحف البريطاني وفي متحف العاصمة الفنّي بنيويورك .

الفصل الخامس

النحت

انتقل فن الحزف إلى النحت عن طريق الصلصال المحروق - من نقوش بارزة ، وتمائيل صغيرة ، ولعب ، ومحاكاة للفاكهة والعنب والسمك - حتى وصل آخر الأمر إلى تماثيل بالحجم الطبيعي . وقد وجد الشيء الكثير من هذه في خرائب بيمبي . وكانت قواصر الهياكل وطفها تزينها نقوش تمثل سعف النخل ومثقفات وميازيب في صورة رؤوس حيوانات ونقوش بارزة . وكان اليونان يسخرون من هذه الحليات ، وقد أصبحت في عهد الإمبراطورية من الطرز العتيقة ، ولم يكن أغسطس ممن يحبون أن تزين القصور بالطين محروقاً كان أو غير محروق .

ولعل ذوقه الأنبيكي هو الذي سما بفنى النقش والنحت حتى بلغا من الروعة في رومة منزلة تضارع ما بلغته أحسن النقوش والتماثيل في البلاد التي امتدت إليها الحضارة اليونانية ؛ فقد ظل الفنانون في رومة جيلاً ينتحون الفساق ، وشواهد القبور ، والعقود ، والمذابح نحتاً تلبو فيه رقة الشعور ، ودقة العمل ، وروعة الشكل وهدهوّه ، كما يبدو فيه قدر من التشكيل ومراعاة المنظور يرفع النقوش الرومانية إلى مستوى الآيات الفنية العالمية .

أما النحت فحسبنا أن نقول فيه إن مجلس الشيوخ احتفل بعودة أغسطس إلى رومة في عام ١٣ ق . م بعد أن أعاد السلام إلى أسبانيا وغالة بأن أمر بإقامة « مذبح السلم الأغسطية Ara Pacis Augustae » في ميدان المريخ ، وهذا المذبح أفخم ما بقي من أعمال النحت في رومة ، ولعل شكله مأخوذ عن مذبح برجوم Pergamum ، ولعل فكرته مأخوذة عن طنف البارثون المنقوش . وقد أقيم المذبح على مرتفع قليل في مساحة مسورة شيد بعض أسوارها

من المرمر المنقوش . وكل ما بقى من هذا الهيكل قطع من هذه الأسوار(*) . وتمثل إحداها تلس Tellus — الأم الأرض — وبين ذراعها طفلان ، وإلى جانبها ينمو الحب والزهر ، وعند قدمها ترقد حيوانات وادعة راضية . وتلك هى المبادئ الرئيسية التى قامت عليها إصلاحات أغسطس : عودة الأسرة إلى أحضان والديها ، وعودة الأمة إلى الزراعة ، وعودة الإمبراطورية إلى السلم . والرسم الأوسط لا يكاد يفوقه رسم آخر مهما عظم ، والحق أن فيما جمعه من الأمومة الناضجة ، والجمال الأنثوى ، ورقة القلب ، ورشاقة الشكل ، لكى لا ورقة لا ترقى إليهما آلهات البارثون الفخمة العظيمة . « وكان لطائف السور الخارجى بروز سفلى ذو درج مستف (**) ، أو منقوش عليها تويجات الفاوينا والخشخاش العريضة ، وعناقيد كبيرة من ثمار اللبلاب . وهذه أيضاً نجد لها نظيراً فى غير هذه التحفة الفنية . وعلى بروز آخر نقش موكبان يتحركان فى اتجاهين متضادين ليلتقيا أمام مذبح آلهة السلام . وفى هذه المجموعات صور هادئة وقوية لعلها صور أغسطس وليشيا والأسرة الإمبراطورية ، ومعها عدد من النبلاء والكهنة والعدارى الفستية والأطفال . وصور الأطفال واقعية جذابة تستلفت النظر بحبانها وطهرها . ومن بينها طفل رضيع يحبو كأنه لا يجد لذة فى هذا الاحتفال ، وآخر وهو ولد يفخر بما بلغه من العمر ، وطفلة صغيرة بيدها طاقة زهر . وأخرى تؤنّبها أمها على عمل خبيث ومن ذلك الحين بدأ الأطفال يكون لهم شأن متزايد فى الفن الإيطالى ؛ ولكن فن النحت الرومانى لم يصل فى يوم من الأيام إلى ما وصل

(*) وقد كانت أكبر هذه القطع إلى عهد قريب فى متحف الترمي *Musei del Terme* بروما ، وبعضها فى قصر الفاتيكان ، وفى معرض الأفيزى *Uffizi Gallery* فى فلورنس ، وفى متحف اللوفر .

(**) السنف ضرب من زخرفة البناء يكون غل صورة أوراق نبات السنف ، وأكثر ما يرى على قم تيجان الأعمدة الكورنثية والرومانية والبيزنطية والأبنية فى العصور الوسطى .
(المترجم)

إليه وقتئذ من قدرة على تصوير السجف ، والمجموعات الطبيعية القوية المؤثرة ، وتنظيم الأضواء والظلال تنظيماً أوفى على الغاية في الإتقان . وقد وجد الإيطاليون في هذا النقش كما وجدوا في شعر فرجيل أكمل وسيلة للدعوة لأنفسهم وإذاعة مجدهم في أنحاء العالم .

وليس ثمة نقوش رومانية تضارع هذه النقوش إلا النقوش المنحوتة على الأقواس التي كانت تقام عند دخول القواد الطافرين ؛ وأجل ما بقي من هذه الأقواس قوس تيتس الذي بدأه فسبازيان وأتمه دومتيان لتخليد ذكرى فتح بيت المقدس . ويمثل أحد هذه النقوش المدينة المحترقة ، وأسوارها المهدامة ، وأهلها الذين استولى عليهم الرعب ، وثروتها التي تنتهبها الفيلق الرومانية . ويمثل نقش آخر تيتس يسير إلى رومة في مركبته بين الجنود ، والحيوانات ، وكبار الحكام ، والكهنة ، والأسرى ، ومن ورائه ثريات الهيكل المقدسة وغيرها من غنائم الحرب على اختلاف أنواعها . وقد كان الفنانون الذين حفروا هذه الرسوم جد جريئين في تجاربهم : فقد حفروا صوراً تختلف باختلاف المستويات ، ووزعوها على سطوح متفاوتة الارتفاع ، ونحتوا خلفية الصورة بحيث تمثل العمق ، ولونوا الصورة كلها لتحمل إلى الرأى درجات مختلفة من الاكتظاظ والبعد ، فوق ما تحمل من المعاني الأخرى . وأما الأعمال التي تمثلها الصورة فلا تظهر كأنها حوادث متفرقة بل تبدو مستمرة دائمة ، كما تبدو في طنف بلاد النهرين ومصر ، وكما تبدو فيما بعد على أعمدة الإمبراطورين تراجان وأورليوس ؛ وبذلك استطاعت أن تمثل معنى الحركة والحياة على خير وجه . كذلك لم يعمل العرف والمثل الأعلى عملهما في الصورة فيخرجها عن الواقعية ويفرضاً عليها ما فرضه الفن الأنبيكي على صور « مذهب السلام » اليوناني ؛ بل إن أناسه أناس واقعيون من لحم ودم وأقدار نحتوا على سنن التقاليد الإيطالية تقاليد الواقعية والحيوية . ولم يكن موضوعها هو الآلة المكمل بل كان هو الآدميين الأحياء ..

وهذه الواقعية القوية هي التي تميز فن النحت الرومانى . ولولا إخلاص الرومان المتواتر لهذه النزعة المتأصلة في نفوسهم لما أضافوا إلا القليل لعالم الفن . وقد حدث في عام ٩٠ ق . م أن جاء إلى رومة رجل يونانى من أهل إيطاليا الجنوية يدعى بستليز Pestiles ، وأقام فيها ستين عاماً كاملة ، أخرج فيها تحفاً فنية من الفضة والعاج والذهب ، وجاء إليها بالمرايا الفضية ، وأخرج نسخاً متعددة من روائع الفن اليونانى ، وكتب خمسة مجلدات عن تاريخ الفن . فكان بذلك فسارى وسلينى زمانه في آن واحد . كذلك قدم يونانى آخر يدعى أرسسلوس لقيصر تمثالاً ذائع الصيت لفينوس جنتركس . ونحت أبولونيوس الأثينى تمثال الترسو بلقدير Torso Belvedere في الفاتيكان ، وهو تمثال خلت فكرته من الغلو ، فليس فيه عضلات بارزة ، بل يمثل رجلاً في كمال القوة وصحة الجسم ، ولعله نحته في رومة نفسها . وكل ما نستطيع أن نقوله عن هذا التمثال أنه بلغ الكمال إلى الحد الذى كان يبنى صاحبه أن يمثله فيه . وقد ظلت مناحات الفنانين وقتاً ما تعمل جاهدة في إعطاء الآلهة الإيطالية صوراً يونانية ، ولم تستثن من ذلك التجريدات القدسية كالفرصة والعفاف . ويغلب على الظن أن جليكون Glycon الأثينى نحت في هذا الوقت نفسه وفي مدينة رومة تمثال هرقل الفرنيزى . ولسنا نعرف متى صنع تمثال أبولو بلقدير ولا متى صنع ، ولعله صورة رومانية لتمثال أصيل نحته ليوكارس Leochares الأثينى . ويعرف كل طالب علم كيف أثار جماله الهادئ نشوة ونكلمان Winkelmann الأورانية^(٢١) . ونحت ليونو في ذلك الوقت تمثالين هما تمثال يونو الفرنيزية المنحوت من حجر الشماق والمحفوظ في متحف نابلى ، وتمثال يونو اللدفيزية المحفوظ في ترم Terme — وهو تمثال فاتر ، عابس ، ينم عن الاستقامة والعدالة ؛ إذا نظر إليه الإنسان بآب فهم طواف جوف وتجواله .

كانت هذه التماثيل كلها كما كان تمثال برسيوس واندريدا Perseus and Andromeda الجميل المحفوظ في متحف الكبتول من الطراز اليونانى الذى اتخذ

طرازاً عاماً في النقش ومثلاً أعلى له ، وقُدس تقديساً يبعث على الملل والسآمة . وأكثر من هذه النقوش إلفاناً للنظر واستراءاً للانتباه التماثيل النصفية التي هي بمثابة معجم من البرنز والرخام لجميع وجوه الزمان من عهد يمي إلى عهد قسطنطين . وهذه أيضاً قد اتخذ بعضها مثلاً أعلى وخاصة رأسا يوليوس وكلوديوس ، ولكن النزعة الواقعية التسكانية القديمة ومغيمات الموتى التي لم يكن فيها شيء من الحجامة والملق ، والتي لم تكن تغيب قط عن أعين المثاليين ، قد جعلت الرومان لا يستنكفون قط أن يمثلوا بمعارف قبيحة على شرط أن يظهروا في تماثيلهم أوصافاً أقوىاء . وقد أوصى الكثيرون منهم بتماثيلهم للميادين والأماكن العامة ، وبلغت هذه التماثيل الموصى بها من الكثرة حداً خيل معه في وقت من الأوقات أن الذين يملكون رومة من الموتى أكثر ممن يملكونها من الأحياء ؛ وقد بلغ من حرص بعض الكبراء على أن توضع تماثيلهم في الأماكن أنهم لم يصبروا حتى تنصرم آجالهم ، فألقوا لأنفسهم تماثيل قبل وفاتهم . ودفعت الغيرة الأباطرة إلى تحريم هذه العجلة في التخليد حتى تنسع رومة للأحياء من أبنائها .

وأعظم التماثيل النصفية الملونة هو التمثال المعروف باسم « رأس قيصر » المصنوع من حجر البازلت والحفوظ في متحف برلين . ولسنا نعرف من الذي يمثله هذا التمثال النصفي رغم هذه التسمية ، ولكن شعره القليل ، وذقنه المحدد ، ووجهه الرفيع البارز العظام ، وما فيه من خطوط عميقة دالة على كثرة القلق والتفكير ، والعزيمة المستسلمة للحقائق بعد أن زالت عن الأعين غشاوتها وعن العقول أوهامها ، كل هذه تتفق مع صفات قيصر الذي تغزو إليه الرواية هذا التمثال .

وبلى هذا التمثال النصفي في القدر مباشرة التمثال الضخم الذي يمثل رأس قيصر والحفوظ الآن في نابلي : وفي هذا التمثال تعمقت أخايد الوجه حتى نمت عن حقد ومرارة ، كأن هذا الجبار قد عرف آخر الأمر أن ليس في العالم عقل

بلغ من السعة قدراً يمكنه من فهم العالم دع عنك حكمه . وترى الواقعية التي
تصل إلى حد يبعث على الاشمئزاز بادية في تمثال يمي المقام في ناى كارلسبرج
چالپتوتك Ny Carlsberg Gluptotek بكوبنهاجن Copenhagen : وينطق
هذا التمثال بأن صاحبه قد نسى في بداية الكهولة وهزائمها ما ناله بشجاعته
من مجد ونصر في عهد الشباب . ولدينا لأغسطس نحو مائة تمثال ، كثير
منها جيد غاية الجودة ، متقن غاية الإتقان : منها تمثال أغسطس الغلام
(المحفوظ في الفاتيكان) والذي يبدو فيه صاحبه جاداً ثاقب البصر نبيلاً -
وهو أجل صورة لغلام حقيقى في جميع عصور التاريخ على الإطلاق . ومنها
تمثال أغسطس في الثلاثين من عمره (المحفوظ في المتحف البريطانى) -
وهو تمثال من البرنز تبدو فيه العزيمة القوية الصادقة ، ويذكرنا بقول
سوتنيوس إن الإمبراطور كان يسعه أن يطفى نار الفتنة بنظرة ؛ ومنها
تمثال أغسطس القس (في متحف ترم) ذو الوجه الدال على التفكير العميق
بارز من بين السجف المحيطة به من كل جانب ؛ وتمثال أغسطس القائد
الذى عثر عليه في خرائب قصر ليفيا الريني في پريمابورتا Prima Porta
والمحفوظ في الفاتيكان ؛ وقد غطى الدرع البرنزى الذى يحمى صدر هذا
التمثال الشهير بنقوش غريبة تربك الناظر وتحوله عن تأمل التمثال نفسه (*) .
ووقف أغسطس كما يصورها هذا التمثال ثابتة قوية ، وساقاه أقوى مما
تكونان لشخص عليل مثله ؛ ولكن الرأس يمثل القوة الهائلة ، والثقة
بالنفس تكشف عن يد الفنان العظيم ونفسيته .

وكانت لقباً نفسها حسنة الحظ إذ سخرت الأقدار فناً عظيماً لصنع

(*) وهى تصور عودة الأعلام البارثية ، وخضوع الولايات المنلوقة ، وخصب الأرض

في وقت السلا . والستر الواق منشوراً فوق الجميع ما عدا جوف

المحفوظ في كوينهاجن . ترى في هذا الرأس الشعر الجميل ، والأنف الروماني
الأقنى الذى ينم عن قوة الخلق ، والعينين الدالتين على الحنان والتفكير ،
والشفيتين الجميلتين الدالتين على القوة والثبات . وتلك هى المرأة التى وقفت
وراء عرش أغسطس تدعمه بهدوئها ، والتى غلبت جميع منافسها وأعدائها ،
وسيطرت على الناس جميعاً عددا ولدها . وكان تيبيريوس هو الآخر رجلاً
محظوظاً . ذلك أن تمثاله الجالس المحفوظ في متحف لا تران ، وإن نحت على
طراز مثل أعلى موضوع ، يعد آية فنية أخرجتها يد مثال لا يقل براعة
عن المثال الذى نحت من حجر الديوريت تمثال خفرغ المحفوظ في المتحف
المصرى . أما كلوديوس فلم يكن حظه كحظ من سبقوه ، وما من شك
في أن المثال كان يسخر منه ، أو أنه كان يمثل الصفات التى وصفه بها
سذكا في هجائه المشهور . فقد صورته في صورة جويتر المتعب المتضجر ،
يديناً ، ظريفاً ، أبكم . وأجهد نيرون نفسه في أن ينمى حاسة الإحساس
بالجمال ؛ ولكن أعظم ما كان يرغب فيه هو الشهرة والضحامة ، ومن
أجل هذا لم ير لزودوتس Zenodotus اسكوباس Scopas زمانه شيئاً
أفضل من أن يقضى وقته في نحت تمثال له في صورة أبولون يعلو مائة وسبع
عشرة قدماً(*) . وأمر هيريان أن يوضع هذا التمثال في صدر المدرج الفلافي ،
ومن ثم سمي هذا المدرج باسم الكلوسيوم Collosseum لضخامة هذا
التمثال (٢٢) .

وعاد فن النحت إلى واقعته في عهد فسبازيان الأمين ، فسمح لمثاليه
أن يكونوا صادقين في تصويره في صورة السوقي الحق ، ذى معارف غليظة
خشنة ، مغضن لبلبة ، أصلع الرأس ضخم الأذنين . وخير من هذا وأكثر
منه دلالة على الرحمة التمثال النصفي المحفوظ في ترم Terme ، والذى يدل

(*) مع قاعدته البالغ ارتفاعها ١٥٣ قدماً . ويحسن أن نذكر القارئ بأن تمثال الحرية
الأمريكي يبلغ ارتفاعه من غير قاعدته مائة قدم وأربع أقدام .

على نفس شغلها شئون الدولة عن نفسها ؛ ووجه رجل الأعمال الذى يطل على الناظر إليه من الرأس الضخم المحفوظ فى متحف نابلى ؛ ويصل إلينا تيتس فى جمجمة كالسابقة مكعبة الشكل ، ووجهه غير جميل . وإن المرء ليصعب عليه أن يعتقد أن هذا الشخص الذى يبدو فى تمثاله كأنه من الباعة المتقلين هو حبيب البشر أجمعين . وقد أوتى دومتيان من بعد النظر فى العصر الفلافى ما جعله يعمل على أن يبغضه الشعب فى حياته فيحطم جميع تماثيله بعد وفاته .

ولما خرج الفنان من القصر وأخذ يجول فى الشوارع استطاع أن يطلق العنان للزعة الإيطالية الحبيثة ، نزعة الحقيقة الفكهة المضحكة . وما من شك فى أن شيخاً طاعناً فى السن أقل حكمة ومالا من الوزير الفيلسوف هو الذى يصوره التمثال الهزيل الكثر الشعر الذى كانوا يقولون عنه من قبل إنه تمثال سنكا . واستطاع الفنانون المشهورون فى فترة من الزمن، أن يمثاوا عضلات الرياضيين تمثيلاً يخلدها على مدى العصور . وشقت تماثيل المصارعين طريقها إلى أكبر البيوت ، سواء كانت بيوت الأثرياء الريفية أو قصور الكبراء فى الحواضر . وكان المثالون الرومان رحماء وهم ينحتون تماثيل النساء : فتراهم بين الحين والحين ينحتون تماثلاً لامرأة سليطة حقاء ، ولكنهم صنعوا بالإضافة إلى هذا تماثيل لبعض العذارى الفسقية ، ومثلوا وقارهن ورشاقتن أحسن تمثيل ، كما صنعوا فى بعض الأحيان تماثيل تتجلى فيها رقة القلب مجسمة كتماثيل الكلىتى Clytie المحفوظة فى المتحف البريطانى ؛ وأخرى لنساء من الأشراف هشة لينة تسحر الأب سحر دى واتو Watteau أو فروجونارد Frogonard (٢٣). وكان جند بارعين فى تمثيل الأطفال كما يدل على ذلك تمثال العلام البرنزى المحفوظ فى متحف نيويورك ، أو تمثال الطفلة البريئة المحفوظ فى متحف الكبتول . وكان فى وسعهم أن ينحتوا أو يصبوا تماثيل حيوانات مدهشة فى دقتها ووضوح معالمها ،

كما نرى ذلك فى رؤوس الذئاب التى وجدت فى نيمى عام ١٩٢٩ ،
أو الخيل الواثبة فى سانت مارك St. Mark . نعم لأنهم لم يبلغوا قط
ما بلغتة مدرسة بركيز الفنية من كمال وبراعة فى الصقل ؛ ولكن منشأ هذا
النقص . أنهم كانوا يحبون الفرد أكثر مما يحبون الطراز ، وأنهم كانوا
يعتزون بالنقائص الحقيقية التى هى سمة الحياة . وقصارى القول أن هؤلاء
الفنانين رغم قصورهم قد سموا إلى أعلى مكانة فى تاريخ الفن التصويرى .

الفصل السادس

التصوير

لقد كان من يزور رومة في الزمن القديم يجد فن التصوير أكثر انتشاراً من فن النحت في هياكلها ومساكنها ، وأروقها ، ذات العمد ، وميادينها ؛ وكان يعثر فيها على الكثير من أعمال كبار الفنانين الأقدمين أمثال بولجنوتس Polygnótus وزيوكسيس Zeuxis ، وأپليز Appeles وپروتجنيس Protognese وغيرهم . ولم تكن هذه الأعمال أقل قيمة أو أقل تقديراً في الإمبراطورية الواسعة الثراء من صور عهد النهضة الأوروبية في أمريكا الغنية في هذه الأيام . وكان يجد أعمال رسامى الإسكندرية ورومة أعظم وفرة في رومة القديمة من صور النهضة في أمريكا الحديثة وذلك لحسن تعهدها وشدة العناية بحفظها . لقد كان الفن قديماً في إيطاليا حيث كان كل جدار يتطلب الفن ، والتجميل . وأتى على إيطاليا حين من الدهر كان نبلاؤها أنفسهم يمارسون هذا الفن ، ولكن تيار الحضارة الهلنستية الجارف جعل التصوير يوناني الطابع شديداً الخضوع للعرف والتقاليد حتى انتهى الأمر بأن عجب فاليريوس مكسمس Valerius Maximus من أن فاييوس پكتور Fabius Pictor ينزل من عليائه فيصير على جدران « هيكل الصحة » (٢٤) . غير أنا نجد حالات شاذة لا ينطبق عليها هذا التعميم : من ذلك أن أريوس Arellius قد ذاع صيته في أواخر عهد الجمهورية لأنه كان يستأجر العاهرات ليكن نماذج لصور الآلهات ؛ وحدث في عهد أغسطس أن اشتغل بالتصوير شريف أبكم يدعى كونتس پديوس Quintus Pedius لأن عاهته قد سدت في وجهه جميع سبل الأعمال الأخرى ؛ واستخدم نيرون لتزيين بيته الذهبي مصوراً يدعى أمليوس Amulius كان « يرسم في وقار جم وهو مرتد جبته (٢٥) :

ولكن هؤلاء الرجال كانوا متفرقين في بحر المصورين اليونان الخضم الذين أخذوا يخرجون في رومة وپمپي وسائر أنحاء شبه الجزيرة نسخاً من الرسوم اليونانية مطابقة لها أو مختلفة بعض الشيء عنها ، تمثل موضوعات يونانية أو مصرية .

وكاد فن التصوير في رومة أن يكون مقصوراً على المظلمات والألوان المائية الممزوجة بمادة غروية لاصقة توضع فوق سطح جاف . وكان المصورون يلجأون في بعض الأحيان إلى تثبيت الألوان بالحرارة ، وذلك بإذابتها في الشمع الشديد الحرارة . أما من حيث حجم الصور فلما نذكر أن نيرون أمر بأن ترسم صورته على قطعة من القماش يبلغ ارتفاعها مائة وعشرين قدماً — وهذه الصورة أول ما لدينا من صور استخدم فيها قماش التصوير . وقد سبق القول إن الألوان كانت تستخدم في تلوين التماثيل ، والهياكل ، والمناظر المسرحية ، والصور الكبيرة المرسومة على الأقمشة التيلية لعرضها في السوق العامة في أوقات الاحتفال بالنصر ، ولكن مواضعها المحببة كانت هي الجدران الخارجية في المباني . وقلمما كان الرومان يضعون الأثاث مستنداً إلى الجدران أو يعلقون عليها الصور ، ذلك أنهم كانوا يفضلون أن يستخدموا الجدار كله ليرسموا عليه صورة واحدة أو مجموعة من الصور المتصلة بعضها ببعض في موضوعها . وهذه الطريقة أضحت الصورة الجدارية جزءاً متمماً للبيت وعنصراً أساسياً في هندسته المعمارية .

وقد حفظت لنا أبحرة فيزوف الحارقة نحو ثلاثة آلاف ونخمسائة مظلم — وهي يزيد عددها في پمپي وحدها على عدد كل ما وجد منها في سائر أنحاء العالم القديم . وإذ كانت پمپي في أيامها من المدن المتوسطة الحجم غير العظيمة الشأن فإن في وسعنا أن نتصور عدد الرسوم الجدارية التي كانت تزدان بها المنازل والأضرحة في إيطاليا القديمة . وقد نقل أحسن ما بقي من هذه الرسوم إلى متحف نابلي ، ولا يزال لجملها الهادئ رغم انتقالها إلى مكانها الجديد أعظم الأثر في نفس من ينظر إليها ، ولكن الأقدمين وحدهم هم الذين كانوا يعرفونها . عتق ألوانها وفيما بها من إطار هندسي يجعل لكل صورة من هذه

الصور معنى خاصاً وموضعاً خاصاً . وقد تركت الصور الجدارية التي في بيت قثنای في أماكنها الأصلية ، فترى في المطعم ديونيشس يفاجئ أدرياني النائمة ، وترى على الجدار المقابل لهذه الصورة ديدالس Daedalus يعرض بقرته الخشبية على پاسفائي Pasifae ؛ وفي الطرف الأقصى من الجدار ترى هرمس ينظر في هدوء إلى هفيسستس Hephaestus وهو يشد إكسيون Ixion إلى عجلة التعذيب . ونشاهد في حجرة ثانية مظلمات مضحكة متتابعة فيها صور متعددة لكيبود إله الحب يسخر مما في پمپی من صناعات بما فيها صناعة الخمر في قثنای . وقد عدت عوادى الأيام على هذه الصورة التي كانت من قبل ناضرة براقه ، ولكن مابقى منها يكفى لأن يشعر الزائر بما يجب أن يكون عليه من تواضع وحياء ، فصور الأجسام البشرية تكاد تبلغ الغاية في الإلتقان والجودة ، وتكاد تنبض بالحياء وتثير دم الشهوة في عروق الأحياء من بنى الإنسان .

ولقد حاول الخبراء أن يفهموا ماهية فن التصوير في إيطاليا القديمة ويصنفوا عصوره وأنماطه بالاعتماد على ما وجدوه من نماذج له في إيطاليا القديمة . وهذه الطريقة في التصنيف خطيرة غير مأمونة لأن پمپی نفسها كانت يونانية أكثر منها لاتينية ؛ ولكن مابقى في رومة وضواحيها من رسوم قديمة يتفق إلى حد كبير مع تطور فن التصوير في پمپی . ففي الطراز الأول (القرن الثانى قبل الميلاد) حين كانت الجدران تغطى بقشرة كاملة قبل الرسم عليها ، كانت الجدران في أغلب الأحيان تلون بحيث تبدو كأنها مطعمة بالواح من الرخام كما تشاهد في « بيت سلت » في پمپی . وفي الطراز الثانى أو الطراز المعمارى (القرن الأول قبل الميلاد) كان الجدار يطلّى ليُمثل بناءً أو واجهة أو بهوًّا ذا عمد ، وكثيراً ما كانت العمد ترسم كما تبدو للناظر إليها من الداخل ، وبينها مناظر الريف الخلوية ، وهذه الطريقة كان الفنان يضفى على الغرفة التي لا نوافذ لها في أغلب الظن محيطاً ذا نسيم عليل من الأشجار والأزهار والحقول ، والجداول ، والحيوانات الهادئة أو المرححة اللاعبة .

وكان في وسع ساكنها السجن فيها أن يتخيل أنه مقيم في حدائق لوكلس ، ولم يكن ذلك ليكلفه أكثر من النظر إلى الجدران كما كان في وسعه أن يصيد السمك ، أو يقتنص الحيوان ، أو يداعب الطيور ويدلها ، ويعتز بها في غير فصولها وأيامها ، وذلك لأن الطبيعة كانت تنقل إليه في منزله فلا يتحمل هو مشقة الانتقال إليها . وفي الطراز الثالث أو طراز التحلية (١ - ٥٠ م) كانت الأشكال الهندسية المعمارية للزينة لا غير ، وكانت تضع المناظر الطبيعية في المنزلة الثانية بعد صور الآدميين . وفي الطراز الرابع المختلط المعقد كان الفنان يترك العنان لخياله يخترع تراكيب وأشكالاً غريبة ، ويضعها في مواضعها وهو مريح ساخر مما تتطلبه الحشمة والوقار ، ويكسده صورته الحدائق والعمد والبيوت الريفية والجواسق بعضها فوق بعض كتشويش الرسوم في هذه الأيام (٢٦) ؛ وكثيراً ما كان يحصل بهذا على الأثر الذي تحدثه في الناظرة صور تكلمها ذكريات لا وعية سلطت عليها الأضواء . وكان فن العمارة في جميع هذه الطرز المتقاربة إما خاضعاً للتصوير ومسيطر عليه يخدمه ويستخدمه ، فأنشأ فيه بذلك تقاليد عادت إلى اليقظة بعد ستة عشر قرناً على يدى نقولاس بوسن Nicholas Poussin ومن دواعي الأسف أن ما بقي من موضوعات الرسوم الكبرى قلما يتعدى الأساطير اليونانية : فالآلهة ، وجن الحراج ، والأبطال ، والخاطئون المذنبون - زيوس ، والمريخ ، وديونيشس ، وپان ، وأخسيل ، وأديسيوس ، وإفچينيا ، وميليا هذه كلها تتكرر تكراراً يبعث على الملل والسآمة ، وإن كانت هذه التهمة بعينها يمكن توجيهها إلى فن النهضة . وثمة صون قليلة تمثل الحياة الهادئة الساكنة ، كما أننا نعثر في مواضع متفرقة على مطرقة أو صاحب حانة أو قصاب يلتنع فوق جدران پمپي . وكثيراً ما يسيطر الحب على المنظر برمته فترى فتاة مطرقة يتنازعها شوق كين ليس معدوم الصلة بإيروس إله العشق الواقف إلى جانبها ، وترى الفتيات والشبان يمرحون على الكلا يتبادلون نظرات الوجد والهيام ، وأرباب

الخمر والفسق يلعبون كأن المدينة لم تعرف في حياتها شيئاً غير الحب والخمر ؛ وإذا أحكمتنا على نساء بمبي من صورهن التي على الجدران كانت هؤلاء النسوة خليقات بأن يكون جاهلن محور الحياة بأجمعها في تلك المدينة ، فنحن نراهن منهن مكات في لعبة « الكعاب » أو متكئات في رشاقة على القيثارات ، أو نشاهدن يقرضن الشعر والأقلام بين شفاهن ، ودلائل التفكير بادية على ملاحظهن ، ووجوههن هادئة من أثر النضوج ، وأجسامهن سليمة صحيحة كاملة النمو ، وأثوابهن مسبلة عليهن ، فضفاضة أنيقة كأنها من نحت فدياس ، يمشين كأنهن كلهن هالن اليونانية التي سلبت عقل باريس بن پريام ، مدركات قد استهن . وترى إحداهن ترقص رقصة باخوسية(*) لعلها في هواء رقيق ، وذراعها وبدها وقدمها اليمنى من أجل مآرائه العين في تاريخ التصوير . ويحب أن تضم إلى هذه الروائع بعض صور الرجال أيضاً كصورة تسيوس Theseus وهو ينتصر على المنوتور Minotaur وهرقل وهو ينجي ديانيرا Deianira أويتبني تلفوس Telephus ، وأخيل يسلم وهو غضبان آسف برسيس Briseis المتنعة الآبية . وكل شكل رسم في هذه الصورة الأخيرة يكاد يبلغ الغاية في الكمال ويصل فيه التصوير إلى ذروة الإبداع . وللفكاهة أيضاً نصيبها من التصوير ؛ فهذا زعيم مهرج أشعث يتعثّر على عكازته ، وهذا جنى ظريف يهز ساقيه في مرح تهكمي ، وهذا سيلينس Silenus أصلع بذىء يصور وهو في نشوة موسيقية . وللحانات والمواخير أيضاً مكانها في زينة الجدران ، ولا يجد السائح المتقصى حاجة لأن يقال إن بريابس Priapus لا يزال يزهر بقواه الثمينة على جدران بمبي . وفي الطرف الآخر من هذه السلسلة حيث توجد بيوت الضواحي نرى طائفة من الصور الدينية توحى بأن المكان كان يستخدم للاحتفال بالطقوس الديونيشية الخفية ؛ ففي أحد المظلمات نشاهد بنتاً أمعنت في تقواها بغير رفق حتى شلت حركتها ، تقرأ في كتاب يبدو أنه كتاب

(*) نسبة إلى باخوس إله الخمر عند اليونان الأقدمين . (المترجم)

مقدس ؛ وفي مظلم آخر يتقدم موكب من الفتيات ينفخن في الأبواق ، ويأتين بالقرابين ؛ وفي مظلم ثالث نرى سيدة عارية ترقص على أصابع قدميها وإلى جوارها راهبة مبتدئة راكعة على ركبتيها ، منهوكة القوى من شدة ما قاست في أحد الطقوس الدينية (٢٧). وأجل من هذه كلها نقش جدارى عثر عليه في خرائب ستابيا Stabiae من نوع نقوش بتيشلى Botticelli ومتقدم عليها ، ويسمى هذا النقش الربيع : وهو يمثل امرأة تمشى في حديقة على مهل تقطف الأزهار ، ولا يرى منها إلا ظهرها ورأسها تديره بخفة ورشاقة إلى خلفها ؛ وقلما استطاع فن من الفنون أن يصور ما في هذا الموضوع السهل من شاعرية تصويراً مؤثراً في النفس مثيراً للعواطف كما بدوره هذا الفنان .

وأقوى ما وجد من الصور في هذه الخرائب صورة ميديا التي عثر عليها في هركيولانيوم Herculaneum وحفظت في متحف نابلى ، وهي تمثل امرأة مطرقة عليها ثياب فاخرة تفكر في مقتل أبنائها ؛ ويلوح لنا أن هذه صورة منقولة عن الصور التي أجاز عليها قيصر مصورها تومماكس Timomachus البيزنطى بأربعين ألف وزنة (ثالثت) أى ١٤٤٠٠٠ ريال أمريكى (٢٧) ؟

ولم يوجد في رومة إلا القليل من الصور التي تبلغ هذه الميزة ، ولكن عثر في بيت لبقيا المقام في برما پورتا Prima Porta على مثل رائع من صور المناظر الطبيعية التي تسمو فيها إيطاليا على بلاد اليونان . فيه تخدع العين فيظن الإنسان أنه يجتاز بهواً إلى تكعيبية في أرض رخامية من ورائها أجمة من النبات والأزهار بلغت من الإتقان حداً يمكن العالم النباقي في هذه الأيام من أن يتبينها ويصنفها ؛ فكل ورقة من أوراقها رسمت بشكلها ولونها الطبيعيين ، والطيور تجثم على مواضع متفرقة منها كأنها تحط عليها إلى وقت ما ، والديدان تزحف بين الأغصان والأوراق . ويقرب من هذه الصورة في زوعتها ورقتها عرسى المبرنيتى التي وجدت في التل

الإسكوبلى فى عام ١٦٠٦ والى درسها روبن Rubens وفان ديك وجيته .
بجاسة بالغة . وقد تكون هذه منقولة عن صورة يونانية ، وقد تكون
صورة أصلية من عمل رسام يونانى استوطن رومة ، أو من عمل رومانى
أصيل . وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن ما عليها من صور الأشخاص —
كبصورة العروس الهادئة الحية ، والآلهة التى تسديها النصيحة ، والأم
المنهمكة فى الاستعداد للعرس ، والعذارى ينتظرن ليعزفن على القيثارة
ويغنين — كل هذه قد رسمت برقة وحساسية ترفعان هذا الرسم الجدارى
إلى منزلة الآثار الفنية القديمة الممتازة .

على أن فن التصوير الرومانى يخلو من عنصر الابتكار ، وسبب ذلك
أن الفنانين اليونان نقلوا معهم تقاليدهم وأساليبهم إلى كل مكان نزلوا فيه ،
وحتى النزعة التأثيرية الغامضة التى فى هذه الصور قد تكون من أثر مهارة
الفنانين الاسكندريين ، ولكن فيها مع ذلك دقة فى الخطوط ، وغزارة
فى اللون نعرف منهما لم بلغ المصورون أمثال أبليز Apples وبروتوجينز
Protopogenes من الشهرة مثل ما بلغه منها المثلون من طراز بولكليتس
وبركستليز . واللون فى بعض الأحيان واضح غزير كما لو كان جبورجيون
Giorgione هو الذى وضعه ، كما أن تدرج الأضواء والظلال يوحى فى
بعض الأحيان أنه من عمل رمبرانت Remebrandt . وترى تارة رسماً
خالياً من الدقة يذكر الإنسان بواقعه فان جونج المنفرة . وفن المنظور
فى الرسم غير صحيح كما أن السرعة فى العمل تفسد نضج التفكير . ولكن
ما فى الرسوم من حيوية نضرة يغطى على هذه الأغلاط كلها ، فتناسب
الثياب يندع العين ، ومناظر الغابات والأشجار كانت بلاريب من أسباب
البهجة لسكان المدن المكتظة بالسكان . ويجب ألا ننظر إلى هذه الرسوم بعين
هذه الأيام ، فأدواقنا اليوم أقل تحراً وأكثر تحفظاً من أدواق لأقدمين ،
ونحن نفضل أن نترك الجدران كما هى مقصورة على وظيفتها ، وقد كنا حتى

الأمس القريب نتردد في أن نغطيها بالألوان . أما الإيطالي فكان الجدار له بمثابة السجن ، وقلما كان يطل منه على العالم من خلال نافذة ، ولهذا كان يرغب في أن ينسى هذا الحاجز القائم أمام عينيه ، وأن ينخدع بطريق الفن إلى جنان السلام المخضرة الناضرة . ولعله كان في تفكيره هذا على حق ، فإن شجرة مرسومة على جدار لخير من منظر يتألف من ألف قمة من قمم سطوح المنازل الخشنة غير المصقولة التي تشوه جمال السماء كأنها قرح خبيثة في الشمس ، ويطل عليها المرء من نافذة مسحورة في جدار .

الفصل السابع

العمارة

١ - أصولها ، موادها ، أشكالها

لقد احتفظنا إلى آخر هذا الباب بأهم ما نستطيع أن نعرضه في رومة على زائرها الذى نسيناه في أثناء حديثنا الطويل عن فنى النقش والتصوير . أما وقد وصلنا إلى هذا الفصل الأخير فلنعرض على هذا الزائر أهم الفنون الرومانية على الإطلاق وهو فن العمارة الذى استطاعت به أن تحمى نفسها من غزو اليونان ، والذى أظهرت فيه قدرتها على الابتكار وجرأتها وقوتها . على أن الابتكار لا يكون بغير لقاح فهو كالنسب مزيج جديد من عناصر موجودة من قبل ؛ والثقافات جميعها انتقائية في حداثة عهدها لأن التعليم يبدأ بالتقليد ، فإذا ما بلغت الروح أو الأمة أشدها طبعها بطابعها - إن كان لها طابع - جميع أعمالها وألفاظها . لقد أخذت رومة ، كما أخذ غيرها من مدائن البحر الأبيض المتوسط ، نظم العمدة الدورية والآيونية والكورنثية من مصر وبلاد اليونان ، ولكنها أخذت نظام العقود والأقواس والقباب من آسية ، ومن مزيجهما أقامت مدينة من القصور ، والأروقة ذات العمدة ، والمدرجات ، والحمامات لم ير العالم مثيلا لها من قبل . ولقد أضحت فن العمارة الرومانى هو التعبير الفنى عن الروح الرومانية والدولة الرومانية : فهو يمثل الجرأة ، والتنظيم ، والفخامة ، وقد رفعت القوة العضلية هذه الصروح المنقطعة النظير فوق التلال فكانت هى الروح الرومانية ممثلة في الجلاميد الصم .

وكان معظم كبار المهندسين الممارين في رومة رومانين لا يونان .

وقد كتب أحد هؤلاء المهندسين واسمه ماركس فثروفيوس بليو Marcus Vitruvius Pallio كتاباً في العمارة يعد من أمهات الكتب العالمية القديمة في هذا الفن (حوالى ٢٧ ق . م) (*) . ذلك أنه بعد أن قضى فترة من الزمن مهندساً حروبياً يعمل تحت إمرة قيصر في أفريقية ، ومهندساً معمارياً في عهد أكتافيان ، اعتزل العمل الرسمي في شيخوخته ليضع أصول أعظم الفنون الرومانية وأسماها منزلة . وهو يقول عن نفسه « إن الطبيعة لم تهني طول القامة ، ولم تبق السنون على شيء من جمال وجهي ، وسلبنى المرض قوة جسمي ؛ ولهذا أرجو أن أكسب رضا الناس بعلمي وبكتابي » (٢٩) . وكما أن شيشرون وكونتيليان قد جعلوا الفلسفة من مستلزمات الخطيب ، كذلك رآها فثروفيوس من مستلزمات المهندس الممارى ، فهمي تحسن أغراضه كما يحسن العلم وسائله وأدواته ، وهي « تسمو بمداركه وتجعله رقيق الحاشية ، عادلاً ، وفياً ، غير شره ، ولا يمكن أن يتم عمل صالح من غير إيمان قوى ويدين طاهرتين » (٣٠) . وقد وصف مواد البناء ، والأعمدة ، وأجزاءها ، ومختلف أنماط المباني في رومة ، وأضاف إلى الكتاب بحثاً في الآلات ، والساعات المائية ، ومقاييس السرعة (*) . ومجارى مياه الشرب المسقوفة ، وتخطيط المدن والصحة العامة . وقد أشار فثروفيوس باستعمال النظام الإشعاعى (†) في تخطيط المدن (وهو النظام الذى خططت عليه مدينة الإسكندرية القديمة وواشنطن الحديثة) بدل النظام المربع الذى ثبتت قواعده هبودامس Hippodamus في كثير من المدن اليونانية ،

(*) يظن بعض العلماء أن هذا الكتاب ليس من تأليف فثروفيوس بل مذكوس عليه وأنه كتب في القرن الثالث الميلادى ، ولكن الشواهد كلها تؤيد صحة نسبه إلى مؤلفه .

(**) وإذا شئت الدقة فسمه مقياس الدورات odometer ويتكون من إسفين يصل عجلة صغيرة بقطب العجلة التى يحركها ترس ، وينشأ من دورة العجلة الصغيرة الشديدة البطء عن العجلة الكبيرة سقوط حصاة في صندوق (٣١) .

(†) أى الذى تتشعب فيه المباني والشوارع من مركز من وسط المدينة إلى أطرافها .

(المترجم)

أشار فثروفيوس باستعمال هذا النظام الإشعاعى ولكن الرومان ظلوا يخططون مدنها على النظام المربع نظام معسكراتهم . وما يؤثر عنه أنه حذر إيطالية من أن الماء الذى تشربه فى كثير من أجزائها يؤدى إلى تضخم الغدة الدرقية ، وقال إن التسمم قد ينتج من الاشتغال بالرصاص ، وفسر الصوت بأنه حركة اهتزازية فى الهواء ، وكتب أول بحث باق حتى الآن فى علاقة هندسة البناء بالأصوات . وقد كان لكتابه الذى كشف من جديد فى عصر النهضة أعمق الأثر فى ليوناردو دافنشى ، وپلاديو Palladio وميكل أنجلو .

ويقول فثروفيوس إن الرومان يبنون بالخشب والآجر ، والجبس الناعم والمسلح والحجر والرخام . وكان الآجر المادة الشائعة الاستعمال فى الجدران ، والعمود والأقواس ، وكثيراً ما كان يستعمل هو والجبس لتغطية الملاط . وكان الآجر يصنع من الرمل ، والجير ، وتراب الرخام ، والماء ، ويصقل صقلاً جيداً ويوضع طبقات بعضها فوق بعض ، يصل سمكها بعض الأحيان إلى ثلاث بوصات . ومن أجل هذا استطاع ذلك الآجر أن يحتفظ بشكله تسعة عشر قرناً كما نشاهد ذلك فى الكلوسيوم أما المسلح فلم تبلغ أمة من الأمم إلى وقتنا هذا ما بلغه الرومان فى صنعه واستخدامه : فقد كانوا يأخذون الرماد البركانى الكثير بقرب نابلى ، ويخلطونه بالجير والماء ، ويضعون فيه قطعاً من الآجر ، والفخار ، والرخام ، والحجارة ، ويخرجون منها منذ القرن الثانى قبل الميلاد ملاطاً فى صلابته الصخور ، يمكن أن يصب فى أى قالب ، ولا يكاد يستعصى عليه أى شكل يراد أن يشكل به . وكانوا يصبونه كما نصبه الآن فى أحواض مصنوعة من ألواح خشبية . وبفضله استطاعوا أن يغطوا مسافات كبيرة لاعمد فيها بقباب صلبة خالية من الأكتاف الجانبية التى تحمل السقف المقوس . وهذه هى الطريقة التى شادوا بها قبة البانثيون ، وقم الحمامات الكبرى . واستخدمت الحجارة فى تشييد معظم الهياكل وبوت الكبراء ، وكان من أنواعها نوع نصف شفاف يستخرج من

كهيدوكية ينفذ الضوء من خلاله ، حتى أن هيكلًا بنى به كان ينال كفايته من ضوء النهار وجميع نوافذه مغلقة^(٢٢) وبدأت رغبة الرومان في استخدام الرخام على أثر فتح بلاد اليونان ، وقد أشبعوا هذه الرغبة باستيراد العمدة أولاً ، ثم باستيراد الرخام ، ثم باستخراجه من محاجر كرارا القريبة من لونا Luna . وكان استخدام الرخام قبل أيام أغسطس مقصوراً على الأعمدة والألواح المستوية ، ثم استخدم في عهده لتغطية الآجر والمسلح ؛ وإذا ما قال إنه ترك رومة مدينة من الرخام فيجب ألا يفهم من قوله هذا أكثر من المعنى السالف الذكر ، وهو أن بعض ما فيها من آجر ومسلح في أجزاء متفرقة منها قد غطى بالواح من الرخام . أما الجدران المشيدة من الرخام المصمت فكانت نادرة ، وكان الرومان يميلون إلى أن يجمعوا في البناء الواحد بين حجر مصر الأعلب الآخر والرمادي ، وحجر عوبية البصلي^(*) ذي اللون الأخضر ، ورخام نويميدا الأسود والأصفر ، وبين رخامهم الأبيض المستخرج من محاجر كرارا وأحجار البازلت ، والمرمر ، والحجر السماقي ، ولم تبلغ مواد البناء في عصر من العصور ما بلغت في رومة من تعدد في الأنواع والألوان .

وقد أضافت رومة إلى الطرز الدورية ، والأيونية ، والكورنثية الأنماط التسكانية والأنماط المركبة من خليط من هذه كلها أو من بعضها بصورها الأصلية أو بتعديل فيها . وكثيراً ما كانت العمدة تقام من حجر واحد بدل أن تكون من حجارة مثقوبة يوتكز بعضها فوق بعض . وكانت للعمدة الدورية قواعد أيونية ، واتخذت لها شكلاً جديداً رفيعاً خالياً من الثنايا ، وقد تكون للتيجان الأيونية التي تعلو الأعمدة أربع تلافيف في بعض الأحيان حتى يكون منظرها واحداً من جميع الجوانب ، أما العمدة والتيجان الكورنثية فقد بلغت في تطورها حداً من الجمال والرقّة لم تبلغه نظائرها اليونانية وإن كان الإفراط في التجميل والتنميق قد أفسد هذا الطراز من

(*) وهو المسمى بحجر السيلينو Cipollino وهو حجر جيري محب يحتوى على الميكا

(المترجم)

العمد في العصور المتأخرة . ومثل هذا يقال عن الإفراط في رسم الأزهار فوق التلافيف الأيونية لصنع التيجان المركبة من طرز مختلفة كما نشاهد ذلك في قوس تيتس . وكانت التلافيف تنتهى أحياناً بأشكال حيوانية أو آدمية توهم الرأى بأنها ميازيب على صورة حيوانات أو أناس على غرار ما صنع منها بعدئذ في العصور الوسطى . وكثيراً ما كان الرومان المسرفون يخلطون بين طرز مختلفة في البناء الواحد ، كما نشاهد ذلك في ملهى مارسلس ، يضاف إلى هذا أنهم قد بلغ بهم الشح في بعض الأحيان حداً جعلهم يتركون العمد الجانبية ملتصقة بجسم الهيكل نفسه كما نشاهد في البيت المربع maison carrée في نيمز Nimes . وظل الرومان يضيفون العمد إلى مبانيهم يزينونها بها ولو لم يعد لها عمل أصيل بعد أن سلبها تطور العقود ما كان لها من شأن قديم في استناد هذه المباني إليها — وبقيت هذه العادة قائمة إلى عصرنا الحاضر دون أن يعرف مصدرها الذي أخذت عنه .

هياكل رومة

لقد احتفظت رومة في جميع هياكلها إلا قلة ضئيلة منها بنظام الأروقة ذات العمد ، المبسوطة عليها عوارض رئيسية تحمل السقف . وكان أغسطس متحفظاً في الفن شأنه في كل شيء سواه ، ولذلك استمسكت جميع الأضرحة التي بنيت بأمر منه بالتقاليد الصحيحة القديمة . ثم أخذ الأباطرة من بعده يضاعفون عدد الهياكل التي يقيمونها لآلهم التي تنافسهم في السلطان والجاه ، ويغشون فجورهم بستار من التقى المعماري ، حتى ازدحمت التلال وسدت الشوارع بالمزارات المقرمدة المذهبة . وكان چوپتر بطبيعة الحال صاحب النصيب الأوفر منها ، فكان من بين هياكله الكثيرة هيكل چوپتر المرعد ، وهيكل چوپتر المثبت الذي ثبت

أقدام الرومان وأوقف هربهم في القتال ، واقتسم مع يونو ومنيرفا أقدس مزارات رومة فوق تل الكبتول . فقد أقيم في الحجره الوسطى تمثال ضخم من الذهب والعاج لجوهر الأفضل والأعظم Jupiter Optimus Maximus يحيط به من الجانبين رواق معمد ذو ثلاث طبقات . وتعزو الرواية التاريخية أول صورة من صور هذا الصرح الأعظم من الصيروح الرومانية المقدسة إلى تاركونيوس بسكس وقد دمرته النار عدة مرار ، وكان في كل مرة يعاد بناؤه بعد تدميره . واختلس استلكو في عام ٤٠٤ م أبوابه البرنزية المذهبة ليؤدي بها رواتب جنده ، ونهب الوندال قراميد السقف المصفحة بالذهب ، ولا تزال بعض قطع من أرضيته باقية إلى اليوم .

وكان يقوم على القمة الشمالية من قم هذا التل نفسه هيكل يونو المنذرة أو الخارسة Juno Moneto ، وهناك كانت دار سبك العملة . ولا حاجة إلى أن نذكر للقارئ أن اسم دار السك (mint) والنقود (money) مصدر كثير من المطامع ، مشتق من لفظ منيتو الذي كانت تلقب به يونو . وعلى المنحدر الجنوبي من منحدرات هذا التل كان يقوم معبد ساترن (زحل) أقدم آلهة لكبتول . ويرجع الرومان تاريخ بناء هذا الهيكل لذلك الإله إلى عام ٤٩٧ ق . م ؛ وقد بقي منه حتى الآن ثمانية عمد أيونية وعارضة واحدة فوق بعض هذه العمد . وفي السوق الكبرى عند سفح التل كان المعبد الصغير المخصص لجانوس Janus إله البدايات كلها . وكانت أبوابه لا تفتح إلا في زمن الحرب ولم تغلق في أثنائها إلا ثلاث مرات في تاريخ رومة القديم . وفي الركن الجنوبي الشرق من أركان السوق كان هيكل كاسترو بلكس Castor and Pollux الذي شيد في عام ٤٩٥ ق . م ؛ وقد وصلت إلينا من بقايا هذا الهيكل الذي جددته تيبيريوس ثلاثة عمد كورنثية رفيعة ، وهي بإجماع الخبيرين أجمل العمد الرومانية على الإطلاق .

وأضاف أغسطس إلى هذه الهياكل في سوقه هو هيكل للمريخ المنتقم

Mars Ultor وفاء بنذره قبل فلپاى Philippi ، ولا تزال ثلاثة من عمدته الفخمة قائمة فى مكانها إلى اليوم . وكان أحد أطراف ساحته الوسطى عبارة عن نصف دائرة ذات سقف مقبب ، وهى طراز معمارى أصبح فيما بعد طراز محراب الكنائس المسيحية الأولى . وأقام أغسطس على تل الهلاتين هيكلًا فخماً من الرخام الخالص للإله أبولون نظير معونته له فى أكتيوم ، وزينه بتماثيل من صنع ميرون Miron واسكوباس Scopas ، وأضاف إليه مكتبة فخمة ومعرضاً فنياً ، وبذل كل ما فى وسعه ليظهر الناس إن الإله قد غادر بلاد اليونان وجاء إلى رومة يحمل معه إليها زعامة العالم الروحية والثقافية ؛ بل إن أصدقاء أغسطس ، بعد أن زالت أسباب التخرج من هذا الحمس بوفاة والده أغسطس ، قالوا إن أبولو متخفياً فى صورة ثعبان رشيق سريع الحركة هو الذى استولدها هذا الزعيم الداهية .

وكان فى الجزء الشمالى الغربى من المدينة هيكل عظيم لإيزيس Isis وعلى تل الهلاتين مزار فسيح لسيبيل . وكانت فيه ، ملاذات لبعض المعانى المجردة مجسدة — كالصحة والشرف ، والفضيلة ، والوثام ، والوفاء ، والحظ ، وكثير من أمثالها . وكانت كل هذه الهياكل تقريباً تحتوى ساحات ملاءى بالتماثيل والرسوم الملونة . وقد جمع فسبازيان فى معبد السلم العظيم الذى أقامه كثيراً من الكنوز الفنية التى كانت فى بيت نيرون الذهبى ، وبعض الخلفات التى جاء بها من أورشليم وأباح للناس مشاهدتها . ويمتاز هيكل فرتونا فريلس Fortuna Virilis القائم فى سوق بوريوم Forum Boarium بأنه أكمل بناء فى رومة من عهد ما قبل أغسطس احتفظ بأجزائه إلى اليوم . وكانت نساء العاصمة يترددن كثيراً على هذا الهيكل للعبادة فيه ، فقد كن يعتقدن أن الآلهة تعلمهن كيف يخفين عيوبهن عن أعين الرجال .

وقد أضاف مهندسو رومة إلى هذه الهياكل وإلى عشرات العشرات من الهياكل الأخرى المشيدة على الطراز المربع القديم ، أضافوا إليها عدة هياكل

دائرية الشكل تكشف عن سيطرتهم الحديثة على مشكلة تشييد القباب .
وتقول الرواية التاريخية إن هذا الطراز من البناء مأخوذ من كوخ رمبولوس
المستدير الذى احتفظ به كما يحتفظ بالآثار الدينية على تل الهلاتين
قروناً طويلاً .

ولا يكاد يقل عنه فى القدم بيت فستا Aedes Vestae الجميل المجاور
لهيكل كاسترو بلكس ؛ وكانت ساحته الوسطى المغطاة جدرانها بالرخام
الأبيض تحيط بها عمد كورنثية جميلة ، وكان سقفها قبة من الشهبان المذهب .
وكان إلى جوارها قصر العذارى القسئية — ويتكون من أربع وثمانين حجرة
مشيدة على نظام الأديرة حول هوذى عمد . ولم يكن الإثنىون قد أصبح
بعد هيكلًا مستدير الشكل ؛ فقد كان فى صورته التى أقامه عليها أجربا
مستطيلاً ، ولكن كانت له ساحة مستديرة أمامه . وقد أقام مهندسو
هدريان فوق هذه الساحة الهيكل المستدير والقبة الضخمة اللذين لا يزالان
حتى الآن أعظم شاهدين على جرأة الإنسان وشجاعته .

التحول الفجائى إلى الطراز المقوس

لقد كانت رومة فى عمارتها الدنيوية أعظم منها فى عمارتها الدينية .
ذلك بأنه كان فى وسعها فى أولى العمارتين أن تتحرر من قيود التقاليد ،
وأن تجمع بين الهندسة والفن — بين المنفعة والقوة من جهة ، والجمال
والشكل من جهة أخرى — بطريقة اختصت بها هى لا يشاركها فيها غيرها
من المدن . لقد كان الأساس الذى قامت عليه العمارة اليونانية هو الخط
المستقيم (مهما أدخل عليه من التنظيم الدقيق كما يشاهد فى البارثنون) :
كالعمود الرأسى ، والعارضة الأفقية ، والقوسرة المثلثة الشكل ،
أما أساس هندسة البناء الرومانية الخالصة فقد أصبحت الخط المنحنى ؛
ذلك أن الرومان كانوا ينشدون العظمة ، والإقدام ، والضخامة ،

ولكنهم لم يكن في وسعهم أن يسقفوا مبانيهم الواسعة على مبادئ الخطوط المستقيمة والأروقة ذات العمدة إلا إذا أقاموا فيها مجموعة من العمدة التي تعترض طرقاتها ، وكانت سبيلهم للتغلب على هذه المشكلة هي الأقواس بشكلها المستدير في الغالب ، وما العقود إلا أقواس استطالت ، وما القباب إلا أقواس تحركت ودارت ، ولعل القواد الرومان وأعوانهم قد ألفوا في مصر وآسية الأشكال المقوسة ، وازدادت ألفتهم لها على مر الأيام ، فأيقظوا في مواطنهم التقاليد الرومانية والتسكانية القديمة التي طال العهد بطغيان الأنماط اليونانية عليها ، فأخذت رومة تستخدم العقود استخداماً بلغ من اتساعه أن اشتق منه فن البناء كله اسم جديد أصبح علماً عليه ولم يفارقه قط : وقد أنشأ الرومان القبة المفصلية بوضع شبكة من الأضلاع المكونة من الآجر على طول خطوط الالتواء قبل أن يصب الملاط المسلخ في الإطار الخشبي لعمل السقف ؛ ثم أنشئوا ، بوضع قبتين اسطوانيتين متعامدين ، شبكة من الأضلاع والخنيات تستطيع أن تتحمل فوقها بناء أثقل منها كما تستطيع أن تتحمل دفعاً قوياً من الجانبين . هذان هما المبدآن اللذان قام عليهما الانقلاب الفعجائي في فن العمارة الرومانية وتحوله من طراز الخطوط إلى طراز الأقواس .

وبلغ الطراز الحديد كما له في الحمامات والمدرجات الكبرى ، وكانت حمامات أجريا ، ونرون ، وتيتس الحلقة الأولى من سلسلة طويلة انتهت بحمامات دقلديانوس ، فقد كانت هذه صروحاً من الملاط المسلخ مغطاة بالخشب أو الآجر تعلو علواً شاهقاً في الهواء . وكانت مزينة من داخلها بفسافي من الرخام والفسيفساء ، وبأعمدة مختلفة الألوان ، وسقف مزخرفة ، وصور ملونة وتمائيل . وكان فيها حجرات لخلع الملابس ، وحمامات ساخنة وباردة ، وحجرة وسطى ذات هواء دفيء ، وبرك للسباحة ، ومواضع للتمريثات الرياضية ، ومكتبات . وحجر للمطالعة ، وأخرى للبحث ، وأرائك للراحة ، وأكبر الظن أنها كانت

تحتوى أيضاً على معارض فنية . وكانت أغلب الحجرات تسخن من مركز عام تمتد منه أنابيب كبيرة من الصلصال ، وتسير تحت أرض الحجرات وفى داخل الجدران . وكانت هذه الحمامات (*) الحارة أوسع وأفخم ما شيد من المباني العامة ، ولم يوجد لها قط نظائر من نوعها فى العالم كله . وكانت جزءاً من الاشتراكية فى الترفيه عن الشعب حاولت به الزعامة أن تبرر سلطاتها المطلق المتزايد .

وكانت هذه النزعة نفسها هى الحافز على بناء أعظم دور التمثيل فى التاريخ كله . وكان عدد هذه الدور فى رومة أقل منها فى العواصم الحديثة ، ولكنها كانت أوسع منها رقعة . وكان أصغرها هو الملهى الذى شاده كورنيليوس بلبس *Coraelius Balbus* فى ميدان المريخ (١٣ ق . م) ، والذي كان يتسع لسبعة آلاف وسبعائة من النظارة ؛ وقد أعاد أغسطس بناء ملهى يسمى الذى كان يتسع لسبعة عشر ألفاً وخمسمائة ، وأتم بناء ملهى آخر سماه باسم مرسلس *Marcellus* ويتسع لعشرين ألفاً وخمسمائة . وكانت هذه الدور تختلف عن مثيلاتها فى بلاد اليونان فى أنها كانت مسورة ، وفى أن مقاعد النظارة كانت تستند إلى أبنية ذات أقواس وقباء بدل أن تستند إلى منحدرات التلال . وكان المسرح وحده هو المسقف ، ولكن النظارة كانوا يتقنون الشمس بمظلة من نسيج التيل (*velarium*) كانت فى ملهى يسمى تغطى مساحة عرضها ٥٥٠ قدماً . وكانت فوق المداخل مقصورات للأعيان وذوى المناصب الكبرى فى الدولة ، وكان لبعض المسارح ستائر لم تكن ترفع إلى أعلى إذا بدأ التمثيل بل كانت تنزل فى فتحات معدة لها . وكان المسرح يرتفع على أرض الملهى بنحو خمس أقدام ، وكان الجزء الخلفى منه يتخذ فى العادة شكل بناء أثيق يمتد من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر ، فيمكن

(*) ولقد كانت الحمامات الرومانية نموذجاً أقيمت على مثاله مباني حديثة كثيرة واجهت نفس المشكلة التى واجهها الرومان ، وهى تغطية مساحة واسعة من الأرض بأبنية ليس فيها إلا أقل عدد مستطاع من العوائق ، ومن أشهر أمثلة هذه المباني محطة بنسلفانيا ، والمحطة الوسطى فى نيويورك .

الممثلين بذلك من أن يسمعوا أصواتهم للعدد الجم من النظارة الذين يضمهم الملهى . ويحدثنا سنكا عن « صناع المسارح الذين يخترعون حالات ترتفع من نفسها أو أرضيات ترتفع في سكون في الهواء » (١٣٢) . وكان تغيير المناظر يحدث بوساطة مناشير دوارة أو بتحريك مجموعة منها إلى طرفي المسرح أو إلى أعلاه فتتكشف بذلك المجموعة التي تليها . وكان يستعان على إسماع النظارة أصوات الممثلين بوضع جرار فارغة في أرض المسرح وجدرانها (٣٢ب) . وكانت أمكنة النظارة تبردها جداول مائية تجري في ممراتها ، وكان مزيج من الماء والنبذ وعصير الزعفران ينقل أحياناً إلى أعلى المقاعد في أنابيب ثم يرش على النظارة على هيئة رشاش عطر (٣٢ج) . وكان داخل الملهى يزدان بالتماثيل وكانت صور كبيرة ترسم على المسرح . بدل المناظر المتغيرة في هذه الأيام . ولعلنا لا نجد الآن في العالم كله ملهى مهما عظم يبلغ في الاتساع والفخامة ما بلغه ملهى عبي في رومة .

وكانت حلبة الألعاب ومضمار الركض والمدرج أحب إلى الشعب من دار التمثيل . وكان في رومة عدة مضامير تستخدم أكثر ما تستخدم المباريات الرياضية . وكان سباق الخيل والعربات وبعض الألعاب الأخرى تعرض في حلبة فلانيوس في ميدان المريخ أو في الحلبة الكبرى التي جدد قيصر . بناءها بين تلي بلاتين وأفنتين . وكانت هذه الحلبة في شكل قطع ناقص طوله ٢٢٠٠ قدم وعرضه ٧٠٥ ، وكان فيها مقاعد خشبية في ثلاث جهات منها تتسع لمائة وثمانين ألفاً من النظارة (٣٣) . وفي وسعنا أن نقدر ثروة رومة إذا عرفنا أن تراچان أعاد بناء هذه المقاعد من الرخام .

وكان بناء الكلوسيوم بناء متواضعاً إذا قيس إلى هذه الحلبة الكبرى ، فقد كانت مقاعده لا تتسع لأكثر من خمسين ألفاً ، ولم يكن تصميمه جديداً ، لأن مدن إيطاليا اليونانية كانت من زمن بعيد تحتوى مدرجات مثله ، فقد أنشأ كورنيو Curio كما قلنا من قبل مدرجاً في عام ٥٣ ق . م ،

وبنى قيصر مدرجاً آخر في عام ٤٦ ، وبني استاتيليوس تورس Statilius Taurus مدرجاً ثالثاً في عام ٢٩ ق.م . وكان فسبازيان هو الذى بدأ المدرج الفلافى - وهو الاسم الذى كان الرومان يطلقونه على الكلوسيوم - كما كان تيتس هو الذى أتمه في عام ٨٠ م ، ولانعرف اسم المهندس الذى أشرف على بنائه . وقد اختار فسبازيان لبنائه البحيرة التى كانت فى حديقة قصر نيرون بين التل الكئيلى Caelian والتل الهلاتينى . وقد شيد من الحجر الترافرتينى (*) على شكل إلهيليجى يبلغ طول محيطه ١٧٠٠ قدم . وكان ارتفاع سورہ الخارجى ١٥٧ قدماً ، وكان مقسماً إلى ثلاثة أطباق يقوم بعض طابقه الأول على أعمدة تسكانية - دورية ، ويقوم طابقه الثانى على عمد أيونية ، والثالث على عمد كورنثية ، وبين كل عمودين عقد . وكانت الدهاليز الرئيسية مسقوفة بأقنية اسطوانية تتقاطع فى بعض المواضع على طراز أديرة العصور الوسطى . وكان داخله مقسماً أيضاً إلى ثلاث طبقات تستند كل منها إلى أعمدة ، وتنقسم إلى حلقات من المقصورات والمقاعد ، متحدة فى مركزها تقطعها طرقات ذات درج فتقسمها إلى « أوتاد » cunei : ويبدو داخله للنظر إليه فى هذه الأيام كأنه كتلة ضخمة من البناء قطع فيه صانع جبار عقوداً وطرقات ومقاعد . وكان داخله يزدان بالتماثيل وغيرهما من وسائل التجميل ، وكانت كثير من صفوف المقاعد مصنوعة من الرخام ، وكان للمدرج ثمانون مدخلا خصص اثنان منها للإمبراطور وحاشيته . وكانت هذه المداخل والخارج vomitoia تكفى لإخراج الجماهير الغفيرة التى تملأ هذا المدرج الضخم فى دقائق معدودات . وكان يحيط بالحلبة التى يبلغ اتساعها ٢٨٧ قدماً فى ١٨٠ سور يبلغ ارتفاعه خمس عشرة قدماً يعلوه دربزون يحمى وحوشه الأدميين من وحوش الغاب . وليس الكلوسيوم من المباني الجميلة المنظر ، وإن ضخامته

(*) هذا هو الاسم الذى يطلقه الإيطاليون على الحجر الجيري الذى يتكون من رواسب

حياء الفوارات الذائب فيها الجير . (المترجم) (٢١ - ج ٢ - مجلد ٣)

نفسها لتتم عما فى الطبيعة الرومانية من خشونة ، كما تكشف عما فيها من عظمة : وكل ما يمكن أن يقال فى مديحه أنه أكثر الخرائب التى خلفها العالم الرومانى القديم روعة . لقد كان الرومان يبنون كما يبنى الجبابرة ، ولو أننا طلبنا إليهم أن يصفقوا مبانيهم كما يصفق الصياغ الحلى لكلفناهم ضد طباعهم .

لقد أنشأ الفنانون الرومان فنه من خليط مختار من الطرز الأتيكية ، والأسبوية ، والإسكندرية ، فجمعوا فيه بين التحفظ والضخامة والرشاقة . غير أنهم لم يمزجوا فى يوم من الأيام هذه الصفات لينشئوا منها تلك الوحدة الأساسية التى هى أساس من أسس الجمال . وإن فيما تتصف به المباني الرومانية الخالصة من قوة وفجاجة لمسحة شرقية ، فهى تبعث فى النفس الرهبة لا الجمال ؛ وإن بنثيون هديران أنفسهم ليعد من عجائب الصروح أكثر مما بعد من روائع الفن ؛ فليس لنا أن نتطلع فى الفن الرومانى إلى رقة الشعور ودقة التنفيذ اللهم إلا فى حالات نادرة كالتقوش والتحف الزجاجية الباقية من عصر أغسطس . بل يجب أن نتوقع هنا وجود فن هندسى يهدف إلى الغاية فى الصلابة والاقتصاد والمنفعة ، إلى افتتاح العصامى بالضخامة والزينة وإصرار الجندى على الواقعية ، وإلى فن المحارب ذى القوة الباطشة . وإذا كان الرومان لم يصفقوا فنه صقل الصياغ فما ذلك إلا لأن الفاتحين لا يصبحون قط صياغاً ، ولذلك صقلوه صقل الفاتحين .

وما من شك فى أنهم قد أنشأوا أكثر المدن فتنة وروعة فى التاريخ ، وأوجدوا فناً مرناً ، تصويرياً ومعمارياً فى مقبور كل إنسان أن يفهمه ، وشادوا مدينة يستطيع كل مواطن أن يعيش فيها وينتفع بها . لقد كانت جماهير الأحرار فى تلك المدينة فقيرة قليلة الثراء ، ولكنها كانت إلى حد ما تمتلك كثيراً من ثروتها : فقد كانت تأكل حب الدولة ، وتجلس بغير أجر ، أو بأجر هو والعدم سواء ، فى دور التمثيل ، وفى حلبات الألعاب ، وفى المدرجات وميادين السباق . وكانوا يمارسون ضرباً من الرياضة البدنية ،

ويتناولون المرطبات ، ويستمتعون بضروب التسلية ، ويتعلمون فى الحمامات ؛ ويتفثون ظلال مئات من الأروقة ذات العمدة ، ويمشون تحت القباب والعمود المنقوشة المزينة التى كانت تغطى أميالاً كثيرة من شوارع رومة ، وتغطى ثلاثة أميال فى ميدان المريخ وحده ، ولم يشهد العالم قبل رومة عاصمة مثلها ، فقد كان فى وسطها سوق عجاجة صخابة تدور فيها رحى العمل بلا انقطاع ، وتتردد فى جنباتها أصدااء أصوات الخطباء ، وتدور فيها المناقشات التى تزلزل قواعد الإمبراطورية ، ومن حولها حلقة من الهياكل ، والباسقات ، والقصور ، ودور التمثيل ، والحمامات ، فى كثرة منقطعة النظر ، وتحيط بهذه الحلقة حلقة أخرى من الحوانيت مكتظة بالبائعين والمشترين ، تدوى فيها أصواتهم ، وتليها حلقة ثالثة من البيوت والحدائق ، فحلقة رابعة من المعابد والحمامات مرة ثانية ، وتنتهى بدائرة من القصور الريفية الصغيرة ذات الحدائق ، ثم الضياع التى تدفع بأطراف المدينة إلى الريف وتربط الجبال بالبحر . هذه هى رومة القياصرة — مزهوة ، قوية ، يرافقة ، مادية ، قاسية ، ظالمة ، مشوشة غير منظمة ، سامية رفيعة الذرى .

الباب السابع عشر

رومة الأبيقورية

٣٠ ق م - ٩٦ م

الفصل الأول

الشعب

والآن فلندخل تلك المساكن ، والهياكل ، ودور التمثيل ، والحمامات لنرى كيف كان يعيش الرومان ، وسنراهم حين ندخلها ممتعين أكثر من فنونهم . وعلينا أن نذكر من بادي الأمر أن أولئك القوم قد صاروا قبل عهد نيرون رومان من الوجهة الجغرافية فحسب ، بل أن الظروف التي عجز أغسطس عن التغلب عليها ، وهي ما سرى بين الأسر القديمة من عادات الامتناع عن الزواج ، وعن التناسل ، ومن قتل الأطفال ، وتحرير الأرقاء ، وما كانت تتصف به الأسر الجديدة من خصوبة نسبية ، كل هذا قد غير أحوال الشعب الروماني من الناحية العنصرية ، والأخلاقية ، والجسمية .

لقد كان الرومان في العهد القديم تدفعهم الغريزة الجنسية إلى كثرة النسل ، كما كانت تدفعهم إليها أيضاً رغبتهم في أن يكون لهم من بعدهم من يعنى بقبورهم ، أما في الوقت الذي نتحدث عنه ، فقد عرفت طبقاتهم العليا والوسطى كيف تفصل الغريزة الجنسية عن الأبوة ، فتشيع الأولى دون أن يؤدي ذلك الإشباع إلى الثانية ، كما أصبحت هذه الطبقات ترتاب في عقيد الدار الآخرة .

وكانت تربية الأبناء في الزمن الأول واجبا على الآباء للدولة بحتمه عليهم الشر ، ويلزمهم به الرأي العام ؛ أما الآن فقد بدا من أسخف الأشياء أن يطلب إلى الآباء أن يزيدوا عدد سكان المدينة التي ضاقت بمن فيها ؛ وكان المنافقون المداهنون لا ينفكون يتملقون العزاب ومن لا أبناء لهم من المنزوجين يطلبون إليهم أن يوصوا لهم بأموالهم بعد وفاتهم . وقد وصف جوفنال هذه الحال بقوله : « إن أكثر ما يجب فيك أصدقاءك أن تكون لك زوج عقيم ^(١) » . وقد ورد على لسان شخصية من شخصيات بترونيوس : « ليس في أقرطونا إلا طبقتان من السكان — متملقون ومتملقون ، والحرمة الوحيدة فيها أن تلد أبناء يرثون مالك من بعدك . فهي أشبه بميدان قتال في فترة راحة : ليس فيه إلا جيف وطيور جارحة ناتهمها ^(٢) » . وفقدت أم ولدها الوحيد فعزاها سنسكا بقوله إنها ستصبح محببة عند الناس مكرمة لأن « النكل عندنا يزيد سلطان النكلي أكثر مما ينقصه ^(٣) » وكان في أسرة جراكس اثنا عشر طفلا ، ولكننا لا نعتقد أنه كان بين طبقتي الأشراف والفرسان في رومة على عهد نيرون خمس أسر من هذا النوع . وكان الزواج عند الرومان في العهد القديم رباطا اقتصاديا يدوم مدى الحياة ، أما الآن فقد أصبح في نظر مائة ألف روماني مغامرة قصيرة الأجل ، خالية من كل معنى روحي ، وعقداً ضعيفاً يسهل التحلل منه غابته الحصول على اللذة الجسمية أو السلطة السياسية . ولكي تغلت النساء من القبود المفروضة على العزاب في الوصايا والهبات كان بعضهن يتزوجن بالخصيان حتى لا يحملن ^(٤) ، ومنهن من كن يعقدن زيجات صورية على رجال فقراء مشروطات ألا يطلب إليهن أن يحملن ، وأن يكون لهن من العشاق بقدر ما يرغبن ^(٥) . وكانت موانع الحمل بنوعها الآلى والكيميائي واسع الانتشار ^(٦) فإذا لم تفلاح أسعفنهن الإجهاض بأشكاله الكثيرة . نعم إن الفلاسفة والمشرعين كانوا يحرمونه ، ولكن أرقى الأسر كانت تلجأ إليه . وفي ذلك يقول جوفنال : « إن الفقيرات من النساء

يقاسين آلام الوضع ومتاعب تربية الأبناء ، أما القرش المذهبة فتماما تضم امرأة حاملا ؛ ألا ما أشد حذق المجهضين وما أقوى العقاقير المجهضة ! » وليكنه مع هذا يقول للزوج « أعطها الدواء وأنت معتبط ، فإنك قد تجرد نفسك ، إن ولدت ، أبا لطفل حبشى » (٧) . وأما قتل الأطفال فقد كان نادراً في هذا المجتمع المستنير (*) .

على أن قلة نسل الطبقات الثرية في رومة والإمبراطورية الرومانية كان يقابله من الناحية الأخرى كثرة الهجرة وخصب الطبقات الفقيرة ، ولذلك ظل سكان رومة والإمبراطورية في ازدياد مستمر . وقد قدر بلوك Belock سكان رومة في عهد الإمبراطورية الأولى بثمانمائة ألف ، وقدرهم جين بلبون وماتثي ألف ، وقدرهم ماركوارت Marquardt (***) بملبون وستائة ألف . وقدر بلوك سكان الإمبراطورية بأربعة وخمسين مليوناً ، كما قدرهم جين بمائة وعشرين مليوناً (١) . وظل عدد الأشراف كما كان من قبل ، ولكنهم كانوا كلهم تقريباً مختلفون في أصولهم عن الأشراف القدامى ؛ فلم نعد نسمع عن أسريملبيوس ، وكلوديوس وفابيوس ، وفليبيوس ؛ ولم يبق من العشائر القديمة التي ظلت من عهد قيصر تفخر بأصولها وتحتال في رومة لإسرة كرنليوس . فن هذه الأسر من حصده الحروب أو الاغتيالات السياسية ؛ ومنها من قضت عليه قيود الزواج وتحديد النسل ، والعجز الجنسي ، ومنها من افتقر حتى أصبح في عداد الطبقات الدنيا . وحل محل هذه الأسر في رومة رجال الأعمال الرومان ، وأعيان الميالدان

(*) وكان بعض البنات والقطاء يعرضون أحياناً لتقلبات الجو في القرن الأول بعد الميلاد . وكان ذلك يحدث عادة عند عمود الرضاع *Columna Lactaria* - وقد سمي بهذا الاسم لأن الدولة كانت ترسل المرضعات لتغذية من يعثر عليهن هناك من الأطفال وإتقاذ حياتهم (٢) . على أن التخلص من الأطفال غير المرغوب فيهم عادة شائعة في كل المجتمعات إلا المجتمعات التي لا تستمتع بقسط من الحضارة .

(**) وقد بلغ عدد سكان رومة في عام ١٩٣٧ حوالي ١٧٨٠٠٠٠ نسمة .

الإيطالية ، وأشرف الولايات النائية . وقد قال عضو في مجلس الشيوخ عام ٥٦ م : إن « الكثرة الغالبة من الفرسان ، والعدد الكبير من أعضاء مجلس الشيوخ ، من نسل الأرقاء » (١٢) . ولم يمحض على هؤلاء الأعيان الجدد إلا جيل أو جيلان حتى تخلقوا بأخلاق من سبقوهم ، فقل نسلهم ، وزاد ترفهم ، واستسلموا لتيار المهاجرين من الشرق .

وكان أول القادمين هم اليونان — ولم تكن كثرتهم من بلاد اليونان الأصلية ، بل كانت من شمال أفريقية ، ومصر ، وسوريا ، وآسية الصغرى ، وكانوا على جانب كبير من الحماسة ، والنشاط ، ولين العريكة ، أشبه بأهل الشرق ؛ وكانت كثرتهم من صغار التجار أو المستوردين ؛ وكان بعضهم علماء ، وكتاباً ، ومعلمين ، وفنانين ، وأطباء ، وموسيقيين ، وممثلين ؛ وكان بعضهم يشتغلون بالفلسفة حباً في دراستها أو طمعاً فيما يعود عليهم من المال من هذه الدراسة ؛ وكانت كثرتهم من الموظفين الإداريين ورجال المال القادرين ، وكان الكثيرون منهم لا يرعون عهداً ولا ذمة ، وكلهم تقريباً لا يؤمنون بدين . وقد أتى معظمهم في الأصل أرقاء ، ولم يكونوا ممتازين في شيء ، وحافظوا بعد تحررهم على مظاهر الذلة والخنوع وعلى ما كانوا يبطنونه من حقد على أغنياء الرومان ، الذين أصبحوا من الناحية الذهنية كلا على التراث الثقافي لليونان الأقدمين ، واستهزاء بهم . وغصت شوارع العاصمة باليونان الثرثارين الكثيرة الجلبة والحركة ، وكان السائر فيها يسمع اللغة اليونانية أكثر مما يسمع اللغة اللاتينية ، وكان على الكاتب إذا أراد أن تقرأ جميع طبقات الأمة كتابته أن يكتبها باليونانية . وكان المسيحيون الأولون في رومة كلهم تقريباً يتكلمون اللغة اليونانية ، وكذلك كان السوريون والمصريون ، واليهود . وكانت بجالية كبيرة من المصريين — تضم تجاراً وصناعاً وفنانين — تعيش في ميدان المريخ . أما السوريون ، النحاف الأجسام ، الوداعون الظرفاء ، الماكرون الدهاة ، فكان الإنسان يلتقي بهم في كل مكان في العاصمة

يشغلون بالتجارة ، والصناعات اليدوية ، والأعمال الكتابية ، والشئون المالية ، والاحتيايل على الناس .

وأصبح اليهود من عهد قيصر غنصراً قوياً من عناصر السكان في العاصمة وقد وفد منهم إليها عدد قليل من عهد ماض يرجع إلى عام ١٤٠ ق . م (١٣) . وجيء بعدد كبير منهم إلى رومة أسرى حرب بعد حروب يمي التي شبت في عام ٦٣ ق . م ، ولم يلبث هؤلاء أن تحرروا من الرق بجدهم ، واقتصادهم ، أولأن استمساكهم الشديد بأوامر دينهم كان يضايق سادتهم . ولم يحل عام ٥٩ ق . م حتى كان عددهم في الجمعية قد ازداد إلى حد جعل شيشرون يصف معارضتهم بأنها مجازفة سياسية غير مأمونة العاقبة (١٤) . ويمكن القول بوجه عام إن الحزب الجمهورى كان معادياً لليهود ، وإن الشعب والأباطرة كانوا من أصدقائهم (١٥) (*) وقبل أن ينصرم القرن الأول كان عددهم في العاصمة قد بلغ ٢٠٠٠٠ (١٨) ، وكانت كثرتهم تسكن على الضفة الغربية من نهر التيبر ، وكانت تعاني الأمرين من جراء الفيضان الموسمى لهذا النهر . وكانوا يعملون في أحواض السفن القريبة من مساكنهم : ويشغلون بالصناعات اليدوية وبتجارة الأشتات في الحوانيت ، أو بالتنقل في أحياء المدينة . وكان منهم أغنياء ، ولكن لم يكن من بينهم إلا عدد قليل من كبار التجار ، فقد كان السوريون واليونان هم المسيطرين على التجارة .

(هـ) وقد ظلوا على الدوام يؤيدون قيصر ، وبسط عليهم في نظير ذلك حمايته ورعايته ، وحذا أغسطس حذوه في هذه الخطة ؛ أما تيبيريوس فكان معادياً لكل العقائد الأجنبية ، ولذلك جند أربعة آلاف منهم ليحاربوا في سردينية حرباً لا تكاد تختاف في شيء عن الانتحار ، ثم أخرج البقية الباقية منهم من رومة (١٩ م) (١٦) . ثم أدرك بعد اثني عشر عاماً من ذلك الوقت أن سجانوس قد أضله في هذا الأمر ، فألقى مرسوم نفهم ، وأمر ألا يضار اليهود في ممارسة طقوس دينهم وفي اتباع عاداتهم (١٧) . وبسط عليهم كاجيولا حمايته في رومة ، ولكنه قاولهم في خارجها ؛ ونفى كلوديوس بعضهم على أثر ما أحدثوه في المدينة من شغب ، ولكنه أصدر في عام (٤٢) مرسوماً عاماً يؤيد فيه حقهم أيأ كان مقامهم في أنحاء الإمبراطورية . أن يعيشوا حسب قوانينهم . وفي عام ٩٤ نفى دومتيان اليهود من رومة إلى وادى إيجيريا Egeria ، وفي عام ٤٦ أعادهم نيرفا Nerva إلى رومة ، ورد إليهم حقوقهم المدنية ، وسمح لهم أن يستمتعوا بالعثمانية جيلا كاملا .

الدولية . وكان لهم في رومة عدد كبير من المعابد ، لكل واحد منها مدرسته ، وكتبته ، ومجلسه المكون من شيوخهم (١٩) ، والمعروف باسم الجروسيا Gerousia . وكانت نزعة اليهود الانفصالية ، واحتقارهم للشرك وعبادة الأوثان ، وتزمتهم الخلقى ، وامتناعهم عن الذهاب إلى دور التمثيل أو مشاهدة الألعاب ، وعاداتهم وطقوسهم الدينية الغربية ، وفقرهم وما نتج عنه من قذارة ، كان كل هذا سبباً في كراهية العناصر الأخرى لهم ، وهى الكراهية المألوفة في تاريخهم الطويل . وقد ندد جوفنال بكثرة تناسلهم ، كما ندد تاستس بوحدانيتهم الدينية وأميانس مرسلينس Ammianus Marcellinus بشغفهم بالثوم (٢٠) . وزادت البغضاء بينهم وبين غيرهم من الطوائف بعد استيلاء الرومان على بيت المقدس وسط معارك دموية ، ومثلت في موكب النصر الذى استقبل به تاستس جماعة كبيرة من الأسرى اليهود والغنائم المقدسة ، كما مثلت رموز من هذا النوع على ما أقيم له من أقواس النصر ، وأضاف فسبازيان إلى أذاهم السخرية منهم وأمر أن يخصص من ذلك الوقت نصف الشاقل ، الذى كان يرسله اليهود المشتتون لصيانة الهيكل ، لتعمير رومة . على أن كثيراً من الرومان المتعلمين كانوا يعجبون بعقيدة التوحيد اليهودية ، ومنهم من اعتنق هذا الدين ، وكان الكثيرون منهم حتى من بين الأسر الغنية يتخذون يوم السبت اليهودى يوم عبادة وراحة .

وإذا ما أضفنا إلى اليونان ، السوريين ، والمصريين ، واليهود ، وبعض التوميديين ، والنوبين ، والأحباش الأفريقيين ؛ وقليلاً من العرب ، والبارثيين ، والكهدوكيين ، والأرمن ، والفريجيين ، والبثنيين الأفريقيين ؛ « البرابرة » الأقوياء من دلماشيا ، وتراقية ، وداشيا ، وألمانيا ، والأشراف ذوى الشوارب من غالة ، والشعراء والفلاحين من أسبانيا ؛ « والمتوحشين ذوى الوشم من بريطانيا » إذا ما أضفنا هؤلاء كلهم إلى اليونان كانت لنا صورة من الأجناس المختلفة التى تتكون منها روما الدولية . وقد دهش مارتياى أشد

الدهشة من قدرة عاهرات رومة على أن يكيّفن لغتين ومفاتيح حسب أجناس من يترددون عليهن من هذا الخليط ، وحسب أهوائهم (٢٣) . وكان چوفنال يقول وهو متألم إن نهر العاصى ، أكبر أنهار سوريا يصب فى نهر التيبر (٢٤) ، ووصف تاستس العاصمة بأنها « بالوعة أقدار العالم » (٢٥) . وكانت وجوه الشرقيين ، وأساليبهم ، وملابسهم ، وألفاظهم ، وحركاتهم ، وإشاراتهم ، ومنازعاتهم ، وأفكارهم ، وعقائدهم ، عنصراً كبيراً من حياة المدينة الزاخرة ، وما وافى القرن الثالث بعد الميلاد حتى كانت حكومة المدينة ملكية مطلقة كحكومات البلاد الشرقية ، وما وافى القرن الرابع حتى كان دين رومة ديناً شرقياً ، وحتى خر سادة رومة سجداً لإله الأرقاء .

على أن هذا الحشد الخليط لم يخل من عناصر النبل والكرامة ، فقد جهر بسخطه على پوپيا عشيقة نرون فى الوقت الذى صمت فيه الشيوخ فلم يجروا على النطق بكلمة ؛ وهاجم مجلس الشيوخ ليحتج على قتل أرقاء بدونيوس سكندس جملة (٢٦) ، ولم تكن الفضائل البسيطة التى يتحلى بها الرجل العادى معدومة فى هذا المجتمع ؛ فقد كانت حياة الأسرة اليهودية مثلاً يحتذى فى الحياة الصالحة ؛ وكانت الطائفة المسيحية القليلة العدد تقض بتقواها ورقة حاشيتها مضاجع العالم الوثنى المنهمك فى ملذاته وشهواته . لكن معظم الوافدين إلى رومة قد فسدت أخلاقهم بلا ريب حين انتزعوا من بيئاتهم ، وثقافتهم ، وقوانينهم الأخلاقية التى نشأوا فيها ، درجوا عليها . وقضت أعوام الاستعباد الطوال على ما كانوا يتصفون به من احترام الذات الذى هو عماد الاستقامة والخلق الطيب ، وجردهم احتكاكهم فى كل يوم بطوائف من الخلاق مختلفى العادات والمشارب من كثير مما بقى لهم من أخلاق كريمة تأصلت فى نفوسهم بحكم العرف المألوف والعادة . ولو أن رومة لم تبتلع هذا العدد الكبير من الناس فى هذا الوقت القصير ، ولو أنها ألحقت هؤلاء الوافدين كلهم بمدارسها بدل أن تلحقهم بأقذر أحيائها ، ولو أنها عاملتهم على أنهم رجال ذوو مزايا كامنة فى نفوسهم تستطيع الكشف عنها

والانتفاع بها ، ولو أنها أغلقت أبوابها حيناً بعد حين في وجه الوافدين حتى تستطيع عملية الهضم والتمثيل أن تجارى عملية الهجرة وتلاحقها ، لو أنها فعلت هذا لكان في مقدورها في أكبر الظن أن تكسب من هذا الاندماج قوة عنصرية وأدبية جديدة ، ولبقيت رومة رومانية ، ولظلت حصن الغرب الحصين الناطقة بمبادئه والمعبرة عن آرائه . أما وهي لم تفعل هذا فقد كان ذلك الواجب شاقاً عليها لا تستطيع الاطلاع به . وقضت على المدينة الظافرة سعة ملكها واختلاف الأجناس الخاضعة لحكمها ، ورق دمها الوطني وخف في محيط رعاياها الزاخر . وانحطبت طبقاتها المتعلمة إلى ثقافة من كانوا عبيداً لها ، لأنهم لكثرتهم كانوا أقوى من سادتهم ، فغلبت كثرة هؤلاء على فضائل أولئك ومميزاتهم ، وأصبح المغلوبون المحضبون سادة في بيوت الأسياد العقيمين المجدبين .

الفصل الثاني

التعليم

لسنا نعرف الشيء الكثير عن أطفال الرومان ، ولكن في وسعنا أن نحكم ، استناداً إلى الفن الروماني وشواهد القبور الرومانية ، أن الأطفال كانوا بعد أن يولدوا يصبحون موضع الحب المفرط غير الحكيم . ونرى جوفثال يخرج أحياناً عن غصبة ليكتب قطعة رقيقة تفيض بالعاطفة عن المثل الطيبة التي يجب علينا أن نعرضها على الأطفال ، وعن المناظر السيئة والأصوات المنفرة التي يجب أن نبعد عنهم ، وعن مظاهر الاحترام التي يجب أن نتحلى بها أمامهم في جميع الأوقات حتى الأوقات التي تظهر لهم فيها منتهى الحب (٢٧) . ويطلب فافورينوس ، في مقال لو أنه كتب قبل عهد روسو لكان تقليداً ساخراً له ، إلى الأمهات أن يرضعن أولادهن (٢٨) . ويضرب سنكا وأفلوطينوس على هذه النعمة نفسها وإن لم يستمع إليها إلا عدد قليل ، فقد كان استخدام المراضع هو القاعدة المتبعة لدى جميع الأسر التي تمكنها مواردها من استخدامهن ، ويبدو أن هذه العادة لم تنشأ منها مأس لهذه الأسر (*) .

وكانت التربية الأولى تقوم بها المراضع ، وكن في العادة يونانيات . وكن يقصصن عليهم قصصاً خرافية تبدأ عادة بهذه العبارة : « يحكى أن ملكاً وملكة . . . » وكان التعليم الابتدائي لا يزال من المشروعات الفردية ، وكثيراً

(*) وكانت اللعب والألعاب كثيرة كما هي في هذه الأيام ، فكان أطفال الرومان يقفزون فوق خطوط مرسومة على الأرض ، ويشلون الحبل ، ويصوبون النقود إلى هدف . وكان منها تغذية العينين ، والاستخفاف والبحث ، وكان منها اللعب بالدمى والأطواق ، والقفز على الحبل واتخاذ العصي خيولاً ، وعمل الطائرات الورقية . وكان عند شباب الرومان خمس ألعاب بالكرة مختلفة بعضها عن بعض ، منها واحدة شبيهة بلعبة كرة القدم في هذه الأيام إلا أنها كانت تستخدم فيها الأيدي والأذرع بدل السيقان والأقدام (٢٩) .

ما كان الأغنياء يستأجرون المربين لأبنائهم ، ولكن كوثليان حذرهم من هذا العمل كما حذر منه إمرسن Emerson لأنه يحرم الطفل صداقة زملائه التي لا غنى له عنها في نشأته ، كما يحرمه عامل المنافسة التي تنبه قواه وتنشطها . وكان أبناء الطبقات الحرة وبناتها يدخلون المدرسة الأولية عادة في سن السابعة ، يصحب كلاً منهم في غدوه ورواحه « مرشد الطفل » (بداجوج paedagogue) ليحافظ عليه من الناحيتين الجسمية والخلقية . وانتشرت هذه المدارس في جميع أنحاء الإمبراطورية فلم تخل منها بلدان الريف الصغيرة . وتوحى الكتابة المخرفشة (*) التي كشفت على جدران عمى بأن أهلها لم يكن بينهم أميون ، وأكبر الظن أن التعليم كان وقتئذ منتشراً في عالم البحر الأبيض انتشاراً لا يقل عنه في أى وقت سابق لهذا العهد أو لاحق . وكان المرشد (البداجوج) والمعلم (لودى مجستر Ludi magister) من اليونان الأرقاء أو المخربين : وكان كل تلميذ في أيام هوراس وفي البلدة التي كان يعيش فيها يؤدي للمدرس في كل شهر ثمانية آسات (١٠ من الريال الأمريكى) (٣٠) . وبعد ثلثائة وخمسين سنة من ذلك الوقت جعل دقلديانوس الحد الأعلى للمدرس في المرحلة الأولية من مراحل التعليم خمسين ديناراً (٢٠ ريالاً أمريكياً) عن كل تلميذ في كل شهر ، وفي وسعنا أن نحكم من هذا على ارتفاع قدر المدرس أو انخفاض قيمة الآس .

فلذا بلغ التلميذ (أو التلميذة) الثانية عشرة من عمره ، وكان ناجحاً ، أدخل مدرسة ثانوية أو عالية ، وكان في رومة مائة وثلاثون مدرسة من هذا النوع . وكان التلاميذ يدرسون فيها قدراً أوفى من النحو ، واللغة اليونانية ، والآداب اليونانية واللاتينية ، والموسيقى ، والفلك ، والتاريخ ، والأساطير ، والفلسفة ؛ وكانت الطريقة المألوفة في هذه الدراسة هي المحاضرات التي تشرح أقوال الشعراء الأقدمين . ويلوح أن منهج الدراسة حتى هذه المرحلة كان واحداً للذكور والإناث

(*) في المحيط المخرفش المخطوط وقد ترجمنا بها كلمة scribbling . (المترجم)

على السواء ، ولكن البنات كثيراً ما كن يتلقين فضلاً عن هذا دروساً في الموسيقى والرقص وإذ كان المدرسون في المدارس الثانوية (جرماتيشي grammatici) من المحررين اليونان على الدوام ، فقد كانوا يوجهون معظم اهتمامهم إلى آداب اليونان وتاريخهم بطبيعة الحال ؛ ومن أجل هذا اصطبغت الثقافة الرومانية بالصبغة اليونانية ، حتى إذا ما أشرف القرن الثاني الميلادي على نهايته ، كانت اللغة اليونانية لغة التعليم العالي كله تقريباً ، وضاعت الآداب اللاتينية في غمرة عاوم ذلك العصر وثقافته . أما الدراسات التي تعادل الدراسات في الكليات والجامعات في هذه الأيام فكان مقرها مدارس الخطباء . ولم يكن في الإمبراطورية مكان يخلو من الخطباء الذين يدافعون عن يستأجرونهم في دور القضاء أو يكتبون لهم الخطب ، أو يلقون المحاضرات العامة ، أو يعلمون التلاميذ فن الخطابة ، أو يقومون بهذه الأعمال كلها . وكان الكثيرون منهم ينتقلون من مدينة إلى مدينة ، يتحدثون في الأدب ، أو الفلسفة أو السياسة ، ويعرضون على المستمعين كيف يترقون أي موضوع بمهارة الخطباء البلاغ . ويحدثنا بلني الأصغر عن إسيوس Isaeus اليوناني وكان وقتئذ في الثالثة والستين من عمره فيقول :

كان يعرض على سامعيه عدة أسئلة للمناقشة ويترك لهم الحرية الكاملة في اختيار أيها يشاءون ، بل كان يطالب إليهم أحياناً أن يختاروا له الناحية التي يجب أن يؤيدها ، ثم يقوم ، ويرتدى ثوبه ويبدأ حديثه . . . وكان يعرض موضوعه عرضاً لبقاً جميلاً ، وكان قصصه واضحة ، ونقاشه متيناً قوياً يشهد بالذكاء والفطنة ، ومنطقه قوياً ، ولغته بليغة إلى أقصى حدود البلاغة (٣١) .

وكان يسمح لهؤلاء الرجال أن يفتحوا المدارس ، ويستخدموا فيها مساعدين لهم ، ويجمعوا عدداً كبيراً من الطلاب . يدخلونها حوالى السنة السادسة عشرة من العمر ، ويدفعون من الأجور ما يصل أحياناً إلى ألفي مسترس

عن كل منهج في مادة من مواد الدراسة : وكانت أهم موضوعات الدرس هي الخطابة ، والهندسة النظرية ، والفلك ، والفلسفة - وكانت هذه المادة الأخيرة تشمل الكثير مما يطلق عليه الآن اسم العلوم الطبيعية . ويتكون من هذه المواد ما يعرف « بالتعليم الحر » أى المخصص لأبناء الأغنياء الأحرار (homoliber) ، وهم الذين لم يكونوا في أغلب الظن يقومون بأى عمل جماعياً . وقد شكوا برونوس ، كما يشكو كل جيل ، من أن التعليم لأيوهل الشبان لمواجهة ما سوف يعترضهم من المشاكل في مستقبل حياتهم فيقول : « إن المدارس هي الملوثة فيما يتصف به شبابتنا من سخف وبلاهة ، لأنهم لا يستمعون فيها إلى شىء من شئون الحياة اليومية » (٣٢) . وكل ما نستطيع أن نقوله نحن عنها إنها كانت تربي في الطالب المجد ملكة التفكير الواضح السريع ، الذى امتازت بها مهنة القضاء في جميع العصور ، وعلمتهم تلك البلاغة الخلاقة التى لا تتقيد بالقويم من المبادئ أو الأخلاق ، والتى امتاز بها خطباء الرومان . ويبدو أن هذه المدارس لم تكن تمنح خريجها إجازات علمية ؛ وكان فى وسع الطالب أن يبقى فيها ما شاء ، وأن يختار من المواد ما يريد ؛ من ذلك أن أولس جليوس Aulus Gellius بقى فى إحداها حتى بلغ الخامسة والعشرين . وكانت مفتحة الأبواب للنساء حتى المتزوجات منهن . ومن شاء من الطلاب أن يستزيد من التعليم انتقل إلى أثينة لدراسة الفلسفة من منابعها الفياضة ، أو إلى الإسكندرية لدراسة الطب ، أو إلى رودس لدراسة آخر دقائق علوم البلاغة . وكان شيشرون يدفع عن ابنه فى جامعة أثينة ما قيمته أربعة آلاف ريال أمريكى فى كل عام .

وكانت مدارس البلاغة حين جلس فسبازيان على العرش قد بلغت من الكثرة وقوة النفوذ درجة رأى معها هذا الإمبراطور الداهية أن من الحكمة أن ينقل كبرياتها إلى العاصمة ، وأن يضعها تحت إشراف الحكومة ، وذلك بأن يدفع إلى كبار الأساتذة فيها مرتبات من قبل الدولة ، بلغ أعلاها

مائة ألف سسترس (نحو عشرة آلاف ريال أمريكى) فى كل عام . ولسنا نعرف كم عدد الأساتذة الذين خصهم فسيان بهذه المرتبات أو عدد المدن التى فاضت عليها أمواله . ولكننا نسمع بالإضافة إلى هذا عن هبات من الأفراد للتعليم العالى ، كما فعل بلنى الأصغر فى كومم Comum^(٣٢) . وأعطى تراجان رواتب لخمسة آلاف طالب ، كان لهم من العقل أكثر مما لهم من المال . فلما جلس هديران على العرش كانت البلديات هى التى تنفق على المدارس الثانوية فى معظم مدائن الإمبراطورية ، وخصص معاش للمدرسين بعد تقاعدهم . وأعفى هديران وأنطونيوس كبار الأساتذة فى كل مدينة من الضرائب وغيرها من الأعباء العامة . وبلغ التعليم ذروته فى الوقت الذى انتشرت فيه الخرافات ، وفسدت الأخلاق وذوي غصن الآداب .

الفصل الثالث

الرجال والنساء

كانت الحياة الخلقية خاضعة للرقابة الشديدة عند البنات والإشراف مع الرفق عند الشبان . وكان الرومان ، كما كان اليونان ، يتغاضون عن اتصال الرجال بالعاشرات . وكانت هذه المهنة ينظمها القانون ويخضعها لإشرافه ، فكان يجتم ألا توجد المواخير إلا في خارج أسوار المدن ، وألا تفتح إلا ليلاً . وكان يناط بالإيدل تسجيل أسماء العاهرات ، ويحتم عليهن أن يلبسن الطوغة Toga بدل الاستولا Stola (*) . وكان بعض النساء يسجلن أسماءهن في سجل العاهرات ليتخلصن من ضروب العقاب التي يفرضها القانون على الزانيات . وكانت الأجور تحدد بحيث لا ترهق أية طبقة من الطبقات . فقد وصلت إلينا أنباء عن « نساء يوثجرون بربع آس » . ثم نشأت طائفة مطردة الزيادة من السراى المثقفات اللائى يسعين لكسب الأنصار بإنشاد الشعر ، والغناء ، والموسيقى ، والرقص ، والحديث المثقف . ولم يكن الإنسان في حاجة إلى الخروج من أسوار المدينة للبحث عن هاته النسوة أو عن غيرهن من السيدات الطيعات ؛ ويؤكد لنا أوغد أن من السهل أن يلقاهن تحت الأروقة ذات العمد ، وفي حلبات المصارعة ، وفي دور التمثيل ، وأنهن « لم يكن أقل عدداً من نجوم السماء » (٣٤) . وقد التقى چوفنال حين بجوار المعابد وخاصة معبد إيزيس الإلهة الرؤوفة بالعاشقين (٣٥) . ويتم المؤرخون المسيحيون الرومان بأن الدعارة كانت تمارس داخل الهياكل الرومانية وبين مذابحها (٣٦) .

وكان في البلاد أيضاً رجال مخنثون . وكان اللواط محرماً بحكم القانون ولكنه

(*) الطوغة رداء زوماني خارجى شبيه بالحية ، والاستولا رداء خارجى مثلها ويختلف عنها في أنه طويل سابل يصل إلى القدمين . (المترجم)

كان مباحاً بحكم العادة ، واسع الانتشار لا يرى فيه مسبة ولا عار . انظر إلى قول هوراس : « لقد أصاب قلبي سهم الحب » ، فهل يعرف القارئ من الذى رمى الشاعر بهذا السهم ؟ إنه « ليسيكوس الذى لا تضارعه أية امرأة فى رقبته » ؛ ولا شئ يشفى الشاعر من هذه العاطفة القوية « إلا شعلة أخرى من نار الحب تشعلها بين جوانحه فتاة جميلة أو يشعلها فتى آخر نحيل » (٣٧) . وتدور خير نكات مارتياك الشعرية حول اللواط . ومن قصائد چوفنال فى الهجوم قصيدة لا يليق نشرها تردد شكوى إحدى النساء من هذه المنافسة المردولة منافسة الغلمان للنساء (٣٨) . وكان الغزل الشعرى فى الذكور والإناث على اختلاف قيمته واسع الانتشار بين الشباب والفتيان الذين لم تنضج أجسامهم بعد .

وكان ثمة صراع شديد بين الزواج وبين هذه المنافذ الجنسية المنافسة له وكان يجد له أنصاراً من الذين يتوقون لأن يكون لهم أبناء ، ومن سمانرة الزواج ، وبفضل هذا العون كان فى وسع كل فتاة تقريباً أن تجد لها زوجاً مؤقتاً على الأقل . وكانت النساء غير المتزوجات اللاتي يجاوزن التاسعة عشرة من العمر يعتبرن عوانس ولكن عددهن كان قليلاً . وقلما كان الخطيب يرى خطيبته قبل الزواج ، ولم تكن هناك مغازلة وتحبيب ، وليس فى لغة الرومان لفظ للتعبير عن هذا المعنى . وقد شكنا سنكا من أن كل شئء يجرب قبل الشراء عدا الزواج فإن العريس لا يجرب عروسه (٣٩) . ولم تكن الرابطة العاطفية قبل الزواج مألوفة ، وكان الشعر الغزلى يخاطب به النساء المتزوجات أو النساء اللاتي لا يفكر الشاعر قط فى أن يتزوج من . وكانت مداعبة النساء تأتى بعد الزواج ، كما كان يحدث فى الظروف المشابهة لظروف الرومان فى فرنسا فى العصر الوسيط وفى هذه الأيام . وكان سنكا الأكبر يعتقد أن الزنى منتشر بين نساء الرومان فى أوسع نطاق (٤٠) ، وكان ابنه الفيلسوف يظن أن المرأة المتزوجة التى تقنع بعاشقين تعد آية فى الإخلاص لزوجها (٤١) . ويقول أوفد الساخر : ليس ثمة نساء طاهرات إلا اللاتي لم يطلبهن أحد ، وإن

الرجل الذى يغضب من صلات زوجته الغرامية رجل جلف^(٤٢) . قد لا تكون هذه إلا أساليب أدبية مما يلجأ إليه الكتاب ، ولعل أصدق منها تلك القبرية التى كتبها كونتس فسيلو Quintus Vespillo على قبر زوجته . « قلما يدوم زواج حتى الموت من غير طلاق ، ولكن زواجنا ظل زواجا سعيداً إحدى وأربعين سنة »^(٤٣) . ويحدثنا جوفنال عن امرأة تزوجت ثمانى مرات فى خمس سنين^(٤٤) ؛ وسبب ذلك أن الرابطة بين الزوجين لم تكن فى بعض الأحيان هى الحب بل كانت المال أو السياسة ، ومن أجل ذلك كانت بعض النساء يرين أنهن قد أدين واجبهن كاملاً إذا ما أسلمن بانهن إلى أزواجهن وأجسامهن إلى عشاقهن . ويقول جوفنال على لسان زانية تخاطب زوجها الذى فاجأها على غير انتظار : « ألم نتفق على أن يفعل كل منا ما يحلوه ؟ »^(٤٥) . وكان للمرأة فى ذلك العهد مثل ما لها الآن من « الحرية » الكاملة إذا ما استئنينا من ذلك الحقوق السياسية الشكلية وحرفية القوانين الميتة . لقد كان التشريع يبقى المرأة خاضعة أسيرة ، ولكن العادة جعلتها حرة طليقة .

وكان معنى هذا التحرر فى بعض الأحيان أن تقوم بنصيبها من العمل كما هى الحال فى هذه الأيام ؛ فنهى من سكن يعملان فى الحوانيت أو المصانع وخاصة فى الحرف المتصلة بالنسيج ، ومنهن من أصبحن محاميات أو طبيبات^(٤٦) ؛ وأصبح لبعضهن سلطان سياسى قوى ، وكانت زوجات حكام الأقاليم يستعرضن الجند ويخطبهن^(٤٧) . وكانت العذارى الفستية يتوسطن لأصدقائهن فى الحصول على المناصب السياسية ، وكانت نساء ممحى ينقشن على الجدران أسماء من يفضلن من الرجال لتولى هذه المناصب . وكان المحافظون يبدون الألم والشماتة حين ظهر لهم أن قد وقع ما حذرهم منه كانوا حين قال إن النساء إذا ما تساوين بالرجال سيحولن هذه المساواة إلى سيادة لهن . وقد ارتاع جوفنال حين رأى من النساء ممثلات ، ورياضيات ، ومصارعات وشاعرات^(٤٨) . ويصفن مارتياك بأنهن بصارعن

الوحوش ، ومنها السباع في المجتلد^(٥١) . ويحدثنا استاتيوس عن نساء قتلن في هذه المصارعات^(٥٢) . وكانت النساء يفتقلن في الشوارع محمولات في الهواذج . « يعرضن أنفسهن من كل ناحية للناظرين »^(٥٣) . وكن يتحدثن إلى الرجال في الأروقة ، والمتنزهات والحدائق ، وساحات المعابد ، ويرافقنهم إلى المآدب العامة والخاصة ، وإلى المدرجات ، ودور التمثيل ، حيث « تكون أكتافهن العارية » كما يقول أوفيد « من المناظر التي تسر العين وتبعث على التفكير »^(٥٤) . والحق أن المجتمع الروماني في ذلك العهد كان مجتمعاً مرحاً ، متعدد الألوان ، مختلط الصلات الجنسية ، لو شهدة اليونان في عصر بركليز لتولتهم منه الدهشة ؛ وكانت نساء الطبقات الراقية في فصل الربيع يملأن القوازيب ، والشواطئ ، والبيوت الريفية ذات الحدائق في باي Baiae وغيرها من المصايف تعج بضحكهن ، ويعرضن فيما جالهن ، ومغامرات عشقهن ، ودسائسهن السياسية . وكان الطاعنون في السن من الرجال ينددون بهذه الفعال وهم يتمنون أن لو استطاعوا الاستمتاع بها .

وكانت النساء الطائشات أو الفاسدات يولفن وقتئذ كما يولفن الآن أقلية ظاهرة تقع عليها العين في كل مكان . وكان ثمة عدد يماثلهن - وإن لم يكن على الدوام ظاهرات مثلهن - من النساء اللاتي يعشقن الفن أو الدين أو الأدب . فقد كان الرومان يرون أن شعر سلبيشيا Sulpicia جدير بأن يتناقله الناس كشعر تيبلس Tibullus سواء بسواء . وكان شعره غرامياً متطرفاً في الغرام ، ولكنه كان موجهاً إلى زوجها ولهذا لا تكاد ترى فيه ما يبعده عن الفضيلة^(٥٥) . وكانت ثيوفिला Theophila صديقة مارتياك فيلسوفة ، متمكنة من مبادئ الرواقيين والأبيقوريين ، وكانت بعض النساء يشغلن وقتهن في الأعمال الخيرية والخدمات الاجتماعية ، ومنهن من أنشأن في مدنها المعابد ، ودور التمثيل ، والأروقة ذات العمدة ، وكن يناصرن جماعات الكهنة . وفي نقش عند لنورفيوم Lanuvium

حديث عن « جمعية النساء » (*curia mulierum*) . وكان في رومة ناد للسيدات ، ولا يبعد أن إيطاليا كان بها اتحاد أهلى لنوادى النساء . ومهما يكن من أمر هذه النوادى والمجتمعات فإننا بعد أن نقرأ ما كتبه عنها مارتياى وچوثنال لا نكاد نصدق أنه كان في رومة هذا العدد الكبير من فضليات النساء . كان فيها أكتافيا التى ظلت وفية لأنطونيوس رغم خياناته الكثيرة لها ، تربى أبنائه من زوجات أخرى ، وكان فيها أنطونيا ابنتها المحبوبة وأرملة دروسس الطاهرة وأم جرمانكوس الكاملة ، وملونيا Mallonia التى أنبت تيبيريوس على ملأ من الناس لكثرة آثامه ثم قتلت نفسها ، وأريا بيتا Arria Paeta التى طعنت صدرها بالخنجر حين تلقى زوجها كاسينا بيتس Caccina Paetus أمر كلاوديوس بأن يقتل نفسه ثم أسلمت هذا الخنجر وهى تحتضر إلى زوجها وهى تؤكد له « أنه لا يؤلم »^(٥٤) ، وبولينا التى حاولت أن تموت مع سنكا ، وبولتا التى حاولت أن تموت جوعاً حين أمر نيرون بقتل زوجها ، ثم انتحرت مع أبيها ، لما أن صدر أمر نيرون بقتله^(٥٥) . وإيكارس Epicharis المعتوقة التى تحملت كل أنواع العذاب ولم تكشف عن مؤامرة پيزو Piso . وإن تنس لانتس النساء الكثيرات اللاتى أخفين أزواجهن وحمينهن فى عهد القتل والتعذيب والتشريد ، واللاتى رافقنهن فى المنفى ، أو دافعن عنهم كما دافعت فانيا Fannia عن زوجها هلفيدىوس Helvidius ، وعرضن أنفسهن لأشد الأخطار : إن هؤلاء وحدهن إذا وزن فى ميزان مع العاهرات اللاتى ورد ذكرهن فى نكات مارتياى وقوارص چوثنال ليرجحن عليهن بلاريب .

وكان من وراء هؤلاء النسوة اللاتى اشتهرن ببطلتهن كثيرات من النساء المغسورات اللاتى لم يذكر التاريخ أمرهن واللاتى كان وفاؤهن لأزواجهن وتضحياتهن فى سبيل أبنائهن الدعامة القوية التى أبقت على صرح الحياة الرومانية . لقد ظلت الفضائل الرومانية القديمة — فضائل التقى والوقار

والبساطة — والإخلاص المتبادل بين الأبناء والآباء ، والشعور بالتبعية
الصادر عن تعقل ورزانة ، والابتعاد عن الإسراف والتظاهر الكاذب ،
ظلت هذه الفضائل كلها باقية في البيوت الرومانية . إن الأسر المهذبة
الرفيعة السليمة التي يصفها بلني في رسائله لم تبدأ فجأة في عهد نيرفا
وتراجان ، بل كانت باقية هادئة في أيام الطغاة المستبدين ، حافظت
على كيانتها رغم تجسس الأباطرة ، وتسفل الشعب المهين الذليل ، وانحطاط
الفسقة والأراذل والمومسات . ولما نللمح ومضات من ضياء هذه البيوت
في القبريات التي يكتبها الأزواج لأزواجهم والأدباء لأبنائهم . وهالك
واحدة منها : « هنا تنوى عظام أربيليا Urbilia زوجة بريمس Primus .
لقد كانت أعز على من حيأت نفسها ، لقد قضت نحبها في الثالثة والعشرين
من عمرها محبوبة من الجميع . وداعاً ياسلوقي ! » وجاء في قبرة أخرى :
« إلى زوجتي العزيزة التي عشت معها ثمانية عشر عاماً سعيدة . ولقد
أقسمت من فرط حبي لها ألا أتزوج قط غيرها » (٥٦) . وفي وسعنا أن نتصور
أولئك النساء في بيوتهن — يغزلن الصوف ، يعذرن أبناءهن ويعلمنهم ،
ويرشدن الخدم إلى واجباتهم ، ويحسن القيام على مصروفهن القليل ،
ويشتركن مع أزواجهن في عبادة آلهة البيت التي اعتدن أن يعبدنها من أقدم
الأزمان . ولقد كانت رومة رغم ما فيها من فساد ، لبلاد اليونان ، هي التي
رفعت شأن الأسرة وسمت بها في مدارج الرقي الجديدة في العالم القديم .

الفصل الرابع

الشياب

إذا جاز لنا أن نحكم على الرومان من بضع مئات من التماثيل ، قلنا إن رجال الرومان في عهد نيرون كانوا أكثر بدانة ، وألين أجساماً ، وأرق ملامح من أمثالهم في عصر الجمهورية الناشئة . لقد كانت سيطرة الرومان على العالم سبباً في احتفاظ الكثيرين منهم بالصلابة وشدة المراس ، يخشاهم الناس أكثر مما يحبونهم ؛ ولكن الطعام والخمر والكسل أثرت في أجسام غير هؤلاء فأكسبتهم بدانة لو أنها كانت في أسرة سبيو لجللتها العار . وكانوا لا يزالون يخلقون لحاهم - أو على الأصح كان لهم حلاقون (tensores) يخلقون لهم لحاهم . وكان اليوم الذي يخلق فيه الشاب لحيته أول مرة يوم عيد يحتفل به في حياته . وكثيراً ما كان يهب شعر عارضيه الأول إلى إله من الآلهة دليلاً على ورعه وتقواه^(٥٧) . وقد احتفظ العامة من الرومان بعاداتهم التي كانوا عليها في عهد الجمهورية عادة تقصير شعر رؤوسهم ، أو إزالته كله ، ولكن عدداً متزايداً من الغنادرة^(*) كانوا يقصون شعرهم ، وهكذا يمثل لنا ماركس أنطونيوس ودوميتيان . وكان كثير من الرجال يتجلبون بالشعر المستعار ، ومنهم من كانوا يتقشون على قعوف رؤوسهم ما يشبه الشعر^(٥٨) . وكانت جميع الطبقات في العهد الذي نتحدث عنه تلبس داخل البيوت وخارجها اللفاعة البسيطة tunic أو الصادرة الواسة blouse ؛ أما الطوغة (Toga) أو الجبة الرومانية فلم تكن تلبس إلا في المناسبات الرسمية ، وكان يلبسها الموالي حين يستقبلهم الشريف الذي يحميمهم .

(*) جمع غندر كجندب وقتفد وهو الفلام الممين الغليظ الناعم وهذا اللفظ هو الذي أخذ منه العامة لفظ غندور وهو المعنى الذي استعملناه فيه هنا . (المترجم)

والأشراف إذا ذهبوا إلى مجلس الشيوخ أو مشاهدة الألعاب . وكان قيصر يلبس طوغة أرجوانية ويتخذها شعاراً لمنصبه ، وقد حذا حذوه في هذا كثيرون من كبار الموظفين ، ولكن الطوغة الأرجوانية لم تلبث أن أصبحت امتيازاً خاصاً بالأباطرة . ولم يكونوا يعرفون السراويل (البنطلون) التي تضامينا في هذه الأيام ، ولا الأضرار الخداعة التي لا فائدة للكثير منها ، ولا السراويل المنتفخة الضيقة عند الركبتين . ولكن الرجال بدءوا في القرن الثاني يلفون أرجلهم باللفافات العريضة fasciae ، أما الأحذية فكانت تختلف من الخف البسيط - وهو نعل من الجلد أو الفلين مشدود بشریط من الجلد بين الأصبع الكبير والتي تليها كما يفعل أهل نيبون Nippon - إلى الخذاء الكامل المصنوع كله من الجلد أو الجلد والقماش . وكانوا يبتلعونه عادة مع الطوغة في المناسبات التي تتطلب ارتداء الثياب كاملة .

أما النساء الرومانيات في عهد الإمبراطورية الأول ، كما نشاهدن في المظلمات وفي التماثيل وعلى النقود ، فقد كن ذوات شبه قريب بنساء الولايات المتحدة الأمريكية في بداية القرن العشرين إذا استثنينا من هذا التعميم أنهن كلهن تقريباً كن ذوات بشرة سمراء . وكانت أجسامهن متوسطات في النحافة ، وكانت أثوابهن تخلع عليهن قواماً رشيقاً فاتناً ، وكن يدركن قيمة ضياء الشمس ، والرياضة ، والحواء الطلق ، وما لها من أثر في صحة الجسم واعتدال القوام ؛ وكان منهن من يمارسن الألعاب الرياضية بالأنثقال ، ومنهن من لا يقطعن عن السباحة ، ومن يعشن على نظام خاص من الطعام . وكان بعضهن يربطن صدورهن بالمشدات (٥٩) . وكانت النساء في العادة يمشطن شعرهن ويعقدنه خلف العنق ، وكن في الغالب يغطينه بالشباك ، ويربطنه بشریط فوق الرأس . وتطلبت الأزياء المستحدثة بعدئذ تنظيماً جديداً للشعر أرق من هذا التنظيم القديم ، فكان يرفع أحيانا فوق أسلاك معدنية ، وتضاف إليه غداثر مستعارة شقراء اللون مأخوذة من شعر الفتيات الألمانيات (٦٠) . وكانت المرأة المتطرفة على

الطراز الحديث تستخدم عدداً من الجوارى ساعات طوالاً في تدريم أظافرها وتصفيف شعرها (٦١) .

وكانت أدهان الوجه والشعر كثيرة كثرتها في هذه الأيام . ويقول جوفنال إن « التجميل » كان من أهم فنون ذلك العصر ، وقد كتب فيه الأطباء ، والملكات ، والشعراء ، مجلدات (٦٢) . وكان صوان السيدة الرومانية مستودعاً غاصاً بالأدوات - من ملاقط ، ومقصات ، وأمواس ، ومبارد ، وفراجين ، وأمشاط ، ومكاشط ، وشباك للشعر ، وضمائر مستعارة - وأباريق أو قناني للعطور ، والأدهان والزيوت والمعاجين ، وحجارة الخفاف ، والصابون . وكانت الجموش تستخدم لإزالة الشعر ، والمراهم المعطرة لتمويه أو تثبيته . وكانت كثيرات من النساء تضع على أوجههن في الليل غماء من العجين ولبن الأنان وهو مزيج اصطنعته بوبيا Poppea لأنها وجدت فيه عوناً لها على إخفاء عيوب وجهها . ومن أجل هذا كانت الأنانات تصحبها أينما سافرت ، وكانت أحياناً تصطحب قطعاً كاملاً منهن وتستحم بلبنهن (٦٣) . وكانت النساء يطين وجوههن بالمساحيق والمعاجين البيضاء أو الحمراء ، ويصبغن حواجبهن ورموشهن ، أو يطينها كلها باللون الأسود ، وكانت الأوعية الدموية في الصلدين ترسم فوقها أحياناً خطوط دقيقة زرقاء (٦٤) . وكان مما يشكو منه جوفنال أن المرأة الغنية « تكثر من مراهم بوبيا التي تلصق بشفتي زوجها المنكود الحظ » ، الذي لا يرى وجهها قط . وكان أوفد يرى هذه الفنون كلها خداعاً في خداع ، وينصح السيدات بأن يخفينها كلها عن عشاقهن عدا تمشيط شعرهن الذي يسبى عقله (٦٥) . وأضيفت الثياب الكتانية الرفيعة في ذلك العهد إلى أثواب النساء البسيطة التي كن يلبسها قبل حروب هنيبال . وكانت نمرهن تسدل فوق أكتافهن ، والبراقع تخفي الوجوه فتزيدهن إغراء وفتنة . وكانت الثريات من النساء يلبسن في الشتاء أثواباً من الفراء تزيدهن جمالا على جمالهن . أما الحرير فكان واسع الانتشار يلبسه الرجال والنساء على

السواء . وكان هو والتيل يصبغ بالأصباغ الغالية ، وكثيراً ما كان الثرى الرومان يدفع ألف دينار ثمناً لرطل من صوف تصور المزدوج الصباغة (٦٧) . وكان التطريز بخيوط الذهب والفضة يستخدم لتزيين الثياب ، والسجف ، والطنافس ، وأغطية الفرش . وكانت أحذية النساء تصنع من الجلد اللين الرقيق أو القماش ، وتفصل أحياناً تفصيلاً جميلاً ؛ وكانت مفتوحة من أعلاها ، تزركشن أحياناً بالذهب ونحلى بالجواهر (٦٨) ، وتضاف إليها الكعوب العالية أحياناً لتعوضهن ما حرمتن منه الطبيعة .

وكانت الجواهر عنصراً هاماً في جهاز النساء ، فكانت الخواتم ، والأقراط وعقود العنق والصدر ، والتأتم ، والأساور ، والمشابك ، من مستلزمات الحياة . وقد ارتدت لوليا پولينا Lollia Poulina يوماً ما ثوباً مغطى من رأسها إلى قدمها بالزمرد واللؤلؤ ، وكانت تحتفظ معها بالإيصالات الدالة على أن هذه الجواهر قد كلفتها أربعين مليون سسترس (٦٩) . ويصف بلني أكثر من مائة نوع مختلفة من الحجارة الكريمة المعروفة في رومة . وكان تقليد هذه الجواهر تقليداً محكماً صناعة رائجة يشغل بها عدد كبير من الصناع . وكان « الزمرد » الرومانى المصنوع من الزجاج أرقى كثيراً من مثيله فى هذه الأيام ، وقد ظل بائعو الجواهر يبيعونه على أنه زمرد حقيقى حتى القرن التاسع عشر بعد الميلاد (٧٠) . وكان الرجال والنساء على السواء مولعين باقتناء الحجارة الكبيرة التى تستأفت النظر ؛ وقد وضع أحد أعضاء مجلس الشيوخ فى خاتم له « عين هر » فى حجم البندقة ، ولما سمع بذلك أنطونيوس ، أمر بأن يدون اسمه فى سجل المحكوم عليهم بالنفى ؛ ولكن الشيخ فر فى إصبعه مليوناً سسترس . وما من شك فى أن الجواهر كانت فى ذلك الوقت — كما كانت فى كثير من الأحيان — وقاية من التضخم المالى أو الثروة . وكانت الصحف القضيه وقتئذ كثيرة مألوقة عند جميع الطبقات إلا أفقرها . وقد أصدر تيبيريوس وغيره من الأباطرة

الذين جاءوا بعد عدة مراسيم تحرم الترف ، ولكنه لم يكن في وسعة لإرغام الناس على طاعتها ، وسرعان ما أغفل أمرها . وخضع تيبيريوس للأمر الواقع وأقر بأن تبذير الأشراف والحديثى النعمة يحول بين الصنيع في رومة والشرق وبين التعلل ، ويساعد على تسرب خراج الأقاليم من العاصمة . ويقول « كيف تستطيع رومة ، وكيف تستطيع الولايات ، أن تعيش بغير الترف ؟ » .

ولم تكن ثياب النساء والرجال في رومة أكثر ترفاً من ثياب نساء هذه الأيام ، أو أكثر فخامة وأعلى ثمناً من ثياب الأشراف في العصور الوسطى . ولم تكن الأزياء تتبدل في رومة بالسرعة التي تتبدل بها في المدن الحديثة ، بل كان الثوب الحسن يبقى مدى الحياة في بعض الأحيان دون أن يصبح زياً عتيقاً . ولكننا إذا وازنا بين حياة الطبقات العليا في رومة وبينها في عصر الجمهورية قبل أن يأتي بمبي ولوكلس بمغانم الشرق وملذاته ، حكمنا بأن رومة أضححت في العصر الذي نتحدث عنه جنة ينعم فيها المترفون بأفخر الثياب وأشهى الطعام المختلف الأنواع ، وأجمل الأثاث ، وأفخم البيوت . ولما أن جرد الأشراف بما كان لهم من زعامة سياسية ، وكادوا يحرمون كل سلطان سياسى ، وانسحبوا من الجمعيات السياسية إلى قصورهم ، ولم يكن عليهم من أنفسهم وازع من الأخلاق اللهم إلا وازع الفلاسفة ، أطلقوا العنان لشهواتهم وأخذوا يسعون لاغتراف اللذة والتنعم بفرن الحياة .

الفصل الخامس

يوم في حياة روماني

لقد سار الترف في المنزل أسرع من سير الترف في الملابس . وحسبنا أن نذكر من بين مظاهر الترف التي كانت تزدهر بها القصور في عصر نيرون أرضها المصنوعة من الرخام والفسيفساء ، وأعمدتها المقامة من الرخام والمرمر والجزع المختلف الألوان ، وجدرانها المزدانة بالصور الزاهية أو المطعمة بالحجارة الغالية الثمن ، وسقفها المصفحة بالذهب (٧١) أو المغطاة بألواح الزجاج السميكة (٧٢) ، ونضدها المصنوعة من خشب الليمون وأرجلها من العاج ، وأرائكها المنقوشة بأصداف السلاحف أو العاج أو الفضة أو الذهب ، والإستبرق الإسكندري أو الأغطية البابلية التي كان يدفع فيها الأثرياء العاديون ثمانمائة ألف سسترس ويدفع فيها نيرون أربعة ملايين (٧٣) ، والأسرة البرنزية ذات الكلال ، والثريات من البرنز أو الرخام أو الزجاج ، والتماثيل ، والصور الملونة ، والتحف الفنية ، والمزهريات المصنوعة من البرنز الكورنثي أو الزجاج المرهني ؛ حسبنا أن نذكر هذه ليتبين القارئ ما كان ينعم به الأثرياء في ذلك العهد .

لقد كانت القصور أشبه الأشياء بالمتاحف ، وكان لابد من استيراد العبيد ليحرس بعضهم هذه الثروة الطائلة ، ويحرس البعض الآخر هؤلاء الخراس ؛ وكان في بعض البيوت أربعائة من هؤلاء العبيد ، يخدمون صاحب البيت وأسرته ، أو يشرفون على بيته ، أو يشتغلون ببعض الصناعات المنزلية ؛ وكانت حياة الرجل حتى في أخص خصائصها يطلع عليها هؤلاء العبيد . لقد كان يأكل والأتباع عن يمينه وشماله ، ويخلع ملابسه وعند كل حذاء من حذائه عبد ، ويضطجع ليسترىح وعند كل باب

من أبوابه خادم . لم تكن هذه هى الجنة بل كانت هى الشقاء ؛ كل الشقاء ؛ وكأنما أراد الثرى الرومانى العظيم أن يزيد حياته شقاء على شقتها ، فكان يبدأ يومه حوالى الساعة السابعة باستقبال « مواليه » والمتطفلين عليه يعرض عليهم خديده ليقبلاوهما ، ثم يفطر بعد ساعتين أو نحوهما من ذلك الوقت ، ويستقبل من يزورونه من أصدقائه أو يرد لهم الزيارات . وكانت آداب اللياقة تحتم على الرجل أن يرد الزيارة لكل صديق يزوره ، ويساعده فى قضاياه وفى قضاء مطالبه ، ويشهد الاحتفال بخطبة ابنته وبلوغ ابنه سن الرشد ، وقراءة قصائده والتوقيع على وصيته . وكان يؤدى هذه وغيرها من الواجبات الاجتماعية بأدب ومجاملة لا يفوقهما أدب أو مجاملة فى أية حضارة من الحضارات . ثم يذهب الرجل العظيم إلى مجلس الشيوخ ، أو يعمل فى إحدى اللجان الحكومية ، أو يشرف على شئونه الخصوصية .

أما حياة الرجل صاحب الثروة المتواضعة فكانت أبسط من هذه الحياة السابق وصفها ، ولكنها لم تكن أقل منها مشقة ، فكان إذا انتهى من زيارات الصباح الاجتماعية عنى بأعماله الخاصة حتى منتصف النهار . وكان عامة الناس يبادرون بالذهاب إلى أعمالهم من مطلع الشمس ، ذلك أن الرومانى العادى كان ينتفع بيومه على أكمل وجه لأنه لم يكن يشترك فى الحياة الاجتماعية فى أثناء الليل . وكان يتناول وقت الظهر غداء خفيفا ، ويتناول وجبة كاملة فى الساعة الثالثة أو الرابعة ، وتتأخر هذه الوجبة كلما كان الرجل أرقى منزلة . وكان الفلاح أو العامل الأجير بعد أن يتغذى ويغفو قليلا يعود إلى عمله إلى قرب الغروب ، أما غير الفلاح والأجير فكانوا يخرجون إلى التنزه أو فى الحلاء أو فى الحمامات العامة . وكان الرومان فى عهد الإمبراطورية يرون الاستحمام أوجب عليهم من عبادة الآلهة ، وكانوا كاليابانيين يطبقون الروائح العامة أكثر مما يطبقون رائحتهم الخاصة ، ولم يكن يضارعهم شعب آخر فى نظافة الجسم غير المصريين . وكانوا يحملون معهم مناديل (sudaria) لمسحوا بها عرقهم^(٧٤) ، ويصطنعون

الفرجون لتنظيف أسنانهم بالمساحيق والمعاجين . وكانوا في عهد الجمهورية الأول يكتبون بالاستحمام مرة كل ثمانية أيام ، أما في الوقت الذي نتحدث عنه فكان الرومان يستحم كل يوم وإلا نالته نكتة من نكات مارتيا . ويقول جالينوس إن القرويين أنفسهم كانوا يستحمون كل يوم (٧٥) . وكان في معظم البيوت أحواض للاستحمام ، أما بيوت الأغنياء فكان فيها حمامات وتوابعها يتلألأ فيها الرخام والزجاج والصنابير وصفائح الفضة المثبتة على الجدران (٧٦) . لكن الكثرة الغالبة من أحرار الرومان كانت تعتمد على الحمامات العامة .

وكانت هذه الحمامات في العادة ملكا للأفراد ، وكان عددها في رومة عام ٣٣ ق . م مائة وسبعين حماما ، وفي القرن الرابع بعد الميلاد كان فيها ٨٥٦ حماما عدا حمامات السباحة العامة البالغ عددها ١٣٣٢ (٧٧) . وكان أهم من هذه وتلك وأكثر اجتذابا للشعب الحمامات العظيمة التي أقامتها الدولة وعهدت إدارتها إلى ملتزمين ، وعيئت فيها مئات من الرقيق . وكانت هذه « الحمامات الحارة » (thermae) التي شادتها أجريا وشادها من بعدها نيرون ، وتيتس ، وتراجان ، وكركلا ، ولإسكندر سيفرس ، ودقلديانوس ، وقسطنطين ، منشآت ضخمة فخمة تطبع الدولة بالطابع الاشتراكي . وكان في حمام نيرون ١٦٠٠ مقعد من الرخام ، وكان يتسع لألف وستمائة مستحم في وقت واحد . أما حمامات كركلا ودقلديانوس فكان الواحد منها يتسع لثلاثة آلاف . وكانت مفتحة الأبواب لكل روماني ، ولم يكن أجرها يزيد على ما يعادل بـ٣٣ من الريال الأمريكي (٧٨) ، وكانت الحكومة تسد العجز من أموال الدولة ؛ ويلوح أن هذا الأجر كان يشمل الزيت وخدمة المستحمين . وكانت الحمامات تفتح من مطلع الفجر إلى الساعة الواحدة بعد الظهر لاستقبال النساء ، ومن الساعة الثانية إلى الثامنة لاستقبال الرجال ، ولكن معظم الأباطرة كان يبيع للرجال والنساء أن يستحموا معا . وكانت العادة المألوفة أن يذهب الزائر أولا إلى حجرة

خاصة يبدل فيها ثيابه ، ثم ينطلق إلى مكان التمارين العضلية ليلاكم ، أو يصارع ، أو يستبق ، أو يقفز ، أو يقذف القرص أو الحربة ، أو يلعب الكرة . وكانت ألعاب الكرة على أنواع منها نوع شبيه بلعبة « الكرة الطيبة » عندنا ، ومنها نوع آخر تتنازع الكرة فيه طائفتان وتعدو بها كل طائفة إلى الأمام بحماسة لا تقل عن حماسة اللاعبين من طلبة الجامعات في هذه الأيام (٧٩) . وكان لاعبو الكرة المحترفون يأتون أحيانا إلى الحمامات ليعرضوا ألعابهم على روادها (٨٠) . أما كبار السن الذين يكتفون بأن يشاهدوا ألعاب غيرهم فكانوا يذهبون إلى حجرات التدليك حيث يزيل لهم العبيد ما تراكم في أبدانهم من الدهن .

ثم ينتقل المستحم إلى الحمام ذاته ، فيدخل أولا حجرة متوسطة الحرارة يسخنها هواء دافئ ، ثم يخرج منها إلى الحجرة الحارة ذات الهواء الحار ، فإذا أراد أن يتصبب عرقه أكثر مما تصيب في هاتين الحجرتين انتقل إلى حجرة أخرى فيها بخار شديد الحرارة . ثم يستحم بالماء الساخن ويغسل جسمه بشيء جديد تعلمه من الغاليين - وهو صابون مصنوع من الشم ورماد خشب الزان والدردار (٨١) وهذه الحجرات الساخنة كانت أحب الحجرات إلى الشعب ، وهي التي سمي اليونان الحمامات باسمها ؛ ولعلها كانت هي المحاولة التي بذلها الرومان لتخفيف وطأة داء الرثية وأوجاع المفاصل (٨٢) . وينتقل المستحم بعدئذ من حجرة إلى حجرة كل منها أقل حرارة من سابقتها ، حتى يصل إلى الحجرة الباردة فيغتسل فيها بالماء البارد ، ويستطيع إذا شاء أن يغتسل في حمام السباحة . ثم يدلك بالزيت أو بعض المراهم المصنوعة في العادة من زيت الزيتون . ولم تكن هذه الزيوت والمراهم تغسل عن الجسم ، بل كان يكتفى بحكها بمكشط ثم يحفف الجسم بقطيطة ، وذلك لكي يعود بعض الزيت إلى الجسم بدل الشم الذي أزاله منه الحمام الحار .

وقلما كان المستحم يغادر الحمام بعد أن يصل إلى هذا الحد ، لأن هذه الأماكن لم تكن حمامات فحسب ، بل كانت بالإضافة إلى هذا نوادي ، فيها

حجرات للألعاب كالعاب النرد والشطرنج^(٨٣) ، ومعارض للصور والتماثيل ومنصات يجلس عليها الأصدقاء ليتحدثوا ، ومكتبات وحجرات للمطالعة ، وأبناء يجلس فيها موسيقى يعزف أو شاعر ينشد بعض قصائده ، أو فيلسوف يفسر أسرار العالم . وكان المجتمع الروماني يلتقى في هذه الساعات التي يقضيها في هذه الحمامات بعد الظهيرة ، ويختلط فيها النساء والرجال بلا قيد ، ويلهون ، ويتناقشون ، ويتغازلون على سجيتهم ، ولكنهم لا يخرجون عن جادة الأدب . في هذه الأماكن وفي الملاعب كان الرومان يشبعون شهوتهم في الحديث وحبهم للثروة وتبغ الأنباء ، ويعرفون كل ما يحدث داخل البيوت من حوادث وفصائح .

وكان في وسعهم إذا شاءوا أن يتناولوا طعامهم في مطعم الحمام ، ولكن كثرتهم كانت تفضل الطعام في البيت . ولعل السبب في نشوء عادة النوم بعد هذه الوجبة هو ما يعتريهم من تراخ وكسل بسبب الجهد والحمام الحار . وكانت النساء في بادئ الأمر يجلسن بمعزل عن الرجال حين يضطجع هؤلاء ، أما في العصر الذي نتحدث عنه فقد كانت النساء تضطجع إلى جوار الرجال ، وقد سميت حجرة الطعام المسماة عندهم « تركلينيوم أى ذات المضاجع الثلاثة » بهذا الاسم لأنها كانت تحتوى في العادة على ثلاثة مضاجع حول الخوان يتسع كل واحد منها عادة لثلاثة أشخاص . وكان من يتناول الطعام يسند رأسه على ذراعه اليسرى وذراعه على وسادة ، ويمد جسمه في خط مستقيم متجه إلى الجهة المقابلة للمائدة .

وظلت الطبقات الفقيرة تعيش أكثر ما تعيش على الحبوب ، ومنتجات الألبان ، والخضر ، والفاكهة ، والنقل . ويذكر بلني أنواعاً كثيرة من الخضر التي يطعمها الروماني تختلف من الثوم إلى السلجم . وكان الأغنياء يأكلون اللحم ويكثر من أكله لإكثار النهمين المستهترين ، وكان أحبه إليهم لحم الخنزير . ويمتدح بلني الخنازير لأنها تمد الرومان بخمسين نوعاً مختلفاً من الأطعمة^(٨٤)

وكانت أمعاء الخنازير المحشوة Potule تباع في الشوارع في أفران متنقلة كما تباع في طرقاتنا العامة اليوم .

وكان الروماني ، إذا دعى إلى وليمة ، ينتظر أطعمة أنلر من هذه الأطعمة السالفة الذكر . وكانت الوليمة تبدأ في العادة في تمام الساعة الرابعة وتدوم إلى وقت متأخر من الليل أو إلى صباح اليوم التالي . وكانت الأزهار والبقدونس تنثر على المائدة ، والهواء يعطر بالأرواح المحضرة من خارج البلاد ، والمضاجع تغطى بالوسائد اللينة الناعمة ، وكان الخدم يرتدون أزياء خاصة متماثلة . وتقدم أولاً المشهيات (gustatio) ، ثم تأتي بينها وبين الحلوى المسماة عندهم secunda mensa أو المائدة الثانية الأصناف الشبيهة النادرة التي يفخر بها المضيف ورئيس طهاته . وكانت أنواع السمك والطيور والفاكهة النادرة تشبع غريزة التشوف ولذة الحلق معاً ، فكان سمك البِيَّاح(*) يتباع بألف سسترس للرطل الواحد ، وقد ابتاع أسنيوس سِلر Asinius Celer سمكة من هذا النوع بثمانية آلاف سسترس . ويقول جوفنال وهو غضبان أسف إن الصياد كان أقل قيمة من السمكة : وكان مما يزيد بهجة الضيوف أن تحضر السمكة حية وتطهى أمام أعينهم ، حتى يستمتعوا بمختلف الألوان التي تتلون بها وهي تعالج سكرات الموت^(٨٥) : وكان قديوس بليو Vedius Pollis يربي هذا السمك ، الذي يبلغ طول الواحدة منه قدماً ونصف قدم ، في حوض كبير ويطعمه لحم المغضوب عليهم من العبيد^(٨٦) . وكان سمك البحرِيَّث eel والحلزون snails عندهم من الأطعمة الشبيهة ، ولكن القانون كان يحرم أكل الزغبة (الدرموس dormouse) (**). وكانت أجنحة النعام ، وألسنة (البشروش) (flamingo) ، ولحوم الطيور المفردة وأكباد الإوز ، من أشهى

(*) عن معجم الدكتور شرف ، وهو المعروف في مصر باسم البريون وبالإنجليزية

باسم mullet

(**) حيوان قارض بين السنجاب والفأر سمي كذلك لكسله في فصل الشتاء .

(٢٢ - ج ٢ - مجلد ٣)

الأطعمة الرومانية . وقد اخترع أپسيوس Apicius - وهو من مشهورى الأبيقوريين فى عهد تيبيريوس - « فطائر الأكباد السماء » وذلك بزيادة سمبة أكباد الخنازير بطعامها التين (٨٨) (*). وكان العرف يبيع للطاعم أن يفرغ معدته من الطعام بتناول مقيء بعد الوليمة الثقيلة . وكان بعض النهمين يفعلون هذا فى أثناء الوليمة ثم يعودون إليها ليشبعوا جوعهم . وقد قال سنكا فى هذا « إنهم يتقايثون ليأكلوا ويأكلون ليتقايثوا » (٩٠) (vomunt set edant, ant, edunt ut vomant) . لكن هذا كان مسلكا شاذاً ، وليس هو أسوأ من مسلک مدمنى الخمر من الأمريكيين . وكان أظرف من هذه العادة عادة تقديم الهدايا إلى الضيفان أو إسقاط الأزهار أو العطور عليهم من سقف الحجرات ، أو تسليتهم بالأنغام الموسيقية ، أو الرقص ، أو الشعر ، أو التمثيل وكانت الليالى تختتم بالحديث فتنتطق الألسن من عقابها بسبب الخمر ، ويثرها وجود النساء فى المآدب

وليس لنا أن نظن أن هذه المآدب كانت هى الخاتمة العادية التى يختم بها كل يوم من حياة الرومانى ، أو أنها كانت أكل فى حياتهم من مآدب هذه الأيام . إن التاريخ ، كالصحف ، يسىء تصوير الحياة ، لأنه مولع بالشاذ من كل شىء ، ويتجنب حياة الرجل الشريف التى لا أخبار فيها ، والحياة اليومية الهادئة الرتيبة السوية . لقد كان معظم الرومان خلقاً عاديين أشبه الناس بنا ويجيرتنا ، يستيقظون من النوم كارهين ، ويفرطون فى الأكل ، وفى العمل ، ولا يلعبون إلا قليلا ، ويجبون كثيراً ، وقلما يكرهون ، ويتشاجرون بعض الشىء ، ويكثرون من الكلام ، ويحلمون أحلام اليقظة وينامون .

(*) لقد بدد أپسيوس أموالا طائلة فى بذخه وإسرافه ، فلما لم يعد يملك الا عشرة ملايين سترس (١٥٠٠٠٠٠ ريال أمريكى) انتحر ٨٩ . وبعد مائتى عام من انتحاره مزى إليه كتاب فى فن الطبخ ليست له يد فيه ، ولكنها الأساليب التى يجيزها القداى .

الفصل السادس

يوم عطلة روماني

١ - المسرح

كان لرومة أيام عطلة كثيرة ، كانت في أيامها القديمة مطبوعة بطابع الوقار الديني ، وفي الأيام التي نتحدث عنها مرحلة ملوؤها المباهج الدنيوية . وترجع هذه الكثرة إلى تعدد آلهتهم وكثرة الأقاليم التي تمتص خيراتها . وكان الكثيرون من فقرائها يفرون في الصيف من حرارتها ورطوبتها إلى حانات الضواحي وشواطئ البحر وأيكها ، يشربون ، ويأكلون ، ويرقصون ، ويعشقون في الهواء الطلق . وكان ذوو اليسار منهم يذهبون إلى شواطئ الاستحمام المنتشرة على الساحل الغربي ، أو إلى خليج بايا Baiae مع واسعى الثراء . وكان من أشد ما يرغب فيه كل من يعتد بطبقته أن يذهب إلى الجنوب - إلى رجيوم Rhegium أو تارنتم إن استطاع - ويعود منه وقد لفحت الشمس جلده ليثبت أنه من ذوى اليسار . ولكن الذين يقعون في رومة لم يكونوا يعدمون فيها الكثير من ضروب اللهو والتسلية القليلة الكلفة . لقد كانوا يجدون فيها تلاوة الشعر ، والمحاضرات والحفلات الموسيقية ، والكثير من المحون ، والمسرحيات ، والمباريات الرياضية والاقتتال لنيل الجوائز ، وسباق الخيل ، والعربات ، والصراع المميت بين الرجال ، والرجال أو بين الرجال والوحوش ، والمعارك البحرية الصاخبة الزائفة في البحيرات الصناعية - وقصارى القول أن رومة لم تكن تضارعها قبلاها مدينة أخرى في كثرة ضروب اللهو والتسلية .

وكان لرومة في عهد الإمبراطورية الباكر خمسة وسبعون عيداً تقام فيها

الألعاب ، منها خمس وخمسون تخصص للمسرحيات أو ألعاب المجون ، و ٢٢ للألعاب في الحلبات أو المضامير أو المدرجات . وازداد عدد الألعاب حتى أصبحت في عام ٣٥٤ م تعرض في ١٧٥ يوماً (٩١) ؛ ولم يصحب هذه الزيادة زيادة في المسرحيات الرومانية ؛ بل حدث عكس هذا ، حدث أن اضمحلت المسرحيات في الوقت الذي ازدهر فيه المسرح ، وكانت المسرحيات الجديدة تكتب الآن لتقرأ لا لتمثل ، واكتفت دور التمثيل بالمآسي القديمة الرومانية واليونانية ، والمسالى والمساخر القديمة الرومانية . وكان نجوم التمثيل يسيطرون على المسرح ويجمعون من عملهم أموالاً طائلة ؛ فقد ترك إيسبس Aesopus ممثل المآسي عشرين مليون سنترس بعد حياة من الإسراف والبذخ ؛ وكان رسيوس Roscius الممثل الهزلى يكسب خمسمائة ألف سنترس في العام ، وقد بلغ من الثراء حداً جعله يمثل في عدة مواسم من غير أجر — وكان هذا احتقاراً للمال جعل هذا العبد المحرر واسطة العقد في مجالس الأشراف . أما الألعاب التي كانت تدور في الحلبات والمدرجات فكانت تستحوذ على اهتمام الجمهور وتفسد أذواقه ، وقد مات التمثيل الرومانى ودفن في المجتلدات ، وكان شهيداً آخر من شهداء الأعياد الرومانية .

ولما زاد الاهتمام في التمثيل بحركات الممثلين وبالمناظر بدل الحبكة والأفكار تخلى التمثيل عن مكانه في المسرح إلى التزيين والمساخر . وكانت المساخر لا تحتوى إلا على القليل من الحوار ، وكانت تختار موضوعاتها من حياة أخط الطبقات ، وتعتمد على تصوير الشخصيات تصويراً بارعاً في التقليد الساخر . وبعد أن قضى على حرية القول في الجمعيات وفي السوق بقيت بعض الوقت في هذه المهازل القصيرة ، حيث كان في وسع الماخن أن يجازف برفع رأسه وإطلاق لسانه لينال بذلك تصفيق الجماهير بتورية يسدها إلى الإمبراطور أو الملتفين حوله . وقد أمر كلجيولا بحرق أحد الممثلين حياً في المدرج عقاباً له على إشارة من هذا النوع (٩٢) . وفي اليوم الذي دفن

فيه قسمازيان الشحيح مثلث مهزلة قلدت فيها جنازته تقليداً ساخراً ، كان من مناظرها أن جلست الجثة في أثناء موكب الجنازة وسألت كم أنفقت الدولة على هذه الجنازة ؛ ولما قيل لها إنها أنفقت « عشرة ملايين سترس » أجابت بقولها « أعطوني مائة ألف فقط وألقوني في نهر التير » (٩٣) . ولم يكن يسمح للنساء بالتمثيل إلا في هذه المهازل ، وإذا كانت هذه النسوة يعتبرن بهذا العمل من العاهرات فإنهن لم يكن يخسرن شيئاً بما ينطقن به من ينسئ اللفظ . وكان النظارة في بعض المناسبات الخاصة كهيد فلورا ربة الزهر يطلبن إلى أولئك الممثلات أن يخلعن جميع ملابسهن (٩٤) . وكان الرجال والنساء يشهدون هذا الضرب من التمثيل كما يشهدونه الآن وقد وجد شيشرون فيه عرائس له كما عثر العرائس عليه فيه .

ولما منع الكلام في هذه المهازل منعاً باتاً ، وارتفعت موضوعاتها فأصبحت تستمد من الآداب القديمة ، تطورت المهازل المأجنة إلى استعراضات صامتة . وكان في ترك الكلام على هذا النحو كسب للجمهور ؛ ذلك أن سكان رومة المختلفي الأجناس كانت كثيرتهم لا تفهم إلا اللغة اللاتينية البسيطة إلى أقصى حد ، ومن أجل هذا أصبح استطاعتها أن تتبع حركات الممثلين بعد أن لم تعد مثقلة بعبء الألفاظ . وفي عام ٢١ م قدم إلى رومة ممثلان أحدهما من قليقية ويدعى پيلاديس Pylades ، والآخر من الإسكندرية ويسمى باثيلس Bathylus ؛ وأدخلوا فيها التمثيل بالإيماء والحركة - وكان قد انتشر في الشرق الهلنستي . وقد مثلا فيها مسرحيات من فصل واحد ليس فيها إلا الموسيقى ، والحركات ، والإيماءات والرقص . ورحبت رومة بهذا الفن الجديد لأنها شتمت المسرحيات المؤلفة بالشعر القديم الطنان الرنان ، وإعجاب إيماء إعجاب بحذق الممثلين ورشاقتهم ، وسرت بفخامة ملابسهم وجمال أفعنهم أو ظرفها ، وبأجسامهم المدربة التي أعدت للعمل بالغتداء المناسب المنتقى ، وبحركات الأبدى

التي تحسن التعبير عن المعاني على الطريقة الشرقية البارة ، وسرعة تقليد هم للشخصيات على اختلاف مشاربها ، وتمثيلهم مناظر العشق المثيرة للغرائز الجنسية . وكان النظارة ينقسمون طوائف وجماعات تؤيد كل منها الممثلين المتنافسين ، وكثيراً ما كانت نساء الطبقات العليا يقعن في حب الممثلين ويتعقبينهم بالهدايا والعناق ، حتى قطعت رأس واحد منهم بسبب علاقته بزوجة دومتيان . وما لبث هذا التمثيل الصامت أن طرد من المسرح الروماني كل ما عداه من أنواع التمثيل ما عدا المساهر المباحة . وحلت المراقص والمساهر محل المسرحيات الجدية .

٢ - الموسيقى الرومانية

وكان تطور الموسيقى والرقص وريقيهما هما اللذين جعلوا هذا الفوز مستطاعاً ، فقد كان ينظر إلى الرقص في عهد الجمهورية على أنه عمل مردول يحلل الراقص الغار . وكان سببو الأصغر قد أرغم الدولة على أن تغلق المدارس التي تعلم الموسيقى والرقص^(٩٥) ، وكان مما قاله في هذا « أن الذي ذهب عقله هو وحده الذي يرقص وهو غير سكران »^(٩٦) . ولكن المسرحية الصامتة جعلت الرقص طرازاً حديثاً مرغوباً فيه ، ثم جعلته بعدئذ شهوة قال عنها سنكا : « لا يكاد يخلو بيت واحد من مرقص يردد أصداء وقع أقدام الرجال والنساء ؛ وأصبح الآن في بيوت كل ثرى معلم للرقص كما فيه طاه وفيلسوف ، وأضحى وجود هذا المعلم من مستلزمات هذه البيوت . وكان الرقص في صورته المألوفة في رومة يتطلب حركات منتظمة باليدين والجزء الأعلى من الجزع أكثر مما يتطلبه من حركات الأرجل والأقدام . ولم يكن النساء يتعلمن هذا الفن ويمارسنه لما يكسبن من جاذبية فحسب ، بل لأنه يكسب الجسم مرونة ورشاقة .

وكان الرومان يحبون الموسيقى حباً لا يفوقه إلا حبهم للسلطان ، والمال ، والنساء ، والدماء . وأخذ الرومان موسيقاهم ، كما أخذوا كل شيء سواها

في حياتهم الثقافية ، عن بلاد اليونان ؛ وكان لا بد لهذه الموسيقى أن تشق طريقها وسط مقاومة المحافظين الذين لا يفرقون بين الفن والإنحطاط . ذلك أن الرقباء كانوا قبل عام ١١٥ ق . م قد حرموا العزف على أية آلة موسيقية أو النفخ فيها ما عدا الناي الإبطالى القصير ، وكان سنكا الأكبر بعد قرن كامل من ذلك الوقت لا يزال يعد الموسيقى غير جذيرة بالرجال ؛ ولكن Varro كان قبل ذلك الوقت قد خصص إلهة الموسيقى De Musica بكتاب من قلمه ؛ وأصبحت هذه الرسالة ، هى والمصادر اليونانية التى استمدت منها ، معيناً لا ينضب لمؤلفات رومانية كثيرة فى النظريات الموسيقية^(٩٧) . وما لبثت الأنغام الموسيقية الخسبة الشهوانية ، والآلات اليونانية ، أن تغلبت آخر الأمر على الأنغام والآلات الرومانية الساذجة السمجة ، وأصبحت الموسيقى عنصراً أساسياً فى تعليم النساء وكثيراً ما كانت عنصراً هاماً فى تعليم الرجال أيضاً . وما وافى عام ٥٠ م حتى عمت جميع الطبقات ، وتعلمها الذكور والإناث ، فكان الرجال والنساء يقضون أياماً كاملة فى الاستماع إلى الأنغام أو تأليف المقطوعات أو غنائها . وانتهى الأمر بأن أصبح الأباطرة أنفسهم من الموسيقيين ، فكان هديران الفيلسوف ونبرون الخنثى ممن يزدهون بمحذقهم العزف على القيثارة . وكان المقصود من قرص الشعر الغنائى أن يغنى بمصاحبة الموسيقى ، وقلما كانت الألحان الموسيقية توضع إلا للشعر ؛ ذلك أن الموسيقى القديمة كانت خاضعة للشعر ، عكس مع ما هى عليه اليوم إذ أنها تنزع إلى السيطرة على الألفاظ وتخضعها لها . وكانت الموسيقى الجماعية منتشرة محبوبة وكثيراً ما كانت تعزف فى حفلات الزواج والألعاب والجنائز ، وفى الاحتفالات الدينية . وقد تأثر هوراس أشد التأثر بأصوات الفتية والعدارى وهم يغنون Carmen secul are . وكان المغنون جميعهم فى هذه الأغاني الجماعية يغنون نغمة واحدة وإن اختلفت مقاماتها ، ويلوح أن الغناء الانفرادى لم يكن معروفاً عندهم . وكانت الآلات الرئيسيتان عندهم هما الناي والقيثارة ، ولا تزال آلات

النفخ والآلات الوترية عندنا مجرد تحوير وتعديل لهاتين الآلتين ، فأقوى السمفونيات عندنا ليست إلا تأليفاً حكيماً بين النفخ والحذب ، والحلك ، والضرب . وكان الناي يصحب التمثيل ، وكان يظن أنه يثير العواطف ؛ أما القيثارة فكانت تصحب الغناء ، وكان يرجى منها أن تسمو بالروح . وكان الناي طويلاً ، ذا ثقب كثيرة ، وأوسع مدى في التعبير من ناي هذه الأيام . أما القيثارة فكانت أشبه بقيثارتنا ولكنها كانت على أنواع وأشكال كثيرة ، فكانت عند اليونان ذات حجم صغير ولكن الرومان زادوه إلى حد جعل أميانوس يصف القيثارة بأنها « كبيرة كالعربة » (٩٨) . ويمكن القول بوجه عام إن الآلات الموسيقية الرومانية نشأت كما نشأت آلاتنا نحن مما أدخل من تحسين على الآلات القديمة وخاصة على رنينها وحجمها . وكانت أوتار القيثارة تصنع من أمعاء الحيوان أو أوتار أجسامها ، وقد بلغ عددها ثمانية عشر وترّاً . وكانت تشد عند العزف عليها بمضرب (ريشة) أو بالأصابع . وكانت الأصابع وحدها هي التي تستطيع لإخراج سلسلة الأنغام السريعة . وجاء من الإسكندرية في أوائل القرن الأول الأرغن المائي المتعدد النغمات والأنايب ، وقد وقع في قلب نيرون وتأثر كونيليان الهادئ بقوته وتعدد نغماته .

وكانت تقام من آن إلى آن حفلات موسيقية رسمية ، وكان للمباريات الموسيقية شأن . بعض الألعاب العامة ، بل إن الولائم المتواضعة كانت تتطلب قدراً ولو قليلاً من الموسيقى . وكان مارتياك يعلم ضيفه بالاستماع إلى نافخ في الناي على الأقل (٩٩) . أما في حفلات تربيماكيو Trimalchio فكان الطعام يرفع عن المائدة على أصوات المغنين . وكان ليكلجيولا فرقة موسيقية وجوقة من المغنين تطربه في قارب نزده . وفي التمثيل الصامت كان الغناء الجماعي والرقص يصحبان عزف الفرقة الموسيقية . وكان الممثل في بعض الأحيان يغني أدواره الانفرادية ، وكان يحدث أحياناً أن يغني مغن محترف أساط الدور بينما كان الممثل يقوم

بالحركات الثقيلة أو الرقص . ولم يكن من الأمور الشاذة النادرة أن يصحب التمثيل الصامت ثلاثة آلاف مغن وثلاثة آلاف راقص (١٠٠) . وكان قوام الفرقة الموسيقية النابات تساعد القيثارات ، والصنج ، والمزامير ، والأبواق والاسكابلا Scabella وهى ألواح معدنية تشد إلى أقدام بعض أفراد الفرقة يضربونها بها فتححدث أصواتاً أشد إزعاجاً من أصوات الفرق الموسيقية الحديثة فى أعلى قوتها ويشير سنكا إلى الإيقاع فى عزف الأفراد (١٠١) ، ولكننا لا نجد ما يدل على وجوده عند الفرق الموسيقية القديمة . وكانت الموسيقى التى تصحب الغناء تعلق عنه فى النغمة عادة ولكن مبلغ علمنا أنها لم تكن تسير على نظام متدرج متتابع واضح .

وكان مهرة الموسيقيين كثيرين ، وكذلك كان غير الماهرين ، فقد كان ذوو المواهب يهرعون إلى مركز الذهب فى العالم من جميع الولايات ، وكان نظام الاسترقاق يسمح بتدريب فرق المغنين والعازفين فى نطاق واسع وإن كان كثير النفقات . وكان للكثير من الجماعات والهيئات الفنية موسيقيون تختص بهم ، وكانت ترسل من تتوسم فيهم النبوغ منهم إلى مهرة الأساتذة لرفع مستواهم ، ففهم من تخصصوا فى العزف على القيثارة وأقاموا الحفلات يغنون فيها ويعزفون ، ومنهم من تخصصوا فى الغناء وكان هؤلاء فى العادة يؤلفون أغانيهم ، وآخرون منهم كانوا يقيمون الحفلات يعزفون فيها على الأرغن وينفخون فى الناي ، ومن هؤلاء كانوس Cannus الذى كان يفخر كما يفخر بيتهوثن بأن موسيقاه تستطيع تخفيف الحزن وزيادة الفرح ، وتعين على التقى وتلهب نار الحب فى الصدور (١٠٢) . وكان هؤلاء الموسيقيون المحترفون يطوفون الولايات النائية فى الإمبراطورية ، يكسبون المال والثناء . وتقام لهم التماثيل ويفتن بهم النساء ، ومنهم على حد قول چوفنال ، من كانوا يبيعون جهم ليزيدوا بذلك أجورهم (١٠٣) . وكانت النساء يتنافسن فى الحصول على الريشة التى يمس بها مشهورو الموسيقيين أوتار آلاتهم ، ويقربن القرابين على المذابح ليفوز من يحبهن من الموسيقيين فى

الألعاب النبرونية والكتبولية . وفى وسعنا أن نرسم فى الخيال صورة وإن تكن غير واضحة للمنظر الرائع الذى يجمع بين الموسيقيين والشعراء من جميع أنحاء الإمبراطورية ، وهم يتبارون أمام الجوع المحتشدة ، والذى يتقدم فيه الفائزون المجهدون ليضع الأباطرة بأيديهم أكاليل أوراق البلوط على رؤوسهم .

ولسنا نعرف عن الموسيقى الرومانية ما يكفى لبسط القول فى وصفها . ويلوح أنها كانت أرقى ، وأكمل ، وأكثر عجباً من الموسيقى اليونانية . وقد دخلت عليها صبغة شرقية من مصر وآسية الصغرى وسوريا . وكان المتقدمون فى السن من الرومان يأسفون لأن المؤلفين المحدثين أخذوا يهجرون ما كان يمتاز به النمط القديم من تمنع ووقار ، وأنهم كانوا يتلفون أرواح الشباب وأعصابهم بالأنغام الشاذة والآلات الصاخبة . والذى لا جدال فيه أنه ما من شعب قديم أحب الموسيقى كما أحبها الرومان ، فقد كانت أغاني المسرح تتلفها الجماهير المرحية السريعة الحركة فتردد أصداءها فى شوارع رومة ونوافذ بيوتها ، وكانت أغاني التمثيل الصامت المعقدة تنطبع فى ذاكرة المعجبين بها انطباعاً بلغ من قوته أن كان فى مقدورهم إذا سمعوا أولى نغماتها أن يقولوا لك من أية مسرحية هى ، ومن أى فصل فى المسرحية . على أن رومة لم تفد الموسيقى فائدة حققة اللهم إلا ما عسى أن تكون قد فعلته من تنظيم اللاعبين إلى فرق كبيرة تنظيماً أحسن مما كان عند من سبقهم من الأمم . ولكنها كرمت الموسيقى بإشاعة استخدامها ، وبلاستجابة إليها والتأثر بها ، يضاف إلى هذا أنها جمعت التراث الموسيقى للعالم القديم فى هياكلها ، ودور تمثيلها ، وبيوتها ، ولما أن سقطت أورثت الكنيسة الآلات والعناصر المستخدمة فى الموسيقى التى تتأثر بها نفوسنا ونحرك مشاعرنا فى هذه الأيام .

٣ - الألعاب

ولما لم يعد للحرب أثر في هذا العهد ، أصبحت الألعاب العظيمة أكثر حوادث العام إثارة لمشاعر الرومان . وكانت تقام ، أكثر ما تقام ، في الاحتفال بالأعياد الدينية - كعيد الأم العظمى ، وعيد سيريس Ceres ، وعيد فلورا ربة الأزهار ، وعيد أبولو ، وعيد أغسطس وقد تكون أحياناً « ألعاب العامة » التي تقام لتسلية الطبقات الدنيا « وقد تكون « الألعاب الرومانية » التي تقام تكريماً للمدينة وإلهتها روما . وكانت تقام أحياناً احتفالاً بنصر ، أو نيل منصب رئيسي ، أو فوز في انتخاب ، أو بمناسبة أحد الأعياد الإمبراطورية . وربما أقيمت احتفالاً بمرور فترة معينة في التاريخ الروماني . وكانت ألعاب إيطاليا في بادئ الأمر تقام زلنى للأموات وتكريماً لهم ، شأنها في هذا شأن الألعاب التي أقامها أخيل تكريماً لپتروكلس . من ذلك أنه لما مات بروتس پيرا Brutus Pera في عام ٢٦٤ ق . م عرض ابنه ثلاث مبارزات ، ودارت في جنازة ماركس لپدس Marcus Lepidus عام ٢١٦ ق . م اثنتان وعشرون معركة ، وفي عام ١٧٤ احتفل تيتس فلامانيوس Titus Flaminius بجنازة أبيه بأن أقام صراعاً في مجتلد اقتتل فيه اثنان وعشرون رجلاً .

وكانت أبسط الألعاب العامة هي المباريات الرياضية التي تقام عادة في ملعب عام . وكان معظم اللاعبين من المحترفين والغرباء ، وكانوا يتبارون في العدو ، وقذف القرص ، والمصارعة ، والملاكمة . ولكن جمهرة الرومان الذين اعتادوا ألعاب المجتلد الدموية لم يكونوا يحبون هذه الألعاب الرياضية إلا قليلاً وكانوا مولعين بالقتال لنيل الجوائز وهو القتال الذي كان اليونان ينهمكون فيه حتى يكادوا يخرون صرعى ، وقد لبسوا في أيديهم قفازات مقواة عند البراجم بأطواق من الحديد يبلغ سمكها ثلاثة

أرباع بوصة . ويصف فرجيل - وهو الرجل الرقيق - حفلة ملاكمة غير شديدة في لغة لا تكاد تفرق عن لغة هذه الأيام فيقول :

« ثم جاء ابن أنكيسيز Anchises بقفزات من الجلد متساوية في الوزن ، وربط بها أيدي الملاكمين . . . ووقف كلاهما في موضعه معتمداً على أطراف أصابع قدميه ، ورافعاً ذراعه . . . ثم يبعد رأسه إلى الوراء ليتقى ضربات خصمه ويبدأ التلاكم باليدين ، ويسدد كل منهما ضربات قوية همجية إلى صدر الآخر ، وجنبيه ، وأذنيه ، وجبهته ، وخديه ، يردد الهواء صداها . ويمد إنتلس Entellus يمينه ، وينحرف دارس Dares إلى أحد الجانبين بحركة رشيقة . . . ويهاجم أنتلس دارس بقوة ، ويطرحه على أرض المجدل ، ويكيل له الضربات يمينه تارة ويسراه تارة أخرى . . . ثم يجمى إينياس وينهى المعركة ، ويقبل رفقاء دارس ويقودونه إلى السفن تصطك ركبتاه ويتأرجح رأسه من ناحية إلى أخرى وفه تخرج منه الأسنان والدماغ .

وكان السباق في الحلبة الكبرى Circus Maximus أكثر من هذه الملاكمات إثارة لمشاعر النظارة . وكانت أربعون سباقاً تقام في يومين متتالين منها سباق الخيل يركبها راكبون محترفون ؛ ومنها سباق العربات الخفيفة ذات العجلتين يجرها جودان أو ثلاثة جياذ أو أربعة مشدودة إليها جنباً إلى جنب . وكانت الاصطبلات المتنافسة التي يملكها الأغنياء هي التي تؤدي نفقات السباق . وكان الراكبون المحترفون وسائقو المركبات يلبسون حلالاً تختلف ألوانها وتُطلى المركبات نفسها بألوان مختلفة لكل اصطبل لون خاص يميزه من غيره من الاصطبلات : منها الأبيض والأخضر والأحمر والأزرق . فإذا اقترب موعد هذه المباريات انقسمت رومة كلها شيعاً تسمى كل شعبة باسم اللون الذي تناصره وخاصة اللونين الأحمر والأزرق . وكان نصف الأحاديث في المنازل ، والمدارس ، والمحاضرات ، والسوق الكبرى يدور حول راكبي الخيل المحترفين ، وراكبي

العربات ، وتعلق صورهم في كل مكان ، وتعلن أنباء فوزهم في النشرة اليومية . ومنهم من كان يجنى من وراء ذلك ثروات طائلة ، ومنهم من كانت تقام له التماثيل في الميادين العامة . وإذا أقبل يوم السباق سار مائة وثمانون ألفاً من الرجال والنساء في حللهم ذوات الألوان الزاهية إلى المضمار الرحب الكبير . وهناك ترتفع حماسة النظارة إلى حد الجنون ، فترى أشياخ كل جواد يشمون روثة ليتأكدوا من أن ذلك الجواد قد أطعم الطعام الذي يليق به (١٠٥) . وكان النظارة يمرون بالخوانيت والمواخير الممتدة على طول أسوار المضمار الخارجية ، ثم يدخلون من مئذنت الأبواب ويوزعون أنفسهم على المقاعد المنظمة على شكل حذاء الفرس ، والعرق يتصبب من جباههم من فرط الشوق والقلق ، والبائعون يبيعون الوسائد لأن المقاعد كانت تصنع في العادة من الخشب الصلب ، ولأن السباق كان يستمر طول النهار . وكان لأعضاء مجلس الشيوخ وغيرهم من العظماء مقاعد خاصة من الرخام مزينة بالبرنز ، وكان من خلف مقصورة الإمبراطور طائفة من الحجر الفخمة يستطيع — إذا شاء — أن يأكل فيها ويشرب ، ويستريح ، ويستحم وينام . وكانت حمى المراهنت ترتفع إلى أقصى حد ، والثروات تنقل من يد إلى يد كلما تقدم النهار . وكانت الخيل وراكبوها ، والعربات وسائقوها ، تخرج من فتحات تحت المقاعد ، وكلما بدا لون منها قابله أنصاره بتصفيق ترتج المقاعد من شدته . وكان سائقو العربات — ومعظمهم من العبيد — يلبسون جلابيب زاهية الألوان ويضعون على رؤوسهم خوذاً براقاً ، ويمسك كل منهم بإحدى يديه سوطاً ، وفي منطقتة سكين يقطع بها السيور المربوطة في وسطه ، إذا حدث له حادثة . وكان شكل المضمار إهليلجياً تمتد في وسطه « الشوكة » (spina) وهي جزيرة طولها ألف قدم تزدان بالتماثيل والمسلات ، وفي طرف من أطراف المضمار تقوم « المقاييس » (metae) وهي عمود مستديرة ينتهى عندها السباق . وكان طول سباق المركبات سبع دورات في العادة ، أى حوالي خمسة

أميال . وكان مقياس مهارة السائق هو قدرته على أن يدور حول الأهداف .
(العمد) بأسرع وأحد ما يستطيع من غير أن يتعرض للخطر . وكثيراً
ما كان المتسابقون يصطدمون في هذه الأماكن فتقع المآسى المروعة التي
يكون ضحاياها الرجال والمركبات والحيوانات . فإذا ما وصلت الخيل
أو المركبات إلى أهدافها قام النظارة ، وكأنهم قد استيقظوا من سبات عميق
وماج بهم المكان كما يمجج البحر المتلاطم ، وأخذوا يشيرون بأيديهم
وأجسامهم ، ويلوحون بمناديلهم ، ويصيحون ، ويبتهلون ، ويشنون ،
ويلعنون ، ويهللون وهم في نشوة غير طبيعية . وكان التصفيق الذي يحيا به
الفائز يسمع على مسافة بعيدة خارج أسوار المدينة .

وكان أعظم المناظر روعة وفخامة منظر الاحتفالات الرومانية التي تمثل
فيها المعركة البحرية الرائعة . وكانت أول معركة بحرية كبيرة من هذا
النوع هي التي دارت بأمر قيصر في حوض كبير احتفر لهذا الغرض خاصة
في خارج حدود المدينة . ولما أراد أغسطس أن يهدي الهيكل الذي أقامه
« للمربخ المنتقم » إلى هذا الإله أمر أن تدور معركة بحرية تمثل معركة سلاميس
بين ثلاثة آلاف مقاتل في مياه بحيرة صناعية طولها ألف وثمانمائة قدم وعرضها
ألف ومائتا قدم . وقد سبق القول إن كلوديوس احتفل بإتمام نفق فوسين
Fucine بتمثيل معركة اقتتل فيها سفن من ذوات الصفوف الثلاثة
والأربعة من المجاديف ، عليها نحو تسعة عشر ألف رجل . ولكن القتال
جرى في رقة أغضبت الإمبراطور واضطرته إلى أن يرسل جنوداً إلى
السفن لكي يضمن قدراً كافياً من سفك الدماء (١٠٦) . ولما احتفل بتدشين
الكلوسيوم أمر تيتس بأن تغرق حلبة بالماء وأن تمثل فيها معركة الكورنثيين
والكرثينيين . التي أعقبتها حرب البلوبونيز . وكان المقتتلون في هذه
المعارك من أسرى الحروب أو المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام ؛ وكانوا
يقتتلون بحق ويقتل بعضهم بعضاً حتى يفنى أحد الفريقين ؛ فإذا ما تبين

أن الفريق الفائز أظهر الشجاعة المطلوبة في التقتيل أمكن أن يحرر من الأسر أو ينجو من الإعدام .

وكانت هذه الألعاب تصل إلى غايتها في صراع الحيوانات والمجالدین .
في المجتلد أو في الكولوسيوم بعد أيام قسبازيان . وكان المجتلد أرضاً من
الخشب فرش عليها الرمل . وكان في الإمكان خفض أجزاء من هذه الأرض
ثم رفعها على الفور إذا أريد تغيير المنظر ، أو غمر الأرض كلها بالماء
بمجرد إشارة تصدر بهذا . وكانت غرف كبيرة تحت أرض المجتلد تحتوى
الوحوش ، والآلات ، والرجال استعداداً لذلك اليوم : وكان من فوق
سور المجتلد شرفة من الرخام صفت فيها مقاعد مزينة يجلس عليها الشيوخ
والكهنة وكبار الموظفين . وكان فوق هذه الشرفة مقصورة عالية
(suggestum) يجلس فيها الإمبراطور والإمبراطوة على عرشين من العاج
والذهب ، ومن حولهما أعضاء الأسرة الإمبراطورية والحاشية . ومن
خلف هذه الدائرة الممتازة ، دائرة الأشراف ، يجلس فيها أفراد طبقة
الفرسان في عشرين صفاً من المقاعد . ويفصل سور عال مزدان بالتمائيل
الطبقات العليا عن السفلى في المقاعد العالية . وكان في وسع أى شخص من
الأحرار ذكراً كان أو أنثى أن يشهد الجلاد ، ويأوح أنه لم تكن ثمة رسوم
تؤدى عن الدخول ، وكانت الجماهير تنتهز فرصة وجود الإمبراطور في
المجتلد وفي مضمار السباق لتسمعه رغبته - في العفو عن أسير أو مصارع
مهزوم ، أو تحرير عبد شجاع ، أو حضور مجالد محبوب ، أو إصلاح
غير ذى بال . وكانت مظلات تنشر فوق المجتلد عند الحاجة إليها ، وتمتد
على مكان في السور إلى حواجز المجتلد لتظليل ما يتعرض من أجزائه لأشعة
الشمس . وكانت في أماكن متفرقة منه عيون تقذف الماء المعطر لتبريد
الهواء . فإذا انتصف النهار أسرع معظم النظارة إلى أسفله ليتناولوا
غداءهم ، وكانوا يجدون حاجتهم من الطعام والشراب والحلوى عند أناس
رخص لهم بيعها في هذا المكان . وكان يحدث في بعض المناسبات أن أسر

(٢٤ - ج ٢ - مجلد ٢)

الإمبراطور بإطعام الجماهير المحتشدة كلها من خيراته ، وأن تنثر الأطعمة الشهية والهدايا على الجماهير فتتلقفها أيديهم . وإذا ما أقيمت الألعاب في الليل ، وكان هذا يحدث أحياناً ، كان في الاستطاعة إنزال دائرة من النور فوق المجتلد والنظارة . وكانت فرق موسيقية تطرب المجتمعين في الفترات التي تتخلل الألعاب ؛ وفي الأوقات التي تبلغ المباريات حدتها ، كانت الموسيقى تعزف أنغاماً مهيجة مثيرة مطردة العلو في النغمة .

وكانت أبسط الحوادث التي تشاهد في المدرج عرض حيوانات أجنبية تجمع من جميع أنحاء العالم المعروف : من فيلة ، وأسود ، ونمورة رقط وسود ، وتماسيح ، وأفراس بحر ، وأويصات ، وقردة ، وفهود ، ودببة ، وخنازير برية ، وذئاب ، وزرافات ، ونعام ، ووعول ، وغزلان ، وطيور نادرة الوجود . وكان يحتفظ بهذه كلها في حدائق الحيوان التي يملكها الأباطرة والموثرئون من الأهلين ، وتدريب على القيام بالألعاب مضحكة . فكانت القردة تعلم ركوب الكلاب وسوق المركبات ، والتمثيل في المسرحيات ؛ والثيران تدرب على ترك الغلمان يرقصون فوق ظهورها ، وأسود البحر تدرب على النباح إذا ذكرت أسمائها ، والفيلة ترقص على صوت صنوج تضربها فيلة أخرى ، أو تمشي على جبل ، أو تجلس حول مائدة الطعام ، أو تكتب حروفاً يونانية أو لاتينية . وكان يكتفى في بعض الأحيان بعرض هذه الحيوانات في حلق زاهية أو مضحكة ، ولكنها في العادة كانت تقاتل بعضها بعضاً ، أو تقاتل الرجال ، أو تضرب بالسهم والحراب حتى تموت . وقد حدث في أيام نيرون أن اقتتل أربعائة نمر مع ثيران وفيلة ، وقتل في يوم آخر من أيام كلجيولا أربعائة دب ، ومات في يوم تلشين الكولوسيوم خمسة آلاف حيوان (١٠٧) . وإذا تبين أن الحيوانات قد فُتت عزيمتها عن القتال ضربت بالسياط ، أو رميت بالسهم ، أو كويت بالحديد الحمى ليثار غضبها فتتفر للقتال . وقد أرغم كلوديوس فرقة من الحرس البريتوري على قتل الفهود ، وأرغم نيرون فرقة أخرى على أن تقاتل أربعائة دب وثلاثائة أسد (١٠٨) .

وأدخل قيصر إلى رومة عادة صراع الثيران والادمين ، وهى العادة التى كانت شائعة فى كريت وتاليا من قبله بزم طويل ، وأصبحت منذ عهده من المناظر المألوفة فى المدرجات (١٠٩) . وكان المجرمون المحكوم عليهم بالإعدام يلقون إلى الحيوانات التى استوحشت لهذا الغرض خاصة ، وكثيراً ما كان هؤلاء الرجال يغطون بجلود لى يشبهوا الحيوانات . وكانوا يعانون فى أثناء موتهم أشد أنواع الآلام ، وكانت جراحهم تتعمق أحياناً فى أجسامهم حتى كان الأطباء يستخدمون هذه الأجسام لدراسة تشريحها الداخلى . وليس فى العالم من يجهل قصة أندركليز Androcles العبد الأبق ، وكيف أتى به إلى أسد فى الجبل بعد أن قبض عليه ، ولكن الأسد كما تقول القصة تذكر أن أندركليز أخرج فى ذات يوم شوكه من مخبئه ، فأبى أن يمسه بسوء ، وكيف عفى عن أندركليز بعدئذ وظل يكسب عيشه بعرض أسده المتحضر فى الحانات (١١٠) . وكان يطلب إلى المقضى عليه بالموت فى بعض الأحيان أن يمثل تمثيلاً واقعياً دوراً مشهوراً فى إحدى المآسئ : فقد يمثل دور منافسة ميديا ، فتردى ثوباً جميلاً يلتهب فجأة ويحرقه ، وقد يمثل هرقل فيحرق حيا فوق كومة من الحطب ، وقد تجب خصيتهاء علنا كما فعل بارتيز (إذا صدقنا قول ترتليان Tertullian) ، وقد يمثل دور موسيوس اسكافولا Mucius Scaevola فيبسط يده فوق نار فحم حتى تحترق ؛ وقد يمثل دور إكارس Icarus فيسقط من السماء ، لا فى بحر رحيم ، بل بين قطيع من الوحوش الضارية ، وقد يكون پاسيفيا Pasiphaë ، فيحتضن ثوراً . وألبس أحد الضحايا مرة ثياباً كثياب أرفيوس Orpheus ، وبعث به ومعه قيثارة إلى مجتلد مثلث فيه أيكه جميلة من الأشجار والجداول ، ثم أطلقت من خبايا المجتلد على حين غفلة وحوش جياح ومزقه إربا (١١١) . وصلب لص يدعى لوريوس Laureolus فى المجتلد ليتسلى النظارة پرويته ؛ ولما لم يلفظ آخر أنفاسه بالسرعة المطلوبة جرى إليه بدب وسلطوه عليه وما زالوا يغرونه به حتى أكله

قطعة بعد قطعة وهو معلق في الصليب . ويصف مارتيا ل هذا المنظر وصف المعجب به الراضى عنه (١١٣) .

وكانت أروع الحوادث في هذه الألعاب هي قتل الرجال المسلحين ، إما في صورة مبارزات فردية أو معارك جماعية . وكان المتقاتلون في هذه الحالة من أسرى الجروب ، أو المجرمين المذنبين ، أو العبيد العاصين . وكان حق المنتصرين في أن يقتلوا أسراهم من الحقوق المعترف بها عادة في العهود القديمة جميعها ، ومن أجل هذا كان الرومان يرون أنهم رحماء كرام حين يتيحون لأسراهم فرصة ينجون فيها من الموت بإرسالهم إلى المختلد . كذلك كان المحكوم عليهم في الجرائم الكبرى يرسلون من كافة أنحاء الإمبراطورية إلى رومة ، فيلحقون بمدارس المجالدين ولا يلبثون أن يظهروا في الألعاب ، فإذا ما أظهروا في الصراع شجاعة نادرة فقد يحررون من فورهم . وأما إذا نجوا من القتل من غير أن يظهروا هذه الشجاعة فكانوا يرغمون على القتال مرة بعد مرة في الأعياد والمواسم المتوالية ، فإذا ظلوا أحياء ثلاث سنين استبدل الاسترقاق بالإعدام ، وإذا ما أرضوا سادتهم عامين نالوا حريتهم . وكانت الجرائم التي يحكم على مرتكبيها بحياة المجالدين مقصورة على القتل ، والسرقه ، والتسميم ، وتدنيس الأماكن المقدسة ، والتمرد ، ولكن حكام الأقاليم المجدين كانوا يحرصون في بعض الأحيان على سد حاجة الأباطرة إلى أمثال هؤلاء الناس ، فيتخطون هذه القيود إذا نقص عدد المجالدين (١١٣) . وكان الفرسان وأعضاء مجلس الشيوخ أنفسهم يحكم عليهم أحيانا بأن يقاتلوا في المختلد ، بل إن شهوة الثناء وحب التنصيف كانت في بعض الأحيان تدفع أفراداً من طبقة الفرسان لأن يتطوعوا لهذا القتال مختارين ، ومن الناس عدد غير قليل كانوا يدخلون مدارس المجالدين حباً في المغامرة ومغالبة الأخطار . وقد وجدت هذه المدارس في رومة من عام ١٠٥ ق . م . وكان فيها أربع مدارس من هذا النوع في عهد الإمبراطورية ، عدا ما كان منها في

أنحاء إيطاليا وكانت واحدة في الإسكندرية ، وكان للأغنياء في أيام قيصر مدارس أنشأوها لأنفسهم ليعدوا فيها العبيد ليكونوا مجالدين ، وكانوا يتخذون خريجيها حرساً خاصاً لهم في زمن السلم وجنوداً في وقت الحرب ، ويؤجرونهم للقتال في المآذب الخاصة ، ويعيرونهم للقتال في الألعاب . وكان الكثيرون ممن يدخلون مدارس المجالدين المحترفين يقسمون عند دخولهم يميناً بأن « يقبلوا الضرب بالعصى والحرق بالنار ، والقتل بحد السنان » (١١٤) . وكان التدريب والنظام فيها صارمين ، وكان الأطباء يراقبون ما يقدم فيها من الطعام ، ويصفون للطلاب أكل الشعير ليقووا بأكله عضلاتهم . وكان عقاب من يخرج على القواعد والنظم الموضوعة الجلد ، والكي ، والسجن والأغلال . ولم يكن طلاب الموت هؤلاء جميعهم غير راضين عن مصيرهم ، فثمة من كانوا يزدنون بما سوف يحرزون من نصر ، وكانوا يفكرون في شجاعتهم أكثر من تفكيرهم فيما يتعرضون له من الأخطار (١١٥) ، ومنهم من كان يشكو أنه لم تتح له فرص كافية للقتال ، وكان هؤلاء يحقدون على تيبيريوس لأنه لا يكثر من إقامة الألعاب . لقد كان يعزيمهم عن الخطر الذي يتعرضون له ، ويعزيمهم بركوب هذا الخطر ، ما سوف ينالون من الشهرة ، فقد كان المعجبون بهم يكتبون أسماءهم على جدران المباني العامة ، وكانت النساء تعشقهم ، وكان الشعراء يغنون مدحهم ، والمصورون يصورونهم ، والمثاليون يخلدون للأجيال المقبلة صور عضلات أذرعهم الحديدية ، وعبوسة وجوههم الرهيبة . على أن منهم كثيرين كانوا يألمون لسجنهم الطويل ، وحياتهم الوحشية الرتيبة ، وما يتوقعون لأنفسهم من آجال قصيرة ، ومنهم من كانوا ينتحرون ، وقد انتحر واحد منهم بأن كتم نفسه بإسفنجة كان يستخدمها في تنظيف أعضائه السرية ، وانتحر آخر بوضع رأسه بين أنصاف محاور عجلة تتحرك ، وانتحر كثيرون منهم بشق بطونهم في الحبلى (١١٦) .

وكانوا في الليلة السابقة للقتال تولم لهم وليمة طيبة ، فمن كان منهم فظاً

خشن الطباع ملأ بطنه بلذيق الطعام والشراب ، ومنهم من كان يودع زوجته وأبنائه وهو حزين كظيم ؛ وكان المسيحيون منهم يجتمعون ليتناولوا معا « طعام المحبة » (agapé) . وكان هؤلاء وأولئك يأتون إلى المجتلد في اليوم الثاني في حلل فاخرة ويذرعونه من أوله إلى آخره ، وكانوا يسلحون في العادة بالسيوف ، أو الرماح ، أو الخناجر ، ويلبسون خوذاً من البرنز ، ودروعاً ، ووقايات للأكتاف وتروساً وجراميق . وكانوا يصنّفون حسب أسلحتهم ؛ فتنهم أصحاب الشباك الذين يوقعون خصومهم في الأجايل ثم يقضون عليهم بطعنات الخناجر ، ومنهم من يخذلون مطاردة مقاتليهم بالتروس والسيوف ؛ ومنهم من يرمون بالمقالع ، ومنهم من يقاتل الواحد منهم بسيف قصير في كلتا يديه ، ومنهم من يقاتلون في المركبات ، ومنهم من يصارعون الوحوش . وكان المجالدون فضلاً عن هذه المغامرات كلها يتبارزون مثنى مثنى أو جماعات ، وإذا جرح أحد المتبارزين جرحاً شديداً في مبارزة فردية طلب من أقام المباراة إلى النظارة أن يدلوا برأيهم ، فإذا رفعوا إبهامهم أو لوخوا بمناديلهم كان ذلك دليلاً على أنهم يريدون الرحمة بالجريح ، وإذا ما خفضوا إبهامهم عرف أنهم يطلبون إلى الفائز أن يقتل المغلوب من فوره (١١٧) . وإذا أظهر أحد المقاتلين أنه لا يجب أن يموت آثار بذلك بغضب النظارة وأثيرت حميته وشجاعته بوخزة بالحديد المحمى (١١٨) . وإذا أريدت مجازر كبيرة هيئت معارك جماعية يقتل فيها آلاف الرجال بوحشية المستيئين . وقد اشترك في الثمان المعارك التي أعدها أغسطس عشرة آلاف مقاتل اقتتلوا فيها مجتمعين . وكان رجال في ثياب كارون Charon (*) ينخسون من يسقطون في المعركة بأسنان العصي الحادة ليعرفوا هل ماتوا حقاً أو أنهم يتصنعون الموت . فإذا وجدوهم يتصنعونه قتلوهم بضربات المطارق على رؤوسهم .

(*) هو البحار في الأساطير اليونانية الذي ينقل بقرابه أرواح الموتى في نهر استيكس في العالم السفلي . (الترجم)

وكان هناك رجال آخرون في ثياب عطارد رسول الآلهة يجرون أجساد الساقطين بخطاطيف في الوقت الذي يجمع فيه عبيد من المغاربة التراب المبلل بالدماء في مجارف ، ويفرشون الرمل على الأرض لاستقبال من يأتون بعدهم من الأموات .

وكان معظم الرومان يدافعون عن الألعاب في المجتلدات بقولهم إن الضحايا كانوا من المحكوم عليهم بإعدام لما ارتكبوه من الجرائم الشنيعة ، وإن ما يلقون من العذاب يحول بين غيرهم وبين ارتكاب أمثال هذه الجرائم ، وإن الشجاعة التي يلوب عليها المقضى عليهم ليلاقوا بها الجراح والموت تغرس في قلوب الشعب الفضائل العسكرية ، وإن اعتياد العين لرؤية الدماء والمعارك الحربية تعود الرومان مطالب الحرب والتضحية بالنفس . وما هو ذا جوقنال الذي ندد بكل شيء عدا هذه الألعاب . قد تركها من غير تجريح ، وأمتدح بلني الأصغر ، وهو الرجل الراق المتحضر ، تراجان لأنه عرض على الشعب مناظر تثير في الناس رغبة في أن يُشخّنوا « بالجراح الشريفة والاستنزاء بالموت » (١١٩) . وكان تاستس يرى أن الدماء التي تراق في المجتلد ، أيا كان شأنها ، هي « الدماء الرخيصة » التي تجرى في عروق العامة (١٢٠) . أما شيشرون فكانت نفسه تنقزز من هذه المجازر وهو يسائل الناس « أية تسلية يمكن أن تتسلى بها الروح الرقيقة الإنسانية حين ترى وحشاً شريفاً يطعنه الصائد في قلبه بلا رحمة ، أو ترى إنساناً يمزقه وحش ضار أقوى منه جسماً ؟ » ولكنه يضيف إلى ذلك قوله . « إذا ما اضطرب المحرمون إلى القتال فإن العين لا تشد طريقة تهيب الإنسان لملاقاة العذاب واستقبال الموت خيراً من هذه الطريقة » (١٢١) . وأقبل سنكا على الملاعب في وقت الظهيرة حين خرجت كثرة النظارة للغذاء ، فهاله وحز في نفسه أن يرى مئات المجرمين يساقون ليتسلى من بقوا فيها بروية دمائهم المراقبة :

« وأعود إلى منزلي أكثر مما كنت نهماً وقسوة ووحشية ، لأنني كنت بين آدميين . لقد شاهدت بمحض المصادفة معرضاً مقاماً في وقت الظهيرة ،

وكنـت أتوقـع أن أرى بعض ما يبعث السرور. أو الفكاهة أو يروح عن النفس بعض متاعها . . . وتستطيع عين الإنسان أن تستريح به من رؤية المجازر التي تذهب فيها حياة أخيه الإنسان . . . ولكنى رأيت عكس هذا . . . إن هؤلاء المحاربين في وقت الظهيرة يخرجون وليس عليهم دروع من أى نوع كان ، أجسامهم معرضة للطعنات في كل جزء من أجزائها ، فكل طعنة تصيبهم في الصميم . . . إنهم في الصباح يلقون الناس أمام الآساد ، أما في الظهيرة فيقذف بهم أمام النظارة ، فترى الجماهير تطلب إلى المنتصر الذي قتل خصيمه أن يقا تل الرجل الذي سوف يقتله ، ويحتفظ بالمنتصر الأخير ليقتل قتلة أخرى . . . وهذه الأمور وأمثالها تحدث والمقاعد تكاد تكون خالية . . . إن الآدمى الذي لا يحل للإنسان قتله ، يقتل لعبا ولهاوا وجلبا للمسرة» (١٢٢) .

الفصل السابع

العقائد الجديدة

رضى الدين عن الألعاب وعدها الصور الصحيحة للاحتفالات الدينية ،
والذلك كانت تبدأ بمواكب فخمة وقورة ، وكان الكهنة والعذارى القسبية
يحتلون أماكن الشرف في دور التمثيل ، وفي مضامير السباق وأمام المختلدة ،
وكان الإمبراطور الذى يرأس هذه الاحتفالات هو الكاهن الأكبر
لدين الدولة .

وقد بذل أغسطس وخلفاؤه كل ما وسعهم من جهد ليعيدوا الحياة
إلى الدين القديم ، إلا عنصراً من عناصره وهو الحياة الأخلاقية الفاضلة ،
وحتى أشد الأباطرة كفراً بهذا الدين أمثال كلجيولا ونبرون كانوا يؤدون
جميع المراسم والطقوس الواجبة للآلهة الرسمية ، وظل اللويرسى يرقصون
في الشوارع في يوم عيدهم ، كما ظل إخوان أرفال Arval ينطقون بالدعوات
والصداوات للمريخ بلغة لاتينية قديمة لا يفهم أحد معناها . وكان التنبؤ
بالغيب وزجر الطير من الأعمال التى لا ينقطع الناس عن ممارستها والثقة
العظيمة بها ، وكان الأباطرة الذين يخرجون المنجمين من البلاد يستشرونهم
في مهام الأمور . وأدخل السحر والشعوذة والخرافات والأوهام الباطلة ،
والرقى ، والتعاويذ ، والتفاول ، والتطير ، وتفسير الأحلام في نسيج الحياة
الرومانية حتى أصبحت لحمتها وسداها ، وكان أغسطس يدرس أحلامه
دراسة جدية لا تقل عن دراسة علماء النفس في هذه الأيام ، ويحدثنا
سنكا أنه شاهد بعينه نساء يجلسن على درج الكيتول ينتظرن أن يستمتع
بهن جوبتر لأنهن رأين في أحلامهن أن الإله راغب فيهن (١٢٣) . وكان
كل قنصل يحتفل بتقلده منصبه احتفالاً يضحى فيه بعدد من العجول ،
وحتى جوفنال نفسه ، وهو الذى كان يسخر بكل ما عدا هذه الأعمال ،

قطع ييده في تقى وخشوع أعناق خلمين وعجل حنيز شكراً للآلة على أن صديقاً له عاد من رحلته سالماً . وغصت الهياكل بقرابين الذهب والفضة ؛ وكانت الشموع تضاء أمام المذابح ، وقد بليت شفاه التماثيل المقدسة وأيديها وأقدامها من كثرة ما طبعه عليها الأنقياء الصالحون من قبلات . وقصارى القول أن الدين القديم بدا وكأنه لا يزال محتفظاً بقوته ، وظل يخلق آلهة جديداً مثل أنونا Anona (جامعة حبوب العالم إلى رومة) ، ويبعث حياة جديدة في عبادة فورتونا Fortuna وروما Roma ويؤيد القانون ، والظنام ، والاستبداد أقوى تأييد . ولو أن أغسطس بعث حياً بعد عام واحد من وفاته لما كان عليه حرج إن قال إن ما بذله من جهود لإحياء الدين قد نجح أعظم نجاح .

لكن الدين القديم ، رغم هذه المظاهر الخارجية ، دب فيه ديبب الفناء من أعلاه ومن أسفله على السواء . ولم يكن تأليه الأباطرة دليلاً على إجلال الطبقات العليا لحكامها ، بقدر ما كان شاهداً على قلة إجلالها لآلهتها . وأخذت الفلسفة تمحو العقائد الدينية من قلوب المتعلمين وإن كانت في الوقت نفسه تبسط على هذه العقائد حمايتها ، ولم تكن كتابات الكريشوس Lucritius عديمة الأثر في العقول ؛ نعم إن الناس لم يكونوا يذكرونه ، ولكن إغفالهم ذكره لم يكن له من سبب إلى أن الانغماس في الأبيقورية كان أسهل عليهم من دراسة أبيقور أو شارحه المتحمس لمبادئه . ولم يجد الشبان الأثرياء الذين ذهبوا ليتزودوا بالدراسات العليا في أثينة والإسكندرية ورودرس ما يزيد إيمانهم بالدين الرومانى وعقائده . وكان الشعراء اليونان يسخرون من آلهة الرومان ، وسرعان ما أخذ شعراء الرومان أنفسهم يحذوهم ، فكانت قصائد أوفيد تفترض أن الآلة من نسج الخيال ، وكانت فكاهات مارتياك الشعرية تفترض أن الحديث عنهم هزل لا جد فيه . ويلوح أن أحداً لم يشك من هذا أو يعترض عليه ، وقام شخص وطرديانا من المسرح بعد أن انهال عليها ضرباً

بالسياط ، وجاء آخر فثل جويتر وهو يوصى بوصيته استعداداً للموت (١٢٤) .
ولاحظ جوفنال ما لاحظته أفلاطون قبل عهده بخمسة قرون ، وما نلاحظه
نحن بعده بثمانية عشر قرناً ، أن خوف إله رقيب مطلع على السرائر لم يعد
له من القوة ما يستطيع به أن يكشف الخنث في الإيمان (١٢٥) . وحتى شواهد
القبور نفسها تقرأ عليها ما يدل على ازدياد التشكك في الدين وعلى الانغماس
الصريح في الشهوات . فقد كتبت على واحد منها هذه العبارة : « لم أكن ،
لقد كنت ، ولست بكائن ، ولا أبالي » . وكتب على شاهد آخر : « لم أكن
قد وجدت ، لست موجوداً ، لست أدري » ، وعلى شاهد ثالث :
« لم يكن لي إلا ما أكلت وشربت ، لقد تمتعت بحياتي » (١٢٦) . وكتب
على شاهد آخر : « لا أوثر بشيء وراء القبر » . ويؤكد شاهد غيره أن
« ليس ثمة جحيم ولا كارون ، ولا سربس Cerebus » . وكتبت نفس
قلقة كلدرة : « لا حاجة لي الآن بأن أخشى الجوع ، ولا حاجة لي بأن
أؤدى الريح ، ولقد تحررت من وجع المفاصل على الأقل » . وكتب شخص
نكد من أتباع لكريشنيوس عن جثته المدفونة يقول : إن « العناصر التي تكونت
منها تعود مرة أخرى إلى أصولها ، إن الحياة عارية تعار للإنسان ، وليس
في مقدوره أن يحتفظ بها إلى أبد الدهر ، وهو إذا مات يرد ما عليه من دين
إلى الطبيعة » (١٢٧) .

لكن الشك مهما يكن فيه من إخلاص لا يمكن أن يحل محل الإيمان ، ولم
يجد ذلك المجتمع بين ملذاته كلها سعادة ما ، بل سئم ما فيه من تنعم ، واستنفد
قواه فيما ساده من دعارة ، وظل الفقراء والأغنياء على السواء معرضين للألم
والحزن والموت ، ولم تستطع الفلسفة بجميع أنواعها ، وخاصة تلك العقيدة الباردة
السامية عقيدة الرواقية ، أن تهب الرجل العادي إيماناً يخفف عنه شعوره بفقره ،
ويشجعه على تهذيب خلقه ، ويواسيه في أحزانه ، ويبعث الأمل في قلبه . لقد
كان الدين القديم يؤدي الوظيفة الأولى من هذه الوظائف الثلاث ، وعجز عن
أداء الوظيفتين الأخريين . ذلك أن الناس كانوا يحتاجون إلى وحي يوحى إليهم ،

ولكن الدين لم يهيم إلا طقوساً ومراسم ؛ وكانوا يطلبون خاوذاً وحياة بعد الموت ، ولكن دينهم جاء لهم بدل هذا بألعاب . كذلك شعر الناس الذين جاءوا من بلاد أخرى عبيداً أو أحراراً أنهم محرومون من هذه العبادات القومية ، ومن أجل هذا جاءوا معهم بألهتهم ، وأقاموا لها هياكل خاصة بها ، ومارسوا شعائرهم الخاصة ؛ وغرسوا في قلب بلاد الغرب دين الشرق . وبدأت بين عقائد الفاتحين وإيمان المهزومين حرب لم تنفع فيها أسلحة الجحافل الرومانية ؛ وكانت حاجات القلوب هي التي قررت لمن يكون الفوز .

وجاء الأرباب الجدد مع أسرى الحروب ، ومع البخود العائدين من ميادين القتال ومع التجار . وأقام التجار الوافدون من آسية ومصر هياكل في پتيولى Puteoli ، وأستيا Ostia ورومة ليعبدوا فيها آلهتهم التقليدية . وكانت الحكومة الرومانية تنظر إلى هذه الأديان الأجنبية نظرة التسامح في العادة ؛ ذلك أنها لم تكن تريد أن تسمح للأجانب أن يشاركوا الرومان في عباداتهم ، ومن أجل هذا كانت ترى أن مارسهم شعائر دينهم الذي جاءوا به معهم أفضل من تركهم بلاد دين . وكانت تطلب إليهم في نظير هذا أن يكون كل دين أجنبي متسامحاً كذلك مع غيره من الأديان ، وأن تتضمن طقوسه ما يشعر بالخصوع إلى « عبقرية » الإمبراطور ، وإلى الإلهة « روما » ليعبروا بذلك عن ولائهم للدولة ؛ وشجع هذان التساهل والتسامح الأديان الشرقية ، وكانت قد استقرت في رومة ، فأضححت هي الأديان الكبرى المنتشرة بين العامة . وأراد كلوديوس أن يهذب هذه العبادات الشرقية فرفع القيود المفروضة على عبادة الأم العظمى ، وأجاز للرومان أن يكونوا كهنة لها وقائمين على خدمتها ، وقرر لها عيداً رسمياً حوالى الاعتدال الربيعي بين ٥ و ٢٧ مارس . وكانت منافستها الكبرى في القرن الأول الميلادى هي إيزيس المصرية إلهة الأمومة ، والإخصاب ، والتجارة وكانت الحكومة قد حرمت المرة بعد المرة عبادة هذه الإلهة الأجنبية في رومة ،

ولكنها لم تكن تلبث أن تعود بعد كل تحريم لأن تقوى عبادها كانت أقوى من سلطان الدولة ، وأيد كلعجولا استسلام الدولة لها بأن شاد لها من الأموال العامة ضرباً فحماً في ميدان المريخ . واشترك أثنو Otho ، ودومتيان في الاحتفالات الإيزيسية ، ومشى كومودس عارى الرأس خلف كهنتها يمسك بيديه في خشوع تمثالا لأنوبيس Anubis القرد إله المصريين . وزاد شأن هذا الغزو الديني عاماً بعد عام ، فجماعت من جنوبي إيطاليا عبادة فيثاغورس — وهى الاقتصار على أكل الخضر ، والاعتقاد بعودة الأرواح إلى التجسد . وجاءت من هيرابوليس Hierapolis الإلهة أترجاتس Atargatis المعروفة عند الرومان « بالآلهة السورية » ، كما جاء منها أيضاً أزيز Aziz المعروف « بزيوس دلوكني Dolochi » وغيره من الأرباب العجيبة . ونشر التجار والأرقاء السوريون عبادة هذه الآلهة ، وما زال عبادها يقوون حتى اعتلى العرش آخر الأمر شاب من كهنة « بعل » السورى وتسمى باسم إلجبالس Elagabalus — عابد إله الشمس . وجاءت من پارثيا عدوة رومة عبادة إلهة من إلهات الشمس هى ميثرا Mithra . وكان عبادها يعتقدون أنهم جنود فى الحرب الكونية العظيمة حرب الضياء على الظلام ، وحرب الخير على الشر . وكان فى هذا الدين كثير من صفات الرجولة ، ولهذا كان أكثر أنصاره من الرجال لا من النساء ، وأعجبت به الفيلالي الرومانية المرباطة عند الحدود النائية حيث كان يصعب عليهم أن يسمعوا أصوات آلهتهم القومية . وجاء من بلاد اليهود إلههم يهوه إله الموحدين الذين لا يقبلون معه شريكاً ، والذي كان دينه يتطلب من أهله حياة شاقة من التقى ورعاية القواعد والنظم ، ووضع لهم قانوناً أخلاقياً صارماً ، وأكسبهم شجاعة كانت لهم عوناً فيما نزل بهم من محن ، وأسبغت على حياة أفقر الفقراء وأقلهم جاهاً جلباباً من النبل والشرف . وكان بين اليهود الرومان أتباع هذا الدين طائفة لم تكن قد تميزت بعد من سائر الطوائف تمييزاً واضحاً ، كانت تعبد ابنه الذى حلت فيه روحه والذي بعث حياً .

الباب الثامن عشر

القانون الرومانى (*)

١٤٦ ق . م الى ١٩٢ م

الفصل الاول

المشترعون العظام

كان القانون أخص خصائص الروح الرومانية ، وأبقى مظهر من مظاهرها وكانت رومة مضرب المثل فى النظام كما كانت بلاد اليونان مضرب المثل فى الحرية ، ولقد أورثتنا رومة شرائعها ، وتقاليدها الإدارية لتكون هى أسس النظام الاجتماعى ، كما أورثتنا بلاد اليونان الديمقراطية والفلسفة اللتين كانتا أساس الحرية الفردية . وأهم ما يجب على الساسة ورجال الحكم هو أن يجمعوا بين هذين التراثين المختلفين المتنافرين ويوحدوا بينهما ، ويؤلفوا من نغماتهما المتعارضة المنشطة نغما موثقاً منسجماً

وإذ كان القانون هو أساس التاريخ الرومانى وجوهره ، فقد كان من المستحيل أن نفضل هذا عن ذاك ، ومن أجل هذا لن يكون هذا الباب من أبواب الكتاب إلا مكملاً لما سبقه وما سيقبه من تفصيلات ، ولن يزيد على لبنات متفرقة فى صرح الحضارة الرومانية . والدستور الرومانى يشبه الدستور البريطانى — فلم يكن هذا الدستور طائفة من القواعد الخاملة التى يتقيد بها

(*) ليس فى هذا الفصل نفع لرجال القانون وليس فيه لذة لغيرهم .

الناس ، بل كان سلسلة متتابعة من السوابق ترشد وتوجهه ، ولكنها لا تمنع التغيير . فكلما زاد الثراء وتعقدت أساليب الحياة ، أصدرت الجمعيات وأصدر الحكام والزعماء ، قوانين جديدة ، وسأيرت الشرائع الإمبراطورية في نموها واتساع نطاقها ، فكانت كلما امتدت رقعة الإمبراطورية لاحقتها القوانين إلى الحدود الجديدة ، وتطلب تعليم رجال القانون ، وإرشاد القضاة ، وحماية المواطن من الأحكام الظالمة غير المشروعة ، تطلب هذا تنظيم الشرائع وصياغتها في صورة مرتبة يسهل معرفتها والوصول إليها . وبينما كانت الاضطرابات التي حدثت عقب ثورات ابني جراكس وماريوس على أشدها قام بيليوس موسيوس اسكافولا Publius Mucius Scaevola (الذى ولى القنصلية في عام ١٢٣ ق . م) وابنه كونتس Quintus (وقد ولى القنصلية في ٥٥ ق . م) وبذلا جهوداً كبيرة لصياغة قوانين رومة صياغة يسهل فهمها . وكتب شيشرون ، وكان من تلاميذ رجل آخر يدعى كونتس موسيوس اسكافولا (وقد ولى القنصلية عام ١١٧ ق . م) ، رسائل بليغة في فلسفة القوانين ، ووضع مشروع قوانين مثالية يقصد بها الاحتفاظ بالثروة الطائلة التي جمعها وبالدين الذي خسره . وخلقت القوانين المتناقضة التي سنّها ماريوس وصلاً ، وسلطة يمي المطلقة التي لم يكن لها مثل من قبل ، والشرائع الثورية التي وضعها قيصر ، والدستور الجديد الذي وضعه أغسطس ، خلقت هذه كلها مشا كل جديدة للعقول التي حاولت أن تجعل الشرائع متمشية مع المنطق السليم ، وأخذ المشرع النابه أنتستيتوس لبيو Antistius Labeo يندد بما في القوانين من اضطراب وفوضى ، ويعلن أن المراسيم التي أصدرها قيصر وأغسطس مراسيم باطلة لأنها مظهر لسلطة مغتصبة غير شرعية . ولم يكن في مقدور عقول الأفراد أو سلطة المحاكم أن تقبل هذه القوانين الجديدة إلا بعد أن وطدت الزعامة سلطتها باستخدام القوة أولاً وبسلطان العادة فيما بعد . ويعود الفضل إلى القرنين الثاني والثالث من التاريخ الميلادى في وضع القوانين

الرومانية في الغرب في صورتها النهائية - وهو عمل لا يقل خطراً عن صياغة العلم والفلسفة في بلاد اليونان .

وفي هذا المجال أيضاً كان قيصر هو الذى حدد الهدف المقصود ، ولكن الجهود الحقيقية التى بذلت لتحقيق هذا الهدف لم تبدأ بالفعل إلا في أيام هديران (١١٧ م) ؛ فقد جمع هذا الإمبراطور - وهو أرقى الأباطرة كلهم تعليماً - حوله طائفة من فقهاء القانون وألف منهم مجلسه الخاص ، وكلفهم أن يستبدلوا بمراسيم الپريتورين المتناقضة « مرسوماً خالداً » يلزمه في المستقبل جميع القضاة في إيطاليا . ولعل الذى أوحى إلى هديران بإصلاح شرائع رومة ونسقيها هو إطلاعه في أثناء رحلاته الكثيرة على دساتير المدن اليونانية في آسية وإيطاليا ؛ ذلك أن هذه المدن قد أنشأت على توالى الأيام طائفة راقية من القوانين التى تنظم شئونها البلدية ، وإن كان اليونان بوجه عام لم يخرجوا بعد أيام صولون كتاباً في القانون يعد من الآيات الخالدة في هذا الموضوع . وواصل الأنطونيون خلفاء هديران هذا التقنين ، وكانت الشهرة النصف الرسمية التى تتمتع بها الفلسفة الرواقية مما جعل لليونان أثراً عميقاً في القوانين الرومانية . فقد أعلن الرواقيون جهرة أن القوانين يجب أن تتفق مع المبادئ الخلقية القويمة ، وأن الجريمة كامنة في نية المرء لا في نتيجة عمله . وقد أمر أنطونيوس ، وهو ثمرة من ثمار المدرسة الرواقية ، أن يفسر الشك لمصلحة المتهم ، وأن يظل الإنسان بريئاً حتى تثبت إدانته^(١) . - وهما مبدآن من أرقى المبادئ في قوانين البلاد المتحضرة .

وقد نبغ في فلسفة القانون عدد كبير من العباقرة جاء بعضهم في إثر بعض ، وكان من أهم العوامل في هذا النبوغ مناصرة الأباطرة وتشجيعهم . ومن هؤلاء العباقرة سلفيوس يوليانيوس Salvius Julianus وهو روماني أفريقي المولد أظهر من الجدد وغزارة العلم حين كان يعمل مستشاراً قانونياً للإمبراطور ما حل مجاس الشيوخ على أن يقرر أن يكون مرتبه ضعفى المرتب المخصص

لهذا المنصب عادة واشتهرت فتاواه بوضوحها وسلامة منطقها ، و «معرضة» عبارة عن مجموعة منظمة من القوانين المدنية . وكان هو الذى صاغ المرسوم البريتورى الدائم حين كان أشهر الأعضاء البارزين فى مجلس هديران . وهناك مشرع آخر يدعى جايوس Gaius لا نعرف عنه غير اسمه . وقد عثر نيهير Neihoum عام ١٨١٦ م على «أنظمة» مكتوبة على ورق وفوقها مقالات لـجيروم Jerome ، وهى الآن أكمل مرجع يعتمد عليه فى دراسة القوانين التى سبقت قبل عهد جستنيان . وقد صدرت هذه «الأنظمة» حوالى عام ١٦١ م ، ولم يكن يقصد بها أن تكون عملاً إنشائياً جديداً ، بل كانت كتاباً مدرسياً أولياً للطلاب والدارسين ، فإذا رأينا نحن أنها آية من آيات العرض المنظم ، ففى وسعنا أن نتصور العقلية الجبارة التى كان يتمتع بها أولئك الرجال الذين تلخص هذه الرسالة كتبهم . وبعد ستين سنة من ذلك العهد أوصل باپنيان پولس Papinian Paulus وأپيان Alpius فقه القانون الرومانى إلى ذروته ؛ وبينما كان تنفيذ القوانين يجرى صريحاً للعنف والقوضى صاغه هذان العالمان صياغة منطقية متسقة خالية من التناقض ، ولم يلبث هذا العلم أن هوى بعدهما فى غمرة الخراب الشامل .

الفصل الثاني

مصادر القانون

كما أن مصطلحات العلم والفلسفة مأخوذة في الأغلب الأعم من اللغة اليونانية فتكشف بذلك عن مصدر هذه العلوم ، كذلك لغة القانون مأخوذة في معظمها من اللغة اللاتينية . وكان اللفظ الدال على القانون في هذه اللغة هو *ius* أى العدالة أو الحق ، أما كلمة *lex* فقد كان معناها القانون الخاص(*) . وقد وصف فقه القانون في مختصر جستنيان (٥٢٣ م) بأنه علم وفن معا « علم العدل وغير العدل » و « فن تدبير ما هو صالح ومقسط » وكانت كلمة *ius* تشمل القانون غير المكتوب أو العادات المرعية التي تحوى القانون المكتوب نفسه ، وكان هذا القانون المكتوب يتكون من *ius civile* - أى « قانون المواطنين (الرومان) » ، *ius gentium* - أى « قانون الأمم » . وكان القانون المدنى وقانون المواطنين يسمى « القانون العام » إذا كان يتعلق بشئون الدولة أو العبادة الرسمية ، و « القانون الخاص » إن كان يبحث في العلاقات القانونية بين المواطنين بعضهم بعضا .

والقانون الرومانى بوجه عام مأخوذ من خمسة مصادر : (١) فنى عهد الجمهورية كان المصدر النهائى للقانون هو إرادة المواطنين يعبرون عنها فى الجمعيتين العشرية والمثوية بلفظ *leges* وفى الجمعية القبلية بلفظ *plebisuta* (« قرره العامة ») . ولم يكن مجلس الشيوخ يقر اللجيس *leges* إلا إذا عرضت على الجمعيتين مصحوبة بالمراسيم المقررة وعرضها عليهما موظف كبير فى مرتبة

(*) وازن هذا بعبارة *loi droit* فى اللغة الفرنسية وعبارة *Gesetz, Recht* فى اللغة الألمانية .

أعضاء مجلس الشيوخ . وإذا ما اتفق مجلس الشيوخ والجمعية على إنقاذ قانون

من القوانين أعلن باسم *Senatus Populusque Romauns*

(٢) ولم يكن لمجلس الشيوخ نفسه من الوجهة النظرية في عهد

الجمهورية حق إصدار القوانين ؛ أما قراراته المعروفة باسم « استشارات

الشيوخ » *senatusconsulta* فكانت من الناحية الرسمية توصيات إلى

الحكام ؛ ثم أصبحت على مر الأيام توجيهات ، ثم أوامر ، ثم صار لها

في عهد الجمهورية المتأخرة وفي عهد الإمبراطورية قوة القوانين . وكان

مجموع القوانين التي أجازتها الجمعيتان ومجلس الشيوخ في خلال ستة قرون

قليلًا إلى حد يدهش له من اعتداد السيل الجارف من الشرائع التي تصدرها

الدول في الوقت الحاضر .

(٣) وكانت الحاجة إلى القوانين الصغرى أو الخاصة تسدها الأوامر *edicta*

التي يصدرها موظفو المجالس البلدية . ذلك أن كل حاكم جديد للمدينة

كان يصل في بدء قيامه بمهام منصبه أمراً برتوريا *edictum praetorium*

يذيعه مناد في السوق العامة وينقش على أحد الجدران ، ويعلن فيه المبادئ

القانونية التي ينتوى الحاكم العمل بها والحكم بين الناس بمقتضاها في

خلال السنة التي يتولى فيها منصبه . وكان في وسع القضاة المتنقلين

praelores peregrini وحكام الولايات أن يصدروا أيضاً أمثال هذه

القرارات . ولم يكن يسمح للبرتورين بمقتضى سلطة الحكم المخولة لهم أن

يفسروا القوانين القائمة فحسب ، بل كان لهم فوق ذلك أن يسنوا قوانين

جديدة . وبهذه الطريقة كان القانون الروماني يجمع بين استقرار الشرائع

الأساسية ومرونة الأحكام البرتورية . وإذا انتقل قانون أو انتقلت فقرة

من فقراته من مرسوم برتوري إلى مرسوم البرتور الذي يليه مرات كثيرة

أصبحت جزءاً لا يتجزأ من القانون الأساء المعروف باسم *ius honorarium*

حتى حل « قانون المناصب » قبيل عهد شيشرون محل الجداول الاثني

عشر ، وأصبح هو النص الرئيسى للأوامر القانونية في رومة . على أن

الريتور كثيراً ما كان يخالف المبادئ التي جرى عليها سابقه ، ويصدر من الأحكام ما يناقضها كل المناقضة في بعض الأحيان ؛ وبهذا أضيف الغموض في القوانين والتعسف في الأحكام إلى المساوئ الطبيعية التي لا يخلو منها أي نظام قضائي يتبعه بنو الإنسان ؛ وهذا هو الغموض الذي أراد هدریان أن يقضى عليه حين عهد إلى يوليئس أن يجمع القانون الأساسي *ius honorarium* كله في مرسوم دائم لا يستطيع تغييره إلا الإمبراطور نفسه .

(٤) وأصبحت قوانين الزعماء *constituiones principum* نفسها في القرن الثاني مصدراً آخر من مصادر القانون . واتخذت هذه القوانين أربعة أشكال مختلفة (١) فقد كان الزعيم يصدر مراسيم بوصف كونه صاحب منصب في المدينة ، وكانت هذه المراسيم نافذة في الإمبراطورية كلها ، ولكن يلوح أنها كان يبطل مفعولها بعد وفاته . (ب) وكان لأوامره *decreta* يوصفه قاضياً ما كان لغيرها من الأوامر من قوة القانون . (ج) وكانت ردوده الإمبراطورية *rescripta* أجوبة لما يوجه إليه من الاستعلامات . وكانت هذه الأجوبة تتخذ في العادة شكل رسائل *epistulae* أو إجابات قصيرة *subscriptiones* « تكتب تحت » سؤال أو ملتمس . وقد ضمت الرسائل الحكيمة الجامعة التي رد بها هدریان على ما يطلبه موظفو الحكومة من إرشادات إلى قوانين الإمبراطورية ، وظلت نافذة المفعول بعد وفاته بزمان طويل . (د) وكانت عهود الأباطرة *mandata* هي التوجيهات التي يصدرونها للموظفين ، وقد تكون من هذه العهود على مر الزمن كتاب كبير من القانون الإداري .

(٥) وكان من المستطاع في بعض الظروف الخاصة أن تسر القوانين الجامعة المعروفة باسم *responsa prodentium* . ولقد كان من أجل المناظرة بلا ريب أن يجلس العلماء الأعلام من المشترعين على كراسي في السوق العامة (أو في بيوتهم كما كان يحدث في العهود المتأخرة) ويصدروا فتاوى قانونية

لكل من يريد استفتاءهم ، وكانوا يناولون في بعض الأحيان على عملهم مكافآت من طريق غير مباشر . فكثيراً ما كان المحامون أو قضاة البلديات يأتون إليهم ليستشيروهم في مشاكلهم القانونية . وكانوا يفعلون ما يفعله كبار الخاخامات اليهود من التوفيق بين المتناقضات ، ويحددون ما بين القوانين بعضها وبعض من فروق دقيقة ، ويفسرون القانون القديم بما يلائم حاجات الحياة القائمة في وقتهم أو يلائم ظروفها السياسية ، أو يوفقون بينه وبين هذه الحاجات والظروف . وقد أضحي لأجوبتهم المكتوبة بحكم العادة غير المكتوبة قوة لا تفوقها إلا قوة القوانين نفسها . وجعل أغسطس لهذه الفتاوى كل ما للقوانين من قوة إذا توافر فيها شرطان : أولهما أن يكون المشترعون قد تلقوا من الإمبراطور حق إصدار الفتاوى القانونية *ius sespondenti* وثانيهما أن ترسل الإجابة مختومة إلى القاضي المعروضة عليه القضية الصادرة فيها الفتوى . ولم يحل عصر جستنيان حتى أصبحت هذه الإجابات أو الفتاوى القانونية مصدراً واسعاً للشرائع وآدابها ، ومعينا لا ينضب استمد منه مختصره و كتاب قوانينه وكان عماداً لها .

الفصل الثالث

قانون الأحوال الشخصية

يقول ماريوس المعروف بدقته إن القانون كله يتعلق إما بالأشخاص ، وإما بالملك ، وإما بالمرافعات^(٣) . وكانت لفظ *persona* في أول الأمر تعنى قناع الممثل ، ثم صار معناها بعدئذ العمل الذى يقوم به الإنسان في الحياة ، ثم بات معناها آخر الأمر الشخص نفسه — وكأنما قصد بهذا التطور أننا لانستطيع أن نعرف شخصاً ما ، بل كل الذى نعرفه هو ما يقوم به من أعمال ، أو ما يلبسه من قناع أو أقنعة .

وكان الشخص الأول في القانون الرومانى هو المواطن ؛ وكان تعريفه عندهم هو أنه الشخص الذى ضم إلى إحدى القبائل الرومانية بحكم المولد أو التبني ، أو العتق ، أو المنحة من قبل الحكومة . وكان الذين ينطبق عليهم هذا التعريف ينقسمون ثلاث درجات : (١) المواطن الكاملين الذين يتمتعون بالحقوق الأربعة : حق الاقتراع (*ius suffragii*) ، وحق التوظيف (*ius honorum*) ، وحق الزواج من حرة بمولدها (*ius conubii*) ، وحق الدخول في تعاقد تجارى يحميه القانون الرومانى (*ius commercii*) . (٢) « المواطنون الذين لا حق لهم في الاقتراع » وهم الذين يتمتعون بحق الزواج والتعاقد ، ولكنهم لا حق لهم في الاقتراع ، ولا في تولي المناصب . (٣) المعانيق الذين يتمتعون بحق الاقتراع والتعاقد ولكنهم لا حق لهم في الزواج بجرة أو في تولي المناصب . وكان للمواطن الكامل المواطنة ، فضلاً عن حقوقه السالفة الذكر ، حقوق يضمنها له القانون الشخصى ولا يشاركه فيها سواه ؛ كحق الأب على أبنائه (*patria potestas*) ، والزواج على زوجته (*manus*) ، والمالك فى ملكه ومنه عبيده (*dominium*) ،

وحق الرجل الحر على غيره إذا تعاقد معه (mancipium) . وكان ثمة نوع آخر من الحقوق هو حق المواطنة الإمكانية أو حق الدخول في الخطيرة اللاتينية Latinitas أو ius Latii ، تمنحه رومة للأحرار من سكان المدن أو المستعمرات المفضلة ويعطيهم حق التعاقد ولكنه لا يعطيهم حق الزواج بالرومانيات ، وينال به كبار موظفيهم حقوق المواطنة الرومانية الكاملة حين تنتهي مدة توليهم مناصبهم . وكان لكل مدينة في الإمبراطورية مواطنوها وشروطها الخاصة لنيل حقوق المواطنة . وكان من المميزات الفلذة لهذه الإمبراطورية أن الشخص يستطيع أن يكون مواطناً لعدة مدن في وقت واحد ، وأن يستمتع فيها جميعاً بالحقوق المدنية . وكانت أئمن ميزة يستمتع بها المواطن الروماني هي حماية القانون لشخصه ، وملكه وحقوقه ، وأمنه على نفسه من التعذيب أو العنف في أثناء المحاكمة . وكان من مفاخر القانون الروماني أنه يحمي الفرد من الدولة .

ويلي الأب المواطن في الأهمية في نظر القانون . لقد كان انتشار القانون في الأقاليم التي كانت خاضعة في الأزمنة القديمة لسلطان العادة سبباً في إضعاف حقوق الآباء على الأبناء ، ولكن في وسعنا أن نحكم على ما بقي له من سلطان إذا ذكرنا أنه حين خرج أولس فلفيوس Aulus Fulvius لينضم إلى جيش كاتلين Catiline استعاده أبوه وقتله . على أننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن سلطان الأب على أبنائه أخذ يضعف كلما ازداد سلطان الحكومة على الأفراد ، وإن المواطنة دخلت الأسرة حين غادرت الدولة . لقد كان الآباء هم الدولة في باكورة عهد الجمهورية ، فكان رؤساء الأسر هم الذين يكوّنون الجمعية القبلية ، وأكبر الظن أن رؤساء القبائل هم الذين كانوا يكوّنون مجلس الشيوخ . ثم ضعف نظام الحكم عن طريق الأسر والقبائل حين كثر عدد السكان واختلفت أصولهم ، وأصبحت الحياة أكثر حركة وتعقيداً ، وازدادت الصلات التجارية بين الناس فحل التعاقد والقانون محل القرابة والمكانة الاجتماعية والعادة^(١) . فنال الأبناء من آباءهم

نصيياً أوفى من الحرية ، كما ازداد تحرر الزوجات من الأزواج والأفراد من الجماعات . وشاهد ذلك أن تراجان أمر بفصل ابن عن أبيه لأنه أساء معاملته ، وأن هدریان سلب من الأب حقه في قتل أفراد أسرته ونقل هذا الحق إلى المحاكم ، ومنع أنطونينس أباً من أن يبيع أبنائه عبيداً^(٥) . وكانت العادة قد قصرت من زمن بعيد استخدام هذه السلطات القديمة على حوادث فردية نادرة . ذلك أن القانون ينزع على الدوام للسير ببطء خلف التطور الأخلاقي ، لا لأن القانون عاجز عن التعلم بل لأن التجارب قد دلت على أن من الحكمة أن نجرب الأساليب الجديدة عملياً قبل أن نوضع في صورة الشرائع .

وكانت المرأة الرومانية تحصل على حقوق جديدة كلما فقد الرجل حقوقاً قديمة ، ولكنها كانت من المهارة بحيث تستطيع أن تستر حريتها بسترار من القيود القانونية المطردة الزيادة . لقد كانت شرائع الجمهورية تفترض أنها « لا حق لها على نفسها sui juris » مطلقاً بل أنها على الدوام خاضعة لولي من الذكور . وفي ذلك يقول جايوس : « توجب عاداتنا على النساء الرشيدات أنفسهن أن يبقين تحت الوصاية لخفة عقولهن »^(٦) . ثم زال القسط الأكبر من هذه الوصاية في عهد الجمهورية المتأخر وفي عهد الإمبراطورية ، وكان سبب زواله مقانن النساء وقوة إرادتهن ، واستجابة الرجال لهذه المقانن وهيامهم بالنساء . فكان المجتمع الروماني من أيام كاتو الأكبر إلى أيام كومودس Commodus خاضعاً لسلطان النساء ، وإن كان من الناحية القانونية مجتمعاً أبوياً ، وكان يسوده كل ما كانت تتمناز به سيادتهن على إيطاليا في عهد النهضة أو الندوبات الفرنسية في عهد آل بربون من ظنوف ورشاقة : وأقرت قوانين أغسطس هذه الحقيقة الواقعة بعض الإقرار بأن رفعت الوصاية عن كل امرأة ولدت ثلاثة أبناء شرعيين^(٧) . وأصدر هدریان مرسوماً يجعل من حق النساء أن يتصرفن في أملاكهن كيفما شئن بشرط أن يحصان قبل ذلك على موافقة أوليائهن ، ولكن الإجراءات الفعلية لم تلبث

أن استغنت عن هذه الموافقة . ولم يكدهم يخنتم القرن الثاني حتى كانت الولاية البشرية قد رفعت من الوجهة القانونية عن الحرائر من النساء متى تجاوزن الخامسة والعشرين من العمر .

وظل رضاء الأبوين إلى الوقت الذى نتحدث عنه واجباً فى الزواج الشرعى^(٨) : وكان الزواج الذى يتطلب احتفالاً دينياً *con farreatio* وقتئذ (٦٠ م) مقصوراً على عدد قليل من الأسر التى يتألف من آباءها مجلس الشيوخ . وبقي الزواج بالشراء (*Coemptio*) قائماً من حيث الشكل ، فكان العريس يؤدى ثمن العروس بأن يزن فى ميزان آساً أو سبيكة من البرنز أمام خمسة شهود بعد موافقة أبيها أو وليها^(٩) . غير أن معظم الزواج أصبح وقتئذ زواجا بالمعاشرة (*usus*) . وكانت الزوجة تتجنب الخضوع لحق زوجها فى تملكها (*manus*) بأن تغيب عن بيتها ثلاث ليال فى كل عام ، وبذلك تحتفظ بسيطرتها على أملاكها عدا بائنتها . بل إن الزوج فى واقع الأمر كثيراً ما كان يسجل أملاكه باسم زوجته تهرباً من قضايا التعويض عن الأضرار أو العقاب على الإفلاس^(١٠) . وكان فى وسع كل من الطرفين فسخ هذا الزواج الذى يتسلم فيه الزوج زوجته أو أملاكها *sine manu* متى أراد ، أما ما عداه من أنواع الزواج فكان الزوج وحده هو الذى يحق له فسخه : وظل الزنى من الجرائم الصغرى إذا ارتكبه الرجل ، أما إذا ارتكبه المرأة فكان يعد من الجرائم الكبرى ضد أنظمة الملكية والميراث ، ولكن الزوج لم يبق له وقتئذ حق قتل زوجته إذا ضبطها متلبسة بجريمة الزنى ، بل أعطى هذا الحق لأبيها اسماً وللمحاكم فعلاً . وكان عقابها هو النفى . وكان القانون يعترف بالتسرى بديلاً من الزواج لا مصاحباً له ، ولم يكن يجيز للرجل أن تكون له خطبتان فى وقت واحد ، ولم يكن أبناء السراى يعدون أبناء شرعيين أو يجعل لهم حق الإرث . ومن أجل ذلك كان اتخاذ السراى أمراً محبباً كل الحب للرجال الذين يتكالب عليهم من يسعون لأن بوصى لهم بأملهم . فاتخذ

فسپازيان ، وأنطونينس پيوس ، وماركس أورليوس لهم سرارى يعيشون معهن بعد أن ماتت أزواجهن^(١١) .

وحاول القانون أن يشجع الأبوة بين الأحرار ، لكنه لم يفلح فى ذلك إفلانحاً يستحق الذكر . وكان يحرم قتل الأبناء إلا إذا كانوا مشوهين أو مصابين بمرض مستعص على العلاج . وكان عقاب من يجهض حاملاً أن يتقى من البلاد وأن تصادر أملاكه ، فإذا ماتت الحامل نتيجة لهذا العمل عوقب بالإعدام^(١٢) . على أنه كان فى الاستطاعة الإفلات من هذه القوانين فى ذلك الوقت كما بفلت من يرتكب هذه الجرائم الآن وكان الأبناء أيا كانت سنهم يبقون تحت سلطان أبيهم إلا إذا باعهم عبيداً ثلاث مرات ، أو تحرروا من سيطرته بحكم القانون ، أو شغل الابن منصباً عمومياً ، أو صار كاهناً ، أو أصبحت إحدى بناته زوجة استولى زوجها عليها وعلى مالها ، أو أصبحت عذراء : فستية وإذا تزوج ابن فى حياة أبيه كانت ولاية أبنائه لجدهم^(١٣) ، وقد أعفت شريعة أغسطس مكاسب الابن من الجندية أو من توليه منصباً عاماً ، أو كهنوتياً ، أو من الاشتغال بإحدى المهن الحرة أعفتها من الخضوع للقانون القديم الذى كان يجعل هذه المكاسب كلها من حق الأب : وكان لا يزال من حق الأب أن يبيع ابنه (Mancipium) ؛ ولكن حاله تلك كانت تختلف عن حال الرقيق فقد كان يحتفظ بما له من حقوق مدنية . أما العبد فلم تكن له حقوق قانونية على الإطلاق ، والحق أن القانون الرومانى كان يتردد فى أن يطلق عليه لفظ شخص person ، ثم خرج أخيراً من هذه الورطة بأن سماه « إنساناً غير شخصى »^(١٤) . ولم يبحث جايوس فى أمره تحت عنوان قانون الأشخاص إلا خطأ وقع فيه أدى إلى هذا الإنصاف غير المقصودة ، أما منطق الحوادث فكان يعد العبد من قبيل المتاع res فلم يكن يحق له أن يمتلك ، أو يرث ، أو يُورث ، ولم يكن يستطيع أن يتزوج زواجا شرعياً ، وكان أبنائه كلهم يعدون أبناء غير شرعيين ، كما أن أبناء الجارية كانوا يعدون كلهم

عبيداً ولو كان أبوهم من الأحرار^(١٥) . وكان في وسع السيد أن يرتكب الفحشاء مع عبيده وجواريه من غير أن يتألوا تعويضاً قانونياً ، ولم يكن في مقدور العبد أن يقاضى من يؤذيه أمام المحاكم ، وكان الذى يحق له أن يقاضى من يتسبب في إيذاء العبد هو سيده . وكان لهذا السيد في عهد الجمهورية أن يضربه ، ويسجنه ، ويحكم عليه أن يقاتل الوحوش في المختلد ، ويعرضه للموت جوعاً ، أو يقتله لسبب أو لغير سبب ومن غير أن تكون عليه رقابة إلا رقابة الرأى العام المكون من ملاك العبيد . وإذا أبق عبد ثم قبض عليه كان في مقدور سيده أن يكويه بالنار أو يصلبه ؛ وكان أغسطس يفخر بأنه قبض على ثلاثين ألفاً من العبيد الآبقين ، وأنه صلب كل من لم يكن له مالك يطلبه^(١٦) . وإذا ما استفز العبد عمل من هذه الأعمال أو غيرها فقتل سيده ، قضى القانون بأن يقتل جميع عبيد القتل ؛ ولما أن قتل الوالى بدانيوس سكندس Pedanius Secundus في عام ٦١ وحكم على عبيده الأربعمائة بالإعدام ، احتجت أقلية من أعضاء مجلس الشيوخ على هذا الحكم ، وطلبت جماعة غاضبة في الشارع باستعمال الرأفة ، ولكن المجلس أصر على تنفيذ القانون اعتقاداً منه أن السيد لا يكون آمناً على نفسه من عبيده إلا بمثل هذه القسوة^(١٧) .

ومما يذكر بالشكر للإمبراطورية أو للنقص في موارد العبيد — أن أحوالهم أخذت تتحسن تحسناً مطرداً في عهد الأباطره . ومن مظاهر هذا التحسن أن كلوديوس حرم قتل العبد الذى لا يرتجى منه نفع ، وأمر أن يصبح العبد المريض الطريد بعد شفائه حراً من تلقاء نفسه . وحرّم قانون بترونيا Les Petronia ، في عهد نيرون على الأرجح ، على الأسباد أن يحكموا على العبيد بأن يقاتلوا في المختلد إلا إذا وافق على ذلك موظف كبير . وأجاز نيرون للعبد الذى أسيئت معاملته أن يلجأ إلى تمثاله ويحتجى منه ، وعين قاضياً لينظر في شكاوى أمثال هذا العبد — وكان ذلك تقدماً متواضعاً بدا لرومة كأنه انقلاب ثورى ، لأنه فتح

أبواب المحاكم للعبيد . وقد جعل دومتيان خصي العبيد للأغراض الجنسية جنائية ، وحرم هديران ملاك العبيد مما كان لهم من حق قتل عبيدهم دون موافقة الحكام ، وأجاز أنطونينس ييوس للعبد الذى أسيئت معاملته أن يحتج فى أى معبد ، وقرر أن يباع مثل هذا العبد إلى سيد آخر إذا أثبت أنه لحقه ضرر . وشجع ماركس أورليوس الأسياد على أن يعرضوا على المحاكم ما لحقهم من الأضرار على أيدي العبيد ، بدل أن يقتصوا منهم بأنفسهم . وكان يرجو أن يحل القانون والحكمة بهذه الطريقة محل الوحشية والانتقام الفردى^(١٨) . وآخر ما نذكره من الإصلاحات أن مشترعا عظيما فى القرن الثالث هو أبلين Uplian جهر بما لم يجزؤ على الجهر به إلا عدد قليل من الفلاسفة ، وهو أن « الناس أكفاء بحكم قانون الطبيعة »^(١٩) . وقال غيره من المشترعين إن من القواعد المقررة أنه إذا كان ثمة شك فى أن رجلا ما حر أو عبد كانت الشكوك كلها مؤيدة لحرية^(٢٠) .

على أن خضوع العبيد القانونى لسادتهم على هذا النحو هو رغم هذه اللطافات كلها أسوأ وصمة بوصم بها القانون الرومانى . وكانت آخر سوءات هذا القانون ما يفرضه من الضرائب والقيود على عتق العبيد حتى لقد كان كثيرون من الملاك يتملصون من قانون فوفيا كانينا les Fufia Canina بأن يعتقوا عبيدهم من غير شهود رسميين أو احتفال قانونى ، وإن كان هذا العتق لا يعطى المعتوق حقوق المواطنة بل كل ما يمنحه إياه هو أن يجعله لائنيا . أما العبد الذى يعتق حسب الإجراءات القانونية فكان يصبح مواطنا يستمتع بالحقوق المدنية مقيدة ببعض القيود ؛ لكن العادة كانت تتطلب أن يؤدى واجب التعظيم لسيده السابق كل صباح ، وأن يقوم على خدمته إذا دعت الضرورة ، وأن يعطيه صوته فى كل انتخاب ، وأن يؤدى إليه فى بعض الحالات قسطا من كل ما يكسبه من المال . وإذا مات المعتوق دون أن يوصى لأحد بماله ، ذهب هذا المال من تلقاء نفسه إلى سيده السابق إن كان حيا ؛ وإذا ما أوصى بماله وهو على قيد الحياة

كان ينتظر منه أن يخص هذا السيد ببعضه (٢١) . وقصارى القول أن المعتوق لم يكن يستشفق نسيم الحرية بحق إلا بعد أن يموت سيده ، وتقام جنازته ، ويوارى التراب بالطرق التي جرى بها العرف والتقاليد المرعية . ومن واجبتنا أن نضيف إلى الأقسام العامة من قانون الأحوال الشخصية السالف الذكر ذلك القسم الذى يطلق عليه فى الشرائع الحديثة اسم خاص هو القانون الجنائى . لقد كان التشريع الرومانى يحسب حساباً للجرائم التى تقع على الأفراد والدولة والهيئات الاجتماعية والتجارية بوصفها أشخاصاً معنويين . فأما الدولة فقد كان الاعتداء عليها يشمل خيانتها بالفعل أو بالقول ، وعصيانها ، والاعتداء على دينها الرسمى ، والرشوة ، وابتزاز الأموال أو الفساد فى أعمالها الإدارية ، أو سرقة أموالها ، أو تقديم الرشا للقضاة أو المحلفين . ونستطيع أن نتبين من هذا الثبت الذى لا يحوى إلا عدداً قليلاً من الجرائم أن الفساد تمتد جذوره إلى أبعد العهود وأن فروعه فى أكبر الظن ستظل تورق حتى المستقبل البعيد . أما الجرائم التى تقع على الأفراد فكان منها الإيذاء البدنى ، والغش ، والفحش ، والقتل ، ويشير شيشرون فى بعض أقواله إلى قانون اسكانتينا *lex Scantinia* الذى يعاقب على اللواط (٢٢) . وقاوم أغسطس هذه الجريمة بفرض غرامة على مرتكبها ، وقاومها مارتياى بالهجاء ، ودرومتيان بالإعدام . ولم يعد الإيذاء البدنى يعاقب عليه فى ذلك الوقت بالقصاص كما هو وارد فى الجداول الاثنى عشر ، بل كان يعاقب عليه بالغرامة . ولم يكن الانتحار جريمة ، بل إنه قبل دمتيان كان يكافأ عليه فى بعض الأحيان ، فكان فى مقدور الرجل المحكوم عليه بالإعدام إذا لحأ إلى الانتحار أن يضمن عادة تنفيذ وصيته وانتقال أملاكه لورثته دون أن توضع فى سبيل ذلك العقوبات . وكان القانون يترك له الحرية المطلقة فى اختيار إحدى الطريقتين ليختم بها حياته :

الفصل الرابع

قانون الملكية

وكان أكبر قسم في القانون الروماني هو الخاص بشئون الملكية ، والالتزامات ، والتبادل ، والتعاقد ، والديون ، ذلك أن الممتلكات العينية كانت هي حياة رومة ، وكان ازدياد الثروة واتساع التجارة يتطلبان طائفة من القوانين أكثر تعقيداً إلى أبعد حد من قوانين العشرة الساذجة .

وكانت الملكية تجيء عن طريق الوراثة أو وضع اليد . وإذا كان الوالد يمتلك بوصفه وكيلاً عن الأسرة أو ولياً عليها ، فقد كان الأبناء والأحفاد ملاكاً بالإمكانية أو « ورثة أنفسهم » (٢٣) حسب النص الفد الوارد في القانون . فإذا مات الوالد من غير أن يترك وصية ورث أبنائه أملاك الأسرة من تلقاء أنفسهم . وورث أكبر الآباء من هؤلاء الأبناء حق الولاية على الأسرة . وكان عمل الوصايا القانونية يحاط بمئات من القيود : وكانت صياغتها تتطلب كما تتطلب في هذه الأيام سيلاً من اللغو والتكرار والألفاظ الطنانة الرنانة . وكان كل موص ملزماً بأن يترك جزءاً من أملاكه إلى أبنائه . وجزءاً آخر للزوجة إذا رزقت منه بثلاثة أبناء ، وأجزاء أخرى (في بعض الأحيان) إلى إخوته وأخواته ، وآبائه إن وجدوا . ولم يكن من حق أى وارث أن يستولى على أى جزء من التركة إلا بعد أن يتحمل نصيبه من جميع ديون المتوفى ، وما عليه من الالتزامات القانونية . وكثيراً ما كان الروماني يجد نفسه متورطاً في وصية ملغوة على حشد تعبيرهم ، أو وصية حمراء إذا جاز هذا التعبير . وإن امرؤ هلك ليس له ولد ولم يترك وصية انتقلت أملاكه وديونه من تلقاء نفسها إلى أقرب « قريب ذكر من العصب »

أو من أولاد الظهور كما نقول نحن في هذه الأيام . ثم ألغى هذا التقييد بالعصب في عهد الإمبراطورية ، وقبل أن يجلس جستنيان على العرش كان لأبناء البطون مثل ما لأبناء الظهور من حق في الإرث . وقد كان قانون قديم سن بإيعاز كانوا (١٦٩ ق . م) يحرم على كل روماني يملك ١٠٠.٠٠٠ سسترس (أى ما قيمته ١٥٠.٠٠٠ ريال أمريكي) أو أكثر أن يوصي بأى جزء من ثروته لامرأة . وكان قانون فكونيا lex Voconia هذا لا يزال مدبوتاً في كتب القوانين في أيام جايوس ، ولكن الحب وجد له سيلا إلى التلصص منه ، فقد كان الموصى يوصى بأملاكه إلى وارث له حق الإرث ، ثم يلزمه بأن ينقل هذه الأملاك قبل وقت معين إلى المرأة التي يريد أن يهبها تلك الأملاك . وبهذه الطريقة وأمثالها انتقل جزء كبير من ثروة رومة إلى أيدي النساء . يضاف إلى هذا أن الهبة كانت سيلا آخر إلى الفرار من قانون الوصية ، غير أن الهبات التي كانت توهب قرب الوفاة كانت عرضة لأن تبحث بحثاً قانونياً دقيقاً ، وأضحت في عهد جستنيان خاضعة لنفس القيود التي كانت مفروضة على الوصايا .

وكان الاستحواذ يجيء عن طريق الأيلولة أو الانتقال المترتب على قضية حكمت فيها المحاكم . فأما الأيلولة (mancipatio أو التسليم باليد) فكانت الوسيلة إليها هي الهبة القانونية أو البيع أمام شهود وبوجود كفتي ميزان يوضع فيهما سبيكة نحاسية رمزاً لهذا البيع . فإذا لم تصحبها هذه المراسم القديمة فإن القانون لا يقر أى انتقال للملك . وكانت هناك ملكية وسطى أو إمكانية يعترف بها القانون وتسمى حق وضع اليد على الملك أو استخدامه : فكان الذين يفلحون أراضي الدولة مثلاً من هذا الصنف « الجالسين » لا المالكين ، فإذا ما ظلوا عامين يشغلون هذه الأراضي ولا ينازعهم فيها منازع أصبحوا ملاكاً لها لا شك في ملكيتهم ، وكانت لهم بحق الانتفاع أو بوضع اليد في لغة هذه الأيام . ولعل الحصول على الملك بعد شغله بهذه الوسيلة السهلة اللينة يرجع في أصله إلى عمل الأشراف الذين حصلوا به . (٢٦ - ج ٢ - مجلد ٣)

على الأراضى العامة^(٢٤) . وهذه الطريقة طريقة الملك بالانتفاع أو وضع اليد كانت المرأة التى تعاشر رجلاً عاماً كاملاً لا تغيب عنه فيه ثلاث ليال تصبح ملكاً له .

وكان الإلزام هو ما يفرضه القانون قسراً على شخص ما بأن يقوم بعمل من الأعمال . وكان الشخص يلزم بعمل ما إذا ارتكب جنحة أو تعاقد على القيام بهذا العمل . فأما الجنح ، وهى الذنوب البسيطة التى تضر بالشخص أو بملكه ، فكان يعاقب عليها فى كثير من الأحيان بغرامة تؤدى إلى من وقع عليه الأذى تعويضاً له عما لحقه من الضرر . وأما العقد فكان اتفاقاً ينفذه القانون . ولم يكن يفرض فى هذا التعاقد أن يكون مكتوباً ؛ والحق أن الاتفاق الشفوى الذى كان يتم بالنطق بلفظ « أعد spondeo » أمام أحد الشهود قد ظل حتى القرن الثانى بعد الميلاد يعد أكثر قداسة من أى تعهد مكتوب . ولم تعد كثرة الشهود ولا المراسم الوقورة التى كان لابد منها فى العهود السابقة لإتمام التعاقد القانونى ضرورة فى الوقت الذى نتحدث عنه . ونشطت الأعمال المالية والتجارية حين اعترف القانون بكل اتفاق واضح - وكان هذا التعاقد يتم عادة بأن يسجل الطرفان ما اتفقا عليه فى دفاتر حساباتهما *tabulae* . غير أن القانون كان يحمى الأعمال المالية والتجارية أتم حماية ، فكان يلفت نظر البائع والمشتري كليهما إلى آلاف الخدع التى تنشأ بطبيعتها فى الحياة المتحضرة . من ذلك أن القانون كان يحتم على كل بائع ماشية أو عبيد مثلاً أن يكشف للمشتري عما فى أجسامها أو أجسامهم من عيوب ، وكان يعتبر مسئولاً عن هذه العيوب وإن قال إنه يجهلها^(٢٥) .

وكان الدين يعقد إما سلفة ، أو رهناً ، أو وديعة ، أو أمانة : وكان ما يعقد من قروض للاستهلاك يضمن عادة برهن بعض العقار أو المنقولات . وكان العجز عن أداء الدين يجعل من حق الراهن قانوناً أن يستولى على

الملك المرهون . ولقد رأينا في الفصول السابقة أن هذا العجز في عهد الجمهورية الباكر كان يحيز للدائن أن يتخذ المدين عبداً له (*) . وقد عدل قانون بوتليا Poetelia الذى صدر فى عام ٣٣٦ ق . م هذه القاعدة بأن أجاز للمدين أن يعمل حتى يودى دينه وهو محتفظ بحريته . وفى عهد قيصر كانت الأملاك المرهونة التى يعجز أصحابها عن فك رهنها تباع لأداء ما عليها من الديون من غير أن يضار المدين فى شخصه . غير أن حالات من استرقاق المدينين ظلت تحدث إلى أيام جستنيان . أما العجز عن الأداء فى الأحوال التجارية فقد خفف من آثاره قانون الإفلاس ، الذى كان يحيز بيع أملاك المفلس للوفاء بديونه ، ولكنه يترك له مما يحصل عليه بعدئذ ما يكفى لمعيشته .

وكان أهم الجرائم التى ترتكب على الأملاك هو الإتلاف ، والسرقه ، والنهب — أى السرقه بالإكراه . وكانت قوانين الجداول الاثني عشر تحكم على السارق الذى يضبط بالضرب ، ثم يجعل بعدئذ عبداً لمن سرق منه ؛ فإذا كان السارق عبداً ، ضرب ثم أُلقي به من فوق الصخرة التريية Tarpeian Rock . فلما زاد استقرار الأمن خفف القانون البريتورى هذه العقوبات القاسية بأن فرض عليه أن يرد إلى المسروق منه ضعف ما سرقه أو ثلاثة أضعافه أو أربعة أضعافه (٣٦) ، ولقد كان قانون الملكية فى صورته الأخيرة أكمل جزء من الشريعة الرومانية .

(*) وكان صاحب الملك المرهون من الوجهة القانونية « مرتبطاً » nexus بصاحب المال ؛ ولكن اللفظ الذى كان يستخدم لهذا الارتباط وهو لفظ nexum لفظ غامض كان يستخدم كما يبدو للدلالة على أى ارتباط قانونى أقسم المتعاقدان أن يتقيدا به .

الفصل الخامس

قانون المرافعات

كان الرومان أكثر الشعوب القديمة ميلا إلى التقاضى ، على الرغم مما امتاز به قانون المرافعات عندهم من تعقيد فنى وغوض محير مر بك كان خليقاً بالألا يشجعهم على الالتجاء إلى المحاكم . وما من شك فى أنهم لو شهدوا إجراءنا القضائية لبدت لهم هى الأخرى طويلة مضللة ؛ وكلما رجعنا فى الحضارة إلى الوراء زادت القضايا طولا ؛ ولقد كان فى وسع أى روماني ، كما سبق القول ، أن ينصب نفسه مدعياً فى المحكمة الرومانية ، وكان يطلب إلى المدعى والمدعى عليه والحاكم فى عهد الجمهورية ، حين كان يتولى الإشراف الحكم فيها ، أن يسيروا على نهج معين يسمى *الامراء القانوني* ، إذا حاد أحدهم عنه قيد شعرة بطلت المحاكمة . وفى ذلك يقول جايوس : فإذا قاضى شخص آخر لأنه قطع كرومه ثم أطلق عليها فى قضيته اسم « كروم » خسر القضية ، فقد كان يجب عليه أن يسميها « أشجاراً » لأن اللفظ الوارد فى الجداول الاثنى عشر هو الأشجار لا الكروم بصفة خاصة (٢٧) . وكان كل من طرفى النزاع يودع لدى الحاكم مبلغاً من المال *sacramentum* يضيع على من يخسر القضية ، ويصبح من حق دين الدولة ، وكان من الواجب على المدعى عليه أن يقدم كفالة تضمن بها المحكمة حضوره أمامها فيما بعد . فإذا تم هذا أحال الحاكم النزاع إلى رجل يختاره من ثبت يحتوى أسماء الرجال الذين يصح لهم أن يكونوا قضاة . وكان القاضى فى بعض الأحيان يصدر حكماً تمهيدياً يوجب على أحد الطرفين المتقاضين أو كليهما أن يقوم بعمل من الأعمال أو يمتنع عن القيام به ، وإذا خسر المدعى عليه القضية كان من حق المدعى أن يستولى على أملاكه أو يقبض عليه حتى ينفذ الحكم .

وفي عام ١٥٠ ق . م ألغى قانون إيبوتيا الإجراءات المعقدة القديمة واستبدل بها إجراءات أخرى أقل منها تعقيداً ، فلم يصبح من الضروري اتباع مراسم معينة أو النطق بألفاظ خاصة ؛ وصار من حق المتقاضين أن يشتركوا مع الحاكم في تحديد الشكل الذى يعرض به النزاع على القاضى ، ثم يصدر الحاكم بعدئذ إلى القاضى تعليمات بالحقائق الموضوعية والمسائل القانونية التى يتضمنها النزاع . وكانت هذه لإحدى الوسائل التى وضع بها الحاكم أو الپريتور « القانون الپريتورى » فيما بعد . وجدت فى القرن الثانى بعد الميلاد طريقة ثالثة للحكم فى القضايا غير العادية ، كان للحاكم بمقتضاها أن يفصل بنفسه فى القضية . وقبل أن يختم القرن الثالث اختفت الإجراءات السالفة الذكر عن آخرها وأصبح الحاكم هو الذى يصدر الأحكام بطريقة عاجلة ؛ وكان ذلك الحاكم مسئولاً أمام الإمبراطور وحده مديناً له بمنصبه ، فكان هذا إيداناً بقيام الملكية المطلقة .

وكان فى وسع المتقاضين أن يعرضوا بأنفسهم قضاياهم ثم يصدر الپريتور أو القاضى حكمه فيها دون معونة المحامين إذا شاء المتقاضيان هذا ؛ غير أنه لما كان القاضى فى كثير من الأحيان رجلاً غير مدرب تدريباً مهنياً ولم يدرس القانون دراسة خاصة ، ولما كانت العقوبات الفنية تعترض المتقاضين فى كل خطوة فى القضية ، فإن المتنازعين كانوا يلجئون فى العادة إلى محامين ليترافعوا عنهم *avocati* وإلى إخصائين قانونيين *pragmatici* وإلى مستشارين قانونيين *iurisconsulti* وفقهاء قانونيين *iurisprudentes* . ولم تكن المواهب القانونية تنقص الرومان ، فقد كان كل أب يعز أبناءه يتوق إلى أن يرى ابنه محامياً ، وكان القانون وقتئذ كما هو الآن الطريق الموصل إلى المناصب العامة . فترى أحد الأشخاص فى كتاب لپترونيوس يعطى ابنه طائفة من الكتب ذات الظهور الحمراء « ليتعلم قليلاً من القوانين » لأن « القانون يأقى بالمال » (٢٨) . وكان طالب القانون يبدأ بدراسة المبادئ القانونية على معلم خاص ، ثم يشهد المرحلة الثانية

الاستشارات التي تعرض على أعلام فقهاء القانون ، ويتمرن بعدئذ عند محام يترافع في القضايا . وأنشأ بعض المستشارين القانونيين في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد مدارس stationes في أحياء مختلفة من مدينة رومة يعلمون فيها القانون أو يصدرّون فيها فتاوى قانونية . ويشكو أميانس Ammianus من ارتفاع الأجور التي كان يفرضها هؤلاء الفقهاء ، ويقول إنهم كانوا يتقاضون ثمن تناوبهم نفسه ، ويحلون قتل الأم إذا أدى العميل أجراً كافياً^(٣٩) . وكان هؤلاء المعلمون يسمون « أساتذة القانون » ؛ ويلوح أن لفظ أستاذ professor قد أطلق عليهم لأنه كان يطلب إليهم أن يعلنوا profiteri عزمهم على أن يعلموا وأن يحصلوا بعدئذ من السلطات العامة على ترخيص بممارسة هذا العمل^(٤٠)

وكان لا بد أن يوجد بين المحامين الكثيرين الذين يمارسون مهنتهم عددٌ منهم لا يتورعون عن بيع علمهم لأغراض صغيرة^(٤١) ، وعن قبول الرشا لكي يعرضوا قضايا موكلهم عرضاً ضعيفاً ، وعن البحث عن ثغرات القانون يبررون بها أية جريمة ، وعن إثارة النزاع بين الأغنياء ، وعن إطالة القضايا إلى أطول أجل يمكنهم من سلب أموال المتقاضين^(٤٢) ، وأن يزلزوا المحاكم أو السوق العامة بأسئلتهم الإرهائية وعباراتهم الموحزة البذيئة . ومنهم من اضطروهم التنافس على القضايا إلى العمل على نيل الشهرة بالهرولة في الشوارع وبأيديهم أضاير من الوثائق وبأصابعهم خواتم مستعارة ، ومن خلقهم خدم وأتباع ، ومصفقون مأجورون ليصفقوا لهم وهم يخطبون^(٤٣) . وقد بلغ من كثرة الأساليب التي اخترعت للتخلص من قانون سنسيوس Cincius القديم الخاص بأجور المحامين أن اضطروا كلوديوس أن يجعل الحد القانوني الأعلى لهذه الأجور عشرة آلاف سسترس لكل قضية ، وأن يجعل من حق المتقاضين قانوناً أن يستردوا ما زاد على هذا القدر^(٤٤) . لكن هذا القيد كان يسهل الإفلات منه ؛ فنحن نسمع أن محامياً في أيام فسبازيان جمع ثروة تبلغ ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سسترس (نحو ٣٠,٠٠٠,٠٠٠

ريال أمريكى (٣٦). غير أنه كان يوجد وقتئذ ، كما يوجد في كل عصر من العصور ، محامون وقضاة يضمعون مواهبهم الصافية المنظمة في خدمة الحق والعدالة من غير نظر إلى الأجور ، وكانت شهرة فقهاء القانون العظام الذين لا يعلو اسم على أسمائهم في تاريخ القانون ، تغطي على نقائص أولئك المحامين الأدنياء .

وكانت المحاكم التي تنظر في قضايا المذنبين على درجات تختلف من المحاكم ذات القاضي أو الحاكم الواحد إلى الجمعيات الوطنية ومجلس الشيوخ والإمبراطور . وكان في وسع البريتون أن يختار بطريق القرعة بدل القاضي الواحد محلفين لا حد لعددهم ، ولكنهم يكونون في العادة ٥١ أو ٧١ محلفاً ومن بين الثمانمائة والخمسين اسماً من أسماء طبقة الشيوخ أو الفرسان المدونة في ثبت المحلفين ، وكان من حق المدعى والمدعى عليه أن يقدم ما شاء من الاعتراضات على هذا الاختيار . وكانت محكمتان خاصتان تعقدان بصفة دائمة ، إحداهما محكمة العشرة الرجال decemviri وتنظر في أحوال الأفراد المدنية ، والثانية محكمة المائة centumviri وتنظر في قضايا الملك والميراث . وكانت المرافعات أمام هذين النوعين من المحاكم علنية يباح حضورها للجمهور ، لأننا نرى بلني الأصغر يصف الجمهور الكبير الذي حضر ليستمع إليه وهو يترافع أمام المحكمة الثانية (٣٧) . ويشكو چوثنال (٣٨) وأپوليوس Apuleius (٣٩) من الارتشاء وكثرة التأجيل في هذه المحاكم ، ولكن غضبهما نفسه يوحى بأن ما يشكوان منه كان من العيوب الاستثنائية القليلة

وكانت المحاكمات تمتاز بنصيب من الحرية في القول والفعل قل أن نجد له نظيراً في محاكم هذه الأيام . وكان في وسع عدد من المحامين أن يحضروا مع كل طرف من طرفي النزاع ؛ منهم من تخصص في تحضير البيانات ، ومنهم من تخصص في عرضها على المحكمة . وكان كتبة مختلفون scribea ، actuarii ، notarii يسجلون المرافعات ، كان بعضها يسجل بطريقة الاختزال . ويصف مارتيال

بعض أولئك الكتبة بقوله : « ومهما تكن السرعة التي تقال بها الألفاظ ، فإن أيديهم أسرع منها » (٤١). ويصف أفلوطرخس الطريقة التي كان المختزلون يدونون بها خطب شيشرون ، والتي كانت تضايقه في أكثر الأحيان ؛ وكان الشهود يعاملون حسب السوابق التي خلج عليها طول العهد ثوباً من الوقار ، والتي يصفها كونتليان بعبارته التي لا يعلو عليها وصف آخر فيقول :

« إذا أريد الفحص عن شهادة شاهد فإن أول ما يجب مراعاته هو وصف هذا الشاهد نفسه . ذلك أن الشاهد الجبان يستطيع إرهابه ، والشاهد الأبله يمكن التفوق عليه في الدهاء ، والرجل الغضوب يمكن استثارته ، والرجل المغرور يستطيع تملقه . أما الشاهد الذكي الأريب الرابط الجأش فيجب إبعاده على الفور لأنه خبيث عنيد أو . . . إذا كان في حياته الماضية ما يعاب عليه ، فإن شهادته يستطيع نقضها بما يمكن مجابته به من التهم الفاضحة » (٤٢) .

وكان في وسع المحامي أن يدلي بما يشاء من الحجج ؛ فكان يستطيع أن يطلع المحكمة على ما لديه من صور خاصة بالجريمة المزعومة ، مرسومة على القماش أو الخشب ؛ وكان في مقدوره أن يمسك طفلاً بين يديه وهو يناقش نقطة من النقط ؛ وكان يحق له أن يكشف عما في جسم جندي متهم من تدوب وما في جسم عميله من جروح ؛ وقد ابتدعت الدفوع لمقاومة مفعول هذه الأسلحة ؛ فها هو ذا كونتليان يحدثننا عن حيلة لجأ إليها محام جاء خصمه بأطفال موكله إلى المحكمة ليوضح بهم مرافقته ، فما كان منه إلا أن ألقى بينهم بترد ؛ فزحف الأطفال على أرض المحكمة ، وأفسدوا بذلك على المحامي ختام قضيته (٤٣) . وكان من المستطاع تعذيب العبيد إذا كانوا أحد طرفي الخصومة لانتزاع الشهادة منهم ، ولكن الشهادة المنتزعة بهذه الطريقة لم تكن تقبل ضد مالكيهم . وقد أصدر هدربان مرسوماً يحرم فيها تعذيب العبيد لانتزاع إقرار منهم بجرمتهم ، إلا إذا لم يفلح معهم كل ما عدا ذلك من الوسائل ، على أن يتبع في هذا التعذيب أدق

الإجراءات المرسومة له ، ونبه المحاكم إلى أن الشهادة المنزعة بالتعذيب لا يستطاع الوثوق بها على الإطلاق . على أن التعذيب القانوني ظل رغم هذا من الوسائل التي يلجأ إليها ، واتسع نطاقه في القرن الثالث حتى شمل الأحرار^(٤٤) . وكان المحلفون يعطون أصواتهم بإبداع ألواح ذات علامات خاصة في وعاء ، وكانت أغلبيتهم المطلقة تكفي لإصدار القرار . وكان في وسع من يخسر القضية في كثير من الأحيان أن يستأنف الحكم أمام محكمة أعلى درجة من المحكمة التي أصدرته ، وكان في مقدوره أن يستأنفه أمام الإمبراطور نفسه إذا أمكنته موارده من ذلك .

وكان القانون هو الذي يحدد العقوبات فلم تكن تترك لاختيار القضاة أنفسهم . وكانت هذه العقوبات تختلف باختلاف منزلة المحكوم عليه ، وكان أقسامها ما يوقع على العبيد ، فقد كان في الاستطاعة أن يحكم على العبد بالصلب ، أما المواطن فلم يكن يستطاع صلبه ؛ ولم يكن يستطاع جلد المواطن الروماني ، أو تعذيبه ، أو قتله دون أن يستأنف حكم القتل أمام الإمبراطور ، ويتضح ذلك لكل من يطلع على سيفر أعمال الرسل . وكانت العقوبات تختلف في الجريمة الواحدة باختلاف منزلة المذنب وهل هو من « ذوى الشرف » honestiores أو من « المنحطين » humiliores ؛ كما كانت تختلف في حال الرجل الحر المولد والحرر ، والمفلس وغير المفلس ، والجندي المدنى . ولما كانت قيمة العملة تتغير أسرع من تغير العقوبات المقررة في القانون فقد نشأ عن ذلك التغير السريع بعض الشذوذ والتناقض . من ذلك أن الجداول الاثني عشر كانت تفرض غرامة مقدارها خمسة وعشرون آساً (وكانت في الأصل خمسة وعشرين رطلا من النحاس) على من يضرب رجلاً حراً ، فلما انخفضت قيمة الآس بسبب غلاء الأسعاز إلى ما يعادل $\frac{1}{3}$ من الريال الأمريكى أخذ لوسيوس قراتيوس Lucius Veratius يصفع الأحرار على وجوههم ، ومن ورائه عبد بعد خمسة وعشرين آساً لكل من يتلقى الصفعة^(٤٥) . وكانت بعض الجرائم يعاقب عليها بفرض

« الصمت » على من يرتكبها . وكان يقصد بالصمت فى الغالب منع المحكوم عليه من الحضور فى القضايا بشخصه أو أن ينب عنه من يمثله ؛ وأشد من هذا العقاب أن يفقد المجرم حقوقه المدنية *Capitis deminutio* . وكان فقدان هذه الحقوق يتدرج من فقد الأهلية للميراث ، إلى الطرد من البلاد ، إلى الاسترقاق . وكان الطرد أقصى صورة من صور النفي : فقد كان المطرود يقيد بالأغلال ، ويججز فى مكان حقير ، وتنزع منه كل أملاكه . أما النفي *Exilium* فكان أخف من الطرد ، فقد كان يسمح فيه للمنفى أن يعيش حرّاً فى أى مكان يشاء خارج إيطاليا ؛ ويختلف الطرد والنفي عن الإبعاد ، ذلك أن الإبعاد — كما حدث لأوڤد — لم يكن يتضمن مصادرة المال ، وكل ما فى الأمر أن المبعد كان يرغم على الإقامة فى بلدة معينة ، بعبادة فى العادة عن رومة . وقلما كان يلجأ إلى السجن ليكون عقوبة دائمة ، ولكن كان فى الاستطاعة أن يحكم على الرجال بالاشتغال فى الأعمال العامة ، أو فى المناجم أو المحاجر التى تستغلها الدولة . وكان فى وسع الرجل الحر المحكوم عليه بالإعدام فى عهد الجمهورية أن ينجو من العقاب إذا أخرج من رومة أو من إيطاليا ؛ وازدادت أحكام الإعدام فى عهد الإمبراطورية فى عددها وقسوتها ، فكان أسرى الحرب ، والمحكوم عليهم بالإعدام من غير الأسرى فى بعض الأحيان ، يلقون فى جب تليان ليموتوا من الجوع وفنك الحشرات القارضة والقمل فى السرايب المظلمة وسط الأقدار التى لا يستطيعون إزالتها^(٤٦) . وفى مثل هذه الأماكن مات *چچورتا* وسيمون بن *چيوڤا* *Simon Ben-Giova* البطل الذى دافع عن أورشليم ضد تيتس ، وفى مثلها كما تقول الرواية المتواترة : عذب القديسان بطرس وبولس قبل أن يصلبا ، وكتب آخر رسائلهما إلى العالم المسيحى الناشئ .

الفصل السادس

قانون الأمم

وكانت أعقد المشاكل التي واجهها القانون الروماني أن يكيف نفسه ، وهو قانون الدولة السيدة ذات العقلية الممتازة ، بحيث لا يتعارض مع القوانين السائدة أو العادات المرعية في الأراضي التي أخضعها رومة لسلطانها بقوتها العسكرية أو مهارتها السياسية . وكان عدد كبير من هذه الدول الخاضعة لرومة أقدم منها ، وكان لها من تقاليدها التي تفخر بها ومن أساليبها الخاصة التي تحرص عليها وتعز بها ما يعوضها عما فقدته من قوتها العسكرية . وقد استطاعت رومة أن تتغلب على هذه المشكلة بمهارة فائقة ، فقد عينت في بادئ الأمر بريتورا يخصص بشئون الأجانب praetor peregrinus القاطنين في رومة ثم القاطنين في إيطاليا ، ثم في الأقاليم الخارجية ، وجعل من حقه أن يوفق بين القانون الروماني والقانون المحلي توفيقاً دائماً . ولقد نشأ من القرارات التي يصدرها البريتورون ، وحكام الولايات ، والإيديلون على مر الزمن قانون الأمم الذي كان يطبق على الإمبراطورية بأكملها ، والتي كانت تحكم بمقتضاه .

ولم يكن « قانون الأمم » قانوناً دولياً ، أي أنه لم يكن طائفة من الالتزامات والأحكام ارتضه الدول بوجه عام لتحديد علاقاتها بعضها ببعض . لقد كان في العهد القديم قانون دولي إذا لم تفهم من هذا اللفظ بمعناه في الزمن القديم معنى أدق كثيراً مما نفهمه منه في هذه الأيام . فقد كانت بعض العادات العامة تراعى ويتقيد بها في السلم والحرب — كالحماية المتبادلة للتجار والدبلوماسيين الدوليين ، ووقف القتال لدفن الموتي ، والامتناع عن استخدام السهام المسمومة ، وما إلى هذا . وكان فقهاء القانون الروماني يصفون قانون الأمم هذا *ius gentium* بأنه قانون

عام يشمل الأمم جميعها ، ولحن هذا لم يكن إلا من قبيل التفاخر الوطني الكاذب . على أنهم لم يكونوا يعززون إلى رومة أكبر من نصيبها الحق فيه . . . فقد كان في واقع الأمر قوانين محلية كيفت بحيث تتفق مع السيادة الرومانية ، وكان الغرض منها أن يستطاع بها حكم شعوب إيطاليا والولايات التابعة للدولة الرومانية من غير أن يعطى لأهلها حق المواطنة الرومانية وغيرها من الحقوق المنصوص عليها في القانون المدني .

وبمثل هذه الدعوى الكاذبة حاول الفلاسفة أن يقولوا إن قانون الأمم هو « قانون الطبيعة » . وكان الرواقيون يعرفون قانون الطبيعة بأنه قانون أخلاقي متأصل في الإنسان بفعل « العقل الفطري » . وكانوا يعتقدون أن الطبيعة نظام من نظم العقل ، قوامه المنطق والترتيب المحكم الكامن في الأشياء جميعها . وهذا الترتيب المحكم الذي ينمو في المجتمع من تلقاء نفسه ، ثم يصل إلى مستوى الوعي في الإنسان ، هو القانون الطبيعي ، وقد عبر شيشرون عن هذا الوهم بعبارة ذائعة الصيت فقال :

« إن القانون الصحيح هو العقل الحق المتفق مع الطبيعة ، والذي يدخل في نطاقه العالم بأسره ، والسرمدى الذي لا يتبدل . . . وليس من حقنا أن تقاوم ذلك القانون أو أن نبذله ، وليس في مقدورنا أن نلغيه ، ولا نستطيع أن نتحرر مما يفرضه علينا من التزامات بالتشريع أيا كان ، ولستنا في حاجة إلى أن ننظر في خارج أنفسنا لنبحث عن شرح له أو توضيح . وهذا القانون لا يختلف في رومة عنه في أثينة ، ولا في الحاضر عنه في المستقبل . . . وهو قانون صحيح ثابت عند جميع الأمم وفي جميع الأحقاب . . . ومن عصاه فقد أنكر نفسه وأنكر طبيعته » (١٧) .

ذلك وصف كامل لمثل أعلى أخذ يزداد قوة حين جلست الرواقية على العرش في عهد الأنطونيين . وما زال ألبان يرفع من شأنه حتى بلغ

على يديه ذلك المبدأ الواسع المدى القائل بأن ما بين الطبقات من فروق وميزات أمور عارضة اصطناعية . ولم يكن ثمة إلا خطوة واحدة بين هذا المبدأ وبين الفكرة المسيحية القائلة بأن الناس في حقيقة أمرهم أكفاء . غير أن جايوس حين عرف قانون الأمم بأنه ليس أكثر من « القانون الذى شرعه العقل الفطرى بين البشر جميعاً » كان يعتقد خطأ أن الأسلحة الرومانية هى الإرادة الإلهية ، ذلك أن القانون الرومانى كان هو منطق القوة وهدفها الاقتصادى ؛ ولم تكن القوانين العظمى المدنية والاممية إلا القواعد التى يخضع بها الفاتح الحكيم النظام ، والاطراد ، والقدااسة الزمنية على تلك السيادة القائمة على قوة الفيالق . نعم إن هذه القوانين كانت طبيعية ، بمعنى أنه كان من الطبيعى أن يستخدم الأقوياء الضعفاء وأن يسيئوا استخدامهم .

لكن هذا الصرح المهيب من أداة الحكم التى يطلق عليها اسم القانون الرومانى كان فيه شيء من النبل . وإذا كان لا بد أن يكون الحكام هم الأقوياء فإن من الخير أن تكون القواعد التى يفرض بها سلطانه واضحة صريحة ؛ وبهذا المعنى يكون القانون هو استقرار القوة واستقامتها . ولقد كان من الطبيعى أن ينشئ الرومان أعظم نظام قانونى فى التاريخ كله . ذلك أنهم كانوا يحبون النظام وأنهم كانت لديهم الوسائل التى تمكنهم من فرضه على الناس ، وقد فرضوا على مئات من الأمم المختلفة المشارب والأجناس التى كانت تتخبط فى دياجير الفوضى والاضطراب سلطاناً وسلاماً ، لا ننكر أنهما لم يبلغا حد الكمال ولكنهما كانا فى واقع الأمر جليلي القدر عظيمي الأثر . ولقد كان لغير رومة من الدول التى قامت قبلها قوانين ، ونشأ فيها مشرعون أمثال حمورابى وصولون سنوا طائفة مكتملة من التشريعات الإنسانية الرحيمة ، غير أنه لم يوجد قط شعب غير الرومان أفلح فيما أفلحوا هم فيه من تنسيق الشرائع وتوحيدها وتقنينها ، وهى أعمال كانت الشغل الشاغل لأصحاب العقول الجبارة فى رومة من عهد أبناء اسكاڤولا Scaavola إلى چستينيان .

وقد يسرت مرونة قانون الأمم انتقال القانون الرومانى إلى الدول الأخرى فى العصور الوسطى وفى عصرنا الحاضر . وكان من محاسن الصدف أنه بينما كانت الفوضى التى أعقبت غارات البرابرة تقضى على التراث القانونى فى غربى أوربا كان قانونه جستنيان ، وموجزه ، ونظمه تجميع وتصاغ فى القسطنطينية فى ظل الاستقرار والثبات النسبيين السائدين فى شرقها . وبفضل هذه الجهود ، وعشرات الوسائل الأقل منها شأنًا ، وأساليب الحياة الصامتة الدائمة ، دخل القانون الرومانى فى الشرائع الدينية التى سنتها الكنيسة فى العصور الوسطى ، وكانت هى الوحى الملهم لعقول المفكرين فى عصر النهضة ، وأضحت هى الأساس الذى قامت عليه قوانين إيطاليا ، وأسبانيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وبلاد الحجر ، وبوهيميا ، وبولندة ، بل واسكتلندة ، وكوبك ، وسيلان ، وأفريقية الجنوبية من بلاد الإمبراطورية البريطانية . ولقد استمد القانون الإنجليزى نفسه ، وهو الصرح القانونى الوحيد الذى يضارع التانون الرومانى فى اتساع المدى ، قواعد العدالة ، والقوانين البحرية ، والولاية ، والإرث من القانون الرومانى . وإذا أحصينا أئمن ما ورثناه من العالم القديم قلنا إنه هو العلوم والفلسفة اليونانية ، والمسيحية اليهودية اليونانية . والديموقراطية اليونانية الرومانية ، والقانون الرومانى .

الباب التاسع عشر

الملوك الفلاسفة

٩٦ م - ١٨٠

الفصل الأول

نيرفا

اختفى من تاريخ الملكية الرومانية مبدأ وراثته العرش بعد اغتيال دوميتيان قرناً من الزمان : ذلك أن مجلس الشيوخ لم يعترف قط بأن الوراثة وسيلة لارتقاء العرش ، والآن بعد ١٢٣ سنة من خضوعه لهذا المبدأ ، عاد فأثبت سلطانه ، ورشح عضواً من أعضائه ليكون زعيماً وإمبراطوراً . كما كان يختار ملوك رومة بداية عهدها . وكان هذا عملاً جريئاً ينطق بالشجاعة ولا يستطيع فهمه إلا إذا ذكرنا أن حيوية الأسرة الفلاقية قد نضب معينها ، في نفس الجيل الذي شهد تجدد حيوية مجلس الشيوخ بما طعم به من دم إيطالي وإقليمي .

وكان ماركس ككسيوس نيرفا في السادسة والستين من عمره حين فوجئ بدعوته إلى هذا المركز السامي . ويظهره تمثاله الضخم المحفوظ في متحف الفاتيكان رجلاً ذا وجه وسم تتجلى فيه صفات الرجولة الكاملة ، ويتميز على من يشاهده أن يعتقد أن صاحبه كان من أئمة فقهاء القانون المبجلين ، وأنه كان رجلاً محموداً ، وشاعراً رقيقاً ظريفاً ، حياه مواطنوه في وقت من الأوقات ولقبوه « نيبلس زماننا » (١) . ولعل مجلس الشيوخ قد اختاره لشيبته وبعده عن الأذى ؛ وكان يستشر هذا المجلس

فى جميع خططه السياسية ، وحافظ على العهد الذى قطعه على نفسه بالآ يكون
قط سبباً فى موت أى عضو من أعضائه . وقد أعاد إلى البلاد من نفاهم
منها دومتيان ورد إليهم أملاكهم ، وخفف من رغبتهم فى الانتقام من
أعدائهم ، ووزع على الفقراء ما قيمته ٦٠.٠٠٠.٠٠٠ سسترس من
الأراضى الزراعية ، وأنشأ *الوطننا* — وهى رصيد من مال الدولة — ليشجع
بها تناسل الفلاحين ويمدهم بما يحتاجونه من المال . وألغى عدداً كبيراً من
الضرائب وخفف ضريبة التركات ، وأعفى اليهود من الجزية التى فرضها
عليهم قسپازيان ودعم فى الوقت نفسه مالية الدولة بمراعاة الاقتصاد فى بيته
وحكومته . وكان يعتقد بحق أنه كان يراعى العدل فى معاملته جميع الطبقات ؛
ومن أقواله فى هذا المعنى : « لآنى لم أفعل شيئاً يحول بينى وبين إلقاء
منصبى الإمبراطورى عن كاهلى وعودتى آمناً مطمئناً إلى الحياة الخاصة » (٢).
ولكن حدث بعد عام من توليته أن حاصر الحرس الپريتورى قصره ،
وطالبه بتسليم قتلة دومتيان ، وقتل عدداً من مستشارى نيزقا . وكان هذا
الحرس قد فوجئ باختياره لمنصبه ، واستاء من سياسة الاقتصاد التى كان
يسير عليها . ومد نيزقا عنقه لسيوف الجند ولكنهم أبقوا عليه . وآله هذا
الإذلال فأراد أن ينزل عن العرش ، ولكن أصدقاءه أنفوه أن يقتدى
بأغسطس فيتبنى رجلاً يرضى عنه مجلس الشيوخ ، ويخلفه على العرش ، ويكون
فى مقبوره أن يحكم الإمبراطورية وأن يحكم الحرس أيضاً . وأعظم ما تدبى به
رومة لنيزقا أنه أختار ماركس ألبوس ترايانس *Marcus Ulpius Trajanus*
خلفاً له . وتوفى بعد ذلك بثلاثة أشهر فى عام ٩٨ بعد حكم دام ستة عشر شهراً .

وكان معنى مبدل التبنى الذى عاد سيرته الأولى بهذه الطريقة الغير المنتظرة
أن يشرك كل إمبراطور من الأباطرة ، حين يحس بالضعف يدب فى
قواه ، معه فى الحكم أقدر من يستطيع أن يجده من الرجال ، وأكثرهم

جدارة بهذا المنصب الخطير ، حتى إذا وافاه الأجل لم تتعرض البلاد إلى أن يجلس على عرشها رجل يرفعه الحرس الپريتوري وإلى ما فى هذا من سحق ، أو يرث هذا العرش وارث طبيعى ولكنه غير جدير به ، أو أن تتعرض إلى حرب أهلية بين المتنافسين على العرش . وكان من المصادفات الطيبة أن تراجان ، وهديران ، وأنطونينس پیوس لم يكن لهم أبناء ، وإن كان فى متدور كل واحد منهم أن يعمد إلى مبدل التبنى من غير أن يخط من شأن أبناء له أو يكشف عن نقص فى الحب الأبوى . ولقد كسبت رومة من هذا المبدل ، طوال المدة التى طبق فيها ، طائفة من الأباطرة العظام خلف بعضهم بعضا على العرش ، وكانوا خير من شهدته العالم من الحكام وأجلهم شأنًا .

الفصل الثاني

تراجان

تلقى تراجان نبأ جلوسه على العرش وهو يتولى قيادة جيش روماني في كولوني Cologne ؛ فلما أن تلقاه واصل عمله عند الحدود وأجل عودته إلى رومة ما يقرب من عامين . وكان مولد تراجان في أسبانيا من أسرة إيطالية استوطنت تلك البلاد من زمن بعيد ، وقد وصلت أسبانيا الرومانية على يديه وعلى يد هديران إلى الزعامة السياسية ، كما ارتفعت على يد سنكا ، ولوكان ، ومارتيال إلى الزعامة الأدبية . وكان هو بداية سلسلة طويلة من القواد يبدو أن مولدهم وتدريبهم في الأقاليم أكسبهم قوة الإرادة التي فقدتها العنصر الروماني الأصيل . ولم تحتاج رومة على ارتقاء رجل من رجال الأقاليم عرش الإمبراطورية ، وكان عدم احتجاجها هذا في حد ذاته حادثاً خطيراً ومؤذناً بتطور جديد في التاريخ الروماني .

وظل تراجان قائداً حتى بعد جلوسه على العرش . فقد كان ذاقامة عسكرية ، وكان مظهره مظهر السادة المؤمنين ، وكانت ملامحه قوية وإن لم تكن بادية متميزة . كان طويل القامة ، ممتلئ الجسم ، وكان من عادته أن يسير مع جنوده على قدميه ، وأن يخوض بعناده الحربى الكامل ما يضطرون إلى عبوره من مئات الأنهار ؛ وكان رجلاً شجاعاً يصبر على الألم ولا يفرق بين الحياة والموت . ولما قيل له إن لوسنيوس سورا كان يأتمر به ، ذهب إلى منزل سورا ، وأكل من كل ما قدم إليه دون أن ينفحص عما يأكل ، وحلق له حلاق سورا^(١) . ولم يكن تراجان فيلسوفاً بأى معنى فنى من معانى هذا اللفظ . وكان من عادته أن يصحب معه في عربته ديو كريستوم Dio Chrysostom الخطيب « صاحب الفم الذهبى » ليتحدث إليه في الفلسفة ، ولكنه يعترف بأنه لم يكن يفهم كلمة واحدة.

ما يقوله ديود^(٥) — وبذلك خسرت الفلسفة الشيء الكثير : وكان صافي الذهن صريحاً ليس فيه التواء ، وكان ما نطق به من الهراء قليلاً إلى أبعد حد ؛ وكان فيه ما في سائر البشر من اغترار بالنفس ، ولكنه كان مبرأ من العجرفة والادعاء ولم يكن يتخذ منصبه السامى وسيلة للتعاظم على الناس أو أداة ينفع بها نفسه ، فكان يجلس مع أصدقائه على الطعام ويصحبهم في الصيد ، ويشرب معهم بكثرة ، ويرتكب ما يرتكبونه من لواط في بعض الأحيان ، كأنه يريد بذلك ألا يخالف عادات زمانه ، وترى رومة من مفاخره التي يستحق عليها الثناء أنه لم يسيئ قط إلى زوجته بلوتينا بأن يعشق امرأة أخرى .

ولما وصل تراجان إلى رومة وهو في الثانية والأربعين من عمره كان قد بلغ من النضوج العقلي غايته ، وسرعان ما اكتسب ببساطته ودماثة أخلاقه ، واعداله ، قلوب الشعب الذي جرب الاستبداد من عهد قريب . واختار مجلس الشيوخ بلني الأصغر ليرحب به . والتي ديوكريستوم أمام الإمبراطور في الوقت نفسه خطبة فيما يجب على الملوك في نظر الفلسفة الرواقية . ولكن بلني وديو فرقاً بين السيادة والزعامة فقالا إن الزعيم يجب ألا يكون سيد الدولة ، بل خادمها الأول ، ومندوب الشعب لتنفيذ إرادته ، ينتخبه عن طريق ممثليه أعضاء مجلس الشيوخ . « ومن أراد أن يؤمر على الناس جميعاً ، وجب أن يختاروه جميعاً »^(٦) واستمع الناس إلى أقوالها ورحبوا بها .

ولم تكن هذه البدايات الطيبة جديدة في التاريخ ، ولكن الذي أدهش رومة أن تراجان أوفى بهذا الوعد إلى حد بعيد ، فأعطى أعوانه ورفاقه القصور الريفية متى كان أسلافه يقيمون فيها أسابيع قليلة في كل عام ، ويقول بلني « إنه لم يكن يرى أن شيئاً ما ملك له إلا إذا كان أيضاً ملكاً لأصدقائه »^(٧) . وكان هو نفسه بسيطاً في معيشته بساطة فسبازيان ، فكان يسأل الشيوخ رأيهم في كل المسائل ذات البال ، وقد تبين أن في وسعه أن يكون ذا سلطة مطلقة إذا لم يستخدم ألفاظ

ذوى السلطة المطلقة . وكان مجلس الشيوخ يرضى أن يترك له مقاليد الحكم إذا راعى الشكليات التى تحفظ له مكانته وهيئته ؛ وكان هذا المجلس ، كما كانت رومة كلها ، يحب فى ذلك الوقت الأمن والطمأنينة حبا لا يستطيع معه أن يحفظ بحريته . ولعله كان يسره أيضاً أن يرى تراجع رجلا محافظاً لا ينوى أن يشتري رضا الفقراء بمال الأغنياء .

وكان تراجع إداريا قدبراً لا يمل من العمل ، حسن التدبير لشئون المال ، وقاضياً عادلاً . وبغزو إليه صومخر جسنينان المبدأ القائل « إن فرار المجرم من العقاب أفضل من عقاب البريء »^(٨) . وقد استطاع بالإشراف الدقيق على مصروفات الدولة (وبعض الفتوح التى عادت عليها بالربح) أن يتم كثيراً من المنشآت العامة من غير أن يزيد أعباء الضرائب ، بل إنه فعل عكس هذا فخفض الضرائب ، ونشر على الشعب اعتمادات الميزانية ليعرف إيرادات الحكومة ونفقاتها ، فيبحثها وينقدها . وكان يطلب إلى الشيوخ الذين يستمتعون بصحبته أن يكون إخلاصهم فى أعمالهم الإدارية مائلاً لإخلاصه أو قريباً كل القرب منه . واشترك الأشراف فى مناصب الدولة وعملوا فيها بجد ، ولم يكتفوا بأن يقضوا أوقاتهم فى اللهو واللعب . وإن ما بقى لدينا من الرسائل المتبادلة بينهم وبين تراجع ليوحى بأنهم كانوا يعملون بجد وعناية تحت قيادته الرقابة الملهمة . وكانت مدن كثيرة فى بلاد الشرق قد أساءت التصرف فى أموالها حتى أشرفت على الإفلاس ، فأرسل لها تراجع حراساً أمناء أمثال بلنى الأصغر ليساعدوها على إصلاح أمرها . وأضعف هذا العمل استقلال البلديات وقلل من شأن أنظمتها ، ولكنه عمل لم يكن منه بد ، فقد قضى الحكم الدائى على نفسه بإسرافه وعجزه .

وكان تراجع قد نشأ فى مهاد الحرب ، فكان لذلك استعماريا صريحاً يفضل النظام على الحرية ، والقوة على السلم . ولم يكدهمضى على قدومه إلى رومة عام

واحد حتى خرج لفتح داشيا . وكانت داشيا في ذلك الوقت تنطبق حدودها بوجه عام على حدود رومانيا الحاضرة ، وكانت تمتد كقبضة اليد في قلب ألمانيا ، فكانت إذا استولى عليها تصبح عظمة النفع من الواجهة العسكرية في الكفاح الذي كان تراچان يتوقع قيامه بين الألمان وإيطاليا . يضاف إلى هذا أن ضمها إلى الدولة الرومانية يمكنها من الإشراف على الطريق الذي يسير على ضفتي نهر الساف إلى ملتقاه بنهر الدانوب ومن ثم إلى بيزنطة — وهو طريق برى نحو الشرق لا يمكن تقدير قيمته ، دع عنك ما في داشيا من مناجم الذهب . وأعد تراچان لفتحها حملة عسكرية رسم خطتها بمهارة فائقة ونفذها بأكبر سرعة ، فقاد فيالقه ، وتغلب على كل ما اعترضه من الصعاب والمقاومة ، حتى وصل إلى سرمزجتوسا Sarmizegetusa عاصمة تلك البلاد وأرغمها على الاستسلام . وقد ترك لنا مثال روماني صورة رائعة لدسبالس Decebalus ملك داشيا — ينم وجهه فيها عن قوة الجسم ومتانة الخلق . وثبته تراچان على عرشه ، وجعله قيلا من أقباله ، ثم عاد إلى رومة (١٠٢) ؛ ولكن دسبالس لم يلبث أن نقض عهده واستعاد استقلاله ؛ فسير تراچان جيشه إلى داشيا (١٠٥) ، وعبر الدانوب على جسر كان من أعجب المنشآت الهندسية في ذلك القرن ، وهاجم عاصمة داشيا مرة أخرى واستولى عليها عنوة ، وقتل دسبالس . وأقيمت حامية عسكرية قوية في سرمزجتوسا ، وعاد تراچان إلى رومة ليحتفل بنصره بعشرة آلاف من المجالدين (أكبر الظن أنهم من أسرى الحرب) احتفالا دام ١٢٣ يوماً أقيمت فيها ألعاب عامة . وأصبحت داشيا بعد هذا الفتح ولاية رومانية ، وجاءها مستعمرون من الرومان ، تزوجوا من نساها ، وأفسدت اللغة اللاتينية على طريققتها الخاصة . ووضعت مناجم الذهب في ترنسلفانيا تحت إشراف رقيب من قبل الإمبراطور ، استطاع أن يسترد منها في وقت قصير ما أنفقه في الحرب من أموال . وأراد تراچان أن يكافئ نفسه على جهوده فأخذ من داشيا مليون رطل من الفضة ونصف مليون

من الذهب - وكانت هذه آخر الغنائم القيمة التي استولت عليها الفيالق الرومانية لتعديها للرومان مهاد الراحة والحمول .

وبفضل هذه الغنائم وزع الإمبراطور ٦٥٠ ديناراً (نحو ٢٦٠ ريالاً أمريكياً) على كل مواطن تقدم بطلب هذه المنحة - وأكبر الظن أن عدد من طلبوها بلغ حوالى ٣٠٠,٠٠٠ - وبقي منها ما يكفي لعلاج مشكلة التعطل الناشئة عن تسريح الجنود بالإقدام على منهاج من المنشآت العامة ، والمساعدات الحكومية ، وتزوين إيطاليا بالمباني الفخمة ، لم تر له البلاد نظيراً من أيام أغسطس . وأصلح تراجان قنوات مياه الشرب القديمة وأنشأ قناة جديدة لا تزال تؤدى عملها إلى هذا اليوم ، وأقام في أستيا مرفأً واسعاً تصله عدة قنوات بنهر التير وبمرفأ كلوديوس القديم ، وزينه بالمخازن التي كانت نماذج في الجمال كما كانت نماذج في النفع . وأصلح مهندسوه الطرق القديمة ، وشقوا طريقاً جديداً في وسط المناقع البنية ، ووضعوا مشروع طريق تريانا Traiana من بنقنتم إلى برندزيوم . وأعادوا فتح نفق كاوديوس الذي جففت به بحيرة فوستس ، وأنشأوا مرفأين عند سنتمسلا Centumcellae وأنكونا Ancona ، وطريقاً لجر مياه الشرب إلى رافنا ، ومدرجا في قرونا Verona . وأدى تراجان النفقات التي تطلبها إنشاء الطرق ، والجسور ، والمباني الجديدة في كافة أنحاء الإمبراطورية ، ولكنه كان يقاوم تنافس المدن في إقامة المباني ، ويحثها أن تنفق ما لديها من الأموال الزائدة على حاجتها في إصلاح أحوال الفقراء وبيئتهم . وكان مستعداً على الدوام لمديد المعونة إلى أية مدينة نكبتها الزلازل ، أو النيران أو العواصف . وحاول أن يعمل على تقدم الزراعة في إيطاليا بأن طلب إلى أعضاء مجلس الشيوخ أن يستثمروا ثلث رؤوس أموالهم في الأراضي الإيطالية . ولما رأى أن هذا العمل سيزيد من عدد الضياع الكبيرة ، شجع صغار الملاك بأن قدم لهم أموالاً من قبل الدولة بفوائد قليلة ، ليشتروا بها بيوتاً وأراضى زراعية ويصلحوها^(٩) . وعمل على رفع نسبة المواليد

بزيادة مال الأئمتنا Alimenta أى المال المخصص للإطعام . وتفصيل هذا أن الدولة كانت تقدم قروضا عقارية بسعر ٥ ٪ (وهو نصف السعر العادى وقتئذ) للزراع الإيطاليين ، وأجازت للجان الصدقات المحلية أن توزع ما يتجمع من فوائد هذه القروض على الفقراء من الآباء بمعدل ستة عشر سسترسا (١٦ ريال أمريكى) كل شهر لكل ولد ذكر ، وأثنى عشر سسترسا لكل بنت . وقد يبدو هذا المبلغ صغيراً ، ولكن الشواهد الباقية من ذلك العصر تدل على أن مبلغاً يتراوح بين ١٦ سسترسا وعشرين كان يكفى لرعاية طفل مدة شهر فى ضيعة من ضياع إيطاليا أثناء القرن الأول (١) . وقد بعثه هذا الأمل نفسه لأن يحيز لأطفال رومة أن يحصلوا على إعانات من القمح زيادة على ما يحصل عليه أبائهم منه . وقد وسع هدریان والأنطونيون نطاق نظام الإطعام هذا حتى شمل عدة أجزاء من الإمبراطورية ، يكمله الإحسان القروى . ومن أمثلة هذا النوع الأخير ما أخرجه پلنى من ماله لهذا الغرض إذ تبرع من ماله للأئمتنا بثلاثين ألف سسترس لتوزع على أطفال كوم Comum ، وأوصى كيليا مكرينا Caelia Macrina بمليون سسترس لمثل هذا الغرض لتنفق على أطفال تراسينا Terracina فى أسبانيا .

وكان تراجان ، مثل أغسطس ، يفضل إيطاليا على الولايات ، ويفضل رومة على إيطاليا نفسها . وقد انتفع إلى أقصى حد بعميرية أبلودورس ومهارته فى العبارة . وكان أبلودورس هذا يونانيا من أهل دمشق خطط الطرق وقنوات مياه الشرب الجديدة وجسر نهر الدانوب . ثم كلفة الإمبراطور وقتئذ بأن يزيل طائفة كبيرة من البيوت ، ويقطع مائة وثلاثين قدما من قاعدة التل الكويرينالى Quirinal ، وينشئ فى الفضاء الناشئ من إزالتها والفضاء المجاور لها سوقا جديدة تعادل مساحتها مساحة الأسواق السابقة كلها مجتمعة ، ويحيط هذه السوق بمبانى فخمة جديدة بعاصمة العالم التى باغت فى عهده أوج سلطانها وثرائها . وكان المدخل الموصل إلى هذه السوق الجديدة هو قوس نصر تراجان . وكانت مساحتها ٣٧٠

قدما ٣٥٤ ؛ وكانت مرصوفة بالحجارة الملساء ومحوطة بسور عال ، وأمامها صف من العمد ، وكان سورها الشرق والغرب تتخللهما كوات نصف دائرية غير نافذة مكونة من عمد دورية . وقامت في وسطها بإسلافا ألبيا التي سميت باسم عشيرة تراجان والتي كان الغرض منها أن تكون مكاتب للأعمال التجارية والمالية ، وكانت مزينة من الخارج بخمسين عموداً ، نحت كل منها من حجر واحد ؛ وكانت أرضها من الرخام ، وتحيط بصحنها الرحب عمد من الحجر الأعل ، وسقفها القائم على كتل ضخمة منطى بالبرنز . وأنشئت بالقرب من الطرف الشمالى للسوق الجديدة مكتبتان إحداهما للمؤلفات اللاتينية ، والأخرى للمؤلفات اليونانية . وقام بينهما عمود تراجان وخلفهما هيكله . وكانت السوق بعد أن تمت من عجائب العمارة في العالم كله .

وكان العمود الذى لا يزال قائماً إلى اليوم في بداية أمره شاهداً على البراعة في نقل الحجارة . وكانت حجارته منحوتة من ثمان عشرة كتلة مكعبة من الرخام زنة كل منها خمسين طناً ، وقد حملت هذه الكتل على ظهور السفن من جزيرة پاروس ، ثم نقلت على مواعين عند آستيا Aestia ، ثم جرت مصعدة في النهر ضد التيار ، ثم حملت على اسطوانات إلى ضفة النهر وفي الشوارع إلى المكان الذى أقيم فيه العمود . وقطعت المكعبات بعد نقلها إلى اثنين وثلاثين كتلة ، شيدت قاعدة العمود من ثمان منها ، وزينت ثلاثة من أوجه هذه القاعدة بتماثيل منحوتة ، أما الوجه الرابع فكان يوصل إلى سلم مكون من ١٨٥ درجة رخامية ، وأما جذع العمود ، وكان طول قطره من أسفل اثنى عشرة قدماً ، وارتفاعه سبعة وتسعين ، فيتكون من إحدى وعشرين كتلة حجرية ، وفي أعلاه تمثال لتراجان يمسك بيده كرة أرضية . وقد زينت الكتل قبل تثبيتها في مواضعها بنقوش بارزة تمثل حروب تراجان في داشيا . وكانت هذه النقوش أعلى ما وصلت إليه الواقعية الفلائية وفن النحت القديم التاريخي . ولم تكن تهدف

إلى الجمال المادئ أو إلى أنماط فن النحت اليوناني التي كانت عند اليونان مثلاً علياً يحتذيها المثاليون ، بل كانت تهدف إلى أن تنقل للناظر إليها صورة واضحة للأفراد الأحياء وسط مناظر الحرب وضوضائها . فكانت والحالة هذه هي بلزاك Balzac وزولا Zola بعد كورني Corneille وراسين . وفي وسعنا أن نتتبع في الآتي صورة المنقوشة على المائة والأربع والعشرين لوحة لولبية فتوح داشيا خطوة خطوة ، فنرى الكتائب الرومانية خارجة من ثكناتها المسلحة أكمل تسليح ، ونشاهدها تعبر نهر الدانوب على جسر عاتم ، ونبصرها تقيم معسكراً في أرض العدو ، ثم نرى المعركة التي اختلطت فيها الحراب والسهام والمناجل والحجارة ، وفيها قرية داشية تشتعل فيها النار ، ونساوؤها وأطفالها يطلبون إلى تراجان أن يرحمهم ، ونرى نساء داشيات يعذبن أسرى الرومان ، وجنوداً يعرضن على الإمبراطور رؤوس من قتلوهن من الأعداء ، وجراحين يضمهدون الجروح ، ونرى الأمراء الداشيين يشربون كوؤوس السم واحداً بعد واحد . وهاهو ذا رأس دسبالس يوفى به إلى تراجان ضمن غنائم الحرب ، وهاهو ذا صف طويل من الأسرى ، من رجال ونساء وأطفال ، قد انتزعوا من بيوتهم ليكونوا عبيداً للرومان في أرض القرية - كل هذا وكثير غيره يحدثنا به العمود القاتم اللون منقوشاً أحسن نقش ومثلاً لأروع قصة في تاريخ النحت في العالم كله . ولم يكن الفنانون الذين قاموا بهذا العمل ، ولم يكن من استخدموهم للقيام به ، مدفوعين إليه بنعرة وطنية عارمة ؛ فهم قد مثلوا ما أظهره تراجان من ضروب الرحمة والرفقة ، ولكنهم كشفوا كذلك عن أعمال البطولة التي قامت بها أمة تجاهد في سبيل حريتها ؛ وأجمل صورة في النقش كله هي صورة ملك داشيا . وتلك بلا شك وثيقة عجيبة مزدحة إلى حد يقلل من قوة تأثيرها . وبعض ما فيها من الصور فجأة خشنة بدرجة يظن الإنسان معها أن محارباً داشياً هو الذي نحتها ، ونرى فن المنظور يستبدل به وضع الصور بعضها فوق بعض ، وقد رسم المنظركله كان الإنسان يشاهده كما يشاهد نقش فدياس ،

من ركن بعيد مخبوء على الأرض . ولكنه رغم هذه العيوب خروج طريف على لطاراز المقرر الذى لم يستطع لوداعته وهدوئه أن يعبر عما فى الخلق الرومانى من جرد غامر ونشاط فياض . « وطريقة الاستمرار » التى جرى عليها — أى تدخل كل منظر فى الذى يليه وفناؤه فيه — لتخرج إلى حيز الوجود ما يوحى به قوس تيتس وتمهد السبيل إلى النقوش البارزة فى العصور الوسطى . وقد قلد المثالثون هذه القصة ، رغم ما فيها من عيوب ، المرة بعد المرة من عمود أورليوس فى رومة وعمود أركديوس فى القسطنطينية إلى العمود التابليوفى فى البلاس قنديه Place Vendée فى باريس .

واختتم تراچان منهاجه البنائى بأن أكمل بناء الحمامات التى بدأها دوميتيان وحرص على أن يجعلها حمامات عظيمة فخمة . وكان فى هذه الأثناء قد مل السلم بعد أن دامت ست سنوات ؛ ذلك أن العمل الإدارى لم يكن يوقظ ما يمكن فيه من نشاط كما توقظه الحرب ، ولم يكن يحس وهو فى قصره أنه حى ، وقال فى نفسه لم لا أبدأ فى تنفيذ خطط قيصر من حيث أخفق أنطونيوس ، فأسوى المسألة الباريتية تسوية نهائية ، وأجعل للدولة — الرومانية — حدوداً أكثر مناعة وصلاحيات من جهة الشرق ، وأسيطر على الطرق التجارية التى تخرق أرمينية وبارثيا إلى أواسط آسية والخليج الفارسى وبلاد الهند ؟

وبعد أن أتم استعداداه بدأ يزحف مرة أخرى على رأس فيالقه (١١٣) . فاستولى على أرمينية بعد عام واحد من بداية زحفه ؛ ولم يمض عام آخر حتى كان قد اخترق بلاد النهرين ؛ ووصل إلى المحيط الهندى — فكان أول من وقف أمام ذلك البحر من القواد الرومان وآخرهم . وكان الرومان فى ديارهم يتعلمون الجغرافية بتتبع انتصاراته ؛ وكان يسر مجلس الشيوخ أن يسمع فى كل أسبوع تقريباً أن أمة أخرى قد غلبت أو أنها تعجل بالاستسلام : البسپور Bosphorus ، والكلشى ، وأيبيريا الآسيوية ؛ وألبانيا الآسيوية ، وأسرهوبنى Osrhoene ومسينيا ، وميديا ، وأشور ، وبلاد العرب الشمالية ، وبارثيا نفسها

فى آخر الأمر . وقد جعل پارثيا ، وأرمينية ، وأشور ، وبلاد النهرين ولايات ، وكان من مفاخر هذا الإسكندر الحديد أن اختار لكل بلد من هذه البلاد التى كانت قديماً من أعداء رومة ، ملكاً خاضعاً لسلطانه وأجلسه على عرشه . ووقف تراچان على شواطئ البحر الأحمر وقال إنه يؤسف أشد الأسف أن شيخوخته تحول بينه وبين مواصلة الزحف إلى نهر السند كما فعل القائد المقدونى العظيم ، واكتفى بأن أنشأ فى البحر الأحمر أسطولا يسيطر به على طريق الهند وعلى تجارتها ، ووضع حاميات فى جميع النقاط ذات الأهمية الحربية وعاد وهو كاره إلى رومة .

لكن تراچان كان قد عدا طوره فذهب كما ذهب أنطونيوس إلى أبعد مما يجب وبأسرع مما يجب ، وأهمل تنظيم فتوحه وخطوط اتصاله . فلما وصل إلى أنطاكية علم أن أسروس Asroes ملك پارثيا الذى خلعه قد حشد جيشاً جديداً استعداد به ما بين النهرين ، وأن نار الفتنة اشتعلت . فى جميع الولايات الجديدة ، وأن يهود الجزيرة ، ومصر ، وقوريني قد خرجوا عليه وأشعلوا نار الثورة فى البلاد ، وأن الاستياء قد عم بلاد لوبيا ، ومورتانيا ، وبريطانيا . وأراد المحارب الشيخ أن ينزل إلى ميدان القتال مرة أخرى ، ولكن قوته الجسمية لم تسعفه . ذلك أنه أنهك جسمه بأن عاش فى الشرق الحار بنشاط الغرب البارد ، فأصيب بداء الاستسقاء ، وعدت عليه ضربة شلل جعلت لإرادته القوية لا حول لها ولا طول فى جسمه المهدم . ومن أجل ذلك عهد وهو مكتئب حزين إلى لوسيو كويتس Lucius Quietus أن يقلم أظفار الفتنة الناشئة فى أرض الجزيرة ، وأرسل مارسوس تربا Marcius Turba لإخضاع اليهود فى أفريقية ؛ وولى هذريان ابن أخيه قيادة الجيش

الرومانى الرئيسى فى سوريا . ثم أمر أن يحمل هو إلى ساحل قليقية Cilicia ، على أمل أن يبحر منها إلى رومة حيث كان مجلس الشيوخ يعد له أعظم احتفال بالنصر أقيم لقائد من القواد من عهد أغسطس . ولكن منيته وافته فى الطريق عند سلينس Selinus (١١٧) ، وهو فى الرابعة والستين من عمره ، بعد أن حكم تسعة عشر عاما . وحمل رماده إلى عاصمة ملكه ، حيث دفن تحت العمود العظيم الذى اختير ليكون له قبرا .

الفصل الثالث

هدريان

١ - الحاكم

لعلنا لن نعرف قط هل جلس هدریان أروع شخصية في الأباطرة الرومان على عرش الإمبراطورية بأساليب العشق والغرام ، أو لوثوق تراچان بكفائته وعظيم قدرته . فأما ديوكاسيوس فيقول إن « سبب تعيينه أنه لما مات تراچان ولم يكن له وارث ، عملت أرملته بروتينا ، وكانت تحب هدریان ، على أن يخلفه على العرش » (١٢) . ويعيد اسپارتیانوس Spartianus هذه القصة ، ولكن بروتينا وهدريان يكذبان هذه الشائعة ، غير أنها رغم تكذيبهما إياها ظلت تلوكها الألسن طوال حكمه ، وقد فصل هو في الأمر بأن وزع هبات سخية على جنوده .

ويقول بيليوس إيلیوس هدریانوس إن اسمه واسم أسرته مشتقان من مدينة أدريا الواقعة على البحر الأدريائی ، وتقول سيرته التي كتبها بنفسه إن أسلافه هاجروا من هذه المدينة إلى أسبانيا . وشهدت مدينة إيتالكا Italica الأسبانية التي ولد فيها تراچان في عام ٥٢ مولد ابن أخيه هدریان في عام ٧٦ . ولما مات والد الغلام في عام ٨٦ كفله عمه تراچان وكيلبوس أنیانس Caelius Attianus . وتولى ثانيهما تعليمه وغرس فيه حباً شديداً للأدب اليوناني جعل الناس يلقبونه به من قبيل الفكاهة غريقولس Graeculus . ودرس أيضا الغناء ، والموسيقى ، والطب ، والعلوم الرياضية ، والتصوير ، والنحت ، ثم مارس فيما بعد عدة فنون أخرى . واستدعاه تراچان إلى رومة (٩١) وزوجه بابنة أخيه (١٠٠) ثيڤيا سينا . وكانت هذه الفتاة ، كما تدل عليها صور تماثيلها النصفية ، إن لم تكن

(٢٨ - ج ٢ ، مجلد ٣)

هذه التماثيل قد صورتها كأنها مثل أعلى للفتيات ، نقول كانت هذه الفتاة ذات جمال بارع تحس به هي وتفخر به ، ولكن هديران لم يجد في هذا الجمال سعادة ياقية.. ولعل سبب شقائه أنه كان مولعا بالكلاب والحياد فوق الحد الواجب ، وأنه كان يقضى في الصيد مع هذه الكلاب والحياد وفي بناء القبور لها حين تموت أكثر مما يجب أن يقضيه من الوقت في هذين العاملين ، أو لعله كان زوجا غير أمين أو بدا أنه كذلك . ومهما يكن من شيء فلإنها لم تلد له أبناء ، وعاشا طوال حياتهما متنافرين متباعدين وإن كانت قد رافقته في كثير من أسفاره ، وكان يظهر لها كل أنواع الرقة والمحاملة ، ووهبها كل خير ما عدا الحب . ولما أن نطق سوتونيوس Seutonius أحد أمناء سره بما لا يليق عنها فصله من منصبه .

وكان أول قرار أصدره هديران بعد ارتقائه عرش الإمبراطورية أن نقض سياسة عمه الإمبراطورية . وكان قد نصح تراچان بعدم المضي حملته في پارثيا ، لأنها تكلفه الكثير من المال والرجال ، ولأنها تجيء في أعقاب حروب داشيا ، وأنها في أحسن الظروف تبشر بمكاسب يصعب الاحتفاظ بها ، ولم يغفر له قواد تراچان الحريصين على الجند هذه النصيحة قط . فلما أصبح صاحب الأمر سحب الفيالق الرومانية من أرمينية ، وأشور ، وبلاد النهرين ، وپارثيا ، وجعل أرمينية مملكة تابعة له بعد أن كانت ولاية خاضعة للدولة ، ورضى أن يكون نهر الفرات حد الإمبراطورية من جهة الشرق . وكان مسلكه بعد تراچان كمسلك أغسطس بعد قيصر . فنظم إدارته السلمية ما يستطيع تنظيمه من الدولة التي لم يكن لها في سعتها مثل من قبل ، والتي كسبتها الجيوش الباسلة المغامرة . وظن القواد الذين كانوا على رأس جيوش تراچان — بالما ، وسلسس ، وكوينس ، ونجرينس — أن هذه خطة مبعثها الجبن ، وأنها بعيدة كل البعد عن الحكمة والسداد ، وكانوا يشعرون أن وقف الهجوم ، معناه الاقتصار على الدفاع ، وأن الاقتصار على الدفاع هو بداية الموت . وبينما كان هديران مع فيالقه على ضفاف الدانوب ،

أعلن مجلس الشيوخ أن القواد الأربعة يدبرون مؤامرة لقلب الحكومة ، وأنهم أعدموا بأمر المجلس . وكان إعدامهم دون محاكمة صدمة شديدة لأهل رومة ؛ ومع أن هدریان عاد مسرعاً إليها وأعلن أنه لم تكن له يد في الأمر كله فإن أحداً لم يصدقه ، حتى بعد أن أقسم أنه لن يقتل شيخاً إلا بأمر المجلس . ولقد وزع على الشعب هبة سخية من المال ، وأقام له كثيراً من الألعاب ليسليه بها ، وألغى من الضرائب المتأخرة ما قيمته ٩٠٠.٠٠٠.٠٠٠ سسترس وحرق سجلات الضرائب علناً ، وظل عشرين عاماً يحكم البلاد حكماً عادلاً ، حكماً تحت راية السلام . ولكنه رغم هذا كله لم يكن في قلوب الشعب كل ما يرجوه من حب .

ويصفه كاتب سيرته القديم بأنه كان طويل القامة ، رشيقاً ، متثنى الشعر ، « ذالحية طويلة يخفى تحتها ما في وجهه من عيوب طبيعية » (١٤) . واقتدى به أهل رومة فأطالوا من ذلك الوقت لحاهم ، وكان قوي البنية ، وقد حافظ على قوته بممارسة الكثير من ضروب الرياضة البدنية ، وأهمها كلها الصيد ؛ وكثيراً ما قتل السباع بيده (١٥) . وقد امتزجت في خلقه عناصر بلغت من الكثرة حداً يتعذر معه وصفها . فيقول لنا كتاب سيرته إنه كان « صارماً وبشوشاً ، فكهاً ووقوراً ، شهوانياً وحذراً ، شديداً وكرماً ، قاسياً ورحيماً ، بسيطاً بساطة خادعة ، جمع المتناقضات في كل شيء » (١٦) . وكان ذا بصيرة نافذة سريعة ، وكان نزيهاً متشككاً ؛ ولكنه كان يحترم التقاليد ، ويرى أنها النسيج الذي يربط الأجيال بعضها ببعض ، وكان يقرأ كتب إبيكتس الرواقى ويعجب به ، ولكنه كان يطلب اللذة ويتنوقها دون حياء . وكان رجلاً غير متدين ، يعتقد بالخرافات ، ويسخر من النبوءات ، ويمارس السحر والتنجيم ، ويشجع الاستمساك بالدين القومى ، ولا ينقطع عن القيام بواجباته بوصفه الكاهن الأكبر للدين الرومانى . وكان مجاملاً وعنيداً ، قاسياً في بعض الأحيان ، ورحيماً في العادة ؛ وربما كانت هذه المتناقضات أعمالاً اقتضتها مختلف الظروف . وكان يعود المرضى ، ويساعد

المنكوبين وقد وسع نطاق أعمال الإحسان القائمة في وقته حتى شملت اليتامى والأرامل ؛ وكان سخيّاً في مناصرة الفنانين ، والكتاب ، والفلاسفة ؛ وكان يجيد الغناء والرقص ، والعزف على القيثارة ؛ وكان مصوراً قديراً ، ومتميّلاً وسطاً . وقد ألف عدة كتب - منها كتاب في النحو وآخر في سيرته . ومنها قصائد مؤدبة وأخرى بذيئة^(١٧) ، باللغتين اللاتينية واليونانية ؛ وكان يفضل الأدب اليوناني على اللاتيني ويفضل لغة كاتو الشيخ البسيطة على لغة شيشرون الفصيحة السلسة الفياضة . وقد حذا كثير من كتاب ذلك الوقت حذوه ، فأخذوا يكتبون بأسلوب عتيق متكلف . وقد جمع الأساتذة الذين كانت تؤجرهم الدولة ، وأنشأ منهم جامعة علمية ، ورفع مرتباتهم ، وشاد لهم مجمعاً علمياً فخماً لينافس به متحف الإسكندرية . وكان يسره أن يجمع حوله العلماء ورجال الفكر ، ويلقى عليهم الأسئلة المحيرة ، ويضحك من متناقضاتهم ومجادلاتهم العلمية . وكان فافورينس Favroinus الغالى أعظم فلاسفة هذه الندوة حكمة ، وكان إذا ما سخر منه أصدقاؤه لأنه يوافق هديران على آرائه ، أجابهم بأن كل رجل يشد أزره ثلاثون فيلقاً لا بد أن يكون على حق^(١٨) .

ولقد جمع إلى هذه المتع العقلية الجملة إحساساً سامياً بالواجبات العملية . من ذلك أنه حذا حذو دومتيان ، فلم يول معاتيقه إلا المناصب الصغيرة ، واختار رجال الأعمال ذوى الكفايات المحربة ، ليتولوا الإدارات الحكومية ، وألف منهم ومن بعض الشيوخ وفقهاء القانون مجلساً concilium يجتمع في أوقات منتظمة للنظر في سياسة الدولة . وعين كذلك وكيلاً للخزانة advocatus fisci ليكشف عما عساه أن يرتكب من فساد أو غش في شئون الضرائب ، وكانت نتيجة هذا أن زادت إيرادات الدولة زيادة ملحوظة من غير زيادة في الضرائب . وكان يراقب بنفسه كل إدارة من إدارات الحكومة ؛ وقد أدهش رؤساءها ، كما أدهش نابليون رؤساء إداراته ، لإلمامه الدقيق بتفاصيل أعمالها ، ويقول اسبارتيانوس إنه « كان قوى الذاكرة ،

ولانه كان يكتب ، ويملى ، ويستمع ، ويتحدث إلى أصدقائه كل ذلك في وقت واحد (١٩) — وإن كان تكرر هذه القصة يبعث على الريبة في صدقها . وبفضل عنايته ، وبمعاونته إداراته المدنية الواسعة النطاق ، نعمت الإمبراطورية بحكم لعلها لم تنعم بمثله قبله أو بعده . وكان الثمن الذى أداه لهذا النظام المحكم هو قيام بيروقراطية مطردة الاتساع وإسرافاً في إصدار الأوامر والنظم يبلغ حد الجنون ، قرب الزعامة أكثر من ذى قبل إلى الملكية المطلقة . وقد حرص هديران على كل مظاهر التعاون مع مجلس الشيوخ ، ولكن موظفيه كانوا يزدادون كل يوم اعتداء على اختصاصات تلك الهيئة التى كانت تبدو من قبل « جمعية من الملوك » . ولقد كان هو قريباً من المشكلة قريباً يحول بينه وبين التنبؤ بأن بيروقراطيته القديرة المطردة التكاثر قد تصبح على مدى الأيام عبئاً باهظاً ينوء به دافع الضرائب ، بل كان بعكس هذا يعتقد أن كل شخص في الإمبراطورية سيجد لنفسه في داخل هذا النطاق من القانون والفرائض الذى أنشأته الحكومة طريقاً يظهر فيه مواهبه ، وأن في وسع كل إنسان أن يرقى من طبقة إلى طبقة أعلى منها .

ولم يكن عقله الصافي المنطقي يطبق فوضى ما تجمع من القوانين الغامضة المتناقضة ، ولهذا كلف يوليانس بأن ينسق قرارات البريتورين السابقين ، ويصدر بها مرسوماً دائماً ، وشجع غير هذا من أعمال التقنين التى مهدت السبيل لچستنيان . وكان يجعل من نفسه محكمة عليا سواء كان في رومة أو في أثناء تجواله في الولايات ، واشتهر بأنه قاض عالم نزيه . وكان رحماً على اللدوام بقدر ما يجيزه القانون من رحمة ؛ وقد أصدر طائفة لا عديد لها من المراسيم ، ينصر معظمها الضعفاء على الأقوياء والعبيد على الأسياد ، والفلاح الصغير على صاحب الضيعة الكبيرة ، والمستأجر على مالك الأرض ، والمستهلك على بائعى الأشتاب الغاشين ، ويقاوم بها كثرة الوسطاء بين المنتجين والمستهلكين (٢٠) . وكان يرفض ما يوجه إلى الناس من تهمة الخيانة ، ولا يقبل الوصايا من الآباء ، أو ممن لا يعرفهم من الأشخاص ، وأمر بأن

يراعى التسامح في تطبيق القانون على المسيحيين^(٢١) . وقد ضرب بنفسه المثل بما اتبعه في أراضي الدولة من وسائل إصلاح الأراضي البور ، فكان يشجع الملاك على تأجير الأراضي غير المستصلحة إلى الزراع ليغرسوا فيها الحدائق من غير أن يؤدوا عنها إيجاراً حتى تثمر الأشجار . ولم يكن هدریان مصلحاً متطرفاً في إصلاحاته ، بل كان إدارياً قديراً يسعى في نطاق ما يكبل الطبيعة البشرية من قيود ، وما يعتورها من تفاوت في الكفايات ، إلى أن يوفر للناس جميعاً أكبر خير مستطاع . ولقد أبقى على الأشكال القديمة ولكنه صب فيها بالتدريج محتويات جديدة كلما دعت الضرورة إلى هذا ، وحدث ذات مرة ، حين ضعفت رغبته في الأعمال الإدارية ، أن رفض الاستماع إلى امرأة جاءت تعرض عليه شكواها . وكانت حجته أن « ليس لدى وقت » . فصاحت قائلة : « إذن فلا تكن إمبراطوراً » فما كان منه بعدئذ إلا أن استمع إلى شكواها..

٢ - الجوال

كان هدریان على نقیض من سبقوه ، يهتم بالإمبراطورية اهتمامه بالعاصمة . ومن أجل هذا سار سيرة أغسطس الحميدة ، فقرر أن يزور كل ولاية من ولاياتها ، ويفحص عن أحوالها ، ويتعرف حاجاتها ، ويبادر بتخفيف أعبائها بما في يديه من موارد الإمبراطورية . وكان إلى هذا شعوراً بمعرفة ما لدى الشعوب المختلفة في الإمبراطورية من فنون ، وما تتبعه في حياتها من أساليب ، وما تكتسب به من ثياب ، وما تدين به من عقائد ، وكان يتوق إلى رؤية الأماكن الشهيرة التي ذاع صيتها في تاريخ اليونان ، وأن يضرب بسهم في تلك الثقافة اليونانية التي كانت العامل الأكبر في تهذيب عقله كما كانت هي زينته . ويصفه فرنطو Fronto بقوله : « إنه لم يكن يحب أن يحكم العالم فحسب ، بل كان يحب فوق ذلك أن يطوف به »^(٢٢) ففي عام ١٢٠ غادر رومة ، ولم يغادرها بأبهة الملك وزينته ،

بل كان يصحبه فيها الخبراء ، والمهندسون المعماريون ، والبناءون ، والمهندسون والفنانون . وذهب أولا إلى غالة « وأعان جميع من فيها من العشائر بما أفاض عليها من سخائه وجوده » (٢٤) ، ثم انتقل منها إلى ألمانيا ، وأدهش كل من فيها بما أظهره من الدقة والعناية في تفتيش وسائل الدفاع عن الإمبراطورية ضد من عليها في مستقبل الأيام ، وأعاد تنظيم الطرق الحصينة الممتدة بين الرين والدانوب ، وزاد من أطوالها ، وأصلحها .

ومع أنه كان رجل سلام فإنه كان متمكنا من فنون الحرب ، وكان يعترم ألا يجعل ميوله السلمية تضعف من قوة جيوشه أو تغرى به أعداءه . وقد أصدر أوامر مشددة للمحافظة على النظام العسكري ، وكان هو نفسه يخضع لما وضعه من القواعد أثناء زيارة المعسكرات ، فكان إذا حل بها عاش عيشة الجنود ، وأكل من طعامهم ، ولم يركب قط مركبة ، بل كان يسير على قدميه يحمل عتاده ويواصل السير عشرين ميلا بلا انقطاع ، ويظهر من الجلد ما لا يعتقد معه من يراه أنه عالم وفيلسوف . وكان في الوقت نفسه يكافئ المتفوقين ، وقد رفع من شأن منزلة الفيالق من الناحيتين القانونية والاقتصادية ، وأمدّها بالجيد من الأسلحة وبكفائتها من المؤن . وخفف عنها شدة النظام في أوقات الفراغ ؛ وكل ما كان يصير عليه في هذه الأوقات ، أن تكون وسائل التسلية مما لا يضعف من قدرتها على أداء واجباتها ، حتى لم يكن الجيش الروماني في وقت من الأوقات أحسن حالا مما كان عليه في أيامه .

وانحدر بعدئذ في نهر الرين نحو مصبه وأبحر من هناك إلى بريطانيا (١٢٢) . ولسنا نعلم عن نشاطه في تلك البلاد أكثر من أنه أمر أن يقيم سور من خليج سلواى Solway Firth إلى مصب نهر التين Tyne « ليفصل بين البرابرة والرومان » : وعاد من هناك إلى غالة ومر على مهل بأفنيون Avignon ، ونيمر Nimes ، وغيرها من بلاد تلك الولاية ، وألقى عصا التسيار ليقضى

الشتاء في طرقة Tarragona في شمالى أسبانيا . وبينما هو سائر بمفرده في حديقة مضيقة إذ هجم عليه عبد وسيغه مسلول في يده وحاول أن يقتله . ولكن هديران تغلب عليه وأسلمه في هدوء إلى الخدم ، فوجدوه مختل العقل .

وفي ربيع عام ١٢٣ قاد بعض الفيالق ليحارب المغاربة الضاربين في شمالى أفريقية الغربى ، والذين كانوا يغيرون على مدن مورتانيا الرومانية . فهزمهم وردهم على أعقابهم إلى تلالهم ؛ ثم أبحر إلى إفسوس ، حيث قضى فصل الشتاء ، ثم زار مدن آسية الصغرى واستمع إلى مطالب أهلها وشكواهم ، وأزل العقاب بمن أساءوا استخدام سلطتهم من الموظفين ، وكافأ القادرين منهم ، وأعد المال والرسوم ، والعمال لتشيد الهياكل والحمامات ودور التمثيل . وكانت سزكس Cyzicus ونيقية Nicaea . ونيقوميديا Nicomedia قد نكبت بزلزال شديد ، فأصلح هديران ما تخرب منها بنقعات من أموال الدولة ، وشاد في سزكس هيكلًا عظيمًا من فوره بين عجائب الدنيا السبع^(٢٥) . ثم اتجه شرقًا محاذيًا ساحل بحر اليكسين إلى طرابزوس Trapezus ، وأمر حاكم كهدوكيا — المؤرخ أريان Arrian — أن يبحث أحوال جميع الثغور الواقعة على البحر الأسود ، وأن يعد له تقريراً عنها ؛ ثم اتجه نحو الجنوب الغربى واخترق بفلاجونيا Paphlagonia ؛ وقضى الشتاء في برجوم . وفي خريف عام ١٢٥ أبحر إلى رودس ومنها إلى أثينة حيث قضى شتاء طيباً سعيداً عاد بعده إلى وطنه . ولم تفارقه الرغبة في الاستطلاع وهو في الخمسين من عمره فانتقل من إيطاليا إلى صقلية . وتسلى جيل إتنا ، يشاهد شروق الشمس من فوق صخرة نائمة تعلو فوق البحر ١١٠٠٠ قدم .

ومما هو جدير بالذكر أنه استطاع أن يغيب من عاصمة مملكة تونس سنين وهو واثق من أن مروثوسيه سيصرفون شئون الدولة كلها بحسب . ذلك أنه قد عمل ما يجب أن يعملها الحاكم القدير ، فأنشأ ودرس أحوال

حكومية صالحة تكاد تسير من تلقاء نفسها . وأقام رومة ، بعد عودته إليها أكثر قليلا من عام ، ولكن حب الأسفار كان يسرى في دمه ولحمه ، وكان لا يزال في العالم أجزاء كثيرة تتطلب البناء والإصلاح . فغادر إيطاليا مرة أخرى في عام ١٢٨ ، وقصد في هذه الرحلة يتكا Utica ، وقرطاجنة ، والمدن الجديدة المزدهرة في شمال أفريقيا . ثم عاد إلى رومة في فصل الخريف ، ولكنه غادرها بعد قليل ، وقضى شتاء آخر في أثينة (١٢٨ - ١٢٩) . واختير فيها أركونا ، ورأس وهو مبتهج سعيد حفلات الألعاب والأعياد ، وسره أن يلعب بالحرر ، وبهليوس Helios وزيوس ، ومنقذ العالم . وفيها اختلط بالفلاسفة ، ورجال الفن ، وأظهر ما أظهره نيرون وأنطونيوس من ظرف ولطف دون أن ينزل إلى ما نزلوا إليه من حماقة وسخف . وساءه ما في قوانين أثينة من فوضى فكلف جماعة من كبار المشرعين أن يجمعوا هذه القوانين وينسقوها ؛ وإذ كان هو على الدوام من المهتمين بشئون الدين المتشككين فيه ، فقد طلب أن يتعرف الطقوس الإلزيانية الخفية . ولما وجد التعطل يهدد أثينة ، وكان يعتزم في الوقت نفسه أن يعيد المدينة إلى ما كانت عليه من الفخامة في عصر بركليز ، استدعى رجال العمارة ، والمهندسين ، ومهرة الصناع ، وبدأ مشروعا ضخما من المباني يفوق مبانيه العامة في رومة . فقد شاد عماله في مساحة مربعة من الأرض تحيط بها طائفة كبيرة من العمد مكتبة عامة جدرانها من الرخام بها ١٢٠ عمودا ، ولها سقف مذهب وحجرات رحبة تتلأأ فيها أحجار المرمر والصور والتماثيل . ثم بنوا ملعبا رياضيا ، وقناة للماء الشرب ، وهيكلان لهريرا ، وآخر لزيوس « إله اليونان أجمعين » . وكان أعظم هذه الأعمال كلها هو إتمام الأولمبيوم - أى الهيكل الفخم المقام لزيوس الأولمبي والذي بدأه بيستراتنس قبل ذلك الوقت بسنة قرون وعجز أنتيوخس إيفغانيز عن إتمامه . ولما غادر هديران أثينة غادرها وهي أنظف وأكثر رخاء وجمالا مما كانت عليه في أي عهد من عهودها السابقة (٢٦)

وفي ربيع عام ١٢٩ أبحر إلى إفسوس . ثم رحل مرة أخرى إلى آسية الصغرى ، وكان ينشئ المدن ويشيد المباني أينما حل . وسافر إلى كبدوكيا ، وفنش حاميتها . ولما جاء إلى أنطاكية وهبها المال اللازم لبناء قناة لماء الشرب ، وهيكل ، ودار للتمثيل ، وحمامات عامة . وزار في خريف ذلك العام تدمر وبلاد العرب ، ثم رحل في عام ١٣٠ إلى أورشليم . وكانت المدينة المقدسة لا تزال مخربة ، لا تكاد تفرق في شيء عما تركها عليه تيتس قبل ذلك الوقت بستين عاما ، يسكنها عدد قليل من اليهود الفقراء المساكين يقيمون في حظائر وأكواخ بين الصخور . وتأثر قلب هدریان وخياله بما شاهده من أثار الدمار والتخريب بمكانها المقفر . لقد كان يرجو بما شاهده في بلاد اليونان والشرق الهلنستي وما أعاده إليها من مظاهر الفخامة أن يقيم الحواجز بين الحضارة اليونانية - الرومانية وبين العالم الشرقي إلى أعلى مما كانت قبل ؛ أما الآن فقد أصبح يحلم بأن يحول صهيون نفسها إلى قلعة وثنية ، فأمر أن يعاد بناء أورشليم لتكون مستعمرة رومانية وأن تسمى لإيليا كبتولينا ، تخليداً للذكرى قبيلة هدریان وكبتول چوپتر في رومة . وأرتكب بعمله هذا خطأ نفسانياً وسياسياً كان خليقاً ألا يرتكبه رجل من أوسع الساسة عقلاً وأعظمهم حكمة في التاريخ كله . ثم انتقل إلى الإسكندرية (١٣٠) ، وابتسم ابتسامة الرجل المتسامح الواسع الأفق حين أبصر أهلها المتخاصمين المتشاحنين . وزاد محتويات المتحف ، وأعاد بناء ضريح پمپي ، ثم عمل ما لم يعمله قيصر ، فأرخص لنفسه العنان وصعد في النيل على مهل بصحبة زوجته سينا ، وحبيبه أنتنؤوس Antinoüs . وكان قد التقى بالفتى اليوناني في بيشينيا قبل ذلك الوقت ببضع سنين ، وأعجبه جمال الشاب ذي الوجه المستدير ، والعينين الرقيقتين ، والشعر الملتوي ، واتخذهُ مخادماً خاصاً له ، وشعر نحوه بعاطفة قوية وحب عظيم . ولم يصل إلينا ما يدل على أن سينا احتجت على هذه الصلة ، ولكن السنة السوء

في المدينة كانت تقول إن الغلام كان جنميدى Oednyme (*) زيوس الجديد . وربما كانت الحقيقة أن الإمبراطور الذي لا ولد له قد أحب الغلام لأنه يرى أن الآلهة قد حبته به ليكون ولداً له . وفي هذه الرحلة وبينما كان هديران في أوج سعادته مات أنتنوثوس في الثامنة عشرة من عمره - ويلوح أنه غرق في نهر النيل وحزن ملك العلم « وبكى كما تبكي النساء » على حادثة قول اسبارتيانس ، وأمر بأن يقام له هيكل على شاطئ النهر ، ودفن فيه الغلام ، وأعلن للعالم أنه إله . ثم أنشأ حول ضريحه مدينة هي مدينة أنتينوبوليس التي قدر لها أن تكون فيما بعد عاصمة من عواصم الدولة البيزنطية . وبينما كان هديران يعود محزوناً إلى رومة بدلت الأساطير القصة : فقالت إن الإمبراطور عرف عن طريق السحر أن أعظم خططه لن تفلح إلا إذا مات أحب الأشياء إليه . وسمع أنتنوثوس بهذه النبوءة فأمات نفسه طائفاً مختاراً . ولعل هذه الخرافة قد نشأت بالسرعة التي تكفي لأن تمر عيش هديران وتهد ركنه في سنى ضعفه وشيخوخته .

ولما عاد إلى رومة (١٣١) كان يحس بأنه قد جعل الدولة خيراً مما كانت حين جلس على عرشها . ولقد كان على حق في هذا الإحساس ، فإن الدولة في واقع الأمر لم تبلغ في وقت من الأوقات ، ولا في عهد أغسطس نفسه ، ما بلغته وقتئذ من الرخاء . ولم يصل عالم البحر الأبيض في يوم من الأيام إلى مثل ما وصل إليه في عهده من الاستمتاع بالحياة الكاملة ، ولم يعد مرة أخرى موطناً لحضارة بلغت ما بلغته حضارة تلك الأيام من رقي ، وسعة انتشار ، وعمق أثر في جميع السكان . ولم يكن في الأحكام جميعهم حاكم أكثر من هديران حبا لخيرها ، وعملا لرفاهيتها . لقد كان أغسطس يرى أن الولايات توابع لإيطاليا تفيد منها مالا وثراء ، وكان يحكمها حكماً صالحاً لتدر الخير على إيطاليا . أما الآن فقد نضجت آراء قيصر

(*) جنميدى هو الشاب الوسيم الذي كان ساقى زيوس بعد هيبى ، وقد خله نسر زيوس إلى أولمبس وأصبح الاسم فيما بعد يطلق على كل غلام مخنث . (المترجم)

وكلوديوس وآتت أكلها كاملة لأول مرة ، فلم تكن رومة جابية الضرائب لإيطاليا ، بل كانت الحاكم المسئول عن دولة يستمتع كل جزء من أجزائها بقسط من عناية الحكومة مكافئ لما تستمتع به سائر الأجزاء ، وتحكم فيها الروح اليونانية بلاد الشرق ، ويحكم فيها العقل الرومانى. الواسع الأفق سعة الروح الرومانية الدولة والغرب ، لقد رأى هدریان قبل موته الدولة كلها بعينه وجمع شتاتها ووحدھا ، وكان قد وعد أنه « سيدبر شئون هذه المجموعة من الأمم تدبير من يدرك أنها ملك الشعب لا ملكه الخاص » (٣٧) ؛ وقد أنجز ما وعد .

٣ - البناء

ولم يكن باقياً إلا شيء واحد - إذا حصلت عليه رومة كانت أيضاً أجمل مما كانت قبل . لقد كان هدریان الفنان لا ينفك يناقش هدریان الحاكم ، فقد أعاد بناء البانثيون فى الوقت الذى كان يعيد فيه تنسيق القانون الرومانى . ولسنا نعرف رجلاً غيره أكثر منه بناء ، ولا حاكماً شاد من المباني مثل ما شاد هو . لقد كان فى بعض الأحيان يضع بنفسه تصميم ما يشاد له من المباني ، وكان يفحص عنها بنفسه ويقومها بخبرته فى أثناء تشييدها ، وقد أمر بإصلاح نحو مائة مبنى أو إعادة بنائها ، ولم ينقش اسمه على أى واحد منها . وقد جنب رومة الشيء الكثير من حكمته وقدرته مجتمعين وهما قلما تجتمعان فى إنسان . أما هو فقد اجتمعت فيه قوة الشباب وحكمة الشيوخ .

وأشهر ما أعاده من المباني سهرم البانثيون - وهو أحسن بناء احتفظ بشكله من أبنية العالم القديم ، ولقد دمرت النار الهيكل الرباعى الذى بناه أجربا ، ويلوح أنه لم يبق منه إلا مدخله الكورنى الأمامى المعمد . والآن أمر هدریان مهندسيه أن يقيموا شألى هذا الهيكل القديم هيكلًا دائريًا ، ولما يخرجوا فى بنائه على الأنماط اليونانية الأصيلة . وكان ينزع بحكم ذوقه اليونانى إلى تفضيل الأشكال

اليونانية على الأشكال الرومانية فيما ينشئه من مباني في عاصمة ملكه . ولم يكن الهيكل الجديد هو ومداخله المعمد وحدة منسجمة متناسقة ، أما داخله — وهو دائرة قطرها ١٣٢ قدماً ، خالية من الدعائم التي تعترض السائر فيها — فكان بفراغه يوحي للسائر فيه بإحساس من الحرية لا يجد له نظيراً إلا في الكنائس القوطية . وكان سملك جدرانها عشرين قدماً ، وكانت مشيدة من الآجر ومغطاة في جزئها الأسفل الخارجي بالرخام ، وفي أجزائها الأخرى بالمصيص ، تبرز منها الفصوص من حين إلى حين . وكان سقف المدخل من صفائح البرنز ، وقد بلغ من سمكها أنها حين أزالها البابا لإرباب الثامن وجدها تكفي لصب مائة مدفع وعشرة مدافع ، وإقامة المظلة المرفوعة فوق المذبح العالي في كنيسة القديس بطرس^(٢٩) . وكانت أبوابه البرنزية الضخمة مغطاة في بادئ الأمر بصفائح الذهب . وأنشئت في الأجزاء السفلى من جدرانها الداخلية الحالية من النافذة سبعة محاريب زينت بعمد عالية ترتكز عليها دعائم هي والعمد من الرخام ، وكانت هذه المحاريب في أول الأمر كوات غير نافذة وضعت فيها تماثيل ، أما الآن فهي محاريب صغيرة في كنيسة فخمة . وقد غطيت بعض الأجزاء العليا من الجدار بالواح من الحجارة الغالية تفصلها بعضها عن بعض عمد من الحجر السماقي . وكانت أعظم روائع الهندسة الرومانية هي القبة المصندقة التي ترتفع في الداخل فوق أعلى الجدران . وكانت طريقة إنشائها أن صب الأسمنت المسلح في أقسام مضلعة ، ثم تركت حتى تتماسك فيتكون منها كلها كتلة قوية صلبة ، كأنها حجارة ضخمة واحد ، وكانت بهذه الطريقة في غنى عن الدعائم الجانبية ، ولكن المهندس الذي أقامها أراد أن يزداد ثقة بقوتها ، فأنشأ لها أكتافاً في الجدران . وكانت مشكاة^(٣٠) (يسمونها العين oculus) ، يبلغ قطرها ٢٠ ميلاً ، هي الفتحة الوحيدة التي تمد الضريح بحاجته من الضوء . ويبلغ طول قطر هذه القبة الفخمة الضخمة ٢٦ قدماً ، وهي أكبر قباب العالم كله قديمه وحديثه ، وقد أنشئت على غرارها سلسلة من القباب تختلف من الطراز البيزنطي إلى الطراز

الرومانى وإلى طراز قبة القديس بطرس إلى قبة الكبتول فى واشنجتن ، وما بين هذه من طرز تماثلها أو تختلف عنها تماثلاً واختلافاً متفاوتين فى القرب والبعد ؛

وأكبر الظن أن هديران نفسه هو الذى وضع تصميم هيكل فينوس وروما Roma ذى القباءين الذى كان يقوم أمام الكلوسيوم ، لأن الخرافات تروى أنه أرسل تصميم الهيكل إلى أبلودورس ، وأنه أمر أن يعدم هذا الفنان الشيخ لأنه أرسل إليه يسخر من هذا التصميم^(٢٠) . ولقد اشتهر هذا الهيكل بعدة صفات انفرد بها عن كثير من الهياكل : منها أنه كان أكبر هيكل فى رومة ، فقد كان له محرابان ، كل منهما لإحدى الآلهتين ، وكانتا تجلسان فيه على عرشين متصلين وظهر كل منهما فى ظهر الأخرى ؛ ومنها أن سقفه المقبى المصنوع من ألواح البرنز والمغطى بصفائح الذهب كان من أبجل مناظر المدينة وأكثرها لآلاء . وبنى الإمبراطور لنفسه بيتاً أوسع من هذا الهيكل نفسه ، وهو القصر الريفى الذى لا تزال بقاياها تستهوى الزائرين إلى الضاحية الجميلة التى كانت تعرف فى أيام الإمبراطور باسم تيبور والتى تعرف لنا اليوم باسم تيفولى Tivoli . فقد أقيم فى هذا المكان ، وسط ضيعة يبلغ محيطها سبعة أميال ، قصر احتوى كافة أنواع الحجرات والحدائق التى ازدجت بالروائع الفنية الذائعة الصيت والتى بلغ من كثرتها أن اغتنى ببقاياها كل متحف من متاحف أوروبا فى هذه الأيام . وقد أظهر واضع تصميم هذا القصر ما اعتاده المهندسون الرومان من عدم المبالاة بتناسب الأجزاء ، فقد كان يضيف إليه بناء إثر بناء كلما دعت به الحاجة أو استهواه الخيال ، ولم يحاول أن يجعل فيه من التناسق أكثر مما فى مباني السوق الرومانية من فوضى معمارية . ولعل الرومان قد ملوا التناسب كما مله اليابانيون ، ولعلهم كانت تعجبهم مفاجآت الشذوذ وعدم الانتظام . وقد أضاف المهندس ذو الخيال القياض إلى ما فيه من أروقة ذات عمد ومكتبات ، وهياكل ، وملهى ، وردة رقص ، ومضمار سباق ، أضاف إلى هبنا

كله نماذج مصغرة من مجمع أفلاطون العلمى ، ولوثيون أرسطو ، واستموا زينون ، كان الإمبراطور ، وهو منغمس فى هذا الثراء الباطل ، أن يظهر شيئاً من التقدير للفلسفة ويرد إليها بعض اعتبارها .

ولقد تم بناء هذا القصر فى السنين الأخيرة من حياة هديران ، ولسنا نعلم أنه وجد فيه ما كان يشده من سعادة ، فقد أفضت ثورة اليهود التى شبت فى عام (١٣٥) مضجعه وأمرت عيشه ، غير أنه أخذها بوسائل رحيمة ، وساءه كثيراً أنه لم يستطع أن يختم حياته من غير حرب ، وأصيب فى ذلك العام نفسه ، ولم يكن قد تجاوز التاسعة والخمسين من عمره ، بداء عضال — ربما كان هو ذات الرئة أوداء الاستسقاء — هد كيانه ، وبرحت به آلامه ، وأنهك شيئاً فشيئاً جسمه وروحه وعقله ، وزاد مزاجه حدة ، وأخلاقه شكاسة ، فأخذ يرتاب فى أصدقائه القدامى ، ويظنهم يأتمرون به ليقتلوه ويجلسوا على العرش بعده ، وأخيراً أمر أن يعدم جماعة منهم — ولسنا نعلم أكان على حق فى رييته ، أم أنه أصدر أمره هذا فى ساعة ذهب فيها عقله .

وأراد أن يخمد حرب الوراثة التى كانت نارها مشتعلة وقتئذ فى بلاطه ، فتبنى صديقه لوسيوس فيرس Lucius Verus واختاره خليفة له . ولما مات لوسيوس بعد قليل من ذلك الوقت ، استدعى هديران إليه وهو على سريرته فى تيبور رجلاً أبيض الصحيفة اشتهر بين الناس باستقامته وحكمته وهو تيتس أورليوس أنطونينس Titus Aurelius Antoninus وتبناه وجعله وارثاً للملكة من بعده . ثم شاء أن يكون أبعد من هذا نظراً فأشار على أنطونينس أن يتبنى هو الآخر شاوين كانا يعيشان وقتئذ فى بلاطه ويربيهما تربية تجعلهما أهلاً لهذا المنصب السامى ، وهما ماركس أنينس فيرس (٢٩ - ج ٢ - مجلد ٢)

Marcus Aninus Verus وكان وقتئذ في السابعة عشرة من عمره ، ولوسيوس إيلْيوس فيري Lucius Aelius Verus ، وهو غلام في الحادية عشرة من عمره . وكان أولها ابن شقيق أنطونينس وثانيهما ابن لوسيوس فيرس . ومنح هدرِيان أنطونينس في ذلك الوقت لقب قيصر ولم يكن يلقب به قبل ذلك الوقت إلا الأباطرة وأبناؤهم ومن تناسل من أبنائهم الذكور ، أما بعده فقد كان الأباطرة يمنحون هذا اللقب كل من وارث للعرش مفترض ، ويحفظون لأنفسهم بلقب أغسطس .

واشتد المرض وقتئذ على هدرِيان وبرح به الألم ، وكثيراً ما كان الدم ينزف من منخاريه . وضاق ذرعاً بالحياة ، وأخذ يتمنى الموت . وكان قد أعد لنفسه قبراً على الضفة الأخرى من نهر التيبر - وهو ذلك الضريح الضخم الذي أصبحت بقاياه الآن قلعة القديس أنجيلو Castel Sant' Angelo والذي لا يزال الناس يصلون إليه فوق جسر إيلْيوس الذي أقامه هدرِيان . وكان قد تأثر بالمثل الذي ضربه الفيلسوف الرواقى يفرانيز Euphrates ، وكان وقتئذ في رومة . ذلك أن هذا الفيلسوف لما وجد أن المرض قد هلك جسمه والشيخوخة قد أنهكته طلب إلى هدرِيان أن يأذن له بأن يقتل نفسه ، فلما أذن له تجرع عصير الشوكران (٣١) . ورجا الإمبراطور أن يقدم له سما أو سيفاً ، ولكن أحداً ممن كانوا حوله لم يجب رجاءه ، فأمر عبداً من بلاد الدانوب أن يطعمه طعنة قاتلة ، ولكن العبد فر منه ؛ ثم أمر طبيبه أن يسمه ، فلم يكن من الطبيب إلا أن انتحر (٣٢) . ثم عثر بعدئذ على خنجر وهم يقتل نفسه ، ولكن الخنجر انتزع منه . وحزن أشد الحزن لأنه ، وهو الذي يستطيع أن يقتل أى إنسان ، لا يسمح له هو نفسه أن يموت . فلما ضاقت به الحيل صرف أطباءه وأوى إلى بايا Baiae وتعهد أن يأكل ويشرب الأطعمة والأشربة التي تعجل منيته ؛ وأخيراً خارت قواه وجن من شدة

الآلم ومات (١٣٨) ، بعد أن عاش ستين عاماً وحكم واحداً وعشرين .
وقد خلف وراءه قصيدة صغيرة تعبر كما تعبر قصيدة دانتي عما ينتاب الإنسان
من الأسى حين يذكر في أيام حزنه ما مر به من أيام السعادة :
أيا نفسي ، أيا نفسي الحميلة ، أيا نفسي الخفاقة ، أيا شريكة جسمي
الطيني وضيئفه ، إلى أين أنت مسرعة - أيتها النفس الشاحبة ، أيتها النفس
البحاسية ، أيتها النفس العارية - إلى حيث لا تعودين ، إلى حيث
لا تعودين ؟ (٣٣) .

الفصل الرابع

أنطونينس بيوس

يكاد أنطونينس ألا يكون له تاريخ ، وذلك لأنه لا يكاد يقع في أخطاء أو يرتكب قط جرائم . وكان أباه الأولون قد جاءوا من نيمز قبل ذلك العهد بجيلين ، وكانت أسرته من أغنى الأبر في رومة ، ولما اعتلى عرش الإمبراطورية في الحادية والخمسين من عمره وهبها حكومة هي أعدل حكومة شهدتها طوال تاريخها ، ولم تكن أقل هذه الحكومات كفاية .

وكان أسعد من لبس التاج حظا . ويقول مؤرخوه إنه كان طويل القامة ، وسيما ، جيد الصحة ، وقوراً ، دمث الأخلاق ، حازماً ، متواضعاً ، صادق البأس ، فصيح اللسان ، يحتقر بلاغة الألفاظ ، محبباً إلى الشعب ، يكره الملق . وإذا صدقنا ما يقوله فيه متبناه ماركس ، كان علينا أن نرفض ما وصف به من أنه « كان الجبار المعصوم من الخطأ الذي لم يعرفه العالم قط » . ولقد لقبه مجلس الشيوخ « بالتقي pius » لأنه رأى فيه مثالا للفضائل الرومانية الهادئة ، كما وصفه بأنه أفضل الزعماء . ولم يكن له أعداء مطلقاً ، وكان له مثات من الأصدقاء ؛ غير أنه لم يكن بمنأى من الأحران ، فقد ماتت كبرى ابنتيه وهو يستعد للسفر إلى آسية ليكون والياً عليها ، وكانت صغراها زوجة مربية لأورليوس ، واتهم الناس زوجته بأن خيانتها لزوجها كانت تعدل بجمالها . وتحمل أنطونينس هذه الشائعات وهو صامت صابر ، ولما ماتت زوجته فوستينا Faustina أُرصد باسمها وتكريماً لها أموالا طائلة لمساعدة الفتيات وتعليمهن ، وخلد ذكرها بإنشاء هيكل في السوق العامة كان من أجل هياكل رومة . وزاد على ذلك أنه لم يتزوج غيرها حتى لا يشقى أبناؤه أو ينقص ميراثهم بهذا الزواج واكتفى بأن اتخذ له حظية .

ولم يكن رجلاً ذكياً ، بالمعنى الضيق لهذا اللفظ . فلم يكن له حظ من العلم ، وكان ينظر إلى رجال الأدب والفلسفة والفن نظرة الرجل الأرستقراطي الذى يتركهم وشأنهم ولا يتدخل فى أعمالهم ، لكنه مع ذلك كان يساعدهم بالمال الكثير ، وكثيراً ما كان يدعوهم إلى قصره . وكان يفضل الدين على الفلسفة ، ويعبد الآلهة القدامى بإخلاص ظاهر ، وضرب لمن تبناهم مثلاً فى التقى والصلاح . كان له أعظم الأثر فى ماركس فلم ينس قط قوله : « افعل كل شيء كما يجب أن يفعله تلميذ أنطونينس » . وقد أمر نفسه بأن « يذكر استمساكه بكل عمل معقول ، واعتداله فى كل شيء ، وتقواه وصفاء ملاحظه ، واحتقاره للشهرة التى لا قيمة لها . . . واكتفائه بالقليل ؛ وجده وصبره ، واستمساكه بالدين مع بُعد عن انحرافات » (٣٤) . وكان مع هذا متسامحاً مع أصحاب الأديان غير الرومانية ، فخفضاً من الإجراءات التى اتخذها هديران ضد اليهود ، وجرى على سنة أسلافه من التساهل مع المسيحيين . ولم يكن بالرجل المتزمت الذى يضيق صدره بالمرح ، بل كان يحب النكتة ، وكثيراً ما كانت تصدر منه الفكاهة اللطيفة . وكان يلعب ، ويصيد السمك والوحوش مع أصدقائه ، ولم يكن فى وسع الإنسان أن يستدل من سلوكه على أنه إمبراطور . وكان يفضل هدوء بيته الريفى فى لنوفيوم Lanuvium على ترف قصره الرسمى ، وكان يقضى كل لياليه تقريباً مع أسرته . ولما أن ورث العرش امتنع عن التفكير فيما كان يتوق إليه من راحة وهدوء يجعلهما سلواه فى شيخوخته . ولما تبين أن زوجته تتوقع أن تزداد بعد ارتقائه العرش أبهة وعظمة أنها على ذلك بقوله : « ألا تعلمين أننا قد فقدنا الآن ما كان لنا من قبل ؟ » (٣٥) . فقد كان يعرف أنه ورث هموم العالم ومشاغله .

وكان أول ما عمله بعد اعتلائه العرش أن وهب ثروته الشخصية الكبيرة إلى خزانة الدولة . ثم ألغى المتأخر من الضرائب ، ونفع المواطنين بهبات من المال ، وأقام على نفقته كثيراً من الألعاب والحفلات ، وسد ما كان يعانية الأهليون من

مجمعاً ، ولعل هذا اللين قد شجعها على أن تتأهب لتلك الغزوات التي اهتزت لها دعائم الإمبراطورية بعد وفاته ؛ وكان هذا هو الخطأ الوحيد الذي ارتكبه في سياسته . أما فيما عدا ذلك فقد كانت الولايات سعيدة في أيامه ، ورضيت بحكم الإمبراطورية ورأت فيه البديل الوحيد من الفوضى والشقاق : وأمطرته الولايات سيلا من الملتزمات والمطالب ، أجابها إليها جميعاً إلا القليل الذي لا يستحق الذكر ؛ وكان في وسعها أن تعتمد عليه ليعوضها عن كل ما يصيبها من الخسائر بسبب الكوارث العامة ؛ وتغني المؤرخون من أهل هذه الولايات أمثال أسترابون ، وقيلو ، وأفلو طرخس ، وأبيان ، وليكتسن ، وليليوس أرسيتديز بمدح السلم الرومانية ؛ ويؤكد أبيان أنه شاهد في رومة مندوبي الدول الأجنبية يرجون عينا أن توضع بلادهم تحت الحكم الروماني لكي تستمتع بمزاياه (٣٨) . ولم يعرف قط قبل ذلك الوقت أن حكومة ملكية مطلقة تركت الناس أحراراً كما تركتهم حكومة بيوس ، أو احترمت حقوق رعاياها كما احترمتها هذه الحكومة (٣٩) . ولاح أن العالم قد أدرك المثل الأعلى في نظم الحكم . فقد كان هذا الحكم وقتئذ للعقل والحكمة ، وكان العالم يحكمه أب شفيق رحيم :

ولم يكن باقياً على أنطونينس بعد هذا كله إلا أن يختم حياته الضالحة بموت هادئ . ولقد أصيب في السنة الرابعة والسبعين من عمره بنزلة معدية ، واثابته حمى شديدة ، فدعا ماركس أورليوس إلى فراشه ، وعهد إليه العناية بشئون الدولة ، وأمر خدمه أن ينقلوا إلى حجرة ماركس تمثال فرتونا fortuna (الحظ) الذهبي ، وكان الزعيم قد احتفظ بهذا التمثال في حجرفته عدداً كبيراً من السنين . وأسر إلى ضابط ذلك اليوم كلمة السر « الهدوء » . ثم أدار وجهه لساعته كما لو كان يريد النوم ، وأسلم الروح (١٦١) . وأخذت جميع الطبقات وجميع المدن تتبارى في تكريم ذكره .

الفصل الخامس

الفيلسوف إمبراطور

يقول رينان Renan : « لو أن أنطونينس لم يعين ماركس أورليوس خليفة له من بعده لما استطاع أحد قط أن ينافسه فيما اشتهر به من أنه خير الملوك على الإطلاق »^(٤١) . ويقول جين Gibbon : « لو أن إنساناً طلب إليه أن يحدد في تاريخ العالم وقتاً كان فيه الجنس البشرى أعظم ما يكون سعادة ورخاء ، لما تردد في أن يقول إنه هو الفترة التي تمتد من جلوس نيرفا إلى موت أورليوس . ولعل حكمهم مجتمعاً هو الفترة الوحيدة في تاريخ العالم التي كانت فيها سعادة شعب عظيم هدف الحكومة الوحيد »^(٤٢) .

ولد ماركس أورليوس فيرس في رومة عام ١٢١ ، وكانت أسرة أنباى Annii قد وفدت قبل ذلك الوقت بمائة عام من سكوبا Succuba القرية من قرطبة إلى رومة ، ويلوح أن ما اشتهروا به في هذا البلد من شرف قد أكسبهم لقب فيرس أى « الحق » . ومات والد الغلام بعد ثلاثة أشهر من مولده فكفله جده الثرى ، وكان قنصلا في ذلك الوقت ، وأخذته إلى بيته . وكثيراً ما كان هديران يتردد على هذا البيت زائراً ، فأعجب بالغلام ، ورآه من طراز الملوك . ولم يعرف قط أن غلاماً مثله كان شبابه يتم عما ينتظره من مستقبل عظيم ، أو كان يدرك ما هيأته له الأقدار من حظ حسن . وقد كتب بعد ذلك الوقت بخمسين عاماً يقول : « إني مدين للآلهة بما وهبني من جلود طيبين ، وآباء طيبين ، وأخت طيبة ، ومدرسين طيبين ، وأقارب وأصدقاء طيبين ، وكل شيء تقريباً طيب »^(٤٣) . وأراد الدهر أن يفرض عليه شيئاً من التوازن فجعل له زوجة مربية وابناً سافلاً . وقد أحصى في تأملاته ما يتصف به

أولئك الناس من فضائل وما تلقاه عنهم من دروس في التواضع ، والصبر ، والرجولة ، والتعفف ، والتقوى ، وحب الخير ، و « بساطة الحياة البعيدة كل البعد عن عادات ذوى الثراء » (٤٤) ، وإن كان الثراء يحيط به من كل جانب .

ولم يلق غلام قط ما لقيه هذا الغلام من حرص ومثابرة على تربيته وتعليمه . فقد التحق في شبابه بخدمة الهياكل والكهنة ، وحفظ عن ظهر قلب كل كلمة من كلمات الطقوس الدينية القديمة الغامضة المعقدة الفهم ، ولم تنقص الفلسفة في مستقبل الأيام من مثابرته على أداء تلك الطقوس القديمة المفروضة على الأتقياء الصالحين ، وإن كانت هذه الفلسفة قد زعزعت عقيدته الدينية . وكان ماركس يحب المباريات والألعاب الرياضية ومنها صيد الطير والحيوان ، وقد بذلت بعض الجهود لتقوية جسمه كما كانت الجهود تبذل لتنمية عقله وتقويم خلقه ، ولكن سبعة عشر مدرساً خاصاً يحيطون بطفل عبء ثقيل وعقبة كئود في سبيله . فقد كان أربعة نحاة ، وأربعة من علماء البلاغة ، وواحد من علماء القانون ، وثمانية من الفلاسفة يقسمون زومة فيما بينهم . وكان أشهر هؤلاء الأساتذة كلهم م . كورنيليوس فرنطو M. Cornelius Fronto معلم البيان . وكان ماركس يحبه ويحبه بكل ما يحبو به التلاميذ أبناء الملوك أساتذتهم من عطف ولطف . ويتبادل معه رسائل تفيض رقة ووفاء ، ولكن الغلام رغم هذا أدار ظهره إلى فن الخطابة ورآه فناً باطلاً غير شريف وانهمك في دراسة الفلسفة .

وهو يشكر لأساتذته أنهم لم يلزموه بدراسة المنطق والتنجيم ، ويشكر لديجنيس Diognetus الرواقى أنه حرر عقله من الخرافات ، وليونيوس رستكس Junius Rusticus أنه عرفه بإيككتس ، ولسكتس القيرونيانى Sextus of Chaeronea أنه علمه أن يعيش عيشة تنفق والطبيعة . وهو يحمد لأخيه سفيرس Severus أنه علمه أخبار بروتس ، وكاتوا اليكتاى ، وثراسينا Thrasea وهلفديوس Helvdiius ويقول : « إنى تلتيت عنه فكرة الدولة

التي يكون فيها قانون واحد لجميع الناس ، والتي يتمتع أهلها جميعاً بحقوق متكافئة ، وبحرية الكلام ؛ وأخذت عنه فكرة الحكومة الملكية التي تحترم حرية المحكومين أكثر من احترامها كل شيء سواها »^(٤٥) وفي هذا القول يستحوذ المثل الأعلى الرواق للحكومة الملكية على العرش . ويشكر أورليوس لمكسمس Maximus أن علمه « أن يحكم نفسه ، وألا يسمح لشيء ما أن يضلّه ، وأن يكون بشوشاً في كل الظروف ، وأن يجمع قدرأً متكافئاً من اللطف والكرامة ، وأن يؤدي ما عليه من الواجبات من غير تذمر »^(٤٦)

وجدير بنا أن نشير هنا إلى أن من الأمور الجلية أن كبار الملاسفة في ذلك الوقت كانوا كهنة بلا دين ، ولم يكونوا ميثافيزيقيين بلا حياة . غير أن ماركس آمن بأقوالهم إيماناً جدياً كاد وقتاً ما أن يفقد بسببه صحته التي كانت ضعيفة بطبيعتها لانهماكه في حياة الزهد والتقشف . فقد ارتدى وهو في الثانية عشرة من عمره رداء الفلسفة ، وأخذ بنام على قليل من القش المنشور على الأرض ، وظل زمناً طويلاً لا يأبه برجاء أمه له أن ينال على فراش : ذلك أنه كان رواقياً قبل أن يصير رجلاً ، ويحمد ربه : « لأنني احتفظت بزهرة شبابي ، وأنى لم أطمع في أن أكون رجلاً قبل الأوان ، بل أجلت هذا أكثر مما كنت أحتاج إلى تأجيله . . . وأنى لم تكن لي صلات جنسية قط . . . وأنى حين انتابتنى فيما بعد نوبات من الحب ، لم ألبث أن شفيت منها . بعد زمن قليل »^(٤٧) .

وقد حوله عن احتراف الفلسفة والكهنوت عاملان كان لهما أثر بالغ في حياته . أولهما ما تولاه من المناصب السياسية الصغرى منصباً في إثر منصب ، وذلك لأن واقعية الرجل الإداري تعارضت لديه مع مثالية الشاب الغارق في التأملات . وكان العامل الثاني صلته الوثيقة بأنطونينس بيوس . ولم تكن حياة أنطونينس الطويلة سبباً في مضايقته بل ظل يحيا حياته الرواقية البسيطة ، ويواصل دراساته الفلسفية ، وواجباته الرسمية ، وهو يعيش

فى القصر ، ويمارس مرانه الطويل . وكان للمنمل الذى ضرب به له متبنيه فى الإخلاص والنزاهة فى الحكم أقوى الأثر فى نضوج عقله وخلقه . وكان الاسم الذى نعرفه به وهو أورليوس هو اسم القبيلة التى ينتمى إليها أنطونينس ، وقد تسمى به ماركس ولوسىوس كلاهما بعد أن تبناهما . فأما لوسىوس فقد أصبح رجلاً مرحاً محباً لمفان العالم ، خبيراً بملذات الحياة ومباهجها ؛ ولما أن رغب پيوس عام ١٤٦ أن يكون له زميل يشترك معه فى أعباء الحكم ، اختار لذلك ماركس وحده ، وترك للوسىوس دولة الحب . ولما أن مات أنطونينس جلس ماركس على العرش بمفرده ، ولكنه تذكر رغبة هديران فاتخذ لوسىوس فيرس زميلاً له وزوجه بابنته لوسلا Lucilla : فارتكب الفيلسوف بسبب حنوه ورأفته من الخطأ فى بداية حكمه ما ارتكبه فى نهايته ؛ ذلك أن تقسيم الحكم على هذا النحو كان سابقة سيئة ، فرقت شمل الدولة وأضعفتها فيما بعد أيام خلفاء دقلديانوس وقسطنطين .

وطلب ماركس من مجلس الشيوخ أن يخلع على پيوس مراسم التكريم القدسية ، وأتم الهيكل الذى شرع پيوس فى أن يقيمه تخليداً لذكرى زوجته ، وأظهر فيه أحسن الذوق وأكمله ، ووهبه لذكرى أنطونينس وفوستينا معا(*) . وحبا لمجلس الشيوخ بكل أنواع الجمالة ، وسره أن يجد الكثيرين من أصدقائه الفلاسفة قد شقوا طريقهم إلى عضويته ، وحيته إيطاليا بأجمعها والولايات على بكرة أبيها ، ورأت فيه تحميقاً لحلم أفلاطون : لقد أصبح الفيلسوف ملكاً . ولكنه لم يفكر قط فى أن يجعل من الإمبراطورية « مدينة فاضلة » . فقد كان ممثلاً لأنطونينس محافظاً مستمسكاً بالقديم ؛ ذلك أن المتطرفين لا ينشئون فى القصور ، وكان ملكاً — فيلسوفاً بالمعنى

(١) ولا تزال عشرة من أعمدته الكورنثية المنحوت كل منها من حجر واحد من بين أجل آثار السوق العامة الباقية إلى الآن . ومدخله باق بكامل أجزائه ، أما المحراب فهو ، وإن جرد من واجهته الرخامية ، باق إلى اليوم فى كنيسة سان لورنزو فى بلدة ميرندا .

الرواقى لا الأفلاطونى لهذا اللفظ . وقال يحذر نفسه : « لا تؤمل قط أن تقيم جمهورية أفلاطون . وحسبك أنك أصلحت أحوال البشر إلى حد ما ، ولا تظن أن هذا الإصلاح أمر قليل الخطر . ومنذا الذى يستطيع تغيير آراء الناس ؟ وإذا لم تستطع تغيير عواطفهم ، فإنك لا تستطيع أن تجعل منهم إلا عبيداً متمردين ومنافقين متلونين » . وكان قد تبين أن الناس لا يرغبون كلهم أن يكونوا قديسين أظهراً ، ووطن النفس على أن يعيش فى عالم ملىء بالخبث والفساد ، ومن أقواله فى هذا : « إن الآلهة المخلدون يرضون أن يصبروا آجالاً طويلاً على هذه الكثرة من الأشرار وعلى ما ترتكبه من آثام كثيرة ، دون أن يغضبوا ، بل إنهم يحيطون هؤلاء الأشرار بالنعم الموفورية ، فهل يليق بك على قصر أجلك أن يسرع إليك الملل ؟ » (٤٨) : وقد وطد العزم على أن يعتمد على القدوة الحسنة لا على سطوة القانون ، فجعل نفسه بالفعل خادماً للدولة ، وأخذ على عاتقه جميع أعباء الإدارة والقضاء ، بما فى ذلك القسم الذى وافق لوسيوس على أن يتحملة ولكنه أهمله ؛ ولم يسمح لنفسه بشئ من الترف ، وعامل الناس جميعاً معاملة الزملاء لا أكثر ولا أقل ، وأنهاك نفسه بكثرة العمل بأن يسر للناس مقابلاته . ولم يكن ماركس بالسياسى العظيم ، فقد أنفق كثيراً من أموال الدولة فى الهبات النقدية التى كان يتفح بها الشعب والجيش ، ومنح كل فرد من أفراد الحرس البريتورى عشرين ألف سسترس . وزاد عدد الذين كان من حقهم أن يطلبوا الحبوب من غير ثمن ، وأكثر من الألعاب الباهظة النفقة ، وأعفى الناس والولايات من كثير من الضرائب والجزية المتأخرة . لقد كان هذا كرماء له سوابقه ، ولكنه كان عملاً غير حكيم فى وقت كانت الثورات والحروب تهدد الدولة تهديداً لا يخفى على عين الحاكم البصير ، وكانت نيرانها مشتعلة بالفعل فى كثير من الولايات وعلى أطراف الحدود العظيمة الأمداد .

وواصل ماركس ذلك الإصلاح القانونى الذى بدأه هديران وبذل فى ذلك الإصلاح كثيراً من الجهد والنشاط . فزاد أيام جلسات المحاكم ، وقصر آجال

المحاكمات ، وكثيراً ما كان يجلس بنفسه في مجلس القضاء ، ولا يرحم من يرتكب جريمة من الجرائم الكبرى ، ولكنه كان في العادة رحيماً . وقد ابتكر وسائل قانونية لحماية عديمي الأهلية من جشع الأوصياء ، ولحماية المدينين من الدائنين ، والولايات من الحكام ، وغض الطرف عن عودة الجماعات الدينية التي كانت محرمة قبل عهده ، وبسط حماية القانون على الهيئات التي كانت في حقيقته أمرها جماعات تعنى بدفن الموتى ، وأكسبها الشخصية المعنوية التي يحق لها بمقتضاها أن تقبل الوصايا ، وأنشأ صندوقاً لينفق منه على دفن الموتى من الفقراء . وبلغ عدد المستفيدين من نظام الأملنة أى من الأموال التي خصصتها الدولة لتشجيع النسل بين الفلاحين أكبر عدد وصل إليه في تاريخ هذا النظام كله . ولما ماتت زوجته أنشأ صندوقاً لمساعدة الفتيات الفقيرات ، ولدينا نقش منخفض يمثل أولئك الفتيات وقد أحطن بفوستينا الصغرى وهي تصب القمح في حجورهن . وألغى الاستحمام المختلط ، وحرم دفع أجور عالية للممثلين والمجالدين ، وفرض على ما تنفقه المدن على الألعاب قيوداً تحد من هذه النفقات وتجعلها متناسبة مع ثروتها ، وأوجب أن تكون الأسلحة التي يستخدمها المجالدون غير ذات أسنة ، وفعل كل ما تبيحه له هذه العادة الوحشية أن يفعله لمنع قتل المصارعين . وأحبب الشعب ولكنه لم يحب قوانينه ، ولما أن جند المصارعين في جيشه الذي سيره للحروب المركانية Marcomannic قال الناس في غضب فكه : « إنه يسلبنا أسباب سرورنا ، ويريد أن يرغمنا على أن نكون فلاسفة »^(٤٩) . لقد كانت رومة تستعد للزمت ، ولكنها لما تصبح مستعدة له .

وكان من سوء حظّه أن شهرته في الفلسفة ، وأن السلم الطويلة التي دامت أيام هدریان وأنطونینس ، قد شجعتا الثوار في داخل البلاد ، والبرابرة في خارجها ، على العصيان . فاندلعت نيران الثورة في بريطانيا عام ١٦٢ ، وغزا التشاتي Chatti ألمانيا الرومانية ، وأعلن فلوجاسين Vologases

الثالث ملك پارثيا الحرب على رومة واختار ماركس أقدر القواد لتقليم أظفار الفتنه فى الشمال ، ولكنة عهد إلى لوسىوس فىرس بالواجب الأكبر وهو محاربة پارثيا ، ولم يتجاوز لوسىوس فى زحفه مدينة أنطاكية ، لأن تلك المدينة كانت مسكن بانثيا Panthea التى بلغت من الجمال والتهدىب والثقافة حدا ظن معه لوسيان أن كل ما حوته آيات النحت من روعة قد اجتمعت فيها ، وأنها وهبت فوق ذلك صوتاً رخياً عذباً يسلب لب من سمعه ، وأنامل تجيد العزف ، وعقلا ملماً بروائع الأدب والفلسفة . فلما رآها لوسىوس نسى كما نسى جلجمنيش متى ولد ، فأطلق العنان للذاته ، للصيد أولاً ثم للدعارة بعدئذ ، بينما كان البارثيون يزحفون على بلاد سوريا التى استولى عليها الرعب . ولم يعلق ماركس بكلمة على أعمال لوسىوس ولكنة أرسل إلى أفديوس كاسىوس Avidius Cassius الذى إلى لوسىوس فى قيادة جيشه خطة للحملة كانت من الإتقان بحيث أعانت القائد القدير المحنك على صد البارثيين إلى ما بين النهرين ، وإلى رفع الراية الرومانية مرة أخرى على سلوقية وطشقونة . وأحرقت المدينتان فى هذه المرة عن آخرهما ، لكيلا تتخذ مرة أخرى قاعدتين لحملات البارثيين . وعاد لوسىوس من أنطاكية إلى رومة حيث أقيم له احتفال بالنصر ، أصر كرمأ منه وشهامة على أن يشاركه فيه ماركس .

وجاء لوسىوس معه بالمنتصر الخفى فى هذه الحرب — وهو الوباء . وكان قد ظهر فى بادئ الأمر بين جنود أفديوس حينما استولوا على سلوقية ، ثم انتشر بسرعة اضطرتة أن يسحب أولئك الجند إلى بلاد النهرين بينما كان البارثيون يطربون لأن الآلهة قد انتقمتم لهم من أعدائهم . ونقلت الفيالق المنسحبة الوباء معها إلى سوريا ، وأخذ لوسىوس معه جنوداً من هذه الفيالق لتشارك فى موكب النصر ، فنقلوا العدوى إلى كل مدينة مروا بها ، وإلى كل صقع من أصقاع الإمبراطورية انتقلوا إليه فيما بعد . ويحدثنا المؤرخون القدامى عن فتك هذا الوباء أكثر مما يحدثوننا عن طبيعته ، ولكن ما يقولونه عنه

يوحى بأنه قد يكون مرض التيفوس الطفحى أو الطاعون الدملى (٣٣) . ويظن جالينوس أنه من نوع الوباء الذى فتك بالأثينيين فى عهد بركليز . وسواء أكان هذا أم ذاك فقد كانت بثرات سوداء تنقشر فى الجسم ، ويصاب المريض بسعال جاف مبجوح ، ويكون « نفسه ذا رائحة خبيثة » (٥٣) . وفشا الوباء سريعاً فى آسية الصغرى ، ومصر ، وبلاد اليونان ، وغالة ، وأهلك خلال عام واحد (١٦٦ — ٦٧) أكثر من أهلكهم الحرب . ومات منه فى رومة ألفان فى يوم واحد ، ومنهم عدد كبير من أشرف المدينة (٥٤) ، وكانت الجثث تخرج منها أكواماً . وعجز ماركس عن مقاومة هذا العدو الخفى ، ولكنه بذل كل ما يستطيع ليخفف من شره ، غير أنه لم يجد معونة من علم الطب فى ذلك الوقت ، وجرى الوباء فى مجراه حتى أوجد فى الناس مناعة منه أو أهلك كل من حمل جراثيمه . وكانت له فى البلاد آثار يخطئها الحصر . فقد أفقرت كثير من الأنحاء من سكانها حتى أضحت صحارى أو غابات ، ونقص إنتاج الغذاء ، واضطربت وسائل النقل ، وأتلفت فيضانات الأنهار مقادير كبيرة من الحبوب ، وجاء القحط فى أعقاب الوباء . واختفت مظاهر الهجة التى امتازت بها بداية حكم ماركس ، واستسلم الناس للحيرة والنشائم ، وهرعوا إلى العرافين والمتنبئين ، وغمروا المذابح بالبخور والضحايا ، وطلبوا العزاء فى الملائد الوحيد الذى أتيج لهم ، فى الدين الجديد دين خلود النفس والسلام السماوى .

وبينا كانت هذه الكوارث تجتاح البلاد فى الداخل جاءت الأنباء (١٦٧) بأن القبائل الضاربة على ضفاف الدانوب — التثاقى ، والقادى ، والمركمانى ، واللازيكى Lezyges — قد عبرت النهر ، وفتكت بحامية رومانية عدتها عشرون ألفاً ، وأخذت تزحف على داشيا ، وريتيا Rretia ، وبانونيا ، ونوركم ، وأن بعضها قد شقت طريقها فوق جبال الألب ، وهزمت كل الجيوش التى أرسلت لصددها ، وحاصرت أكويليا Aquileia (القريبة من البندقية) ، وأخذت تهدد فرونا Verona ، وتتلغ الحقول الغنية فى شمالى إيطاليا . ولم تكن القبائل الألمانية

فى وقت من الأوقات أكثر مما كانت وقتئذ اتحاداً وتماسكاً فى زحفها ، ولم تهدد رومة فى يوم ما أشد من تهديدها إياها فى ذلك الوقت . وأقدم ماركس على العمل الحاسم بسرعة أدهشت الناس جميعاً ، فنبذ ملاذ الفلسفة ، وقرر أن ينزل بنفسه إلى الميدان ليخوض عمار الحرب التى تنبأ بأنها ستكون أخطر الحروب التى خاضتها رومة منذ أيام هنيبال ، وروع إيطاليا بتجنيد رجال الشرطة ، والمجالدین والعبيد ، وقطاع الطرق ، ومرترقة البرابرة ، فى فيالقه التى حصدها الحروب والأوبئة . وحتى الآلهة نفسها قد جندوها لخدمة أغراضه : فتمد أمر كهنة الأديان الأجنبية أن يقربوا القرابين إلى رومة حسب طقوسهم المختلفة ، وحرق هو نفسه من الضحايا على المذابح ما جعل أحد الفكهين يذيع رسالة بعثت بها إليه ثيران سود ، ترجوه فيها ألا يسرف فى الانتصار وتقول فيها : «مما أشد خسارتنا إذا انتصرت» (٥٥) . وأراد أن يوفر المال اللازم للحرب دون أن يفرض لها ضريبة خاصة فباع بالمازاد العائى فى السوق العامة ما فى القصور الإمبراطورية من خزانات الثياب ، والتحف الغنية ، والحلى . وأعد العدة للدفاع بعناية عظيمة - فحصن المدن القائمة على الحدود من غالة إلى بحر إيجه ، وسد الممرات الموصلة إلى إيطاليا ، وأغرى القبائل الألمانية والسكوذية بالرشا السخية على الهجوم على مؤخرة الغزاة . ثم درب جيشه ونظمه أحسن تدريب وتنظيم بمجد وشجاعة ثيران أعظم الإعجاب لحبيشهما من رجل يكره الحرب . ثم قاد الجيش بنفسه فى حرب عوان وضع خططها بمهارة وقدرة حربية فنية ، وفك الحصار عن أكويليا ، وطارد المحاصرين وبدد شملهم عند نهر الدانوب ، حتى لم يكدر ينجو منهم من القتل إلا من وقع فى الأسر .

ولم يكن يخفى عليه أن أعماله هذه لم تقض على الخطر الألماني ، ولكنه حسب أن ما أدركه يجعل الموقف آمناً إلى حين ، فعاد مع زميله إلى رومة ، ولكن لوسيوس قضى نحبه فى الطريق بالسكينة القلبية ، غير أن الشائعات ، كالسياسة ، لا تعرف سبيلاً إلى الرحمة ، فقالت إن ماركس دس

له السم . وقضى الإمبراطور الفترة الواقعة بين يناير وسبتمبر عام ١٦٩ في رومة ليستريح من الجهود التي أضنت بنيته الضعيفة حتى كادت تقضى عليه ، وكان يشكو نزلة معوية كثيراً ما كانت تتركه ضعيفاً لا يقوى على الحركة . ولكنه عالج هذا الداء بالاعتصام في الطعام فكان لا يأكل إلا أكلة خفيفة في اليوم . وكان الذين يعرفون حالته الصحية وغذائه القليل يدهشون بما كان يبذله في القصر والحقل من جهود ، كل ما يعللونها به أنه كان يعوض بعزيمته ما يعوزه من قوة جسمه . وقد استدعى إليه عدة مرار جالينوس البرجومي أشهر أطباء زمانه ، وأثنى عليه لبسامة ما كان يصفه له من العلاج (٥٦) .

ولعل ما توالى عليه من المتاعب المنزلية مضافة إلى الأزمات السياسية والعسكرية قد ساعد على اشتداد علته حتى أصبح شيخاً منهوكاً في الثامنة والأربعين من عمره . ولعل زوجته فوستينا ، التي ترى وجهها الجميل في كثير من التماثيل ، لم يكن يسرها أن تشارك في الطعام والفراش رجلاً يكاد أن يكون هو الفلسفة متجسدة ، ذلك أنها كانت امرأة مرحة نشيطة ، تنوق إلى حياة أكثر بهجة مما تستطيع أن تنهجها بإياها فطرته الرزينة الوقور . غير أن النمايين في المدينة كانوا يتهمونها بخيانة زوجها ؛ وهجته المسرحيات التقليدية الصامتة ووصفته بأنه ديوث ، بل ذهبت إلى أبعد من هذا فذكرت أسماء من ينافسونه على زوجته (٥٧) . لكن ماركس فعل ما فعله أنطونينس مع أمه فوستينا فصمت ولم يقل شيئاً ، ولم يكتف بالصمت بل عين عشاقها المزعومين في مناصب عالية وأظهر إلى فوستينا كل دلائل العطف والاحترام ، وأنها لما ماتت (١٧٥) وشكر في تأملاته الآلهة لأنها وهبته « زوجة محبة مطيعة » (٥٨) . وليس لدينا قط دلائل ندينها بمقتضاها (٥٩) ، ولقد ولدت له أربعة أبناء ، كان يحبهم حباً لا نزال نحس بحارته في رسائله التي كتبها لفرنو . وقد مات منهم بنت في طفولتها ، وأما الثانية فكانت حياة لوسيوس سيباً في حزنها ، ووفاته سيباً في ترملها . وكان الاثنان الآخران توأمين ولداً

(٣٠ - ج ٢ - مجلد ٣)

في عام ١٦١ ، مات أحدهما أثناء ولادته ، وأما الثاني فهو كومودس Commodus ، وقالت السنة السوء إنه كان هدية إلى فوستينا من مجالد (١٠) ، وقد ظل هو طول حياته يجاهد لتوكيد هذه القصة : لكنه كان غلاماً وسيماً قوياً نشيطاً ، وكان ماركس يحبه ويحنو عليه حنواً بالغاً لا يستطيع أحد أن يلومه عليه ، وقدمه إلى الفيلق بطريقة ترمز إلى أنه سيختاره خليفة له من بعده . واستخدم خير المدرسين في رومة ليجعلوه صالحاً للحكم . ولكن الشاب كان يفضل الشرب ، والرقص ، والغناء ، والصيد ، والمثاقفة ، ونشأت فيه روح الكراهية للكتب والعلماء والفلاسفة ، وهي كراهية نستطيع فهم أسبابها ، ولكنه كان يسر بصحبة المجالدين وهواة الألعاب الرياضية ، وسرعان ما يز جميع رفاقه في الكذب ، والقسوة ، والألفاظ القذرة . وكان ماركس أشد طيبة من أن يبلغ من العظمة قدراً يستطيع معه أن يؤدبه ، أو يترأ منه ، وظل يأمل أن التعليم والتبعة التي ستلقى على عاتقه سيهدبان من طبعه ويعرسان فيه صفات الملوك . وأخذ الإمبراطور في عزله يهزل جسمه ، ويطول شعر لحيته دون أن يعنى به ، وتضعف عيناه من الهم والأرق ، وبولى ظهره إلى زوجه وولده ، ليعنى بشئون الحكم والحرب .

ولم تكن هجمات القبائل الضاربة في وسط أوروبا قد وقفت إلا إلى حين قصير ، ولم تكن السلم في هذا الصراع القائم لتدمير الإمبراطورية وتحرير البرابرة لإلهنة مؤقتة . ثم أقدم التشارق في عام ١٦٩ على غزو الأقاليم الرومانية عند مجرى الرين الأعلى ، وفي عام ١٧٠ هاجم التشيوس بلجيكا ، وحاصرت قوة أخرى سمرجنسوسا ، وعبر الكنتسباي جبال البلقان وانقضوا على بلاد اليونان ، ونهبوا هيكل الطقوس الخفية في لإوسيس التي تبعد عن أثينة بأربعة عشر ميلاً ، وغزا المغاربة أسبانيا من موطنهم في إفريقيا ، وظهرت لأول مرة على نهر الرين قبيلة جديدة تدعى اللنجباردي أو اللمباردين . وكان البرابرة المخصبون يزددون في كل يوم قوة رغم ما منوا به من الهزائم الكبيرة ، بينما كانت الرومان العقمون يزددون كما

ضعفاً . ورأى ماركس أن الحرب تقتضد حرب حياة أو موت ، يهلك فيها أحد الطرفين عدوه أو يدل له . ولم يكن في وسع مخلوق أن يبدل نفسه تبديلاً تاماً من فيلسوف متصوف إلى قائد ناجح قدير إلا من نشأ نشأة رومانية عرف فيها معنى الواجب المقدس كما يفهمه الرواقيون . ولقد بقى الفيلسوف متخفياً تحت دروع الإمبراطور ؛ فبينما كانت هذه الحرب المرمانية الثانية (١٦٩ - ٧٥) حامية الوطيس ، وبينما كان ماركس في معسكره المواجه لقبائل القاديين على نهر جرنا (*) Granna شرع يكتب ذلك الكتاب الصغير كتاب التأمّلات وهو أهم ما يذكره العالم به . وهذه الدرسات تكشف لنا عن قديس ضعيف غير معصوم من الزلل يقلب في ذهنه مشكلتي الأخلاق والأقدار ، وهو يقود جحشاً عظيماً في صراع يقف على نتيجته مصير الإمبراطورية ، نقول إن هذه اللوحة هي صورة من أدق الصور التي حفظها الزمان لأعظم رجاله وأصدقها . لقد كان يطارد السرماتيين بالنهار ولكنه كان في وسعه أن يكتب عنهم بالليل كتابة من يعطف عليهم : « إن العنكبوت إذا أمسك بدبابة ، ظن أنه أقدم على عمل عظيم ، وكذلك يظن من صاد أرنبا . . . أو أسر السرماتيين . . . أليس هؤلاء جميعاً لصوصاً ؟ » (١١) .

ولكنه رغم هذا ظل يحارب السرماتيين Sarmatians ، والمركانيين ، والقاديين ، والبرزجيين ، حرباً عواناً دامت ست سنين طوالاً ، ذاق فيها الأمرين . ثم هزمهم ، ودفع بقبائله إلى الشمال حتى بلغت بوهيميا . ويبدو أنه كان يبغي أن يجعل سلاسل جبال هرسينيا Hercynian والكربات الحدود الجديدة للإمبراطورية . ولو أنه نجح في تحقيق غرضه ، لكان من المحتمل أن تجعل الحضارة الرومانية الدنيا ، كما جعلت غالة ، لاتيذية في لغتها ، ويونانية في تراثها الثقافي ، ولكنه روع وهو في أوج ظفّره ، إذ علم

(*) وأكبر الظن أنه جرنا Gran أحد روافد الدانوب .

أن أفديوس كاسيوس قد أعلن نفسه إمبراطوراً بعد أن أخذ ثورة شبت في مصر . وأدهش ماركس البرابرة بأن عقد معهم صلحاً سريعاً ، واكتفى بأن ضم إلى الإمبراطورية شريطاً من الأرض لا يزيد عرضه على عشرة أميال على ضفة الدانوب الشمالية ، ووضع جاميات قوية على الضفة الشمالية . ثم جمع جنوده ، وأخبرهم أنه يسره أن يترك مكانه لأفديوس إذا رغبت رومة في ذلك ، ووعد أن يعفو عن الفائد المتمردين ، ثم سار إلى آسية ليواجهه . وحدث في تلك الأثناء أن اغتال كاسيوس ضابط صغير ، ونحمت على أثر مقتله نار الثورة . واخترق ماركس آسية الصغرى وسوريا ، وجاء إلى الإسكندرية ، وحزن كما حزن قيصر لأنه لم تتج له فرصة يظهر فيها رحمته . وكان وهو في أزمير ، والإسكندرية . وأثينة يمشى في الشوارع بلا حرس ، ويلبس عباءة الفلاسفة ، ويستمع إلى محاضرات كبار الأسانذة . ويشترك معهم في المناقشات ، ويتكلم اللغة اليونانية ؛ وأنشأ وهو في أثينة أستاذية في كل مذهب من المذاهب الفلسفية الكبيرة - الأفلاطونية ، والأرسطائية ، والرواقية ، والأبيقورية .

ووصل أورليوس إلى رومة في خريف عام ١٧٦ ، بعد حرب دامت قرابة سبع سنين ، واستقبل فيها بموكب نصر عظيم حي فيه بأنه منقذ الإمبراطورية . وأشرك كمودس معه في نصره . وأجلسه ، وهو لا يزال غلاماً في الخامسة عشرة من عمره معه على العرش . وكانت هذه هي المرة الأولى منذ قرن من الزمان التي لم يراع فيها مبدأ التبنى ، والتي عاد فيها مبدأ الوراثة . ولم يكن ماركس يجهل الخطر الذي سيحقيق بالإمبراطورية من جراء فعلته هذه ، لكنه فعل ما فعل لأنه رأى أن يختار ضرراً أخف من ضرر الحرب الأهلية التي يخشى أن يخوض كمودس وأصدقائه غمارها إذا حرمه من العرش . وليس من حقنا أن نحكم عليه بعد أن عرفنا عاقبة فعلته ، كما أن رومة لم تكن تتوقع عواقب هذا الحب الأبوي . ذلك أنها كانت قد نسيت فلك الوباء بأهلها ، وأخذ أبناءها يذوقون طعم السعادة من جديد ، يضاف إلى هذا أن العاصمة لم تقاس إلا القليل من ويلات الحرب التي

دبر لها ما يلزمها من المال تدبيراً روعى فيه الاقتصاد الشديد ، ولم يفرض عليها فيه إلا القليل الذى لا يستحق الذكر من الضرائب الإضافية ، وبينما كانت نار الحرب مشتعلة عند الحدود ، كانت التجارة رائجة فى داخل المدينة ، وكان رنين النقود يسمع فى كل مكان فيها . لقد بلغت رومة فى ذلك الوقت أوج عزها ، وبلغ حب الشعب للإمبراطور غايته ، وحياء العالم كله ، وكان فى نظره جندياً ، وحكماً ، وقديساً فى وقت واحد .

ولكنه لم ينخدع بهذا النصر المؤزر ، فقد كان يعرف أن مشكلة ألمانيا لم تحل بعد . وكان على ثقة من أن الإمبراطورية لن تستطيع صد الغزوات فى المستقبل إلا إذا اتبعت سياسة نشيطة دفعت بها حدودها إلى جبال بوهيميا . ولذلك أقدم كمودس فى عام ١٧٨ على الحرب الماركمانية الثالثة ، واجتاز نهر الدانوب وهزم القاديين مرة أخرى بعد حملة طويلة قاسية ، لم يلق بعدها مقاومة . وأوشك أن يضم إلى الإمبراطورية بلاد القاديين ، والمركمانيين ، والسرمانيين (وهى بوجه التقريب بوهيميا وغاليسيا المجاورة لنهر الدانوب) ، ويجعلها ولايات جديدة تابعة للإمبراطورية . ولكن المرض انتابه وهو فى معسكره فى فندوبونا Vindobona (فيينا) . ولما أحس بدنو أجله ، دعا كمودس إلى جانبه ، وأنذره أن يواصل السير على الخطة التى أوشكت أن تثمر ثمرتها ، ويحقق حلم أغسطس ، ويدفع حدود الإمبراطورية إلى نهر الإلب (*) . ثم امتنع عن الطعام والشراب ، ومرت به وهو على هذه الحال خمسة أيام ، وفى اليوم السادس استجمع آخر ما كان عنده من قوة ، ووقف على قدميه ، وقدم كمودس للجيش على أنه الإمبراطور الجديد . ثم عاد إلى فراشه ، وغطى رأسه بملءة الفرش ، وأسلم الروح بعد قليل . وقبل أن يصل جثمانه إلى رومة ، كان أهلها قد عبدوه واتخذوه إلهاً رضى أن يعيش على الأرض زمناً قصيراً .

(*) يقول مومن Mommsen المعروف بتزائمه « ليس من حقنا أن نكتفى بالاعتراف بصدق عزيمة الإمبراطور وصلابته ، بل إن علينا فوق ذلك أن نقر بأنه قد فعل ما توجبه عليه السياسة الرشيدة » (٦٢)

الباب العشرون

الحياة والفكر في القرن الثاني

٩٦ - ١٩٢ م

الفصل الأول

تاستس

لقد حررت سياسة نيرفا وتراجان عقل رومة المكبوت ، وبعثت في أدب عهديهما روح التمرد الشديد على الطغيان الذي ولى ولكنه قد يعود إلى سابق عهده . ولقد عبر بلني في تقريله عن هذا الشعور بترحيه بأول الأباطرة الثلاثة حين جلس على العرش ؛ وقبلما كان جوفثال يتغنى بشيء آخر غير مديحهم ، ولم يكن لتاستس أنبه المؤرخين من عمل إلا التنديد بالأيام النحى الى ، والتشجيع بقلمه على ذلك القرن من الزمان .

ولسنا نعرف متى ولد تاستس أو أين ولد ، بل إننا لا نعرف اسمه الأول ؛ وأكبر الظن أنه كان ابن كورنيليس تاستس الذي وكل إليه الإشراف على إيرادات الإمبراطورية ، في غالة البلجيكية . وبفضل ما ناله هذا الرجل من الرقي في المناصب الحكومية ، ارتفعت الأسرة من طبقة الفرسان إلى طبقة الأرستقراطية الجديدة . وأول حقيقة مؤكدة نعرفها عن هذا المؤرخ هي قوله : « اتفق أجركولا في عام قنصلتيه (٧٨) . . . على أن يزوجني ابنته ، التي كانت بلاريب تتطلع إلى صلة أرقى من هذه » (٢) وكان قد

تلقى ما يتلقاه الناس عادة من تعليم ، وأتقن الفنون الخطائية التي تجعل أسلوبه ذا بهجة ورواء ، وحذق طريقة إيراد الحجج المؤيدة والمعارضة التي يمتاز بها ما في تواريفه من خطب . وكثيراً ما استمع إليه بلني الأصغر في المحاكم ، وأعجب بفصاحته وألفاظه الجزلة وسماء أعظم خطباء رومة^(٣) . وعين تاسيتس بريتوراً في عام ٨٨ ، وأصبح من ذلك الوقت عضواً في مجلس الشيوخ . وجدير بالذكر أنه يعترف على نفسه ذلك الاعتراف المنجل وهو أنه عجز عن مقاومة الاستبداد ، وأنه انضم إلى الشيوخ الذين حكموا على زملائهم ضحايا دومتيان . ثم عينه نيرفا قنصلاً (٩٧) ، وعينه تراجان والياً على آسية . وما من شك في أنه كان خبيراً بشئون الإدارة ، وأنه كان ذا تجارب عملية . ولقد كانت كتبه ثمرة حياته السابقة ، ونتاج شيخوخته الخالية من الكد وعقله الناضج العميق .

ونسرى في هذه الكتب كلها روح واحدة - هي كراهيته للأرستقراطية ؛ غراه في هواره من الخطباء (إذا كان هذا كتابه بحق) يعزو اضمحلال البلاغة إلى ما أصيبت به الحرية من قمع ، كما تراه في كتابه « الأومبركولا » Agricola - وهو أكمل تلك الرسائل ذات الموضوع الواحد التي قصر الأقدمون عليها السير - يروى بفخر وخيلاء ما قام به هو ، وهو قائد وحاكم ، من جلائل الأعمال ؛ ثم يقص في حقد وضيغنة كيف فصله دومتيان من عمله وأهمله . ويبين في مقاله القصير عن مركز الأوطان وأصلهم الفرق بين فضائل الشعب الحر المنبعثة عن الرجولة وبين انحلال الرومان وجنهم في عهد الطغاة المستبدين . وتاسيتس حين يثني على الألمان لأنهم يرون قتل الأطفال جريمة تجل مظهرها العار ، ولا يعلون من شأن العقم ، لا يمدح الألمان في واقع الأمر بل يندد بالرومان . وهكذا نرى المهدف الفلسفي يفسد موضوعه

البحث ولكنه يدل على اتساع أفق الموظف الروماني الذي يمتدح قدرة الألمان على مقاومة رومة(*) .

وكان نجاح هذه المقالات مما أغرى تاستس على أن يوضح مساوئ الاستبداد ببيان جرائم الطغاة المستبدين بتفصيل خال من الرحمة . وقد بدأ عمله هذا بإيراد الجرائم التي كانت لا تزال حاضرة في ذاكرته ، والجرائم التي يشهد بها كبار السن من أصدقائه — وهي التي وقعت في الفترة المحصورة بين عهد جلبا وموت دومتيان . ولما أن أقرت الأرستقراطية الشاكرة هذه التواريخ ووصفتها بأنها خير ما كتب في التاريخ من بعد لبث Livy واصل قصته بأن وصف في الحوليات Annales حكم تيبيريوس ، وكلجيولا ، وكلوديوس ، ونيرون . وقد بقيت لنا من الأربعين (أو الثلاثين في قول بعضهم) « كتاباً » من كتب التواريخ أربعة كتب ونصف كتاب ، وكلها مقصورة على أحداث السنتين ٦٩ ، ٧٠ ؛ وأما الحوليات فقد بقي منها اثنا عشر كتاباً ، وكانت عدتها في الأصل ستة عشر أو ثمانية عشر . وهذه الكتب حتى في هذه الصورة المتورة تعد أقوى ما كتب في النثر الروماني ، وفي وسعنا أن نرسم منها صورة غير واضحة لعظمة الكتابين كليهما وأثرهما في النفس . وكان تاستس يأمل أن يؤرخ أيضاً حكم أغسطس ، ونيرقا ، وتراجان ، وأن يخفف من كآبة ما نشر من مؤلفاته بتخليد ذكرى سياسة هؤلاء الأباطرة الإنشائية . ولكن الأجل لم يمهل ، وحكم بحله الخلف ، كما حكم هو على الماضي ، بأن نظر إليه من الناحية القائمة دون غيرها

ويرى تاستس أن « أهم ما يجب على المؤلف هو أن يحكم على أعمال الناس حتى ينال الطيب من هذه الأعمال ثواب الفضيلة ، وحتى يكون ما توجهه محكمة الخلف إلى أعمال السوء من ذم وتقرير حائلا بين المواطنين وبين سيئ

(١) وأكبر الفن أنه كتب في عام ٩٨ قبل حملة تراجان على الداشيين .

الأعمال» (٦). ألا ما أعجب هذا الرأي الذى يجعل التاريخ يوم حساب ، ويجعل المؤرخ لما يحاسب الناس على أعمالهم . وإذا ما فهم التاريخ هذا الفهم استحال إلى مواظ - أعنى درساً فى الأخلاق وسيلتها ضرب أشد الأمثال رهبة - وأصبح كما يفترض تاستس خاضعاً لعلم البيان . إن من السهل على من يغضب أن يكون فصيحاً بليغاً ، ولكن ليس عليه أن يكون عادلاً نزيهاً ؛ ولهذا وجب ألا يقدم العالم الأخلاقى على كتابة التاريخ . ولقد كان تاستس قريب العهد بالمستبدين يحتفظ فى ذاكرته بصورتهم ، وهذا فى حد ذاته يحول بينه وبين نظره إليهم فى هدوء . ومن أجل هذا لم ير من أعمال أغسطس إلا قضاءه على الحرية ، وظن أن كل ما كان للرومان من عبقرية قد قضى عليه يوم أكتيوم (٧) . ويسدو أنه لم يخطر بباله أن يخفف من حدة التهم التى يوجهها إلى الأباطرة ، بذكر براعتهم الإدارية ، ورخاء الولايات فى عهد أولئك الطغاة الجبابرة . وما من أحد يقرأ توارىخه ثم يخطر بباله أن رومة كانت إمبراطورية كما كانت مدينة . وليس ببعيد أن « الكتب » التى ضاعت ، كانت تلقى نظرة على الولايات وعالمها ، أما الكتب الباقية فهى تجعل تاستس مرشداً مقرواً ، لا يكذب قط ولكنه لا يسجل الحقيقة مطلقاً (*) . وكثيراً ما يقتبس من المصادر التى يرجع إليها ، سواء كانت هذه المصادر كتب تاريخ أو خطباً ، أو رسائل ، أو أوامر يومية ، أو قرارات مجالس الشيوخ ، أو أخبار الأسر القديمة ؛ وتراه أحياناً يبحث الناقد الحبير . غير أنه لم يسمع فى معظم الأحوال إلا قصص النبلاء المضطهدين ، وهو لا يتصور قط أن حوادث إعدام الشيوخ واغتيال الأباطرة لم تكن إلا أحداثاً عارضة فى صراع طويل بين الملوك الفاسدين ، القساة ، الكفاة القادرين ، وبين

(٦) يذكرنا هذا بقول مكول « إن بعض المؤرخين يحدثون كل ما لا يكذب الشنيع من أثر وإن كانوا لا يذكرون غير الحقائق » . (المترجم)

أرستقراطية منحلة ، فاسدة ، قاسية ، عاجزة . وهو يفتن بالشخصيات والحوادث البارزة ، أكثر من افتتانه بالقوى العاملة ، والعلل ، والأفكار ، والتطورات ، ويرسم أنبه الشخصيات وأكثرها ظلماً في التاريخ ، ولكنه لا يدرك قط أثر العوامل الاقتصادية في الحوادث السياسية ؛ ولا يهتم مطلقاً بحياة الناس وصناعاتهم ، ولا بتيار التجارة ، أو أحوال الناس العلمية ، ولا بمنزلة المرأة ، ولا بتقلب العقائد الدينية ، ولا بروائع الأدب أو الفلسفة أو الفن . وفي كتب تاستس نرى سنكا ، ولوكان ، وپترونيوس يموتون ، ولكنهم لا يكتبون ، ونرى الأباطرة يقتلون الخلق ولكنهم لا يشيدون . ولعل هذا المؤرخ الكبير كان مقيداً برغبات قرائه وسامعيه ، وأكبر الظن أنه كان يقرأ أجزاء من كتبه — كما جرت به عادة ذلك الوقت — إلى أصدقائه الأشراف الذين يقول عنهم بلني إنهم كانوا يحشدون لاستقباله ؛ ولعله إذا سئل عن سبب إغفاله ما أغفل قال إن أولئك الرجال والنساء كانوا يعرفون الحياة الرومانية ، وأحوال الصناعة ، والأدب ، والفن ، وإنهم لذلك لم يكونوا في حاجة إلى من يذكرهم بها ، وإن ما كانوا يحتاجون إلى سماعه مراراً وتكراراً هو قصة هؤلاء الأباطرة الأشرار المثيرة للشعور ، وما كان يقوم به الشيوخ الصابرون من أعمال البطولة ، وكفاح تبذله طبقتهم النبيلة ضد السلطة الفاشحة . وليس من حقنا أن نأخذ تاستس بما لم يقدم عليه ، وكل ما من حقنا أن نفعله أن نأسف لضيق هدفه السامى والقيود التي فرضها على عقله الجبار .

وهو لا يدعى قط أنه فيلسوف ، ولذلك تراه يثني على أم أجركولا حين تحاول أن تثني عن الاشتغال بالفلسفة ولدها الذي أصبح أشد تحمساً للفلسفة مما هو خليف بالروماني عضو الشيوخ^(٨) . ولقد كان خياله وفنه — كما كان خيال شيكسبير وفنه — أنشط وأكثر إبداعاً من أن يسمح له بأن يفكر وهو هادئ في معنى الحياة وإمكاناتها . وهو يكثر من ذكر الفضائع التي يعوزها التثبت والتحقيق كما يكثر من ذكر الشروح والتعليقات التي توضح

الحوادث وتغيرها ، ولكننا يصعب علينا أن نجد في كتبه فكرة منسقة ثابتة عن الله ، أو الإنسان ، أو الدولة . فهو غامض غموض الخلد حين يكتب عن العقائد الدينية ، ويوحى بأن من يقبل دين بلاده أعظم حكمة ممن يحاول أن يستبدل به العلم والمعرفة . وهو لا يصدق معظم المنجمين ، والعرافين ، ولا يؤمن بالقأل ولا بالطيرة ، ولا بالمعجزات ، وإن كان يصدق بعضها . ذلك أن ظرفه وكمال أدبه يحولان بينه وبين إنكار ما يؤكده الكثيرون من الناس . ويقول إن الحوادث تنزع بوجه عام إلى إثبات « أن الآلهة لا تهتم بالأخبار أكثر من اهتمامها بالأشياء »^(١٠) ، ويؤمن بوجود قوة مجهولة ، وقد تكون قوة متقلبة الأطوار والميول ، تدفع الناس والدول إلى مصائرهما دفعا لا حول لها أمامه ولا طول^(١١) . وهو يأمل أن يكون أجركولا قد انتقل إلى حياة سعيدة ، ولكن يتضح من أقواله أنه يشك في هذا ، وهو يقنع بآخر ما تخادع به العقول الكبيرة نفسها — خلود الشهرة الطيبة^(١٢) .

وهو لا يواسي نفسه بشيء من الآمال الطوية ؛ وفي ذلك يقول : « إن الكثرة الغالبة من خطط الإصلاح يعتنقها الناس في بداية الأمر بحماسة وغيرة ، ولكن سرعان ما تبلى جدتها ، وتنتهى مشروعاتها إلى لا شيء »^(١٣) . وهو يعترف كارهاً بأن الأمور في أيامه خير مما كانت قبل ، وإن كان هذا الخير قصير الأجل ، ولكنه يرى أن لا شيء ، حتى عبقرية تراچان نفسه ، ستمنع عودة التدهور والاضمحلال^(١٤) ، وذلك لأن رومة قد استشرى فيها الفساد ، حتى سرى إلى قلوب الناس ، ففسدت نفوس الجماهير وبدلوا الحرية فوضى^(١٥) ، وأصبحوا رعاعاً « مولعين بكل ما هو جديد ، تنوق نفوسهم إلى التغيير ، وهم على استعداد دائم لأن ينحازوا إلى جانب الأقوياء »^(١٦) . وهو يرى إلى ما ينطوى عليه العقل البشري من خبث^(١٧) ، ويهزأ كما يهزأ جوفنال بالعناصر الأجنبية من سكان رومة . وهو لا يفكر قط في العودة إلى الجمهورية بعد أن سوا سمها « الإمبراطورية » ، ولكنه يرجو أن يتمكن الأباطرة من التوفيق بين الزعامة

والحرية (١٩) . وهو يظن في آخر الأمر أن الأخلاق أعظم أهمية من الحكومة ، وأن عظمة الشعب لا تقاس بما لديه من قوانين بل تقاس بما فيه من رجال . وإذا كنا لا نجد مناصاً من أن نضع تاسيتس في مصاف أعظم المؤرخين ، رغم ما يثير دهشتنا من أننا نجد مواعظ ومسرحيات حيث كنا نبحث عن التاريخ ، فما ذلك إلا لأن قوة فنه تعوضه عن ضيق نظريته . فنظرته قوية ، وأحياناً عميقة ، وهي دائماً واضحة ، والصور التي يرسمها أكثر وضوحاً ، وهي حين تخطو على مسرح التاريخ أكثر حيوية من أية صور أخرى في الأدب التاريخي . على أن هذه الصور نفسها لا تخلو من نقائص وعيوب . فتاسيتس يؤلف من عنده خطباً لشخصياته المختلفة ويؤلفها كلها بطريقته الخاصة وبشره الفخم . فهو يصف جلباً بالبلاهة ثم ينطق بما ينطق به الحكماء (٢٠) . وهو لا يرقى إلى ذلك الفن الصعب الذي يمكنه من أن يجعل شخصياته تنمو وتكمل على مر الأيام ، فتبير يوس مثلاً في بداية حكمه هو بعينه تبير يوس في آخره ، وإذا كان يبدو إنساناً رحيماً في البداية ، فإن ذلك في رأى تاسيتس نفاق وخداع .

وأهم ما يمتاز به تاسيتس هو روعة أسلوبه ، فلسنا نجد كاتباً غيره قد قال كل ما قاله بمثل إحكامه . ولسنا نقصد من هذا أن عبارته كانت موجزة فهو على عكس هذا مسبب كثير الاستطراد ، يشغل ٤٠٠ صفحة من نوارحه لتدوين حوادث عامين اثنين . وتراه أحياناً يفرط في التركيز حتى يبلغ حد التكلف أو الغموض ، وحتى تتطلب كل كلمة ثانية جملة تترجم بها ، وكأن الأفعال وحروف العطف عنده ليست إلا عكازات للعقول الكلية . وهذا الأسلوب هو النتيجة التي أدى إليها أسلوب سالست Sallust الموجز السريع ، ونكات سنكا القصيرة المحكمة ، والجمل القصيرة المتزنة التي كانت تعلم في مدارس البلاغة . وهو أسلوب ، إذا كتب به كتاب طويل ، ولم تتخلله فقرات أكثر من فقراته اعتدالاً ، يثير عقل القارئ وينهكه ، ولكنه مع ذلك يعود إليه ويزداد به

افتنانا . وهذا الجفاف العسكرى الذى يقتصد فى الألفاظ أكثر مما يقتصد فى الرجال ، وهذا الازدراء بدعائم الجمل ، وهذه المشاعر الثائرة ، وهذا الوضوح فى التصور ، وهذا السيل الجارف من المفردات الجديدة ، وهذه العبارات اللاذعة القاتلة التى لم تبل جدتها ، هذه كلها تضى على كتابات تاستس سرعة ، ولونا ، وقوة ، لم يضارعه فيها كاتب آخر من الكتاب الأقدمين . نعم إن اللون قائم ، والمزاج نكد ، والسخرية لاذعة ، والنغمة كلها نغمة دائية مجردة من رفته وحزوه ؛ غير أن الأثر الذى ينتج من هذا كله قوى عارم . وإن العنصر القصصى الذى يجمع بين المهابة والإثارة ، والجزالة والعنف ، ليحملنا على الزغم من تحفظنا وتمنعنا فى هذا النهر العكر الأسود الملىء بالتشنيع الخالى من الرأفة . فترى شخصية فى أثر شخصية تظهر على مسرح الحوادث ، ثم يقضى عليها ؛ ومظهراً فى أثر مظهر يدفع أمامنا حتى يبدو لنا أن رومة كلها قد دمرت ، وأن كل من اشتركوا فى الصراع قد هلكوا ، وحتى لا نكاد نصدق حين نخرج من هذا الجو الملىء بالرعب والهول ، أن هذا العهد الاستبدادى المفعم بالجن والفساد الخلق قد أعقبه مجد الملكية أيام هديران والأنطونيين ، وتأدب أصدقاء بلنى الهادى . ولقد أخطأ تاستس فى ازدرائه الفلاسفة — ونعنى بها هنا مراعاة التناسب فى كتابته . وإن عيوبه كلها ترجع إلى هذا النقص . ولو أنه استطاع أن يهذب قلمه ، ويسيطر عليه ، ويسخره لخدمة عقله الواسع ، لوضع اسمه فى مقدمة أسماء أولئك الرجال الذين بذلوا جهودهم ليخلدوا تراث البشرية ، ويصوروا هذا التراث فى صورة حية خالدة .

الفصل الثاني

جوفنال

ومما يؤسف له أن جوفنال يؤيد تاسيتس ويعزز أقواله . فالذى يكتبه ثانيهما عن الزعماء والشيوخ في نثر حاد نافذ في الصميم ، ينشده أولهما عن النساء والرجال في شعر لاذع قارص .

كان دسيمس جونيوس جوفناليس Decimus Junius Juvenalis ابن أحد المشايخ الأثرياء . وقد ولد في أكوينم Aquinum من أعمال لاتيوم Latium في عام ٥٩ . جاء إلى رومة يطلب العلم ، وأخذ يمارس صناعة المحاماة « ليتسلى بها » . وتدل أشعاره الهجائية على ما يفتاب الأذواق الريفية من دهشة وصدمة إذا ما التفت بصخب حياة الناحلة المنحلة . ولكن يبدو مع هذا أنه كان صديقاً لمارتيال ، الذى تدل فكاهاته على أنه لم يكن من دعاة الأخلاق الفاضلة . وتقول إحدى الروايات غير الموثوق بصحتها إن جوفنال ألف قبل موت دومتيان بزم من قليل قصيدة هجائية فيما للراقصات من أثر في البلاط ووزعها على أصدقائه ، ويقال إن باريس الممثل الهزلى الصامت أغضبه هذا فسعى يعمل على نفيه إلى مصر . ولسنا نستطيع أن نجزم بصحة هذه القصة ، كما أننا لسنا واثقين من تاريخ عودة جوفنال إلى رومة . ومهما يكن من أمر فإنه لم ينشر شيئاً حتى مات دومتيان . وقد ظهر المجلد الأول من قصائده الهجائية الست عشرة في عام ١٠١ ، ثم ظهر الباقي منها في أربعة مجلدات على فترات متقطعة في أثناء حياته الطويلة ، وأكبر الظن أنها كانت ذكريات من عهد دومتيان الذى لم يعف الشاعر عما لحقه من أذى فيه ، ولكن الحقد وهو السبب في وضوحها وقوتها وارتيابنا في صدقها ليوحى بأن سنى « الأباطرة الصالحين » القليلة لم تمنح المسارئ التى يندد بها . أو لعله

قد اختار الهجاء لأنه من الأساليب التي تميز الرومان من غيرهم من الشعوب . وأنه وجد أمثلة يحتذيها ، ومادة يقتبسها في كتابات لوسليوس ، وهوراس ، وپرسیوس ، وصاغ سخطه وغضبه على أساس المبادئ البيانية التي تعلمها في المدرسة . والحق أنا لا نعرف مقدار التقدم الذي خلعه على الصورة التي في ذهننا عن رومة الإمبراطورية ، وما كان يجده الكتاب والشعراء من لذة في التشهير والسباب .

ويتخذ جوفثال كل شيء موضوعا لشعره . وهو لا يجد قط مشقة في أن يجد في كل شيء ناحية تتحمل الدم ، ويظن « أننا قد وصلنا إلى الدرجة القصوى في الرذيلة ، وأن من يأتون بعدنا لن يستطيعوا أن يتفوقوا فيها علينا » وهو صادق في هذا . ولقد كان أصل البلاء كله طلب الثروة بجميع الوسائل الطيب منها والخبث . وهو يسخر من العامة الذين كانوا في الأيام الخالية يحكمون الجيوش ويخلعون الملوك ، ولكنهم أصبحوا الآن يشترون بالخبز والألعاب (٣٣) . وتلك عبارات من مثات العبارات التي خلدها جوفثال بقوته وحيويته . وهو يستنكر ذلك السبل المتدفق من الوجوه ، والثياب ، والأساليب ، والروائح ، والآلهة الشرقية ، ويحتج على نزعة اليهود القبلية ، وأقل من يحبه من الخلق هو « اليوناني القمي » الشره ، وهو السلالة المنحطة لشعب كان من قبل عظيما ولكنه لم يكن قط شريفاً . وهو يظهر اشمئزازه من الخبزين ، أشباه رجيلس Regulus الذي يصفه بانى ، والذين يثرون بنقل ما ينطق به الأفراد من عبارات « غير وطنية » ، ومن الذين يجرّون وراء الوصايا فيحومون حول من لا أبناء لهم من الطاعنين في السن ، ومن حكام الولايات الذين يعيشون طول حياتهم عيشة الترف بما يبيزونه من الأموال في أثناء حكمهم ومن المحامين النابهن الذين يطيلون القضايا كما يطيل العنكبوت نسيجه الذي يبرزه من بطنه ، وأشد ما يعافه هو الإفراط في الصلات الجنسية والشذوذ الجنسي : الخليع المتهتك الذي إذا تزوج وجد أن عهره قد جعله ضعيفاً عاجزاً ، ومن الشبان المنافقين الذين لا نستطيع أن نميزهم من النساء لتشبههم بهن .

(٣١ - ج ٢ - مجلد ٣)

في أخلاقهم ، وتعطّروهم وشهواتهم ؛ ومن النساء اللاتي يعتقدن أن معنى التحرر أن يتشبهن في كل شيء بالرجال حتى لا تستطيع تمييزهن منهم .

وقد خص الجنس اللطيف بقصيدته الهجائية السادسة وهي أشد قصائده صرامة . نرى فيها *Postumus* يفكر في الزواج ، فيجذره جوفئال من التورط في هذا العمل ؛ ثم يصور الشاعر نساء رومة ويصفهن بأنهن أنانيات ، سليطات ، مخرفات ، مسرفات ، كثيرات الشجار ، متعجرفات ، مغرورات ، محبات للزواج ، زانيات لا يكدن يتزوجن حتى يطلقن ، ويستبدلن الكلاب المدللة بالأطفال « (٢٤) » . ويخلص من هذا الوصف إلى أنه لا تكاد توجد في رومة كلها امرأة خليقة بأن تكون زوجة . ويقول إن الزوجة الصالحة عصفور نادر ، أندر من الغراب الأبيض . ويدهشه أن *Postumus* يفكر في الزواج على حين أن هناك « حبالا كثيرة للشق ، ونوافذ كثيرة عالية شامة استطاع الوصول إليها ؛ وعلى حين أن جسر *إيميلوس* لا يبعد عنه إلا قليلا » . حذار أن تزوج ، بل ابق عزبا ، واخرج من مستشفى المجانين الذي يحطم الأعصاب ، والذي يسمونه رومة ، وعش في بلدة إيطالية هادئة ، تلتقي فيها برجال أشراض ، وتأمين فيها على نفسك من المخرمين والشعراء ، والمباني المنهارة ، واليونان (٢٥) . وإلا حرج المطامع وراء ظهرك ، فإن الهدف لا يستأهل ما يبذل في الوصول إليه من جهود . ألا ما أطول الجهد ، وما أقصر ما يعقبه من صيت . عش عيشة بسيطة ، وازرع حديقتك ، ولا تطلب أكثر مما يسد رمقك ، ويطفي ظمأك وبرد عنك البرد والحر (٢٦) . وعود نفسك الرأفة ، وأشفق على الأطفال ، وكن ذا عقل سليم في جسم صحيح (٢٧) . والأبله وحده هو الذي يرجو طول الأجل .

وليس من العسير علينا أن نفهم هذا المزاج . ذلك أن مما يسر له الإنسان أن يفكر في نقائص جيرانه وفي ضعة العالم وحقارته إذا قورن بأحلامنا . وإن مما يضاعف سرورنا ونحن نفكر هذا التفكير أن نرى هذه الآراء

مصبوغة في الفاظ جوفئال التي جمعها من ألسنة الغوغاء في أزقة المدن وأشعاره
السلسلة السادسة الأوتاد ، وفكاهته الساخرة ، وأسلوبه البذيء . ولكن ليس
من حقنا أن نأخذ به بحرفية أقواله . لقد كان يكتب وهو غاضب ، لأنه لم
يشق طريقه في رومة بالسرعة التي كان يرجوها . وكان يحلو له أن يثار
لنفسه بأن يكيل الضربات قوية لكل من حوله مدفوعاً إلى ذلك بحقده الذي
لم يدع في يوم من الأيام أنه حقد عادل . لقد كان معياره الخلق عالياً وسليماً
وإن كان قد لوثته أهواء المتحفظين وآراؤهم الخاطئة عن الماضي الطاهر
الشريف . وفي وسعنا إذا استمسكنا بهذه المعايير ، واتبعناها في غير رحمة
واعتدال ، أن ندين أي جيل من الناس في أي مكان . وقد أدرك سنكا قدم
هذا اللهو فكتب يقول : « لقد كان أسلافنا يشكون ، ولا نزال نحن
نشكو ، وسيظل أبناؤنا وأحفادنا يشكون ، من فساد الأخلاق ، ومن تمكن
الشر من النفوس ، ومن تردى الناس في مهاوى الخطايا كل يوم أكثر من
الذي قبله ، ومن أن أحوال الناس تنتقل من سيئ إلى أسوأ منه^(٣٠) . إن من
وراء الفساد الخلق الطاهر في كل مجتمع دائرة من الحياة السليمة يتسع نطاقها
اتساعاً مستمراً ويكفي ما فيها من خيوط التقاليد ، وأوامر الدين التي تحض
على الخلق الصالح ، وما تفرضه الأسرة من واجبات اقتصادية ، وما تدفع
إليه الغريزة من حب الأبناء والعناية بأمرهم ، وما للمرأة ورجال الشرطة من
رقابة ، يكفي ما فيها من هذا كله لأن يجعلنا أمام الناس مؤدبين محترمين
عاقلين معتدلين . لقد كان جوفئال أعظم الهجائين الرومان ، كما كان تاستس
أعظم المؤرخين الرومان ، ولكننا نخطئ إذا أخذنا الصورة التي يرسمها على أنها
صورة صحيحة ، كما نخطئ إذا قبلنا من غير بحث وتمحيص المنظر الراق
الجلداب الجميل الذي يترأى أمامنا ونحن نقرأ رسائل بلني .

الفصل الثالث

سيد روماني كامل

لما ولد في كومو Como سمي پلينيوس كاسيليوس سكندس Plinius Caecilius Secundus . وكان لأبيه ضيعة وقصر صغير ذو حديقة قرب البحيرة ، وكان يشغل منصباً كبيراً في المدينة . وتيم وهو صغير فتبناه وعلمه أولا فرجينوس روفس Virginius Rufus والى ألمانيا العليا ، ثم عمه كيوس پلينيوس سكندس Caius Plinius Secundus مؤلف كتاب التاريخ الطبيعي . وتبنى هذا العالم المجد ابن أخيه وأورثه ملكة ثم مات بعد ذلك بقليل . وتسمى الولد باسم متبنيه كما جرت به العادة في تلك الأيام ، وأدى ذلك إلى ارتباك في الأسماء ظل قائماً إلى أنى عام . وتلقى العلم في رومة على كونتليان ، فشأه على تذوق شيشرون ، وإليه يرجع بعض الفضل في أسلوب پلني الشيشروفي السلس . ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره قيد في جدول المحامين ، وفي التاسعة والثلاثين اختير لإلقاء خطاب ترحيب بتراجان . وفي السنة نفسها عين قنصلا ؛ وفي عام ١٠٣ عين عرافاً ؛ وفي عام ١٠٥ عين « حارساً على مجرى التبر وضفتيه وعلى مجارى المدينة » . ولم يكن يأخذ أجراً أو هدايا على أعماله القضائية ، ولكنه كان واسع الثراء ، في وسعه أن يكون كريماً عظيماً . وكانت له أسلاك في إتروريا ، وبنفتم ، وكومو ، ولورنتم ، وعرض ثلاثة ملايين سسترس ثمناً لملك آخر (٣١) .

وكان يفعل ما يفعله كثيرون من أشراف ذلك الوقت فيتسلى بالكتابة : كتب أولا مأساة يونانية ، ثم عدة قصائد ، كلها خفيفة الروح ، وبذيئة في بعض الأحيان . ولما لامه بعضهم على هذا اعترف بخطئه ولكنه لم يرجع عنه ، وعرض مرة أخرى أن « يندفع في تيار المرح ، والفكاهة ، واللهو ،

ويندمج في روح أشد أنواع الأدب خلاعة وفجوراً» (٣٢) . ولما سمع الناس يشنون على رسائله ، ألف بعضها لينشر ، ونشرها في فترات متقطعة بين عامي ٩٧ ، ١٠٩ . وإذا لم يكن ينشر هذه الرسائل للجمهور فحسب ، بل كان يقصد أيضاً أن تستمتع بها الأوساط التي يصفها فيها ، فقد تجنب وصف النواحي القائمة من الحياة الرومانية ، وأغفل المسائل الفلسفية والسياسية الواسعة لأن فيها من الجلد أكثر مما يتفق مع غرضه . وتنحصر قيمة هذه الرسائل في صدقها وظرفها ، وفيما تضيفه على الخلق الروماني وعلى أساليب الأشراف من أضواء وردية براقية .

ويكشف بلني عن نفسه بنصف الصراحة التي يكشف بها عن نفسه منتاني وبكل ما في كتابات منتاني من سلاسة التعبير . وهو يتصف بالغرور الذي يستطيع أي مؤلف أن يتحاشاه ، ولكن صراحته في غروره هذا تجعله غروراً لا يكاد يسيء . انظر مثلاً إلى قوله : « إنني لأعترف ألا شيء أقوى أثراً في من الرغبة في أن يخلد اسمي » (٣٣) . وهو يقدر غيره كما يقدر نفسه ، ويقول إن « في وسع الإنسان أن يثق بأن شخصاً ما يتصف بكثير من الفضائل إذا سمعه يعجب بفضائل غيره » (٣٤) . ومهما تكن عيوب بلني فإن مما يستريح له الإنسان بعد دراسة جوفثال وتاستس ، أن يستمع إلى مؤلف يثنى على بني جنسه . ولقد كان كريماً في أعماله كما كان كريماً في أقواله ، لا يتردد قط في أن يفعل المعروف ، ويقرض المال ، أو يقدم الهدايا ، ولا يضمن بعمل الخيرات على اختلاف أنواعها ، سواء كانت شخصية كالبحث عن زوج لابنة أخ صديق ، أو زيادة ثروة المدينة التي ولد فيها . ولما وجد أن كونتليان عاجز عن أن يقدم لابنته بائنة تليق بمقام الرجل الذي ستزوج به ، بعث إليها بخمسين ألف سسترس ، واعتذر في الوقت نفسه عن حقارة الهدية (٣٥) . ووهب رفيقاً قديماً له في الدراسة ثلثمائة ألف سسترس ، يمكنه من أن ينضم إلى طبقة الفرسان ؛ ولما وجد أن ابنة صديق له همت بعد موت أبيها بديون باهظة أداها كلها عنها ، وأقرض مبلغاً كبيراً إلى

فيلسوف نفاه دوميتيان وتعرض بذلك لبعض الخطر . ووهب كومو هيكلًا ، ومدرسة ثانوية ، ومعهدًا للأطفال الفقراء ، وحمماً للبلدية ، وأحد عشر ألف سسترس لإنشاء مكتبة عامة .

وأكبر ما يسر له الإنسان من صفاته هو حبه لموطنه ، أو إن شئت فقل لمواطنه ، وهو لا يذم رومة ، ولكنه يكون أسعد حالاً في كومو أو لورنم بالقرب من البحيرة أو البحر . وأهم ما كان يعمل هناك هو القراءة وعدم القيام بعمل ما . وهو يحب حدائقه ، وما وراءها من المناظر الجبلية ؛ ولم يكن عليه أن ينتظر روسو ليعلمه حب الطبيعة . وهو يتحدث بمنتهى الحنان عن زوجته الثالثة كليرنيا Calpurnia فيصف طبعها الحلو ، وعقلها الصافي ، وابتهاجها بنجاحه ، وحبها لكتبه ، ويعتقد أنها قد قرأتها كلها ، وأنها تحفظ الكثير من صحائفها عن ظهر قلب . وقد لخصت قصائده وغنتها ، وكان لها فرقة خاصة من الرسل يأتونها بجميع ما يحدث من التطورات أثناء نظره في قضية هامة . ولم تكن هي إلا واحدة من نساء كثيرات طبيبات في محيطه . فهو يتحدثنا عما تتصف به فتاة في الرابعة عشرة من عمرها من تواضع ، وصبر ، وشجاعة . وكانت هذه الفتاة قد خطبت من وقت قصير ولكنها ما لبثت أن عرفت أنها مصابة بداء عضال لا تشفى منه ، فأخذت تنظر منيتها وهي مبتهجة (٣٦) . ويحدثنا كذلك عن زوجة پمپيوس سترنيس Pompeius Saturninus التي كانت رسائلها لزوجها أناشيد حب ونماذج باللغة اللاتينية الظريفة (٣٧) ؛ وعن فانيا Fannia ابنة ثرازيا Thrasaea التي قاست آلام النفي دون أن تشكو أو تتملل لأنها دافعت عن زوجها هلفديوس ، والتي مرضت قريباً لها في أثناء إصابته بمرض خطر ، فأصيبت بذلك المرض وقضى على حياتها ؛ ثم يقول فيها : « ألا ما أكمل فضائلها ، وطهرها ، واستقامتها ، وشجاعته ! » (٣٨) .

وكان له مائة صديق ، بعضهم من العظماء ، وكلهم من خيار الناس ، وقد

انضم إلى تاسيتس في محاكمة ماريوس پرسكس لخيانته وقسوته في أثناء ولايته على أفريقية . وصحح كلا الخطيئين خطبة صاحبه ، وأثنى عليه أجمل الثناء . وأشاد تاسيتس ببلني ورفعه إلى عنان السماء ، حين قال إن عالم الأدب اعترف بهما زعيمى الكتاب في عصرهما^(٣٩) . وكان يعرف مارتيا ل ، ولكنه يعرفه من بعيد معرفة الأرسطقراط . واستصحب معه سوتنيوس إلى بيشنيا ، وساعده على التمتع بميزة من « له ثلاثة أبناء » دون أن يكون له ابن واحد . وكان محيطه يطن بهواة الأدب والموسيقى ، وبمن ينشدون الشعر ويلقون الخطب على الجماهير . وفي ذلك يقول العالم بواسيه Boissier : « لست أعرف أن الأدب كان يحبه الناس في عصر من العصور بالقدر الذى كان يحبه به أهل ذلك العصر »^(٤٠) . فقد كانوا يدرسون هومر وقرجيل على ضفاف الدانوب ؛ وكانت البلاغة تزلزل نهري الرين والتيمز . لقد كان النصف الأعلى من ذلك المجتمع ظريفاً ، أنيساً ، محبوباً ، غنياً بما فيه من أزواج متحابين ، وآباء عاطفين ، وسادة رحماء ، وأصدقاء أوفياء ، ومجاملات لطيفة . وقد جاء في إحدى الرسائل : « إني أقبل دعوتك للعشاء ، ولكنى أشرط عليك مقدماً أن تأذن لى بالخروج بعد قليل ، وأن تكون مقتصداً فيما تقدمه لى ، وألا تجعل مائدتنا تزدحم إلا بالأحاديث الفلسفية ، وحتى هذه دعنا نستمتع بها في نطاق محدد »^(٤١) .

وكان أكثر الرجال الذين يصفهم بلاني من الأشراف الجدد الذين نشأوا في الولايات . ولم يكن هؤلاء ممن لا يقومون بعمل ، لأنك لا تكاد تجد واحداً منهم لا يشغل منصباً عاماً أو لا يشترك في الإدارة البارعة التى كانت تدير شئون الإمبراطورية في عهد تراچان . وقد عيّن بلاني نفسه والياً على بيشنيا بعد أن كان پريتوراً في رومة ليعيد إلى بعض مدنها مقلدتها على أداء ديونها . وتشمل رسائله بعض الأسئلة الموجهة إلى الزعيم ، ومعها إجابات

تراجان السيدة . وهى تظهر بلنى بمظهر الرجل الذى ينجز مهمته بمقدرة وأمانة ، وشرف ، وإن كانت تظهره أيضاً بمظهر الرجل الذى يعتمد على نصيحة الإمبراطور فى كل صغيرة وكبيرة . وهو يرجو الإمبراطور فى رسالته الأخيرة أن يغفر له إرساله زوجته المريضة فى عربات البريد الإمبراطورى . ويختفى بلنى بعد هذه الرسالة من ميدان الأدب والتاريخ ، تاركاً وراءه ما يعوضنا عن فقدته — صورة الرومانى السميندع ، وصورة لإيطاليا فى أسعد أيامها .

الفصل الرابع

اضمحلال الثقافة

لو أننا أحطنا هذه الشخصيات البارزة بأضواء أقل من أضوائها لطمسناها وأخفيناها عن أعين الناظرين . ذلك بأنه لم يخلفها في الآداب اللاتينية الوثنية جبايرة أمثالها ، لأن العقل قد بذل كل ما كان يدخره من جهد من عهد لانيوس إلى عهد تاستس حتى لم يبق لديه جهد مدخر ، ولهذا فإننا نصدم أكبر صدمة حين ننقل من عظمة كتابي التواريخ والمجوليات إلى كتاب سوتنيوس المزرى المسمى حياة الرجال النابهين (١١٠) : ففي هذا الكتاب ينحط التاريخ حتى يصبح مجرد سير ، وتنحط السير حتى تصبح قصصاً . وتمتلئ صفحات الكتاب بالنثر ، والمعجزات ، والخرافات : ولم يرفع الكتاب إلى منزلة الكتب الأدبية إلا الأسلوب الإليصاباتي الذي ترجمه به فليمون هلند Philemon Holland (١٦٠٦) : وأقل من هذا إثارة للاشمئزاز الانحدار من رسائل بلني إلى رسائل فرنسو . ولعل هذه الرسائل الأخيرة لم يكن يقصد نشرها ، وليس من العدل لهذا السبب أن نفاضل بينها وبين رسائل بلني . لكننا يجدر بنا أن نقول إن بعضها قد أفسده جرى الكاتب وراء العبارات العتيقة ، وإن كان في الكثير منها شيء من العطف الحقيقي الذي يشعر به المعلم نحو تلميذه . وقد أيد أولس جليوس Aulus Gellius حركة الرجوع إلى العبارات العتيقة في كتابه الليالي الأثنية (١٦٩) - وهو أكبر مجموعة من السخافات الحقةرة النافهة في الأدب القديم ، ووصل أبوليوس Apuleius هذه الحركة إلى غايتها في كتابه المسمى الحمار الذهبي . وقد جاء أبوليوس وفرنسو من أفريقية وربما كان من أسباب نشأة

هذه الهواية أن الأدب اللاتيني في تلك البلاد لم يكن قد اختلف عن لغة الشعب والجمهورية بقدر اختلافه عن هذه اللغة في رومة . وكان فرنثو قوى الاعتقاد بأن من الواجب أن يقوى الأدب بلغة الشعب ، كما يجدد الإنسان قوة النبات بتقليب الأرض عند جذوره . لكن الشباب لا يعود قط إلى حياة الرجل ، أو الأمة ، أو الأدب أو اللغة(*) . لقد كانت النزعة الشرقية قد بدأت تدب في هذه الكتب ، ولم يكن من المستطاع وقف سيرها . وكانت اللغة اليونانية العامية المنتشرة في الشرق الهلنستي ورومة المستشرقة تصبح شيئاً فشيئاً لغة الأدب ، ولغة الحياة جميعاً . وقد اختارها تلميذ فرنثوليكتب بها تأملاته ، وكما اختار أبيان Appian ، وهويوناني إسكندري اتخذ رومة موطناً له ، اللغة اليونانية ليكتب بها كتابه الواضح الساطع في تواريخ حروب رومة (حوالي ١٦٠) ؛ وكذلك فعل كلوديوس إيليان Claudius Aelian . وهو رجل روماني المولد والدم ، وكتب ديوكاسيوس ، وهو رجل روماني من أعضاء مجلس الشيوخ ، بعد نصف قرن من ذلك الوقت ، تاريخاً لرومة باللغة اليونانية . ذلك أن زعامة الأدب قد أخذت وقتئذ تعود من رومة إلى الشرق اليوناني ، على أن هذه العودة لم تكن عودة إلى الروح اليونانية الأصيلة ، بل إلى الروح الشرقية ، وإن كانت تستخدم اللغة اليونانية . لقد وجد في الأدب اليوناني بعد هذا الوقت جبايرة ، ولكنهم كانوا قديسين مسيحيين .

وكان اضممحلال الفن الروماني أبطأ من اضممحلال الآداب اليونانية . ذلك أن الكفاية الفنية قد طال عهدها وأخرجت طائفة قديرة من المباني ، والتماثيل ، والصور ، والفسيفساء . ومن أمثلة تحف ذلك العصر رأس نيرفا المحفوظ في

(*) لا شك أن قيام حياة الأمة ، والأدب ، واللغة بحياة الفرد قياس مع الفارق ، وأن القول بأن شياها إذا ولي لا يعود قط لا يستند إلى أساس علمي صحيح ؛ فكثيراً ما رأينا شباب الأمم والآداب واللغات يتجدد ويعود أقوى مما كان . (المترجم)

الفاتيكان ، والذي يتمثل فيه الطابع الواقعي الواضح الذي نشاهده في الصور الفلائية ؛ وعمود تراجان مثل من النقوش الرائعة رغم كثرة ما فيه من فجاجة . ولقد بذل هدران جهوداً مضنية لإحياء الفن اليوناني القديم ، ولكنه لم يجد من يصدق عليه ماله وعونه كما أغدق بركليز المال والعون على فدياس . يضاف إلى هذا أن الإلهام الذي كان يحرك بلاد اليونان بعد مرثون ، وبحرك رومة بعد أكتيوم ، كان معدوماً في عصر يكبل فيه الناس أنفسهم بالقيود ، ويصطنعون القناعة ويحنحون للسلم . من أجل هذا نرى تماثيل هدران النصفية تعوزها الصفات المميزة لشخصيته لما فيها من خطوط هلنستية ملساء ؛ ورأساً بلوتينا وسابينا جميلان ، ولكن النفس تشمئز من صور أنثينوروس لما فيها من تفاهة مخنثة ناعمة . وأكبر الظن أن هدران قد أخطأ إذ حاول العودة إلى الفن اليوناني القديم : فقد قضى بهذه المحاولة على ما كان يمتاز به فن النحت الفلائي والتراجاني من نزع طبعية وفردية دافعة قوية ، كانت لها جنور متأصلة في التقاليد والأخلاق الإيطالية ، وما من شك في أن شيئاً ما لا يستطيع أن يتضح إلا عن طريق تحقيق طبيعته الخاصة به .

وقفز فن النحت اليوناني إلى قرب ذروته في عهد الأنطونيين ، بل إنه وصل في هذا العهد إلى درجة الكمال مرة واحدة على الأقل ، وذلك في صورة فتاة مثل فيها رأسها المقنع وثيابها المتواضعة تمثيلاً رقيقاً ساحراً ، وبخطوط غاية في القوة (٤٣) . وتكاد تضارعها في الجمال صورة فوستينا لماركس ، وهي التي تثير من الشهوة ما يتفق مع لمزات التاريخ . وقد نحت لأورليوس نفسه أو صبت له تماثيل لا تقل أشكالها عن ألف شكل تختلف من تمثال الكهتول النصفى الذي يمثل شاباً مفكراً سليماً من المكر والخداع ولكنه

شديد الحساسية ، إلى تمثاله في هذه المجموعة نفسها والذي يمثله في صورة استاذ ذى شعر ملتو ودروع سابغة . وليس ثمة سائح يجهل تمثال الإمبراطور أورليوس الفارس ذلك التمثال البرنزي الفخم الذى يشرف ، من يوم أن أعاده ميكل أنجلو ، على ساحة الكپتول .

وبقى النقش البارز إلى آخر العهود فنا رومانيا محبوبا . وعادت في أيام هديران العادة التسكانية والهلنستية ، عادة حفر المناظر الأسطورية والتاريخية على التوابيت حين اتخذ الأمل في انخلود صورة شخصية بل صورة جسمية ، وحل دفن جثث الموتى محل إحراقها . وتظهر لإحدى عشرة لوحة باقية من أقواس النصر التى أقيمت لتخليد ذكرى حروب أورليوس(*) الطراز الطبيعى فى أكمل أشكاله : فليس فى هذه اللوحات صورة واحدة لشخص قد رسم على أنه مثل أعلى للأشخاص ، بل إن لكل فرد فيها خصائصه الفردية التى يمتاز بها من غيره ، فصورة ماركس وهو يستقبل فى غير فخر أو كبرياء خضوع أعدائه المغلوبين صورة يستثير صاحبها الحب ، والمغلوبون لا يظهرون كأنهم برابرة همج بل يبدون فى صورة رجال خليقين بكفاحهم الطويل فى سبيل حريتهم . وقد أقام مجلس الشيوخ والشعب فى عام ١٧٤ عمود أورليوس الذى لا يزال يزين الساحة التى أقيم فيها ، وقد استلهم من أقاموه فكرته من عمود تراچان ، فصوروا فيه الحروب المركانية وأظهروا فى فئهم هذا من العطف ما يشرف الغالبين والمغلوبين على السواء .

وكانت روح الإمبراطور هى التى ساعدت على تشكيل فن هذا الوقت وأخلاقه . ذلك أن الألعاب فى أيامه كانت أقل قسوة ، وأن القوانين كانت أكثر رعاية للضعفاء ، وكان الزواج فيما يبدو أديم وأرضى للزوجين . نعم إن الفساد الخلقى قد بقى كما كان فى كل العهود ، تجهر به القلة ، وتخفيه الكثرة ولكنه كان قد جاوز غايته فى عهد نيرون ، ولم يعد هو طراز الوقت

(*) وتزين ثمان منها قوس قسطنطين ، وتوجد ثلاث فى متحف الكنسر قنورى .

المحب ، وأخذ الرجال والنساء يعودون إلى الدين القديم ، أو يهبون أنفسهم لأديان جديدة ، ووافقهم الفلاسفة على هذا وذاك . وغصت رومة وقتئذ بأولئك الفلاسفة ، فمنهم من دعاهم أورليوس ، ومنهم من رحب بمجيئهم ، ومنهم من سمح لهم بالإقامة . وقد أفادوا كل الإفادة من كرمه وسلطانه ، فازدحم بهم بلاطه ، ونالوا منه المناصب والهبات ، وألقوا ما لا يحصى من المحاضرات ، وافتتحوا كثيراً من المدارس ، ووهبوا العالم في شخص تلميذهم الإمبراطور مجد الفلاسفة القديمة وانحلالها .

الفصل الخامس

الإمبراطور الفيلسوف

جلس ماركس أورليوس في خيمته قبل موته بست سنين ليصوغ أفكاره عن الحياة البشرية ومصيرها . ولسنا واثقين من أن كتابه المسمى « إلى نفسه » كان يقصد به أن تطلع عليه أعين الجماهير ، ولكننا نرجح أن هذا كان قصده لأن الناس جميعاً ، حتى القديسين ، لا يسلمون من الغرور ، ولأن أعظم رجل عامل مجد تمر به لحظات من الضعف يتحنن فيها أن يكتب كتاباً . ولم يكن ماركس امولفاً قديراً ، وقد أضاع معظم ما علمه إياه فرنطو من اللغة اللاتينية لأنه أخذ يكتب باللغة اليونانية . هذا إلى أن تلك « الأفكار الذهبية » قد كتبت في الفترات التي تتخلل أسفاره ، وحروبه ، وما كان يقع في البلاد من فتن واضطرابات كثيرة . وليس لنا أن نلومه لأنه جعلها متقطعة غير منسجمة ، ولأنه يعتمد فيها إلى التكرار الكثير ، ولأنها في بعض الأحيان مسشمة مملّة ، ولأن قيمة الكتاب لا تعتمد إلا على محتوياته — على رفته وصراحته ، وعلى ما يكشفه دون وعى كامل منه عن نفسية تجمع بين الوثنية والمسيحية ، وبين العصر القديم والعصر الوسيط .

وكان أورليوس يرى كما ترى كثرة فلاسفة زمانه أن الفلسفة ليست وصفاً نظرياً للنهاية ، بل هي مدرسة لتعليم الفضيلة وطريقة للحياة . وقلمًا كان يشغل باله بالبحث في حقيقة الله ، وتراه يتحدث أحياناً كما يتحدث اللا أدريون ، فيعترف أنه لا يعرف ، ولكنه بعد أن يقر على نفسه هذا الإقرار يقبل دين آباءه وأجداده بتقوى الرجل الساذج ، ويسأل نفسه قائلاً : « وماذا يعود على من حياتي في عالم خال من الآلهة ومن قوة تصرف شئونه ؟ »^(٤٤) وكان إذا

تحدث عن الله تحدث عنه تارة بصيغة المفرد وتارة بصيغة الجمع ، وفي حديثه كل ما في سفر التكوين من عدم مبالاة . وهو يصلى ويقرب القرابين للآلهة القدامى ، ولكنه في خبيثة نفسه يؤمن بالوهمية الكون ، ويتأثر أشد التأثير بنظام العالم وكلمة الله فيه ، وهو يحس كما يحس الهنود باعتماد العالم والإنسان كل منهما على الآخر . ويشير عجبه نمو الطفل من بذرة صغيرة ، لا تلبث أن تتشكل فتكون لها أعضاء ، وقوة ، وعقل ، وأمانى ، وكل ذلك بقليل من الطعام^(٤٥) . ويعتقد أننا لو استطعنا أن نفهم الكون على حقيقته لوجدنا فيه كل ما الإنسان من نظام وقوة خالقة مبدعة ويقول : « إن الأشياء جميعها متشابكة بعضها ببعض ، والرابطة التي بينها رابطة مقدسة . . . وفي الأشياء العاقلة كلها عقل مشترك ، وثمة إله واحد يسرى في كل شيء ، ومادة واحدة ، وقانون واحد ، وحقيقة واحدة . . . وهل يمكن أن يكون فيك أنت نظام واضح ، وفي الكون كله اضطراب واختلال ؟ »^(٤٦) .

وهو يعترف بما يجده الإنسان من صعوبة في التوفيق بين الشر والالم والشقاء الذى يبدو أن الإنسان لا يستحقه ، وبين وجود قوة مدبرة خيرة ، ولكنه يعقب على هذا بقوله إننا لا نستطيع أن نحكم على موضع عنصر أو حادثة في نظام الأشياء إلا إذا رأينا هذه الأشياء كلها ، ومنذا الذى يدعى أنه أوتى القدرة على أن ينظر إلى الأشياء هذه النظرة الجامعة ويدرك علاقتها بعضها ببعض ؟ ولهذا كان من السخف والوقاحة أن نحكم على العالم ؛ وإنما تكون الحكمة في الاعتراف بعجزنا وفي العمل على أن نكون أجزاء متناسقة مع النظام العام للكون ، وأن نحاول أن نستشف ما وراء جسم العالم من عقل ، وأن نتعاون معه راضين مختارين . ومتى أدرك الإنسان هذه الفكرة أدرك أن « العدل في كل ما يحدث » أى أنه يحدث وفقاً لمنهج الطبيعة^(٤٧) ، ولا يمكن أن يكون شيء يحدث وفقاً لمنهج الطبيعة شراً^(٤٨) . وكل شيء طبعى جميل في نظر من يفهم^(٤٩) ؛ وكل شيء يقرره العقل العالمى العام أى المنطق الكامن في جميع الأشياء ، وعلى كل جزء أن يرحب ،

(٣٢ - ج ٢ - مجلد ٣)

فى رضاء وابتهاج ، بنصيبه المتواضع وبمصيره . « والائزان » (وهو الذى أوصى به أنطونينس ساعة وفاته) هو أن يقبل الإنسان طائعاً مختاراً كل ما تحدده طبيعة المجموع كله » (٥٠) .

« كل ما يوائى يوائىك أيها الكون ، وليس شىء يحدث فى الوقت الذى يناسبك يحدث لى مبكراً عن مواعده أو متأخراً عنه . وكل شىء تأتى به فصولك أيتها الطبيعة ثمرة ناضجة لى ، كل الأشياء تصدر منك ، وكل الأشياء مستقرة فىك ، وكل الأشياء عائدة إليك » (٥١) .

وكل ما للمعرفة من قيمة أنها أداة للحياة الصالحة . « وما الذى يرشد الإنسان ويهديه إذن ؟ لا شىء إلا الفلسفة » (٥٢) — على ألا تكون منطقاً أو علماً ، بل تدريباً على السمو الخلقى دائماً متصلاً « كن مستقيماً وإلا فلتقوم » (٥٣) . ولقد وهب الله الإنسان وعمونا أو روحاً داخلية — هى عقله . والفضيلة هى حياة العقل .

« تلك هى مبادئ النفس العاقلة ، وهى تسرى فى الكون كله ، وتشرف على شكله ، وتمتد إلى الأبدية ، وتحتضن التجدد الدورى لجميع الأشياء ، وتذكر أن من سيخلقوننا لن يروا شيئاً جديداً ، وأن من سبقونا لم يروا أكثر مما رأينا ، بل إن من فى الأربعين من عمره ، إذا كان لديه شىء من الإدراك ، قدرأى بطريقة ما ، وبفضل هذه الوحدة المتناسقة ، كل ما كان وما سيكون » (٥٤) .

ويرى ماركس أن مقدماته تضطره إلى أن يكون من المتزمطين فهو يقول : « ليست اللذة طيبة أو نافعة » (٥٥) . وهو ينبذ الجسم وكل أعماله ويتحدث أحياناً كما يتحدث ماركس أنطونيوس .

« ألا فانظروا إلى حقارة الأشياء وسرعة فناها ؛ إن ما كان بالأمس قطعة صغيرة ، سيصبح غداً جثة أو رماًداً ... ألا ما أقصر حياة الإنسان كلها ، وما أكثر ما يعانى فيها من متاعب ... : وما أكثر شقاء الجسم الذى يجتازها به ! ... قلبها ظهرأ لبطن ترأية حياة هى » (٥٦) . والعقل فى رأيه يجب أن يكون

حصناً محرراً من الشهوات الجسمية ، والانفعالات ، والغضب ، والحقد ؛ ويجب أن يكون منهمكاً في عمله انهماكاً لا يكاد يلاحظ معه تقلبات الحظوظ أو سهام العداوات . « إن قيمة كل إنسان تعدل بالضبط قيمة ما يشغل به نفسه من الأشياء » (٥٧) . وهو يسلم كارهاً بأن هذا العالم أشراراً ، ويقول إن الطريقة التي يجب أن يتبعها الإنسان معهم هي أن يذكر أنهم هم أيضاً رجال ، وأنهم الضحايا العاجزون لأخطائهم التي ارتكبوها مدفوعين بمجربة الحوادث والظروف (٥٨) . « وإذا أساء إليك إنسان ، فالضرر واقع عليه ، ومن واجبك أن تعفو عنه » (٥٩) . وإذا أحزنك وجود الأشرار من الناس ، ففكر في العدد الكثير من الأخيار الذين التقيت بهم ، وفيما يمتزج في الأخلاق غير الكاملة من فضائل كثيرة (٦٠) . والناس كلهم إخوة ، أخياراً كانوا أو أشراراً ، وكلهم أبناء الله ينتسبون إليه ، والهمجي البشع نفسه مواطن في الوطن العام الذي ننتمي كلنا له . « فأنا بوصفي أورليوس تكون رومة وطني ، وبوصفي رجلاً يكون وطني هو العالم كله » (٦١) . ترى هل هذه فلسفة خيالية غير عملية ؟ كلا ، إن الأمر على عكس هذا تماماً ولا شيء أقوى وأشد متعة من الفطرة الطيبة ، إذا لازمها الإخلاص (٦٢) . إن الرجل الصالح حقاً لا تؤثر فيه مصائب الدهر ، ومهما يصبه من الشر لا يسلبه نفسه : « هل هذا (الشر) الذي أصابك يمنعك أن تكون عادلاً ، كريماً ، معتدلاً ، حسيب الراى . . . متواضعاً ، حراً ؟ . . . ولنفرض أن الناس قد لعنوك ، أو قتلوك ، أو مزقوك إرباً ! فإذا تستطيع هذه الأشياء أن تفعل لتمنع عقلك أن يبقى طاهراً ، حكماً ، متزناً ، عادلاً ؟ وإذا وقف الإنسان بجوار نبع رائق صاف ولعنه ، فإن النبع لا يقف عن إرسال الماء النظيف وإذا دنسه أو رمى فيه الأقذار ، فسرعان ما يلقى بها إلى خارجها ولا يتدنس بها مرة أخرى . . . ولا تنس كلما أصابتك كارثة أن تطبق هذا المبدأ القائل : إن ذلك ليس شقاء حل بك ، بل إن الضرب عليه صبر الكرام هو

السعادة بعينها . . . ألا ما أقل الأشياء التي إذا حصل عليها الإنسان استطاع أن يحيا حياة هادئة مطمئنة تشبه حياة الأرباب » (٦٣) .

بيد أن حياة ماركس لم تكن تنصف بالهدوء ؛ فلقد اضطر أن يقتل الألمان وهو يكتب هذا « الإنجيل الخامس » ، وأن يلتقي الموت آخر الأمر دون أن يجد عزاء في الابن الذي سيخلفه ، وألا يكون له أمل في أن يحظى بالسعادة بعد مماته ، لأن النفس والجسم على السواء ، على حد قوله ، يعودان إلى عناصرهما الأولى :

« فكما أن تبدل الأجسام وانحلالها ، يفسحان المكان لأجسام أخرى كتب عليها الموت ، فكذلك تتبدل الأرواح التي تنتقل إلى الهواء وتبتدد . . . وتتوزع في عقل العالم الأصلي وتخلي مكانها إلى أرواح جديدة » (٦٤) . . . لقد وجدت أنت بوصفك جزءاً من كل . . . وسوف تفنى في ذلك الذي أخرجك . . . وهذا أيضاً هو ما تريده الطبيعة . . . فاجتز إذن هذه الفترة القصيرة من الزمن حتى تصل هادئاً إلى الطبيعة ، واختم رحلتك وأنت راض ، وليكن مثلك كمثل حبة الزيتون تسقط حين تنضج ، وتبارك الطبيعة التي أخرجتها ، وتنتهي على الشجرة التي حملتها » (٦٥) .

الفصل السادس

كمودس

ولما أقبل ضابط الحرس يسأل ماركس وهو على فراش الموت عن كلمة السر لذلك اليوم أجابه بقوله : « اذهب إلى الشمس المشرقة ؛ أما شمسى فهي غاربة » . وكانت الشمس المشرقة وقتئذ في التاسعة عشرة من العمر ، وكانت هي فتى متين البنية قوى الجسم ، جريئاً ، لا يصدده شيء عما يريد ، وليس له وازع من خلق أو خوف . ولقد كان الإنسان يتوقع أن يرى فيه أكثر مما يرى في ماركس ، القديس العليل ، وأن يراه أكثر مما يرى ماركس ينهج سياسة الحرب إلى النصر أو الموت . لكن الذى حدث أنه عرض من فوره الصلح على الأعداء . وكان ما عرضة من الشروط أن ينسحبوا من الأراضي المجاورة لنهر الدانوب ، وأن يسلموا معظم أسلحتهم ، ويعيدوا جميع الأسرى والفارين من الرومان ، وأن يؤدوا إلى رومة جزية سنوية من الحبوب ، وأن يثمنوا ثلاثة عشر ألفاً من جنودهم بالتطوع في الفيالق الرومانية (٦٦) . ولا مته رومة كلها على فعلته هذه ما عدا الشعب . فأما قواده فقد استشاطوا غضباً لأنه سمح للفريسة الواقعة في الشرك أن تفلت منه لتقاتلهم مرة أخرى . على أن قبائل أراضى الدانوب لم تسبب قط متاعب للإمبراطورية في عهد كمودس .

والحق أن الزعيم الشاب ، وإن لم يكن جباناً خوار العود ، كان قد شهد كفايته من الحروب ، وكان في حاجة إلى السلم ليستمتع بالحياة في رومة . فلما عاد إلى عاصمة ملكه انتهر مجلس الشيوخ ، وأثقل العامة بالعطايا التي لم يعهدوا مثلها من قبل — فوهب كل مواطن ٧٢٥ ديناراً . ولما لم يجد في السياسة ميداناً يظهر فيه شدة بأسه عمد إلى صيد الوحوش في الضياع الإمبراطورية ، وبرع

فى استعمال السيف والقوس براعة اعترم معها أن يظهرها أمام الجماهير . فغادر القصر وعاش فى مدرسة المجالدين فترة من الزمان ، وأخذ يسوق المركبات فى مباريات السباق ، ويصارع الحيوانات والرجال فى المجدل (٦٧) . ولا حاجة إلى القول بأن من كانوا يتبارون معه كانوا يحرصون على أن يكون هو الفائز ؛ ولكنه لم يكن يبالي أن يخرج بمفرده قبل الفطور ليقاتل فرس نهر ، أو فيلا ، أو نمراً لا يعبأ قط بالملوك (٦٨) . وقد بلغ من إتقانه الرماية أن استطاع فى استعراض واحد قتل مائة نمر بمائة سهم . فكان يترك النمر يهاجم مجرماً من المحكوم عليهم بالإعدام . ثم يرميه بسهم فيقتله ، ويترك الرجل سليماً يواجه الموت مرة أخرى (٦٩) . وقد أمر أن تسجل هذه الأعمال الجيدة فى صحيفة الحوادث اليومية ، وأصر على أن يؤدى إليه من خزانة الدولة أجر على كل صراع من الألف الصراع التى قام بها .

ولقد كان المؤرخون أمثال تاستس ، الذين لا بد لنا من الرجوع إليهم فى هذا الموضوع ، ينظرون إلى هذه الأعمال بعين الأشراف الخائفين ، ويحكمون عليها حسب تقاليدهم ؛ ولهذا فإننا لا نعرف كم من العجائب التى يروونها تاريخ صحيح ، وكما أنها أملت الرغبة فى التشهير به والثأر منه . فهم يؤكدون لنا أن كمودس كان يسكر ويقامر ، ويبدد أموال الدولة ، وأن فى حريمه ثلثمائة امرأة وثلثمائة غلام ، وأنه يحاول أن يكون امرأة فى بعض الأحيان ، أو فى القليل أن يلبس ثياب النساء حتى فى الألعاب العامة نفسها . وقد رووا لنا عنه قصصاً من القسوة لا يقبلها عقل . فيقولون مثلاً إن كمودس أمر أحد كهنة بلونا Bellona أن يتر ذراعه ليبرهن بقطعها على تقواه ، وإنه أرغم بعض النساء اللاتى نذرن أنفسهن لخدمة إيزيس أن يضررن صدورهن بثمار البلوط المخروطية حتى يمتن ، وإنه كان يقتل الرجال بلا تمييز بينهم بهراوة هرقل التى كان يمسكها بيده ، وإنه جمع المقعدين وقتلهم بسهامه وحداً بعد واحد . . . (٧٠) ويلوح أن إحدى عشيقاته كانت مسيحية وأنه عفا من أجلها عن بعض المسيحيين الذين حكم عليهم بالعمل فى مناجم سردينية

ويوحى إخلاص هذه السيدة لكمودس بأن هذا الرجل ، الذى كان أشد وحشية من الوحوش الضارية ، لم يكن مجرداً من عناصر طيبة غفل عن ذكرها التاريخ .

وكان خوفه من الاغتيال يدفعه ، كما كان يدفع أسلافه ، إلى أقسى ضروب الوحشية . من ذلك أن عمته لوسلا Lucilla ائتمرت به لقتله فلما كشف المؤامرة أمر بقتلها ، كما أمر بقتل عدد كبير جداً من ذوى المقامات العالية ، ثبت عليهم الاشتراك فى المؤامرة أو حامى حولهم شبهة الاشتراك فيها . وقد بلغ من عدد القتلى أنه لم يكذب على قيد الحياة أحد من ذوى المكانة فى أيام ماركس . وعاد المخبرون إلى نشاطهم ومكانتهم بعد أن كادوا يخفون من رومة قرناً كاملاً ، وساد المدينة عهد جديد من عهود الإرهاب . وعين كمودس پرنيس Perennis رئيساً للحرس الپريتورى وأسلمه أزمة الحكم ثم استسلم هو (على حد قول الرواة) إلى الفسق والفجور ، وحكم پرنيس البلاد حكماً حازماً ولكنه كان حكماً صارماً خالياً من الرحمة ؛ فنظم حكماً للإرهاب قتل فيه جميع معارضيه . وظن الإمبراطور أن پرنيس يعتزم اغتصاب العرش لنفسه ، فأسلم هذا السيجانس الثانى(*) إلى مجلس الشيوخ . وتورط المجلس نفسه فى طائفة من أعمال الانتقام المتأجج الخالى من الرحمة . وخلف پرنيس فى رئاسة الحرس الپريتورى معتوق يدعى كليندر Cleander (١٨٥) ، وبزه فى الفساد والقسوة ، فكان أى منصب من المناصب يناله من يودى نظيره رشوة طيبة ، وكان من المستطاع إلغاء أى حكم تصدره أية محكمة والحصول على حكم يناقضه . وقد أعدم بأمره الشيوخ والفرسان بعد أن اتهموا بالخيانة أو بانتقاد أعماله ، فلما ضاق الشعب به ذرعاً حاصر الغوغاء فى عام ١٩٠ القصر الذى كان يقيم فيه كمودس وطلبوا إعدام كليندر . وأجابه الإمبراطور

(*) يشبه المؤلف بلوسوس إيلوس سيجانس رئيس الحرس الإمبراطورى عام ٣١ م ؟ .

(المترجم)

إلى ما طلبوا ، وعين ليتس Laetus بدلامنه . وظل ليتس يصرف الأمور ثلاث سنين أيقن بعدها أن منيته قد دنت ، فقد وقع في يده مصادفة ثبت بأسماء المحكوم بإعدامهم ، وكان يحوى أسماء أنصاره وأصدقائه ومارسيا Marcia . فلما كان آخر يوم من عام ١٩٢ قدمت مارسيا لكمودس كأساً من السم ، ولما أبطأ مفعول السم ، خنقه اللاعب الذى كان قد أبقاه في الحمام لثقافته ، وكان وقتئذ شاباً في الحادية والثلاثين من العمر . ولنعبد إلى الوراة قليلاً فنقول إن رومة حين مات ماركس كانت قد بلغت أوج عظمتها وبدأت في الاضمحلال . فقد امتدت حدودها إلى ما وراء نهر الدانوب ، ووصلت إلى إسكتلندة ، والصحراء الكبرى ، وجبال القوقاز ، وروسيا ، وأبواب پارثيا ، وكانت قد وهبت هذا الخليط المضطرب من الشعوب والأديان وحدة ، إن لم تكن في اللغة والثقافة ، فقد كانت في القليل وحدة في الاقتصاد والتشريع . وقد صاغت منها مجموعة عظيمة من الأمم المرتبطة برباط واحد ؛ وكان تبادل السلع يجرى في داخلها حراً موفوراً بدرجة لم يكن لها نظير من قبل ؛ وظلت قرنين من الزمان تصد البرابرة عن هذه الدولة العظيمة وتهبها الأمن والسلام . وكان عالم الجنس الأبيض ينظر إليها على أنها مركز العالم كله ، وأنها المدينة الخالدة القادرة على كل شيء . ولم يشهد العالم في عصر من العصور السابقة مثل ما شهده فيها من الثراء ، والعظمة والسلطان .

وفي وسط هذا الرخاء الذى كانت مظاهره تتألق في رومة خلال هذا القرن الثانى كانت تنبت جميع بذور الأزمات التى قضت على إيطاليا في القرن الثالث . وكانت لماركس اليد الطولى في خلق هذه الأزمات لأنه رشح كمودس للجلوس على العرش من بعده ، ولأن ما خاضه من الحروب زاد السلطة تركيزاً في يدى الإمبراطور . فقد احتفظ كمودس في زمن السلم بالسلطات التى وضعها أورليوس في يده زمن الحرب . فذوى غصن الاستقلال الفردى والمحلى ، والابتكار والأنفة

بسبب نماء سلطان الدولة واتساع دائرة اختصاصها ، ونضبت موارد ثروة الأمم بما فرض عليها من الضرائب التي أخذت أعباؤها تزداد زيادة مستمرة على مر الأيام ، لكي تقام بها بيروقراطية تضاعف نفسها ، وبسبب حروب العدوان التي ما فتئت الدولة تثير عجاجها للدفاع عن نفسها . وأخذت ثروة إيطاليا المعدنية تتناقص (٧) ، وقضت الأوبئة والمجاعات على الكثيرين من أهلها ، وظهر عجز نظام الزراعة باستخدام الأرقاء ، وأقفر خزائن الدولة من الأموال وانحطت قيمة العملة بسبب الزيادة المطردة في نفقات الحكومات وفي إعانة العجزة والمساكين . وأخذت الصناعات الإيطالية تخسر أسواقها في الولايات لمنافسة الولايات نفسها لهذه الصناعة ، ولم توضع قط سياسة اقتصادية حكيمة لتعوض البلاد عن التجارة الأجنبية الكاسدة بتوزيع قوة الشراء في داخل البلاد على نطاق أوسع من ذي قبل . وبينما كان هذا يحدث في إيطاليا نفسها كانت الولايات قد أخذت تفيق بما أصابها من جراء انزاع ثروتها على أيدي صلا ، وبمبي ، وقيسر ، وكاسيوس ، وبروتس ، وأنطونيوس ؛ فعاد إليها حذقها القديم ، وازدهرت صناعاتها ، وأخذت ثروتها الجديدة تعين بالمال العلم والفلسفة والفن . وسد أبنائها ما حدث في الفيالق من فراغ ، وعقدت أولوية هذه الفيالق للقواد من أهلها ؛ وما لبثت جيوش الولايات أن وضعت إيطاليا تحت رحمتها وعيقت قوادها أباطرة ، وانقضى عهد الفتوح وانقلبت الآية وأخذ المغلوبون من ذلك الحين يتعللون الغالبين .

وكأنما أدرك عقل رومة هذه النذر والمشاكل ، فاستسلم في أواخر أيام الأنطونيين إلى عهد من الكلال الثقافي والروحي . وكان حرمان الجمعيات الشعبية أولا ثم مجلس الشيوخ بعدئذ من سلطانها حرمانا يكاد أن يكون كاملا قد ذهب بالحافظ الذهني الذي ينبعث من النشاط السياسي الحر ، ومن الشعور الواسع الانتشار بالحرية والسلطان ؛ وإذا كانت السلطة كلها تقريباً قد تركزت في يد الزعيم فقد ألقى المواطنون عليه التبعة كلها تقريباً ، فانزوى عدد متزايد

منهم في أسرهم ، وقصروا جهودهم على شئونهم الخاصة ؛ وأصبح المواطنون ذرات ، وأخذ المجتمع يتمزق من داخله إرباً في الوقت الذي لاح فيه أن الوحدة على أتم ما تكون . وخاب رجاء الناس في الملكية ، كما خاب رجائهم من قبل في الديمقراطية ، وكثيراً ما كانت « أفكار » أورليوس « الذهبية » أفكاراً من الرصاص ، يزيدا ثقلاً ظنه أن مشاكل رومة مستعصية على الحل ، وأن البرابرة الذين يتضاعف عددهم بلا انقطاع لن تستطيع سلالة عظيمة جانحة إلى السلم أن تصمد لهم زمناً طويلاً . وأخذت الرواقية ، التي بدأت عهداً بالدعوة إلى القوة ، تدعو الآن إلى الاستسلام للمقادير ، وعقد الفلاسفة كلهم تقريباً الصلح مع الدين . وبعد أن ظلت الطبقات العليا أربعمائة عام تتخذ الرواقية بديلاً من الدين ، أطرحت هذه الطبقات الآن ذلك البديل ، وأدارت الفئة الحاكمة ظهرها إلى الفلاسفة وولت وجهها شطر مذابح الآلهة . على أن الوثنية هي الأخرى كانت تلفظ آخر أنفاسها . فقد كانت كإيطاليا تنبعش بفضل المعونة الحكومية ، فلما امتنعت عنها هذه المعونة أوشكت قواها أن تخور ؛ لقد غلبت هي الفلسفة ، ولكن أرباضها أخذت قبل ذلك العهد تستمع في خشوع إلى أسماء الآلهة الغازية . وكان هذا العصر عصر البعث للولايات والنصر المؤزر الذي يتجاوز حدود العقل للمسيحية .

المراجع مفصلة

الأرقام الرومانية الكبيرة تدل على رقم المجلد تتلوها أرقام الصفحات ، أما الأرقام الرومانية الصغيرة فتدل على رقم الكتاب أو المقال في الكتاب القديم يتلوها رقم الباب أو الآية وأحيانا رقم الفقرة .

CHAPTER XI

1. Suetonius, "Augustus," 33.
2. Dio, liv, 17.
3. Ibid., iv, 4.
4. Suetonius, 40.
5. Gibbon, E., *Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. Bury, 1, 65.
6. Suetonius, 23 ; Dio, lxi, 17.
7. Plutarch. *Moralia*, 207 D.
8. Charlesworth, M., *Trade Routes and Commerce of the Roman Empire*, 8.
9. Suetonius, 41.
10. Ibid., 42.
11. Augustus, *Res gestae*, iii, 21.
12. Dio, iv, 25.
13. Suetonius, 58.
14. Pliny, xiv, 5.
15. Cf. Himes, N., *Medical History of Contraception*, 851 and 188.
16. Dio, liv, 19.
17. Tacitus, *Annals*, xv, 19.
18. Ibid., iii, 25.
19. Horace, *Odes*, iii, 24.
20. Davis, *Influence of Wealth*, 304.
21. Gellius, x, 2.2.
22. Ibid.
23. Dio, iv, I.
24. Ovid, *Ars Amatoria*, 637.
25. Augustus, *Res gestae*, ii, 10.
26. Buchan, 286.
27. Suetonius, 76-83.

28. Ibid., 81 ; Dio, iii, 30.
29. Suetonius, 76.
30. Ibid., 84.
31. Ibid., 90-2.
32. Ferrero, IV, 175.
33. Plutarch, *Moralia*, 207C
34. Suetonius, 64.
35. Dio, lvii, 2.
36. Suetonius, 64.
37. Macrobius, *Saturnalia*, ii, 5, *ad finem* : "I never take on a passenger unless the vessel is already full."
38. Seneca, *Moral Essays*, III, vi.
39. Ibid., 32. 1.
40. Suetonius, 99.

CHAPTER XII

1. Macrobius, ii, 4.
2. Horace, *Epistles*, ii, 1, 117.
3. Juvénal, *Satires*, i, 2 ; iii, 9.
4. Martial, *Epigrammes*, i, 67, 118 ; Friedländer, III, 37.
5. Lanciani, *Ancient Rome*, 183.
6. Ovid., *Tristia*, i, 1, 105.
7. Tacitus *De oratoribus*, 13.
8. Virgil. *Eclogues*, i, 46.
9. Ibid., i, ix.
10. Suetonius, *On Poets*, "Virgil," 9.
11. Virgil, *Georgics*, iii, 284.
12. Ibid., i, 145.
13. II, 490.
14. In Duff, *Literary History of Rome*, 455.

15. *Georgics*, iii, 46.
16. *Aeneid*, vi, 860 f ; Suetonius, "Virgil," 81
17. *Aeneid*, ii, 293.
18. *Ibid.*, iv, 331-61.
19. VI, 126.
20. VI, 852.
21. IV, 508.
22. Suetonius, 230.
23. *Ibid.*, 48.
24. Voltaire *Philosophical Dictionary*. art. *Epic Poetry*.
25. Suetonius, *On Poets*, "Horace"
26. Horace, *odes*, iii, 2.
27. *Epodes*, ii, 241.
28. *Satires*, i, 1.
- 28a. *Epistles*, i, 16 ; Rostovizeff, *Social and Economic of the Roman Empire Empire*, 61.
29. Horace, *Satires*, ii, 5.
30. *Ibid.*, ii, 7.105.
31. *Ibid.*, 23.
32. I, 1.69.
33. *Odes*, ii, 10.
34. *Satires*, i, 1.105.
35. *Ibid.*, ii, 1.1.
36. *Odes*, iii, 29.12.
37. *Satires*, ii, 660.
38. *Odes*, iii, 16.29.
40. *Epodes*, ii, 1.
41. Petronius, *Satyricon*, 118.
42. *Odes*, ii, 11.
43. I, 9.
44. I, 28.
45. I, 35.
46. III, 30.
47. *Ars poetica*, 139.
48. *Ibid.*, 343.
49. *Ibid.*, 102.
50. *Epistles*, i, 6.1.
51. *Odes*, ii, 3.
52. *Ibid.*, ii, 10.
53. *Satires*, ii, 7.83.
54. *Odes*, iii, 3.
55. *Epistles*, i, 4. 16 ; cf. I, 17
56. *Satires*, ii, 6.93.
57. *Epistles*, ii, 2.55.
58. *Odes*, ii, 14.
59. *Satires*, I, 1.117.
60. *Epistles*, ii 2.214.
61. *Odes*, ii, 17.
63. Taine, H., *Essai sur Tite Live*, 1.
64. Pliny, *Natural History*, dedication.
65. Taine, I.c., 10.
66. E.g., Livy, ii, 48.
67. E.g., cf. Livy, xiv, 12 with Polybius, xxxix 27 ; or Livy, xxiv, 34 with Polybius, viii, 5,
68. Pliny, *Letters*, ii, 3.
69. Tibullus, i, 1.
70. *Ibid.*, i, 6.
71. I., 3, 10.
72. Propertius, ii, 57.
73. *Ibid.*, ii, 6.
74. I, 8.
75. Ovid, *Tristia*, iv, 10.
76. Ovid. *Ars amatoria*, 157.
77. *Ibid.*, 99.
78. *Ibid.*, 171.
79. *Amores*, ii, 4.
80. *Ibid.*, i 1 ; ii, 18.
81. II, 1.
82. I, 4.
83. II, 6.
84. II, 10.
85. III, 7 ; ii, 10.
86. *Ars amatoria*, 97.
90. *Remedia amoris*, 183.
91. *Ibid.*, 194.
92. *Heroides*, iv.
93. *Tristia*, ii, 103.
94. *Ex Ponto*, iv, 641.

5. *Tristia*, i, 1:iii 8.
16. *Ibid.*, iiii, 3.15 ; *Ex Ponto*, 1,447.

CHAPTER XIII

1. In Holmes, *Architect of the Roman Empire*, 108.
2. Suetonius, "Tiberius." 68.
3. *Ibid.*, 69.
4. Tacitus, *Annals*, i, 11.
5. Suetonius, 23.
6. Dio, lvii, 18.
7. *Ibid.*, 6; Suetonius, 30 ; Tacitus,
8. Suetonius, 27.
9. Tacitus, i.c.
10. Suetonius, 32.
11. Ferrero, Q., *Women of the Cæsars*, 136.
12. Tacitus, ii, 50.
13. *Ibid.*, iv, 57.
14. Dio, lvii, 11.
15. Ferrero, *Women*, 140.
16. Tacitus, iv, 57; Suetonius, 42-4.
17. CAH X. 638.
18. Tacitus, iv, 58.
19. Suetonius, 60.
20. Tacitus, iv, 70.
21. *Ibid.*, vi, 50.
22. Mommsen, T., *Provinces of the Roman Empire*, II, 187.
23. Josephus, *Antiquities*, xix, 1.15.
24. Suetonius, "Gaius," 50-1.
25. *Ibid.*
26. Dio, lix, 5.
27. Suetonius, "Gaius," 29, 32.
28. Dio, lix, 26.
29. Suetonius, 24.
30. *Ibid.*
31. Sencécs *Ad Helviam*, x. 4.
32. Suetonius, 40.
33. *Ibid.*, 38.
34. *Ibid.*, 30.
35. Dio, lix, 3.
36. Suetonius, 27.
37. For a defense of Caligula of. Baldon, *The Emperor Gaius* 33 etc.
39. Dio, lix, 28.
40. Baldon, 161.
41. *Ibid.*, 168.
42. Dio, lix, 29.
43. Suetonius, "Claudius," 29.
44. Dio, lx, 10.
45. Suetonius, 21.
46. Seneca, *Apoclocyntosis*, 3.
47. Tacitus, xii, 53.
48. Suetonius, 28.
49. Brittain, 244.
50. Suetonius, 37 ; Dio, lx, 14.
51. Suetonius, 50.
52. Dio, lx, 18.
53. Tacitus, xi, 18.
54. *Ibid.*, 25.
55. Dio, lxi, 31.
56. Ferrero, *Women*, 226.
57. Buchan, 247.
58. Tacitus, xi, 25.
59. Pliny, *Nat. Hist.*, ix, 117.
60. Tacitus, xiii, 43.
61. Dio, lxi, 34.
62. *Ibid.*, 2.
63. Suetonius, "Nero," 52.
64. Dio, lxi, 3.
65. Tacitus, xiii, 4.
66. Henderson, B., *Life and Principate of the Emperor Nero*, 75.
67. Tacitus, xv, 48.
68. Suetonius, 56.
69. *Ibid.*, 27.
70. Tacitus, xvi, 18.
71. Dio, lxii, 15; 7 lxi, Suetonius, 26.
72. Dio, lxii, 14 ; Tacitus, xiv, 5. adds that some writers question the story.

73. Tacitus, xiv, 10.
74. Ibid., xiii, 3.
75. Suetonius, 20.
76. Ibid., 41 ; Dio, lxxiii, 26.
77. Suetonius, 52.
78. Ibid., 11.
79. Tacitus, xiv, 60.
80. CAH, X, 722.
81. Tacitus, xv, 44.
82. Ibid., xiv, 6 ; Suetonius, 25.
83. Dio, lxxii, 27; Suetonius, 27.
84. Tacitus xvi, 18.
85. Suetonius, 22.
86. Ibid.
87. Dio, lxxiii, 23.
88. Suetonius, 43.
89. Ibid., 57.
90. Suetonius, "Galba," 23.
91. Tacitus, *Histories*, i, 49.
92. Suetonius, "Otho," 5.
93. Tacitus, *Hist.*, iii, 67.
94. Suetonius, "Vitellius," 17.
95. Suetonius, "Vespasian," 13.
96. Ibid., 16.
97. Dio, lxxv, 14.
98. Suetonius, 18.
99. Ibid., 21.
100. Tacitus, *Hist.*, ii, 2.
101. Suetonius, 23-4.
102. Suetonius, "Titus," 8.
103. Suetonius, "Domitian," 18.
104. Dio, lxxvi, 26.
105. Suetonius, 22; Dio, lxxvii, 6.
106. Frank, *Economic Survey*, V, 56.
107. Dio, lxxvii, 14.
108. Suetonius, 10.

CHAPTER XIV

1. Lucan, *Pharsalia*, ii 67.
2. Ibid., i, 128.
3. Petronius, *Epigrams*, frag. 22 in

- Robertson, J. M., *Short History of freethought*, I, 211.
4. Petronius, *Satyricon*, 11.
5. Ibid, 48.
6. 71.
7. 35, 40, 47.
8. 74.
9. Seneca in Boissier, G., *La religion romaine*, II, 204.
10. Tacitus, *Annals*, xiv, 59; xvi, 34.
11. Lucian, *Icaromenippus*, 4.
12. Seneca, *Epistulae Morales*, xii; *Moral Essays*, III, vii, 11.1.
13. Monroe, *Source Book*, 401.
14. Quintilian, *Institutes*, x, 1.125.
15. Dio, lxxii, 2.
16. Friedländer., III, 238.
17. Tacitus, *Annals*, xiii, 42.
18. Seneca, *De vita beata*, xvii-xvii.
19. Davis, *Influence of Wealth*, 154.
20. Seneca, *Epist.* xv.
21. *De vita beata*. xv.
22. *De clementia*, i, 3.
24. *Epist.* vii.
25. Tacitus, *Annals*, xviii, 2.
27. Boissier, *Tacitus*, 11.
28. Seneca, *Epist.*, lxxvi.
30. Seneca, *Epist.*, lxxv.
31. Ibid., vii.
32. XXVI.
33. *De providentia*, ii, 6.
34. *Epist.*, xii.
36. *De providentia*, v. 8.
37. *Epist.* xxxi.
38. Ibid., *ce*; *ad Marciam*, xxiv, 3.
39. In Henderson, *Nero*, 309.
40. *Epist.*, lxxii and iii.
41. Ibid., lxxii.
44. XXXIII.
45. *De brevitate vitae*, xiv.
46. *Epist.*, lxx.

47. Ibid., ii.
48. VII ; XXV.
49. XXIII.
50. LXX.
51. *De ira*, v. 15.
52. *Epist.*, lviii.
53. Ibid., lxi.
54. *De ira*, ii, 34.
55. *Epist.*, i, lxi.
56. Tertulian, *De anima*, xx.
57. In Acton, Lord, *History of Freedom*, 25.
58. *Epist.*, xxxi.
59. Gummere, R. M. *Seneca the Philosopher*, 131.
60. Seneca, *Medea*, 364.
61. *Quaestiones naturales*, vii, 30-33.
62. Ibid., vii, 25, 30.
63. Pliny, xxxvi, 15.
64. Ibid., ii, 5.
65. Plutarch, "Sertorius."
66. Pliny's *Letters*, iii, 5.
67. Pliny, *Nat. Hist.*, iii, 6.
68. Ibid., ii, 5.
69. II, 36.
70. II, 33.
71. II, 6, 64.
72. II, 90-92.
73. II, 63.
74. XXXIV, 39.
75. XXXVII, 27.
76. XIX, 4.
77. XXXII, 26.
86. Pliny, II, 5, 117.
87. XXXIII, 18.
88. II, 5.
89. VII, 56.
90. XXVIII, 7.
91. VIII, 67.
92. VII, 13.
93. XVIII, 78 f.
94. II, 57.
95. Jones, W. H. S. *Malaria and Greek History*, 61.
96. Pliny's *Letters*, I, 12.
97. Castiglione, 237.
98. Tacitus *Hist.*, iv, 81; Suetonius *pasian'* 7.
99. Dill, Sir S. *Roman Society from Nero to Marcus Aurelius'* 92.
100. Pliny, *Nat. Hist.*, xxix, 8.
101. Luncian, "To an Illiterate Book-Fancier," 29.
102. Pliny, xxvi, 7 - 8 ; Castiglione, 200 ; Garrison, *History of Medicine*, 106.
103. Castiglione, 233, 240.
104. Ibid., 226.
105. Soranus in Friedländer, I 171.
106. Castiglione' 237 ; Garrison, 118.
107. Bailey, C., *Legacy of Rome*, 291 ; Williams, H.S., *History of Science*, I, 274.
108. Pliny, xxviii, 2.
109. Ibid., 8.
110. Garrison, 119.

116. Balley, 284.
117. Quintillian, vi, pref.
118. I, 12. 17.
119. I, 10-36.
120. X, 3.9, 19.
121. X, 4.1.
122. II, 12.7.
123. II, 5.21.
124. Juvenal, vii, 82.
126. Martial, xi, 43, 104.
127. II, 53.
128. IV, 49.
129. I, 16.
130. X, 4.
131. IV, 4.
132. IX, 87.
133. I, 32; III, 65.
134. I, 32.
135. E.g., ix, 27.
136. XI, 16.
137. III, 69.
138. Pliny's *Letters*, iii, 21.

CHAPTER XV

1. Columella, *De re rustica*, i 3.12.
2. In Davis, *Influence of Wealth*, 144.
3. Pliny, *Nat. Hist.*, xvii 4; Heitland and 224. Frank, *Economic Survey*, V. 176.
4. Columella, iii, 3.
5. Strabo, v. 4. 3.
6. Frank, V, 158.
7. Pliny, xv, 68-82.
8. Columella, iii, 8.
9. Rostovtzeff, *Roman Empire* 182-3
10. Suetonius, "Domitian," 7.
11. Cato *De agricultura*, 144.
12. Pliny, xix, 2.
13. Paul-Louis, 274-6.
14. Tacitus' *Agricola*, 12.
15. Pliny, ii, 108-9.

- 15a Ammianus Marcellinus, xxii.4.15
16. *Encyclopaedia Britannica*, V, 868.
17. Paul-Louis, 287.
18. Frank, V, 229.
19. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 252.
20. Haskell, H. J., *New Deal in Old Rome*, 24-6.
21. Scott, S. P.' *Civil Law*, Fragments of Ulpian in Justinian, *Digest*, iii, 2.4.
22. Friedländer, I, 289-91.
23. Gibbon, Everyman Lib. ed., I. Bailey, C., *Legacy of Rome*, 158.
24. Seneca *Ad Helviam*, vi.
25. Plutarch, *Marcella*, "On Exile," 604A.
26. Hallidy, W. R., *Pagan Background of Early Christianity*, 88.
27. Josephus, *Life*, p. 511.
29. Athenaeus, ii, 239.
30. Josephus, *Life*, p. 511.
31. Mommsen, *Provinces*, II, 278.
32. Friedländer I, 286.
33. Pliny, xix, I, 4.
34. *Ibid.*, ii, 57.
35. Cf. the crane pictured on the tomb of the Haterii in the Lateran Museum Rome, in Wickhoff, *Roman Art*, p. 60; cf. also Gest, 60, and Bailey. 462.
36. Reid, *Municipalities*, 28.
37. Gest, 110-131.
38. Pliny. xxxvi, 24.
39. Bailey, 290.
40. Frontinus, *Stratagems*, iii, 1.
41. Frontinus, *Aqueducts*, ii 75.
42. *Ibid.*, i 16.
43. In Friedländer I, 18.
44. Carter, F., *Invention of Printing* 86; Gibbon, Everyman ed., I 55.

45. Tarn, W. W., *Hellenistic Civilization*, 206.
46. CAH, X, 417.
47. Strabo, xvii, 1.3.
48. Pliny¹ vi, 26, computes Rome's annual payment to India at 550,000,000 sesterces ; but this is probably an exaggeration for elsewhere (xii, 41) he estimates the yearly loss of Rome to India, China, and Arabia at 100,000,000 sesterces each.
49. Halliday, 97.
50. Tacitus, *Annals*, vi, 16 - 17 : Suetonius, "Tiberius," 48 ; Davis, *Influence of Wealth*, 1 Renan, in *Lectures on the Influence of Rome on Christianity*, 25, and *The Apostles*, 170 compares Tiberius' relief measures to the Crédit Foncier of France in 1852 ; and Haskell compares the situation with the "easy money" period in the United States, 1923 - 9. the crisis of 1929, and the Reconstruction Finance Corporation (*The New Deal in Old Rome*, 183, 188).
51. Ovid *Gast*, i 191.
52. In Toynbee, B., *Study of History*, I, 41 n.
53. Davis, 442.
54. Beard, M., *History of the Business Man*, 47.
55. Athenaeus, vi, 104.
56. Seneca *De Clementia*, i 24.
- 56a. Sanlyls, Sir J., *Companion to Latin Studies*, 354.
57. Pliny, vii, 40.
58. Friedländer, II, 221.
59. Boissier, *La religion romaine*, II, II, 330.
- 59a. Seneca *De ira*, III, 3.
60. Juvenal, vi, 474.
61. Ovid, *Ars amatoria*, 735; *Amores*, I, 14.
62. In Holmes, *Architect of the Roman Empire*, 132.
63. Dill, 116.
64. Statius, *Silvae*, II, 6.
65. Seneca, *Epist.*, xviii, 13.
66. Dill 117.
68. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 105 ; Reid, 323, 521.
- 323, 521.
69. Toutain, 304.
70. Frank, *Economic Survey*, V, 235.
71. Frank, *Economic History*, V, 235.
72. Petronius, 44.
73. Rostovtzeff, 172 ; Declareul, J., *Rome the Law Giver*, 269.
74. Pliny, xlii, 23.
74. Pliny, xlii, 23.

CHAPTER XVI

1. Seneca in Friedländer, II, 321.
2. Livy, xxiv, 9 ; Pliny's *Letters*.
3. Strabo, v, 3.8.
4. Juvenal, iii, 235-244.
5. *Ibid.*, v, 268.
6. Martial, cxvii, 7.
7. Friedländer, I, 5.
8. Pliny, xxxv, 45.
9. Friedländer, II, 317, 330.
10. Mau, A., *Pompeii*, 231 ; Rostovtzeff, *Roman Empire*, 135 ; *Gast*
11. Vitruvius, *De architectura*, II, 21.
12. Seneca, *Epit.*, cxxii.
13. Juvenal, iii, 223.
14. Pliny's *Letters*, II, 17 ; v. 6.
15. Juvenal, III, 223.
16. In Boissier *Rome and Pompeii* 119
17. Pliny, *Nat Hist.*, xxxii, 45.
18. Boissier, *Tacitus*, 223.

- 18a. N. Y. Times, Apr. 27, 1943.
19. Mau, 414.
20. Pliny, xxxv, 66; Strabo, xvi, 25.
21. Winckelmann, J., *History of Ancient Art*, II, 312.
22. Reid' 278.
23. Cf. Strong. *Art. in Ancient Rome*, II, fig. 341.
24. Valerius Maximus, *Factorum et dictorum*, viii, 14.
25. Pliny, xxxv, 37.
26. Cf. Maiuri, A., *Les fresques de Pompéii*, Table XXXIII.
27. Cf. Rostovtzeff, *Mystic Italy passim*.
- 27a. Pliny, xxxv, 40.

CHAPTER XVII

1. Juvenal, v, 141.
2. Petronius in Henderson, *Nero*, 326.
3. Seneca *Ad Marciam*, xix, 2.
4. Juvenal, vi, 367.
5. Friedländer, I, 238.
6. Cf. Pliny, xxxiv, 11: "They say that if the male organ is rubbed with (oil or gum of) cedar just before coitus, it will prevent impregnation." Cf. also Humes, 85 f, 186.
7. Juvenal, vi, 592.
10. Gatteschi. G., *Restauri della Roma Imperiale*, 64.
11. Gibbon, i, 42; Friedländer, I, 17; Sandy 355 · 7; Davis, 196; Paul-Louis, 15, 227.
12. Tacitus, *Annals*, xiii, 27.
13. Vogelstein, H., *Rome*, 10.
14. Cicero, *Pro L., Flacco* 28.
15. Edersheim, A., *Life and Times of Jesus the Messiah*, i, 67.
16. Tacitus, *Annals*, ii, 85; Suetonius "Tiberius", 36.
17. Dio, lvii, 18; Schürer, *History*,

- of the Jewish People* Div. II, Vol. II, 234,
18. Vogelstein, 17.
19. Ibid., 31, 33; Renan, *Lectures*, 50
20. Tacitus, *Annals*, ii, 89; Ammianus, M., xxii, 5.
21. Dill, 83-4.
22. Dio, ix, 33.
23. Martial, vii., 30.
24. Juvenal, iii, 62.
25. In Bailey, 143.
26. Tacitus, xiv, 60.
27. Juvenal, xiv, 44.
28. Cellius, xli, 1.
29. *Enc. Brit.*, X, 10.
30. Horace, *Satires*, i 6.75.
31. Pliny's *Letters*, ii, 3.
32. Petronius, 1.
33. Pliny's *Letters*, iv, 3.
34. Ovid, *Ars amatoria*, 98.
35. Juv., ix, 22.
36. Minucius Felix, *Octavius*, 67; Tertullian, *Apology*, 15.
37. Horaces, *Epodes*, xl.
38. Martini, viii, 44; xi, 70, 88, etc.; Juv., ii, vi' ix.
39. In Friedländer I, 234.
40. Seneca the Elder, *Controversiae* in Friedländer, I, 241.
41. Seneca, *Ad Helviam*, xvi, 8; *Ad Marciam*, xvi 3.
42. Ovid, *Amores*, i, 8:48; iii, 4-37.
43. Friedländer, I, 241.
44. Juv., vi, 228.
45. Ibid., 281.
46. t, 22.
47. Boissier, *La religion romaine*, II, 197.
48. Juv., vi, 248.
49. Martial, *De spectaculis*, vi'
50. Statius, *Silvae*, i. 6.
51. Seneca, *Moral Essays*, i 9.4.
52. Ovid *Ars amatoria*, 118.

53. Martial, x 35.
54. Ibid., i, 14.
55. Tacitus, *Annales*, xvi, 10.
56. Friedländer, I, 265.
57. Tacitus, xiv, 5.
58. Martial, vi, 57.
59. Catullus, lxxxvi.
60. Ovid *Ars*, 158; Kohler, K. *History of Costume*, 118; Pfuhl, E. *Masterpieces of Greek Drawing*, Fig. 117.
61. Tibullus, i, 8.
62. Juv., vi, 502.
93. Pliny, xxxiii, 12.
64. Ouhl and Konar, 498.
65. Martial, ix, 63.
66. Ovid, *Ars*, 160.
67. Pliny, ix, 63.
68. Ibid., xxxviii, 12.
69. IX, 58.
70. Friedländer, II, 181.
71. Pliny, xxxiii, 18.
72. Seneca, *Epist.*, lxxxvi.
73. Pliny, viii, 74.
74. Quintilian, 3.
75. Galen in Friedländer, II, 227.
The remainder of this chapter is particularly indebted to Friedländer's devoted accumulation of Roman mores.
76. Juv., vii, 178.
77. Jones, H. S., *Companion to Roman History*, 116; Friedländer, I, 12.
78. Seneca, *Epist.* lxxvi.
79. Ker, W. C., in Martial, I, 244n.
80. Gardner, E. N., *Athletics of the Ancient World*, 230.
81. Pliny, xxviii, 51.
82. *Journal of the American Medical Association*, Aug. 1, 1942, 1089.
83. Ovid, *Ars*, 165; *Tristia*, ii, 477-80.
84. Pliny, viii, 61 77.
85. Ibid., ix, 80, 31.
86. Ibid., 89.
87. VIII, 82.
88. VIII, 77.
89. Seneca *Ad Helviam*, x, 9.
90. Ibid., 3.
91. Sandys, 502.
92. Mantzius, K., *History of Theatrical Art*, I, 217.
93. Suetonius, "Vespasian," 19.
94. Mantzius, I, 218.
95. Boissier, *La religion romaine*, II, 215.
96. Cicero *Pro Murena* 6.
97. Lang, P. N. *Music in Western Civilization*, 36.
98. Ammianus, xiv, 6.
99. Martial, v, 78.
100. Ammianus, xiv, 6.
101. Seneca, *Epist.*, lxxxviii.
102. Philostratus, *Life of Apollonius of Tyana*, v, 21.
103. Lang, 8.
104. Virgil, *Aeneid*, v, 362f.
105. Friedländer, II, 5.
106. Dio, lxi, 33.
107. Lecky, W. E., *History of European Morals*, I, 280.
108. Friedländer, II, 5.
109. Pliny, viii, 70.
110. Friedländer, II, 5.
111. Boissier, *Tacitus*, 246.
112. Martial, *De spectaculis*, vii.
113. Friedländer, II, 43.
114. Ibid., 49.
115. Epictetus, *Discourses*, i 27-37.
116. Seneca, *Epist.*, lxx.
118. Juv., iii, 36.
119. Pliny II, *Panegyricus*, xxxiii.
120. Tacitus, *Annals*, xiv.
121. Cicero, *Letters*, vii, to Marcus, 55. B. C.

122. Seneca, *Epist.*, vii, xcv.
123. In St. Augustine, *City of God*
124. Tertulian, *Apology*, 15.
125. Juv., xiii, 85.
126. Abbott, *Common People of Ancient Rome*, 88; Dill, 498.

CHAPTER XVIII

1. Bury, J. B., *History of the Roman Empire*, 527.
2. Justinian, *Digest* i, 1, in Scott, *The Civil Law*.
3. Gaius, *Institutes*, i, 8.
4. Maine, Sir H., *Ancient Law*. This generalization has been questioned, but seems substantially true.
5. Justinian, *Codex*, vii, 16. 1.
6. Gaius, i, 144.
7. *Ibid.*, 145, 194.
8. Buckland, W. W., *Textbook of Roman Law*, 113.
9. Gaius, i, 114.
10. Friedländer, i, 236.
11. Suetonius, "Vespasian," 3; *Hist. Aug.*, "Antoninus," 8; "Aurelius," 29.
12. Castiglione, 227.
13. Gaius, commentary, p. 66.
14. *Ibid.*, p. 64.
15. Gaius, i 56.
16. Davis, *Influence of Wealth*, 211.
17. Tacitus, xiv, 41.
18. Renan, *Marc Aurèle*, 24.
19. Ulpina, in *Digest*, L, 17. 32.
20. Lecky, I, 295.
21. Gaius, iii, 40-1.
22. Cicero *Ad Familiares*, viii, 12, 14.
23. Gaius, ii, 157; iii, 2.
24. Maine, 117.
25. Buckland, 64.
26. Gaius, iii, 186; iv, 4.
27. *Ibid.*, iv, 11.

28. In Friedländer, i, 165.
29. Ammionus, xxx, 4.
30. Ulpiana in *Digest*, L, 13. 1.
31. Quintilian, xii, 1. 25.
32. Pliny's *Letter*, v, 14.
33. Martial, vii, 65.
34. Pliny's *Letters*, ii, 14.
35. Tacitus, *Annals*, xi, 5.
36. David, 125.
37. Pliny's *Letters*, vi, 33.
38. Juv., xvi, 42.
39. Juv., xvi, 42.
39. Apuleius, *Golden Ass*, p. 245.
40. Psalms, cxvi, 11; St. Paul, Epistle to the Romans iii, 4.
41. In Taylor, H., Cicero, 77.
42. Quintilian, v. 7. 26.
43. *Ibid.*, vi, 1. 47.
44. *Codex Theodosius*, ix, 85, in Gibbon, II, 120.
45. Ocellius, xx, 1, 13.
46. Sallust, *Catiline*, 65.
47. Cicero; *De re publica*, iii, 22; cf. *De officiis*, i, 23; *De legibus*, i, 15.
48. Gaius, i, 1.

CHAPTER XIX

1. Ker, W., in Martial, II, 54n.
2. Dio, lxxviii, 13.
3. Renan, *Marc Aurèle*, 479.
4. Dio, lxxviii, 15.
5. Mahaffy, J., *Silver Age of the Greek World*, 307.
6. In CAH, XI, 201, 865.
7. Pliny II, *Panegyricus*, 50.
8. Justinian, *Digest*, xlviii, 19. 5.
9. Bury *Roman Empire*, 437.
10. Brittan, 366.
11. Wickhoff, 118.
12. Dio, lxxix, 1.
13. *Hist. Aug.*, "Hadrian," i, 4.
14. *Ibid.*, xxvi, 1.
15. *Ibid.*

16. XIV. 1.
17. Martial, viii, 70 ; ix, 26.
18. *Hist Aug.*, "Hadrian" xv, 10.
19. *Ibid.*, xx, 7.
20. Henderson, *Hadrian*, 207.
21. Eusebius, *Ecclesiastical History*, iv, 9.
22. Dio, lxix, 6.
23. Fronio, M., *Correspondence*, A.D. 162 : II, 4.
24. *Hist. Aug.*, "Hadrian" x, 1.
25. Winckmann, I, 327.
26. Bevan, E. R., *House of Seleucus* II^d 16.
27. *Hist Aug.*, viii, 3.
29. Stimpson, F. M., *History of Architectural Development*, 123.
30. Dio, lxix, 4; cf. Henderson, 247.
31. Dio, lxix, 8.
32. *Hist Aug.*, xxiv, 8.
33. Merivale, *History of the Romans under the Empire*, VIII, 255.
34. Marcus Aurelius, *Meditations*, 16.
35. *Hist. Aug.*, "Antoninus". iv, 6.
36. *Ibid.*, viii, 1.
37. IX. 10.
38. Appian, preface, 7:
39. Bury, 566.
40. Renan, *The Christian Church*,
41. Renan, *Marc Aurèle*, 2.
42. Gibbon, I, 76.
43. Marcus, i 17.
44. *Ibid.*, 1.
45. I, 14.
46. I, 15.
47. I, 14.
48. VII. 70.
49. *Hist Aug.*, "Marcus," xxlii, 4.
50. Friedländer, III, 191.
51. Weston, P. *Marcus Antoninus*,
52. Castiglione, 244.
53. Oalen, in Friedländer, I, 28.
54. Dio, lxii, 14.
55. Ammianus, xxv, 4.
56. Williams, H., I, 280.
57. Renan, *Marc*, 469.
58. Marcus, i, 17.
59. Bury, 647.
60. *Hist. Aug.*, "Marcus," xix. 7
61. Marcus, x, 10.
62. Montmsen, *Provinces*, I, 253.

CHAPTER XX

1. Boissier, *Tacitus*, 2.
2. Tacitus, *Agricola*, 9.
3. Pliny's *Letter*, li, 1 ; vi, 16.
4. *Agricola*, end.
5. *Germania*, 25, 27.
6. *Annals*, lii, 65.
7. *Historiae*, i 1.
8. *Agricola*, 4.
9. *Germania*, 34.
10. *Annals*, xvi, 88.
11. *Ibid.*, iii, 18 ; vi, 22.
12. *Germania*, i, 38.
13. *Agricola*, 46.
14. *Annals*, vi, 17.
15. *Agricola*, 3.
16. *Dialogue on Orators*, 40.
17. *Historiae*, iii, 12, 64.
18. *Agricola*, 18.
19. *Historiae*, i 16.
20. *Ibid.*
21. Juvenal, i, 147.
22. X, 81.
24. VI, 652.
25. 434.
26. 448.
27. III.
28. XIV, 816.
29. X, 866.
30. Seneca, *De beneficiis*, i, 10; *Epist.*, xcvi.
31. Pliny's *Letters*, lii, 19.

32. V, 3.
33f 8.
34. I, 17.
35. VI, 32.
36. V, 16.
37. I, 16.
38. VII^e 19.
39. VII, 20 ; IX, 28.
40. Boissier, *Tacitus*, 19.
41. Gibbon, I, 57.
42. Pliny's *Letters*, iii, 12.
43. Strong, II. fig. 435.
44. Marcus, ii, 11.
45. VII, 75.
46. *Ibid.*, 9 : IV, 40, 27.
48. II, 17.
49. III, 2.
50. X, 8.
51. IV, 23
52. II, 17.
53. VII, 12.
54. XI, 1.
55. IVIII, 10.
56. IV. 42, 48 ; viii, 21.
57. VII, 3.
58. II, 1.
59. IX, 38 ; vii, 26.
60. VI. 48.
61. 44.
62. XI. 18.
63. IV, 49 ; viii, 61 ; ii, 5.
64. IV, 21 ; viii. 18 ; ii, 17.
65. IV, 14, 48 ; ix, 3.
66. Dio, lxxii, 2-3.
67. *Hist. Aug.*, "Commodus", 2,
14, 15.
68. Dio, lxxiii, 19
69. *Hist Aug.*, 18.
70. *Ibid.*, 2, 10, 11.
71. Paul-Louis, 215.

فهرس الأعلام والأماكن

إثكا مدينة : ٤٠٣ .
 إتنا ، بركان : ٤١٠ .
 أتو : ١٤٥ ، ٣٥٧ .
 إثكا : ٦٤ .
 أنندورس : ٤٠ .
 أثنيوس : التقرامليسي النحوى اليونانى .
 (القرن الثالث) : ٢٢٢ .
 أثينة ، المدينة : ٤٠ ، ٥٠ ، ٦١ ، ٨٧ ،
 ١٣٩ ، ٣٢٣ ، ٣١٣ ، ٣٥٤ ،
 ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ .
 أجربا : ماركس قسياتوس القائد (٦٣ -
 ١٢ ق م) ٢٢ - ٢٤ ، ٤٣ ،
 ٤٤ ، ٢٥٤ ، ٣٨٤ ، ٤١٤ .
 أجربا ، حمامات : ٢٩٦ .
 أجربينا ، زوجة جرميكوس وأرملته ١٠٢ ،
 ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
 ١٢٢ ، ١٣٠ .
 أجربينا الصغرى ، أم زيرون (؟ - ٥٩)
 ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٧٦ .
 أجركولا ، أكتيوس يوليوس ، الحاكم
 (٣٧ - ٩٣) : ١٤٩ ، ١٥٦ ،
 ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ .
 أجركولا ، كتاب تاستس : ٤٣٩ .
 أجربرج : ٢٢٠ .
 أجناشيا : ٢٢٠ .
 الأحزان لأوفد : ١٧ .
 أخيه : ٤٢٢ .
 أخيل : ٢٨٣ .
 أديزونس الشعراء المجهولون : ٧٨ .
 أدتيس : ٩٢ .
 أدريا : ٤٠٣ .
 أدسن ، جوزف الأديب والشاعر الإنجليزى
 (١٦٧٢ - ١٧١٩) : ١٧٩ .

(١)

أبكتاتا ، مطلقة سيجانوس (؟ - ٣١ م) :
 ١٠٦ .
 إيكارس : ٣١٩ .
 إيكستن ، الفيلسوف الرواقى : (٦٠ ؟ -
 ١٢ ق م) ١٦١ ، ٤٢٥ ، ١٧٣ ،
 ١٨٥ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ .
 أيلو الإله : ٦٢ ، ٢٩٤ .
 أيلو ، عيد أيلو : ٣٤١ .
 أيلو بلفدير : ٢٧٤ .
 أيلو دورن : ٤١٦ ، ٣٩٧ .
 أيلونيوس ، المثال الأثينى فى رومة ، ولد
 حوالى مولد المسيح : ٢٧٤ .
 أيلونيوس الرودى : ٦٤ .
 أيليان ، المشرع ، القرن الثالث : ٣٧٥ .
 أيليز : ٢٨٦ ، ٢٨٧ .
 الأبتين ، جبال : ٥٤ ، ٨٧ ، ١١٧ .
 أوفريدتس أمين سر دومتيان : ١٥٨ .
 أپوليا : ٦٩ .
 أپوليوس ، الهجاء والفيلسوف ، القرن
 الثانى : ٣٨٠ ، ٤٥٥ .
 أپيان (أپيانس) المؤرخ ، القرن الثانى
 ٤٢٣ ، ٤٥٦ .
 أبيقور ، الفيلسوف اليونانى (٣٤٢ ؟ -
 ٢٧٠ ق م) : ٧٩ ، ٨٠ ، ١٧٩ ،
 ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ٣٥٤ .
 أترجاتس : ٣٥٧ .
 إتروريا : ٢٥١ .
 أترىوس : ١٥٩ .
 أتلا ، بلدة : ٥٧ .
 أتلس : ١٧٤ .

أديسوس : ٢٨٣ .
 أراپاسيز ، نقش : ٤١ .
 أراتس : الصول ، الشاعر التلقيني اليوناني
 (٣١٥ - ٢٤٥ ق . م) ٥٧ ،
 ١٨٦ .
 إربان الثامن ، مافوبريني البابا (١٥٦٨
 - ١٦٤٤) : ٥ ، ٤١ .
 أريلا : ٣٢٠ .
 أرجوس : ١٩١ .
 أرتيز : ٣٤٧ .
 أرتيوم : ٢١٧ .
 أرثوزا : ٩٢ .
 أرجلنتم : ٥٠ .
 أرجوس : ٦٤ .
 أرجونوستكا : ٦٤ .
 الأردن ، نهر : ١٨٠ .
 أرتيز : ١٣٢ .
 أرسلس : ٢٥٨ .
 أربطو : ١٧٦ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ، ٤١٧
 أزمير : ٤٣ .
 أسكريبونيا زوجة أغسطس : ٤٢ .
 أرسكوزا : ١٩١ .
 أرسكون : ١٩١ .
 أرسلس : ٢٧٤ .
 أرفيوس : ٣٤٧ .
 أركديوس : ٤٠٠ .
 أركلوس : ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٤ .
 أركونا : ٤١١ .
 أريوس ، الرسام (آخر القرن الأول)
 ٢٨٠ .
 أرميوس : ١٩ .
 أرمينية : ١٩ ، ٤٥ ، ١٢٧ ، ١٣٥ .
 ٢١١ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ .
 أريانتا : ٣١٩ .
 أريان (فلافيوس أريانوس) المؤرخ ،
 والفيلسوف اليوناني (١٠٠ ؟ -

(١٧٠) : ٤١٠ .
 أريدني : ٩١ .
 أريوس : ٢٣٦ .
 أزمير : ٢٣٢ .
 أزيز : ٣٥٧ .
 الآس ، عملة رومانية نحاسية : ٢٣ .
 أسبارتيانس ، إيليوس كاتب التراجم (القرن
 الرابع) ٤٠٣ ، ٤١٣ .
 أسبانيا : ١٨ ، ٢٠ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ،
 ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٤ ، ٢٧١ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢ ،
 ٣٩٧ ، ٤٠٣ ، ٤١٠ ، ٤٣٤ .
 أسبكتوس : ١٦٦ .
 أسينسر ، إدمند الشاعر الإنجليزي
 (١٥٥٢ ؟ - ١٥٩٩) : ٩٥ .
 أسپورس : ١٣٨ .
 أستايا : ٢٨٥ .
 أستاتليوس تورس ، القائد (حوالي آخر
 القرن الأول ق.م) : ٢٩٩ .
 استاتليوس ، بليوس پاپينيوس ، الشاعر
 (٩٦ ؟) : ١٥٣ ، ١٥٥ ،
 ١٦١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ،
 ٢٤٤ ، ٣١٨ .
 استرابون ، الجغرافي اليوناني (٦٣ ق . م
 - ٢٤ م) : ٢١٣ ، ٢٣٣ ، ٢٦٩ ،
 ٤٢٣ .
 استلكو : القائد (؟ - ٤٠٨)
 ٢٩٣ .
 استوا : ٤١٧ .
 أستيا : ٩٣ ، ١١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
 ٢٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ،
 استيل : سير رتشر استيل الأديب
 والمؤلف المسرحي الإنجليزي (١٦٨٢
 - ١٧٢٩) : ١٧٩ .
 أسرهوني : ٤٠٢ .
 أسروس ، ملك پارثيا : ٤٠١ .

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١١٦ ،
١١٨ ، ١٢٥ ، ١٤٥ ، ١٥٤ ،
١٦٠ ، ١٦١ ، ١٨٧ ، ٢١٠ ،
٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٦ ،
٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٦٣ ،
٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،
٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٩٢ ،
٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٢ ، ٣٥٣ ،
٣٥٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ،
٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ،
٤٠٤ ، ٤٠٨ ، ٤١٣ ، ٤٣٧ ،
٤٤٠ .

أغسطس ، عيد أغسطس : ٣٤١ .
أغسطس ، القس (تمثال) : ٢٧٦ .
إفجينا : ٢٨٣ .
أفديوس ، كاسيوس قائد أورليوس : ٤٣٠ ،
٤٣٥ ، ٤٣٦ .
إفرنس : بحيرة ٢٣ .
أفريقية : ١٧ ، ٧٣ ، ١٦٧ ، ١٩٧ ،
٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٤٧ ،
٢٦٩ ، ٢٨٩ ، ٣٠٥ ، ٤٠١ ،
٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٢٥ ، ٤٣٤ ،
أفريقية الجنوبية : ٣٨٨ .
إفسوس : ٢٣٢ ، ٤١٠ ، ٤١٢ .
أفلاطون ، الفيلسوف اليوناني (٤٢٧ -
ق ٣٤٧ م) : ٦٨ ، ١٧٩ ،
٣٥٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ .
أفلوطين ، كاتب السير اليوناني (٤٦ -
١٢٠ ؟) : ١٧٩ ، ٢٢١ ، ٣١٠ ،
٣٨٢ ، ٤٢٣ .
أفتين ، تل : ٢٩٨ .
أفنيوس : ٢٤٢ .
أفينون : ٤٠٩ .
أفرتون : ٤٠٣ .
أكارس : ٣٤٧ .
أكتافيا ، زوجة نيرون (٩ - ١١ ق. م)

أكتافينا : قانونه ٣٧٣ .
أكتافوس : ٦١ ، ٦٣ .
أكتلندة : ١٥٦ ، ٣٦٨ .
أكلجر الناقد : ١٧٥ .
أكلس : الكاتب المرحي اليوناني
(٥٢٥ - ٤٥٦ ق. م) : ٩٥ .
أيسكليوس : هيكل ١٩٤ .
الإسكندر المقدوني : ٣٥ ، ٢١ .
الإسكندر الجديد : تراچان : ٤٠١ .
الإسكندرية : ٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٨٥ ،
١٠٩ ، ١٥٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ،
٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٦٩ ،
٣٢٨ ، ٣٥٤ ، ٤٣٦ .
إسكنديناوه : ٢٢٤ .
إسكوياس ، المثال اليوناني : (٤٠٠ -
٣٤٠ ق. م) : ٢٧٧ .
إسكولين : ٨٦ ، ٢٥٧ .
أسايوس ، القنصل : ١٩٣ .
أسنيوس بليو : ٥٤ ، ٥٥ .
أسنيوس سار الأبيقوري : (القرن الأول)
٣٣١ .
أسياتكس المعتوق : ١٤٤ .
آسية : ٦٠ ، ٣٦ ، ١٨٨ ، ٢٦٩ ،
٢٨٨ ، ٢٩٦ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ،
٤٣٦ ، ٤٣٩ .
آسية الصغرى : ١٧ ، ١٠٢ ، ٢١١ ،
٢٢٢ ، ٣٠٥ ، ٤١٢ ، ٤٣٦ ،
آسية اليونانية : ٢٢١ .
إسيوس : ٣١٢ .
أشور : ٤٠٠ .
أطلنطا : ٩٢ .
أغسطس ، (كيوس يوليوس قيصر
أكتافوس) الإمبراطور الروماني
(٦٣ ق. م - ١٤ م) ٧٣ ،
٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ ،
٩٢ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ .

أميانس مرسلينس المؤرخ (القرن الرابع)

. ٣٨٠ ، ٣٣٨ ، ٣٠٧

أناكريون : ٥١ .

أنتستيروس لبيو ، المشتزع (؟ - ٤٢

ق. م) : ٣٥٩ .

إنطلس : ٣٤٢ .

أنتنوس : ٤١٣ ، ٤١٣ .

أنتينو پوليس : ٤١٣ .

أنتيوم : ١٣٥ ، ٢٥٥ .

أنثينوس : ٤٥٧ .

إنجلترا : ٩٥ ، ٩٦ ، ١٧٦ .

أنجيلو ، القديس : ٤١٨ .

أندركليز : ٣٤٧ .

أندرمدا : ٩٢ .

أنستاس ، جواد كلجيولا : ١١٠ .

أنستيس : من حاشية نيرون (القرن الأول

ق. م) : ١٣٤ .

أنطاكية : ١٣٢ ، ٤٠١ ، ٤١٢ ،

. ٤٣٠

آن - طون ، انظر ماركس أورليوس

أنطونيوس .

أنطونيا أم چرمكوس وكلوديوس (بين

القرن الأول ق. م والقرن الأول

بعد الميلاد) : ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٤ ،

. ١٢٥

أنطونينس بيوس ، تيتس أورليوس فلافيوس

بيووننس أريوس أنطونينس بيوس ،

الإمبراطور الروماني : (٨٦ - ١٦١) ،

. ٢٦٥ ، ٣٧٠ ، ٣٩١ ، ٤١٧ ،

. ٤١٩ ، ٤٢٠ - ٤٢٣ ، ٤٢٤ ،

. ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٣ ، ٤٦٢ .

أنطونينس ساترنينس الحاكم الروماني (القرن

الأول الميلادي) : ١٥٦ .

أنطونيوس ، القائد زميل أكتافيوس :

. ٣٥ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ١٠٧ ، ١١٤ ،

. ١٢٥ ، ١٧٣ ، ١٩٠ ، ٢٢٣ ،

. ٤٢ ، ٦٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٥ ،

. ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٥٥ ،

أكتافيان : ٦ ، ٧٠ ، ١٢٢ ، ١٩٠ ،

. ٢٨٩

انظر أيضاً أغسطس .

أكتيوم : ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٦٣ ،

. ٤٤٠ ، ٤٥٧ .

أكسيون : ٢٨٢ .

إكتيوس ، دوميتيوس أهينو باريس والد

نيرون (القرن الأول) : ١٠٢ ،

. ١٢٢ ، ١٢٥ .

أكويليا : ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٦٩ ، ٤٢١ ،

أكويليا ، قانون : ١٩٥ .

أكوينم : ٤٤٦ .

الألب ، جبال : ٢٢٠ ، ٤٣٧ .

الإلب ، نهر : ١٩ .

إلبا ، جزيرة : ٢١٥ .

ألبانجا : ٢٦٣ .

ألبانيا الأسيوية : ٤٠٠ .

ألبان : ٣٦١ .

الألعاب النبرونية : ١٣١ .

الكيون : ١٣٢ .

الكون ، الجراج (القرن الأول) : ١٦٩ ،

الكيوس : ٧٤ .

الأكسان : ١٩ ، ٢٠ ، ٤٣٩ ،

ألمانيا : ١٩ ، ٢٠ ، ٤٥ ، ٧٧ ، ١٠١ ،

. ٢٢٤ ، ٣٣٨ ، ٤٠٩ ، ٤٢٩ ،

. ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٥٠ .

إلوسيس : ٤٣٤ .

إلياذة هوميروس : ٦٢ ، ٦٤ .

إليريا : ١٩ .

أميريا : ٨٦ .

إمرسن . رلف وللو ، الأديب والفيلسوف

والشاعر الأمريكي (١٨٠٣ -

. ١٨٨٢) : ١٨٥ ، ٣١١ .

أملبيوس المصور : ٢٨٠ .

أورليوس ، تمثال الإمبراطور : ٤٥٨ .
 أورليوس كرنليوس سلسس الكاتب في
 العلوم (القرن الأول) : ١٩٧ .
 أورورا : ٦٣ .
 الأورى ، نقد ذهبي روماني : ٢٣٥ .
 أوغسطين ، القديس أسقف هيو وأحد آباء
 الكنيسة (٣٥٤ - ٤٣٠) :
 ١٨٥ .
 أوفد ، بليوس أوفديوس نازو ، الشاعر
 (٤٣ ق . م - ١٧ م) : ٥٢ ،
 ٨٧ - ٩٦ ، ٣٠٦ ، ٣١٥ .
 أولس جليوس النحوى اللاتيني (حوالى
 ١١٧ - ١٨٠) : ٤٥٥ .
 أولس فليثيوس : ٣٦٧ .
 أولس ، فيتليوس چرمنتكوس الإمبراطور
 الروماني (١٥ - ٦٩) : ١١٢ ،
 ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٧ .
 أوليس : ١٢٦ .
 أولمبيا ، مدينة الألعاب : ١٤٠ .
 إياشيا : ٧٤ .
 إيرنس : ٦٢ .
 إيريس المهندس الممارى (القرن الأول) :
 ٢٦٤ .
 إيزيس الإلهة المصرية : ١٠٩ ، ٢٩٤ ،
 ٣٥٦ .
 إيزيس هيكل : ١٥٥ .
 إيسيس ، كلوديوس مثل المائى الروماني
 (القرن الأول) : ٣٣٤ .
 إيطاليا : ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٥ ،
 ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٨ ،
 ٣٤ ، ٥٣ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
 ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
 ١٤٤ ، ١٥٢ ، ١٦٠ ، ١٧٧ ،
 ١٩٠ ، ١٩٤ ، ٢٠٩ ، ٣١٠ ،
 ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ،
 ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٠ ،

٣١٤ ، ٣٢١ ، ٤٠١ ، ٤١١ ،
 ٤٦٩ ، ٣٥٧ .
 أنطونيوس ، فائد فسبازيان : ١٤٤ .
 الأنطونيون : ٣٩٧ .
 أنكريون : ٧٤ .
 أنكليپوس : ١٦٩ .
 أنكونا : ٣٩٦ .
 أنكيسيز : ٦١ ، ٦٣ ، ٣٤٢ .
 أنوبيس : ٣٥٧ .
 أنونا الإلهة : ٣٥٤ .
 الإنياذة : ٦٠ - ٦٨ ، ٨٨ .
 إنياس : ٥٦ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ .
 إنيائى ، أسرة ماركس أورليوس : ٤٢٤ .
 إنيوس ، كونيئس ، الشاعر والكاتب
 المسرحى (٢٣٩ - ١٦٩ ق م) :
 ٦٤ ، ٢٠١ ، ٤٥٥ .
 إنيوس ميلا ، لوسيوس إنيوس ميلا
 والد لوكان وأخو سنكا (؟ - ٦٢)
 ١٣٩ .
 أنيوس نوقاتس ، ماركس إنيوس (جليو)
 الحاكم (؟ - ٦٥) : ٣٩ .
 أوترخت : ٢٢٠ .
 أوديب : ١٣٢ .
 أوديسة هوميروس : ٦٢ .
 أوديسيوس : ٦٢ .
 أوربا : ١٨٨ ، ٢٢٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ،
 ٣٨٨ ، ٤١٦ .
 أورشليم : ١١٤ ، ١٤٩ ، ٢٩٤ ، ٤١٢ ،
 انظر أيضا بيت المقدس .
 أورفيوس : ٩٢ ، ٢٣٦ .
 أورليوس ، ماركس أورليوس قيرس ،
 الإمبراطور الفيلسوف : (١٢١ -
 ١٨٠) : ٩٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،
 ٤٠٠ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٣ ،
 ٤٢٤ - ٤٤٠ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،
 ٤٦٠ - ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ ،
 ٤٧٠ .

باروس : ٢١٥ .
 باروس ، جزيرة : ٣٩٨ .
 باريس بن بريام : ١٣٢ ، ٢٢٠ .
 باريس ، الممثل الهزلي ، الشهير (القرن الأول) : ٤٤٦ .
 باسفياء ، زوجة مينوس : ١٤٣ ، ٢٨٢ .
 ٣٤٧ .
 باكس ، إلهة السلام : ١٤٩ .
 بالما ، قائد تراجان : ٤٠٤ .
 بان : ٢٨٣ .
 بانثيا : ٤٣٠ .
 البانثيون : ٤١٤ .
 بانوثيا : ١٠ ، ٢٠ ، ٤٥ ، ٤٣١ .
 بايا ، خليج : ١١٠ ، ٣٣٣ ، ٤١٨ .
 بيليوس . اسبتر : ٢٣٧ .
 بيليوس موسيوس ، المخبر ، (القرن الأول) : ١٧٧ .
 بيليوس موسيوس اسكافولا الحاكم والمشتري : (النصف الثاني من القرن الثاني) : ٣٥٩ .
 بيبيا ، قانون : ٣٢ .
 بيبوس سيبانوس : ١٠٥ .
 بيتاقيوم ، بدوا : ٨١ .
 بترارك ، فرانسكو بتراركا الشاعر الإيطالي : (١٣٠٤ - ١٣٧٤) : ١٨٥ .
 بتروفا ، قانون : ٣٧١ .
 بتروفيوس : ١٦١ ، ١٦٥ - ١٦٩ .
 بتروفيوس ، جايوس المؤلف (حوالي ٦٦) : ١٦١ ، ١٦٥ - ١٦٩ ، ٢٠٥ .
 ٢١٠ ، ٢٤٢ ، ٢٧٠ ، ٣٠٣ ، ٣١٢ ، ٤٤٢ .
 بتروفيوس ، عبد نيرون : ٢٣٩ .
 بتريا : ٢٢٣ .
 بيشلي ، السندرو . فليبي المصور الإيطالي : (١٤٤٧ - ١٥١٠) : ٢٨٥ .
 بتيفيوس : ٦٤ .

٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢ ، ٣٤١ ، ٣٤٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٨ ، ٣٨٨ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤٢٢ ، ٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٥٤ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ .
 إيكارس : ٩٢ .
 إيسبس ، كلوديوس ممثل المأسى الروماني (القرن الأول ق. م) : ٣٣٤ .
 إيليا كبتوليتا ، انظر أيضا أورشليم : ٤١٢ .
 إيليان ، كلوديوس إيليانس المؤرخ (القرن الثاني) : ٤٥٦ .
 إيليوس أرستيديز ، يليوس أليوس الملقب بشيودورس عالم البيان الروماني (١١٧) : ١٨٧ : ٤٢٣ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ .
 إيليوس لاميا : ٤٩ .
 إيليوس ، جسر : ٤١٨ .
 إيماليوس : ٢٥٣ .
 إيميلوس ، أسرة : ٣٠٤ .

(ب)

بابل : ٢١٦ .
 البابليون : ١٨٧ .
 باپنيان پولس ، إيميلوس باپنيانوس المشتري (٢ - ٢١٢) : ٣٦١ .
 باثليس الإسكندري الممثل ، (آخر القرن الأول ق. م) : ٢٣٥ .
 باخوس : ٢٦٩ .
 البارثون : ٢٧١ ، ٢٩٥ .
 پارثنيوس : ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
 پارثيا : ١٨ ، ١٢٧ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ، ٣٥٧ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤٣٠ ، ٤٦٨ .
 البارثيون : ٢٤٨ .

١٥٠ ، ١٤٩ .
 پرنيس ، رئيس الحرس البريتوري (؟) -
 . ٤٦٧ : (١٨٥
 پروپرتيوس : ٨٧ ، ٥٢ ، ٤٩ .
 پروپرتيوس سكسنس ، الشاعر (٤٩ -
 . ٨٦ ، ٨٥ ، ٤١٥ ق.م)
 بروتينيس ، الرسام اليوناني (٣٣٠ -
 . ٣٠٠ ق.م) : ٢٨٦ ، ٢٥١ .
 بروتنس ، قاتل قيصر : ٢٠٧ ، ٦٩ ، ٤٢٥ .
 بروتنس پيزا ، من الأشراف (؟ - ٢٦٤
 ق.م) : ٣٤١ .
 بروتينيا : ٤٠٣ .
 بروس : ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٨ .
 بريابيس : ٨٩ ، ٢٨٤ .
 بريطانيا : ٥١ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٤٩ ،
 ١٧٧ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٩ ، ٤٢٩ .
 بريماپورتا : ٢٧٦ ، ٢٨٥ .
 بريمنس : ٣٢٠ .
 بريبورس : ٤٠٠ .
 پستليز : ٢٧٤ .
 پستيوي : ٤٤٨ .
 بسكوريل : ٢٦٧ .
 پستيوس ، صديق هوراس : ٨٠ .
 البطالمة : ٣٥ .
 بطرس الرسول : ٣٨٤ ، ٤١٦ .
 بعل ، الإله : ٣٥٧ .
 بفلجونيا : ٤١٠ .
 البلاتين ، قل : ٢٦٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٨ .
 پلاديو ، أندريا ، المهندس المماري الإيطالي
 ١٥١٨ - ١٥٨٠) : ٢٩٠
 البلاديوم : ٦١ .

بنيوس ، أولاد بنيوس أصحاب مصرف مالي :
 ٢٣٨ .
 بشولي : ٢١ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٥ ،
 ٢٣٤ ، ٢٦٨ ، ٣٥٦ .
 البحر الأبيض المتوسط : ٨ ، ٢١ ، ٢٦ ،
 ٦٤ ، ٨٢ ، ١٠٩ ، ١٩٠ ،
 ٢١٢ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ،
 ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٤١٣ .
 البحر الأحمر : ٢٢٤ ، ٤٠١ .
 البحر الأدرياتي ، ٤٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ،
 ٤٠٣ .
 البحر الأرتيري : ٢٢٤ .
 البحر الأسود : ١٨ ، ٤٦ ، ٩٢ ، ٩٤ ،
 ١٢٧ ، ١٥٦ ، ٢٣٢ .
 بحر إيجه : ٤٣٢ ، ٤١٠ .
 بحر أليكسين : انظر البحر الأسود .
 بدانيوس سكندس : رئيس الشرطة (القرن
 الأول) : ٣٠٨ ، ٣٧١ .
 بلوم : مدينة : ٨٥ .
 البرتغال : ٢١٥ .
 برتنكس : ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٦ .
 برجوم : ٢٤٢ ، ٢٧١ ، ٤١٠ .
 برودو : ٢٢٠ .
 برسبرين : ٩٢ .
 برسيس : ٢٨٤ .
 برسيوس : ٩٢ ، ٤٤٧ .
 برسيوس وأندرمدا ، تمثال : ٢٧٤ .
 بركتيليز ، الممثل اليوناني (٣٨٥ -
 ٣٢٠ ق.م) : ٢٥١ ، ٢٨٦ .
 بركليز ، السياسي الأثيني : ٤٩٥ ؟ - ٤٢٩
 ق.م) : ١٢ ، ٩٥ ، ٤٣١ ،
 ٤٥٧ .
 برلين ، متحف : ٢٧٥ .
 برندينزيوم : ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٣٩٦ .
 برنيس ، الملكة اليهودية (٢٨ ؟ - ؟) :

٢٨٣ ، ٢٨٤ .
 پمپيا پولينا : ١٧٤ .
 پمبيوس سترينيوس صديق بلني الأصغر (القرن
 الأول والثاني بعد الميلاد : ٤٥٢ .
 پمبيوس ميلا : ١٨٧ ، ١٨٨ .
 پمفيليا : ٢٠ .
 پنتس : ١٧ ، ٢١١ .
 بنتيا : ١٠٥ .
 بنتين ، منافع : ١٩٤ .
 بنتيوس پيلات (النصف الأول من القرن
 الأول الميلادي) : ١٣٦ .
 بندتيرا ، جزيرة : ٤٥ ، ١٠٥ ، ١٣٤ .
 البندقية : ٤٣١ .
 بنقشم : ٣٩٦ .
 بنلبى : ٩١ .
 بهليوس : ٤١١ .
 البو ، نهر : ٥٣ ، ٨١ .
 بواسيه ، ماري جاسين المؤرخ والناقد وعالم
 الآثار الفرنسي (١٨٢٣ - ١٩٠٨) :
 ٤٥٣ .
 بوپيا ساينا عشقة نيرون (؟ - ٦٥) :
 ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٨ .
 بوتليا ، قانون : ٣٧٧ .
 بورتلاند ، مزهرية : ٢٦٩ .
 بورشيا ، في مسرحية تاجر البندقية : ١٧٨ .
 بوسيد ونيوس الفيلسوف الروائي اليوناني
 (١٣٥ ؟ - ٥١ ق. م) : ١٨٦ .
 بوشيا ، جزيرة : ١٩٠ .
 بوكاشيو ، جيوفاني الكاتب القصصى الإيطالي
 (١٣١٣ - ١٣٧٥) : ٢٥٨ .
 بولجنوتس الرسام اليوناني (٤٦٥ ق. م) :
 ٢٨٠ .
 بولس ، الرسول : ١١٨ ، ١٣٩ .
 ٣٨٤ .

بيلاس قنديه بباريس : ٤٠٠ .
 بيلاس : ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٤٣ .
 بيلاس أثيني الإلهة : ٦١ .
 بلبس : ٢٥٤ .
 بلبس وأوليوس مصرف مالى : ٢٣٧ .
 بلجيكا : ٢٣١ ، ٤٣٤ .
 بلزك أنوريه ده : الكاتب الروائي الفرنسي
 (١٧٩٩ - ١٨٥٠) : ٣٩٩ .
 بيلستاس : ٢٥٨ .
 البلقان : ٤٣٤ .
 بلني الأصغر : كيوس پلينيوس كاسيوس
 سكندس المؤلف والخطيب الروماني
 (٦١ - ١٤١) : ١٥٣ ، ١٦١ ،
 ٣٩١ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٨ ،
 ٢١١ ، ٢٢٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦٢ ،
 ٢٦٩ ، ٣١٢ ، ٣٣٠ ، ٣٩٣ ،
 ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ ،
 ٤٥٠ - ٤٥٤ ، ٤٥٥ .
 بلني الأكبر ، كيوس پلينيوس سكندس
 العالم الطبيعي وكاتب الموسوعات (٢٣
 - ٧٩) : ١٦١ ، ١٨٨ -
 ١٩٣ ، ٤٥٠ .
 البلوونيز : ٢١٦ ، ٣٤١ .
 بلوتنيا : ٤٥٧ .
 بلوك ، كارل يوليوس المؤرخ الألماني في
 إيطاليا (١٨٥٤ - ١٩٢٩) : ٢٤٢ .
 ٣٠٥ .
 بلونا : ٤٦٦ .
 بليليس في أسبانيا مسقط رأس مارتيا ل :
 ٢٠٤ .
 بيمى القائد : ٨ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٢٧٠ ،
 ٣٥٩ ، ٤١٢ ، ٤٦٩ .
 بيمى ، تمثال القائد : ٢٧٦ .
 بيمى ، ملهى بيمى : ٢٩٦ ، ٢٩٨ .
 بيمى أو بيميا المدينة : ١٥٢ ، ٢١٥ ،
 ٢١٩ ، ٢٥٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ .

٤٣٨ - ٤٤٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ ،
 ٤٥٥ ، ٤٩٦ ، ٤٥٣ .
 تثيرا : ٧٤ .
 تجرانيس : ١٩
 تجلينس ، سوفونيوس احد المقربين لنيرون
 (٩ - ٦٩) ١٣٩ .
 التحول ، لأوڤد : ٩١ ، ٩٣ ، ٩٥ .
 تدمر ، مدينة : ٢٣٢ .
 تراچان ، ماركس أليوس نيرفاتراجاس ،
 الإمبراطور الروماني (٥٢ - ١١٧)
 ٥١ ، ١٢٦ ، ١٥٥ ، ١٧٠ ،
 ١٨٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٥ ، ٢٣٥ ،
 ٢٥٥ ، ٢٦٤ ، ٢٩٨ ، ٣١٤ ،
 ٣٢٠ ، ٣٢٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٣٨ ،
 ٤٣٩ ، ٤٥٣ ، ٤٥٧ ،
 ٤٥٨ .
 تراسينا : ٣٩٧ .
 تربنوس ، موسيق نيرون (القرن الأول)
 ١٣١ .
 قورتروس : ٦٢ .
 ترتليان ، كوفنس سيمبوس فلورنز
 ترتليانس من آباء الكنيسة اللاتين
 (١٦٠ ؟ - ٢٣٠ ؟) ١٨٥ ،
 ٣٤٧ .
 ترسترام شاندي : ١٦٩ .
 ترسو بلقدير : ٢٧٤ .
 ترنس : ٦٢ ، ٦٣ .
 تريداتس ، ملك أرمينية (القرن الأول)
 ١٣٥
 تريملكيو : ١٦٦ ، ٢٤٢ ، ٣٢٨ .
 تسو ، تركواتو ، الشاعر الإيطالي (١٥٤٤)
 - ١٥٩٥ (٩٥٠ .
 التشانى : ٤٢٩ .
 تشوسر ، جوفري ، الشاعر الإنجليزي
 (١٣٤٠ - ١٤٠٠) : ٣٥ .

جولكليتس : ٢٨٦
 يولنده : ٣٨٨ .
 يوليوس ، المؤرخ اليوناني (٢٠٤ ؟ -
 ١٢٢ ق . م) : ٨٢ ، ٨٣ .
 يولوف : ٢٢٠ .
 يوليا : ٥٢ .
 يولينا : ١٨ ، ٣١٩ .
 يولينس : ١١٩ .
 يوهيميا : ٣٨٨ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ .
 بيت المقدس ، انظر أورشليم .
 بيتكا : ١٧ .
 بيشينيا : ١٧ ، ١٢٩ ، ٤١٢ ، ٤٥٢ .
 بيراموس : ٩٢ .
 بيرها : ٧٤ .
 بيزنطية : ٢٣٨ ، ٢٩٥ .
 بيزو ، عشيرة : ٧٨ .
 بيزو ، كيوس كليرنيوس المتأخر (؟ -
 ٦٥) ١٠٩ ، ١٦٤ ، ٣١٩ .
 بيستراتس : ٤١١ .
 بيكن ، فرنسيس بارون فرولم وفيكونت
 سانت أولبانز الفيلسوف والسياسي
 الإنجليزي (١٥٦١ - ١٦٢٦) :
 ١٧٩ .
 بيل ، سير ربرت : ٢٢٠ .
 بيلاديس القليل المثل (القرن الأول ق . م)
 ٣٣٠ .

(ت)

تاسس ، كيوس كورنيليوس المؤرخ (٥٥ ؟
 - ١٢٠ ؟) : ٣٢ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ،
 ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١٢٠ ،
 ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٤٤ ،
 ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،
 ١٦١ ، ١٧٨ ، ١٩٩ ، ٢١٦ ،
 ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٥١ ، ٤٤٥ ،

(ث)

- ثالس : ٤١ .
 ثراسى ، إيليس بيتيس الفيلسوف الرواقى ،
 وعضو مجلس الشيوخ (؟ - ٦٦) :
 ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٧٣ ، ٤٢٥ ،
 ٤٥٢ .
 ثربى : ٩٢ .
 ثسيوس : ٢٨٤ .
 ثيوفراسطس الفيلسوف اليونانى (؟ -
 ٢٨٧ ق.م) : ١٩٠ ، ١٩٣ .
 ثيوثيلا : ٣١٨ .
 ثيوقريطس : ٥٤ .

(ج)

- جالس ، إيليس ، القائد (القرن الأول
 الميلادى) : ٢٤٨ .
 جالينوس : ٢٤٢ ، ٣٢٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ .
 جايوس : ٤٣ ، ٤٥ .
 جايوس ، قيصر جرميكوس : ١١٦ انظر
 أيضاً كلجيولا .
 جايوس المشرع : ٣٦١ ، ٣٧٠ .
 جين ، إدورد ، المؤرخ الإنجليزى (١٧٣٧ -
 ١٧٩٤) : ٣٠٤ ، ٣٢٤ .
 جراكس ، الأخوان المصلحان : ٢١٠ .
 جرچنتوا ، وپنتجروول : ١٩٦ .
 جرمنكوس قيصر القائد (١٥ م -
 ١٩ م) : ١١ ، ٣٣ ، ١٠١ ،
 ١٠٢ ، ١١٤ ، ١٢٢ ، ١٥٦ .
 جرنا ، نهر : ٤٣٥ .
 جروسيا : ٣٠٧ .
 چستنيان الأكبر ، فلافيوس أنيسيسوس
 چستنيان'س الإمبراطور البيزنطى
 (٤٨٣ - ٥٦٥) : ٣٦١ ،
 ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٣٧٥ ، ٣٩٤ .

- تشوسق : ٤٣٤ .
 تلس ، الأم الأرض : ٣٧٢ .
 تلفوس : ٢٨٤ .
 تم چونز : ١٦٩ .
 توماكس البيزنطى المصور (القرن الأول
 ق.م) : ٢٨٥ .
 توى : ٤٦ ، ٩٢ ، ٩٣ .
 تندارس : ٧٤ .
 التير ، نهر : ١١٧ ، ١٣٢ ، ١٤٤ ،
 ٢٥٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٩٦ ،
 تيلس ، أليوس الشاعر (٥٤ - ١٩ ق.م)
 ٤٩ ، ٥٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٣٠٨ .
 تيبور : مدينة : ٨٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٧ .
 تيبيريوس كلاديوس نيرون. قيصر الإمبراطور
 (٤٢ ق.م - ٣٧ م) : ١٩ ،
 ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ،
 ٧٧ ، ٩٧ - ١٠٦ ، ١٠٧ ،
 ١١٤ ، ١٢٧ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ،
 ٢١٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
 ٢٦٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧٧ ، ٢٩٣ ،
 ٣١٩ ، ٣٤٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤ .
 تيتس ، فلافيوس ساپينس فسپازيانس
 الإمبراطور الرومانى : (٤٠ - ٨١) ،
 ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،
 ٢٦٤ ، ٢٧٨ ، ٢٩٣ ، ٣٢٨ ،
 ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٤١٣ .
 تينس ، حمامات : ١٥٥ ، ٢٩٦ .
 تيتس ، قوس : ٢٧٣ ، ٤٠٠ .
 تيشولى : ٤١٦ .
 التيمز ، نهر إنجلترا : ٤٥٣ .
 التين ، » » : ٤٠٩ .
 تين ، هبوليت أدلف ، المؤرخ والناسق
 الفرنسى (١٨٢٨ - ١٨٩٣) :
 ٨٢ .

(د)

- دارس : ٣٤٢ .
 داشيا : ١٥٦ ، ٢١٥ ، ٢٣٤ ، ٣٩٥ ،
 ٣٩٨ ، ٤٠٤ ، ٤٢٢ .
 الداشيون : ١٥٦ .
 دائي : ٦٨ .
 الدانوب ، نهز : ١٥٦ ، ٢٣١ ، ٣٩٥ ،
 ٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٣١ ، ٤٣٦ ،
 ٤٣٧ ، ٤٥٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ .
 دروزلا ، أخت كلجيولا (٩ - ٣٨) :
 ١٠٩ .
 دروسس قيصر ابن تيبيريوس (٩ - ٢٣)
 ١٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٧٧ ، ٩٨ ،
 ١٠٦ ، ١١٤ .
 دسپالس ، ملك داشيا (القرن الأول
 الميلادي) ١٥٦ ، ٣٩٥ .
 دفنس النحوي الرقيق (القرن الأول ق.م)
 ٢٤٢ .
 دقلديانوس ، كيوس أورليونس فليربوس
 دقلديانوس چو قنوس الإمبراطور
 (٢٤٥ - ٣١٣) : ٢٩٦ ،
 ٣٢٨ ، ٤٢٧ .
 دليا : ٨٥ .
 دميريوس : ١٧١ .
 دمشق : ٢١١ ، ٣٩٧ .
 ده كلمنتيا (الرحمة) رسائل سنكا : ١٢٦ .
 دوميتيا زوجة دوميتيان : ١٥٨ .
 دوميتيان ، تيتس فلافيوس دوميتيانس أغسطس
 الإمبراطور الروماني (٥١ - ٩٦) :
 ٥١ ، ١٤٧ ، ١٥٣ - ١٦٠ ،
 ١٩٤ ، ٢٠٣ ، ٢١٢ ، ٢٥٤ ،
 ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ،
 ٣٢١ ، ٣٥٧ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠ ،
 ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٦ .
 دومس فلاشيا ، قصر دوميتيان : ١٥٥ .
 دومس ثرستوريا (قصر المرور) : ١٢٦ .
 (٣٤ - ج ٢ - مجلد ٣)

٢٨٨ ، ٤٠٢ .

جلدا : ٢٠٦ .

جلاتيا : ٢٠ .

جلبا ، سرفيوس سليسيوس جلبا ، الإمبراطور
 (٣٠٦ - ٣٦٩ م) : ١٤١ ،
 ١٤٣ ، ١٤٥ ، ٢١٩ ، ٤٤٠ .

جلسيرا : ٧٤ .

جليكون الاثني المثل في رومة (القرن الأول
 ق.م) ٢٧٤ .

جليو : انظر لوفاتس جنيدى : ٤١٣ .
 جوبتر ، انظر أيضا جوف : ١١٢ ، ١٤٩ ،
 ١٥٢ ، ١٥٥ ، ٢٧٧ ، ٣٥٣ .

جوبتر ، هيكل : ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

چور بورك : ١٧٦ .

چوثنال ، دشس يونيوس چوثنالس ، الشاعر
 الهجاء (حوالي ٦٠ - ١٤٠) :

٥٠ ، ١٦١ ، ١٩٩ ، ٢١٠ ،
 ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ،
 ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٥ ،
 ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٣ ، ٣٥٣ ،
 ٣٥٥ ، ٣٨١ ، ٤٣٨ ، ٤٤٣ ،
 ٤٤٦ - ٤٤٩ ، ٤٥١ .

جيتيه ، ولفجانج فن ، الفيلسوف الألماني
 (١٧٤٩ - ١٨٣٢) : ٢٨٦ .

جيروم ، القديس ، هيرونيوس ، سفرونيوس
 يوريوس ، من آباء الكنيسة اللاتينية
 (٣٤٠ - ٤٢٠) : ٣٦١ .

جيل بلاس : ١٦٩ .

(ح)

الحوليات الليثي : ٤٤٠ .

(خ)

خفرع ملك مصر : ٢٧٧ .

خليج سلواي : ٤٠٩ .

رميولوس : ٢٩٥ .
 روبنز ، بئرپول المصور الفلمنكى
 (١٥٧٧ - ١٦٤٠) : ٢٨٦
 الروتليون : ٦٢ .
 رودس : ٢٣٢ ، ٣١٣ ، ٣٥٤ ، ٤١٠
 روسو ، جان جاك ، الفيلسوف الفرنسى
 (١٧١٢ - ١٧٧٨) : ١٧٩ ،
 ٣١٠ ، ٤٥٢ .
 روسيا : ٢٢٤ ، ٤٦٨ .
 روما الإلهة : ٣٥٤ ، ٤١٦ .
 الرومان : ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٦٢ ،
 ٨٢ ، ٩٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٣٣ ،
 ١٧١ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ،
 ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ،
 ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ،
 ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢ ، ٢٦٣ ،
 ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٩٠ ،
 ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ،
 ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ،
 ٣٢١ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٥١ ،
 ٣٥٤ ، ٣٧٨ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ،
 ٤٠٠ ، ٤٠٩ ، ٤١٦ ، ٤٣٤ ،
 ٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٩ ، ٤٦٥ ،
 رومة : ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٣ ، ١٦ ،
 ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ،
 ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٤ ،
 ٣٥ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ،
 ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
 ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٠ ،
 ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
 ٧١ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦ ،
 ٨٧ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٨ ،
 ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،
 ١٠٩ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٥ ،

الدويدات لأوثد : ٩١ .
 ديانا : ٣٥٤ .
 ديانيرا : ٢٨٤ .
 ديجيتس الفيلسوف الرواقى (القرن الثانى)
 ٤٢٥ .
 ديدالس ، المصور : ٢٨٢ ، ٢٩٢ .
 ديدو : ٦١ ، ٦٤ ، ٩١ ، ١٢١ .
 ديلوس : ٢٣٤ .
 الديناريوس ، الدينار فقد رومانى من الفضة
 ٢٣٥ .
 ديودور الصقل : ٥١ .
 ديوكاسيوس ، ديون كاسيوس كوسيانوس
 مؤرخ رومة البيشنى (١٥٥ - ٢٠٤ ؟)
 ٨ ، ٢٣ ، ١٠٣ ، ١١١ ، ١١٣ ،
 ١٢١ ، ١٥٤ ، ٤٥٦ .
 ديوكريستوم الخطيب ، وعالم البيان فى عهد
 تراچان : ٣٩٢ ، ٣٩٣ .
 ديونيشس : ٢٨٣ .
 ديونيشيوس : ٥١ .

(ر)

راسين ، جان باپتست ، الكاتب المسرحى
 الفرنسى ، (١٧٣٩ - ١٦٩٩)
 ١٧٦ ، ٣٩٩ .
 رافنا : ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٣٩٦ .
 رجيلس : ٤٤٧ .
 رجيوم : ٣٣٣ .
 رستارا : ٧٤ .
 رستكس ، كونتيس يونيوس الفيلسوف
 الرواقى (القرن الثانى) : ٤٢٥ .
 رسيوس جلس ، كونتس الممثل الهزلى
 (؟ - ٦٢ ق م) : ٣٣٤ .
 رمبرانت ، فان ريچن رمبرانت هارتزون
 المصور الهولندى (١٦٠٦ -
 ١٦٦٩) : ٢٧٦ .

الرين : ١٩ ، ١٥٩ ، ٤٠٩ ، ٤٣٤ ،

٤٥٣ .

رينان : ٤٢٤ .

(ز)

زفودورس المثال اليوناني (القرن الأول) :

٢٥٨ .

زولاد إميل الكاتب الروائي الفرنسي

(١٧٤٠ - ١٩٠٢) : ٣٩٩ .

زينون الفيلسوف الروائي اليوناني (٣٣٦ -

٢٦٤ ق. م) : ١٧٩ ، ٢٦٧ ،

٤١٧ .

زيوس الإله : ٢٨٣ ، ٤١١ (انظر أيضا

جوبيتر) .

زيوس الجديد (هديان) : ٤١٣ .

زيوس دلوكي : ٣٥٧ .

زفوكسيس المصور اليوناني : (٤٣٠ ق. م)

٢٨٠ .

(س)

سابفو : ٧٤ ، ٩١ .

سابينا : ٤١٢ ، ٤٥٧ .

الساتريكون : تأليف برونسيوس : ١٦٥ -

١٦٩ .

سترنيس : ١٢٨

سالت : كيوس سالسيوس كرسيس ،

المؤرخ (٨٦ - ٥٣ ق. م) ،

٤٤٤ ، ٤٩ .

ساموساتا : ٢١٦ .

سپتموس سفيرس : ٢٣٥ ، ٢٤٧ .

سپيو : ٤٢٢ .

سرايس ، هيكل : ١٥٥ .

سربرس : ٣٥٥ .

سردينية ، جزيرة : ١٣٤ .

١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤١ ،

١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ،

١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،

١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،

١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ،

١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ،

٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،

٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ،

٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ،

٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٩ ،

٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،

٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ،

٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ ،

٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ،

٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،

٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ،

٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،

٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،

٣٤٨ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ،

٣٧٤ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ،

٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ،

٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ ،

٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ،

٤٠٨ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ،

٤١٤ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٤ ،

٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ،

٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ،

٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ،

٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ،

٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٥ ،

٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ .

ريتي : ١٤٦ ، ١٥٠ .

ريتيا : ١٩ ، ٤٣١ .

ريشيا : ٢٠ .

ريمس : ٢٢٠ .

سترال بارك بنينورك : ٢٢٢ .
 سنكا الأب والد سنكا الفيلسوف : ١٦٣ ، ٣١٦ ، ٣٣٧ .
 سنكا الفيلسوف : ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٦١ ، ١٤٩ ، ١٧٠ ، ١٧٤ - ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٧ ، ٢٥٠ ، ٣١٠ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٣٦ ، ٣٥١ ، ٣٩٢ ، ٤٤٢ ، ٤٤٩ .
 سوتنيوس ترنكوبلس ، كيويس المؤرخ (٧٠ ؟ - ١٢١) : ٩ ، ١٤ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٩ ، ٢٧٦ ، ٤٠٤ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥ .
 سوتيس ، شركة : ٢٣٧ .
 سوتيون : ١٧٤ .
 سوريا : ١٩٠ ، ٢١١ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٤٢٠ ، ٤٣٠ ، ٤٣٦ .
 سيبيل الإلهة : ٦٢ ، ١٢٨ ، ٢٩٤ .
 سيجانيس لوسيوس إيليوس سيجانيس رئيس الحرس البريتوري (؟ - ٣١ م) : ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٤٦٧ .
 سيلان : ٣٨٨ .

(ش)

شاربيس المرسل الطبيب في رومة (القرن الأول) : ١٩٧ .
 الشرق الأدنى : ٨٧ .
 شلى ، بيرسى بش شلى الشاعر الإنجليزي (١٧٩٢ - ١٨٢٢) : ١٩٢ .
 شيشرون ماركس تليوس الخطيب الروماني

سرفيوس تليوس : ٢٥٤ .
 السرماتيون : ٤٣٥ ، ٤٣٧ .
 سمرزجتوسا : ٣٩٥ ، ٤٣٤ .
 سرتقم : ٢١٧ .
 سريز ، نهر : ١١٨ .
 سركس : ٤١٠ .
 سترس ، نقد روماني من الفضة أو النحاس : ٢٣٥ .
 سقيرس ، فلافيوس فاليريوس الإمبراطور (؟ - ٣٥٧) : ٤٢٥ .
 سقيرس المهندس الروماني (القرن الأول) : ٢٦٤ .
 سكستس إمبي : ٢٣ .
 سكستس القيرناني : الفيلسوف الرواق اليوناني (القرن الثاني) : ٤٢٥ .
 سكستس ، يوليوس فرنطينس المهندس الروماني (القرن الأول) : ١٢٨ - ٢٢٩ .
 سكوبا : ٤٢٤ .
 سلايك : ٢٢٠ .
 سليشيا : ٣١٨ .
 سطر المهندس الروماني (القرن الأول) : ٢٦٤ .
 سلس ، قائد تراجان : ١٦١ ، ١٨٧ ، ٤٠٤ .
 سلفا ، قصيدة : ٢٠٣ .
 سلفيوس يوليائس : ٣٠٦ .
 سلوقية : ٤٣٠ .
 سلمو : ٨٧ .
 سلينس : ٢٨٤ ، ٤٠٢ .
 ساليي ، بنقنوتو ، الفنان الإيطالي (١٥٠٠ - ١٥٧١) : ٢٨٤ .
 ستمسلا : ٣٩٦ .
 سنشيا : ٨٧ .
 سنسيوس ، قانون : ٣٨٠ .
 سناتر يملكيس : ١٦٦ .

(غ)

غالة : ١٩ ، ٢١٥ ، ٢٢٤ ، ٢٣٤ ، ٢٧١ ، ٤٠٩ ، ٤٣١ .
 غالة الإيطالية أو الجنوبية : ٨٣ ، ٥٤ .
 غالة البلجيكية : ٤٣٨ .
 غالة التريونية : ١٧ .
 غاليسيا : ٤٢٧ .
 الغاليون : ٢٦٢ ، ٢٥٤ .
 غريقوليس ، انظر هديان .

(ف)

فابيا : ٩١ .
 فايوس بكتور ، كيوس المصور : ٣٥٠ .
 ف . م . : ٢٨٠ .
 فايوس ، أسرة : ٣٠٤ .
 الفاتيكان : ٢٧٤ ، ٢٧٦ .
 فارس : ٨ ، ٢١٩ .
 فارو : ٥٧ ، ١٨٧ ، ٢٣٧ .
 فاروس : ٢٠ .
 فاسي ، قصيدة لأوفيد : ٩٢ .
 فافوديس ، الغالي الفيلسوف في بلاط هديان
 (القرن الثاني) : ٤٠٦ .
 فالريوس مكسمس المؤرخ (القرن الأول) :
 ٢٨٠ .

فان ديك ، سير أنطوني المصور الفلمنكي
 (١٥٩٩ - ١٦٤١) : ٢٨٦ .
 فانيا ، زوجة - هلفديوس برسكس ،
 (القرن الأول) : ٣١٩ ، ٤٥٢ .
 فاوون ، المعتقد ، (القرن الأول) :
 ١٤٢ ، ١٤١ .
 فيسانيا أجريتنا : ٤٤ ، ٩٨ .
 فيكس سندرئوس : ٢٥٨ .
 فيكس فيريوس : ٢٥٨ .

(١٠٦ - ٤٣ ق . م) : ٨ ،

٤٤ ، ٩٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٢٠ ،

٢٢٣ ، ٢٨٩ ، ٣١٣ ، ٣٥١ ،

٣٥٩ ، ٣٨٦ ، ٤٥٠ .

شيكسبير : ٦٤ ، ١٧٦ .

(ص)

الصحراء الكبرى : ١٨ .
 صقلية ، الجزيرة : ١٧ ، ١٩٠ ، ٨٧ ، ٥١ ،
 ٢٢٤ ، ٢٣١ ، ٢٥١ ، ٤١٧ .
 صلا : ٣٥٩ ، ٤٩٩ .
 صور : ٢٣٢ ، ٢٣٧ .
 صيدا : ٢٣٢ ، ٢٦٩ .
 الصين : ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(ط)

طرابزون : ٤٤٠ .
 طرسوس : ٢٣٢ .
 طرقونه ، مدينة .
 طروادة : ٦١ ، ١٣٢ .
 طشقونة : ٤٣٠ .

(ع)

العاصي ، نهر : ٣٠٨ .
 عدن : ٢٠٤ .
 المدارى الشقية .
 العرب : ٢٢٤ ، ٢٤٨ .
 العرب ، بلاد : ١٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،
 ٤٠٠ .
 عصر الزيت في إنجلترا : ٩٥ .
 عمود الرضاع : ٣٠٤ .
 العمل في الأرض ، تأليف ثورجيل : ٥٧ .
 عوبيه ، جزيرة : ١٩٠ .

٢٩٤ ، ٢٧٧ ، ٢٩٤ ، ٣٠٧ ،
 ٣١٣ ، ٣٧٠ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣ ،
 فكونيا ، قانون : ٣٧٥ .
 فلافيوس إرسس ، صديق استاتيوس ،
 القرن الأول : ٢٤٤ .
 فلافيوس كليمز ابن أخى دوميتيان (٩٥-٩٠) :
 ١٥٨ .
 فلامنيوس : ٢٥٤ .
 فلبي : ٢٩٤ .
 فلتير : فرنسواسارى أرويه ده ، الأديب
 الفرنسى (١٦٩٤ - ١٧٧٨) :
 ٣٤ ، ٦٨ ، ١٧٩ .
 فلوير : ٦٥ .
 فلوجاسيز الثالث ملك پارثيا (القرن الثانى) :
 ٤٢٩ .
 فلورا ، (نخيد) : ٣٤١ .
 فليسون ملند ، العالم الإنجليزى فى الأدب
 القديم (١٥٥٢ - ١٦٣٧) :
 ٤٥٥ .
 فليريا مسالينا زوجة كلوديوس : ١٢٠ .
 فليريوس ، أسرة : ٣٠٤ .
 الفينال : ٢٥٧ .
 فنديو : ٤٣٧ .
 فنوزيا : ٦٩ .
 فوستس ، شجيرة : ١١٧ ، ٣٩٦ .
 فوستينا أم أنطونينس : ٤٣٣ .
 فوستينا زوجة أنطونينس : ٤٢٠ ، ٤٢٧ ،
 ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٥٧ .
 فوفيا كانيئا ، قانون : ٢٧ ، ٣٧٢ .
 فوكونيا ، قانون : ٣٢ .
 فوي : ٢٦٤ .
 فويس أيلو : ١٣٥ .
 فيتليوس ، أولوس فيتليوس جرمينكوس ،
 الإمبراطور الرومانى (١٥ - ٦٩) :
 ١١٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٩ .

فيكس لورادريوس : ٢٥٨ .
 فيروفيوس بليو ، ماركس ، المهندس ،
 (القرن الأول) : ٢٦١ ، ٢٩٠ ،
 فدياس ، المثال اليونانى : ٢٥٠ ، ٣٩٩ ،
 ٤٥٧ .
 فديوس بليو ، صديق أغسطس (٩ -
 ١٥ ق.م) : ٣٣١ .
 الفرات ، نهر : ١٨ ، ٤٠٤ .
 الفراعة : ١٠٩ .
 فرتونا (الخط) الإلهة : ٣٥٤ ، ٤٢٣ ،
 فرجيل ، بليوس فرجيليوس مارو الشاعر
 (٧٠ - ١٩ ق.م) : ٣٣ ،
 ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٨ ، ٦٩ ،
 ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ١٨٥ .
 ٣٤١ ، ٤٥٣ .
 فرجنسيوس روفس الحاكم والوصى على بلى
 الأصغر (١٤ - ٩٧) : ٤٥٠ .
 الفردوس المفقود للثن : ٦٨ .
 فرساليا ، ملحمة لوكان : ١٦٤ .
 فرساي : ٢٦٤ .
 فرنو ، ماركس كرفليوس عالم البيان
 (١١٠ ق - ١١٨٠) : ١٧٧ ،
 ٢٠١ ، ٤٠٨ ، ٤٢٥ ، ٤٣٣ ،
 ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦٠ .
 فرنسا : ٣٨٨ ، ٥١ .
 فيروجوتارد : ٢٧٨ .
 فرونا : ٣٩٦ ، ٤٣١ .
 فسارى ، جيورجيور الفنان ، وكاتب
 السير الإيطالى (١٥١١ - ١٥٧٤) :
 ٢٧٤ .
 فسپازيان ، تيتس : فلافيوس ساينس
 فسپازيانس الإمبراطور الرومانى (٩ -
 ٧٩) : ١١٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،
 ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٩٥ ،
 ١٩٩ ، ٢١٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ،

٢٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ،
٤١ ، ٤٦ ، ٦١ ، ٩١ ، ١١٦ ،
١١٩ ، ١٥٦ ، ١٧٧ ، ٢١٠ ،
٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٣٣ ،
٢٣٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،
٢٦٨ ، ٢٧٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٨ ،
٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٩ ،
٤٠٤ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٣٦ ،
٤٦٩ .

(ك)

كانوس ، الموسيقى (القرن الأول) : ٣٣٩
كاپرى : ١٠٦ .
كاپوا : ٢١٦ ، ٢٦٨ .
كاتلس : ٣٤ .
كاتو : ٥٧ ، ٢٠١ ، ٤٢٥ .
كثينس ، عشيقه فسبازيان (القرن الأول) :
١٥٠ .
كارون البحارى الأسطورى : ٣٥٠ ،
٣٥٥ .
كاستروبلكس : ١١٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥
كاسينا پيتس : ٣١٩ .
كاسيوس كئيريا ضابط الحرس البريتورى :
١١٢ .
كاسيوس لنچينس العالم القانونى : ١٣٩ .
كالتس : ١١٧ .
كالوملا : ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٠٣ ، ٢٧٨
الكپتول : ٢٥٥ ، ٢٩٣ ، ٣٥٣
كپدوكيا : ٤١٠ ، ٤١٢ .
الكتسبائى : ٤٣٤ .
كرارا : ٢٩١ .
كراسن : ١٨ ، ٢١١ .
كربولا : ١١٧ ، ١٢٧ .
كركتكپوس : ١١٩ .
كر كلا : ٢٣٦ ، ٢٢٨ .

خيتون : ٩٢ .
خيشاغورس : ٧٢ ، ٢٦٢ .
خيدرا : ٩١ .
خيزوف ، بركان : ١٥٢ ، ١٨١ ، ٢٧٦ ،
خيشيا زمرجة هديران : ٤٠٣ .
فيلس : ٧٤ .
فيلمون : ٩٢ .
فيلو : ٤٢٣ .
فيتا : ٢٢٠ .
فينوس ، الزهرة : ٩٢ .
خينيقية : ٦١ .

(ق)

قادس : ٨٤ .
القادى ، قبائل : ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ .
قانون بوليا : ٤٤ .
قانون الأحوال الشخصية : ٣٦٦ - ٣٧٣ .
قانون الملكية : ٣٧٤ - ٣٧٧ .
قانون المرافعات : ٣٧٨ - ٣٨٤ .
قانون الأمم : ٣٨٥ - ٣٨٨ .
قبرص : ١٧ ، ١٩٠ ، ٢٥١ .
قرطبة : ١٦٣ ، ٤٢٤ .
قرطاجنة : ٦١ ، ٢٢٥ ، ٢٣٨ ، ٤١١
قسطنطة (انظر توى) .
قسطنطين : ٢٣٦ ، ٢٧٥ ، ٣٢٨ ، ٤٢٧
القسطنطينية : ٣٨٨ .
قليقية : ٤٠٢ .
قناريا أو الخالدات ، جزائر : ١٨٨ .
القوانين البوليائية : ٢٩ - ٣٢ .
القوانين اليولبوسية : ٥٢ .
قورينة : ١٧ ، ٢٣١ ، ٤٠١ .
القوقاز : ٢٣٢ ، ٤٦٨ .
قيصر ، كيوس يوليوس ، القائد ،
والسياسى ، والمؤرخ الرومانى
(١٠٠ - ٤٤ ق.م) : ٨ ، ٩ .

كلشن فكتوريا (تل النصر) : ٢٥٧ .
كليندر ، العبد المحرر رئيس الحرس.
الپريتورى فى عهد كودس (٤ -
١٩٠) : ٤٦٧ .

الكلى ، تمائل : ٢٧٨ .
كليوطره : ٥٧ ، ٢٣٣ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ .
كنادوس : ٢٥ .
كپانيا : ٤٥ ، ١٠٦ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ،
٢٥٢ ، ٢٦٧ .
كچينى : ٢١٦ .

كودس ، أورليوس كودس الإمبراطور
الرومانى : (١٦١ - ١٩٢) ،
٢١٩ ، ٢٣٥ ، ٣٥٧ ، ٣٦٨ ،
٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٧٠ .

كنديا : ٧٤ .
كوبك : ٣٨٨ .
كوبنهاجن : ٢٧٦ ، ٢٧٧ .
كوبكيا ، بحيرة : ١٥٠ .
كورسكا : ١٧٥ ، ١٧٦ .
كورفا : ٨٨ ، ٩٠ .

كورنثة : ٢٣٨ .
كورنلبوس روفس ، صديق پلئ الأصغر :
(؟ - ٦٦ ؟) : ١١٤ .
كورنى ، پير الكاتب المسرحى الفرنسى
(١٦٠٦ - ١٦٨٤) : ١٧٦ .
٣٩٩ .

الكورينال ، تل : ٢٠٥٠ .
كوريو ، كيوس اسكرينيوس القائد
(؟ - ٤٩ ق . م) : ٢٩٨ .

كوس ، جزيرة : ٢٣٢ .
كولبس ، كرستفر المستكشف الجنوى :
(١٤٦ ؟ - ١٥٠٦) : ١٨٨ ،
٢٤٤ ، ٢٣٣ .
كولوفى : ٢٢٠ ، ٢٩٢ .
كوم : ٣١٤ ، ٣٩٧ .

كرميتوس كوردس : ١٧٤ .
كرمون : ١٢٥ .
كرمونا : ٥٣ ، ١٤٤ .
كرنلس سكندس عالم البيان (القرن الأول)
١١١ .

كرنليا : قانون : ١٩٥ .
كرنليوس ، أسو : ٣٠٤ .
كرنليوس بليس : ٢٩٧ .
كريت : ١٧ .

كلاجوريس : ١٩٩ .
كليرنيا زوجة پلئ الأصغر : ٤٥٢ .
كليرنيوس پيزوكيوس . المتأمر : ١٣٨ .
كلجيولا ، قيصر چرمنكوس كلجيولا إمبراطور
الرومان : (١٠٧ - ١١٣) : ١١٤ ،
١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ،
١٥٩ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ٢٦٣ ،
٣٣٨ ، ٣٥٣ ، ٤٤٠ .

الكلى : ٤٠٠ .
كلو : ٧٤ .

كلوديا زوجة أغسطس : ٤٢ .
كلوديا اكى عشيقه ثرون : ٥٢ ، ١٢٩ .
كلوديوس الأول ، تيبيريوس كلوديوس قيصر
أغسطس چرمنكوس ، الإمبراطور
الرومانى (١٠ ق . م - ٥٤ م)
١٧ ، ٩٨ ، ١١٤ - ١٢٤ ،
١٢٧ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٧٤ -
١٧٥ ، ١٩٦ ، ٢١٦ ، ٢٢٥ ،
٢٤٧ ، ٢٧٧ ، ٣٠٤ ، ٣١٩ ،
٣٥٦ ، ٣٩٦ ، ٤٤٠ .

الكلوسيوم : ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٥ ،
٢٦٤ ، ٢٧٧ ، ٢٩٨ ، ٣٤٤ .
كلوملا ، لوسيوس يونيوس مدراتس
الكاتب فى الزراعة (القرن الأول)
٢٠٩ .

لابلج : ٧٤ .
 اللاؤكون : ٢٦٤ .
 لبدس : ٣٤ .
 لبنان : ٢٣٢ .
 لترنوم : ٢٦٩ .
 لتورفيوم : ٣١٨ .
 لتوفيوم : ٤٢١ .
 لخدنوم : ١١٤ .
 لزيث : ٨٦ .
 لكريتس ، بحيرة : ٢٣ .
 لكريشيا : ٢٠٧ .
 لكريشيوس ، كاروس تيتس ، الشاعر :
 (٩٩ ؟ - ٥٥ ق.م) ٣٤ ، ٦٤ ،
 ٦٧ ، ٩٥ ، ١٨٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ .
 اللبارد : ٤٣٤ .
 لوبيا : ٤٠١ .
 لوريولس اللص : ٣٤٧ .
 لورنم : ٢٦٢ .
 لوزتانيا (الرتغال) : ١٢٩ ، ٥٩٢ .
 لوسلا ابنة ماركس أورليوس وزوجة
 لوسيوس فيرس (القرن الثاني) :
 ٤٢٧ .
 لوسلا أخت ماركس أورليوس (القرن الثاني) :
 ٤٢٦ ، ٤٦٧ .
 لوسليوس ، كيوس الهجاء : (١٨٠ -
 ١٠٣ ق.م) ٧١ ، ١٨٣ ، ٤٤٧ .
 لوسليوس الأصغر ، الحاكم والأبيقورى
 (القرن الأول) : ١٧٩ .
 لوسنيوس سورا ، لوسيوس لوسنيوس
 سورا من الأشراف فى القرنين الأول
 والثانى : ٣٩٢ .
 لوسيان ، المؤلف الهجاء اليونانى (١٢٠ ؟
 - ٢٠٠) لوسيوس بن أجريا :
 ٤٣ ، ٤٥ ، ١٧١ ، ٧٩ .
 لوسيوس أورليوس ، لوسيوس سيونيوس

كومو : ٢١٦ ، ٤٥٠ .
 كومى أو كومة : ٦٢ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .
 كونتس استراتيوس الطيب : ١٩٦ .
 كونتس بديوس المصور (القرن الأول) : ٢٨٠ .
 كونتس بينوس موسيوس اسكافولا القنصل
 ٥٥ ق.م : ٣٥٩ .
 كونتس فيلو : ٣١٧ .
 كونتس موسيوس العالم فى القانون (القرنين
 الأول والثانى ق.م) : ٣٥٩ .
 كونتس موسيوس اسكافولا القنصل
 (١١٧) : ٣٥٩ .
 كونتس هورشيوس فلاكس أو هوراس :
 ٦٨ ، ٦٩ - ٨٠ انظر أيضاً هوراس
 كونتليان ، ماركس فايوس كونتليانس عالم
 البيان (٤٠ - ١١٨) ، ١٧٠ ،
 ١٧٦ ، ١٨٦ ، ١٩٩ - ٢٠٢ ،
 ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢٨٩ ، ٣١١ ،
 ٣٣٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ .
 كويتس ، كونتس لوسيوس قائد تراجان
 (؟ - ١١٨) : ٤٠٠ .
 كيليا مكريتنا صاحب الملايين (القرن الثاني) :
 ٣٩٧ .
 كيليوس إتيانس الوصى على هديران (آخر
 القرن الأول) : ٤٠٣ .
 كيويدي : ٢٨٥ .
 كيوس پترونيوس : ١٢٨ ، ١٦٥ .
 كيوس سليوس زوج مسالينا : ١٢١ .
 كيوس موسيوس اسكافولا البطل (القرن
 السادس ق.م) ٣٤٧ .

(ل)

لاتيوم : ٦٣ ، ٦٣ ، ٢٦٢ ، ٤٤٦ .
 اللازيكى ، قبائل : ٤٣١ .
 لافينيا : ٦٢ .

ليثى ، تيتس ليفيوس المؤرخ (٥٩ ،
ق . م - ١٧ م) : ٨١ -
٨٤ ، ٤٤٠ .
ليثيا والدة تيبيريوس وثلاثة أزواج أغسطس .
(القرن الأول ق.م ، والقرن الأول
بعده) : ٢٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ١٠٣ ،
١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ٢٧٢ ،
ليثيا أرسلا زوج كلجيولا (القرن الأول
الميلادى) : ١٠٩ .
ليثيا ، قصر : ٢٧٦ .
ليثورغ المشتري الاسبارطى (القرن التاسع
ق.م) : ٣٥ .
ليوس كنتلوس الثرى : ٢٤٠ .
ليوكارس الأثينى المثال (القرن الرابع) ق.م :
٢٧٤ .
ليون ، مدينة : ٥٠ ، ١١٨ ، ٢٢٠ ،
٢٣٨ .
ليوناردو دا فنشى الفنان الإيطالى (١٤٥٢ -
١٥١٩) : ٤٧ ، ٢٩٠ .
مارتيك ، ماركس فاليريوس مارتيسالس .
الكاتب اللاتينى (٢٤ - ١٠٤) :
٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،
١٦١ ، ١٩٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ،
٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٥٧ ، ٣٠٧ ،
٣١٨ ، ٣٢٨ ، ٣٤٨ ، ٣٧٣ ،
٤٥٣ .
مارسياس : ١٦٧ .
مارسيوس ليثيانوس تربو قائد تراچان :
٤٠١ .
ماركس أتو ، ماركس سلفيوس أتو الإمبراطور
الرومانى (٣٢ - ٦٩) : ١٤٣
ماركس إسكورس إميلبيوس القائد والحاكم
(القرن الأول ق.م) : ٢٤٢ .

كودس فيرس الإمبراطور الرومانى :
(١٢٧ - ١٦٩) : ٤٢٧ ، ٤٢٨ ،
٤٢٩ ، ٤٣٣ .
لوسبيوس إيلوس فيرس : ٤١٨ .
لوسبيوس فراثيوس ، مالك العبيد (القرن
الثانى) : ٢٨٣ .
لوسبيوس فيرس متبئى هديران : ٤١٧ .
لوسبيوس (نبرون) : ١٢٥ .
لوسبيوس قائد أورليوس : ٤٣٠ ، ٤٣٢ .
اللوقيون : ٤١٧ .
لوкас : ٢٥٤ .
لوكان ، ماركس إنيوس لوكانس ، الشاعر
(٢٩ - ٦٥) : ١٣٩ ، ١٦١ ،
١٦٣ ، ٢١٠ ، ٣٩٢ ، ٤٤٢ .
لوكانا : ٢١٥ .
لوкас ، بوسنيوس ليسنيوس القائد ؟ -
٥٧ ق . م) : ١٠٦ ، ١٢١ ،
٢١٦ ، ٢٥٨ .
لوكلس ، حدائق : ٢٨٣ .
لوليا ابنة أغسطس : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ،
لوليا زوجة كلجيولا : ١٢٢ .
لوليا پولينا : ١٠٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،
٣٢٤ .
لوليوم : ٢٥٥ .
لونا : ٢٩١ .
لويس الرابع عشر ملك فرنسا (١٦٣٨ -
١٧١٥) : ٩٥ .
ليثس رئيس الحرس البريتورى فى عهد
كودس : ٤٦٨ .
ليدن : ٢٢٠ .
ليديا ، امرأة : ٧٤ .
ليس : ٧٤ .
ليسيا : ٢٠ .
ليسيكوس : ٣١٦ .
ليفلا ، ابنة أنطونيا وزوجة دروسس
(؟ - ٣١ م) : ١٠٦ ، ١١٤ .

المصريون : ١١٧ .
 المركاني : ٢٦٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ .
 مرهين : ٢٦٩ ، ٢٧٠ .
 المريخ : ٢٧١ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨ .
 المريخ ، ميدان : ١٨٧ ، ٣٠١ ، ٣٥٧ .
 مسالا ، ماركس فاليريوس كرفينيوس
 القائد (القرن الأول ق . م) :
 ٢٥ ، ٤٩ ، ٨٥ .
 مسالينا : ١٢٢ ، ١٧٦ .
 المسيح : ٣٦ ، ٥٣ .
 مسيلوم : ٢٥٧ .
 مسينا : ٢٣٢ ، ٤٠٠ .
 مصر : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ٤٩ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ،
 ١٨٧ ، ١٩٧ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،
 ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ،
 ٢٤٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ ، ٣٠٥ ،
 ٣٥٦ ، ٤٠١ ، ٤٢٣ ، ٤٣١ ،
 ٤٤٦ ، ٤٣٦ .
 مقدونية : ٨ ، ١٧ .
 مكسمس تيبيريوس الفيلسوف اليوناني
 (القرن الثاني) : ٤٢٦ .
 مكسمس وفيبيو ، مصرف مال : ٢٣٧ .
 ملكس شركة : ٢٣٧ .
 ملونيا : ٣١٩ .
 ممن ، كرستيان مانثياس ثيودور ، المؤرخ
 الألماني (١٨١٧ - ١٩٠٣) :
 ١٠٦ .
 ممنوس : ١٦٧ .
 من أسس الدولة لليث : ٨١ .
 من أسس المدينة لليث : ٨٤ .
 متاني ، ميشيل يوكوم دد الفيلسوف والأديب
 الفرنسي (١٥٢٣ - ١٥٩٢) :
 ١٧٩ ، ١٨٥ ، ٤٥١ .
 متوا : ٥٣ .

ماركس أنطونيوس ، القائد الشهير : ١٠٢ ،
 ٤٦٢ .
 ماركس أنيس فيرس : ٤١٧ .
 ماركس سلانس : ١٢٣ .
 ماركس قثرونيوس ييو المهندس (القرن
 الأول ق . م) : ٢٨٩ .
 ماركس ليدس : ٣٤١ .
 ماركواردت ، يواقيم عالم الآثار الألماني
 (١٨١٢ - ١٨٨٢) : ٣٠٤ .
 ماريوس ، كيوس ، القائد والقنصل
 (١٥٧ - ١٨٦) : ٣٥٥ ،
 ٣٦٦ .
 ماريوس پرسكس حاكم إفريقية (القرنين
 الأول والثاني) : ٤٥٣ .
 ماسيناس ، كيوس سلبوس ، السياسي
 (؟ - ٨ ق . م) : ١٤ ، ٢٢ ،
 ٣٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٩ ، ٧١ ،
 ٧٢ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ١٣٦ .
 مانليوس تركواتس : ٤٩ .
 ماثروناكس الفيلسوف (القرن الأول) :
 ١٧٨ .
 ميرا : ٣٥٧ .
 مترادس : ٢٧٠ .
 مثراس ، الإله : ١٣٥ .
 الحجر : ٣٨٨ .
 المحيط الأطلنطي : ١٨ ، ٨٤ ، ٢٢٤ .
 المحيط الهندي : ٢٢٤ ، ٤٠٠ .
 المختارات الفرجيل : ٥٤ .
 مديره ، جزيرة : ١٨٨ .
 مراثون ، واقعة مراثون (٤٩٠ ق . م) .
 ٤٥٧ .
 مرتال : ٧٤ .
 مرسلس : ٢٢ ، ٤٣ ، ٦٠ ، ٢٩٧ .
 مرسلينا : ٤٥ ، ٢٢٥ .

نارسس ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٣ .
 نانسى : ٢٣٣ .
 ناي كارلزيج جلبتوذك : ٢٧٦ .
 ناي ، بلدة : ٣١٨ .
 نجريتش ، فان تراجان : ٤١٤ .
 نقولاس پوسن ، المصور الفرنسى (١٥٩٤ -
 ١٦٦٥) : ٢٨٣ .
 نقوميديا : ٤١٠ .
 نوركم : ٢٠ ، ٤٣١ .
 نوسيز : ٩٢٥ .
 نوفايا (الطريق الجديد) : ٢٥٧ .
 نولا : ٤٧ .
 نوتمن : ٢٠٥ .
 نيهير ، بارتلد جورج ، المؤرخ والعالم
 اللغوى الألمانى : (١٧٧٦ - ١٨٣١)
 . ٣٦١ .
 نيهيون : ٣٢٢ .
 نيرفا ، ماركس كوسيوس نيرفا الإمبراطور
 الرومانى (٢٢ - ٩٨) : ٢٨٥ ،
 ٣٢٠ ، ٣٨٩ - ٣٩١ ، ٤٣٨ ،
 ٤٣٩ .
 نيرفا ، رأس الإمبراطور فى متحف
 الفاتيكان : ٤٥٧ .
 نيرون (نيروكلوديوس قيصر دروسن
 چرمنكوس واسمه الأصل لوسيوس
 رومنيوس أهينو باريس) الإمبراطور
 الرومانى (٣٧ - ٦٨) : ١٢٤ ،
 ١٢٥ - ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ،
 ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،
 ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ،
 ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٥ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،
 ٢٥٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،
 ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٠ ، ٣٠٢ .

منثورنى : ٢١٦ .
 منستر : ١٢٠ .
 منسيو : ٥٣ .
 المنوتور : ٢٨٤ .
 منيرفا : ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٩٤ ، ٢٩٣ .
 موئيزيا ، ولاية : ١٥٦ .
 مرتينا : ٢١٧ .
 مورتانيا : ١١٤ ، ٤٠١ ، ٤١٠ .
 موزيا : ٢٠ .
 موسنيوس روفس الفيلسوف الرواقى (القرن
 الأول) : ١٣٩ ، ١٧٣ .
 موسيانس ، ليسوس القائد والمؤرخ (القرن
 الأول) : ١٩١ .
 مولاتيوس : ٤٩ .
 ميديا : ٩٢ ، ٢٨٣ ، ٤٠٠ .
 ميديا مسرحية لأوثلد : ٨٩ .
 ميديا مسرحية لسنكا : ١٨٦ .
 ميرو : ٢٥٤ .
 ميرون : ٢٥٠ .
 ميزونيا ، زوجة كلجيولا الرابعة (؟ -
 ٤١ م) : ١٠٩ .
 ميسيم : ١٠٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ .
 ميكل أنجلو ، لورنارقي الفنان الإيطالى :
 (١٤٧٥ - ١٥٦٤) : ٢٩٠ ،
 ٤٥٨ .
 ميليتس : ٢٣٢ .
 ميتر : ١٥٦ ، ٢٢٠ .

(ن)

نابل (متحف) : ٥٤ ، ٢٠٤ ، ٢٢٣ ،
 ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٥ ،
 ٤٠٦ .

هكتوز : ٦١ .
 هلفديوس پرسكس الفيلسوف الرواق
 (القرن الأول) : ١٣٣ ، ١٣٩ ،
 ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٣١٩ ، ٤٢٥ .
 هلمى ، إيريل أستاذ الطب الألماني (١٧٧٢ -
 ١٨٣٧) : ١٩١ .
 هليكونس : ٥١ .
 الهند : ٢٢٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٤٠٠ ،
 ٤٠١ .
 هنيبال : ٤٣٢ .
 هوان دى امبراطور الصين (القرن الثاني) :
 ٢٣٣ .
 هوراس : ٣٣ ، ٤٩ ، ٨٠ ، ٢٤٧ .
 هورثميوس : ١٠ .
 هومر شاعر اليونان الكبير : ٦٥ ، ٦٧ ،
 ٦٨ ، ٤٥٣ .
 هيرا : ٤١١ .
 هيرپوليس : ٣٥٧ .
 هيرو : ٩١ .

(و)

وتو ، جان انطوان المصور الفرنسي
 (١٦٨٤ - ١٧٢١) : ٢٧٨ .
 ونكلمان چوهان يواقيم عالم الآثار ومؤرخ
 الفن الألماني (١٧١٧ - ١٧٦٨) :
 ٢٧٤ .
 وول استريت : ٢٥٥ .

(ى)

يانوس ، الإله : ٢٩٣ .
 يانوس ، هيكل : ٦ ، ١٤٥ .
 يتكا : ٧٠ ، ٢٢٤ ، ٤١١ .
 اليزرجيون : ٤٣٥ .

٣٠٣ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ،
 ٣٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٧١ ،
 ٤١١ ، ٤٥٨ .
 نيرون ، حمامات نيرون : ٢٩٦ .
 نيرون ابن أجريينا الكبرى اشتهر في القرن
 الأول الميلادى : ١٩٣ ، ١٠٥ .
 نيقية : ٤١٠ .
 نيمز : ٢٩٢ ، ٤٢٠ .
 نيمى : ٢٧٩ .
 نيويورك ، متحف : ٢٧٨ .

(هـ)

هائى رود ، جاسپر ، المترجم الإنجليزي
 لسنكا (١٥٣٥ - ١٥٩٨) :
 ١٧٦ .
 هيودامس ، الميليطي المهندس الممارى
 اليونانى (حوالى القرن الخامس
 الميلادى) : ٢٨٩ .
 هپوليتس : ٨٩ .
 هرسينيا ، جبال : ٤٣٥ .
 هديران ، پيليوس إيليسوس هديرانس ،
 الإمبراطور الرومانى (٧٦ - ١٣٨) :
 ٢٣ ، ٥١ ، ٢١٧ ، ٢٦٣ ،
 ٢٧٧ ، ٣٠٠ ، ٣١٤ ، ٣٦٠ ،
 ٣٦١ ، ٣٦٨ ، ٣٩١ ، ٤٠٣ ،
 - ٢ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ،
 ٤٢٨ .
 هرقل : ٢٥ ، ١٣٢ ، ١٤٦ .
 هرقل الفرنيزى ، تمثال : ٢٧٤ .
 هركليوليم : ٢٨٥ .
 هرمس : ٢٨٢ .
 هزيود : ٥٧ .
 هفستس : ٢٨٥ .

يوليا ابنة جرمنكوس (القرن الأول

الميلادى) : ١٧٤ .

يوليوس فتركس الحاكم القالى لمدينة ايون :

. ١٤١

اليونان : ٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٧٣ ،

٧٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٢٣٣ ، ١٤١ ،

١٨٧ ، ١٩٤ ، ٢١١ ، ٢٢١ ،

٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٠ ،

٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ،

٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٥ ،

٣٠٧ ، ٣١٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤١ ،

٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٤٠٨ ، ٤٣١ ،

٤٣٤ ، ٤٤٨ ، ٤٥٧ .

يونو الإلهة : ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ،

٢٧٤ ، ٢٩٣ .

يفراتيس . الفيلسوف الرواقى : ٤١٨ .

اليهود : ٣٥ .

يهوة : ٣٥٧ .

يورپديز الكاتب المزحى اليونانى

(٤٨٠ - ٤٠٦ ق . م) : ٩٥

يورديس : ٩٢ .

يوسفوس ، فلافيوس المؤرخ اليهودى

(٣٧ - ؟) : ٢٢٢ .

يوكبيوم ، الرقيق : ٢٤٤ .

يوليا ابنة أغسطس (؟ - ١٤ م) : ٢٤ .

٤١ - ٤٧ ، ٥٢ ، ٩٣ ، ٩٧ ،

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

يوليا حفيدة أغسطس (القرن الرابع بعد

الميلاد) : ٤٧ ، ٥٢ .

الفهرس

الكتاب الثالث - الزعامة

الموضوع	الصفحة
جدول مسلسل	٣

الباب الحادى عشر : مواهب أغسطس السياسية

الفصل الأول : فى الطريق إلى الملكية	٦
الفصل الثانى : النظام الجديد	١٤
الفصل الثالث : عهد الرخاء	٢١
الفصل الرابع : إصلاحات أغسطس	٢٧
الفصل الخامس : أغسطس نفسه	٣٧
الفصل السادس : آخر أيام أغسطس	٤٢

الباب الثانى عشر : العصر الذهبى

الفصل الأول : الخافر الأعظمى	٤٨
الفصل الثانى : فرجيل	٥٣
الفصل الثالث : الإنياذة	٦٠
الفصل الرابع : هوراس	٦٩
الفصل الخامس : لى	٨١
الفصل السادس : ثورة العاشقين	٨٥

الباب الثالث عشر : الجانب الآخر من الملكية

الفصل الأول : تيبيريوس	٩٧
الفصل الثانى : جايوس	١٠٧
الفصل الثالث : كلوديوس	١١٤
الفصل الرابع : نيرون	١٢٥
الفصل الخامس : الأباطرة الثلاثة	١٤٣

الموضوع	الصفحة
الفصل السادس : فسبازيان	١٤٥
الفصل السابع : تيتس	١٥١
الفصل الثامن : دومتيان	١٥٣

الباب الرابع عشر : العصر الفضي

الفصل الأول : المولعون بالفنون	١٦١
الفصل الثاني : برونوس	١٦٥
الفصل الثالث : الفلاسفة	١٧٠
الفصل الرابع : سنكا	١٧٤
الفصل الخامس : علوم الرومان	١٨٦
الفصل السادس : الطب عند الرومان	١٩٤
الفصل السابع : كونتليان	١٩٩
الفصل الثامن : استاتيوس ومارتيال	٢٠٣

الباب الخامس عشر : رومة العاملة

الفصل الأول : الزراعة	٢٠٩
الفصل الثاني : الصناعات	٢١٤
الفصل الثالث : الحمالون	٢١٩
الفصل الرابع : المهندسون	٢٢٥
الفصل الخامس : التجار	٢٣٠
الفصل السادس : رجال المال	٢٣٥
الفصل السابع : الطبقات	٢٣٩
الفصل الثامن : النظام الاقتصادي والدولة	٢٤٨

الباب السادس عشر : رومة وفنونها

الفصل الأول : ما تدين به لليوفان	٢٥٠
الفصل الثاني : رومة الكادحة	٢٥٢
الفصل الثالث : بيوت العظماء	٢٦٠
الفصل الرابع : الفنون والنقوش	٢٦٦
الفصل الخامس : النحت	٢٧٠
الفصل السادس : التصوير	٢٨٠
الفصل السابع : العمارة	٢٨٨
١ - أصولها ، موادها ، أشكالها	٢٨٨

الموضوع	الصفحة
٢ - هياكل رومة	٢٩٢
٣ - التحول الفجائي إلى الطراز المقوس	٢٩٥

الباب السابع عشر : وومة الأبيقورية

الفصل الأول : الشعب	٣٠٢
الفصل الثاني : التلميم	٣١٠
الفصل الثالث : الرجال والنساء	٣١٥
الفصل الرابع : الثياب	٣٢١
الفصل الخامس : يوم في حياة روماني	٣٢٦
الفصل السادس : يوم عطلة روماني	٣٣٣
١ - المسرح	٣٣٣
١ - الموسيقى الرومانية	٣٣٦
٣ - الألعاب	٣٤١
الفصل السابع : العقائد الجديدة	٣٥٣

الباب الثامن عشر : القانون الروماني

الفصل الأول : المشترعون العظام	٣٥٨
الفصل الثاني : مصادر القانون	٣٦٢
الفصل الثالث : قانون الأحوال الشخصية	٣٦٦
الفصل الرابع : قانون الملكية	٣٧٤
الفصل الخامس : قانون المرافعات	٣٧٨
الفصل السادس : قانون الأمم	٣٨٥

الباب التاسع عشر : الملوك الفلاسفة

الفصل الأول : فيرفا	٣٨٧
الفصل الثاني : تراچان	٣٩٢
الفصل الثالث : هدریان	
١ - الحاكم	
٢ - الجوال	
٣ - البناء	
الفصل الرابع : انطونينس پيوس	٤٢٠
الفصل الخامس : الميوسوف إمبراطور	٤٢٤

الموضوع

الصفحة

الباب العشرون : الحياة والفكر في القرن الثا

[illegible]

فهرس الأشكال والصور

شكل ١	الربيع ، نقش جدارى من استانية	في أول الكتاب
» ٢	أغسطس الشاب	أمام صفحة ٣٦
» ٣	أغسطس الإمبراطور	» ٤٨
» ٤	فسبازيان	» ١٤٦
» ٥	نقش بارز من قوس تيتس	» ٢٦٦
» ٦	مزهريه پورتلاند	» ٢٧٠
» ٧	نقش من مذبح السلام	» ٢٩٢
» ٨	الكلوسيوم	» ٢٤٢
» ٩	داخل الكلوسيوم	» ٢٤٦
» ١٠	الإمبراطورية الرومانية في عهد تراچان	» ٣٩٢
» ١١	أنتيوس	» ٤١٢
» ١٢	« كليتي »	» ٤٣٦
» ١٣ ، ١٤	نقشان جداريان	» ٤٤٨